
مارغريت ميتشل
رواية
مكتبة بغداد
الجزء الثاني
ذهب مع الريح
المركز الثقافي العربي

مارغريت ميتشل

ذهب مع الرّيح

رواية

الجزء الثاني

ترجمة:

أحمد زكي العرابي فؤاد ترزي





الكتاب

ذهب مع الرّيح

تأليف

مارغريت ميتشل

ترجمة

أحمد زكي العرابي وفؤاد ترزي

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-825-1

الناشران

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مكتبة تنمية

القاهرة ـ مصر

19 شارع هدى شعراوي من شارع

طلعت حرب - وسط البلد - القاهرة

محمول: 00201004367744

هاتف: 23926249 / 00202

Email: khaled_tanmia@hotmail.com

Facebook: tanmiabookstore

القسم الرابع

31

بعد ظهر يوم بارد من يناير عام 1866، جلست سكارلت في المكتب تكتب رسالة إلى العمة بيتي، توضح فيها بالتفصيل، وللمرة العاشرة، سبب عدم تمكنها هي وميلاني وآشلي من العودة إلى أتلانتا للعيش معها. كانت تكتب بملل لأنها كانت تعرف أن العمة بيتي لن تقرأ أكثر من السطور الأولى، ثم تعاود الكتابة مجدداً: «ولكنني أخاف العيش وحدي».

كانت يداها مبتردتين، فتوقفت هنيهة لتفركهما معاً، ولتدخل قدميها أكثر داخل قطعة اللحاف القديم التي لفّتها حولهما. وكان نعلا خفَّيها قد بليا فعُززا بقطع من السجاد، ولكنها لم تنجح في تدفئتهما إلا قليلاً.

وكان ويل قد ساق الحصان إلى جونسبورو في ذلك الصباح لحذوه، وفكرت سكارلت باكتئاب في أن الظروف كانت حرجة حقاً حيث تنعم الخيول بأحذية لأقدامها بينما تظل أقدام الناس حافية كأقدام كلاب البيت.

وتناولت ريشتها لتستأنف الكتابة، ولكنها ما عتمت أن وضعتها عندما سمعت وقع ساق ويل الخشبية، في القاعة خارج المكتب، ثم توقف عن السير، فانتظرت هنيهة كي يدخل، ولكنها ما لبثت أن نادته عندما لم يحرك ساكناً.

دخل ويل وأذناه محمرتان من البرد، وشعره الأحمر مائل إلى جانب رأسه، ثم وقف ينظر إليها، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة طربة.

- «آنسة سكارلت» سأل، «كم تملكين من النقود تماماً؟».

- «هل ستحاول التزوج بي من أجل نقودي يا ويل؟» سألته ببعض النزق.

- «لا يا سيدة، ولكني أريد معرفة المبلغ فقط».

فحملقت به مستوضحة. ولم يكن ويل يبدو قلقاً، غير أنه لم يكن قد بدا قلقاً هذه الأيام، ومع ذلك، فقد أحست أن أمراً سيئاً قد وقع.

- «إني أملك عشرة دولارات ذهبية» قالت، «وهي آخر ما تبقى من نقود ذلك الشمالي».

- «حسناً يا سيدة... إن ذلك لن يكفي».

- «يكفي لماذا؟».

- «يكفي للضرائب» أجاب، وخطا متعثراً نحو الموقد، ثم انحنى ماداً يديه الحمراوين فوق اللهيب.

- «ضرائب؟» كررت، «يا للّه يا ويل، لقد دفعنا الضرائب مؤخراً».

- «أجل ولكنهم يقولون إنك لم تدفعي مبلغاً كافياً، لقد سمعت ذلك اليوم، هناك في جونسبورو».

- «بيد أني يا ويل لم أستطع فهم الذي تقصده».

- «آنسة سكارلت، إني حتماً أمقت أن أضايقك بمتاعب أخرى في الوقت الذي تحملين فيه نصيبك منها، ولكن من واجبي أن أخبرك على كل حال. إنهم يقولون إن عليك دفع الضرائب أكثر جداً مما دفعت، وإنني واثق بأنهم رفعوا المبلغ المفروض على تارا عالياً حتى السماء، أعلى من أي مبلغ فرضوه في المقاطعة».

- «ولكنهم لن يستطيعوا إرغامنا على دفع ضرائب أكثر في حين أننا قد دفعنا مؤخراً».

- «آنسة سكارلت، إنك لم تذهبي إلى جونسبورو أبداً، وإني سعيد بذلك، فهي مكان لا يليق بالسيدات هذه الأيام، ولكنك إذا ما ترددت عليها كثيراً، فستعرفين أن هناك زمرة باغية عاتية من الجمهوريين الجنوبيين والسكالاواغز[1] والكاربت بكرز[2] الذين استلموا زمام الأمور حديثاً، والذين ستودي بك أعمالهم إلى الجنون الصارخ. ثم هناك أيضاً الزنوج الذين يدفعون البيض عن أرصفة الطرقات و. . .».

- «ولكن ما علاقة ذلك بضرائبنا؟».

- «سأصل إلى هذه النقطة يا آنسة سكارلت. لقد بالغ هؤلاء الأوغاد، لسبب ما، في تخمين الضرائب على تارا، حتى إنك لتظنين أنها مزرعة تنتج ألف بالة قطن سنوياً. وبعد أن سمعت ذلك، رحت أتسكع حول الحانات أسترق السمع، فاكتشفت أن أحد الناس يريد شراء تارا بثمن بخس في المزاد الذي يقيمه مأمور التنفيذ، وذلك في حال عدم تمكنك من دفع الضرائب الإضافية. والجميع يعرفون تمام المعرفة أنك لن تستطيعي دفعها. ولم أعرف حتى الآن من هو الذي يريد هذا المكان، إذ لم أستطع معرفة ذلك، غير أني أعتقد أن ذلك الرجل الخسيس هيلتون، الذي تزوج الآنسة كاثلين، يعرف الحقيقة، فقد ضحك ضحكة زرية عندما حاولت استنطاقه».

وجلس ويل على الكنبة، وفرك ساقه المبتورة التي كانت تؤلمه

---

(1) فريق من الجمهوريين الجنوبيين - (المترجمان).

(2) حملة الأكياس الشمالية: وهم الانتهازيون الشماليون الذين هرعوا إلى الجنوب بعد استسلامه كي يستفيدوا من ظروفه الحرجة - (المترجمان).

خلال الطقس البارد، والتي كان وتدها الخشبي غير مريح ورديء البطانة، أما سكارلت فقد نظرت إليه بانفعال. لقد كانت لهجته طبيعية جداً بينما كان يقرع ناقوس موت تارا. . . أتُباع في مزاد المأمور؟ وأين سيذهبون جميعاً؟. . . وتارا يمتلكها إنسان آخر؟ لا. . . إن ذلك لا يمكن التفكير فيه.

كانت سكارلت منهمكة جداً في مهمة جعل تارا تعود إلى إنتاجها بحيث إنها لم تعبأ إلا قليلاً بما كان يدور في العالم الخارجي، فالآن وقد منَّ اللّه عليها بويل وآشلي ليقوما بأي أمر لها في جونسبورو وفايتفيل، لم تكن تغادر المزرعة إلا نادراً. وكما كانت تصغي بأذنين صماوين لأحاديث والدها عن الحرب في الأيام التي سبقت وقوع الحرب، هكذا تماماً كانت لا تعير إلا قليلاً من الانتباه مناقشات ويل وآشلي حول المائدة بعد العشاء، تلك المناقشات التي كانت تدور عن بداية إعادة بناء الجنوب.

ها! كانت طبعاً قد علمت بأمر السكالاواغز - أولئك الجنوبيين الذين انقلبوا إلى جمهوريين بدافع الربح الوفير - كما علمت بأمر الكاربت بكرز - أولئك الشماليين الذين انقضّوا على الجنوب بعد الاستسلام كالبزاة، وقد حمل كل منهم جميع ما ملكت يمينه في كيس واحد. وكانت قد عانت بعض التجارب المكدرة على يد هيئة التحرير، وكان قد بلغها أيضاً أن بعض الزنوج المحررين كانوا ينقلبون إلى زنوج وقحين تماماً، الأمر الذي كادت لا تصدقه لأنها لم تكن قد رأت طوال حياتها زنجياً وقحاً.

ولكن كانت ثمة أمور كثيرة تآمر ويل وآشلي على حجبها عنها. . . ذلك أن محنة الحرب كانت قد تلتها محنة أشد هولاً، محنة إعادة البناء. غير أن الرجلين كانا قد اتفقا على أن لا يذكرا شيئاً من

التفاصيل المثيرة خلال أحاديثهما في البيت. وعندما كانت سكارلت تتكلف عناء الإصغاء إليهم، كان معظم الذي تسمعه يدخل من إحدى أذنيها ليخرج من الأخرى.

كانت قد سمعت آشلي يقول إن الجنوب كان يعامل كمقاطعة محتلة، وإن سلاح الانتقام كان السياسة المسيطرة لدى المحتلين، غير أن تلك العبارة لم تكن تعني شيئاً البتّة بالنسبة إلى سكارلت، فالسياسة كانت من شؤون الرجال. وكذلك كانت قد سمعت ويل يقول إن الأمر يبدو لي كأن الشمال لا يهدف إلى جعل الجنوب يقف على قدميه ثانية. حسناً، فكرت سكارلت، لا بد للرجال دائماً من أن يكون لديهم شيء يقلقون من أجله. أما بالنسبة إليها، فكل ما كان يهمها هو أن الشماليين لم يسحقوها في الماضي، وأنهم لن يفعلوا ذلك في الوقت الحاضر، وأن ما ينبغي عمله الآن هو أن تكدح كشيطان، وتكف عن القلق من ناحية حكومة الشماليين، فلقد انتهت الحرب على كل حال.

ولم تدرك سكارلت أن جميع قوانين الحياة قد تغيرت، وأن العمل الشريف لم يعد يكسب جزاءه العادل، لقد كانت جورجيا الآن تحت الحكم العسكري فعلاً، وكان الجنود الشماليون يعسكرون في أنحاء الإقليم، وكان القائمون على هيئة التحرير يتقلدون زمام جميع الأمور ويسنّون القوانين لتلائم مصالحهم.

كانت هذه الهيئة التي نظمت من قِبل الحكومة الشمالية الاتحادية لتعتني بالعبيد المحررين، الخاملين المستفزين، تسحب هؤلاء العبيد بالألوف من المزارع إلى القرى والمدن، وتقوم بتغذيتهم وهم عاطلون، وأثناء ذلك كانت تحشو وتسمّم عقولهم ضد ملّاكهم السابقين. وكان جوناس ويلكرسون، ناظر جيرالد القديم، مسؤولاً عن فرع الهيئة المحلي، وكان هيلتون، زوج كاثلين كالفرت مساعداً له، هذان الرجلان نشرا بكل ما أوتيا من قوة، شائعة أن الديمقراطيين والجنوبيين

يتربصون الفرصة المواتية لإعادة الزنوج إلى العبودية، وأن أمل الزنوج الوحيد في تحاشي هذا المصير هو الحماية الممنوحة لهم من قبل هيئة التحرير والحزب الجمهوري.

وأكثر من ذلك، لقد أخبر ويلكرسون وهيلتون الزنوج أنهم على مستوى واحد مع البيض في جميع النواحي، وأنه سرعان ما سيسمح بتزاوج الفئتين، وسرعان ما ستوزع عليهم أملاك أسيادهم السابقين وأن كل زنجي سيعطى أربعين فداناً وبغلاً، ملكاً خاصاً له، وهكذا أبقيا الزنوج في حالة هياج، بما كان يشيعان من أقاصيص القسوة التي يقترفها البيض، فبدأ الشك والبغض ينموان في إقليم كان قد اشتهر منذ زمن بحسن العلاقات السائدة فيه بين العبيد وملّاكهم.

كان الجنود الشماليون يدعمون هيئة التحرير، وكان العسكريون قد أصدروا أوامر عديدة ومتضاربة للتحكم بتصرف الشعب المغلوب. وكان من السهل إلقاء القبض على أي إنسان حتى بسبب زجر موظفي هيئة التحرير، كما كانت قد أذيعت أوامر عسكرية تتعلق بشؤون المدارس وحفظ الصحة وأنواع الأزرار التي ينبغي وضعها على البزز، وبيع السلع وجميع المرافق الأخرى تقريباً. وكان ويلكرسون وهيلتون يتمتعان بسلطة التدخل بأي تجارة يمكن أن تقوم بها سكارلت، وبسلطة فرض الأسعار التي يريانها مناسبة، على أي شيء كانت تبيعه أو تقايض به.

ولحسن حظها أنها لم تصطدم بكلا الرجلين إلا قليلاً جداً، لأن ويل كان قد أقنعها بأن تدعه يتسلم أمور التجارة، بينما تنصرف هي إلى إدارة المزرعة، وقد استطاع ويل بفضل أسلوبه اللين أن يذلل كثيراً من الصعوبات التي من هذا النوع، دون أن يخبر سكارلت بشيء عنها. كان في وسعه تدبير الأمور مع الكاربت بكرز والجنود الشماليين إذا ما اضطر إلى ذلك. غير أن المشكلة التي برزت الآن كانت أكبر مما

يستطيع تدبيره، وكان لا بد من إطلاع سكارلت، وإطلاعها فوراً، على أمر الضريبة الإضافية المفروضة وعلى خطر خسران تارا.

ونظرت إليه بعينين وامضتين، وصاحت:

- «آه، لعن اللّه الشماليين. ألم يكفهم أن هزمونا وأفقرونا، فجاؤوا اليوم يطلقون علينا أولئك اللئام؟».

لقد انتهت الحرب، وأُعلن السلم، ومع ذلك ما زال في وسع الشماليين نهبها، ما زال في وسعهم تجويعها، ما زالفي وسعهم طردها من البيت. لقد كانت حمقاء عندما فكرت خلال الشهور المضنية أنه إذا استطاعت المقاومة حتى الربيع، فإن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد كان هذا النبأ الساحق الذي جاء به ويل، بعد عام من العمل القاصم للظهر، والأمل الموعود، الضربة الأخيرة.

- «آه يا ويل، ولقد فكرت أن متاعبنا قد انتهت جميعها بانتهاء الحرب!».

- «لا يا سيدة» رفع وجهه الريفي الطويل، ورمقها بنظرة طويلة ثابتة، «إن متاعبنا قد ابتدأت الآن».

- «كم تبلغ الضرائب التي يريدون أن ندفعها».

- «ثلاثمئة دولار».

فأبكمتها الصدمة هنيهة... ثلاثمئة دولار! لو كانت ثلاثة ملايين دولار لكان الأمر نفسه.

- «ماذا!» قالت ملتعثمة، «أجل... أجل! إذن علينا أن نحصل على ثلاثمئة دولار... بطريقة ما».

- «نعم يا سيدة، وعلى قوس قزح وقمر أو قمرين».

- «آه، ولكن يا ويل! لن يسعهم بيع تارا... كيف...».

فظهر في عينيه الهادئتين من الكراهية والمرارة أكثر مما اعتقدته ممكناً.

- «لن يسعهم؟ بلى يسعهم ذلك، وسيفعلونه، وسيشوقهم إتيانه! آنسة سكارلت إن البلاد تسير سريعاً إلى الجحيم، إذا ما سمحت لي بهذا القول، فهؤلاء الكاربت بكرز والسكالاواغز يحق لهم التصويت بينما لا يحق ذلك لمعظمنا نحن الديمقراطيين. . . لا يحق التصويت لديمقراطي في هذه الولاية إذا كان يملك في سجلات الضرائب أكثر من ألفي دولار بالنقود الجديدة، وهذا يعني حرمان الناس كوالدك والسيد تارلتون وآل ماك ريز وأبناء فونتين. ولا يحق التصويت لشخص كان برتبة كولونيل أو أعلى في الحرب، وأنا أراهن يا آنسة سكارلت أن كولونيلات هذه الولاية أكثر من أية ولاية أخرى من ولايات الحلف. ولا يحق التصويت لشخص كان موظفاً في حكومة الحلف، وهذا يحرم الجميع، من كتّاب العدل حتى القضاة، وقد امتلأت الغابات بأمثال هؤلاء. والحقيقة هي أن الطريقة التي صاغ بها الشماليون عهد الأمان ذاك، لا تمكن أي شخص ممن كان لهم أي مقام قبل الحرب من التصويت أبداً، لا الناس الأذكياء ولا الوجهاء ولا الأغنياء. هوه! إن في وسعي التصويت إذا ما أخذت على نفسي عهدهم اللعين، فأنا لا أملك أي نقود جديدة، وأنا قطعاً لم أكن كولونيلاً ولا أي شخص مرموق، ولكني لن آخذ على نفسي ذلك العهد. . . لا، ليس في مشهد حافل! لو تصرف الشماليون تصرفاً سليماً لأقسمت لهم يمين الولاء، ولكن لن أفعل ذلك الآن، ففي وسعي أن أعود إلى الاتحاد كما كان ولكني لا أقبل أن يعاد بنائي فيه. لن أقسم بالولاء لهم حتى لو لم أصوت طوال حياتي. ولكن إنساناً تافهاً كهيلتون ذاك، يستطيع أن يصوت، لئام كجوناس ويلكرسون، وبيض حقيرون كآل سلاتري، وأناس لا قيمة لهم كآل ماكنتوش، أولئك هم الذين يديرون الأمور الآن، والذين في وسعهم إذا شاؤوا أن يجيئوك عشرات المرات في طلب ضرائب إضافية، تماماً كما يسع

زنجياً أن يقتل رجلاً أبيض دون أن يعدم أو. . . » وصمت هنيهة وهو يشعر بالضيق، وحضرت قي ذهنيهما ذكرى ما حدث لامرأة بيضاء كانت وحدها في مزرعة منعزلة في لافجوي.

- «إن في وسع هؤلاء الزنوج ارتكاب أي شيء ضدنا، وسيحميهم الجنود وهيئة التحرير بالبنادق، بينما لا نستطيع نحن التصويت أو إتيان أي عمل بهذا الخصوص».

- «التصويت!» صاحت، «التصويت! أي علاقة للتصويت بكل هذه الأمور يا ويل؟ إن ما نتحدث عنه هو الضرائب. . . ويل، كل إنسان يعرف أي مزرعة خصيبة هي تارا، ففي وسعنا رهنها مقابل مبلغ كافٍ لدفع الضرائب إذا ما اضطررنا إلى ذلك».

- «آنسة سكارلت، أنت لست غبية أبداً، ولكنك أحياناً تتحدثين كغبية. من ذا الذي يملك نقوداً ليقرضك مقابل هذه المزرعة؟ من سوى الشماليين الذين يحاولون انتزاع تارا منك؟ وكل إنسان يملك أرضاً، وجميع الملاكين فقراء. وليس في وسعك أن تهبي الأرض وهباً».

- «إني أملك قرطَي اللؤلؤ اللذين انتزعتهما من ذلك الشمالي، إن في وسعنا بيعهما».

- «يا آنسة سكارلت، من الذي يملك نقوداً لشراء الأقراط في كل هذه الأنحاء؟ إن الناس لا يملكون المال لشراء أردأ اللحم. دعي هذه الحلي البراقة وشأنها. إني أقسم لو كنت تملكين عشرة دولارات ذهباً، لكان ذلك أكثر مما في حوزة معظم الناس».

وخيَّم الصمت عليهما ثانية، وأحست سكارلت كما لو كانت تدق رأسها على جدار حجري. . . لقد كان هناك في هذه السنة الأخيرة، العديد من الجدران الحجرية لدق الرؤوس عليها.

- «ماذا سنفعل يا آنسة سكارلت؟».

- «لا أدري» قالت بفتور، وشعرت أنها لم تأبه للأمر. لقد كان

هذا أحد الجدران الحجرية الكثيرة جداً، ولذلك أحست فجأة بتعب شديد آلم عظامها. لماذا عليها أن تعمل وتكافح وتفني نفسها حين كان يبدو في نهاية كل كفاح، أن الهزيمة تنتظر لتسخر منها؟!

- «لا أدري» قالت، «ولكن لا تدع بابا يعرف بالأمر، فقد يزعجه ذلك».

- «لن أدعه يعرف».

- «هل أخبرت أحداً؟».

- «لا، أتيت رأساً إليك».

أجل، فكرت، الجميع دوماً يأتون رأساً إليها بالأنباء السيئة، ولقد تعبت من كل هذا:

- «أين هو السيد ويلكس، لعله يستطيع اقتراح شيء ما».

فالتفت ويل إليها بنظرته الوادعة، وأحست كما أحست منذ اليوم الأول لعودة آشلي، أن ويل كان يعرف كل شيء.

- «إنه هناك في البستان، يقطع الخشب. لقد سمعت فأسه وأنا أربط الفرس، بيد أنه لا يملك من النقود أكثر مما نملك».

- «إن في وسعي التحدث إليه في هذا الموضوع، أليس كذلك؟» ووثبت واقفة، ثم رفست قطعة اللحاف عن كاحليها.

غير أن ويل لم يبالِ، بل استمر يفرك يديه أمام النار: «من الأفضل أن تتلفحي بشالك يا آنسة سكارلت، فالجو بارد في الخارج».

ولكن سكارلت ذهبت من دون الشال، لأن هذا كان في الطابق العلوي، ولأن حاجتها إلى رؤية آشلي وإلقاء متاعبها أمامه، كانت ملحّة جداً بحيث لم تدعها تتريث.

ما أسعد حظها إن هي وجدته وحيداً! منذ عودته لم تنفرد وإياه بحديث خاص ولو مرة واحدة. لقد كانت العائلة تحتشد حوله دائماً، وكانت ميلاني تظل بجانبه أبداً، تلمس زنده بين الفينة والأخرى،

لتطمئن نفسها بأنه كان حقاً موجوداً إزاءها. وكان منظر تلك العملية المشعرة بالملكية قد أيقظ في نفس سكارلت كل الكراهية الحاقدة التي كانت قد نامت خلال الشهور التي كانت تفكر فيها باحتمال كون آشلي ميتاً، ولقد صمّمت الآن على أن تراه وحيداً، إذ لن يمنعها أحد هذه المرة من الحديث إليه على انفراد.

* * *

مشت عبر البستان تحت الأغصان العارية، وكانت الحشائش الرطبة التي تحتها تبلل قدميها. واستطاعت سماع صوت الفأس تقرع بينما كان آشلي يقطّع الكتل الخشبية المجرورة من الهور إلى قضبان. كانت عملية إقامة حواجز خشبية جديدة بدلاً من تلك التي أحرقها الشماليون مغتبطين، مهمة شاقة طويلة الأمد. ولقد كان كل شيء مهمة شاقة طويلة الأمد، فكرت سكارلت وهي خائرة القوى. ولقد كانت هي تعبة من هذه المهمات، تعبة وبرمة وسقيمة منها كلها. حبذا لو أن آشلي كان زوجها، بدلاً من أن يكون زوج ميلاني، إذن لما كان أعذب من أن تذهب إليه وتضع رأسها على كتفيه وتبكي، وتنقل أعباءها إلى كاهله ليقوم بها على أحسن وجه يستطيعه.

ودارت حول أيكة من أشجار الرمان التي كانت تهز أغصانها العارية في الريح الباردة، ورأت آشلي منحنياً فوق فأسه، يمسح جبينه بظهر يده، كان يرتدي بقايا سروال بني اللون من صنع محلي، وقميصاً من قمصان جيرالد، قميصاً كان في أوقات أفضل من هذه يُرتدى أمام المحاكمات وحفلات الباربكيو، قميصاً ذا كشاكش، قصيراً جداً بالنسبة إلى مالكه الجديد. وكان آشلي قد علق معطفه على غصن شجرة، لأن عمله كان يبعث الحرارة، وعندما بلغته وقف طلباً للراحة.

خفق قلب سكارلت في موجة دافقة من الحب والغضب على هذا المصير، وهي ترى آشلي في خرقة بالية، والفأس في يده، ولم تستطع

احتمال رؤيته في هذا الثوب البالي يشتغل في الحقل، إنه آشليها، الرقيق الطاهر، إن يديه لم تخلقا للعمل، وإن جلده لم يخلق لأي شيء سوى قماش الجوخ والكتان الجيد. لقد أراده اللّه ليجلس في بيت عظيم ويتحدث إلى أناس ظرفاء، ويعزف على البيانو، ويكتب الأشياء التي كان سماعها يبدو جميلاً ولكنها لم تكن لتحمل معنى أبداً.

كان في وسعها احتمال رؤية ابنها في خرق مصنوعة من الخيش، ورؤية شقيقتيها في قماش قطني قديم قذر، وكان في وسعها كذلك احتمال كون ويل يكدح في العمل أكثر من أي عامل حقل، ولكن لم يكن في وسعها رؤية آشلي كذلك، فآشلي كان أرق من أن يكون كذلك، أرفع من كل هذا، كان عزيزاً عليها لدرجة لا توصف.

- «يقولون إن أبراهام لينكولن بدأ حياته في تقطيع الخشب» قال عندما بلغته، «فكري فقط إلى أي مستوى يمكن أن أصعد!».

فتجهّم وجهها. لقد كان يتفوّه دائماً بمثل هذه العبارات الخفيفة عن متاعبهم، تلك المتاعب التي كانت في نظرها أموراً خطيرة للغاية، بحيث كانت عباراته عنها تكاد تثيرها في بعض الأحيان.

وعلى الفور، أخبرته بنبأ ويل بإيجاز شديد، وبكلمات مقتضبة، وأحست بأن قد سرى عنها وهي تتكلم، فمن الأكيد أن لديه ما يقترحه من الحلول المساعدة. غير أنه لم يقل شيئاً، وإنما تناول معطفه ووضعه على كتفيها وقد رآها ترتجف.

- «أخبرني» قالت أخيراً، «ألم يدر في خلدك أن علينا تدبير المال من مصدر ما؟»

- «بلى» قال، «ولكن من أين؟».

- «إني أسألك» أجابت منزعجة وقد تلاشى الشعور بالتسرية الذي انتابها وهي تلقي العبء عن كاهلها... وفكرت، حتى لو لم يكن في

وسعه المساعدة، لماذا لم يقل شيئاً مواسياً. . . حتى لو كان هذا الشيء عبارة «آسف» فقط.

وابتسم.

- «طوال هذه الشهور التي انقضت منذ عودتي إلى البيت، لم أسمع بغير اسم رجل واحد فقط يملك مالاً في الحقيقة، وهو ريت باتلر»، قال.

وكانت العمة بيتي بات قد كتبت إلى ميلاني في الأسبوع المنصرم، تخبرها أن ريت عاد إلى أتلانتا بعربة وحصانين جميلين، وجيوب مليئة بأوراق النقد الشمالية، ولمّحت بطريقة ما إلى أنه لم يصل إلى هذا المال بطريق شريفة، وأنها تعتقد، ويشاركها في ذلك معظم أهل أتلانتا، أن ريت كان قد استطاع الهرب بمالية الحلف التي تبلغ ملايين خيالية.

- «لا تدعنا نتحدث عنه» قالت سكارلت باقتضاب، «إنه ظربان إذا كان يوجد حيوان من هذا النوع. . . ماذا سيحل بنا جميعاً؟».

وضع آشلي الفأس على الأرض ونظر بعيداً، وبدت عيناه كأنهما راحلتان إلى بلاد نائية لا تستطيع اللحاق بهما إليها.

- «إني أتساءل» قال، «إني لأتساءل ليس فقط عما سيحل بنا نحن الذين في تارا، بل عما سيحل بكل من في الجنوب».

أحست كأنها تنفجر فزمجرت على الفور:

- «إلى الجحيم بكل من في الجنوب! ما هو مصيرنا نحن؟» ولكنها ظلت صامتة، لأن الشعور المرهق كان قد عاودها بشكل أقوى مما مضى، فإن آشلي لم يكن عوناً لها أبداً.

- «إن ما سيحدث في النهاية هو عين ما يحدث كلما انهارت حضارة من الحضارات، ينجح الأذكياء الشجعان في الخلاص بينما

يتساقط الجبناء الأغبياء، على الأقل إن مشاهدة نهاية العالم أمر مثير إن لم يكن مريحاً».

- «مشاهدة ماذا؟».

- «حرب الآلهة ضد أعدائها، من سوء الحظ أن كنا نعتقد نحن الجنوبيون أننا آلهة».

- «باللّه عليك يا آشلي ويلكس، لا تقف هناك وتتكلم معي كلاماً فارغاً، بينما نحن هم الذين سيتساقطون».

وبدا كأن شيئاً من خورها الساخط قد اخترق عقله واستدعاه من تطوافه، فقد رفع يديها بعطف، وقلب الراحتين إلى أعلى، وتأمل موضع اندمال القروح فيها.

- «هاتان أجمل يدين عرفتهما في حياتي» قال ذلك وقبّل كلتا الراحتين برقّة، «إنهما جميلتان لأنهما قويتان، وإن كل ندب فيها وسام، إن كل قرحة يا سكارلت هي شاهدة ساطعة على الشجاعة وإنكار الذات. لقد تخشنت يداك في سبيلنا جميعاً، في سبيل أبيك وشقيقتيك وميلاني والوليد، ومن أجلي وأجل الزنوج. إني أعرف فيما تفكرين يا عزيزتي، إن لسان حالك يقول: «هنا يقف إنسان غبي غير عملي يتحدث حديثاً فارغاً عن الآلهة الميتة بينما تتهدد الأخطار الناس الأحياء»، أليس ذلك صحيحاً؟»

أومأت برأسها أن نعم وهي ترجو أن يظل رافعاً يديها إلى الأبد، ولكنه أفلتهما:

- «ولقد أتيتِ إليّ، آملة أن أستطيع مساعدتك... والواقع أني لا أستطيع».

ونطقت عيناه بالمرارة وهو ينظر نحو الفأس وكومة الخشب.

- «لقد ضاع بيتي وكل المال الذي لم أكن أعتقد بأني سأحوزه يوماً ما. وإني الآن لا أصلح لشيء في هذه الدنيا، لأن الدنيا التي

أنتمي إليها قد ضاعت. ولذلك فأنا لا أستطيع مساعدتك يا سكارلت، إلا بأن أتدرب بكل ما يسعني من نشاط على أن أصبح مزارعاً غير بارع، وذلك لن يحفظ تارا لك. ألا تظنين أني أدرك مرارة وضعنا وأنا أعيش هنا على إحسانك. . . أجل يا سكارلت على إحسانك، ولن أستطيع أبداً أن أرد لك ما قدمته لي ولعائلتي من الجميل بدافع من قلبك الرحيم. إني أتحسس ذلك بشدة تزداد كل يوم، وفي كل يوم أتبيَّن بوضوح أكثر كم أنا عاجز عن مجابهة ما حل بنا جميعاً. . . وفي كل يوم يزيد إحجامي اللعين عن الحقائق في صعوبة مواجهتي للحقائق الجديدة. هل أدركت الذي أعنيه؟».

فأطرقت رأسها بالإيجاب، ولم تكن قد أدركت أية فكرة جلية من الذي عناه، ولكنها تعلقت بكلماته محتبسة النفس. لقد كانت هذه أول مرة يتحدث فيها إليها عما كان يفكر فيه وهو يبدو شارداً جداً عنها، الأمر الذي أثارها كثيراً كما لو كانت على عتبة اكتشافٍ جديد.

- «إنه لعنة. . . ذلك الإحجام عن النظر إلى الحقائق المجردة. . . فإلى حين وقوع الحرب، لم تكن الحياة بالنسبة إليَّ أدنى إلى الحقيقة من مشهد وهمي على ستار، وكنت أفضل أن تكون كذلك، فأنا لا أحب أن تكون حدود الأشياء المرئية بارزة جداً، إني أريدها غامضة نوعاً ما، مبهمة بعض الإبهام».

وتوقف عن الكلام وابتسم ابتسامة خفيفة، وارتعش قليلاً عندما اخترقت الريح الباردة قميصه الرقيق.

- «وبكلمات أخرى يا سكارلت، إنني جبان».

لم يحمل حديثه عن المشاهد الوهمية والحدود المبهمة أي معنى لسكارلت، ولكن الكلمات الأخيرة جاءت في لغة استطاعت فهمها وعرفت أنها كلمات غير حقيقية، فالجبن لم يكن من صفاته، إذ إن كل عضو من أعضاء جسده النحيل كان يتحدث عن أجيال من الرجال

الشجعان الشهام، كما أن سكارلت كانت تحفظ سجله الحربي عن ظهر قلب.

- «ماذا، ليس الأمر كذلك! هل كان في وسع جبان أن يعتلي المدفع في غتيسبورغ ويستفز همم الجنود؟ أكان الجنرال نفسه يكتب رسالة إلى ميلاني عن جبان؟ و. . .».

- «تلك ليست شجاعة» قال بعناء، «فالقتال كالشمبانيا، إنه يسري إلى رؤوس الجبناء بالسرعة ذاتها التي يصل فيها إلى رؤوس الأبطال، وفي وسع أي أحمق أن يكون شجاعاً في ساحة المعركة، عندما يتحتم عليه أن يكون شجاعاً أو أن يقتل. . . لا، إني أتحدث عن شيء آخر، وإن نوع الجبن الكائن فيَّ أسوأ بدرجة لانهائية، كما لو هربت لدى سماعي دوي المدفع لأول مرة».

كانت كلماته تخرج بطيئة وبصعوبة، كما لو كان يتألم بسبب الإفصاح بها، وبدا كأنه يقف بعيداً ويتطلع بقلب حزين على ما نطق به. ولو أن رجلاً غيره تفوّه بمثل هذا الكلام، لرفضت سكارلت بازدراء تصريحات كهذه، ولاعتبرتها تواضعاً ساخراً واستجداء للمديح. غير أن الظاهر أن آشلي كان يعني ما يقول، وكانت في عينيه نظرة استعصى فهمها على سكارلت. . . ليست نظرة خوف ولا نظرة اعتذار، ولكنها الانقياد إلى إجهاد محتوم غامر. واجتاحت ريح الشتاء كاحليها وارتجفت ثانية، ولكن رجفتها انبعثت من الرعب الذي أثارته كلماته في قلبها أكثر مما انبعثت من الريح.

- «ولكن يا آشلي، ممَّ أنت خائف؟».

- «آه، من أشياء لا تسمى، أشياء تبدو عقيمة إذا ما نطق بها، ولكن معظمها يكمن في أن الحياة انقلبت فجأة إلى حياة حقيقية جداً، وفي أني نقلت إلى عالم المحسوس لأحتك احتكاكاً شخصياً ببعض حقائق الحياة البسيطة. ليس ما يهمني هو تقطيع كتل الخشب، هنا في

الوحل، وإنما الذي يهمني هو ما يعينه هذا العمل، إن ما يؤلمني كثيراً هو فقدان جمال الحياة القديمة التي أحببتها... لقد كانت الحياة قبل الحرب جميلة يا سكارلت، كانت تزدهي بسحر وكمال وتمام وانسجام كالفنّ الإغريقي. ولربما لم تكن كذلك بالنسبة إلى كل إنسان - وهذا ما اكتشفته الآن - ولكن بالنسبة إليّ، أنا الذي كنت أعيش في تولف أوكس، كان هناك جمال حقيقي في العيش. لقد انسجمت مع تلك الحياة، لقد كنت جزءاً منها، وها قد ولَّت الآن، ولا مكان لي في هذه الحياة الجديدة، ولذلك فإني خائف. أجل، إني أعرف ما كنت أتأمله في الأيام القديمة كان مشهداً وهمياً، فقد كنت أتجنب كل شيء لم يكن وهمياً، الناس والحالات التي كانت حقيقية جداً وحيوية جداً. كنت أنفر من تطفّلهم، وكنت أحاول تجنّبك أيضاً يا سكارلت، فلقد كنتِ أنت مفعمة جداً بالحياة، واقعية جداً، وكنت أنا على درجة كبيرة من الجبن، جعلتني أفضِّل الأوهام والأحلام».

- «ولكن... ولكن... ميلي؟».

- «إن ميلاني جزء من أحلامي بل هي أروع حلم. ولو أن الحرب لم تقع، لعشت طوال حياتي سعيداً، مدفوناً في تولف أوكس، أتأمل قانعاً، مضي الحياة دون أن أكون جزءاً منها. ولكن عندما أتت الحرب، قذفت الحياة بنفسها عليّ، الحياة كما هي على حقيقتها. وهكذا ففي المرة الأولى التي دخلت فيها إلى دنيا الواقع... وكان ذلك في بول ران، كما تذكرين، رأيت أصدقاء الصبا يتمزقون إرباً إرباً، وسمعت زعيق الخيول المائتة، وأحسست بالشعور الرهيب الممرض المنبعث من رؤية الرجال يتلوون ألماً ويبصقون دماً عندما أطلق النار عليهم. بيد أن هذه المرة لم تكن أسوأ ويلات الحرب يا سكارلت، إن أسوأ ويلات الحرب هم الناس الذين كان عليّ أن أعيش معهم، أنا الذي كنت قد انزويت بنفسي بعيداً عنهم طوال حياتي، أنا

الذي كنت قد خلقت عالماً خاصاً بي، عالماً بأناس من دنيا الأحلام، علمتني كيف يكون الناس حقاً، ولكنها لم تعلّمني أن أعيل زوجتي وولدي، لا بد لي من أن أشق طريقي وسط عالم من البشر الذين لا ألتقي وإياهم في أي مضمار. أما أنت يا سكارلت، فأنت تقبضين على الحياة من قرنيها، تقودينها حسب مشيئتك، ولكن أين يمكنني أنا، أن أتلاءم وهذه الحياة؟ لقد قلت لك إني خائف».

وبينما كان صوته الخفيض الرنان يتابع حديثة مكتئباً، يحمل شعوراً لم تستطع فمهه، كانت هي تتسمك بالكلمات هنا وهناك، تحاول تفسيرها، غير أن الكلمات كانت تنفلت من يديها تفلُّت الطيور البرية، كان هناك شيء يسوقه ويسوقه، بمنخس حاد، بيد أنها لم تدرك كنه هذا الشيء.

- «سكارلت، إني لا أعرف تماماً متى واجهتني الحقيقة السافرة، حقيقة أن مشهدي الوهمي الخاص بي قد انتهي... ربما كان ذلك في الدقائق الخمس الأولى في بول ران، عندما رأيت أول رجل قتلته يهوي إلى الأرض، ولكني عرفت أن المشهد انقضى، وإني لم أعد أستطيع أن أكون متفرجاً. لا، لقد ألفيت نفسي فجأة على الستار ممثلاً، أقف وأقوم بحركات عقيمة عابثة. إن حياتي الداخلية الصغيرة قد ذهبت، لقد غزاها أناس بأفكار غير أفكاري وبأفعال غريبة عني، غرابة رجل من الهوتنتوت[1]. لقد داسوا خلال عالمي بأقدام وضيعة، ولم يبقَ متسع أستطيع أن ألجأ إليه عندما أصبحت الأمور على درجة من السوء لا تُحتمل، ويوم كنت في الأسر كنت أفكر أنه عندما تنتهي الحرب سيكون في وسعي العودة إلى الحياة القديمة والأحلام القديمة ومراقبة المشهد الوهمي ثانية، ولكن ليس هناك عودة يا سكارلت، وأن

---

(1) طائفة من الزنوج في جنوب أفريقيا - (المترجمان).

هذا الذي يواجه كلاً منا الآن، لأسوأ من الحرب، وأسوأ من الأسر... وبالنسبة إليّ، أسوأ من الموت... وهكذا ترين يا سكارلت إني أعاقب لكوني خائفاً».

- «ولكن يا آشلي» بدأت وهي تتعثر في مستنقع من الحيرة، «إذا كنت تخشى أن نموت جوعاً، فإننا... فإننا... يا آشلي، سنتدبر الأمر بطريقة ما. إنني واثقة بأننا سنتدبر الأمر».

وعادت عيناه إليها هنيهة، عينان واسعتان رماديتان كالبلور، تشعان بالإكبار. وفجأة ابتعدتا ثانية، وأدركت وقلبها يهبط أنه لم يكن يفكر في الجوع ولقد كانت وإياه دائماً، كشخصين يتحدثان إلى بعضهما بلغتين مختلفتين، ولكنها كانت تحبه كثيراً بحيث إنه عندما كان ينسحب من الحديث كما فعل الآن، كانت تحس كأن الشمس الدافئة تغرب عنها وتدعها في قطرات ندى الغسق الباردة وأرادت أن تمسكه من كتفيه وتضمّه إلى صدرها وتجعله يدرك أنها من لحم ودم، وليست شيئاً قد قرأه أو حلم به. حبذا لو أنها تستطيع الإحساس بذلك الشعور من الوحدانية وإياه، الشعور الذي تاقت إليه منذ ذلك اليوم البعيد البعيد، يوم كان قد عاد من أوروبا ووقف على درجات تارا وابتسم وهو يتطلع إليها.

- «ليس الجوع ساراً» قال، «إني أعرف ذلك لأني قاسيت الجوع، ولكني لست خائفاً منه. إني خائف من مواجهة الحياة وقد فقدت الجمال الذي ينطوي عليه بطء عالمنا القديم الذي انقضى».

وفكرت سكارلت يائسة، أن ميلاني يمكن أن تعرف الذي عناه آشلي، فلقد كانا دائماً يتحدثان بمثل هذه الحماقات: الشعر والكتب والأحلام وأشعة القمر وغبار النجوم. لم يكن آشلي يخاف الأشياء التي تخافها هي، لا نهش المعدة الخاوية ولا لسع ريح الشتاء ولا الإجلاء عن تارا. لقد كان يتقاعس أمام خوف لم تعرفه في حياتها،

ولا تستطيع تصوره، لأنه بحق الإله ماذا كان يوجد ليخاف في هذه الحياة المنهارة سوى الجوع والبرد وضياع الوطن؟

وفكرت أنها إذا أصغت بانتباه، فستعرف كيف تجيب آشلي.

- «آه!» قالت وقد شابت صوتها خيبة كتلك التي تنتاب طفلاً يفتح علبة حسنة الرزم فإذا به يجدها فارغة. وابتسم آشلي مشفقاً وهو يسمع لهجتها، كأنه يعتذر إليها.

- «سامحيني يا سكارلت لأني تحدثت إليك بمثل هذا الحديث، وليس في وسعي أن أجعلك تفهمينني لأنك لا تعرفين معنى الخوف، فأنت تملكين قلب أسد، وتمتازين بانعدام التخيل لديك تماماً، وهما الصفتان اللتان أحسدك عليهما. لن يهمك أبداً مواجهة الحقائق، ولن ترغبي مطلقاً في الهرب منها كما أرغب أنا».

- «الهرب!».

وبدا كأن تلك كانت الكلمة الوحيدة التي يمكن فهمها من بين جميع ما نطق به من كلمات. . . إن آشلي مثلها قد سئم الكفاح وهو يرغب في الهرب. وارتدّ نَفَسها سريعاً.

- «آه آشلي» صاحت، «إنك مخطئ، فأنا أريد الهرب أيضاً، إني تعبة جداً من كل هذا الوضع».

فارتفع حاجباه في تعبير غير مصدق بينما وضعت يداً ملحة محمومة على ذراعه.

- «أصغِ إليّ» بدأت بسرعة والكلمات تتدحرج واحدة فوق الأخرى: «دعني أخبرك أني تعبة من كل شيء، تعبة حتى العظم، ولن أتحمل ذلك بعد اليوم. لقد كافحت من أجل القوت ومن أجل المال، لقد عشبت وعزقت وقطفت القطن وحتى لقد حرثت إلى أن لم أعد أستطيع الاحتمال دقيقة أخرى، إني أقول لك يا آشلي إن الجنوب

ميت! إنه ميت! لقد استولى عليه الشماليون والزنوج المحررون والكاربت بكرز ولم يبقَ لنا شيء. آشلي، دعنا نهرب!».

فحدجها بنظرة حادة، وخفض رأسه لينظر إلى وجهها الذي تخضب بلون الدم الملتهب.

- «أجل دعنا نهرب... سنتركهم جميعاً! لقد سئمت العمل من أجل الأهل، سيعيلهم بعض الناس، يوجد دائماً من يعيل البؤساء الذين لا يستطيعون إعالة أنفسهم. آه آشلي، دعنا نهرب، أنت وأنا. إن في وسعنا الذهاب إلى المكسيك... إنهم يريدون ضباطاً في الجيش المكسيكي، وفي وسعنا أن نعيش هناك في غاية السعادة. سأشتغل من أجلك يا آشلي، سأعمل كل شيء في سبيلك. إنك تعرف أنك لا تحب ميلاني».

وهمَّ بالتكلم، وفي وجهه نظرة مجفلة، ولكنها أعاقت كلماته بدفق من كلماتها:

- «لقد أخبرتني أنك تحبني أكثر منها، في ذلك اليوم... آه أنت تتذكر ذلك اليوم، وأنا أعرف أنك لم تتغير، إني أستطيع القول بأنك لم تتغير. وها قد قلت الآن إنها لم تكن شيئاً سوى حلم... آه آشلي، دعنا نهرب. إن في وسعي أن أجعلك في غاية السعادة، وعلى كل حال» أضافت بحقد، «إن ميلاني لا تستطيع... لقد قال الدكتور فونتين إنها لا تستطيع أبداً أن تلد أي طفل آخر، بينما أستطيع أنا أن أنجب لك...»

كانت يداه تضغطان على كتفها ضغطاً شديداً آلمها، فتوقفت منقطعة النفس.

- «كان علينا أن ننسى ذلك اليوم في تولف أوكس».

- «هل تظن أن في وسعي نسيانه؟ هل نسيته أنت؟ هل تستطيع أن تقول مخلصاً إنك لا تحبني».

وتنفس عميقاً وأجاب مسرعاً:

- «لا، لا أحبك».

- «تلك كذبة».

- «حتى لو كانت كذبة» قال آشلي وصوته خفيض للغاية، «فليس هذا بالأمر الذي يمكن بحثه».

- «أنت تعني...».

- «هل تعتقدين أن في وسعي الفرار وترك ميلاني وطفلها، حتى لو كنت أبغضهما كليهما؟ أن أحطم قلب ميلاني؟ أن أتركهما يعيشان على إحسان الأصدقاء؟ سكارلت، هل أنت مجنونة؟ أليس عندك أي شعور بالإخلاص؟ أنت لا تستطيعين ترك والدك وشقيقتيك، إنك مسؤولة عنهم، تماماً كما أن مسؤول عن ميلاني وبو. وسواء كنت تعبة أم لا، فهم موجودون هنا، وعليك أن تتحمليهم».

- «إن في وسعي تركهم... لقد سئمت منهم... تعبت منهم».

وانحنى نحوها، وفكرت لهنيهة، وقلبها ينقبض بشدة، أنه سيأخذها بين ذراعيه ولكنه بدلاً من ذلك ربت على كتفها وتكلم كمن يواسي طفلاً:

- «إني أعرف أنك متعبة، وأن هذا ما جعلك تتحدثين بهذه الصورة. أنك تحملين عبء ثلاثة رجال، ولكني سأساعدك... لن أظل أبداً خمولاً هكذا...».

- «ثمة طريقة واحدة فقط تستطيع مساعدتي بها» قالت بغباوة، «وهي أن تأخذني بعيداً من هنا، وتمنحنا حياة جديدة في مكان ما، مع فرصة للسعادة، فلا شيء هنا نبقى من أجله».

- «لا شيء» قال بهدوء، «لا شيء... سوى الشرف».

ونظرت إليه بلهفة حائرة خائبة، ورأت، كما لو كانت للمرة الأولى، كيف أن أهداب جفنيه المقوسين كانت مرصوفة الشعر ذهبية

كشعرات سنبلتي قمح ناضجتين وكيف أن رأسه كان يشمخ بكبرياء فوق رقبته العارية، وكيف أن مظهر الكرامة والأصل الرفيع كان يبدو جلياً في جسدة النحيل المنتصب حتى وهو في خرقه الزرية.

وقابلت عيناها عينيه، عيناها صريحتان بتوسلاتهما، وعيناه بعيدتان كما تبدو بحيرات الجبل تحت السموات الملبدة بالغيوم الرمادية.

ورأت فيهما هزيمة حلمها البربري، هزيمة رغباتها المجنونة.

واجتاحها الإنهاك وآلام القلب الكسير، وأسقطت رأسها بين يديها، وراحت تبكي، ولم يكن قد رآها تبكي من قبل، ولم يكن قد فكر من قبل أن نساء بمثل بأسها العتيد يملكن دموعاً، وغمره فيض من الحنان وتأنيب الضمير. واقترب منها مسرعاً، وفي لحظة، أخذها بين ذراعيه وطفق يهزها مواسياً، يضغط رأسها الأسود على قلبه ويهمس في أذنها: «عزيزتي! يا عزيزتي الشجاعة... لا! لا تبكي! ينبغي ألّا تبكي».

وعندما لمسها، أحس بتغيرها وهي في قبضته. وتحرك السحر والجنون في الجسد النحيل الذي كان يسنده، وشع الوهج الدافئ الناعم في العينين الخضراوين اللتين كانتا تتطلعان إليه، وفجأة لم يعد هناك شتاء بارد قارس، وعاد الربيع ثانية بالنسبة إلى آشلي، ذلك الربيع البلسمي نصف المنسي، ذو الحفيف والهمسات الخضر، ربيع الراحة والخمول، أيام لم يكن هناك ما يفكر فيه، حين كانت أماني الشباب دافئة في جسده. وتهاوت بعيداً جميع السنين المريرة التي كانت قد تلت الربيع، ورأى أن الشفتين المتطلعتين إلى شفتيه حمراوان ترتجفان، فقبَّلها.

وسمعت سكارلت صوت دوي خفيض غريب يهدر في أذنيها، كأنما أصداف بحر قربت منها، وخلال الهدير سمعت بغموض، وجيب

قلبها السريع، وبدا كأن جسدها في جسده، ولفترة من فترات الخلود، وقفا منصهرين معاً، بينما أخذت شفتاه شفتيها بنهم جائع كأنه لن يستطيع شبعاً. وعندما أفلتها فجأة أحست أنها لن تستطيع الوقوف من دون سند، فتمسكت بالسياج كي تدعم نفسها، ثم رفعت نحوه عينين تتألقان بالحب والظفر.

- «إنك لتحبني! إنك لتحبني، قلها... !».

كانت يداه لا تزالان مستقرتين على كتفيها، وأحست بهما ترتجفان، وأحبت رجفتهما، ومالت نحوه بلهفة، ولكنه أبعدها عنه، ونظر إليها بعينين خلتا من كل شرود، عينين تتعذبان بالنضال واليأس.

- «لا» قال، «لا تقتربي. إذا اقتربت فسأغتصبك الآن هنا».

فابتسمت ابتسامة حارة مشرقة، ابتسامة تنم عن نسيان المكان والزمان، وكل شيء آخر سوى تذكُّر شفتيه على شفتيها.

وفجأة هزها، هزها إلى أن تهدل شعرها الأسود حول كتفيها، هزها كأنه في سخط مجنون عليها - وعلى نفسه.

- «لن نرتكب هذا» قال، «أقول لك إننا لن نرتكب هذا».

وبدا كأن عنقها ستنقصف إذا هو هزها ثانية. وكان الشعر قد أعماها، وكانت حركته قد أذهلتها، فاعتصرت نفسها من بين يديه، وحملقت في وجهه. وكان على جبينه حبات صغيرة من العرق، وكانت قبضتاه قد تقوستا على شكل مخالب، كما لو كانتا متألمتين، ونظر إليها رأساً وعيناه الرماديتان نفاذتان:

- «إنها غلطتي - ليست غلطتك، ولن تحدث ثانية، لأني سوف آخذ ميلاني والطفل وأذهب».

- «تذهب؟» صاحت في ألم هائل، «آه، لا!».

- «أجل واللّه! هل تعتقدين أني سأمكث هنا بعد هذا الذي حدث؟ في حين أنه يمكن أن يتكرر ثانية...».

- «ولكن يا آشلي... لن تستطيع الذهاب... لماذا يتوجب عليك الذهاب؟ إنك تحبني...».

- «تريدينني أن أقولها؟ حسناً؟ سأقولها. أحبك».

وانحنى فوقها بوحشية مفاجئة جعلتها تتراجع نحو السياج، واستطرد يقول:

- «أحبك وأحب شجاعتك وعنادك وحرارتك وقساوة قلبك المطلقة، إلى أي درجة أحبك؟ إلى الدرجة التي كانت لدقيقة خلت، ستدفعني إلى انتهاك حرمة ضيافة البيت الذي آواني وآوى عائلتي، وإلى نسيان أحسن زوجة حظي بها إنسان في هذه الحياة - الدرجة التي كانت كافية لأن تدفعني إلى اغتصابك هنا في هذا الوحل، مثل -».

وكافحت ضد خواطر من الأفكار المشوشة، وفي قلبها ألم بارد، بارد كأنه قطعة من جليد قد نفذت إليه، ثم قالت بتردّد:

- «إذا كنت تشعر نحوي بمثل هذا الشعور - ولم تغتصبني - إذن فأنت لا تحبني».

- «لا أستطيع أبداً أن أجعلك تفهمينني».

وأخلد إلى الصمت، وراحا يتبادلان النظرات، وفجأة ارتعشت سكارلت ورأت، كما لو كانت عائدة من رحلة طويلة، أن الوقت كان شتاء وأن الحقول كانت جرداء قاسية بجذامات النبات، وأنها مبتردة جداً، ورأت أيضاً أن وجهه القديم الشارد، الوجه الذي كانت تعرفه تمام المعرفة قد عاد، وأنه كان متجهماً كالشتاء، مفعماً بالأمل وتأنيب الضمير.

وكان يمكن أن تدور على أعقابها وتغادر المكان آنئذ وتنشد البيت، تلجأ إليه وتخبئ نفسها فيه، ولكنها كانت تعبة جداً بحيث لم تستطع حراكاً، حتى الكلام كان عملاً مرهقاً مضنياً لها.

- «لم يبقَ شيء» قالت أخيراً، «لم يبقَ شيء لي، شيء أحبه، شيء أحارب من أجله، لقد ضعت أنت، وستضيع تارا».

ونظر إليها هنيهة طويلة ثم انحنى وتناول من الأرض حفنة صغيرة من الطين الأحمر.

- «أجل، لقد بقي شيء» قال وعاد إلى شفتيه شبح ابتسامته القديمة، الابتسامة التي كانت قد سخرت من نفسه ومنها، «شيء تحبينه أكثر مني، مع أنك قد تكونين لا تعرفينه، أجل، ما زلت تحتفظين بتارا».

وأخذ يدها المرتخية، وضغط الطين الرطب داخلها، وثنى أصابعها عليه. لم تكن هناك حرارة في يديه الآن، ولا في يديها. ونظرت إلى التراب الأحمر لحظة، فلم يعنِ لها شيئاً. ونظرت إلى آشلي، وأدركت بغموض أن فيه طهراً روحياً، طهراً كان ينبغي ألّا يُهتك بيديها العاطفيتين، ولا بأي أيدٍ أخرى.

لن يترك ميلاني حتى ولو قتلته، ولن يغتصبها هي حتى لو بقي يتحرق شهوة إليها إلى نهاية أيامه، وسيكافح كي يبقيها بعيدة عنه، ولن تستطيع ثانية اختراق تلك الدرع الحديدية. لقد كانت الكلمات: كرم الضيافة والإخلاص والشرف تعني بالنسبة إليه أكثر مما تعني هي، سكارلت.

- «أجل ما زلت أحتفظ بهذا».

في البدء، لم تكن الكلمات تعني شيئاً، وكان الطين مجرد طين أحمر وحسب، ولكن خاطرة بحر التراب الأحمر الذي يكتنف تارا أتتها طواعية، أتتها من تلقاء ذاتها وكم كانت عزيزة على قلبها، وكما كان نضالها قاسياً في سبيل أن تحتفظ بها - بل ما أقسى النضال الذي ينبغي أن تمارسه إذا هي شاءت أن تحتفظ بتارا من الآن فصاعداً. ونظرت إلى آشلي ثانية، وتساءلت أين ذهب ذلك الفيض من

الأحاسيس الذي كان يغمره. كانت تستطيع التفكير ولكنها لم تستطع الشعور، الشعور نحوه أو نحو تارا أيضاً، لأنها كانت قد استُنزفت من كل عاطفة.

- «لست في حاجة إلى الذهاب» قالت بوضوح، «لن أدعكم جميعاً تجوعون لمجرد إلقائي بنفسي على رأسك، ولن يحدث ذلك ثانية».

واستدارت، ثم قفلت راجعة إلى البيت عبر الحقول الوعرة، طاوية شعرها في ضمة فوق عنقها. وراقبها آشلي وهي تعود أدراجها، ورآها ترفع كتفيها الصغيرتين النحيلتين وهي سائرة، ودخلت تلك الحركة إلى قلبه، أكثر من أي كلمات نطقت بها.

32

كانت سكارلت لا تزال تقبض على حفنة الطين الأحمر عندما صعدت الدرجات الأمامية. وقد تعمدت أن تتجنب المدخل الخلفي، لأن عيني مامي النفاذتين كانتا ستكتشفان حتماً أن في الأمر شيئاً. ولم تكن سكارلت ترغب في رؤية مامي أو أي شخص آخر، فهي لم تكن تشعر أن في وسعها احتمال رؤية أي إنسان، أو التحدث مع أي إنسان بعد اليوم. على أنها لم تكن تحس الآن بشيء من العار أو الخيبة أو المرارة، وإنما فقط، بضعف في الركبتين وفراغ عظيم في القلب. وضغطت الطين ضغطاً هائلاً جعله ينعصر من قبضتها المشدودة، وكانت تردد مرة بعد مرة بصورة ببغاوية: «ما زلت أحتفظ بهذا، أجل ما زلت أحتفظ بهذا».

ولم يكن هناك أي شيء آخر تحتفظ به، أي شيء سوى هذه الأرض الحمراء، هذه الأرض التي كانت قد عزمت منذ دقائق قليلة فقط، على طرحها جانباً كمنديل رث، بينما هي الآن عزيزة على قلبها ثانية، حتى إنها تساءلت باكتئاب، أي جنون كان قد تملّكها فجعلها تشعر نحوها بذلك الفتور المريع.

لو أن آشلي استسلم لمشيئتها، لكانت قد ارتحلت معه، وتركت العائلة والأصدقاء من دون نظرة إلى الوراء. ولكنها وحتى في حالتها المريرة، عرفت أن مغادرة هذه التلال العزيزة الحمراء والأخاديد

الطويلة المغتسلة بالماء، وأشجار الصنوبر النحيلة السوداء أمر سيفري فؤادها ألماً، وأن أفكارها ستنفلت جائعة نحو هذه الأرض، يوم مماتها، ولن يستطيع حتى آشلي أن يملأ فراغ قلبها، حيث كانت تارا متأصلة الجذور. ما كان أعقل آشلي، وما أحسن معرفته بها! كان عليه فقط أن يضغط التراب الرطب في يدها، كي يعيدها إلى رشدها.

فاستدارات لتنظر نحو الممشى، إن مجيء زوار في هذا الوقت بالذات من كل الأوقات أمر لا يحتمل. ستشرع إلى غرفتها إذن وتعتذر بوجود صداع في رأسها، ولكن عندما اقتربت العربة، أوقفتها الدهشة عن متابعة الهرب. لقد كانت عربة جديدة تتألق بطلائها اللماع، وكانت عدتها جديدة أيضاً، بقطع من النحاس اللألاء هنا وهناك، - إنهم غرباء حتماً، فليس من بين معارفها من يملك النقود من أجل هذا التجديد الفخم.

ووقفت تتأمل عند الباب، وتيار الهواء البارد ينفخ تنورتها حول كاحليها المبللين. ثم وقفت العربة أمام البيت وترجّل منها جوناس ويلكرسون. وما إن رأت سكارلت ناظرهم القديم يسوق عربة بهذه العدة البديعة، ويرتدي معطفاً فاخراً كهذا، حتى تملكتها دهشة بالغة بحيث لم تصدق عينيها للوهلة الأولى. كان ويل قد أخبرها أن جوناس تبدو عليه مظاهر النعمة الغامرة منذ تقلَّد وظيفته الجديدة مع هيئة التحرير، وأنه جمع مقداراً كبيراً من المال، وأنه يختلس إما من الزنوج أو من الحكومة أو يصادر أقطان الناس، مقسماً إنها أقطان حكومة الحلف... حتماً إنه لم يصل إلى كل تلك الثروة بطريق شريفة، في هذه الأوقات الصعبة.

وها هو الآن هنا، يترجل من عربة فخمة، ويمد يده ليساعد على النزول امرأة، ولمحت سكارلت بنظرة سريعة، أن الثوب كان زاهي اللون لدرجة مبتذلة، ولكن عينيها رغم ذلك، تأملتاه بنظرات نهمة،

فلقد مضى زمن طويل منذ أن رأت حللاً حديثة الزي. . . حسناً! إذن ليست أطواق هذا العام واسعة جداً، هجست سكارلت وهي تنعم النظر في الثوب الصوفي الأحمر. وعندما رأت المعطف المخملي الأسود قالت في نفسها: ما أقصر المعاطف! وأي طاقية دقيقة الصنع! لا بد أن تكون القبعات قد بطلت، لأن هذه الطاقية لم تكن سوى قطعة مخمل حمراء مستوية سخيفة، تجثم على قمة رأس المرأة، كفطيرة متيبسة. ولم تكن شرائط الطاقية معقودة تحت ذقن المرأة كما تعقد شرائط القبعات، وإنما عقدت خلف العنق، تحت الثياب الكثيفة المتهدلة خلف الطاقية، الثنيات التي لم تستطع سكارلت إلا أن تلاحظ أنها لم تكن تناسب شعر المرأة سواء في اللون أو في الشكل.

وعندما نزلت المرأة إلى الأرض، وتطلعت نحو البيت، رأت سكارلت أن هناك شيئاً أليفاً في الوجه الشبيه بوجه الأرنب، والمعفر بمسحوق أبيض.

- «ماذا، إنها إيمي سلاتري!» صاحت، وكانت صيحتها عالية بسبب ما أصابها من دهشة.

- «أجل إنني هي» قالت إيمي ودفعت رأسها إلى الوراء بابتسامة متوددة، ثم اتجهت نحو الدرجات.

إيمي سلاتري! المهملة القذرة. ذات الشعر الذي يشبه ألياف الكتان، التي عمَّدت إيلين ابنها غير الشرعي، إيمي التي نقلت التيفوئيد إلى إيلين وقتلتها به. هذه الفتاة العامية النتنة المبهرجة اللباس، والتي تنتمي إلى فئة البيض الحقيرين، تصعد الآن درجات تارا، تشمخ برأسها وتبتسم كأنها تنتسب إلى هذا المكان. وفكرت سكارلت في إيلين، فعاود ارتجافة فراغ عقلها باندفاع، شعور سخط فتاك عنيف جداً جعلها ترتجف ارتجافة البرداء.

- «ابتعدي عن هذه الدرجات أيتها العاهرة الحقيرة!» صاحت، «ابتعدي عن هذه الأرض! اخرجي!».

فتدلى شدق إيمي فجأة، وتطلعت إلى جوناس الذي تقدم مقطباً جبينه، وبذل جهداً كي يحتفظ بوقاره رغم غضبه:

- «ينبغي ألّا تتكلمي بمثل هذا الكلام مع زوجتي» قال.

- «زوجتك؟» قالت سكارلت، وانفجرت في ضحكة جارفة نمّت عن ازدراء. «لقد آن أن تجعلها زوجتك. ومن سيعمّد أولادك الآخرين بعد أن َقتلت أمي».

- «آه!» قالت إيمي.

وتقهقرت بسرعة نزولاً عن الدرجات، ولكن جوناس أوقفها عن الهرب باتجاه العربة، بقبضة قوية على ذراعها.

- «لقد أتينا إلى هنا لنقوم بزيارة - زيارة صداقة» دمدم جوناس، «ونتحدث في قضية صغيرة مع أصدقائنا القدامى -».

- «أصدقاء؟» ارتفع صوت سكارلت كضربة سوط، «متى حدث وكنا أصدقاء مع أمثالكما. لقد عاش آل سلاتري على إحساننا الذي ردّوه بأن قتلوا أمي - وأنت - أنت - لقد طردك والدي بسبب وليد إيمي غير الشرعي، وأنت تعرف هذا. أصدقاء؟ ابتعد عن هذا المكان قبل أن أستدعي السيد بنتين والسيد ويلكس».

تخلصت إيمي من قبضة زوجها المدفوعة بتأثير كلمات سكارلت وهربت إلى العربة، وتسلقت إلى داخلها بحذاء جلدي براق مميز ذي مقدمة حمراء لماعة وشراريب حمراء.

وكان جوناس الآن ينتفض من السخط انتفاضة سخط سكارلت، وبدا وجهه الشاحب أحمر كوجه ديك رومي هائج.

- «ما زلت مترفعة قوية النفس، أليس كذلك؟ حسناً، إني أعرف

كل شيء عنك، أعرف أنك لا تملكين حذاء لقدميك، أعرف أن والدك انقلب إلى رجل أبله -».

- «اخرج من هذا المكان».

- «لن تغنّي على هذا المنوال طويلاً، إني أعرف أنك محطمة. أعرف أنك لن تستطيعي حتى دفع الضرائب. لقد أتيت هنا لأعرض عليك شراء هذا المكان - لأقدم لك عرضاً حسناً عادلاً. إن إيمي متلهفة لأن تعيش هنا، ولكن واللّه لن أدفع لك بنساً الآن! أنت يا مشمخرة الأنف، سوف تكتشف إيرلندية المستنقعات من هو الذي يدير أمور هذا الإقليم عندما تباع مزرعتك في المزاد وتُطردين منها بسبب عجزك عن دفع الضرائب، وأنا الذي سأشتري هذه المزرعة، بكل ما فيها من جوادات وأثاث وغيرها، وسأعيش فيها».

وهكذا إذن، لقد كان جوناس ويلكرسون هو الذي يريد تارا - جوناس وإيمي، اللذان فكرا بطريقة عوجاء أن يعوضا عن الإهانات السابقة بالعيش في المنزل الذي كانا يزدريان فيه. وضجت جميع أعصاب سكارلت بالبغضاء كما ضجت ذلك اليوم الذي صوبت فيه فوهة المسدس نحو وجه الشمالي الملتحي، وأطلقت النار عليه وتمنّت لو كانت تحمل ذلك المسدس الآن.

- «سأهدم هذا البيت حجراً حجراً وأحرقه وأنثر الملح في كل فدان من أرضه قبل أن أرى أياً منكما يطأ بقدمه هذه العتبة» صاحت، «أقول لكما اخرجا! اخرجا!».

فرمقها جوناس محمر العينين، وهمَّ بالمزيد من الحديث ولكنه ما لبث أن مشى نحو العربة، وصعد إليها وجلس إزاء زوجته المنتحبة وأدار الحصان. وبينما انطلقت العربة، شعرت سكارلت بالرغبة في أن تبصق عليهما، وبصقت، وكانت تعرف أن هذا عمل صبياني غوغائي،

بيد أنها شعرت بتحسن نفسيتها، وتمنّت لو أقدمت على ذلك عندما كان في مقدورهما رؤيتها.

ذانك العشيقان الزنجيان اللعينان يتجرآن على القدوم هنا وتعييرها بفقرها! وذلك الكلب لم يكن يقصد أن يعرض عليها ثمناً لتارا، وإنما اتخذ من ذلك ذريعة للقدوم والتباهي بشخصه وبإيمي أمامها... السكالاواغان القذارن، الأبيضان الفقيران الحقيران المقلان يتبجحان بأنهما سيسكنان في تارا.

ثم تولاها رعب مفاجئ وذاب سخطها. يا للّه! سيأتيان ويعيشان هنا! وليس من شيء تستطيع عمله لمنعهما من شراء تارا. ليس من شيء يمنعهما من الحجز على كل مرآة وطاولة وسرير، وعلى أثاث إيلين المصنوع من خشب الماهوكي وخشب الورد وكل قطعة منه ثمينة لديها رغم أنه كان قد جرح بحراب الشماليين الغزاة - وكذلك على أواني روبيلارد الفضية أيضاً... لن أدعهما يفعلان ذلك... فكرت سكارلت محتدة، لا، لا حتى لو اضطررت إلى حرق البيت... لا، لن تضع إيمي سلاتري قدمها على أي موطئ قدم من أرض البيت، كانت أمي قد وطئته من قبل.

وأغلقت الباب واتكأت عليه. وكانت فزعة جداً، حتى أكثر مما كانت في ذلك اليوم الذي دخل فيه جنود شيرمان إلى البيت. لقد كانوا أسوأ ما خشيت وقوعه في ذلك اليوم أن يحرق الجنود المنزل على رأسها، بيد أن هذا كان أسوأ - هذان المخلوقان العاميان الحقيران يعيشان في هذا البيت ويفخران أمام أصدقائهما العوام الحقيرين بأنهما طردا آل أوهارا المتغطرسين، بل قد يجلبان زنوجاً إلى هذه الدار، يأكلون فيها وينامون. لقد أخبرها ويل أن جوناس يجمع ثروة كبيرة من جرّاء مساومة نفسه بالزنوج. لقد كان يؤاكلهم ويزورهم في بيوتهم ويركّبهم معه في العربة ويضع ذراعه حول أكتافهم.

وعندما فكرت في احتمال وقوع هذه الإهانة الأخيرة لتارا، خفق قلبها خفقاناً شديداً بحيث لم تستطع التنفس إلا بصعوبة، ثم راحت تحاول تركيز تفكيرها على المشكلة، تحاول إيجاد مخرج، ولكنها في كل مرة جمعت فيها شتات أفكارها، كانت تهزها موجات جديدة من الخوف والغضب. لا بد أن يكون هناك مخرج من هذه الضائقة، لا بد أن يكون هناك إنسان ما في مكان ما، يملك نقوداً تستطيع استدانتها منه، فالنقود لا يمكن أن تنضب تماماً، وتنقرض من الوجود. لا بد أن يكون هناك مال في حوزة بعض الناس. ثم عاودتها كلمات آشلي المضحكة: «شخص واحد فقط يملك مالاً، هو ريت باتلر».

ريت باتلر. ومشت بسرعة إلى داخل الردهة، وأغلقت الباب خلفها، فأطبقت عليها الظلمة الخفيفة الناجمة عن غسق الشتاء وانسدال الستائر. واعتقدت أن أحداً لن يفكر في البحث عنها في هذا المكان، لقد كانت في حاجة إلى الوقت من أجل التفكير دون أن يضايقها إنسان. وكانت الفكرة التي عنَّت لها الآن بسيطة جداً بحيث استغربت لماذا لم تفكر فيها من قبل.

«سأحصل على النقود من ريت، سأبيعه قرطَي اللؤلؤ، أو سأستدين النقود منه وأدعه يحتفظ بالقرطين إلى أن أستطيع إعادة المال إليه».

وللوهلة الأولى، كان شعورها بالتسرية عظيماً جداً بحيث أحست بالضعف. ستدفع الضرائب، وستضحك في وجه جوناس ويلكرسون. ولكن، تماماً في إثر هذه الفكرة السعيدة، جاءت الحقيقة التي لا ترحم.

«ليست حاجتي إلى أموال الضرائب مقصورة على هذه السنة، بل هناك السنة التالية، وكل سني حياتي. وإذا أنا أوفيت المطلوب مني هذه المرة فسيرفعون الضرائب في المرة التالية، وهكذا إلى أن

يخرجوني من المزرعة. وإذا أنا أنتجت محصولاً جيداً من القطن، فسيفرضون عليه الضرائب حتى لا أحصل على شيء من ثمنه، أو ربما صادروها رأساً، وقالوا إنه قطن حكومة الحلف. لقد تمكن الشماليون والأوغاد الذين لاذوا بهم مني حيث يشاؤون، وسأظل طوال حياتي فزعة منهمكة في سبيل جمع المال أكدح حتى الموت، فقط لأرى عملي يذهب سدى، وقطني يُسرق. . . إن استدانة ثلاثمئة دولار لدفع الضرائب هو حل مؤقت، على أن ما أريده هو الخروج نهائياً من هذا المأزق بصورة ناجحة - وهكذا سيصير في وسعي أن آوي إلى فراشي في الليل دون أن أجزع من الذي سيحل بي في اليوم التالي، وفي الشهر التالي، وفي السنة التالية».

واستمر عقلها يقرع بثبات. وببرود ومنطق نمت في دماغها فكرة جديدة: لقد فكرت في ريت وهو يلاطفها ويدللها، ريت ذي الأسنان البراقة البيضاء تحيطها بشرة سمراء والعينين السوداوين الساخرتين. وتذكرت الليلة الحارة في أتلانتا، الليلة التي سبقت نهاية الحصار، عندما جلس في شرفة العمة بيتي، نصف منحجب في ظلام الصيف، وأحست ثانية بيده فوق ذراعها عندما قال: «إني أرغب فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى. . . ولقد انتظرتك أكثر مما انتظرت أي امرأة أخرى».

«سأتزوجه» فكرت ببرود، «وعندئذ لن أقلق من أجل المال أبداً».

ها، يا لها من فكرة مباركة أعذب من الأمل بالنعيم، أن لا تجزع أبداً من أجل المال، أن تعرف أن تارا آمنة، وأن العائلة تقتات وتكتسي، وأن ليس عليها بعد اليوم أن تدق رأسها بالجدران الحجرية!

وأحست بأنها عجوز هرمة. لقد جففت أحداث بعد الظهر كل مشاعرها: نبأ الضرائب المذهل أولاً، ثم آشلي، وأخيراً سخطها على جوناس ويلكرسون. لا، لم تبقَ عاطفة فيها. ولو لم تكن جميع طاقتها

على الشعور قد نضبت منها، لاحتج شيء من داخلها على هذه الخطة التي بدأت تتكون في عقلها، لأنها كانت تبغض ريت أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا، ولكنها لم تكن تستطيع الشعور، وإنما كانت تستطيع التفكير فقط، وكانت أفكارها عملية جداً.

«لقد خاطبته بأمور مهينة جداً في تلك الليلة، عندما غادرنا في الطريق، ولكني أستطيع أن أجعله ينساها» فكرت بازدراء، وهي ما انفكت واثقة بسلطانها في فتنة الرجال، «لن تذوب الزبدة في فمي عندما أكون عنده. سأجعله يفكر أني كنت دائماً أحبه وأني فقط كنت مضطربة مذعورة في تلك الليلة. . . إن الرجال مغروروون كثيراً، بحيث إنهم يصدقون أي حديث يتملقهم. . . ينبغي ألّا أدعه يتصور بأي ضائقة نحن الآن، لا، إلى أن أظفر به. ينبغي ألّا يعرف! لأنه حتى إذا ما ارتاب بمدى فقرنا المدقع، فسيعرف أن ما كنت أبغيه هو نقوده لا شخصه. ومع ذلك، فليس من سبيل أمامه يستطيع أن يعرف وضعنا بواسطته، فحتى العمة بيتي لا تعرف أسوأ ما وصلنا إليه. وبعد أن أتزوجه، يصبح من واجبه مساعدتنا، إذ لن يستطيع أن يدع أهل زوجته يتضورون جوعاً».

زوجته. السيدة ريت باتلر. وتحرك فيها شعور من الاشمئزاز كان قد دفن عميقاً تحت تفكيرها البارد، تحرك ببطئ، ثم ما لبث أن سكن. وتذكرت الأحداث المكدرة والمنفرة التي كانت قد عانتها خلال شهر عسلها القصير مع تشارلز، كما تذكرت يديه الفظتين، وثقل دمه وعواطفه التي لم تستطع فهمها. . . وويد هاملتون.

«لن أفكر في هذا الآن. . . سأزعج نفسي بالتفكير فيه بعد تزوجي إياه».

بعد تزوجها إياه. . . وهنا قرعت الذاكرة جرساً، وسرت قشعريرة من عمودها الفقري. لقد تذكرت ثانية تلك الليلة، في شرفة العمة

بيتي. تذكرت كيف أنها سألته عما إذا كان يعرض الزواج بها، وتذكرت كيف أنه ضحك ضحكة نكراء وقال: «عزيزتي، لست رجل زواج».

هب أنه ما زال كذلك، هب أنه رفض التزوج بها، رغم جميع مفاتنها وأحابيلها، هب... آه أفكار رهيبة، هب أنه قد نسي شخصها تماماً، وكان يطارد امرأة أخرى.

«إني أرغب فيك أكثر مما رغبت في أي امرأة أخرى...».

وغرزت أظافرها في راحتيها وهي تضغط قبضتيها.

«إذا كان قد نسيني، فسأجعله يتذكرني. سأجعله يرغب فيَّ ثانية».

وإذا كان لا يرغب في الزواج بها، وإنما لا يزال يشتهيها فقط، فهناك طريقة لتحصيل المال. وعلى كل حال، لقد طلب منها مرة أن تكون خليلته.

وفي ظلمة القاعة الخفيفة، خاضت سكارلت معركة سريعة حاسمة ضد أقوى روابط ثلاث تربط روحها... ذكرى إيلين، وتعاليم دينها وحبها لآشلي. كانت تعرف أن ما كانت تفكر فيه لا بد أن يكون مذهلاً لأمها حتى وهي في تلك السماء البعيدة الدافئة، حيث كانت ترقد حتماً. وكانت تعرف أيضاً أن الزنى إثم بشري فتاك. وكانت تعرف كذلك، وهي التي تحب آشلي، أن خطتها ستكون عهارة مزدوجة.

بيد أن هذه الأمور جميعها انهارت أمام برودة عقلها العديمة الرحمة، وأمام دواعي اليأس. فلقد كانت إيلين ميتة، وربما كان من طبيعة الموت أن يهب الموتى فهماً لكل الأحداث، وكان الدين يمنع الزنى تحت طائلة آلام الجحيم، ولكن إذا اعتقدت الكنيسة أنها ستترك حجراً واحداً دون أن تقلبه في سبيل إنقاذ تارا، وتنقذ عائلتها من الجوع... على كل حال، دع الكنيسة تجزع على ذلك، أما هي فلن

تجزع، الآن على الأقل. وآشلي. . . إن آشلي لا يريدها، بلى إنه يريدها، لقد أنبأتها بذلك ذكرى فمه الدافئ على فمها. . . ولكنه لن يصطحبها بعيداً. والغريب أن الفرار مع آشلي لا يبدو كإثم، ولكنه مع ريت. . .

وفي ضوء الغسق الباهت لهذه الأمسية الشتوية، وصلت سكارلت إلى نهاية الطريق التي بدأتها ليلة سقوط أتلانتا. لقد وضعت قدمها على تلك الطريق وهي آنذاك مجرد فتاة أنانية عابثة عديمة التجربة، مفعمة بالشباب، حارة بالعواطف، سهلة الاضطراب أمام أحداث الحياة. والآن هي في نهاية الطريق، لم يبقَ شيء من تلك الفتاة. لقد انتزع منها الجوع والعمل الشاق، والخوف والتوتر الدائم، وأهوال الحرب ومخاوف إعادة بناء البلاد، كل دفء وشباب ورقّة، وحول نواة وجودها، كانت قد تكونت قشرة من الصلابة، وتسمّكت القشرة قليلاً قليلاً، طبقة بعد طبقة، خلال الشهور التي لا نهاية لها.

ولكن حتى هذا اليوم ذاته، كانت لا تزال تحتفظ بأملين يشدان من أزرها، لقد كانت تأمل أن الحياة، وقد انتهت الحرب، ستستعيد مظهرها القديم تدريجاً، كما كانت تأمل أن تعيد عودة آشلي إلى البيت بعض المعاني للحياة. ولكن كلا الأملين ذهبا الآن، وجعلها منظر جوناس ويلكرسون وهو في ممشى تارا الأمامي تدرك أن الحرب لن تنتهي أبداً، لا بالنسبة إليها، ولا بالنسبة إلى كل الجنوب، وأن القتال وأفظع عمليات الثأر قد بدأتا الآن، وأن آشلي سيظل إلى الأبد سجين كلمات أقوى من أي سجن.

لقد خيَّب السلام رجاءها، ولقد خيَّب آشلي أملها، الاثنان في ذات اليوم، وبدا لها أن آخر فجوة في القشرة قد سدت الآن، وأن الطبقة الأخيرة قد تصلبت. لقد أضحت الآن، المرأة التي كانت الجدة فونتين قد استنكرت حالها، أضحت امرأة رأت أسوأ ما يمكن أن يقع

لها فلم يعد هناك ما تخشاه. إنها لا تخشى الحياة، ولا آلام ولا فقدان الحب ولا الرأي العام. ولا يخيفها شيء سوى الجوع وحلمها الرهيب عن الجوع.

وغمرها الآن إحساس غريب من الانطلاق، من الحرية، بحيث إنها قست قلبها في وجه كل الذي كان يربطها بالأيام القديمة وبسكارلت القديمة. لقد اتخذت قرارها، وشكراً للّه، إنها لم تكن خائفة، فهي لا تملك شيئاً لتفقد، وقد قر رأيها واستقر.

إذا ما استطاعت أن تراود ريت حتى يتزوجها، فإن كل شيء سيغدو على ما يرام، ولكن إذا لم تستطع. . . على كل حال، ستحصل على النقود، فالنتيجة هي ذاتها تماماً. وتساءلت لهنيهة قصيرة، وبفضول غامض، عما يتوقع عمله من خليلة. هل سيصر ريت على الاحتفاظ بها في أتلانتا كما احتفظ بالمرأة وتلينغ، على حد قول الناس؟ إذا هو أرغمها على الإقامة في أتلانتا، فعليه أن يدفع جيداً. . . يدفع جيداً، ثمناً يعادل ما يستحقه غيابها عن تارا. لقد كانت سكارلت تجهل الجانب الخفي من حياة الرجال، ولم يكن في وسعها معرفة ما يمكن أن تفرضه هذه المسألة عليها، وتساءلت عما إذا كانت ستضع طفلاً. إن ذلك سيكون أمراً رهيباً فاضحاً.

«لن أفكر في ذلك الآن، سأفكر فيه فيما بعد» ودفعت الفكرة المستنكرة إلى مؤخرة عقلها، لئلا تزلزل تصميمها. ستخبر العائلة الليلة بأنها ستذهب إلى أتلانتا لتحاول استدانة النقود، لتحاول رهن المزرعة إذا وجدت ذلك ضرورياً. وسيكون هذا كل ما يجب أن يعرفوه، إلى أن يحل اليوم الرهيب، حيث يمكن أن يكتشفوا الحقيقة المغايرة.

وعلى أثر التفكير في تنفيذ الخطة، ارتفع رأسها وارتدّت كتفها إلى الوراء. إن هذا الأمر لن يكون سهلاً، إنها تعرف ذلك. ففي الماضي، كان ريت هو الذي يطلب إحسانها، وكانت هي التي تمسك بالزمام،

بينما ستغدو الآن هي المستجدية، مستجدية في وضع لا يمكن معه إملاء أية شروط.

«ولكني لن أذهب إليه كمستجدية، سأذهب إليه كملكة تمنح الفضل، ولن يعرف شيئاً».

ومشت إلى مرآة الحائط الطويلة، ونظرت إلى نفسها، وشمخ رأسها عالياً. ورأت ضمن الإطار المذهب المتصدع إنساناً غريباً، وبدا كما لو كانت حقاً تشاهد نفسها لأول مرة منذ سنة. لقد كانت تنظر في المرآة كل صباح، لتتأكد من أن وجهها كان نظيفاً، وشعرها كان منسقاً، ولكنها كانت دائماً منهمكة جداً في الأمور الأخرى، بحيث لم تشاهد نفسها حقيقة. ولكن هذه الغريبة! حتماً إن هذه المرأة النحيلة الغائرة الوجنتين لا يمكن أن تكون سكارلت أوهارا، فسكارلت أوهارا تنعم بوجه أبيّ جميل مغناج، وهذا الوجه الذي كانت تحدق به لم يكن جميلاً قط، ولم يكن ينعم بشيء من الفتنة التي تتذكرها جيداً. كان وجهاً شاحباً متوتراً، وكان حاجباه الأسودان فوق العينين الخضراوين المائلتين، يجنحان إلى أعلى بصورة مجفلة في البشرة البيضاء كأنهما جناحا طير مذعور. لقد كان وجهاً ينطق بنظرة كسيرة قاسية.

«لست جميلة جداً كي أستطيع الفوز به!» فكرت وقد عاودها اليأس، «إني نحيلة... آه، إني نحيلة للغاية».

وربتت على وجنتيها، وتحسست عظام عنقها بعصبية، فأحست بها تبرز من خلال القميص. وكان ثدياها ضامرين كثيراً، صغيرين صغر ثديي ميلاني تقريباً، الأمر الذي سيضطرها إلى وضع كشاكش على صدرها كي تجعلهما يبدوان أكبر من حقيقتهما، وهي التي كانت دائماً تزدري البنات اللواتي كن يلجأن إلى حيلة كهذه. كشاكش! وقادها ذلك إلى فكرة ثانية، إلى موضوع ثيابها. ونظرت إلى فستانها، وفردت طياته المرقعة بين يديها. لقد كان ريت يحب النساء اللواتي كن أنيقات

الثياب، حديثات الأزياء. وتذكرت بلهفة الفستان الأخضر ذا الحواشي، الذي ارتدته عندما خلعت ثياب الحِداد لأول مرة، الفستان الذي ارتدته مع القبعة الخضراء ذات الريشة، القبعة التي جلبها ريت لها. وتذكرت مجاملات الإعجاب التي قدمها لها ريت، وتذكرت أيضاً، بكراهية يذكيها الحسد، الفستان الصوفي الأحمر الذي كانت ترتديه إيمي سلاتري، مع الحذاء الأحمر الرأس ذي الشرائط، والقبعة الشبيهة بقطعة الفطير. نعم، لقد كانت مزخرفة مبهرجة ولكنها كانت جديدة تماشي زي العصر، وكانت تأسر العين حتماً، وآه، كيف تريد هي أن تأسر العين!... وبخاصة عين ريت باتلر! إذا هو رآها في ثيابها العتيقة، سيعرف أن كل شيء سيّئ في تارا، بينما ينبغي ألّا يعرف شيئاً.

ما كان أغباها عندما فكرت أن في وسعها الذهاب إلى أتلانتا، وسوقه إلى أن يعرض الزواج بها، بها هي، بعنقها الهزيل وعينيها الجائعتين كعيني قطة، وفستانها الرث. وإذا كانت قد عجزت عن أن تنتزع منه الاقتراح بالزواج يوم كانت في أوج فتنتها، يوم كانت ترفل بأجمل أثوابها، فكيف يسعها الآن أن تتوقع الحصول على هذا الاقتراح وهي زرية المنظر رثة الثياب؟ وإذا كانت رواية الآنسة بيتي صادقة، فلا بد من أن يكون في حوزته نقود أكثر من أي إنسان آخر في أتلانتا، ولربما ظفر بكل النساء الجميلات، الصالحات والطالحات. على كل حال، هجست مكتئبة، إني أنعم بشيء لا تنعم به معظم السيدات الجميلات... عقل مصمِّم. وإذا ما ظفرت فقط بفستان بديع...

ولم يكن يوجد فستان بديع في تارا، أو فستان لم يكن قد قلب مرتين ورقع.

«تلك هي المسألة» فكرت ونظرت إلى الأرض مغتمة، فرأت

سجادة إيلين المخملية الخضراء بلون الطحلب، وقد أضحت الآن بالية مستهلكة ممزقة، ملطخة بفعل من نام عليها من الرجال الكثيرين، الذين لا يحصى عددهم. وزاد المنظر في غمها، لأنه جعلها تتحقق من أن تارا كانت رثة كرثاثتها هي. وأغمَّتها الغرفة المعتمة كلها فاتجهت إلى النافذة ورفعت الستار وفتحت مصراعيها، وسمحت بدخول شعاع الغروب الشتوي الأحمر، ثم أغلقت زجاج النافذة وأسندت رأسها إلى الستائر المخملية ونظرت إلى الخارج عبر المرعى الموحش، باتجاه أشجار الأرز القاتمة المنتصبة في المقبرة. وأحست بالسجف المخملية الخضراء الطحلبية اللون، لينة شائكة تحت وجنتيها، فحكّت وجهها بها شاكرة، كما تفعل الهررة، ثم فجأة نظرت إليها.

وبعد دقيقة، كانت تجر طاولة ثقيلة ذات سطح رخامي، راحت دواليبها الصدئة تقاوم صارَّة، ولكن سكارلت جرَّتها تحت النافذة، ولملمت تنورتها وصعدت فوقها واقفة على رؤوس أصابعها لتبلغ قضيب السجف الثقيل. كان بعيداً بعض البعد عن متناول يدها فأخذت تشد بالسجف بنفاد صبر، حتى إن المسامير خرجت من الخشب وهوت بالسجف والقضيب وكل شيء على الأرض بقرقعة مدوية.

وانفتح باب الردهة كما لو كان بفعل ساحر، وبرز منه وجه مامي الأسود العريض يتجلى في كل غضونه الفضول المتوقد والشك العميق. ونظرت بعين عديمة الرضى إلى سكارلت، التي وقفت على الطاولة باتزان، تنورتها فوق ركبتيها، متأهبة للوثوب إلى الأرض، وقد شع وجهها بنظرة الفرح والنصر، الأمر الذي أثار ريبة مفاجئة في مامي.

- «ما شأنك وستائر الآنسة إيلين؟» استوضحت.

- «ما شأنك والتنصت خارج الأبواب؟» سألت سكارلت وقفزت إلى الأرض بخفة، ثم لملمت قطعة طويلة من المخمل الثقيل المغبر.

- «أنا لا أتنصت عليك، لا خارج الباب ولا داخله» أجابت مامي وأعادت نفسها إلى الشجار، «لا شأن لك بستائر الآنسة إيلين. تنزعين مسامير الأعمدة من الخشب، وتسقطينها على الأرض فوق الأوساخ. لقد كانت الآنسة إيلين تهتم كثيراً بستائرها، وأنا لا أريد أن أدعك تتلفينها بهذه الصورة».

فأدرات سكارلت عينين خضراوين نحو مامي، عينين كانتا محمومتين طرباً، عينين تشبهان الفتاة الغرة الطلعة، فتاة الأيام القديمة الطيبة التي كانت مامي تتنهد تحسراً من أعمالها.

- «أسرعي إلى العلّية يا مامي وأحضري علبة نماذج فساتيني» صاحت سكارلت ودفعت مامي قليلاً، «فسأظفر بثوب جديد».

كانت مامي تتمزق غيظاً بين سخط لمجرد فكرة انطلاقها مسرعة بوزنها البالغ مئتي رطل إنجليزي إلى أي مكان وخصوصاً العلية، وبين انبثاق شك مريع، وبسرعة انتزعت الستائر من سكارلت وضمّتها إلى ثدييها الرجراجين الكبيرين كما لو كانت آثاراً مقدسة.

- «ليس من سجف الآنسة إيلين ستظفرين بثوبك الجديد، إذا كان ذلك ما تفكرين فيه. لن تتمكني من ذلك ما دمت أملك نفساً في صدري».

ولهنيهة، انتشر التعبير عن العناد الذي اعتادت مامي أن تصف به سكارلت في نفسها، انتشر في وجه سيدتها الشابة، ثم تحول إلى ابتسامة كان من الصعب جداً على مامي أن تقاومها. غير أن هذه الابتسامة لم تخدع المرأة العجوز إذ أدركت أن الآنسة سكارلت كانت تستعمل الابتسامة فقط لتتمكن منها، ولكنها في هذه المرة صممت على أن لا تتمكن منها.

- «مامي، لا تكوني لئيمة، إني ذاهبة إلى أتلانتا لاستدانة بعض المال، وعليَّ أن أرتدي فستاناً جديداً».

- «لست في حاجة إلى فستان جديد، فجميع النساء الأخريات لا يملكن فساتين جديدة. إنهن يرتدين أثوابهن القديمة، ويرتدينها بكبرياء. وليس من عار في أن ترتدي ابنة السيدة إيلين ثياباً رثة إذا ما اضطرت إلى ذلك، وسيحترمها الجميع كما لو كانت تلبس الحرير».

- «اسمعي يا مامي، أنت تعرفين أن العمة بيتي كتبت لنا بأن الآنسة فاني إلسينغ ستتزوج السبت القادم، وطبعاً سأذهب إلى حفلة الزفاف، وسأحتاج إلى فستان جديد لأرتديه».

- «الفستان الذي ترتدينه الآن، سيكون بديعاً كفستان زفاف الآنسة فاني نفسه. لقد كتبت الآنسة بيتي تقول إن آل إلسينغ فقراء جداً».

- «ولكن لا بد لي من فستان جديد. مامي، أنت تعرفين كم هي حاجتنا إلى المال. إن الضرائب...».

- «أجل، إني أعرف كل شيء عن الضرائب، ولكن...».

- «تعرفين؟».

- «طبعاً، لقد منحني اللّه أذنين، أليس كذلك، ولأسمع بهما؟ خصوصاً عندما لا يكلف السيد ويل نفسه مشقة إغلاق الباب».

أيوجد شيء لم تسترق مامي سماعه؟ وتعجبت سكارلت كيف يستطيع ذلك الجسد الثقيل الذي يهز الأرض، أن يتحرك بخلسة فظيعة كهذه، وذلك عندما تنوي صاحبته أن تسترق السمع.

- «حسناً، إذا كنتِ قد سمعتِ كل ذلك، فأظن أنك سمعت أيضاً جوناس ويلكرسون وإيمي...».

- «أجل» قالت مامي بعينين تتقدان كمداً.

- «إذن، لا تكوني بغلة، ألا ترين أن عليَّ أن أذهب إلى أتلانتا، وأحصل على مال من أجل الضرائب؟ عليَّ أن أحصل على بعض المال، عليَّ أن أقوم بذلك!».

وضربت قبضة صغيرة على القبضة الأخرى.

- «باسم الإله يا مامي، سيطردوننا جميعاً إلى الطريق، وعندئذ أين سنذهب؟ هل ستناقشينني حول قضية صغيرة عن سجف أمي، في الوقت الذي تعزم فيه إيمي سلاتري، تلك الحقيرة التي قتلت إيلين، على أن تنتقل إلى هذا البيت وتنام في السرير الذي كانت تنام فيه والدتي؟».

وحوَّلت مامي ثقلها من قدم إلى قدم أخرى كفيل حرون، وشعرت شعوراً غامضاً بالهزيمة.

- «لا، أنا لا أريد أن أرى البيض الحقيرين في بيت السيدة إيلين، ولا أريد أن أرى أياً منا في الطريق، ولكن. . .» وصوبت نظرة اتهام مفاجئ إلى سكارلت، «ممن تعزمين على استدانة النقود، حتى إنك تحتاجين إلى فستان جديد؟».

- «ذلك» قالت سكارلت مشدوهة، «من شأني وحدي».

فرمقتها مامي بنظرة نفاذة، تماماً كما كانت تفعل عندما كانت سكارلت صغيرة السن، وكانت تحاول من دون نجاح أن تختلق أعذاراً مقبولة لتبرير ذنوبها. وبدا كأنها كانت تقرأ أفكار سكارلت، وأطرقت سكارلت عينيها كارهة، وقد شرع أول إحساس بالإثم من خطتها المقررة يزحف عليها.

- «وهكذا أنت في حاجة إلى فستان جديد، مزركش بديع، لتستديني النقود بواسطته، إن ذلك لا يبدو عملياً بالنسبة إليّ. وأنت لا تقولين من أين ستستدينين النقود».

- «إني لا أقول شيئاً» قالت سكارلت بسخط، «إن هذا من شأني أنا. هل ستعطينني ذلك الستار وتساعدينني في صنع الثوب؟».

- «أجل» قالت مامي برقّة مستسلمة بصورة مفاجئة أثارت شكوك

عقل سكارلت، «سأساعدك في صنعه، وإني أرى أنه ينبغي أن نصنع صدره من ساتان بطانة السجف، ونخيط سروالاً من الستائر الزاهية».

وناولت السجف المخملية إلى سكارلت، ووجهها تغمره ابتسامة ماكرة.

- «هل الآنسة ميلاني ذاهبة معك إلى أتلانتا يا آنسة سكارلت؟».

- «لا» قالت سكارلت بحدة، وقد بدأت تتبين ما سيتبع هذا السؤال. . . «إني ذاهبة وحدي».

- «ذلك ما تفكرين فيه» قالت مامي بحزم، «ولكني سأذهب معك، ومع ذلك الفستان الجديد. أجل يا سيدة، سأرافقك كل خطوة من الطريق».

ولهنيهة قصيرة، تخيلت سكارلت رحلتها إلى أتلانتا، وحوارها مع ريت، ومراقبة مامي المتيقظة ككلب سيربيروسي[1] كبير أسود يكمن خلف المسرح، فابتسمت ثانية ووضعت يدها على ذراع مامي.

- «مامي عزيزتي، أنت مخلصة لأنك تريدين الذهاب معي، ومساعدتي، ولكن كيف يستطيع الجماعة هنا تدبير الأمور من دونك؟ أنت تعرفين أنك تديرين تارا تقريباً!».

- «هاه!» قالت مامي، «إن هذا الكلام العذب لا يجدي معي يا آنسة سكارلت، إني أعرفك منذ لففتك بأول دثار. . . لقد قلت إني سأذهب معك إلى أتلانتا وإني سأذهب. ستتقلب الآنسة إيلين في قبرها إن ذهبت وحدك إلى هناك والمدينة تعج بالشماليين والزنوج المحررين ومن هم على شاكلتهم».

- «ولكني سأكون تحت مراقبة العمة بيتي بات» اقترحت سكارلت بعصبية.

---

(1) كلب أسطوري يقال إن له ثلاثة رؤوس - (المترجمان).

- «إن الآنسة بيتي امرأة طيبة، وهي تعتقد أنها ترى كل شيء، ولكن الأمر ليس كذلك» قالت مامي واستدارت خارجة إلى القاعة، وقد غمرها المظهر الجليل لأنها أنهت المقابلة. واهتزت الألواح الخشبية عندما راحت تنادي:

- «برسي، أيتها الفتاة، اصعدي الدرج بسرعة وأحضري من المقصورة علبة سكارلت التي تحتوي نماذج الخياطة، وحاولي أن تجدي المقص دون أن تستغرقي الليل بطوله في البحث».

- «هذه ورطة معقدة» فكرت سكارلت مكتئبة، «فسرعان ما سيتبعني كلب».

* * *

بعد أن رفعت أطباق العشاء تلك الليلة، نشرت سكارلت ومامي نماذج الأزياء على مائدة غرفة الطعام، بينما انهمكت سولين وكارين في قص بطانة الستائر الساتانية، وميلاني في إزالة غبار المخمل بفرشاة شعر نظيفة، أما جيرالد وويل وآشلي فجلسوا في الغرفة يدخنون ويبتسمون على هذه الضوضاء النسوية. وقد أحس الجميع بإحساس من الانفعال البهيج، طهر كان مصدره سكارلت، انفعال لم يستطيعوا فهمه. فلقد كان هناك لون في وجه سكارلت، وبريق صارم لألاء في عينيها، كما أنها ضحكت ضحكاً كثيراً. ولقد سرَّهم ضحكها كثيراً لأنه كانت قد مضت شهور منذ سمعوها تضحك، وخصوصاً جيرالد الذي كانت عيناه أقل شروداً من المعتاد وهما تتبعان شخصها ذا الحفيف يتنقل في الغرفة، والذي كان عليها راضياً كلما أضحت في متناول يده. وكذلك شقيقتاها فإنهما كانتا مسرورتين كأنهما تحضّران من أجل حفلة رقص، وراحتا تفتقان وتقصان وتلفقان كأن كلاً منهما كانت تعدّ فستان رقص لنفسها.

كانت سكارلت ذاهبة إلى أتلانتا لتستدين مالاً أو لترهن تارا إذا

اقتضت الضرورة، ولكن كيف سيكون فك الرهن أخيراً؟ قالت سكارلت إنهم يستطيعون بسهولة دفع جميع المال وفك الرهن من قطن السنة القادمة، ورغم ذلك يبقى مال لديهم. ولقد قالت ذلك بصورة جازمة بحيث إنهم لم يفكروا في الاستيضاح.

وعندما سألوا عمَّن سيقرض المال، قالت: «الصابرون يغلبون الفضوليين» قالتها بمكر شديد، بحيث ضحك الجميع وراحوا يستفزونها في موضوع صديقها صاحب الملايين.

- «لا بد أن يكون الكابتن ريت باتلر» قالت ميلاني بخبث، وانفجر الجميع ضاحكين على هذه الحماقة، فقد كانوا يعرفون شدة بغض سكارلت له، وكيف أنها لم تفشل يوماً في أن تشير إليه بـ. . . ذلك الظربان، ريت باتلر.

بيد أن سكارلت لم تضحك على هذه الدعابة، وكذلك كف آشلي عن الضحك فجأة عندما رأى مامي تصوب نظرة مراقبة سريعة نحو سكارلت.

أما سولين التي تحرَّك فيها عنصر الكرم بفعل روح الجماعة التي تجلّت في تلك المناسبة، فقد قدمت لفاعها الإيرلندي المخرم الذي ما زال بديعاً رغم اهترائه النسبي، بينما أصرت كارين على أن ترتدي سكارلت خفَّيها في رحلتها إلى أتلانتا لأنهما كانا أفضل خفَّين في تارا، والتمست ميلاني من مامي أن تترك لها من الأقاصيص المخملية ما يكفي لتجديد إطار قبعتها البالي، وأثارت الضحك المدوي عندما قالت إن الديك الهرم سيساهم في تقديم ريش ذيله البرونزي والأخضر القاتم، إلا إذا فر إلى الهور فوراً.

وكانت سكارلت وهي تراقب الأصابع الملوحة، وتسمع الضحك، تنظر إلى الجميع بازدراء ومرارة مكتومة.

«ليس لديهم أدنى فكرة عما يحدث حقيقة لي، أو لهم أنفسهم أو

للجنوب. إنهم ما انفكوا يفكرون رغم كل الوقائع، أنه لن يقع لأي منهم أي حادث مريع حقاً لأنهم من آل أوهارا وويلكس وهاملتون. حتى الزنوج كانوا يشعرون بالشعور نفسه... آه إنهم جميعاً أغبياء! إنهم لن يدركوا الواقع! بل سيستمرون في التفكير والعيش كما كانوا دائماً، ولن يغيرهم شيء. إن في وسع ميلاني أن ترتدي الخرق وتقطف القطن، وحتى أن تساعدني في قتل رجل، ولكن ذلك لن يغيرها. إنها ما زالت السيدة ويلكس الحيية الراقية النشأة، السيدة الكاملة! وإن في وسع آشلي أن يرى الموت والحرب وأن يجرح ويرقد في السجن ثم يبقى الرجل ذاته الذي كانه يوم كانت جميع تولف أوكس تدعمه... أما ويل، فقد كان أمره يختلف عن الباقين. إنه يعرف حقائق الوضع ولكنه لا يملك شيئاً ليفقده. وأما سولين وكارين... فإنهما تعتقدان أن كل هذه الضائقة مسألة مؤقتة. إنهما لم تتغيرا لتواجها الظروف المتغيرة، لأنهما تفكران أن كل شيء سينتهي سريعاً، كما تفكران أن اللّه سيأتي بمعجزة، من أجل سعادتهما خصوصاً. بيد أن اللّه لن يفعل ذلك، والمعجزة الوحيدة التي ستجري هنا هي تلك التي سأجريها على ريت باتلر... إنهما لن تتغيرا، وربما ليس في مقدورهما أن تتغيرا.. والذي تغير فقط هو أنا... وما كنت لأتغير لو استطعت ذلك».

وأخرجت مامي الرجال أخيراً من غرفة الطعام وأغلقت الباب حتى يمكن الشروع بالقياس. وساعد بورك جيرالد في الصعود إلى الطابق العلوي كي يأوي إلى فراشه، بينما ترك آشلي وويل وحيدين في ضوء الشمعة، في القاعة الأمامية. وانقضت برهة وهما صامتان، وكان ويل يمضغ التبغ كحيوان مجتر مطمئن، ولكن وجهه الوادع كان بعيداً عن الاطمئنان.

– «هذه الرحلة إلى أتلانتا» قال أخيراً في صوت بطيء، «لا تروقني أبداً».

فنظر آشلي إليه بسرعة، ثم تطلع بعيداً دون أن يقول شيئاً، ولكنه تساءل عما إذا كان ويل يحس بالشك الرهيب ذاته الذي كان يلازمه هو. . . بيد أن ذلك كان محالاً، فويل لا يعرف الذي حدث في البستان بعد ظهر ذلك اليوم وكيف أن الحادثة أودت بسكارلت إلى اليأس، ولم يكن في وسع ويل ملاحظة وجه مامي عندما ذكر اسم ريت باتلر، بالإضافة إلى أن ويل يمكن أن يكون على علم بهذه الأمور، غير أنه منذ عودته إلى تارا، تبين أن ويل يبدو كمامي، يعرف الأمور دون أن يخبر بها، ويدركها قبل أن تقع. لقد كان في الجو نذير شؤم، لم يعرف آشلي حقيقته بالضبط، غير أنه كان عاجزاً عن إنقاذ سكارلت منه. ولم تكن عيناها قد التقتا بعينيها مطلقاً في تلك الأمسية، وكانت خفة الروح المشرقة الصارمة التي عاملته بها مرعبة. وكانت الشكوك التي تناهشته رهيبة جداً، بحيث يتعذر التصريح بها، إذ لم يكن يملك الحق في إهانتها وذلك عن طريق سؤالها عما إذا كانت شكوكه صحيحة. وضغط قبضته. إنه لم يكن يملك حقوقاً أبداً في ما كان شأنها هي. لقد فقد بعد ظهر ذلك اليوم كل حقوقه، وإلى الأبد. ولذلك لم يكن في وسعه مساعدتها، لا لم يكن في وسع أحد أن يساعدها. ولكنه عندما يفكر في مامي وفي نظرة التصميم الحاسم التي غمرت وجهها، وهي تقص السجف المخملية، انتعش فؤاده قليلاً. فمامي ستحرص على سكارلت، سواء رغبت سكارلت في ذلك أم لم ترغب.

«لقد كنتُ السبب في كل هذا» فكر قانطاً، «لقد قدتها إلى هذا»، وتذكر الكيفية التي رفعت بها كتفيها عندما استدارات وفارقته بعد ظهر ذلك اليوم، وتذكّر إعلاءة رأسها المصممة، وخرج قلبه إليها ممزقاً بعجزه عن إتيان أي شيء، معتصراً بالإكبار. لقد كان يعرف أن سكارلت لا تملك في قاموسها أي كلمة كالشهامة. . . وكان يعرف أنها

كانت ستحملق فيه بذهول لو أنه أخبرها أنها أعظم إنسانة شهمة عرفها في حياته. وكان يدرك أنها لم تكن لتفهم أي صفة رائعة حقاً، كان ينسبها إليها وهو يفكر فيها كإنسانة شهمة. وكان يدرك أن سكارلت تقبلت الحياة كما جاءتها وأنها تجابه بعقلها ذي الأنسجة المتينة، أي عقبات يمكن أن تقف في دربها، وأنها تتابع القتال بعزم لا يعرف الهزيمة، وأنها تستمر في القتال حتى عندما ترى أن الهزيمة أمر محتوم.

ولكن خلال أربع سنوات، كان آشلي قد رأى أناساً آخرين يرفضون أن يعرفوا الهزيمة، رجالاً يمتطون خيولهم هازجين نحو الكارثة المحققة لأنهم كانوا شهاماً، ولقد هُزموا... فكان الأمر عندهم سيان.

وفكر آشلي وهو يرنو إلى ويل في القاعة المعتمة أنه لم يعرف في حياته شهامة كشهامة سكارلت أوهارا، تخرج لتهزم الدنيا في سجف أمها المخملية وريش ذيل الديك.

33

كانت ريح باردة تهبّ بعنف، وكانت السحب التي تزجيها الريح في السماء رمادية قاتمة بلون الأردواز، عندما نزلت سكارلت ومامي من القطار في أتلانتا بعد ظهر اليوم التالي. ولم يكن قد أعيد بناء المحطة منذ أن أُحرقت المدينة، ولذلك نزلتا بين الرماد والوحل، على بُعد ياردات قليلة، شمال الحطام الأسود الذي يشير إلى موقع المحطة. وتطلعت سكارلت حولها، بدافع العادة القديمة، تبحث عن العم بيتر وعربة العمة بيتي بات، حيث كانت تلتقي بهما دائماً عند عودتها من تارا إلى أتلانتا أثناء سني الحرب، ولكنها ما عتمت أن فطنت إلى نفسها بشهقة استنكار لهذا الشرود الذهني، فمن الطبيعي أن لا يكون بيتر في انتظارها الآن، لأنها لم تكن قد أشعرت العمة بيتي بقدومها، بالإضافة إلى أنها كانت تعرف أن إحدى رسائل السيدة العجوز كانت قد ذكرت بحزن دامع موت الحصان الهرم الذي كان قد ظفر به بيتر في ميكون ليعيدها إلى أتلانتا بعد الاستسلام.

وألقت سكارلت نظرة على الساحة المحفوفرة الممزقة التي تكتنف المحطة، تنشد رؤية تابع من أتباع إحدى صديقاتها أو معارفها القدامى بعربته ليحملهما إلى بيت العمة بيتي، ولكنها لم تتبين أحداً، لا أسود ولا أبيض. من المرجح أن لا تكون أيٌّ من صديقاتها القدامى تملك عربة الآن، إذا كان ما كتبته لهم العمة بيتي حقيقياً، لقد كانت الأيام

عسيرة جداً، بحيث كان من الصعب إطعام وإسكان البشر، فكيف بالحيوان! وكان معظم صديقات بيتي، يتنقلن على أقدامهن هذه الأيام مثلما كانت تفعل هي.

كانت هناك عربات قليلة تنقل حمولتها إلى شاحنات البضاعة، وكان عدد من عربات الركوب الصغيرة الملطخة بالوحل، يقودها غرباء خشان المظهر، ولم يكن يوجد سوى عربتي ركوب عاديتين فقط، إحداهما مقفلة والثانية مكشوفة تشغلها امرأة أنيقة اللباس وضابط شمالي. وعند رؤية البزة العسكرية، شهقت سكارلت بحدة. فمع أن بيتي كانت قد كتبت تقول إن حامية شمالية كانت تعسكر في أتلانتا، وإن الشوارع كانت تعج بالجنود، إلا أن النظرة الأولى إلى المعطف الأزرق أجفلت سكارلت وأرعبتها. لقد كان من الصعب أن يتذكر المرء أن الحرب قد انتهت، وأن هذا الرجل لن يطاردها ويسرقها ويهينها.

وحمل الفراغ النسبي حول المحطة، عقل سكارلت إلى ذلك الصباح من عام 1862 عندما كانت قد أتت إلى أتلانتا كأرملة شابة يلفّها ثوب الحِداد وتُثقلها الهموم. وتذكرت كم كان هذا المكان مزدحماً بالشاحنات والعربات وسيارات الإسعاف وكم كان صاخباً بالسواقين يشتمون ويصفرون، وبالناس يحيّون أصدقاءهم. وتنهدت ألماً على الهرج المرح الذي عمّ أيام الحرب، وتنهدت ثانية عندما فكرت أنها ستمشي كل الطريق إلى بيت العمة بيتي، ولكنها كانت قوية الأمل في أن تلقى في شارع بيتشتري بعض من كانت تعرفهم فيقدّم لها ركوباً.

وبينما وقفت تنظر حولها، ساق زنجي متوسط السن ذو بشرة بلون السرج، ساق عربته المغلقة تجاهها ثم انحنى من الصندوق مستوضحاً: «عربة يا سيدة؟ ببنسين أحملكما إلى أي مكان في أتلانتا».

فقذفته مامي بنظرة مدمرة.

- «حصان مستأجر!» قالت متجهمة الوجه، «هل تعرف أيها الزنجي من نحن؟».

كانت مامي زنجية ريفية، ولكنها لم تكن دائماً زنجية ريفية، ولذلك كانت تعرف أن أياً من السيدات الطاهرات، لم تركب مرة ركوباً مستأجراً - خصوصاً عربة مقفلة - دون أن يكون معها حارس من أعضاء أسرتها الذكور. وحتى وجود امرأة زنجية لم يكن ليرضي التقاليد، ولذلك حدقت في سكارلت عندما رأتها تتطلع بلهفة لركوب العربة.

- «هيا من هذا المكان يا آنسة سكارلت، عربة مستأجرة، وزنجي محرر! حسناً، إنها شركة ممتازة».

- «أنا لست زنجياً محرراً» أعلن الزنجي بحرارة، «إني أخص السيدة تالبوت العجوز وها هي عربتها، وإني أسوقها لأحصل نقوداً لها».

- «أي تالبوت هذه؟».

- «الآنسة سوزانا تالبوت من ميلدجفيل. لقد نزحنا إلى هنا بعد أن قُتل مارس العجوز».

- «هل تعرفينها يا آنسة سكارلت؟».

- «لا» قالت سكارلت بأسف، «إني أعرف أناساً قليلين جداً من ميلدجفيل».

- «إذن سنمشي» قالت مامي بوجه عابس، «تابع طريقك أيها الزنجي».

وتناولت كيس الخيش الذي كان يحوي ثوب سكارلت المخملي الجديد وطاقيتها ولباس نومها، ودسّت تحت إبطها المنديل الأنيق الذي قد صرّت أغراضها به، ثم قادت سكارلت كالغنمة، عبر بقعة

الرماد الرطب. ولم تناقشها سكارلت في الأمر رغم أنها كانت تفضّل الركوب كثيراً، ذلك لأنها لم تكن ترغب في أي خصام مع مامي، فمنذ أمسية الأمس، عندما اكتشفتها مامي مع السجف المخملية، وعينا هذه تنطق بشك حذر لم تطمئن سكارلت إليه بل أدركت أنه سيكون من العسير عليها الإفلات من مراقبتها، ولم تكن تنوي إثارة دم الزنجية المتحفز للقتال، قبل أن تقتضي الضرورة الملطقة ذلك.

وبينما كانتا تسيران على الرصيف الضيق باتجاه بيتشتري، شعرت سكارلت بالخيبة والأسف الشديدين، لأن أتلانتا كانت تبدو مقفرة جداً، تختلف عما كانت تتذكر. ومرّتا إزاء ما كان يدعى بفندق أتلانتا حيث كان ينزل ريت والعم هنري، ولم يكن قد بقي من ذلك الفندق الفخم سوى جدار خارجي هو جزء من الجدران المسودة. ولم تكن مخازن الذخيرة التي كانت تمتد بمحاذاة السكة الحديد لمسافة ربع ميل، والتي كانت تحوي أطنان العتاد الحربي، لم تكن قد أعيد بناؤها، فكانت أسسها القائمة الزوايا تبدو كئيبة تحت السماء القاتمة. وكذلك بدت خطوط السكة الحديد عارية مكشوفة بعد أن زال سور البنايات عن كلا الجانبين، وبعد أن ذهبت حظيرة السيارات، وفي مكان ما، بين هذا الدمار، كان يثوي بصورة لا يمكن تمييزها، ما تبقى لسكارلت من المخزن الذي كان تشارلز قد خلفه لها من الأملاك. وكان العم هنري قد دفع بالنيابة عنها ما ترتب على البناء من ضرائب السنة الماضية، فكان عليها أن تسدد له المال يوماً ما، الأمر الذي كان يعني بالنسبة إلى سكارلت عبئاً آخر يقلقها.

وعندما عطفتا إلى شارع بيتشتري، ونظرت سكارلت تجاه فايف بوينتس، صاحت منذهلة، فعلى الرغم من كل الذي كان فرانك قد أخبرها به من أن المدينة قد أحرقت وسوّيت بالأرض، لم تكن قد تصورت قبل الآن معنى الدمار الكامل، لقد كانت المدينة التي أحبتها

لا تزال قائمة في تفكيرها، ملئية بالمخازن المغلقة والبيوت الجميلة، ولكن شارع بيتشتري هذا الذي كانت تنظر إليه، كان مجرداً تماماً من معالم البناء بحيث بدا لها غريباً جداً كأنها لم تكن قد رأته من قبل.

هذا الشارع الموحل الممتد أمامها، الذي كانت قد عبرته ألف مرة خلال الحرب، والذي قطعته فراراً برأس جبان وساقين متسارعتين من الخوف عندما كانت القنابل تتفجر فوقها أثناء الحصار، هذا الشارع الذي رأته آخر مرة في عجلة ومرارة وعذاب يوم التقهقر، هذا الشارع كان يبدو الآن غريب المظهر كثيراً بحيث شعرت أنها على شفير البكاء.

ومع أن بنايات جديدة كثيرة كانت قد انتصبت في السنة التي انقضت منذ خروج شيرمان من المدينة المحروقة وعودة الحلفيين إليها، إلا أن مساحات واسعة فارغة كانت لا تزال تحيط بفايف بوينتس، حيث تتراكم أكوام من الآجر المكسر المسود بالدخان، وسط خليط من القاذورات والحشائش الميتة ونبات الحلفا الذي تُصنع منه المكانس.

كانت توجد بقايا مبانٍ قليلة تذكرتها سكارلت: جدران آجرية بلا سقوف، يشع ضوء الصباح الباهت خلالها، ونوافذ بلا زجاج فاغرة أفواهها، ومداخن تتعالى وحيدة. وكانت عيناها تميزان هنا وهناك، مخزناً مألوفاً لديها، كان قد نجا جزئياً من القنابل ومن النار، ثم رمم، فكان الآجر الأحمر الجديد يتألق مشرقاً وسط سخام الجدران القديمة. ورأت سكارلت على واجهات مخازن جديدة، وعلى نوافذ مكاتب جديدة، الأسماء المشجعة لرجال كانت تعرفهم، بيد أن الأسماء الغريبة كانت أكثر عدداً، خصوصاً ما بدا منها على عشرات اليافطات لأطباء ومحامين وتجار قطن غرباء. لقد كانت فيما مضى تعرف عملياً كل إنسان في أتلانتا، ولذلك كظّها منظر هذه الأسماء الغريبة الكثيرة.

ولكنها ما لبثت أن انتعشت بمنظر المباني الجديدة تقوم على طول الشارع.

كانت هناك عشرات الأبنية، والعديد منها قد ارتفع إلى ثلاث طبقات. وفي كل بقعة، كان البناء قائماً على قدم وساق، إذ إن سكارلت عندما نظرت نحو نهاية الشارع، تحاول أن تكيف عقلها مع أتلانتا الجديدة، سمعت صوت المطارق والمناشر المفرح، ولاحظت الصقالات ترتفع، ورأت الرجال يتسلقون السلالم بأحمال من الآجر على أكتافهم، وهكذا نظرت إلى أسفل الشارع الذي كانت قد أحبته كثيراً جداً، وغامت عيناها قليلاً.

وبينما كانت تسير في بيتشتري، تتبعها مامي المتهادية، رأت أن رصيفي الشارع كانا مزدحمين بالناس شأنهما في أوج الحرب، وكان هناك المظهر ذاته من الاندفاع والجلبة يميز المدينة المتجددة التي كانت قد جعلت قلبها يرقص عندما جاءتها منذ زمن طويل، في زيارتها الأولى للعمة بيتي، وبدا كأن هناك عربات كثيرة تخوض في الوحل، تماماً كما كانت كثيرة آنئذ، سوى أنه لم تكن توجد الآن عربات إسعاف حلفية، وكانت هناك أيضاً خيول وبغال عديدة مربوطة بحبال طويلة إلى مرابط مسننة أمام مظلات المخازن الخشبية، تماماً كما كانت عديدة من الماضي. وكانت الوجوه التي رأتها غريبة كاليافطات التي فوق رأسها: ناس جدد، رجال كثيرون خشان المظهر، ونساء مبهرجات الثياب. وكانت الشوارع سوداء بالزنوج المتكسعين الذين كانوا يستندون إلى الجدران أو يجلسون على حجارة الرصيف، يراقبون العربات المارة بفضول الأطفال السذج وهم يشاهدون سيركاً متجولاً.

- «زنوج ريفيون متحررون» قالت مامي متحدية، «إنهم لم يروا عربة خاصة في حياتهم. ويتطلعون بوقاحة أيضاً».

إنهم وقحون، وافقت سكارلت، لأنهم حدقوا بها بطريقة مهينة.

ولكنها نسيتهم بفعل الصدمة الناجمة عن رؤيتها المعاطف الزرقاء مجدداً. كانت المدينة ملأى بالجنود الشماليين: على الخيول، سائرين على أقدامهم، في عربات الجيش، أو متسكعين في الشوارع، أو خارجين من الحانات يترنحون.

- «لن آلفهم أبداً» هجست ضاغطة قبضتيها، أبداً، ثم خاطبت مامي من فوق كتفها، «أسرعي مامي، دعينا نخرج من بين هذه الزمرة».

- «إني على وشك أن أرفس هذا الزنجي الحقير من طريقي» أجابت مامي بصوت مرتفع وطوحت بكيس الخيش باتجاه تيس أسود تلكأ أمامها بصورة مغيظة، فجعلته يثب جانباً، «إني لا أحب هذه المدينة. آنسة سكارلت، إنها مزدحمة جداً بالشماليين وبالزنوج الحقيرين».

- «إن المكان ألطف حيث يقل الازدحام. وعندما نقطع فايف بوينتس، لن يكون الوضع سيئاً هكذا».

ونقبتا طريقهما فوق الحجارة المتتابعة الزلقة التي كانت تمتد كجسر في وحول شارع ديكاتور، ثم استمرتا في شارع بيتشتري خلال جمهور كان يتضاءل تدريجياً.

وعندما بلغتا كنيسة ويسلي، حيث كانت سكارلت توقفت مرة لتلتقط أنفاسها في ذلك اليوم من عام 1864 حين هرعت لتبحث عن الطبيب ميد، عندما بلغتاها نظرت سكارلت إليها وضحكت بصوت مرتفع، ضحكة رقيقة مقتضبة. وعندئذ نشدت عينا مامي المسنتان السريعتان عينيها بشك واستيضاح، غير أن فضولها مضى دون أن يشبع.

كانت سكارلت تتذكر بازدراء، الفزع الذي أصابها في ذلك اليوم، لقد كانت تحبو من الخوف وهي منهارة من الرعب، مذعورة من

الشماليين، فزعة من اقتراب مولد بو. وقد تساءلت الآن كيف أمكن أن تكون فزعة إلى تلك الدرجة، فزعة كطفل أرعبه صوت مدوٍّ، وأي طفل قد كانته لتفكر أن الشماليين والنار والهزيمة هي أسوأ الأشياء التي يمكن أن تقع لها! أي أمور تافهة كانت هذه أمام موت إيلين وخبل جيرالد، أمام الجوع والبرد والعمل القاصم للظهر وحياة القلق الرهيبة!... كم ستجد من السهل الآن أن تكون شجاعة أمام جيش غازٍ، ولكن كم كان من الصعب مواجهة الخطر الذي يهدد تارا! لا، لن تخاف ثانية من أي شيء سوى الفقر.

وصلت عربة مغلقة من شارع بيتشتري، ومشت سكارلت إلى حافة الرصيف بلهفة، لترى ما إذا كانت تعرف الراكب، لأن بيت العمة بيتي كان لا يزال على بعد عدة قسائم من الأبنية. واشرأبت هي ومامي إلى الأمام عندما حاذتهما العربة. وكادت سكارلت تنادي وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة مصطنعة، عندما ظهر رأس امرأة من النافذة لهنيهة قصيرة... رأس أحمر كثير البهاء تحت قبعة من الفرو البديع. فتراجعت سكارلت خطوة إلى الوراء، عندما وثبت أمارات المعرفة المتبادلة إلى كلا الوجهين. كانت المرأة هي بيل وتلينغ، ولذلك مدت سكارلت أنفها بنظرة اشمئزاز قبل أن يختفي الرأس ثانية. لقد كان من الغريب أن يكون وجه بيل هو أول وجه أليف رأته.

- «من هي تلك؟» سألت مامي مستريبة، «إنها تعرفك ولكنها لم تنحنِ. إني لم أرَ أبداً شعراً بذلك اللون طوال حياتي، حتى ولا في عائلة تارلتون، إنه يبدو... إنه يبدو شعراً مصبوغاً».

- «إنها...» قالت سكارلت باقتضاب، وأسرعت في المشي.

- «هل تعرفين امرأة مصبوغة الشعر؟ إني أسألك من تكون؟».

- «إنها داعرة المدينة» قالت سكارلت بإيجاز، «وإني أصدقك القول إني لا أعرفها، لذلك كفّي عن الحديث».

- «يا اللّه!» تنفست مامي وتدلى شدقها وهي تنظر خلف العربة بفضول منفعل. ولم تكن مامي قد رأت امرأة داعرة ممتهنة منذ غادرت سافانا مع إيلين، قبل أكثر من عشرين سنة، وتمنت من كل قلبها لو أنها تأملت بيل بانتباه أكثر.

- «إنها تبدو أنيقة الثياب، كما أنها تمتلك عربة وحوذياً» دمدمت، «أنا لا أعرف كيف يغفل اللّه فيدع الساقطات ينجحن مثل هذا النجاح، بينما نحن الناس الطيبين، جائعون، ومعظمنا حفاة الأقدام».

- «لقد انقطع الإله عن التفكير فينا منذ سنين» قالت سكارلت بفظاظة، «ولا تقولي إن أمي تتقلب في قبرها وهي تسمعني أقول هذا أيضاً».

وأرادت أن تشعر بشعور رفيع فاضل تجاه بيل، ولكنها لم تستطع ذلك، وهجست بأنها إذا ما نجحت فإنها يمكن أن تكون على المستوى ذاته مع بيل، ويعيلها الرجل ذاته. ورغم أنها لم تأسف على قرارها مثقال ذرة، إلا أن المسألة سحقتها عندما وضحت في ضوئها الحقيقي: «لن أفكر فيها الآن» حدثت نفسها، ثم حثت الخطى.

ومرَّتا إزاء البقعة التي كان يقوم فيها بيت آل ميد، وكان قد بقي منه فقط درجتان حجريتان وممر يؤدي إلى لا شيء. أما المكان الذي كان يقوم فيه بيت آل ويتينغ، فكان أرضاً جرداء. حتى حجارة الأسس والمداخن الآجرية كانت قد ذهبت وبدت في مكانها آثار دواليب عربة شاحنة قد استعملوها في رحيلهم. وكان بيت آل إلسينغ الآجري لا يزال قائماً بسقف جديد وطابق ثانٍ جديد.

بينما كان بيت آل بونل قد رُقع وسُقف بصورة شوهاء، وبألواح خشبية خشنة بدلاً من الألواح المصقولة. ومع ذلك، فقد بدا منزلاً حياً رغم مظهره المهشم. غير أنه لم يكن في كلا المنزلين وجه مطل من

النافذة أو شخص يقف على الشرفة، الأمر الذي أفرح سكارلت، إذ لم تكن ترغب في التحدث إلى أحد الآن.

ثم بدا للعيان سطح منزل العمة بيتي المبلط حديثاً، بجدرانه الآجرية الحمراء. وخفق قلب سكارلت عند رؤيته. ما أعظم رحمة اللّه عندما لم يدعه يستوي مع الأرض بحيث يصعب ترميمه! واتفق إن كان العم بيتر خارجاً من الساحة الأمامية، وعندما رأى سكارلت ومامي تسيران على الطريق، انفرج وجهه الأسود عن ابتسامة عريضة غير مصدقة.

«إن في وسعي تقبيل الزنجي الأحمق الهرم إذ إني سعيدة جداً برؤيته»، هجست سكارلت بهناءة، ثم نادت: «أسرع وهيئ أملاح الإغماء لعمتي يا بيتر! أنا هي حقاً!».

* * *

تلك الليلة، حَوَتْ مائدة عشاء العمة بيتي عصيدة الذرة والفاصوليا الجافة، صنفي الطعام المحتومين. وبينما كانت سكارلت تأكل منهما، أقسمت إن هذين الصنفين لن يظهرا أبداً على مائدتها عندما تحوز المال ثانية. ومهما كان الثمن الذي ستضطر إلى دفعه في سبيل حيازة المال، فهي مصممة على أن تحوزه ثانية، مالاً أكثر مما يجب دفعه كضرائب عن تارا! ستحوز يوماً ما، وبطريقة ما، مقداراً كبيراً من المال حتى لو اضطرت إلى اقتراف جريمة في سبيل الحصول عليه.

وفي ضوء الشمعة الأصفر الذي كان ينير غرفة الطعام، سألت العمة بيتي عن وضعها المالي وهي تأمل، ضد منطق الأمل، أن يكون في وسع عائلة تشارلز إقراضها المال الذي تحتاج إليه. ولم تكن أسئلة سكارلت محنكة، ولكن بيتي، وقد غمرها الفرح بوجود من تتحدث إليه من أفراد عائلتها، لم تلاحظ الطريقة الساذجة التي صيغت بها الأسئلة، بل غرقت في الدموع، وهي تسرد تفاصيل مصائبها. كانت لا تعرف

أين ذهبت مزارعها وأموالها وعقاراتها في المدينة، وكل ما كانت تعرفه أن كل شيء قد زال، أو على الأقل، هذا ما كان قد أخبرها به شقيقها هنري، الذي لم يكن في وسعه دفع الضرائب عن ممتلكاتها. لقد ذهب كل شيء إلا البيت الذي كانت تعيش فيه، ولم تتوقف بيتي، إن البيت لم يكن بيتها، وإنما كان ملكية مشتركة بين ميلاني وسكارلت، بل أردفت قائلة إن شقيقها هنري بالكاد استطاع دفع الضرائب عن هذا البيت وإنه يمنحها مبلغاً صغيراً في كل شهر لتعيش به. ومع أنه كان من المهين جداً أن تأخذ مالاً منه، فقد كانت مضطرة إلى قبول ذلك.

- «يقول الأخ هنري إنه لا يعرف كيف سيوازن ماليته بهذا العبء الذي يحمله، وارتفاع الضرائب هذا، ولكن طبعاً من المحتمل أنه يكذب، وأنه يملك مقادير كبيرة من المال، وهو فقط لا يريد منحي الكثير».

أدركت سكارلت أن العم هنري لم يكن يكذب، فالرسائل القليلة التي كانت قد استلمتها منه تبيّن ذلك. لقد كان المحامي العجوز يكافح ببسالة لينقذ البيت والعقار الواقع في أسفل المدينة حيث كان يقوم مخزن الذخيرة، ليظل في حوزة ويد وسكارلت شيء سالم من الدمار. وكانت سكارلت تعرف أن العم هنري كان يتحمل هذه الضرائب نيابة عنها كتضحية كبيرة من جانبه.

«طبعاً، إنه لا يملك مالاً» فكرت سكارلت باكتئاب، «حسناً، لأشطبه والعمة بيت من قائمتي، والآن لم يبقَ أحد سوى ريت... سآخذ منه، وعليَّ أن أفعلها. ولكن ينبغي ألّا أفكر في ذلك الآن... ينبغي أن أقودها إلى الحديث عن ريت، وبذلك أستطيع، وبصورة منطقية، أن أقترح عليها دعوته لزيارتنا غداً».

وابتسمت وضغطت راحتي بيتي السمينتين بين يديها.

- «عمتي العزيزة» قالت، «دعينا نترك الحديث عن الأمور المغمة

كالمال، دعينا نتناساها ونتحدث عن أمور أكثر بهجة. ينبغي أن تخبريني كل شيء عن أصدقائنا القدامى. كيف هي السيدة ميريويذر، ومايبل؟ سمعت أن كريول الصغير، زوج مايبل، قد عاد إلى البيت سالماً. كيف حال آل إلسينغ، والدكتور ميد، والسيدة ميد؟».

فأشرقت بيتي بات سروراً بتغيير الموضوع، وتوقف وجهها الشبيه بوجه الطفل عن الارتعاش بالدموع، ثم راحت تقدم تقارير مفصلة عن الجيران القدامى، عما كانوا يفعلون ويلبسون ويأكلون ويفكرون. وتحدثت بنبرات الذعر كيف أن السيدة ميريويذر ومايبل كانتا، قبل عودة رينيه بيكارد من الحرب، تعيلان نفسيهما بصنع الفطائر وبيعها للجنود الشماليين، تصوري ذلك! وأحياناً كان يقف عشرون شمالياً في الساحة الخلفية لبيت آل ميريويذر ينتظرون انتهاء خبز الفطائر. أما الآن وقد عاد رينيه، فإنه يقود كل يوم عربة قديمة إلى معسكرات الشماليين، ويبيع الكعك والفطائر والبسكويت للجنود. وقد قالت السيدة ميريويذر إنها عندما تجمع نقوداً أكثر بقليل ستفتح فرناً في الحي التجاري من المدينة. ولم تكن بيتي ترغب في انتقادها، ولكنها مع كل ذلك قالت إنها نفسها تفضل الموت جوعاً على أن تمارس مثل هذه التجارة مع الشماليين. وألمحت إلى أنها تنظر نظرة احتقار إلى كل جندي تقابله، وإنها تعبر إلى جانب الشارع الآخر، بأشد ما تستطيع من أسلوب مهين، مع أن ذلك، كما قالت، كان من غير المناسب في الطقس الماطر. واستنتجت سكارلت أن أي تضحية، حتى لو كان إغراق الأحذية بالوحل، لا يمكن أن تعتبر كبيرة في اعتبار الآنسة بيتي في سبيل إظهارها الإخلاص للحلف.

أما السيدة ميد وزوجها الدكتور، فقد خسرا بيتهما عندما ضرب الشماليون المدينة بالقنابل. ولم يكونا يملكان المال أو القلب لإعادة بنائه، وذلك بعد أن توفي دارسي وفل. لقد قالت السيدة ميد إنها لا

تريد منزلاً أبداً، لأنه ما قيمة المنزل إن لم يكن فيه أولاد وأحفاد؟ لقد كانا يشعران بالعزلة تماماً، ولذلك ذهبا ليعيشا مع آل إلسينغ، الذين كانوا قد أعادوا بناء الجزء المتضرر من بيتهم. وكان السيد والسيدة ويتينغ يقيمان في إحدى غرفه أيضاً، كما أن السيدة بونل كانت تتحدث عن الانتقال إليه، إذا ما أسعدها الحظ بتأجير بيتها إلى أحد الضباط الشماليين وعائلته.

- «ولكن كيف يحشر الجميع أنفسهم داخل بيت واحد، فهناك السيدة إلسينغ وفاني وهيو. . . » صاحت سكارلت.

- «إن السيدة إلسينغ وفانِي تنامان في الردهة، وهوي في العلية» أوضحت بيتي التي كانت تعرف التنظيمات الداخلية لجميع أصدقائها. «عزيزتي، إني أمقت أن أخبرك بهذا، ولكن. . . السيدة إلسينغ تدعوهم ضيوفاً نزلاء ولكن. . . » وأخفضت بيتي صوتها، «إنهم في الحقيقة لا شيء سوى نزلاء بالأجرة وإن السيدة إلسينغ تدير منزلاً للإيجار، أليس ذلك مروِّعاً؟».

- «أعتقد أنه مذهل» قالت سكارلت باقتضاب، «إني أتمنى لو كان لدينا في تارا نزلاء بالأجرة، خلال السنة الماضية، بدلاً من النزلاء بالمجان، إذن لما وصلنا إلى هذه الحالة من الفقر الآن».

- «سكارلت، كيف يسعك التلفظ بهذا الكلام؟ لا بد أن تكون أمك المسكينة الآن تتقلب في قبرها من مجرد تفكير ابنتها في تقاضي نقود مقابل الضيافة في تارا. طبعاً، لقد اضطرت السيدة إلسينغ إلى الإقدام على ذلك اضطراراً، لأنهم في الوقت الذي كانت هي تقوم فيه بخياطة أنيقة، وفاني تتعاطى طلاء الخزف الصيني، وهيو يكسب نقوداً قليلة من تجوله لبيع الحطب، لم يستطيعوا سد مصروفاتهم. تصوري أن العزيز هيو يضطر إلى بيع الحطب متجولاً بعد أن كان قد وطد العزم

على أن يكون محامياً شهيراً. إني أكاد أبكي من هذه المهانة التي انحدر إليها أبناؤنا!».

وفكرت سكارلت في صفوف القطن تحت الشمس النحاسية المتوهجة في تارا، وكيف كان ظهرها يتألم وهي تنحني فوق النبات، وتذكرت ملمس قبضة المحراث بين راحتيها المنفطتين العديمتي الخبرة، وشعرت أن هيو إلسينغ لا يستحق أن يتفرد بعطف خاص، ما أسذج بيتي العجوز الحمقاء، وما أشد طمأنينتها، على الرغم من كل الدمار الذي يحيط بها.

- «إن لم يكن يحب البيع المتجول، فلماذا لايشتغل بالمحاماة؟ أَوَلا يوجد مجال لممارسة المرافعات القانونية في أتلانتا؟».

- «آه يا عزيزتي، بلى! يوجد مجال كبير لممارسة المحاماة، فالواقع أن كل إنسان يقاضي الآخر في هذه الأيام، ذلك لأن جميع الأبنية قد احترقت، ومخططات الحدود قد زالت، ولا يعرف أحد أين تبدأ أرضه وأين تنتهي. بيد أنه لن يسعك الحصول على نقود مقابل المرافعة، فلا أحد يملك مالاً. ولذا لزم هيو مهنة البيع المتجول... آه كدت أنسى، هل كتبت لك؟ ستتزوح فاني إلسينغ ليلة الغد، وطبعاً ينبغي حضورك. ستكون السيدة إلسينغ سعيدة جداً بزيارتك عندما تعرف أنك في المدينة. إني آمل أن يكون لديك ثوب آخر سوى ذاك وهذا لا يعني أنه ليس ثوباً جميلاً جداً يا عزيزتي، ولكن... حسناً، إنه يبدو بالياً نوعاً ما... آه هل لديك ثوب جميل؟ إني سعيدة جداً لأنه سيكون العرس الحقيقي الأول الذي سنقيمه في أتلانتا منذ قبيل سقوط المدينة. وسيتبع ذلك كعك وخمر ورقص. مع أني لا أعرف كيف يستطيع آل إلسينغ تأمين ذلك، فهم فقراء جداً».

- «من ستتزوج فاني؟ لقد فكرت أنه بعد مقتل دلاس ماكلور في غتيسبورغ...».

- «عزيزتي، ينبغي ألّا تنتقدي فاني، فليس من أحد مخلص للموتى كإخلاصك لتشارلي المسكين. دعيني أتذكر، ما اسمه؟ أنا لا أستطيع تذكّر الأسماء أبداً... توم فلان... لقد كنت أعرف أمه جيداً... كنا قد ذهبنا معاً إلى معهد الإناث في لاغرانج... كانت من آل توملنسون من لاغرانج، وكانت أمها... دعيني أتذكر... بركنز؟ باركنز؟ باركنسن! تلك هي. عائلة طيبة جداً من سبارطة. عائلة طيبة جداً، ولكن المشكلة... لا قيمة لذلك أبداً... حسناً، إني أعرف أنه ينبغي ألّا أقولها... ولكن لا أدري كيف تستطيع فاني إقناع نفسها بالتزوج منه!».

- «هل يشرب الخمر أو...».

- «لا يا عزيزتي! إن أخلاقه ممتازة، ولكنه جرح في أسفل جسده بقنبلة متفجرة أضرَّت بساقيه... وجعلتهما، حسناً إني أمقت استعمال الكلمة، ولكنها جعلته وزوازاً[1] فأضفت عليه مظهراً وضيعاً جداً أثناء المشي... إن الأمر لا يبدو حسناً جداً، إني لا أدري لماذا ستتزوجه».

- «على البنات أن يتزوجن على أي حال».

- «ليس عليهن ذلك، حقاً» قالت بيتي متكدرة، «إنني لم أضطر إلى ذلك أبداً».

- «لا يا عزيزتي، أنا لم أقصدك بقولي! فالجميع يعرفون كم كنت محبوبة وكم ما زلت إلى الآن. كيف لا، والقاضي العجوز اعتاد أن يسترق النظر إليك حتى إنني...».

- «ها سكارلت، صه! ذلك العجوز الأحمق!» قهقهت بيتي، وقد استعادت مزاجها الطيب، «ولكن علاوة على ذلك، فقد كانت فاني

---

(1) الوزواز من يمشي مقارباً للخطو مع تحريك الجسد - (المترجمان).

محبوبة جداً بحيث كان في وسعها الظفر بزوج أفضل. وأنا لا أعتقد أنها تحب توم هذا، الفلاني، أنا لا أصدق أنها تجاوزت فترة حِداد دلاس ماكلور الذي قُتل، ولكنها ليست مثلك يا عزيزتي. لقد بقيت أمينة جداً لتشارلي العزيز، مع أنه كان في وسعك الزواج عشرات المرات. لقد كنا، ميلي وأنا، نردد دائماً كم أنك مخلصة لذكراه، بينما كان الجميع يقولون إنك مغناج بلا قلب».

تغاضت سكارلت عن هذه الثقة غير اللبقة، وقادت بيتي بمهارة من الحديث عن صديق إلى صديق آخر، ولكنها كانت أثناء كل ذلك في صبر محموم لتوصل الأمر للحديث عن ريت. لم يكن من الملائم أبداً لها أن تسأل عنه مباشرة حال وصولها، إذ كان من الممكن أن يقود ذلك عقل العجوز إلى التفكير في قضايا كان من الأفضل عدم طرقها، سيحين الوقت الكافي لإثارة شكوك بيتي إذا رفض ريت التزوج بها.

وتابعت العمة بيتي ثرثرتها سعيدة، وقد سَرَّها كالطفل وجود من يستمع إليها، قالت إن الأمور في أتلانتا كانت في حالة رهيبة، بفعل تصرفات الجمهوريين الشائنة، ولم تكن توجد نهاية لأعمالهم وإن أسوأ الأمور كانت الطريقة التي يشرِّبون فيها رؤوس الزنوج الفقراء بالأفكار.

- «عزيزتي، إنهم يريدون أن يسمحوا للزنوج بالتصويت! هل سمعت في حياتك أمراً أسوأ من هذا؟ مع أني - لا أدري - لقد فطنت لذلك الآن، مع أني أرى أن العم بيتر يفهم أكثر من أي جمهوري رأيته. ولكن طبعاً، إن العم بيتر أرقى تنشئة بكثير من أن يرغب في التصويت. غير أن الفكرة بحد ذاتها، أثارت الزنوج، حتى إنهم أُفسدوا تماماً، وأضحى بعضهم في منتهى الوقاحة. إن الحياة ليست آمنة في الشوارع بعد الغروب، وحتى في وضح النهار إذ يقدمون على دفع النساء عن الرصيف إلى الوحل. وإذا ما تجرأ أحد الرجال الأفاضل

على الاحتجاج، فإنهم يقبضون عليه. . . عزيزتي، هل أخبرتك أن الكابتن ريت باتلر في السجن؟».

- «ريت باتلر؟».

وحتى رغم هذا النبأ المباغت، حمدت سكارلت اللّه لأن العمة بيتي وفّرت عليها ضرورة سوق اسمه إلى الحديث بنفسها.

- «أجل، حقاً!» وخضب السرور وجنتي بيتي واعتدلت في جلستها، «إنه في السجن الآن، في هذه الدقيقة، لأنه قتل زنجياً، وقد يعدمونه! تصوري أن الكابتن باتلر يُعدَم!».

وللوهلة الأولى، خرج النفس من رئتي سكارلت بزفرة ممرضة، ولم يسعها إلا التحديق في السيدة العجوز البدينة التي كانت صريحة البهجة للصدى الذي لاقاه نبأها.

- «لم يُثبتوا الجرم عليه حتى الآن، ولكن شخصاً قتل هذا الزنجي الذي كان قد أهان امرأة بيضاء. والشماليون ثائرون جداً، لأن عدداً كبيراً من الزنوج المتطاولين قد قُتل مؤخراً. إنهم لن يستطيعوا إثبات الجرم على الكابتن باتلر، ولكنهم يريدون أن يضربوا مثلاً على عقابهم الصارم، بأحد الناس. هذا ما يقوله الدكتور ميد. ويقول الدكتور ميد أيضاً إنهم إذا ما أعدموه، فسيكون ذلك أول عمل شريف قام به الشماليون. ولكن عندئذ. . . لست أدري. . . وليفكر الإنسان كيف أن الكابتن باتلر كان هنا منذ أسبوع، وجلب لي هدية: أجمل قبّرة رأتها عيناك. كما أنه سألني عنك وقال إنه يخشى أن يكون قد أساء إليك أثناء الحصار، وإنك لن تسامحيه أبداً».

- «كم سيبقى في السجن؟».

- «لا أحد يعرف، ربما إلى أن يعدموه. ولكن قد لا يستطيعون في النهاية أن يثبتوا جريمة القتل عليه. على كل حال، يبدو أن

الشماليين لا يهمهم أكان الناس مجرمين أم أبرياء ما دام في وسعهم إعدام أحد الرجال. إنهم ثائرون جداً». وخفضت صوتها إلى درجة السرية - «أما فيما يتعلق بجماعة الكوكلوكس كلان، فهل يوجد منهم في مقاطعتكم؟ عزيزتي، إني واثقة أن لا بد من وجودهم هناك، وإنما آشلي لا يخبركن أنتن البنات بشيء عن هذه الجماعة، فليس من المفروض أن يعلن رجال الكوكلوكس كلان عن وجودهم. إنهم يتجولون في الليل، متزيين كأشباح، ويزورون الكاربت بكرز الذين يسرقون المال، والزنوج المغرورين المتعجرفين. وهم أحياناً يكتفون بإخافتهم وإنذارهم بمغادرة أتلانتا، ولكن عندما لا يحسن هؤلاء سلوكهم، يجلدونهم» وهمست بيتي: «يقتلونهم أحياناً ويتركونهم حيث يمكن اكتشاف جثثهم بسهولة، وبطاقة الكوكلوكس كلان عليهم... والشماليون حانقون جداً من هذا العمل، ويريدون أن يضربوا عبرة للناس بأحد الناس... على أن هيو إلسينغ أخبرني أنه لا يعتقد أنهم سيعدمون الكابتن باتلر، لأنهم يعتقدون أنه يعرف أين توجد الأموال التي كانت للحلف، غير أنه لا يريد أن يصرح بذلك، وهم يحاولون إرغامه على التصريح».

- «الأموال؟».

- «ألم تعرفي؟ ألم أكتب إليك؟ عزيزتي، لقد كنت مطمورة في تارا، أليس كذلك؟ لقد لغطت المدينة بذلك، عندما عاد الكابتن باتلر إليها بحصان جميل وعربة، وجيوبه مليئة بالنقود، بينما كنا جميعاً لا نعرف من أين نأتي بوجبة طعامنا التالية. ولقد أثار حنق الجميع أن يملك مضارب قديم، كان دائماً يتلفظ بعبارات مسيئة عن الحلف، مثل هذه الأموال الوفيرة بينما نحن جميعاً في غاية الفقر، وتميز الجميع غيظاً لأن يعرفوا كيف استطاع أن يوفر أمواله، بيد أن أحداً لم يكن يملك الشجاعة ليسأله... إلا أنا، وما كان منه إلا أن ضحك وقال:

«بطريقة غير شريفة، يمكنك أن تثقي بذلك»، وأنت تعرفين ما أصعب ان يحصل المرء على شيء معقول منه».

- «ولكن بالطبع، لقد جمع ثروته من التهريب...».

- «بالطبع جمع جزءاً منها بهذه الطريقة، يا حلوتي، ولكن ذلك الجزء ليس سوى نقطة في دلو بالنسبة إلى ما يمتلكه ذلك الرجل حقيقة. ويعتقد الجميع، والشماليون من جملتهم، أنه يمتلك ملايين من الدولارات الذهبية تخص حكومة الحلف، مخبأة في مكان ما».

- «ملايين... ذهباً؟».

- «إذن، يا حلوتي، إلى أين ذهبت جميع ثروة الحلف من الذهب؟ لقد ظفر بها بعض الناس، ولا بد أن يكون الكابتن باتلر أحد هؤلاء الناس. لقد كان الشماليون يعتقدون أن الرئيس ديفيس حملها معه عندما غادر ريتشموند، ولكنهم، عندما أسروا الرجل التعيس، لم يكن في حوزته بنس واحد. كما أنه لم يكن يوجد أبداً أي نقود في خزينة الحلف عندما انتهت الحرب، والجميع يعتقدون أن بعض المهربين ظفروا بالمال، وأنهم يحتفظون بالصمت فيما يتعلق به».

- «ملايين... ذهباً! ولكن كيف...».

- «ألم يأخذ الكابتن باتلر ألوفاً من بالات القطن إلى إنكلترا وناسو ليبيعها لحساب حكومة الحلف؟» سألت بيتي بشعور من الظفر، «ليس قطنه هو فقط، بل أيضاً أقطان الحكومة؟ وأنت تعرفين أي ثمن كان يجنيه القطن في إنكلترا أثناء الحرب! أي ثمن كنت ترغبين في طلبه! وكان باتلر وكيلاً مطلق الصلاحية، يمثل الحكومة، وكان من المفترض أن يبيع القطن ويشتري مدافع بثمنه، ثم يهرِّب المدافع إلينا. حسناً، وعندما أحكم الحصار تماماً، لم يعد في وسعه تهريب المدافع، ولا يمكن أن يكون قد صرف جزءاً من مئة من ثمن القطن على شرائها في أي حال من الأحوال. ولذلك فقد بقيت هناك ملايين

الدولارات في مصارف إنكلترا، وضعها الكابتن باتلر والمهربون الآخرون في انتظار فك الحصار. وليس في وسعك أن تخبريني بأنهم وضعوا المال في المصارف باسم الحلف. لقد وضعوه بأسمائهم هم، وهو ما زال هناك... لقد كان الجميع يتحدثون عنه منذ الاستسلام، وينتقدون المهربين نقداً مراً. وعندما قبض الشماليون على الكابتن باتلر، بتهمة قتل هذا الزنجي، كان لا بد أن سمعوا بهذه الشائعة، لأنهم أصروا عليه بأن يخبرهم بمكان وجود الأموال. وأنت تعرفين أن جميع أموال الحلف تخص الشماليين الآن... على الأقل، هكذا يعتقد الشماليون، ولكن الكابتن باتلر يقول إنه لا يعرف عن المال شيئاً... ويقول الدكتور ميد إن عليهم أن يعدموه مهما كان الأمر، فالإعدام فقط هو العقاب العادل للص وانتهازي... عزيزتي، إنك لا تبدين بحالتك الطبيعية أبداً، هل تحسّين بالدوار؟ هل أزعجتك بهذا الحديث؟ إني أعرف أنه كان في الماضي أحد المعجبين بك، ولكني اعتقدت أنكما تخاصمتما منذ زمن. من ناحيتي، أنا لم أمل إليه أبداً، فهو محتال كبير...».

- «إنه ليس صديقي» قالت سكارلت بجهد، «لقد تشاجرت وإياه أثناء الحصار، بعد أن رحلت إلى ميكون... أين... أين هو الآن؟».

- «في دار الإطفائية، هناك عند الساحة العامة».

- «في دار الإطفائية؟».

وصرخت العمة بيتي ضاحكة:

- «أجل، إنه في دار الإطفائية، فالشماليون يستعملونها كسجن حربي الآن. وهم يعسكرون في أكواخ في الساحة، حول بناية البلدية. ودار الإطفائية تقع أسفل الشارع تماماً. وهكذا يقبع الكابتن باتلر هناك. لقد سمعت أمس يا سكارلت أحسن فكاهة عن الكابتن باتلر، نسيت من أخبرني إياها. تعرفين ما كان أعظم أناقته... لقد كان

غندوراً حقاً. . . غير أنهم يسجنونه الآن في دار الإطفائية ولا يسمحون له بالاستحمام، على أنه أخذ يصر في كل يوم أنه يريد أن يستحم، وأخيراً أخرجوه من غرفته إلى الساحة، وهناك كان يوجد حوض خيل مستطيل كان جميع جنود الفصيل قد استحموا فيه في الماء ذاته! وأخبروه أن في وسعه الاستحمام هناك، فرفض لأنه كان يفضل سيماه الخاصة من القذارة الجنوبية على القذارة الشمالية و. . .».

كانت سكارلت تسمع الصوت الهادئ المرح يتابع حديثه، ولكنها لم تكن تسمع الكلمات. لقد كان يشغل عقلها فكرتان فقط: الأولى أن ريت يملك مالاً حتى أكثر مما أملت هي، والثانية أنه في السجن. إن حقيقة كونه في السجن واحتمال إعدامه، غيرت وجه القضية إلى حد ما، وجعلتها في الواقع، تبدو أكثر إشراقاً بقليل. وكان يخامر سكارلت شعور ضئيل جداً تجاه إعدام ريت. لقد كانت حاجتها إلى المال ملحّة جداً، مثبطة جداً لآمالها، بحيث لم يكن في وسعها أن تقلق على مصيره النهائي، فضلاً عن أنها كانت تشارك الدكتور ميد جزئياً في رأيه أن الإعدام كان قصاصاً عادلاً له، إذ إن كل رجل يرضى بأن يترك امرأة تترنح بين جيشين في منتصف الليل، لينطلق ويحارب في سبيل قضية كانت قد خسرت وحسب، يستحق الإعدام. . . وإذا استطاعت بطريقة ما، أن تنجح في التزوج به أثناء وجوده في السجن، فستؤول كل هذه الملايين إليها، وإليها وحدها إذا أعدم. وإذا لم يكن الزواج ممكناً فربما استطاعت الحصول على قرض منه، وذلك بأن تعده بأن تتزوج منه عندما يطلق سراحه، أو أن تعده. . . ها! أن تعده بأي شيء! وإذا ما أعدموه، فلن يأتي يوم إيفاء الدين.

ولهنيهة، التهب خيالها لفكرة صيرورتها أرملة عن طريق تدخّل الحكومة الشمالية الرحيم! ملايين ذهباً! إنها تستطيع ترميم تارا أو استئجار أيد عاملة وزرع أميال وأميال من القطن، ويكون في مقدورها

التمتع بأثواب جميلة وبكل ما تريده من طعام، هي وسولين وكارين أيضاً. ويستطيع ويد أن يظفر بطعام مغذ يُسمن وجنتيه النحيلتين وأن ينعم بملابس دافئة وبمربية، وأن يذهب إلى الجامعة فيما بعد. . . لا أن يشبّ حافي القدمين، جاهلاً كالكريكرز، كما يكون في وسع طبيب ماهر أن يعتني ببابا. وأما بالنسبة إلى آشلي - فما الذي لم تستطع هي عمله من أجل آشلي!

وانقطع حديث العمة بيتي المنفرد فجأة عندما قالت مستوضحة: «نعم مامي؟». ورأت سكارلت التي استيقظت من أحلامها، رأت مامي تقف في البوابة يداها تحت ميدعها، وفي عينيها نظرة يقظة نفاذة. وتساءلت سكارلت كم مضى على مامي وهي تقف هناك، وكم سمعت ولاحظت. ربما كل شيء، إذا حكمنا من البريق الذي في عينيها المسنتين.

- «إن الآنسة سكارلت تبدو تعبة، أتصور أن من الأفضل أن تأوي إلى سريرها».

- «إني تعبة» قالت سكارلت ذلك ونهضت وقابلت عيناها عيني مامي بنظرة حائرة كنظرة طفل، «وأخشى أيضاً أن أكون قد أصبت بالزكام. عمتي بيتي، هل يضايقك إن أنا لازمت الفراش غداً ولم أذهب معك إلى الزيارة؟ إن في وسعي الذهاب إلى الزيارات في أي وقت، بينما أنا متلهفة جداً للذهاب إلى عرس فاني ليلة الغد. وإذا ما اشتد زكامي فلن يكون في وسعي الذهاب، ويوم في الفراش سيكون علاجاً ناجحاً لي».

تحولت نظرة مامي إلى قلق بالغ عندما أحست يدي سكارلت ونظرت إلى وجهها. ولم تكن سكارلت حتماً تبدو في حالة جيدة. إذ كان الانفعال السار الذي أثارته أفكارها فد انحسر فجأة وتركها شاحبة ترتجف.

- «إن يديك كالثلج يا حلوتي. تعالي إلى السرير، وسأعدّ لك الشاي وأجلب لك آجرة ساخنة لأجعلك تعرقين».

- «ما كان أقل تفكيري» صاحت السيدة السمينة العجوز، ووثبت من كرسيها وربتت على ذراع سكارلت: «لقد أغرقت في الحديث دون أن أفكر فيك. يا حلوتي، ينبغي أن تظلي في الفراش طوال الغد، وترتاحي تماماً، وفي وسعنا أن نتحدث معاً... آه، عزيزتي، لا، لن يسعنا البقاء معك، لقد وعدت السيدة بونل أن أجلس إلى جانبها غداً، إذ إنها مصابة بالزكام، وكذلك طاهيتها. إني سعيدة جداً لكونك موجودة هنا يا مامي. يجب أن تذهبي معي إلى هناك في الصباح وتساعديني».

حثت مامي سكارلت على صعود الدرج المعتم، وهي تدمدم عبارات غامضة عن الأيدي الباردة والأحذية الرقيقة. وبدت سكارلت وديعة قانعة، فإذا استطاعت أن تسكن شكوك مامي أكثر، وتجعلها تخرج من البيت في الصباح، فسيكون كل شيء على ما يرام، وعندئذ يصير في إمكانها الذهاب إلى سجن الشماليين ورؤية ريت. وبينما هي تصعد السلم، بدأ دوي الرعد الخافت، وفكرت سكارلت وهي تقف على بسطة الدرج التي تذكرتها جيداً، كم كان صوت الرعد يشبه دوي مدافع الحصار. وارتجفت، فإلى الأبد سيظل الرعد يعني المدافع والحرب بالنسبة إليها.

34

أشرقت الشمس بصورة متقطعة في الصباح التالي، وصفقت الريح الشديدة التي كانت تزجي بسرعة غيوماً قاتمة أمام قرص الشمس، صفقت مصاريع النوافذ وراحت تئن حول البيت بصوت خافت، وتلت سكارلت صلاة شكر قصيرة، لأن مطر الليلة الماضية قد انقطع، وكانت هي قد استلقت مستيقظة تترقب انقطاعه، مدركة أن استمراره يعني تلف فستانها المخملي وقبعتها الجديدة. أما الآن وقد صار في مقدورها رؤية ملامح خاطفة من الشمس فقد ارتفعت معنوياتها، واستطاعت بصعوبة أن تلازم السرير وهي تنظر حولها بفتور وتخرج الأصوات المتذمرة إلى أن أضحت العمة بيتي ومامي والعم بيتر خارج البيت في طريقهم إلى بيت السيدة بونل. وعندما علا أخيراً صوت انغلاق البوابة الأمامية وغدت سكارلت وحيدة في البيت، باستثناء كوكي التي كانت تغني في المطبخ، وثبت من السرير، ورفعت ثيابها الجديدة من على مشجب الخزانة.

كان النوم قد أنعشها ومنحها قوة، واستمدت الشجاعة من النواة الصلبة الباردة في أعماق قلبها، وكان يكتنف موضوع صراع مواهبها مع رجل – مع أي رجل – إحساس غريب، دفعها إلى ذروة حماسها. فبعد شهور من النضال ضد العقبات المثبطة التي لا تحصى، منحتها معرفتها بأنها ستواجه أخيراً عدواً معيناً، عدواً كان يمكن أن تتغلب عليه بجهودها الخاصة، منحتها هذه المعرفة شعوراً مبهجاً.

كان ارتداؤها لثيابها دون أن يكون هناك من يساعدها عملية صعبة، ولكنها أنجزت المهمة أخيراً. وبعد أن وضعت القبعة ذات الريش الهزاز ركضت إلى غرفة العمة بيتي لتهندم نفسها أمام المرآة الطويلة... ما أجمل ما تبدو! لقد أضفى عليها ريش الديك مظهراً فاتناً وبدت عيناها براقتين على نحو مثير، بفضل مخمل قبعتها الأخضر الكابي، لقد بدتا بلون الزمرد تقريباً. وبدا فستانها لا مثيل له، ذا مظهر جميل، ثمين جداً، وجليل أيضاً! لقد كان من المدهش أن تنعم ثانية بفستان جذاب، وكان من الممتع أن تعرف أنها كانت تبدو جميلة مثيرة. وهزتها الفرحة فانحنت وقبَّلت وجهها في المرآة، ثم ضحكت على سخفها. وتناولت شال إيلين المصنوع من حرير بيسلي لتتلفع به، ولكن ألوان هذا الشال المربع العتيق الباهت، تنافرت مع الفستان الأخضر الطحلبي، الأمر الذي جعلها تبدو زرية المنظر. ثم فتحت خزانة العمى بيتي وتناولت منها معطفاً عريضاً أسود من الجوخ، معطفاً خريفياً رقيقاً كانت بيتي ترتديه أيام الآحاد فقط، فلبسته ثم أدخلت قرطَي اللؤلؤ اللذين جلبتهما معها من تارا، في أذنيها المثقوبتين، ودفعت رأسها إلى الوراء لتراقب أثر ذلك، وعندما أخرج القرطان أصواتاً رنانة سارة، فكرت أن عليها أن تتذكر ضرورة دفع رأسها إلى الوراء مراراً عندما تجتمع بريت، فالأقراط المتراقصة تجذب الرجال دائماً، وتضفي على الفتاة مظهراً روحياً.

يا للعار! إن العمة بيتي لا تملك غير ذينك القفازين اللذين كانا الآن في يديها السمينتين، وليس في وسع امرأة تشعر بكونها سيدة حقاً دون قفازات. ولكن سكارلت لم تكن تملك زوج قفازات منذ غادرت أتلانتا، وقد خشَّنت يديها شهور العمل الطويلة الشاقة في تارا، حتى غدتا بعيدتين عن أن تكونا ناعمتين... على كل حال، ليس في الإمكان تدبير الأمر... ستأخذ قطعة فرو الفقمة الصغيرة التي تخص

العمة بيتي وتخفي يديها داخلها. وأحست سكارلت أن تلك الفروة منحتها المسحة الأخيرة الممتعة لأناقتها، فلن يشك أحد إذا ما نظر إليها الآن، أن الفقر والعوز يرزحان على كاهلها.

كان من المهم جداً أن لا يرتاب ريت، بل كان ينبغي ألّا يفكر في أن الذي ساقها إليه دافع غير شعورها المرهف.

ونزلت الدرج، ثم خرجت من البيت وهي تخطو على رؤوس أصابعها، بينما استمرت كوكي في صياحها داخل المطبخ دون أن تعير سكارلت أدنى انتباه. وأسرعت سكارلت في شارع بيكر لتتجنب كل عيون الجيران الكاشفة، ثم جلست على سُلَّم عربة[1] في شارع آيفي، أمام بيت محترق، لتنتظر إحدى العربات أو الشاحنات المارة التي يمكن أن تمتطيها. وكانت الشمس تحتجب ثم تبرز خلف السحابة السريعة لتضيء الشارع بأشعة كاذبة لا تحمل أي دفء. وكانت الريح تخفق بدنتلة سروالها، وكان الطقس أبرد مما توقعت، ولذلك لفت معطف العمة بيتي الرقيق حول جسدها وراحت ترتعش بفارغ صبر. وفي الوقت ذاته الذي كانت تستعد فيه لبدء المسير على الطريق الطويلة الموصلة عبر المدينة إلى معسكر الشماليين، ظهرت عربة خرعة في داخلها سيدة عجوز بشفة ملأى بالسعوط وبوجه تغلبت عليه عوامل المناخ، تعلوه قبعة شمس دكناء. وكانت المرأة تسوق بغلاً هرماً متثاقل الخطوات، باتجاه مبنى البلدية، فسمحت لسكارلت بالركوب بعين حقود، إذ كان من الواضح أنها لم ترتح لرؤية الفستان والقبعة والفرو.

«إنها تظن أني داعرة» هجست سكارلت، «وربما كانت على حق في ذلك». وعندما وصلت العربة أخيراً إلى ساحة المدينة، انتصبت أمام المرأتين القبة البيضاء الشاهقة التي كانت تعلو مبنى البلدية. وعندئذ

---

(1) خشبة على شكل درجة أو اثنتين كانت توضع في أماكن معيَّنة على طرف الشارع لمساعدة السيدات على صعود العربات والنزول منها - (المترجمان).

شكرت سكارلت المرأة ونزلت من العربة ولكنها ظلت تراقب تلك القروية وهي تبتعد عنها بعربتها. وبعد أن تطلعت حولها بانتباه، لتطمئن إلى أن أحداً لم يراقبها، قرصت وجنتيها لتمنحهما لوناً، وعضّت شفتيها إلى أن آلمتاها في سبيل أن تبدوا حمراوين، ثم أصلحت وضع القبعة وأرجعت شعرها إلى الخلف وتطلعت في أنحاء الساحة. كانت بلدية المدينة ذات الطابقين العتيقين من الآجر الأحمر قد بقيت سالمة من حريق المدينة، ولكنها كانت تبدو مهجورة عديمة المظهر، تحت السماء المربدة. وكانت أكواخ الجنود القذرة الملطخة بالوحل، تحيط بمبنى البلدية إحاطة السوار بالمعصم، وتملأ مربع الأرض الذي هو ساحة المبنى، وكان الجنود الشماليون يتسكعون في كل مكان. ونظرت سكارلت إليهم بارتياب، وقد فارقتها بعض شجاعتها. كيف سيسعها التجول بينهم كي تجد ريت في معسكر العدو هذا؟

ونظرت إلى أسفل الشارع نحو دار الإطفائية فرأت أن الأبواب الواسعة ذات القناطر كانت مغلقة ومحصنة بقضبان حديد متينة، وأن حارسين كانا يروحان ويجيئان أمام كل جانب من جوانب البناء. لقد كان ريت هنا في الداخل، ولكن ماذا ينبغي لها أن تقول للجنود الشماليين؟ وماذا يمكن أن يجيبوها؟ ولكن، طالما لم تخف من قتل جندي شمالي، إذن عليها أن لا تخشى مجرد التحدث إلى جندي آخر.

واتخذت طريقها بحذر، وراحت تخطو فوق الحجارة عبر الشارع الموحل، ثم تابعت تقدمها، إلى أن أوقفها حارس كان معطفه الأزرق مزرراً إلى أعلاه اتقاء للريح.

- «ماذا تريدين يا سيدة؟» كان يشوب صوته غنة نصف غربية[1]، غير أنه كان صوتاً مهذباً محترماً.

---

(1) نسبة إلى «الغرب»، أي المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأميركية - (المترجمان).

- «أريد رؤية رجل في الداخل - إنه سجين».

- «الواقع، لا أدري» قال الحارس وهو يحك رأسه، «إنهم متشددون كثيراً فيما يتعلق بالزوار...» وصمت وحملق في وجهها بقوة، «باللّه عليك يا سيدة، لا تبكي! اذهبي إلى مركز القيادة هناك، واسألي الضباط. سوف يسمحون لك برؤيته على ما أعتقد».

فابتسمت سكارلت في وجهه، ولم تكن تنوي البكاء مطلقاً. أما الجندي فقد التفت إلى حارس آخر كان يوازن خطواته ببطء: «بيل، تعال هنا».

فاتجه الحارس الآخر نحوهما عبر الوحل، وكان رجلاً ضخماً، يتلفع بمعطف أزرق يبرز منه شاربان أسودان ينمان عن الشر.

- «خذ هذه السيدة إلى القيادة».

فشكرته سكارلت وتبعت الحارس.

- «احذري من أن تلوي كاحلك على هذه الحجارة المتتالية بين الوحل»، قال الجندي وأخذ بذراعها، «ومن الأفضل أن ترفعي تنورتك قليلاً لتبعديها عن الوحل».

كان يشوب الصوت الصادر من تحت الشاربين الغنة الخناء ذاتها التي ظهرت في صوت زميله، ولكنه كان صوتاً رقيقاً ساراً. وكانت يد الرجل حازمة وقورة... الواقع أن الشماليين ليسوا أشراراً أبداً!

- «إن الجو بارد جداً اليوم بالنسبة إلى سيدة تخرج من البيت» قال مرافقها، «هل قدمت من مكان بعيد؟».

- «أجل، تماماً من طرف المدينة الآخر» قالت وقد شجعها حنو صوته.

- «إن هذا الجو لا يناسب أبداً خروج السيدة من بيتها» قال بلهجة التأنيب، «وهذا الزكام منتشر في الهواء. هنا مركز القيادة أيتها السيدة... ما القضية؟».

- «هذا البيت... هذا البيت هو مركز قيادتكم؟» ونظرت سكارلت إلى المنزل الجميل القديم القائم في الساحة، وكادت تبكي، لقد حضرت حفلات عديدة في هذا البيت خلال الحرب، لقد كان مكاناً هادئاً جميلاً، وها هو الآن... يخفق فوقه علم اتحادي كبير.

- «ما القضية؟».

- «لا شيء.. سوى... سوى... أني كنت أعرف الناس الذين كانوا يعيشون هنا».

- «الواقع أن ذلك مؤلم جداً. أظن أنهم أنفسهم لن يعرفوه إذا ما رأوه الآن، لأنه حتماً مهدم في الداخل، هيا تابعي طريقك إلى الداخل واسألي عن الكابتن».

فصعدت سكارلت الدرجات مربتة بيدها على الدرابزين الأبيض المكسر، ثم دفعت الباب الأمامي ودخلت. كانت القاعة مظلمة باردة برودة سرداب، وكان هناك حارس يرتجف وهو يقف متكئاً على مصراعي الباب المقفل للغرفة التي كانت في الأيام السعيدة غرفة الطعام.

- «أريد رؤية الكابتن» قالت.

فدفع المصراعين إلى الخلف، ودخلت سكارلت الغرفة، وقلبها يخفق بسرعة، ووجهها متخضب من الانفعال والاضطراب. كانت الغرفة تفوح برائحة مقززة قوية، منبعثة من نار المدخنة، ومن روائح التبغ والجلد والبزز الصوفية المبللة والأجساد القذرة غير المغتسلة. كانت الغرفة أيضاً ذات طابع مضطرب مؤثر، ناجم عن جدرانها العارية إلا من أوراق الحائط الممزق وصفوف المعاطف الزرقاء والقبعات المتهدلة المعلقة على المسامير، وعن النار الزافرة والمنضدة الطويلة المغطاة بالأوراق، وعن مجموعة الضباط المرتدين البزز الزرقاء ذات الأزرار النحاسية.

وبعد أن بلعت سكارلت ريقها مرة، وجدت صوتها. . . لقد كان واجبها أن لا تدع هؤلاء الشماليين يعرفون أنها خائفة. لقد كان واجبها أن تبدو وتكون في أجمل صورة وبنفس غير مكترثة.

- «أين هو الكابتن؟».

- «أنا كابتن» قال رجل بدين يرتدي معطفاً غير مزرر.

- «أريد رؤية سجين هو الكابتن ريت باتلر».

- «باتلر مرة أخرى؟ يا له من رجل محبوب» ضحك الكابتن وأخرج سيجاراً ممضوغاً من فمه، «وهل أنت قريبته يا سيدة؟».

- «نعم. . . إني شقيقته».

فضحك ثانية.

- «إن له شقيقات كثيرات جداً، كانت إحداهن هنا أمس».

فاحمر وجه سكارلت خجلاً. . . لا بد أن تكون تلك هي إحدى أولئك المخلوقات البائسات اللواتي كان ريت يتعاطى اللذة معهن، وربما كانت هي المرأة وتلينغ بالذات. ولقد ظن هؤلاء الشماليون أنها امرأة أخرى من الطراز ذاته. . . الأمر الذي لا يمكن احتماله. . . لا، ولن تبقى هنا دقيقة أخرى. . . وتهان، حتى ولا من أجل تارا. واستدارت نحو الباب، ومدت يدها إلى المقبض حنقى، ولكن ضابطاً آخر أضحى بجانبها بسرعة. كان نظيفاً حليقاً وفتياً ذا عينين عطوفتين قريرتين.

- «دقيقة واحدة يا سيدة. ألا تجلسين هنا قرب النار حيث المكان دافئ؟ سأذهب وأرى ماذا أستطيع فعله من أجلك. . . ما اسمك؟ فلقد رفض مقابلة السيدة التي زارته أمس».

جلست سكارلت على الكرسي الذي قدم لها، وأخبرت الضابط باسمها وهي تحدق في الكابتن البدين الذي خيب رجاءها. وارتدى الضابط الجميل الشاب معطفه وغادر الغرفة، بينما انسحب الآخرون

بعيداً إلى طرف الطاولة الآخر حيث راحوا يتحدثون بأصوات خفيضة، ويخطون بأيديهم على الأوراق، ومدت سكارلت قدميها باغتباط، نحو النار، وقد تبين للمرة الأولى، شدة برودتهما، وتمنت لو فكرت أن تضع قطعة من الكرتون تحت الثقب الموجود في نعل خفَّيها. وبعد هنيهة سمعت أصواتاً تدمدم خارج الباب تلتها ضحكة ريت، ثم انفتح الباب وظهر ريت بلا قبعة، وقد وضع شالاً طويلاً على كتفيه بصورة مستهترة. كان قذراً غير حليق وبلا ربطة عنق، ولكنه كان مرحاً نوعاً ما، رغم كونه في ثياب النوم. أما عيناه السوداوان فكانتا تبرقان مغتبطين لرؤيتها.

- «سكارلت!».

وأخذ بيديها بين يديه، وكما هو الحال دائماً، أحست أن شيئاً حاراً حيوياً مثيراً يكمن في قبضته، وقبل أن تعرف تماماً ماذا كان يهم أن يفعل، كان قد انحنى وقبّل وجنتيها ودغدغها بشاربه. وعندما أحس بحركة جسدها المجفلة للابتعاد عنه، ضمّها من حول كتفيها قائلاً:

- «شقيقتي الصغرة المحبوبة» وافترّ ثغره لها، كأنه كان يتلذذ بعجزها عن مقاومة مضايقته. فلم يسعها إلا أن تجيبه بضحكة على هذا الظفر الذي ناله. ما كان أشد خسّته! لم يغيّر منه السجن مثقال ذرة.

كان الكابتن البدين يدمدم من خلال سيجاره إلى الضابط ذي العينين القريرتين:

- «مسألة في غاية الشذوذ. ينبغي أن يكون في دار الإطفائية. أنت تعرف الأوامر».

- «باللّه عليك يا هنري! فستتجمد السيدة من البرد في ذلك المخزن».

- «حسناً. حسناً، أنت المسؤول».

- «إني أؤكد لكم أيها السادة» قالت ريت ملتفتاً إليهم، وهو ما

زال محتفظاً بيديه تحضنان كتفي سكارلت، «أن أختي لم تجلب لي معها أي منشار أو مبرد لتساعدني على الهرب».

فضحك الجميع، وعندئذ نظرت سكارلت بسرعة إلى ما حولها. يا للّه الرحيم، هل ستضطر للحديث مع ريت أمام ستة ضباط شماليين! أهو سجين شديد الخطورة بحيث لن يدعوه يفلت من تحت أبصارهم؟ غير أن الضابط الجميل، وقد رأى نظرتها القلقة، فتح أحد الأبواب، وهمس بكلمتين قصيرتين إلى جنديين كانا قد حيَّياه عند دخوله. فتناول كلاهما بندقيته وخرجا إلى القاعة وأغلقا الباب خلفهما.

- «في وسعكما الجلوس هنا في غرفة المراسل، إذا ما رغبتما» قال الكابتن الشاب، «وإياكما أن تحاولا الهرب من خلال ذلك الباب، فالرجلان يقفان خلفه تماماً».

- «إنك ترى أي شخصية يائسة أنا يا سكارلت» قال ريت، «أشكرك أيها الكابتن، فهذا لطف فائق منك».

وانحنى دون اكتراث، وأمسك بذراع سكارلت وأنهضها على قدميها ثم دفعها أمامه إلى غرفة المراسل القذرة. ولم تستطع سكارلت أبداً أن تذكر ماذا كانت الغرفة تشبه، سوى أنها كانت صغيرة ومغمَّة وباردة، وأن أوراقاً مكتوبة بخط اليد كانت مثبتة على الجدران الملطخة، وأنها كانت تحوي كراسي ذات مقاعد من جلود البقر ما زال الشعر عليها.

وبعد أن أغلق ريت الباب خلفهما، اتجه نحوها بسرعة وانحنى فوقها، فأدارت رأسها بسرعة، وقد أدركت رغبته، إلا أنها ابتسمت له ابتسامة مثيرة شعث من زوايا عينيها.

- «ألا أستطيع حقاً تقبيلك الآن؟».

- «من جبيني، كشقيق مخلص» أجابت برصانة.

- «أشكرك، لا. أفضل أن أنتظر وأتطلع إلى أشياء أفضل»

ونشدت عيناه شفتيها واستمرتا تنظران إليهما لحظة، «ولكن ما ألطفها منك أن تأتي لرؤيتي يا سكارلت. إنك أول مواطن محترم زارني منذ أن سجنت، والسجن يجعل الإنسان يقدّر الأصدقاء. متى أتيت إلى المدينة؟».

- «بعد ظهر أمس».

- «وجئت إليَّ هذا الصباح؟ الواقع يا عزيزتي أنك أكثر من مخلصة» وابتسم لها بأول تعبير ينمّ عن سرور نزيه رأته في وجهه. وابتسمت سكارلت في سرّها مغتبطة ثم أحنت رأسها كأنها متضايقة.

- «طبعاً لقد أتيت إليك رأساً، لقد أخبرتني العمة بيتي عنك ليلة البارحة فلم أستطع النوم طوال الليل، لأني كنت أفكر في هول هذا الأمر الفظيع. ريت، إني بائسة جداً».

- «ماذا يا سكارلت!».

كان صوته رقيقاً يشوبه نغم متهدج. وعندما نظرت إلى وجهه الأسمر، لم ترَ فيه شيئاً من الريبة، من الابتسامة الساخرة التي كانت تعرفها تمام المعرفة. غير أن عينيها أطرقتا بحيرة حقيقية أمام نظراته الحادة. لقد كانت الأمور تسير أفضل حتى مما أملت.

- «حبذا السجن إن كان يتيح لي أن أراك ثانية، وأسمعك تقولين أشياء كهذه. إني في الحقيقة لم أستطع تصديق أذني عندما أخبروني بحضورك، فأنت ترين أني لم أكن أتوقع أبداً أن تصفحي عني لسلوكي الوطني في تلك الليلة ونحن على الطريق قرب رف آند ريدي، ولكني أعتبر أن زيارتك هذه تعني أنك قد عفوت عني».

واستطاعت سكارلت أن تشعر بالغضب السريع يتحرك في داخلها، حتى في هذا الوقت المتأخر، عندما فكرت في تلك الليلة. ولكنها كبتت غضبها ودفعت رأسها إلى الوراء كي تراقص قرطيها.

- «لا أنا لم أعفُ عنك» قالت ذلك وقطبت وجهها.

- «لقد تحطم أمل آخر، وذلك بعد أن وهبت نفسي لوطني، وقاتلت حافي القدمين في الثلج في فرانكلين، وأصبت بأشد حالة من الزحار نتيجة لجهودي».

- «أنا لا أريد السماع عن جهودك» قالت وهي لا تزال مقطبة الوجه، ولكنها كانت تبتسم له من عينين مائلتين عند طرفيها، «إني لا أزال أعتقد أنك كنت مقيتاً في تلك الليلة. وأنا لا أتوقع أبداً أن أعفو عنك، بعد أن تركتني وحيدة على تلك الحالة، في وقت كان يمكن أن يحدث لي فيه أي مكروه».

- «ولكن لم يحدث لك شيء، وهكذا فأنت ترين، إن ثقتي بك كان لها ما يبررها. لقد كنت أعرف أنك ستبلغين البيت بأمان، وكان اللّه في عون أي شمالي يقع في طريقك!».

- «ريت، لماذا أقدمت على فعلة حمقاء كتلك... انضممت إلى الجيش في الدقيقة الأخيرة، بينما كنت تعرف أننا كنا سنندحر؟ علاوة على أنك كنت تتحدث عن الحمقى الذين خرجوا إلى الحرب وقُتلوا!».

- «سكارلت، اعذريني! إن العار يغمرني دائماً كلما فكرت في فعلتي تلك».

- «حسناً، إني مسرورة لمعرفتي أنك خجل من الطريقة التي عاملتني بها».

- «لقد أسأت فهمي. إني آسف لأن أقول إن ضميري لم يؤنبني أبداً بسبب تركي لك، وإنما التحاقي بالجيش... عندما أفكر في التحاقي بالجيش يوم كنت أرتدي حذائي اللماع، وبذلتي الكتانية البيضاء، وأتسلح فقط بزوج من مسدسات المبارزة... وعندما أفكر كذلك في تلك الأميال الطويلة التي سرتها في الثلج بعد أن بلي حذائي، ولم أكن أملك معطفاً ولا شيء أتغذى به... عندما أفكر في

كل ذلك، لا أستطيع أن أفهم لماذا لم أفر من الجيش... لقد كان عملي جنوناً محضاً، ولكن ذلك كائن في دمي، فليس في وسع الجنوبيين احتمال قضية خاسرة. ولكن لنترك حججي، وحسبي أني سومحت».

- «إنك لم تسامَح، أعتقد أنك كلب صيد» قالت ذلك ولكنها لطفت اللقب الأخير بحيث كاد يعني «حبيبي».

- «لا تكذبي، لقد سامحتني، فالصبايا لا يقدمن على مقابلة الحراس الشماليين ليرين سجيناً، بقصد العطف الجميل فقط، وكذلك لا يأتين بكل هذا المخمل والريش وفرو الفقمة... ما أجمل ما تبدين يا سكارلت! شكراً للّه، أنك لا ترتدين ثياباً رثة أو ثياب حِداد! إني أتضايق كثيراً من النساء اللواتي يرتدين ثياب رثة أو نقاب الحِداد الدائم. إنك تظهرين زاهية كشارع السلام. استديري يا عزيزتي ودعيني أتأملك».

وهكذا فقد لاحظ الفستان... طبعاً كان من المتوقع أن يلاحظ أشياء كهذه لأنه ريت. وضحكت في فرحة خفيفة، ودارت على أصابع قدميها، وذراعاها ممتدتان وأطواقها ترتفع كي تكشف عن سروالها المزركش المصنوع من الدنتلة. والتهمتها عيناه السوداوان من القبعة حتى أخمص قدميها في نظرة لم يفتها شيء، تلك النظرة العارية الوقحة القديمة، التي كانت تُشعرها بالخوف دائماً.

- «إنك تبدين وافرة الثروة، في غاية الأناقة، وعلى وشك أن تكوني صالحة للالتهام. ولولا وجود الشماليين خارجاً... ولكنك في أمان تام يا عزيزتي. اجلسي فلن أغتنم شيئاً منك كما فعلت في آخر مرة رأيتك فيها» وفرك وجنته بأسف زائف، «أجيبي بأمانة يا سكارلت. ألا تعتقدين أنك كنت على شيء من الأنانية في تلك الليلة؟ فكري في كل ما كنت قد فعلته من أجلك. لقد خاطرت بحياتي - عندما سرقت

حصاناً - وحصاناً كهذا! ثم انطلقتُ للدفاع عن قضيتنا المجيدة! وماذا نلت مقابل جهودي؟ بعض الكلمات القاسية وصفعة قوية جداً على الوجه».

وجلست سكارلت. لم يكن الحديث يجري تماماً في الاتجاه الذي كانت ترجوه. لقد بدا ريت لطيفاً جداً في أول الأمر، بدا سعيداً حقاً بقدومها. لقد بدا كإنسان تقريباً، لا ذلك الرجل العنيد الحقير الذي كانت تعرفه جيداً.

- «ألا بد لك دوماً من ثمن لجهودك؟».

- «كيف لا، طبعاً! إنني أناني للغاية كما ينبغي أن تعرفي، إني دائماً أتوقع ثمن كل شيء أقدمه».

فَسَرَت في جسد سكارلت قشعريرة خفيفة إثر هذا الجواب، ولكنها استجمعت قواها، ورقّصت قرطيها ثانية.

- «لا، لستَ في الحقيقة رديئاً جداً يا ريت، ولكنك فقط تميل إلى إظهار نفسك بذلك المظهر».

- «إني أصر على كلمتي، ولكن أنت التي تغيرت!» قال ذلك وضحك، «ما الذي جعل منك مسيحية؟ لقد بقيت على اتصال بأخبارك عن طريق الآنسة بيتي بات ولكنها لم تبلغني أية إشارة على أنك تقدمت في حقل العذوبة النسوية. زيديني أخباراً عنك يا سكارلت. ماذا كنت تفعلين منذ رأيتك آخرة مرة؟».

كانت الإساءة والخصومة القديمتان اللتان أثارهما ريت في قلبها، قد حميتا الآن بحيث تاقت إلى أن تلذعه بكلمات قارصة، ولكنها ابتسمت بدلاً من ذلك وبدت الغمازة في وجنتها. وكان هو قد سحب كرسياً إلى مقربة من كرسيها فانحنت نحوه ووضعت يداً ناعمة على ذراعه، في حركة شاردة الذهن.

- «لقد كنت أقوم بعمل ممتع، أشكرك. وكل شيء في تارا رائع

الآن. طبعاً، لقد عانينا فترة عصيبة تماماً بعد أن اخترق شيرمان أراضينا، ولكنه مع ذلك لم يحرق البيت كما أن الزنوج أنقذوا معظم الحيوانات بأن ساقوها إلى الهور، وقد جمعنا محصولاً جيداً هذا الخريف المنصرم... عشرين بالة. طبعاً، هذا لا يساوي شيئاً إذا ما قيس بما تستطيع تارا أن تنتجه، ولكننا لا نملك عمال حقل كثيرين، ويقول بابا إننا سننتج أكثر السنة التالية. ولكن يا ريت، إن الحياة كئيبة جداً في الريف هذه الأيام، تصور أنه لا يوجد أي حفلة رقص أو باربكيو، والشيء الوحيد الذي يتحدث الناس عنه هو الظروف الصعبة! يا للّه، لقد سقمت من ذلك! وأخيراً، في الأسبوع الماضي، تضايقت كثيراً بحيث لم يعد في وسعي احتمال الوضع أبداً. ولذا قال بابا إنه يحب أن أقوم برحلة، وأنعم بوقت طيب. ولذلك أتيت إلى هنا لأخيط بعض الأثواب ثم سأذهب إلى شارلستون لزيارة خالتي، وسيكون من الجميل أن أعود إلى حفلات الرقص ثانية».

هكذا فكرت باعتزاز، لقد نفذت الخطة بالطريقة النفسية الصحيحة تماماً، وأظهرت أنها ليست غنية جداً، ولكن طبعاً ليست فقيرة.

- «إنك تظهرين جميلة في أثواب الرقص يا عزيزتي، وأنت تعرفين ذلك حقاً. يا لحظك السيّئ! إني أظن أن السبب الحقيقي لقيامك بالزيارات هو أنك قد اختبرت عشاق المقاطعة وأنك ترومين عشاقاً جدداً في أماكن أخرى بعيدة».

وخامرت سكارلت فكرة امتنان، لأن ريت كان قد قضى الشهور العديدة الأخيرة في الخارج، ولأنه كان قد عاد مؤخراً إلى أتلانتا، وإلا لما كان نطق بعبارة مضحكة كهذه. وفكرت قليلاً في عشاق المقاطعة: ابنَي فونتين المنكودين القصيري القامة بثيابهما الرثة، أبناء مونرو الذين أضناهم الدهر، عشاق جونسبورو وفايتفيل الذين كانوا منهمكين جداً في الحراثة وتكسير القضبان الخشبية وتطبيب الحيوانات

المسنة المريضة بحيث إنهم كانوا قد نسوا أن أموراً كالرقص والمغازلات السارة كانت موجودة يوماً ما. على أن سكارلت أغفلت هذه الذكرى وقهقهت بوعي تام كأنها كانت تقر صدق تصريحه.

- «ها، حسناً» قالت بلهجة استغفار.

- «إنك مخلوقة عديمة القلب يا سكارلت، ولكن ربما كان ذلك جزءاً من سحرك». وابتسم بطريقته القديمة، وقد تدلى أحد شدقيه إلى أسفل، ولكنها أدركت أنه كان يطريها. «لأنك طبعاً تعرفين أنك تملكين سحراً أكثر مما يسمح به القانون، حتى إنني شعرت به رغم ظروفي القاسية، وكثيراً ما تساءلت عن السر الذي يكتنفك ويجعلني أتذكرك دوماً. لقد عرفت سيدات كثيرات، كن أجمل منك وأذكى حتماً، وأخشى أن أقول إنهن كن أكثر استقامة وألطف خلقاً، ولكن لسبب ما، كنت دائماً أتذكرك، حتى خلال الشهور التي تلت الاستسلام، عندما كنت في فرنسا وإنكلترا، ولم أكن قد رأيتك أو سمعت عنك، وكنت أنعم بمعشر سيدات جميلات كثيرات، حتى خلال تلك الشهور، كنت دائماً أتذكرك وأتساءل عما كنت تعملين».

ولهنيهة، أحست سكارلت بالسخط للوهلة الأولى، لأنه قال إن نساء أخريات كن أجمل وأذكى وألطف منها، ولكن تلك الفورة العارضة انجلت بفعل سرورها لأنه كان يتذكرها وسحرها... وهكذا فهو لم ينسها... إن ذلك سيسهل مهمتها! أضف إلى ذلك أنه كان يسلك سلوكاً حسناً جداً، تقريباً كما كان يمكن أن يسلك رجل فاضل في هذا الوضع ذاته. والآن، كل ما يتوجب عليها فعله هو أن تسوق موضوع الحديث ليتجه إلى شخصه، وهكذا تستطيع أن تدّعي أنها هي أيضاً لم تنسه، وعندئذ...

وضغطت على ذراعه برفق وحركت غمازتيها ثانية.

- «ها ريت، كيف أنك تتابع حديثك لتغيظ فتاة ريفية مثلي! إني

أعرف تمام المعرفة أنك لم تفكر فيَّ مطلقاً، بعد أن تركتني تلك الليلة. وليس في وسعك أن تخبرني أنك فكرت فيَّ مرة واحدة، وكل أولئك الفتيات الإنجليزيات والفرنسيات يحطن بك. على أني لم آتِ كل هذه الطريق إلى هنا لأسمعك تتحدث هذراً عني. لقد أتيت... لأني...».

- «لأنك؟».

- «آه يا ريت، إني مغتمة جداً بسببك، خائفة جداً عليك. متى سيطلقون سراحك من ذلك المكان الرهيب؟».

غطى ريت يدها بيده بسرعة، ثم رفعها بشدة صوب ذراعه.

- «إن غمك يرفع من قدرك. لا يوجد نبأ عن وقت إطلاق سراحي، ربما عندما يكونون قد مدّوا الحبل أكثر قليلاً».

- «الحبل؟».

- «أجل، إني أتوقع أن أخرج من هنا على طرف الحبل».

- «لن يعدموك حقاً؟».

- «سيعدمونني إذا ما استطاعوا الحصول على بيّنة أقوى قليلاً ضدي».

- «آه، ريت» صاحت ويدها على قلبها.

- «هل تحزنين عليّ؟ إذا حزنت لدرجة كافية فسأذكرك في وصيتي».

وضحكت عيناه السوداوان عليها دونما اكتراث، وضغط على يدها.

وصيَّته! وأطرقت بناظريها خوفاً من الفضيحة، غير أنها لم تفعل ذلك بالسرعة المطلوبة، إذ شعت عيناه بفضول مفاجئ.

- «برأي الشماليين لا بد أن تكون وصيتي قيِّمة، إذ يظهر أن هناك اهتماماً حسناً بثروتي في الوقت الحاضر، فكل يوم أُجَرُّ أمام هيئة

تحقيق جديدة، وأُسأل أسئلة سخيفة. إذ يبدو أن هناك شائعة تقول إني فررت بثروة الحلف الذهبية الخيالية».

- «وهل فعلت ذلك حقاً؟».

- «ما أسهل أن يوحي هذا السؤال بجوابه! أنت تعرفين جيداً كما أعرف أنا، أن الحلف كان يدير مطبعة ورق بدلاً من صك نقود ذهبية».

- «ومن أين جمعت كل ثروتك؟ من المضاربة؟ لقد قالت العمة بيتي بات. . .».

- «أي أسئلة استقصاء هذه التي تسألينها؟».

ليلعنه اللّه. طبعاً لقد حصل على ثروة الحلف. واهتاجت كثيراً بحيث أصبح من العسير عليها أن تتحدث إليه برقَّة.

- «ريت، إني مضطربة جداً لكونك هنا. ألا تعتقد أن هناك مجالاً لخروجك؟».

- «إن شعاري في الحياة: «لا تدع اليأس يستولي عليك أبداً[1]»».

- «وماذا يعني ذلك».

- «إنه يعني (ربما) يا جاهلتي الفاتنة[2]».

فرفعت أهدابها الغليظة إلى أعلى لتنظر إليه ثم خفضتها ثانية.

- «إنك أذكى من أن تمكّنهم من إعدامك. إني أعرف أنك ستفكر في بعض الأساليب الحاذقة لتتغلب عليهم وتخرج من السجن، وعندما تخرج. . .».

- «وعندما أخرج؟» سأل بسرعة وقد انحنى مقترباً منها.

- «حسناً، إني. . .» وتصنّعت حمرة الخجل وحيرة ظريفة، ولم

---

(1) قالها باللاتينية: Nihil desperandum - (المترجمان).

(2) قالها باللاتينية والإنجليزية: My charming ignoramus - (المترجمان).

تكن حمرة الخجل بالأمر العسير، لأنها كانت محتبسة الأنفاس وكان قلبها يقرع كالطبل.

- «ريت، إني آسفة جداً لما... لما قلته لك تلك الليلة... في رف آند ريدي. لقد كنت... يا اللّه! مذعورة جداً ومضطربة، وكنت أنت في غاية... في غاية...» ونظرت إلى أسفل، ورأت يده السمراء تحكم الوضع فوق يدها، «و... وفكرت عندئذ أنني لن... لن أسامحك أبداً! ولكن عندما أخبرتني العمة بيتي أمس أنك... أنهم يمكن أن يعدموك فاجأني الخبر، و... و...» وتطلعت في عينيه بنظرة متوسلة سريعة، حملتها لوعة من لوعات القلب الكسير، «آه، ريت سأموت إذا أعدموك. لن أستطيع احتمال الضربة، فأنت ترى أني...» وأطرقت بعينيها ثانية لأنها لم تستطع تحمُّل بريق عينيه مدة أطول.

بعد هنيهة، سأشرع في البكاء، هجست وهي في نوبة من جنون الحيرة والاضطراب، هل أطلق لدموعي العنان؟ أيبدو ذلك أكثر طبيعية؟

وقال هو بسرعة: «يا إلهي، سكارلت، لا يمكن أن تعني أنك...» وأطبقت يداه على يديها في قبضة قاسية جعلتها تحس بالألم.

فأغمضت عينيها بقوة، محاولة أن تعتصر الدموع منهما، غير أنها تذكرت أن ترفع وجهها عالياً كي يستطيع أن يقبِّلها من دون صعوبة... والآن، وبعد لحظة، ستكون شفتاه على شفتيها، شفتاه الملحاحتان القاسيتان، اللتان تذكرتهما فجأة بحيوية غادرتها ضعيفة، ولكنه لم يقبِّلها. وأثارتها الخيبة بصورة غريبة، ففتحت عينيها قليلاً وجازفت باختلاس نظرة إليه. كان رأسها الأسود منحنياً فوق يديها، وبينما هي تراقبه، رفع إحدى اليدين وقبَّلها ثم أخذ اليد الثانية وضغطها على

وجنته هنيهة. وجفلت سكارلت من إشارة الحب الرقيقة هذه بعد أن توقعت الخشونة منه، وتساءلت عما كان ينطق به وجهه، ولكنها لم تستطع معرفة ذلك لأن وجهه كان متجهاً إلى أسفل.

ثم خفضت بصرها بسرعة خشية أن يرفع نظره فجأة ويرى تعبير وجهها. لقد كانت تعرف أن شعورها بالظفر، الذي كان يتدفق في عروقها، كان حتماً جلياً في عينيها... بعد لحظة، سيطلب منها أن تتزوجه... أو على الأقل سيقول إنه يحبها وعندئذ... وبينما كانت تراقبه من خلال حجاب أهدابها، قلب يدها ليقبِّل راحتها أيضاً، وفجأة زفر نفساً سريعاً. وعندما نظرت إلى أسفل، رأت راحة يدها، رأتها على حقيقتها لأول مرة منذ سنة، واستحوذ عليها خوف بارد مثبط للعزم. لقد كانت هذه راحة فتاة غريبة، وليست راحة سكارلت أوهارا البيضاء الناعمة العاجزة ذات الغمازات. لقد كانت هذه اليد الخشنة من العمل، سمراء من أشعة الشمس، مرقطة بالكلف، وكانت أظافرها مكسرة وبلا تناسق، وكان يوجد في أعلى راحتيها ثآليل كبيرة وقرحة نصف مندملة على الإبهام، وكان الندب الأحمر الذي سببه السمن الغالي في الشهر الماضي يبدو الآن محمراً قبيحاً. ولقد نظرت إليه مذعورة، وقبل أن تشرع في التفكير، قبضت راحتها بسرعة.

واستمر هو مطرقاً برأسه، واستمرَّت هي عاجزة عن النظر إلى وجهه. ثم فتح قبضتها بقوة لا ترحم وراح يحدق فيها. وبعدئذ تناول يدها الأخرى ورفع الاثنتين معاً وهو صامت يتأملهما.

- «انظري إليّ» قال أخيراً وقد رفع رأسه، وكان صوته هادئاً جداً: «تخلّي عن مظهر الحشمة ذلك» وقابلت عينيه كارهة والتحدي والقلق يشوبان وجهها، ورأت حاجبيه الأسودان مرتفعين وعينيه تومضان.

- «إذن كنت تقومين بعمل ممتع في تارا، أحقاً ما تقولين؟ لقد

حصلت على مال كثير جداً من القطن بحيث يمكنك القيام بزيارات! وماذا كنت تفعلين بيديك... تحرثين؟».

وحاولت أن تنتزعهما من يديه، ولكنه تمسَّك بهما بقوة، ومرر إبهاميه على ثآليلهما.

- «ليست هاتان يدي سيدة»، قال ذلك ودفعهما إلى حجرها.

- «إخسأ»، صاحت وقد شعرت بخلاص آنيّ لأنها استطاعت التعبير عن عواطفها، «إن ما أقوم به بيدي هو من شأني وحدي».

ما أحمقني، فكرت محتدة. كان ينبغي أن أستعير قفازي العمة بيتي أو أسرقهما بيد أني لم أعلم أن يدي كانتا تبدوان بهذه الصورة المريعة. طبعاً كان سيلاحظهما. والآن وبعد أن فقدت رويتي وربما أفسدت كل شيء... يؤسفني أن يحدث هذا بينما أضحى تماماً عند نقطة التصريح برأيه المرتجى!

- «إن يديك ليستا من شأني، حتماً» قال ريت ببرود، وتراجع مسترخياً في كرسيه ووجهه غفل رقيق.

إذن سيكون صعب المنال. على كل حال، عليها أن تتحمل هذا الأمر مستسلمة، رغم شدة مقتها له، وذلك إذ كانت تتوقع أن تنتزع ظفراً من هذه النكسة. وربما إن تكلمت معه بعذوبة...

- «أعتقد أنك وقح حقاً حين تقذف بيدي الضعيفتين. ألأني كنت قد ركبت في الأسبوع الماضي دون أن ألبس قفازي، فتشوهتا على إثر ذلك...».

- «ركبت، يا للجحيم!» قال بالصوت المعتدل نفسه، «لقد كنت تشتغلين بهاتين اليدين، تشتغلين كزنجية. بماذا تجيبين؟ لماذا كذبت عليَّ بقولك إن كل شيء على ما يرام في تارا؟».

- «والآن يا ريت...».

- «هبي أننا سنصل إلى الحقيقة، ما هي الغاية الرئيسة من

زيارتك؟ لقد كدت أقتنع بفعل مظاهرك المغناجة أنك تحفلين بي نوعاً ما، وأنك حزنت من أجلي. . . ».

- «آه، إني محزونة. . . حقاً. . . ».

- «لا، أنت لست محزونة. إن في وسعهم أن يعلّقوني بحبل أطول من حبل هامان[1] رغم أنك تحفلين بي. إن ذلك مكتوب بوضوح على وجهك كما كتب العمل الشاق على يديك. إنك تحتاجين إلى شيء مني، وتحتاجين إليه حاجة ماسَّة دفعتك إلى انتحال هذا المظهر الجذاب. لماذا لم تتحدثي بصراحة وتخبريني ما هي غايتك؟ كان ذلك سيتيح لك حظاً أفضل بكثير للحصول عليها، لأنه إذا كانت هناك فضيلة واحدة أقدِّرها في النساء فتلك الفضيلة هي الصراحة. ولكن لا، كان لا بد لك من أن تأتي وتُريني قرطيك وتمطي شفتيك وتتثني كعاهرة مع زبون مرجو».

ولم يرفع صوته وهو ينطق الكلمات الأخيرة ولم يؤكد عليها بطريقة ما، ولكن سكارلت أحست بها كضربة سوط، ورأت واليأس يتملكها نهاية آمالها في أن تقوده إلى طلب الزواج بها، لو أنه انفجر بالغضب وأهان غرورها أو عنَّفها كما كان يمكن أن يفعل الرجال الآخرون، لكان في وسعها أن تتدبر الأمر معه، ولكن الهدوء المميت في صوته أرعبها وتركها في ضياع مطبق بالنسبة إلى الخطوة التالية، وعنَّ لها فجأة أن ريت باتلر كان رجلاً خطيراً لا يمكن خداعه، عنَّ لها ذلك رغم أنه كان سجيناً والشماليون يقفون في الغرفة المجاورة له.

- «أظن أن ذاكرتي قد أخطأت، كان ينبغي أن أتذكر أنك مثلي تماماً، وأنك لا تأتين عملاً من دون غاية مكتومة. والآن دعيني أرى،

---

(1) عدو لليهود في بلاد فارس، ذُكِر في التوراة أن الملك أحشويرش أعدمه بعد أن اكتشف مؤامرة له للقضاء عليهم. (المترجمان).

ماذا يمكن أن تكوني قد أضمرت في نفسك يا سيدة هاملتون؟ أليس من الممكن أن تكوني قد ضللت السبيل فظننت أني سأقترح الزواج بك؟».

فتخضب وجهها بلون قرمزي ولم تجب.

- «ولكن لا يمكن أن تكوني قد نسيت ملاحظتي التي كنت قد كررتها كثيراً من أني لست رجل زواج؟».

وعندما لم تتكلم، أردف بقسوة مفاجئة:

- «ألم تنسي؟ أجيبي».

- «لم أنسَ» قالت بائسة.

- «أي مقامِرة أنت يا سكارلت!» قال ساخراً، «لقد انتهزت الفرصة معتقدة أن انحباسي بعيداً عن معاشرة النساء سيجعلني في وضع أتحرق معه إليك تحرق سمكة النهر على دودة».

«وهذا ما فعلته»، فكرت سكارلت بسخط مكتوم، «ولولا يداي...».

- «الآن لقد توصلنا إلى معظم الحقيقة، إلى كل شيء سوى غايتك... فكري إذا كان في وسعك إخباري عن حقيقة السبب الذي أردت من أجله أن تقوديني إلى الزواج».

كانت تشوب صوته نغمة رقيقة مستفزة تقريباً، الأمر الذي شجعها. ربما لم يكن كل شيء قد ضاع، رغم كل الذي حدث. طبعاً لقد حطمت كل أمل بالزواج، ولكنها كانت سعيدة حتى وهي في قنوطها. كان يكتنف هذا الرجل العنيد شيء أفزعها، وشيء جعل فكرة الزواج به أمراً مخيفاً، ولكن ربما استطاعت أن تضمن قرضاً منه إذا كانت ذكية ولعبت بعاطفته وذكرياته. ورفعت وجهها في تعبير طفولي مطمئن.

- «ريت، إن في وسعك مساعدتي كثيراً... إذا كنت إنساناً مخلصاً لي».

- «لا يوجد شيء أحبه أكثر من أن أكون مخلصاً».

- «ريت، من أجل صداقتنا القديمة، أريد أن تصنع معروفاً معي».

- «وهكذا أتت السيدة المقرحة اليدين إلى هدفها الحقيقي أخيراً. أخشى ألّا تكون «زيارة المرضى والمسجونين» هي الدور المناسب لك. ماذا تريدين؟ نقوداً؟».

فحطمت لهجة سؤاله الباردة كل الآمال في الوصول إلى جلب الموضوع بأي طريقة عاطفية ملتوية.

- «لا تكن حقيراً يا ريت» قالت مراودة، «إني أريد بعض المال. أريدك أن تقرضني ثلاثمئة دولار».

- «وهكذا تجلت الحقيقة أخيراً، تتحدثين بالحب وتفكرين في المال. ما أصدق أنوثتك، هل تحتاجين إلى النقود حاجة ماسَّة؟».

- «نعـ... لا، ليس لدرجة كبيرة، ولكن في وسعي أن أستعملها».

- «ثلاثمئة دولار... ذلك مبلغ كبير، لأي شيء تحتاجين إليه؟».

- «لدفع الضرائب عن تارا».

- «وهكذا تريدين اقتراض مال. حسناً، ما دمتِ امرأة عملية، فسأكون عملياً أيضاً، أي مقابل ستعطينني؟».

- «أي ماذا؟».

- «مقابل، تأمين على مالي المقدم، فبالطبع لا أريد أن أفقد ذلك المبلغ».

كان صوته رقيقاً مراوغاً، على جانب من النعومة، ولكنها لم تلحظ ذلك... قد ينتهي كل شيء بنتيجة مرضية أخيراً.

- «قرطَي».

- «أنا لا أحفل بالأقراط».

- «أرهن تارا لديك».

- «وماذا أفعل بمزرعة؟».

- «كيف! إن في وسعك... في وسعك... إنها مزرعة جيدة، وأنت لن تخسر فسأدفع لك المبلغ من قطن السنة التالية».

- «لست واثقاً بذلك»، وتراجع منحرفاً في كرسيه، وثبت يديه داخل جيبيه. «إن أسعار القطن في هبوط، وإن الظروف قاسية جداً، والنقود نادرة جداً».

- «آه ريت، إنك تثيرني، أنت تعلم أنك تملك الملايين».

وبينما هو يراقبها، كانت عيناه تتراقصان بحقد دافئ.

- «وهكذا يسير كل شيء سيراً حسناً، فلا تحتاجين إلى النقود حاجة ماسَّة. لا بأس، إني سعيد لسماع هذا، كما أني أحب أن أعرف كل شيء حسن مع الأصدقاء القدامى».

- «آه ريت، باللّه عليك...» بدت يائسة، وقد انهارت شجاعتها وأعصابها.

- «أخفضي صوتك، فأنت لا تريدين، كما أرجو، أن يسمعك الشماليون. هل أخبرك أحد يوماً أن لك عينين كعيني قطة... قطة في الظلام؟».

- «حسبك يا ريت! سأخبرك كل شيء. إني أحتاج إلى النقود حاجة ماسَّة... لقد... لقد كذبت بقولي إن كل شيء على ما يرام... فكل شيء سيّئ لأقصى درجة ممكنة... ووالدي... ووالدي ليس على طبيعته... إنه غريب الأطوار منذ توفيت أمي، وليس في وسعه مساعدتي أبداً، إنه كالطفل تماماً، ونحن لا نملك عامل حقل واحداً لينتج القطن، بينما لدينا العديد لإعالتهم، إذ إننا

ثلاثة عشر شخصاً. . . ثم الضرائب. . . إنها مرتفعة جداً. . . سأخبرك كل شيء يا ريت. منذ أكثر من سنة ونحن في هذه الضائقة من الجوع، آه أنت لا تعرف، بل لا تستطيع أن تعرف! إننا لا نملك ما يسدّ رمقنا، ومن الفظيع جداً أن يستيقظ المرء جائعاً ويأوي إلى فراشه جائعاً. كما أننا لا نملك أي ملابس شتوية، والأطفال دائماً مبتردين ومرضى».

- «من أين حصلت على هذا الفستان الجميل؟».

- «إنه مصنوع من ستائر غرفة أمي» أجابت وهي في حالة بالغة من اليأس بحيث لم يسعها إخفاء هذه الحقيقة المشينة، «لقد استطعت تحمُّل الجوع والبرد، ولكن الآن. . . الآن رفع الكاربت بكرز قيمة الضرائب المفروضة علينا، وينبغي أن ندفع النقود فوراً، وليس لدي أي نقود سوى خمس دولارات ذهبية. إن عليَّ أن أحصل على المال من أجل الضرائب، ألا ترى؟ وإن أنا لم أدفعها. . . فسنخسر تارا، وليس في وسعنا أن نخسرها. . . ليس في وسعي أن أدعها تضيع».

- «لماذا لم تخبريني بهذا كله بادئ الأمر، بدلاً من أن تعذبي قلبي المرهف الحس، الذي يضعف دائماً حيث يكون الأمر متعلقاً بالسيدات الجميلات؟ لا يا سكارلت، لا تبكي. لقد جربت كل حيلة معي سوى هذه، وأنا لا أعتقد أن في وسعي تحمُّلها. لقد سحقت الخيبة شعوري لاكتشافي أن ما كنت تبغينه هو مالي وليس شخصي الفتان».

وتذكرت أنه كثيراً ما كان يذكر حقائق مجردة عن نفسه عندما كان يتحدث متهكّماً. . . متهكّماً على نفسه وعلى الآخرين سواء، ولذلك رفعت بصرها إليه بسرعة، أكان شعوره متألماً حقاً؟ أحفل بها حقاً؟ أكان على وشك اقتراح الزواج عندما رأى راحتها؟ أو أنه فقط كان يقودها إلى اقتراح آخر مقيت كذاك الذي كان قد عرضه عليها قبلاً مرتين؟ إذا كان قد حفل بها حقيقة، فقد تستطيع تهدئة ثائرته. بيد أن

عينيه السوداوين كانتا تقلبانها بغير أسلوب المحب، وكان هو يضحك برقّة.

- «أنا لا أرغب في هذا المقابل الذي اقترحته، لأني لست مزارعاً، ماذا تملكين أيضاً لتقترحي تقديمه؟».

لقد وصلت إلى المحذور أخيراً، فلتلعنه الآن. وتنفست بعمق وقابلت عينيه رأساً وقد زاولها كل غنج عندما انطلقت روحها لتتمسك بذلك المقبوح الذي خشيته أكثر من الجميع.

- «إني... إني أملك نفسي».

- «حقاً؟».

وضاقت نهاية لحييها حتى أضحت مريعة، وتحولت عيناها إلى لون الزمرد.

- «هل تتذكر تلك الليلة، ونحن نجلس على شرفة العمة بيتي أثناء الحصار؟ لقد قلت... لقد قلت آنئذ إنك ترغب فيَّ».

فانحنى في كرسيه إلى الخلف باستهتار، وحدق في وجهها المجهود، وكان وجهه الأسمر مبهم التعبير. ورف شيء خلف عينيه، ولكنه لم يقل شيئاً.

- «لقد قلت.. لقد قلت إنك لم ترغب يوماً في امرأة كما رغبت فيَّ، فإذا كنت لا تزال ترغب في، ففي وسعك أن تنالني. سأنفذ أي شيء تطلبه يا ريت، ولكن باللّه عليك، اكتب لي سنداً بالنقود! إن كلمتي وفية. إني أقسم لك بذلك ولن أحنث بعهدي. سأسجل ذلك على نفسي إذا شئت».

فنظر إليها باستهجان، وما زال وجهه غامضاً، فلم تستطع وهي تسرع في الحديث أن تميز ما إذا كان مسروراً أو مشمئزاً... لو أنه فقط يقول شيئاً، أي شيء! وأحست بوجنتيها تحترّان.

- «عليَّ أن أحصل على المال بسرعة، فسيخرجوننا إلى الطريق، وسيمتلك المزرعة ذلك الناظر اللعين الذي كان مساعد أبي. و. . .».

- «دقيقة من فضلك! ما الذي يجعلك تفكرين أني ما زالت أرغب فيك؟ ما الذي يجعلك تفكرين أنك تساوين ثلاثمئة دولار؟ إن معظم النساء لا يرتفعن إلى ذلك المبلغ».

فتخضب وجهها حتى أضحى أحمر كلون شعرها، كما أن شعورها بالمهانة كان قد بلغ منتهاه.

- «لماذا تقومين بهذا العمل؟ لماذا لا تدعين المزرعة وتعيشين في بيت الآنسة بيتي بات، فأنت تملكين نصف هذا البيت».

- «باسم اللّه!» صاحت، «هل أنت مجنون؟ أنا لا أستطيع أن أدع تارا تذهب، لن أدعها تذهب ما دام فيَّ رمق من حياة».

- «الإيرلنديون» قال معيداً كرسيه إلى وضعه السوي ومخرجاً يديه من جيبيه، «هم ألعن الأجناس البشرية. إنهم يتعصبون كثيراً لأمور عديدة خاطئة كالأرض مثلاً، بينما كل أراضي الدنيا متشابهة تماماً. والآن دعيني أضع هذا الأمر في وضعه الحقيقي يا سكارلت: لقد جئتني باقتراح عملي سأعطيك بموجبه ثلاثمئة دولار وتصبحين خليلتي».

- «أجل».

وهكذا، وبعد أن لفظت الكلمة الفاجرة، أحست سكارلت ببعض الراحة، وانتعش الأمل في قلبها ثانية. لقد قال «سأعطيك» ولقد رأت بريقاً خبيثاً في عينيه، كأن شيئاً كان يطربه كثيراً.

- «ومع ذلك، عندما كنت أملك الجرأة لأعرض عليك الاقتراح ذاته، طردتني من البيت، وكذلك نعتني بعدد من الصفات البذيئة جداً، وذكرت في حديث عابر أنك لا تريدين مجموعة من اللقطاء! لا يا عزيزتي، أنا لا أحاول إقناعك بذلك، وإنما أتساءل فقط عن خصائص

عقلك، فأنت لم تشائي أن تقدمي على تلك الفعلة من أجل متعتك، ولكنك ستفعلينها الآن. . . لتبعدي الذئب عن الباب، الأمر الذي يثبت وجهة نظري في أن الفضيلة مجرد مسألة ثمن».

- «آه ريت، كيف أنك تتابع حديثك! وإذا كنت تريد إهانتي فاستمر في حديثك ولكن أعطني النقود».

كانت تتنفس بسهولة أكثر. لقد كان من الطبيعي أن يرغب ريت في تعذيبها وإهانتها بالقدر الممكن، لينتقم منها مقابل الإهانات الماضية ومقابل محاولة خداعه الحالية، وهو المخلوق الذي كان يتردى بتلك الصفات المعروفة. وعلى كل حال، لقد كان في وسعها أن تتحمل ذلك، لقد كان في وسعها أن تتحمل أي شيء، فتارا تستحق كل تلك التضحيات. ولهنيهة قصيرة، أحست كأنها في منتصف الصيف، وسماء الظهيرة زرقاء اللون، وهي تضطجع ناعسة على العشب الكثيف في مرجة تارا، تتطلع إلى كتل الغيوم المتماوجة، ورائحة الأزهار البيضاء تفعم منخريها، وطنين النحل يدندن في أذنيها. . . والأمسية والسكون وصوت العربات البعيد البعيد آتياً من الحقول المتماوجة الحمراء. . . إن هذا يستحق كل التضحيات. . . ويستحق أكثر من ذلك. . . ورفعت رأسها. . .

- «هل ستعطيني النقود؟».

ولهنيهة، لم يستطع عقلها استيعاب كلماته.

- «أنا لا أستطيع أن أعطيك النقود حتى ولو كنت أرغب في ذلك، لأني لا أملك سنتاً واحداً هنا في السجن، ولا دولاراً في أتلانتا. . . نعم أنا أملك بعض المال، ولكنه ليس موجوداً هنا. ولا أقول أين هو ولا كم هو. غير أني إذا حاولت أن أسحب سنداً منه، فسينقضّ الشماليون عليّ انقضاض بطة على بقة يونيو، وعندئذ لن نستطيع، كلانا، الحصول على المال. ما رأيك في ذلك؟».

فتلوَّن وجهها بلون أخضر قبيح المنظر، وبرز الكلف على أنفها، وبدا فمها الملتوي كفم جيرالد أثناء غضبه الفتاك. ووثبت على قدميها في صيحة متقطعة، جعلت لغط الأصوات في الغرفة المجاورة ينقطع فجأة، وقفز ريت إلى جانبها سريعاً كأنه نمر، وأحكم يده على فمها وضغط ذراعه حول خصرها، وكافحت هي بضراوة للتخلص من بين يديه، وحاولت أن تعض يده وترفس ساقيه، وتزعق بقوة سخطها ويأسها وكراهيتها وعذاب كبريائها الجريح. وانحنت وتثنت بكل اتجاه لتتخلص من قبضة ذراعه الحديدية، وكاد قلبها ينفجر. وكاد مشدها الضاغط يقطع نفسها بينما قبض هو عليها بقوة هائلة، بخشونة بالغة آلمتها. وكذلك كانت يده تضغط على شدقيها بقسوة، وبدا وجهها أبيض تحت سمرته، وبدت عيناه صارمتين قلقتين وهو يرفعها عن الأرض ويطوح بجسدها إلى صدره، ثم جلس على الكرسي وهي ما زالت تتلوى في حضنه.

- «حبيبتي، باللّه عليك، كفّي، اصمتي، لا تصيحي، سيكونون هنا بعد دقيقة إذا ما صحت. هدئي روعك. هل تريدين أن يراك الشماليون وأنت على هذه الحالة؟».

لقد كانت أبعد من أن تحفل بمن رآها، أبعد من أي شيء سوى الرغبة المستعرة في قتله، ولكن الدوار الذي يجتاحها ولم تستطع التنفس، فقد كان يخنقها، وكان مشدها كعصابة حديدية تعصرها بسرعة، وجعلتها ذراعاه المحيطتان بها ترتجف بسخط وكراهية عاجزة. ثم أضحى صوته رفيعاً غامضاً وأخذ وجهه فوقها يدور في ضباب ممرض، ضباب راح يتكاثف ويتكاثف حتى لم تعد تراه... ولا أي شيء آخر.

وعندما قامت بحركات سابحة واهنة لتصحو من الإغماء، كانت تعبة حتى العظم، ضعيفة مشتتة الذهن. كانت تضطجع على ظهرها في

الكرسي، وقبَّعتها ليست على رأسها، وكان ريت يربت على معصمها وعيناه تتفحصان وجهها بقلق. وكان الكابتن الجميل الشاب يحاول أن يسكب كأساً من البراندي في فمها، وقد أراق بعضه على عنقها، بينما كان الضباط الآخرون يحومون في الغرفة حائرين، يتهامسون ويلوحون بأيديهم.

- «أظن... أن... قد أُغمي عليَّ» قالت، وبدا صوتها بعيداً جداً بحيث أفزعها.

- «اشربي هذا» قال ريت وتناول الكأس ودفعها إلى شفتيها، وتذكرت الآن كل شيء، وحدقت في وجهه بوهن، ولكنها كانت متعبة جداً بحيث لم تستطع الغضب.

- «أرجوك، من أجلي».

فجرعت جرعة وغصّت، وشرعت تسعل، ولكنه رفع الكأس إلى فمها ثانية، فبلعت عميقاً واشتعل السائل فجأة في بلعومها.

- «أظن أنها في حالة أفضل الآن أيها السادة» قال ريت، «وإني أشكركم كثيراً، لقد كان لتحققها من أني سأعدم، وقع شديد جداً عليها».

فتحركت أقدام الضباط وبدا التأثر على وجوههم، وبعد عدة نحنحات، خطوا إلى الخارج، بينما توقف الكابتن الشاب عند الباب:

- «إن كان هناك شيء آخر أستطيع عمله...».

- «لا، أشكرك».

فخرج مغلقاً الباب خلفه.

- «اشربي جرعة أخرى» قال ريت.

- «لا...».

- «اشربي».

فبلعت جرعة أخرى وبدأ الدفء ينتشر في جسدها، وانسابت

القوة ببطء في ساقيها المرتعشتين. ثم دفعت الكأس بعيداً وحاولت أن تنهض، ولكنه أقعدها.

- «ارفع يديك عني، إني ذاهبة».
- «ليس الآن، انتظري دقيقة أخرى، فقد يغمى عليك ثانية».
- «أفضل أن يغمى عليَّ في الطريق على أن أبقى معك هنا».
- «النتيجة ذاتها، فأنا لا أريدك أن يغمى عليك في الطريق».
- «دعني أذهب. إني أبغضك».

فعاودت ابتسامة خفيفة وجهه إثر كلماتها.

- «إن ذلك الكلام ينطبق على ميلك كثيراً، لا بد أنك تشعرين بتحسن».

ظلت سكارلت مسترخية في ضجعتها هنيهة، تحاول استدعاء الغضب ليدعم معنوياتها، تحاول استنفار قوتها، ولكنها كانت تعبة جداً، كانت تعبة جداً بحيث لم تستطع أن تبغض أو تحفل بأي شيء. كانت الهزيمة تربض على روحها كالرصاص. لقد قامرت بكل شيء وخسرت كل شيء، وحتى الكبرياء لم تبقَ لها... لقد كانت هذه نهاية أملها الميتة، كانت هذه نهاية تارا، نهايتهم جميعاً... ولفترة طويلة، ظلت مستلقية على ظهرها، وعيناها مغمضتان، تسمع تنفسه العميق بقربها، وحمى البراندي تزحف شيئاً فشيئاً في جسدها، تمنحها دفئاً وقوة كاذبة. وعندما فتحت عينيها أخيراً، وحدّقت في وجهه، ثار الغضب فيها ثانية. بينما كان حاجباها المائلان ينخفضان معاً في تعبير غامض، عاودت الابتسامة القديمة وجه ريت:

- «الآن تحسّن حالك. إن في وسعي معرفة ذلك من تجهّم وجهك».
- «طبعاً إني في حالة جيدة. إنك مقيت يا ريت باتلر. ظربان إن كنت قد رأيت واحداً. لقد كنت تعرف تمام المعرفة ما كنت أنوي قوله

حالما بدأت الحديث وكنت تعرف أنك لن تعطيني النقود. ومع ذلك تركتني أستمر في الحديث، بينما كان في وسعك أن تريحني من. . . ».

- «أريحك وأخسر سماع كل الذي سمعته؟ ليس هذا كثيراً، فأنا لا أنعم إلا بمرفهات قليلة جداً هنا، وأنا لا أعرف متى حُدث وسمعت حديثاً ممتعاً كهذا» وضحك ضحكته الساخرة المفاجئة. وما إن سمعتها سكارلت حتى وثبت على قدميها وانتزعت قبعتها.

ولكن باتلر أحاط بكتفيها فجأة.

- «لن تذهبي الآن أيضاً. هل تشعرين بتحسن كافٍ يمكنك من الخوض في حديث جدي؟».

- «دعني أذهب».

- «أنت بحالة حسنة جداً كما أرى. إذن أجيبيني عن هذا السؤال. هل أنا الحديدة الوحيدة التي وضعتها في النار؟».

وكانت عيناه نافذتين متيقظتين، تراقبان كل تغير في وجهها.

- «ماذا تعني؟».

- «هل أنا الرجل الوحيد الذي كنت ستجرّبين خدعتك معه؟».

- «هل هذا من شأنك؟».

- «أكثر مما تتصورين. هل هناك رجال آخرون تحاولين اصطيادهم؟ أخبريني!».

- «كلا».

- «إن هذا لا يصدق، فلا يمكنني تصورك دون خمسة أو ستة رجال أبقيتهم كاحتياط. ومن الأكيد أن أحدهم سيتقدم لقبول عرضك الممتع، إني أحس بصدق ذلك تماماً بحيث أرغب في إسداء نصيحة صغيرة لك».

- «أنا لا أريد نصيحتك».

- «ومع ذلك سأقدمها، فالذي يبدو أن النصح هو الشيء الوحيد

الذي أستطيع تقديمه إليك في الوقت الحاضر. أصغي إليَّ لأنها نصيحة جيدة: عندما تحاولين نيل شيء من رجل، لا تبوحي بغايتك كما فعلت معي. حاولي أن تكوني أكثر دهاء، أكثر إغراء، فذلك يحرز نتائج أفضل. لقد كنت تعرفين ذلك معرفة تامة، ولكنك الآن، عندما عرضت نفسك عليَّ مقابل نقودي، ظهرت صلبة كالمسامير. لقد رأيت عينين كعينيك فوق مسدس مبارزة، على بعد عشرين خطوة مني، وأنا أقول لك أن منظر ذينك العينين ليس ممتعاً. إنهما لا تثيران أية رغبة في صدر الرجل. وليست تلك هي الطريقة لإخضاع الرجال يا عزيزتي. لقد نسيت تدريبك الأول».

- «لست في حاجة إليك لتخبرني كيف أسألك» قالت ذلك وارتدت قبعتها بتوانٍ، وتساءلت كيف يسعه أن يمزح بابتهاج كهذا والحبل على عنقه وأوضاعها المؤلمة أمام ناظريه. بيد أنها لم تلاحظ كذلك أن يديه كانتا متجمعتين في جيبيه بقبضتين صلبتين كأن عجزه عن كل شيء كان يجهده.

- «مع السلامة»، قال بينما كانت تعقد شريطي قبعتها، «في وسعك الحضور لمشاهدة إعدامي، فذلك يجعلك تشفين غليلك وتنتعشين، بل إنه يوفي كل ديونك القديمة معي... حتى إساءتي الحالية. وسأذكرك في وصيّتي».

- «أشكرك، ولكن قد لا يعدمونك إلا بعد أن يصبح الوقت متأخراً جداً بالنسبة إلى دفع الضرائب».

قالت ذلك بحقد مفاجئ، ماشى حقده، وكانت تعني ما تقول.

35

عندما خرجت سكارلت من المبنى كان المطر يتساقط والسماء مربدة شاحبة، وكان الجنود قد تركوا الساحة واعتصموا في أكواخهم بينما خلت الشوارع من المارة، ولم يقع بصر سكارلت على عربة واحدة، وأدركت أن عليها أن تمشي الطريق الطويلة إلى البيت.

وبينما كانت تتابع مشيها على الطريق، تلاشى دفء البراندي وارتجفت من الريح الباردة، وانصبَّت على وجهها حبات المطر الباردة حادة كوخز الإبر. ولم تمضِ فترة قصيرة حتى اخترق المطر معطف العمة بيتي الرقيق فتدلى حولها في طيات رطبة وأدركت أن الفستان المخملي قد تلف. وأما بالنسبة إلى ريش القبعة فقد كان متهدلاً متمرطاً شأنه أيام كان مالكه السابق يحمله في أنحاء الساحة الماطرة أمام مخزن حبوب تارا. وكان آجر الرصيف مكسراً منعدماً لمسافات طويلة، وكان الوحل في هذه المناطق يبلغ الكاحل عمقاً، وكان خفّاها يلصقان به كأنه غراء ينتزعهما أحياناً من قدميها، وكلما انحنت لتخرجهما من الوحل، تلطخت أهداب الفستان به. ولم تحاول سكارلت حتى تجنّب برك الماء، بل كانت تدوس فيها بغباوة، جارّة تنورتها الثقيلة خلفها. وكان في وسعها أن تحس تنورتها وسروالها المبللين باردين حول كاحلها، ولكنها كانت أبعد من أن تحفل بتلف ثوبها الذي كانت قد قامرت عليه بثمن باهظ. لقد كانت مبتردة قانطة فاترة الهمة.

كيف يسعها أن تعود إلى تارا وتواجه أهلها بعد تلك الكلمات المشجعة التي نطقت بها؟ كيف يسعها أن تخبرهم أن عليهم أن يغادروا البيت إلى مكان آخر؟ كيف يسعها مغادرة المزرعة، والحقول الحمراء، والصنوبرات الباسقة، وأراضي الأهوار المنخفضة القاتمة وأرض المقبرة الهادئة التي ترقد فيها إيلين في ظلال أشجار الأرز العميقة؟

وتأجج بغض ريت في قلبها بينما كانت تتهادى على الطريق. ما كان أشد سفهه! ورجت أن يعدموه حتى لا تضطر إلى رؤيته ثانية، بعد أن اطلع على شينها ومهانتها. طبعاً كان في مقدوره أن يحصل على المال من أجلها لو كان يريد تحصيله. آه، لقد كان الإعدام حقيقاً جداً به! شكراً للّه، لأنه لا يستطيع رؤيتها الآن وثيابها مشرَّبة بالرطوبة وشعرها مشعث وأسنانها مصطكة. لا بد أنها تبدو قبيحة جداً زرية المنظر، ولا بد أن يضحك عليها كثيراً.

وكان الزنوج الذين تمر بهم يبتسمون هازئين بها، ويضحكون فيما بينهم عندما تحث خطاها وهي تنساب وتنزلق في الوحل، ثم تقف لاهثة لتعيد خفَّيها إلى وضعهما الأصلي... كيف يجرؤون على الضحك، أولئك القردة السود! كيف يجرؤون على السخرية منها، هي سكارلت أوهارا التي من تارا! إنها ترغب في أن يُجلَدوا جميعهم بالسوط إلى أن يجري الدم على ظهورهم. ما كان أعظم شر الشماليين عندما أطلقوا سراحهم، أطلقوا سراحهم ليسخروا من البيض!

وبينما كانت تسير في شارع واشنطن، بدا المكان كئيباً كقلبها، فلم يكن يوجد هنا شيء من الصخب والحركة اللذين لحظتهما في شارع بيتشتري. لقد كان يقوم هنا فيما مضى كثير من البيوت الجميلة، والقليل منها أعيد بناؤه. ولم يكن يبدو لناظريها سوى الأسس الملطخة بالسخام، والمداخن الموحشة السوداء التي كانت تُدعى في هذه الأيام بـ«حرس شيرمان» والتي كانت كثيرة تخلع القلوب بمنظرها. وكانت

هناك ممرات معشوشبة توصل إلى ما كان منازل فيما مضى، وإلى مرجات قديمة تراكم العشب الميت فوقها، وإلى سلالم عربات تحمل أسماء كانت تعرفها جيداً، وإلى أعمدة مرابط الخيل التي لن ترى عقد الأعنة ثانية. . . ريح باردة. . . ومطر ووحل وأشجار جرداء وسكون ووحشة، وأخيراً، ما أرطب قدميها وما أطول الطريق إلى البيت!

وسمعت صوت رشاش وقع حوافر خلفها، فأسرعت مبتعدة إلى الرصيف الضيق لتتجنب لطخات وحل جديدة تشوّه معطف العمة بيتي. وكانت عربة بحصان واحد، آتية ببطء على الطريق. فالتفتت لتراقبها، وعزمت على أن تلتمس ركوباً إذا كان السائق شخصاً أبيض، غير أن المطر أعاقها عن رؤية العربة وهي تمر إزاءها، ومع ذلك فقد رأت السائق يرنو من فوق المشمع الذي كان يمتد من اللوحة الواقية من الوحل في مقدمة العربة، إلى ذقنه. كان في سحنته شيء أليف لديها، وعندما خطت إلى الشارع لتتأمله عن قرب، طرقت أذنيها سعلة ارتباك خفيفة من الرجل، ثم تلاها صوت تعرفه جيداً، صوت ارتفع في نغم مسرور مندهش: «حتماً لا يمكن أن تكون الآنسة سكارلت!».

- «ها سيد كنيدي!» صاحت ثم داست عبر الطريق واتكأت على العجلة الموحلة غير مبالية بأن يصيب المعطف أذى جديد، «لم أشعر يوماً بمثل هذه السعادة عند رؤية أي إنسان!».

فاحمرّ وجهه سروراً بتأثير الود الجلي في كلماتها، وبسرعة، نفث سحابة من دخان التبغ من جانب العربة المقابلة، وقفز بخفة إلى الأرض، وصافحها بحماس، ثم ساعدها على الصعود إلى العربة، بعد أن رفع المظلة.

- «آنسة سكارلت، ماذا تفعلين في هذا الحي وحدك؟ ألا تعلمين بوجود خطر هذه الأيام؟ إنك مبللة أيضاً، دونك العباءة لفّيها حول قدميك».

وبينما هو منهمك بها، يقرق كالدجاجة، سلّمت هي نفسها لدلال من يكون موضع غاية. كان من الجميل أن تجد رجلاً ينهمك بها ويقرق ويعنف، حتى لو كان ذلك الرجل هو العجوز المخنث اللهاث، فرانك كنيدي. لقد كان ذلك عاملاً ملطفاً لها، خصوصاً بعد معاملة ريت الوحشية. ثم، ما أحسن أن رأت وجه رجل من المقاطعة، وهي بعيدة جداً عن بيتها! كان فرانك جيد الملبس كما لاحظت، وكانت العربة جديدة كذلك، وبدا الحصان فتياً جيد التغذية. إلا أن فرانك تراءى لها أكبر بكثير من عمره، أكبر مما بدا في ليلة عيد الميلاد التي كان فيها في تارا هو ورجاله، كان هزيلاً شاحب الوجه، وكانت عيناه الصفراوان زائغتين غائرتين في تغضنات جلد متهدل، وكانت لحيته الزنجبيلية اللون أخف مما كانت عليه في أي وقت، ملوثة بخطوط من التبغ، مشعثة كأنه كان يعبث بها باستمرار. ولكنه رغم ذلك، كان يبدو مرحاً مشرق الروح بعكس أمائر الأسى والقلق والإعياء التي رأتها سكارلت في وجوه الناس في كل مكان.

- «إن من دواعي سروري أن أراك» قال فرانك بحرارة، «لم أكن أعرف أنك في المدينة، إذ كنت قد رأيت الآنسة بيتي بات في الأسبوع الماضي فقط، ولم تخبرني أنك آتية... هل... أر... أحم... هل جاء معك أحد آخر من تارا؟».

لقد كان يفكر في سولين، هذا العجوز الأحمق التافه.

- «لا» قالت، ولفّت السترة الدافئة حولها، وحاولت أن ترفعها حول عنقها، «جئت وحدي، ولم أُخبر العمة بيتي بمجيئي مسبقاً».

- «هل الجميع في تارا بصحة جيدة؟».

- «أجل، لا بأس بهم».

ينبغي أن تفكر في موضوع تتحدث فيه، مع أن التحدث كان أمراً عسيراً جداً عليها، فقد كان عقلها مثقلاً بالهزيمة. وكل ما كانت ترجوه

هو أن تستلقي في هذا الحرام الدافئ وتقول لنفسها: «لن أفكر في تارا الآن، سأفكر فيها فيما بعد، عندما لا يضيرني التفكير كثيراً». وإذا ما استطاعت فقط أن تجعله يشرع في التحدث في موضوع ما يشغله طوال الطريق إلى البيت، فلن يكون عليها أن تدمدم بين الفينة والأخرى: «ما أظرف ما تقول!» و«من الأكيد أنك ذكي».

- «سيد كنيدي، لقد دهشت كثيراً لرؤيتك. إني أعرف أني فتاة عاقة لأني لم أحافظ على الاتصال بالأصدقاء القدامى، غير أني لم أكن أعرف أنك هنا في أتلانتا، وأظن أن أحدهم أخبرني أنك كنت في ماريتا».

- «لي أعمال في ماريتا، أعمال كثيرة» قال، «ألم تخبرك سولين أني استقررت في أتلانتا؟ ألم تخبرك عن مخزني؟».

كانت في تفكيرها ذكرى غامضة عن حديث من أحاديث سولين عن فرانك ومخزنه، ولكنها لم تكن قد أعارت اهتماماً كبيراً لأي شيء قالته سولين، واكتفت بأن تعرف أن فرانك كان حياً، وأنه سيأخذ سولين عن كاهلها يوماً ما.

- «لا، ولا كلمة» قالت، «هل تملك مخزناً؟ ما أشد ما لا بد أن تكون عليه من حزق».

فظهر عليه قليل من الضيق، لأن سولين لم تنشر النبأ، بيد أنه ما عتم أن أشرق بفعل إطرائها.

- «أجل، إني أملك مخزناً، ومخزناً بديعاً جداً كما أعتقد. والناس يقولون لي إني ولدت تاجراً» وضحك مغتبطاً، ضحكته الحيية المقوقئة التي كانت سكارلت تجدها دائماً مضايقة جداً.

«ما أشد غرور هذا العجوز الأحمق!» هجست.

- «طبعاً، إن في وسعك أن تنجح في أي عمل تتعاطاه يا سيد كنيدي. ولكن كيف أسست هذا المخزن؟ إذ عندما رأيتك في عيد

الميلاد الذي سبق السنة الماضية، قلت إنك لا تملك سنتاً في هذه الدنيا».

فتنحنح بصوت أجش، وعبث بشاربيه وابتسم ابتسامته العصبية الحيية.

- «حسناً، إنها قصة طويلة يا آنسة سكارلت».

«شكراً للّه» هجست سكارلت، ربما تشغله إلى أن تبلغ البيت. ثم رفعت صوتها: «قصها عليَّ».

- «أنت تذكرين عندما أتينا تارا آخر مرة، نبحث عن مؤن؟... على كل حال، لم تمضِ فترة طويلة بعد ذلك حتى التحقت بالخدمة الفعلية، أعني القتال الحقيقي. فلم أبقَ في دائرة التموين، إذ لم تعد هناك حاجة كبيرة إلى هذه الدائرة يا آنسة سكارلت، لأننا لم نكن نستطيع إيجاد شيء للجيش إلا بصعوبة، ولذلك فكرت أن المكان اللائق برجل قادر جسدياً هو جبهة القتال. وهكذا اشتركت في الحرب مع الفرسان لفترة من الوقت، حتى أصبت برصاصة من نوع ميني اخترقت كتفي».

وظهر عليه الاعتزاز الشديد، وقالت سكارلت: «يا للهول!».

- «لا، لم تكن بليغة جداً، مجرد جرح سطحي» قال مفحماً، «وأُرسلتُ جنوباً إلى المستشفى، وعندما أوشكت على الشفاء بلغ الغزاة الشماليون بلدتنا... يا أماه! لقد كان وقتاً حرجاً. لم يصلنا إنذار صريح، وراح كل من يستطيع المشي منا يساعد في نقل ذخائر الجيش وأجهزة المستشفى إلى محطة السكة ليجري نقلها. وبعد أن أوشكنا على الانتهاء من شحن قطار واحد، دخل الشماليون من إحدى جهات المدينة، فخرجنا نحن من الجهة المقابلة بأقصى سرعة ممكنة... يا أماه! لقد كان ذلك مشهداً محزناً جداً... جلست على سطح القطار أشاهد الشماليين وهم يحرقون المؤن التي أرغمنا على

تركها في المحطة. لقد أحرقوها يا آنسة سكارلت، حوالى نصف ميل من المواد التي كنا كدسناها هناك بمحاذاة الخط الحديدي. وهكذا نجونا بأنفسنا فقط».

- «يا للهول!».

- «أجل هذه هي الحقيقة... إنه شيء مروِّع. وكان رجالنا قد عادوا إلى أتلانتا آنئذ، ولذا أُرسل قطارنا إليها. وعلى كل حال يا آنسة سكارلت، لم يمضِ زمن طويل حتى انتهت الحرب و... نعم، كانت هناك كمية كبيرة من الأدوات الخزفية والأسرَّة والفرش والحرامات التي لم يدّعِ أحد ملكيتها، والتي أفترض بحق، أنها غدت تخص الشماليين. وأعتقد أن هذا ما نصت عليه شروط الاستسلام، أليس كذلك؟».

- «نعم» قالت سكارلت شاردة الذهن، وكانت قد أحست بالدفء الآن، وساورها النعاس.

- «وأنا لا أعلم حتى الآن ما إذا كنت قد فعلت الصواب» قال بقليل من التذمر، «غير أن الطريقة التي صورت الأمر فيها هي أن كل هذه المواد لن تفيد الشماليين شيئاً، وكان من المحتمل أن يحرقوها، كما أن شعبنا كان قد دفع نقوداً كثيرة ثمناً لها، وفكرت أنها ما زالت تخص الحلف أو الحلفيين حتماً. هل أدركت ما أقصد؟».

- «نعم».

- «إني سعيد لأنك وافقت على رأيي يا آنسة سكارلت، فلقد كان الأمر يعذّب ضميري بعض الشيء. ولقد قال لي الكثير من الناس: «انسَ كل ما يتعلق بها يا فرانك» ولكني لا أستطيع. ولم يكن في وسعي أن أرفع رأسي إن أنا فكرت أن ما أتيته لم يكن عملاً شرعياً، هل تعتقدين أني أتيت عملاً طيباً؟».

- «طبعاً» قالت وهي تتساءل عما كان يتحدث به ذلك العجوز

الأحمق. . . عراك مع ضميره. . . عندما يصبح الإنسان عجوزاً في عمر فرانك ينبغي أن يكون قد تعلم ألّا يتضايق من أشياء لا وجود لها. بيد أن فرانك كان دائماً رجلاً عصبياً شديد الحساسية وعجوزاً مخنثاً.

- «إني سعيد لسماعك تقولينها. لقد كنت أملك بعد الاستسلام عشرة دولارات فضية ولا شيء آخر من حطام الدنيا. وأنت تعلمين ما فعلوه بجونسبورو وبيتي ومخزني فيها. ولم أدرِ عندئذ ما أفعل، ولكني استعملت العشرة دولارات في بناء سقف لمخزن قديم في فايف بوينتس، ونقلت إليه أجهزة المستشفى وبدأت في بيعها. وكان الجميع في حاجة إلى أسرَّة وأدوات خزفية وفرش. وتقاضيت بدلاً منها ثمناً بخساً لأنني تصورت أنها كانت تقريباً ملك الناس كما كانت ملكي. ومع ذلك جمعت نقوداً منها واشتريت بضائع أخرى. وهكذا اطَّرد نجاح المخزن، وأعتقد أني ساجني نقوداً وفيرة منه إذا ما انتعشت الأحوال التجارية».

وعند كلمة نقود، عاد انتباهها إلى حديثه، صافياً كالبلور.

- «قلت إنك جمعت نقوداً».

فانتفخ مزهداً بصورة جلية، بفعل اهتمامها، إذ كان القليل من النساء باستثناء سولين، يعاملنه بأكثر من المجاملة المتكلفة، ولذلك كان من المبهج كثيراً له أن تعلّق على كلماته حسناء سابقة كسكارلت أوهارا. ولذلك أبطأ سير الحصان كي لا يبلغا البيت قبل أن يتم قصته.

- «أنا لست صاحب ملايين يا آنسة سكارلت، وإذا أخذنا في الاعتبار ما اعتدت أن أحوزه من مال، فإن الذي حصلته الآن يبدو مقداراً صغيراً، على أني ربحت ألف دولار هذا العام. طبعاً، دفعت خمسمئة منها في شراء بضائع جديدة وفي إصلاح المخزن ودفع بدل الإيجار، ولكني كسبت خمسمئة ربحاً صافياً. وما دامت الأوضاع

تزدهر حتماً، فلا بد لي من أن أربح ألفي دولار في السنة القادمة. كما أني واثق أن في وسعي استخدام هذا المبلغ أيضاً، إذ قد وضعت حديدة أخرى في النار[1]».

ازداد اهتمام سكارلت بسرعة بسبب الحديث عن المال، فحجبت عينيها بأهدابها الكثيفة القاسية واقتربت قليلاً منه:

- «ماذا تعني يا سيد كنيدي؟».

فضحك فرانك، وصفع ظهر الحصان بحبال العنان:

- «أظن أني أزعجك وأنا أتحدث عن التجارة يا آنسة سكارلت، فالشابة الجميلة مثلك ليست في حاجة إلى أن تعرف شيئاً عن التجارة».

- «لا. أنا أعرف أني غبية فيما يتعلق بالتجارة ولكني مسرورة جداً بالحديث. أرجوك أخبرني كل ما يتعلق بعملك، وفي وسعك أن توضح الذي لا أفهمه».

- «كما ترغبين، إن حديدتي الأخرى هي منجرة».

- «ماذا؟».

- «معمل لنشر كتل الخشب وسحجها. لم أشتره بعد ولكني سأشتريه. هناك رجل اسمه جونسون يملك معملاً من هذا النوع، يقع على طريق بعد طريق بيتشتري وهو متلهف لبيعه. إنه في حاجة ماسَّة إلى نقود فورية، لذلك فهو يرغب في بيع معمله والبقاء فيه لإدارته بالنيابة عني، مقابل أجر أسبوعي. إنه أحد المعامل القليلة من نوعه في هذا الإقليم يا آنسة سكارلت، إذ قد دمر الشماليون معظمها. وكل من يملك منجرة يملك منجم ذهب، لأن في وسع المرء في هذه الأيام أن يطلب الثمن الذي يريده مقابل الألواح الخشبية. فقد أحرق الشماليون بيوتاً عديدة هنا، بحيث لم تبقَ منازل تكفي لسكنى الناس الذين يبدو

---

(1) أي إني أهدف إلى القيام بمشروع جديد - (المترجمان).

أنهم جنوا على تجديد البناء. ولكن ليس في وسعهم الحصول على أخشاب كافية، وليس في وسعهم كذلك أن يحصلوا عليها بالسرعة المطلوبة. إن الناس يتدفقون على أتلانتا، كل سكان أرياف المقاطعة، الذين لا يستطيعون الزراعة من دون العبيد، وكذلك الجنود الشماليون والكاربت بكرز الذين يحتشدون في المدينة محاولين تعريق عظامنا أكثر مما عرقت حتى الآن. إني أقول لك إن أتلانتا سرعان ما ستصبح مدينة كبيرة، ولا بد لسكانها من أن يحصلوا على أخشاب لبيوتهم، ولذلك فسأشتري المعمل حالما... حسناً، حالما أستوفي بعض فواتير الدين الذي يخصّني. وفي هذا الوقت من السنة القادمة، لا بد من أن أتنفس بسهولة أكثر فيما يتعلق بالمال، أظن... أظن أنك تعرفين سبب كوني متلهفاً جداً لجمع المال بسرعة. ألا تعرفين؟».

واحمرّ وجهه خجلاً ثانية. «إنه يفكر في سولين»، هجست سكارلت باشمئزاز.

وفكرت هنيهة في موضوع سؤاله أن يقرضها ثلاثمئة دولار، ولكنها نبذت الفكرة بامتعاض، وأدركت أنه سيضطرب ويعرض أعذاره دون أن يقرضها المبلغ، فلقد عمل بجد في سبيل أن يجمع المال حتى يتمكن من التزوج بسولين في الربيع، وإذا فرغت يده فسيؤجل موعد زفافه إلى أجل غير مسمى. وحتى لو استصرخت عواطفه وواجباته نحو عائلته المستقبلية وظفرت بوعده في منحها قرضاً، فإنها تعرف أن سولين لن تسمح بذلك، فسولين التي كان قلقها يزداد من جرّاء الحقيقة الكائنة في أنها أضحت عملياً صبية مسنة، ستهز الأرض والسماء لتمنع أي شيء يؤخر زواجها.

أي مزية كانت تزين تلك الفتاة النكدة المتذمرة لتجعل هذا العجوز الأحمق يتلهّف لمنحها عشاً هادئاً؟ لم تكن سولين تستحق زوجاً محباً ونتاج مخزن ومنجرة. وحالما تحوز يداها نقوداً قليلة، سيشمخ أنفها

إلى درجة لا تطاق، ولن تتبرع بسنت واحد لتارا المهددة. لا، لن تفعلها سولين! ستستفيد هي نفسها من الفرصة، ولن تعبأ إذا ما ضاعت تارا بسبب الضرائب أو إذا ما احترقت جميعها ما دامت تملك ثياباً جميلة وتنعم بلقب «سيدة» أمام اسمها.

وعندما فكرت سكارلت في مستقبل سولين المضمون وفي مستقبلها القلق هي وتارا، اشتعل الغضب فيها على عدم عدالة الحياة، وأطلت بسرعة من العربة على الشارع الموحل، لئلا يلحظ فرانك تعبير وجهها. إنها ستخسر كل ما تملكه، بينما سولين - وفجأة ولد تصميم فيها.

ينبغي ألّا تظفر سولين بفرانك ومخزنه ومعمله! لم تكن سولين تستحق كل ذلك وستظفر بهم هي نفسها. وفكرت في تارا، وتذكرت جوناس ويلكرسون يقف كصلّ خشخاش على أسفل الدرجات الأمامية، فتمسكت بآخر قشة عائمة فوق حطام حياتها الغريق. لقد خيَّب ريت رجاءها ولكن اللّه بعث لها فرانك.

ولكن هل تستطيع الظفر به؟ وثنت أصابعها بينما كانت تنظر إلى المطر دون أن ترى شيئاً. هل أستطيع أن أجعله ينسى سولين ويعرض التزوج بي حقيقة، وبسرعة؟ إذا كنت قد استطعت أن أجعل ريت يعرض علي ذلك تقريباً، فإن في وسعي الظفر بفرانك! وتأملته عيناها، وارتعش جفناها. . . طبعاً إنه ليس جميلاً، فكرت ببرود، وأسنانه بشعة جداً ورائحة نفسه رديئة وكبير السنّ جداً بحيث يمكن أن يكون والداً لي، فضلاً عن أنه عصبي وحيي وساذج، وأنا لا أعرف أي صفات زرية أخرى يمكن أن يتصف بها رجل. غير أنه على الأقل، رجل فاضل وأنا أعتقد أن في وسعي أن أحتمل الحياة معه أفضل مما مع ريت، إذ سأقوده بسهولة أكثر، وعلى كل حال، ليس في مقدور المتسولين أن يكونوا مخيَّرين.

أما أنه كان خطب شقيقتها سولين فإن ذلك لم يسبب أي تقريع لضميرها. ذلك أنه بعد الانهيار الخلقي التام الذي حملها إلى أتلانتا وإلى ريت، بدا أن اغتصاب خطيب شقيقتها أمر ضئيل الأهمية، أمر ينبغي ألّا تقلق بشأنه في هذا الوقت.

وبظهور هذا الأمل الجديد، تصلّب عمودها الفقري، ونسيت أن قدميها كانتا مبللتين باردتين. ونظرت إلى فرانك نظرة ثابتة، وعيناها تضيقان، بحيث ذُعر قليلاً وعندئذ غضت بصرها بسرعة متذكرة كلمات ريت «لقد رأيت عينين كعينين فوق مسدس مبارزة... إنهما لا تثيران أية رغبة في صدر الرجل».

- «ما القضية يا آنسة سكارلت؟ هل أصابتك قشعريرة؟».

- «نعم» أجابت بوهن، «هل تنزعج؟...» وترددت حيية، «هل تنزعج إن أنا وضعت يدي في جيب سترتك؟ فالجو بارد جداً وفروي مشرب بالماء».

- «ماذا... ماذا... طبعاً لا! وليس معك قفازان! يا أماه، أي وحش كنته وأنا مستمر في الثرثرة هكذا، أتحدث وفكري شارد بينما أنت لا بد أن تكون متبردة وفي حاجة إلى الوصول إلى مدفأة. هيا سالي[1]! وبهذه المناسبة يا آنسة سكارلت، لقد كنت منهمكاً جداً بالحديث عن نفسي بحيث لم أسألك عما كنت تفعلين في هذا الحي وفي هذا الطقس؟».

- «كنت في مركز قيادة الشماليين» أجابت قبل أن تفكر بينما ارتفع حاجباه الرمليا اللون من الدهشة.

- «ولكن يا آنسة سكارلت! الجنود... كيف...».

«يا مريم العذراء، دعني أفكر في كذبة بارعة حقاً» التمست

---

(1) سالي اسم الفرس - (المترجمان).

بسرعة، «فليس من المستحسن أبداً أن يرتاب فرانك في أنها كانت قد رأت ريت إذ كان يعتقد أن هذا الرجل هو أخس اللئام، وأن من غير الآمن للمرأة المحتشمة أن تتحدث إليه».

- «لقد ذهبت إلى هناك... لقد ذهبت إلى هناك لأرى إذا... إذا كان أحد من الضباط يشتري أشغالاً يدوية مني ليرسلها إلى زوجته. إني أطرز تطريزاً جميلاً»، فاسترخى متكئاً على المقعد وهو لا يزال مشدوهاً والسخط يعارك الحيرة في نفسه.

- «أنت ذهبت إلى الشماليين... ولكن يا آنسة سكارلت! ينبغي ألّا تذهبي... كيف... - ... حتماً إن والدك لا يعلم بذلك! حتماً إن الآنسة بيتي بات...».

- «آه، سأموت إن أخبرت الآنسة بيتي بات» صاحت في قلق حقيقي وانفجرت في البكاء. وكان من السهل عليها أن تبكي لأنها كانت شديدة الابتراد والبؤس، غير أن نتيجة البكاء كانت مذهلة، فلم يكن من الممكن أن يغدو فرانك أكثر جزعاً وحيرة لو أنها بدأت تخلع ثيابها فجأة. لقد راح يحرّك لسانه بين أسنانه مدمدماً «يا أماه!» وأخذ يومئ لها بإشارات عديمة الجدوى. وساورت عقله فكرة جريئة وهي أن عليه أن يضع رأسها على كتفه ويربت على ظهرها ولكنه لم يكن قد فعل هذا لأي امرأة، وكان من العسير عليه أن يعرف كيف يجب أن يتصرف في مثل هذه الحالة. إن سكارلت أوهارا الرفيعة النفس، الجميلة، تبكي في عربته. سكارلت أوهارا، أعظم المتكبرات كبرياء تحاول أن تبيع للشماليين أشغال إبرة. واشتعل قلبه.

وتابعت هي نشيجها، وكانت تتفوّه بكلمات قليلة بين الفينة والأخرى، واستنتج هو أن الأمور ليست على ما يرام في تارا، وأن السيد أوهارا ما زال على «غير طبيعته» وأنه لا وجود لطعام يسدّ رمق ذلك العدد الكبير منهم. وهكذا اضطرت سكارلت إلى المجيء إلى

أتلانتا لتحاول أن تحصل على مال قليل لها ولابنها. وحرّك فرانك لسانه ثانية، وفجأة وجد أن رأسها كان على كتفه ولم يعرف بالضبط كيف أضحى هنالك، فمن الأكيد أنه لم يضعه هناك، ولكن ها هو رأسها على كتفه، وها هي سكارلت أوهارا تنشج عاجزة على صدره النحيل، الأمر الذي كان بمثابة عاطفة روائية مثيرة بالنسبة إليه. وربت على كتفها بحياء، حذراً في أول الأمر، ولكن جرأته ما لبثت أن اشتدت عندما لم تصدّه، فراح يربت بحزم... اي امرأة صغيرة عذبة عاجزة... وما كان أشجع وأحمق أن تجرب يدها في جمع المال بواسطة عمل الإبرة... ولكن أن تتعامل مع الشماليين... إن ذلك كثير جداً.

- «لن أخبر الآنسة بيتي بات، ولكن ينبغي أن تعديني يا آنسة سكارلت أنك لن تقدمي على عمل كهذا، مرة ثانية. إن فكرتك...».

كانت عيناها الخضراوان الدامعتان تنشدان عينيه حائرتين:

- «ولكن يا سيّد كنيدي، ينبغي أن أعمل شيئاً. ينبغي أن أعتني بابني الصغير المسكين وليس من أحد يعتني بنا الآن».

- «إنك صبية شجاعة» قال، «ولكن لا أريدك أن تأتي مثل هذا النوع من الأعمال. إن عائلتك ستموت من العار».

- «إذن ماذا عليَّ أن أعمل؟» وتطلعت عيناها السابحتان إليه، كأنها تعلم أنه يعرف كل شيء، وكانت تتطلع إلى جوابه.

- «الواقع أني لا أعرف الآن تماماً، ولكني سأفكر في عمل ما».

- «آه، إني أعرف أنك ستفكر، فأنت حاذق جداً.. يا فرانك».

ولم تكن قد دعته باسمه الأول من قبل، ولذلك نزل النداء على مسامعه كصدمة ومفاجأة سارة... من المحتمل أن تكون الفتاة التعيسة مضطربة جداً بحيث إنها لم تلاحظ حتى زلة لسانها، وأحس بعطف كبير عليها وبضرورة حمايتها، حبذا لو كان يوجد أي شيء يستطيع

عمله لشقيقة سولين أوهارا، إذن لنفذه حتماً. وأخرج منديلاً كبيراً ملوناً وناولها إياه، فمسحت عينيها به وبدأت تبتسم وهي ترتعش.

- «إنني جبانة غريرة حمقاء» قالت معتذرة، «أرجوك سامحني».

- «أنت لست جبانة غريرة حمقاء، إنك شابة شجاعة جداً، كما أنك تحاولين حمل عبء ثقيل جداً، أخشى ألّا يكون في استطاعة الآنسة بيتي بات مساعدتك كثيراً، إني أسمع أنها فقدت معظم ممتلكاتها، وأن السيد هنري هاملتون هو نفسه في وضع سيّئ. وكل ما أتمناه لو كنت أملك بيتاً أقدمه لك لتأوي إليه. ولكن يا آنسة سكارلت، ينبغي أن تتذكري أنه عندما سأتزوج الآنسة سولين سيكون لك دائماً مكان تحت سقف منزلنا، ولويد هاملتون أيضاً».

لقد حان الوقت الآن! حتماً لقد كان الملائكة والقديسون يحرسونها كي يمنحوها فرصة سماوية كهذه. ونجحت في أن تبدو مجفلة مضطربة جداً، وفتحت فمها كأنها تريد أن تتكلم بسرعة ثم أغلقته مخرجة صوتاً.

- «لا تخبريني أنك لم تكوني تعلمين أني سأغدو صهرك هذا الربيع» قال بدعابة عصبية. ثم استوضح مذعوراً، وقد رأى عينيها تغرقان بالدموع «ما القضية؟ آمل ألّا تكون الآنسة سولين مريضة. هل هي مريضة؟».

- «كلا، كلا!».

- «يوجد شيء سيّئ، لا بد أن تخبريني».

- «آه، لا أستطيع. لم أكن أعرف! لقد اعتقدت واثقة أنها لا بدّ أن تكون قد كتبت إليك، ما أحقرها!».

- «آنسة سكارلت، ما القضية؟».

- «فرانك... أنا لم أقصد أن أفشي الأمر، ولكني ظننت، طبعاً، أنك تعرف... أنها قد كتبت إليك...».

- «كتبت إليَّ ماذا؟» سأل وهو يرتجف.
- «آه، أن تفعل هذا مع إنسان نبيل مثلك!».
- «ماذا فعلت؟».
- «ألم تكتب إليك؟ آه، أظن أنها كانت تحس بعار فظيع بحيث لم يسعها أن تكتب إليك. لا بد أنها كانت تحس بالعار! آه من أن تكون لي شقيقة منحطة كهذه!».

وعندئذ لم يعد في وسع فرانك أن يوصل الأسئلة إلى شفتيه. فجلس يحدق بها ووجهه مربد والزمام مرتخ بين يديه.

- «إنها ستتزوج طوني فونتين في الشهر القادم. آه، إني آسفة جداً يا فرانك، آسفة جداً لأن أكون الإنسان الذي يخبرك. لقد سئمتْ من الانتظار وخشيتْ أن تغدو عانساً».

* * *

كانت مامي تقف على الشرفة الأمامية عندما كان فرانك يساعد سكارلت على النزول من العربة. وكان من الواضح أن مامي كانت تقف هناك منذ وقت ليس بقصير، لأن خرقة رأسها كانت مبللة، كما أن شالها القديم كان يلتصق تماماً بجسدها ونقاط الماء بادية عليه. وكان الوجه الأسود المغضن صورة عن الغضب والإدراك. وكانت شفتها متدلية أكثر من أي مرة استطاعت سكارلت تذكّرها، وتطلعت إلى فرانك بسرعة، وعندما عرفت شخصه، تغير وجهها وغمره السرور والحيرة، وشيء شبيه بأمارات الإثم. وتهادت مامي نحو فرانك بتحيات جذلة، وابتسمت له ولاطفته وهو يصافحها:

- «حتماً إن رؤية المرء لمواطنيه أمر جميل» قالت، «كيف حالك يا سيد فرانك؟ عجباً، ألا تبدو في صحة جيدة! لو أني كنت قد عرفت أن الآنسة سكارلت ستكون في رفقتك في الخارج، لما قلقت كثيراً، ولكنت أدركت أنك ستحرص عليها، ولكني عدت إلى البيت ووجدت

أنها خرجت فذهلت وصرت كدجاجة قطع رأسها. وفكرت أنها تسير في أنحاء هذه المدينة وحدها، وكل هؤلاء الزنوج المحررين الحقيرين في الشوارع. كيف لم تخبريني أنك ستخرجين يا حلوتي؟ وأنت مصابة بالزكام!».

فغمزت سكارلت فرانك غمزة ماكرة، ورغم كل التعاسة التي جلبها عليه النبأ السيّئ الذي كان قد سمعه، ابتسم مدركاً أنها توصيه بالصمت، وأنها تجعل منه عضواً في مؤامرة ممتعة.

- «أسرعي إلى الطابق العلوي، وهيئي لي بعض الثياب الجافة يا مامي» قالت، «وأعدّي شاياً ساخناً».

- «يا اللّه، لقد تلف فستانك الجديد تماماً» تذمّرت مامي، «ولن يكون لدي وقت لتجفيفه ومسحه بالفرشاة كي يصبح لائقاً لترتديه للعرس في هذه الليلة» ودخلت البيت، بينما مالت سكارلت نحو فرانك وهمست: «أرجو أن تأتي لتناولِ العشاء معنا الليلة، فنحن نشعر بالوحدة وسنذهب إلى العرس بعد ذلك، فكن مرافقنا. وأرجوك ألّا تقول شيئاً للعمة بيتي عن... عن سولين، فإن ذلك سيؤلمها كثيراً، وأنا لا يسعني أن أتحمل كدرها إذا ما علمت أن شقيقتي...».

- «لن أخبرها، لن أخبرها». قال فرانك بسرعة، وقد أجفل من مجرد الفكرة.

- «لقد كنت طيباً جداً معي هذا اليوم، وأحسنت إليَّ إحساناً عظيماً، وإني أشعر بالارتياح التام الآن» وضغطت يده وهي تودعه، وصوّبت كل سهام عينيها عليه.

أما مامي التي كانت تنتظر خلف الباب تماماً، فقد رمقت سكارلت بنظرة مبهمة، ثم تبعتها على السلّم إلى غرفة النوم وهي تلهث. واحتفظت بالصمت وهي تجرّد سكارلت من ملابسها المبللة وتعلّقها على الكراسي ثم تدس سكارلت في فراشها. وعندما أحضرت

كوب الشاي الساخن، وقطعة آجر حارة ملفوفة في خرقة من الفانيلا، نظرت إلى سكارلت وقالت بأقرب لهجة إلى الاعتذار، سمعتها سكارلت في صوتها: «يا حملي، كيف لم تخبري مربيتك الخاصة بما كنت تنوينه؟ وإلا لما كنت سافرت كل هذه الطريق إلى أتلانتا. إني كبيرة السن جداً وبدينة جداً بحيث لا أستطيع الركض والبحث عنك».

- «ماذا تقصدين؟».

- «يا حلوتي، لن تستطيعي خداعي. إني أعرفك. لقد رأيت وجه السيد فرانك الآن ورأيت وجهك، وفي وسعي أن أقرأ أفكارك كما يقرأ الإنسان الإنجيل. ولقد سمعت ذلك الهمس الذي كنت تهمسين به إليه عن الآنسة سولين، ولو كنت أعرف أن السيد فرانك هو بغيتك لظللت في البيت الذي أنتمي إليه».

- «حسناً» قالت سكارلت باقتضاب، وهي تتستر تحت الحرامات مدركة أن من غير المجدي أن تحاول إبعاد مامي عن المشهد، «ومن كنت تفكرين أنه بغيتي؟».

- «يا فتاتي، أنا لا أدري، غير أني لم أشأ أن أنظر إلى وجهك أمس وتذكرت أن الآنسة بيتي بات قد كتبت للآنسة ميلاني أن ذلك الوغد باتلر يملك أموالاً طائلة، وإنني لا أنسى ما أسمع. أما السيد فرانك فإنه رجل فاضل، رغم كونه ليس جميلاً».

فرمقتها سكارلت بنظرة حادة، وأجابت مامي بنظرة هادئة تنمّ عن علمها بكل شيء:

- «حسناً، وماذا ستفعلين في الموضوع، هل ستنقلينه إلى سولين؟».

- «سأساعدك من أجل مسرّة السيد فرانك بكل وسيلة أعرفها» قالت مامي واضعة الغطاء حول رقبة سكارلت.

استلقت سكارلت صامتة لفترة قصيرة بينما كانت مامي تحوم في

الغرفة والشعور بالغبطة يغمرها، بحيث لم تكن هناك حاجة إلى الحديث بينهما. ولم تسأل إحداهما إيضاحاً، ولم توجه لوماً. لقد أدركت مامي غاية سكارلت وصمتت. وكانت سكارلت قد وجدت في مامي إنساناً واقعياً أكثر تصلباً في الرأي منها. لقد كانت عيناها المسنتان الحكيمتان المرقطتان تنفذان عميقاً، تبصران بوضوح، وتنظران باستقامة الهمجي والطفل، لا يقرعها ضمير عندما يهدّد الخطر محبوبتها المدللة. ولقد كانت سكارلت طفلتها، والذي كانت تريده طفلتها، كانت ترغب في مساعدتها للحصول عليه حتى لو كان يخص الآخرين. أما حقوق سولين وفرانك كنيدي، فلم تطرق عقلها أبداً، اللهم إلا لتثير ضحكاً مكتوماً كالحاً. وقد كانت سكارلت في مأزق، تعمل جهد المستطاع، كما كانت أيضاً ابنة إيلين، ولذلك ضلعت مامي معها من دون لحظة من التردد.

وأحست سكارلت بالعون الصامت، وبينما كان الآجرة الساخنة تدفئ قدميها، غدا الأمل الذي كان يختلج ضعيفاً أثناء عودتها الباردة إلى البيت، غدا لهيباً اجتاحها وجعل قلبها يضخ الدم في عروقها بدفقات هادرة. وعاودتها القوة تصحبها فرحة مستهترة، فرحة جعلتها ترغب في الضحك عالياً. «لم أغلب حتى الآن»، هجست متهللة.

- «ناوليني المرآة يا مامي» قالت.

- «أبقي كتفيك تحت الغطاء» أمرت مامي. وناولتها مرآة اليد، والابتسامة على شفتيها الغليظتين.

ونظرت سكارلت إلى وجهها في المرآة:

- «إني أبدو شاحبة كروح شريرة» قالت، «وشعري مشعث كذيل فرس».

- «إنك لا تبدين مرحة كما ينبغي».

- «نعم. . . هل تمطر بغزارة؟».

- «من أفواه القِرَب، كما تعلمين».

- «الأمر سيان، وعليك أن تنزلي إلى المدينة من أجلي».

- «ليس تحت هذا المطر، لن أنزل».

- «بلى، ستنزلين، وإلا نزلت بنفسي».

- «أي شيء عليك تأديته لا يمكنه الانتظار، يبدو لي أنك قمت بما يكفي ليوم واحد».

- «أريد» قالت سكارلت وهي تتأمل نفسها في المرآة باهتمام، «قارورة كولونيا، كي تستطيعي غسل شعري وتضميخه بالكولونيا. وكذلك تشترين لي قارورة هلام بذور السفرجل لتستعمليه في جعل الشعر يهمد».

- «لن أغسل شعرك في هذا الطقس، ولن أدعك كذلك، تضعين كولونيا على رأسك كالداعرات. لا، ما دام فيَّ رمق من حياة».

- «بلى سأضع. انظري في حافظة نقودي وأخرجي قطعة الخمسة دولارات الذهبية، واذهبي إلى المدينة، و... مامي، أثناء وجودك في المدينة اشتري لي حُقَّ حمرة».

- «ما هو هذا؟» سألت مامي بارتياب.

فقابلت عينا سكارلت عينيها ببرود لم تكن تحس به أبداً، ولم يكن هناك أي وسيلة يستطاع بواسطتها معرفة إلى أي درجة يمكن الاستبداد بمامي.

- «لا شأن لك به. فقط اسألي عنه».

- «أنا لا أشتري شيئاً لا أعرف ماهيته».

- «حسناً، إنه طلاء إذا كنت فضولية إلى هذا الحد، طلاء للوجه. لا تقفي هنا وتنتفخي كضفدعة، هلمي».

- «طلاء!» صرخت مامي، «طلاء للوجه! أنت لست كبيرة بحيث لا يسعني جلدك. لم أجرس يوماً كاليوم. لقد فقدت عقلك. إن الآنسة

إيلين تتلوى في قبرها الآن، في هذه الدقيقة. تريدين أن تطلي وجهك مثل الـ. . .».

- «إنك تعرفين تمام المعرفة أن الجدة روبيلارد كانت تطلي وجهها و. . .».

- «أجل، وكانت تلبس أيضاً تنورة واحدة وتبلّها بالماء لتجعلها تلتصق بجسدها وتكشف عن ساقيها. ولكن ذلك لا يبرر لك القول إنك ستفعلين مثلها، فزمن صباها كان زمناً منحطاً. غير أن الزمن يتغير. إنهم. . .».

- «يا للّه!» صاحت سكارلت، وقد ثارت ثائرتها وقذفت الغطاء بعيداً عنها، «تستطيعين العودة فوراً إلى تارا».

- «ليس في وسعك أن ترسليني إلى تارا إن لم أكن أنا أرغب في ذلك. إني حرة» قالت مامي بحدة، «وسأقيم هنا بالذات، عودي إلى ذلك السرير، هل تريدين أن تصابي بداء الرئة فوراً؟ اتركي المشد، اتركيه يا حلوتي، اسمعي يا آنسة سكارلت، لن تذهبي إلى أي مكان في هذا الطقس. يا للّه! إنك حتماً تشبهين والدك، عودي إلى السرير. . . أنا لا أستطيع الذهاب وشراء أي طلاء، إني أموت من العار. فالجميع سيعرفون أن ذلك الطلاء هو لفتاتي. ويا آنسة سكارلت، إنك رائعة جداً، جميلة المظهر، بحيث لا تحتاجين إلى طلاء. ولكن النساء الفاسدات وحدهن هنّ اللواتي يستعملن تلك المادة».

- «ويحصلن على نتائج، أليس كذلك؟».

- «يا يسوع، اسمعها! يا حملي، لا تتفوّهي بعبارات رديئة كتلك! اتركي تلك الجوارب المبللة، فلن أدعك تشترين ذلك الطلاء بنفسك. ستؤنبني الآنسة إيلين. عودي إلى السرير. سأذهب، ولعلّي أجد مخزناً في مكان لا يعرفنا فيه أحد».

* * *

تلك الليلة في منزل السيدة إلسينغ، عندما عقد قران فاني في الوقت المعين، وبينما كان ليفي العجوز والموسيقيون الآخرون يعزفون من أجل الرقص، تطلعت سكارلت حولها، فقد سرَّها كثيراً أن تكون حقيقة في حفلة موسيقية مرة ثانية، كما سرَّها أيضاً الاستقبال الحار الذي قوبلت به. إذ عندما دخلت البيت وهي تتكئ على ذراع فرانك، اندفع الجميعِ نحوها بصيحات الفرح والترحاب وقبّلوها وصافحوها وأخبروها أنهم افتقدوها بصورة مروِّعة، وأن عليها أن لا تعود إلى تارا. وبدا أن الرجال كانوا قد نسوا بشهامة، أنها كانت قد حاولت جهدها أن تحطم قلوبهم في الأيام الماضية، كما كانت البنات قد نسين أيضاً أنها كانت قد بذلت كل ما في مقدورها لتنتزع عشاقهن منهن. وحتى السيدة ميريويذر والسيدة ويتينغ والسيدة ميد والسيدات الفاضلات الأخريات، اللواتي كن فاترات جداً معها خلال الأيام الأخيرة من الحرب، كن جميعاً قد نسين سلوكها الطائش واستنكارهن لذلك السلوك، ولم يتذكرن سوى أنها قاست معهن من الهزيمة المشتركة، وأنها كانت قريبة بيتي وأرملة تشارلز، ولذلك قبّلنها وتحدثن إليها برفق عن وفاة أمها العزيزة والدموع تترقرق في عيونهن، وسألنها أخيراً عن والدها وشقيقتيها، كما سأل الجميع عن ميلاني وآشلي، مستوضحين سبب عدم عودتهما مثلها إلى أتلانتا.

وعلى الرغم من سرور سكارلت بهذا الاستقبال، أحست بكدر خفيف حاولت إخفاءه، كدر ناشئ عن منظر فستانها المخملي، الذي كان لا يزال رطباً حتى مستوى الركبتين وملطخاً حول حاشيته، رغم الجهود المهووسة التي بذلتها مامي وكوكي مستعملتين غلاية يتصاعد منها البخار وفرشاة شعر نظيفة ولاجئتين إلى تهوية نشيطة أمام نار مكشوفة. وكانت سكارلت تخشى أن يلحظ أحدهم وضعها الزري ويدرك أن هذا كان فستانها الجميل الوحيد. وأشرقت روحها قليلاً

عندما لمست أن كثيراً من فساتين المدعوات الأخريات بدت أسوأ من فستانها بكثير. لقد كانت أثواباً قديمة جداً، تبدو مصلحة ومكوية بعناية زائدة. أما فستانها فلقد كان على الأقل جديداً تماماً، ورغم رطوبته... كان في الحقيقة الثوب الجديد الوحيد في الحفل باستثناء ثوب عرس فاني المصنوع من الساتان الأبيض.

وتساءلت سكارلت وهي تتذكر ما أخبرتها به العمة بيتي عن أحوال آل إلسينغ المادية. تساءلت عن مصدر ثمن الثوب الساتان وتكاليف المرطبات والزخارف، والموسيقيين أيضاً، الأشياء التي كان لا بد أنها كلفت مالاً وفيراً. هل اقترضوا نقوداً أم أن كل عشيرة إلسينغ ساهمت في عرس فاني الباهظ التكاليف هذا. لقد بدا عرس كهذا، في نظر سكارلت، وفي هذه الأوقات الصعبة، تبذيراً يعادل التبذير الذي حصل في شراء شواهد قبور أبناء تارلتون. ولذلك أحست بالغيظ وقلة العطف ذاتيهما اللذين كانت قد أحست بهما يوم وقفت في مقبرة آل تارلتون. لقد انقضت الأيام التي كانت تبذر فيها الأموال، فلماذا يثابر هؤلاء الناس على انتحال صفات الأيام الماضية، في حين أن الأيام الماضية قد انقضت؟

ولكن سكارلت أبعدت عنها هذا الكدر العارض، فالمال لم يكن مالها، ولم تكن ترغب في أن ينقص سرورها خلال هذه الأمسية، بفعل غيظها من حماقة الآخرين.

واكتشفت سكارلت أنها كانت تعرف العريس تمام المعرفة إذ كان تومي ولبورن من سبارطة، وكانت قد مرضته عام 1863 عندما كان جريحاً في كتفه. لقد كان آنئذ شاباً جميلاً يبلغ الستة أقدام طولاً، ترك دراسته الطبية ليلتحق بسلاح الفرسان. بينما كان يبدو الآن كرجل عجوز قصير القامة، إذ كان شديد الانحناء بفعل الجرح الذي في

وركه. وكان يمشي ببعض الصعوبة، ويوزوز بطريقة مبتذلة على حد قول العمة بيتي. ولكنه ظهر كأنه غير شاعر أبداً بحقيقة مظهره أو مكترث له، وإنما بدا كرجل لا تنقصه هجنة. لقد قطع كل أمل في متابعة دراسته الطبية، وهو الآن مقاول يتعهد عمل جماعة من الإيرلنديين يبنون الفندق الجديد. واستغربت سكارلت كيف يستطيع القيام بعمل شاق كهذا وهو في هذه الحالة، ولكنها لم تسأل أي سؤال بهذا الصدد إذ كانت تدرك بصورة مشوهة أن كل شيء ممكن عندما تسوق الضرورة الإنسان إليه.

كان تومي وهيو إلسينغ ورينيه بيكارد القميء الشبيه بالقرد قد وقفوا يتحدثون معها بينما كانت الموائد وقطع الإثاث تُدفع خلفاً نحو الجدار استعداداً للرقص. ولم يكن هيو قد تغير منذ رأته سكارلت عام 1862، بل كان لا يزال ذلك الفتى النحيل الحساس، ذا الشعر البني الفاتح المتدلي فوق جبينه، وذا اليدين الرقيقتين العابثتين اللتين كانت تتذكرهما جيداً. غير أن رينيه كان قد تغير منذ تلك الإجازة التي تزوج خلالها مايبل ميريويذر. فعلى الرغم من أنه كان لا يزال يتصف بالبريق الفالي[1] في عينيه السوداوين وبشهوة الخلاسي للحياة، فقد كان هناك رغم كل ضحكه الخاص شيء قاسٍ في وجهه، شيء لم يكن موجوداً في الأيام الأولى من الحرب. كما كان قد فارقه تماماً مظهر الأناقة المتعجرفة التي كانت تلازمه يوم كان يرتدي بذلة الزواف الفاتنة.

- «وجنتان كالورد، وعينان كالزمرد» قال وهو يقبِّل يد سكارلت مطرياً الطلاء الأحمر الذي كان يزين وجهها، «رائعة، كما كنت عندما رأيتك أول مرة في السوق الخيرية، أتتذكرين؟ لم أنسَ أبداً كيف ألقيت بخاتم عرسك في سلّتي. ها، لقد كان ذلك عملاً ممتازاً. ولكن لم

---

(1) نسبة إلى قبائل فال القديمة التي كانت تسكن فرنسا - (المترجمان).

يخطر في بالي أنك ستنتظرين كل هذه المدة الطويلة لتحصلي على خاتم آخر».

وبرقت عيناه بلؤم، ودسمرفقه في صدر هيو:

- «وأنا لم يخطر في بالي أبداً أنك ستسوق عربة لبيع الفطائر يا رينيه بيكارد» قالت، ولكن بدلاً من أن يشعر بالعار لكونه جوبه بحقيقة عمله المهين، ظهرت عليه علائم السرور، وضحك بصوت مدوٍ، صافعاً هيو على ظهره:

- «أصبت!» صاح، «إن بيل مير، السيدة ميريويذر، هي التي جعلتني أقوم بهذا العمل، وهو أول عمل أقوم به في حياتي، أنا رينيه بيكارد الذي كان من المقدر له أن يكبر ويتعاطى تربية الخيول، ويعزف على القيثارة! بينما أنا الآن أسوق عربة فطائر وأحب هذا العمل! إن في وسع السيدة بيل مير أن تجعل الرجل يقوم بأي عمل. كان ينبغي أن تكون القائد العام وعندها تربح الحرب. ماذا تقول يا تومي؟».

«ما أغرب هذا!» هجست سكارلت، أن يحب رجل قيادة عربة فطائر بينما كان أهله يملكون عشرة أميال من الأرض على طول نهر الميسيسيبي، وبيتاً كبيراً في نيو أورليانز أيضاً!

- «لو كانت حمواتنا في صفوف الجيش، لكنا غلبنا الشماليين في خلال أسبوع» أجاب تومي موافقاً وعيناه تشردان إلى شخص حماته الجديدة، حماته النحيلة التي لا تقهر، «إن السبب الوحيد لصمودنا طوال هذه المدة يعود إلى السيدات اللواتي كنّ خلفنا واللواتي لم يستسلمن».

- «اللواتي لن يستسلمن أبداً» صحح هيو عبارة تومي بابتسامة فخورة، ولكنها ملتوية قليلاً، «لا يوجد سيدة واحدة هنا في هذه الليلة قد استسلمت، بغضّ النظر عما فعل رجال عائلتها في أبوماتوكس[1].

---

(1) مدينة في فرجينيا استسلم فيها الجنرال لي الجنوبي نهائياً في الحرب الأهلية. (المترجمان).

لقد كان وقع النبأ أسوأ عليهن بكثير منه علينا، فعلى الأقل سرينا نحن عن نفوسنا بالقتال».

- «وهنّ في الكراهية» أتم تومي العبارة، «أليس كذلك يا سكارلت، «إنه ليكظ السيدات أن يرين رجالهن قد انحدروا إلى هذا الدرك، أكثر مما يكظنا نحن. كان هيو سيصبح قاضياً، وكان رينيه سيعزف على القيثارة أمام رؤوس أوروبا المتوجة» قال ذلك وأحنى رأسه عندما صوَّب رينيه ضربة نحوه، «وكنت أنا سأصبح طبيباً. والآن...».

- «امنحنا بعض الوقت» صاح رينيه، «وعندئذ أنا سأصبح أمير الفطائر في الجنوب، وسيصبح هيو صديقي الطبيب، ملك الحطب، وأنت يا صديقي تومي، ستمتلك العبيد الإيرلنديين بدلاً من العبيد الزنوج... أي تطور... أية مهزلة! وماذا حل بكما يا آنسة سكارلت وآنسة ميلاني؟ تحلبان البقرة وتقطفان القطن؟».

- «لا، في الحقيقة!» قالت سكارلت ببرود، وقد عجزت عن فهم تقبُّل رينيه الرضي للصعوبات، «إن عبيدنا هم الذين يقومون بذلك».

- «لقد سمعت أن الآنسة ميلي سمَّت ابنها «بوروغارد». أخبريها أني أنا، رينيه، أوافق على هذه التسمية، وقولي لها إنه باستثناء يسوع، لا يوجد اسم أفضل من هذا الاسم».

ومع أنه ابتسم، إلا أن عينيه تألقتا ببريق الكبرياء، لذكر اسم بطل لويزيانا المقدام.

- «وأيضاً يوجد اسم روبرت إدوارد لي» علّق تومي. «ومع أني لا أحاول التقليل من سمعة بو العجوز، إلا أن ابني الأول سيدعى «بوب لي ولبورن»».

فضحك رينيه وهز كتفيه.

- «سأقص عليكم فكاهة، ولكنها قصة حقيقية، وسترون رأي

الخلاسيين بقائدنا الشجاع بوروغارد، وبالجنرال لي قائدكم. في القطار قرب نيو أورليانز، التقى رجل من فرجينيا كان من جنود الجنرال لي برجل خلاسي من جنود بوروغارد. فأخذ الفرجيني يتحدث ويتحدث ويتحدث، كيف أن الجنرال لي يفعل هذا، وأن الجنرال لي يقول ذاك. بينما كان الخلاسي يستمع بأدب، ويقطب جبينه كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً، ثم ابتسم وقال: «جنرال لي! ها، نعم، الآن عرفته. الجنرال لي! الرجل الذي يطريه الجنرال بوروغارد!»».

حاولت سكارلت أن تشاركهم في الضحك تأدباً، ولكنها لم ترَ أي معنى للقصة، سوى أن الخلاسيين كانوا مغرورين كأهل شارلستون وسافانا. أضف إلى ذلك أنها كانت تفكر دائماً أن آشلي كان ينبغي أن يسمى باسم لي.

شرع الموسيقيون، بعد عزف ودوزنة تمهيديين، ينشدون أغنية «دان توكر العجوز» وعندئذ التفت تومي نحوها وقال:

– «هل ترقصين يا سكارلت؟ ليس في وسعي أن أكرمك ولكن هيو ورينيه...».

– «لا، أشكرك. إني ما زلت في فترة الحِداد على أمي» قالت بسرعة، «سأجلس بعيداً عنهما».

وعزلت عيناها فرانك كنيدي عن الجمع، واجتذبته من جانب السيدة إلسينغ:

– «سأجلس في تلك الزاوية هناك، فإذا جلبت لي بعض المرطبات، فعندئذ يمكننا أن ننعم بحديث ممتع» أخبرت فرانك عندما ابتعد الرجال الثلاثة الآخرون.

وحين أسرع فرانك ليجلب لها كأس خمر وقطعة من الكعك، رقيقة بسماكة الورق، جلست سكارلت في الزاوية في نهاية الصالة، ورتبت وضع تنورتها بعناية كي لا تظهر البقعة المشوهة. كانت أحداث

الصباح المهينة التي وقعت لها مع ريت، قد طردت من عقلها، بفضل سرورها برؤية هذا العدد الكبير من الناس، وبسماع الموسيقى ثانية. وغداً ستفكر في سلوك ريت وفي عارها، الأمر الذي سيجعلها تتلوى من الألم ثانية. غداً ستتساءل ما إذا كانت قد أحدثت أي تأثير في قلب فرانك الجريح الحائر. غداً، لا هذه الليلة، ففي هذه الليلة تحس بالحياة حتى أخمص قدميها، عيناها متألقتان، وكل حاسة من حواسها مفعمة أملاً.

ونظرت من الزاوية التي جلس فيها إلى غرفة الاستقبال الواسعة، وتأملت الراقصين، وتذكرت ما كان أجمل هذه الغرفة عندما شاهدتها أول مرة جاءت فيها إلى أتلانتا خلال الحرب. لقد كانت الأرض الخشبية الصلبة تلمع آنئذ، وكانت الثريا المتدلية فوق الرؤوس بقطعها الزجاجية المنشورية الشكل، البالغة المئات، تجمع كل الأشعة المنبعثة من عشرات الشموع التي كانت تحملها، ثم تعكسها. كانت ترسلها كأشعة منبعثة من لآلئ، تتوهج في الغرفة كلهيب، كياقوت أزرق. وآنئذ، كانت الصور القديمة المعلقة على الجدران، مهيبة عطوفة، تنظر إلى الضيوف الجالسين تحتها بأمائر الإكرام البهي. وكانت الكنبات المصنوعة من خشب الورد وثيرة جذابة، وقد وضعت كبراها في مركز الشرف، في هذه الزاوية ذاتها حيث جلست سكارلت الآن. وكانت تلك الكنبة هي مقعد سكارلت المفضل أثناء الحفلات. ومن هذه النقطة، كان يمتد المنظر البهيج لغرفة الاستقبال وغرفة الطعام التي كانت تليها: طاولة المغنة البيضوية الشكل التي كانت تتسع لعشرين شخصاً، والكراسي العشرون ذات السيقان الرفيعة قد صفت إزاء الجدران بشكل وقور. والخزانة الضخمة والبوفيه المثقلة بالأواني الفضية الثقيلة والشمعدانات ذات الشعب السبع، بالكؤوس والأباريق، بالقوارير والأقداح الصغيرة البراقة. كانت سكارلت قد جلست على

تلك الكنبة مرات عديدة في السنة الأولى من الحرب. وكان يجلس إلى جانبها أحد الضباط الوسام، وهي تصغي إلى الكمان والربابة، إلى الأكورديون والبانجو، وتسمع الأصوات المحفحفة المثيرة تصدر عن الأقدام الراقصة فوق الأرض المشمعة اللماعة.

أما الآن، فكانت الثريا تتدلى وهي مظلمة، وكانت معقودة منحرفة، وقد تكسرت معظم قطعها الزجاجية المنشورية، كأن الشماليين الذين أقاموا في البيت كانوا قد جعلوا من رونق هذه الزجاجات هدفاً لجزماتهم. وكان يضيء الغرفة مصباح زيتي وشموع قليلة، غير أن معظم الإنارة كانت تنبعث من النار المزمجرة في الموقد الكبير والتي كان ضوؤها المرتعش يكشف إلى أي درجة كانت أرض الغرفة العتيقة الباهتة مجرحة مشققة لا أمل بترميمها. وكانت البقع المربعة على الورق الذابل على الجدران، توضح أن الصور كانت معلقة هناك في الماضي. وكانت الشقوق الواسعة في طلاء الجدران تُذكّر بذلك اليوم من أيام الحصار الذي انفجرت فيه قنبلة فوق البيت، ومزقت جزءاً من السقف ومن الطابق الثاني. وكانت الطاولة الثقيلة، التي كانت في الماضي حافلة بالكعك وقوارير الخمر، لا تزال تحتل مكان الصدارة في غرفة الطعام الفارغة، ولكنها كانت مخدشة، وكانت سيقانها المكسرة تكشف عن علامات ترميم غير دقيق، أما الخزانة، أما الأواني الفضية، أما الكراسي الضئيلة الحجم، فقد ذهبت جميعها، كما ذهبت أيضاً السجف الحريرة ذات اللون الذهبي الكابي، التي كانت تغطي النوافذ المقنطرة الفرنسية الطراز، في مؤخرة الغرفة، ولم تبقَ إلا بقايا الستائر المخرمة التي كانت نظيفة ولكنها بادية الترقيع.

وفي مكان الكنبة المتقوسة، التي كانت سكارلت قد أحبتها كثيراً، وُضع مقعد صلب لم يكن مريحاً أبداً، فجلست عليه بقدر ما استطاعت من رضى، متمنية لو كانت تنورتها في حالة حسنة، تمكنها من الرقص

ثانية. طبعاً، لقد كان في وسعها أن تستفيد من حديثها مع فرانك في هذه الخلوة أكثر مما كانت ستجنيه من رقصة ريل تقطع الأنفاس، كما كان في وسعها أيضاً أن تصغي مخلوبة اللب إلى حديثه وتشجعه ليحلّق في أجواء واسعة من الحماقات.

غير أن الموسيقى كانت حتماً مغرية بالرقص. ولذا كانت تقرع قدمها الأرض بلهفة، في الوقت ذاته الذي كان يقرع فيه ليفي العجوز قدمه الكبيرة المفلطحة وهو يعزف على بانجو لعلاع ويدعو إلى رقصات الريل. وراحت الأقدام تحف بالأرض وتحك وتقرع، بينما الصفان المتماثلان يرقصان باتجاه بعضهما ثم يتراجعان ثم يدوران ويصنعان أقواساً بأيديهما.

«لقد سكر دان توكر العجوز -،
(فترنحن أيتها الشريكات!)
وسقط في النار، ثم رفس قطعة حطب!
(اقفزن بخفة أيتها السيدات)»

كان من الجميل بعد الأشهر الكئيبة المضنية التي قضتها سكارلت في تارا، أن تعود إلى سماع الموسيقى ثانية، وسماع صوت الأقدام أيضاً. كان من الجميل أن ترى وجوهاً صديقة أليفة، تضحك في الضوء الباهت، وتصيح بالفكاهات القديمة، وتمزح وتداعب، وتتدله، لقد كان الأمر بمثابة عودة إلى الحياة بعد الموت. وبدا كأن الأيام المشرقة التي انقضت منذ خمسة أعوام قد عادت ثانية، تقريباً. آه لو كان في وسعها أن تغمض عينيها، ولا تشاهد الفساتين المقلوبة البالية والأحذية المرقعة والأخفاف المصلحة، لو أن عقلها لم يذكر وجوه الشبان المفقودين من الريل، إذن لكان في مقدورها أن تفكر في أنه لم يكن قد تغير شيء تقريباً. ولكنها بينما كانت تراقب الرجال المسنين الذين كانوا يتجمعون حول قارورة الشراب في غرفة الطعام،

والمتزوجات اللواتي كن جالسات في صفوف موازية للجدران، يتحدثن وأيديهن خالية من المراوح، والراقصين الشباب، الواثبين، المتمايلين، بينما كانت تراقب هؤلاء جميعاً عنَّ لها فجأة، وبصورة باردة مروِّعة، أن كل شيء كان قد تغير تغيراً كبيراً بحيث إن هؤلاء الأشخاص كانوا مجرد أشباح.

كانوا يظهرون بأشخاصهم عينها، ولكنهم كانوا متغيرين، فما كنه هذا التغير؟ ألأنهم الآن فقط أكبر بخمس سنين مما كانوا في تلك الأيام؟ لا، لقد كان هناك شيء أكثر من مرور الوقت، شيء خرج منها، من دنياهم. فمنذ خمس سنين، كان شعور من الطمأنينة قد غمرهم جميعاً برفق بالغ بحيث إنهم لم يفطنوا حتى لوجوده. ولقد ازدهوا في حمى ذلك الشعور. وها هو قد ذهب الآن، وذهبت معه البهجة القديمة، والشعور القديم لشيء سارّ مثير كان حول الزاوية تماماً، السحر القديم لأسلوب حياتهم.

وكانت سكارلت تعرف أنها قد تغيرت أيضاً، ولكن ليس كتغيرهم هم، الأمر الذي حيَّرها. فجلست تراقبهم وأحست بنفسها غريبة بينهم، غريبة وحيدة، كأنها كانت قد أتت من عالم آخر، تتكلم لغة لم يكونوا يفهمونها بينما هي لا تفهم لغتهم. ثم أدركت أن هذا الشعور كان الشعور ذاته الذي كانت قد أحست به وهي مع آشلي، معه ومع الناس الذين كانوا من نوعه - وكان هؤلاء يؤلفون معظم عالمها - وأحست أنها تقف خارج شيء لم تستطع فهمه.

لقد تغيرت وجوههم قليلاً، ولكن أخلاقهم لم تتغير أبداً، غير أنه ظهر لها أن الأمرين التاليين هما كل ما بقي لها من أصدقائها القدامى: عزة نفس خالدة، وشهامة أزلية، ما انفكت تلازمهم إلى أن يموتوا، ولكنهم سيحملون معهم إلى قبورهم مرارة لن تموت، مرارة أعمق من أن تعبِّر الكلمات عنها، لقد كانوا أناساً متعبين، أشداء، ليّني

الحديث، أناساً هُزموا ولكنهم لم يعرفوا الهزيمة، لقد انهاروا ومع ذلك ما زالوا يقفون منتصبين بإصرار. لقد كانوا مدحورين عديمي الحيلة، مواطنين من مقاطعات محتلة. كانوا ينظرون إلى الولاية التي أحبوها، فيرونها مداسة بجزمات العدو، ويرون الأوغاد يهزأون بالقانون وعبيدهم السالفين يتهددون ويتوعدون، ورجالهم محرومين من الحقوق المدنية، ونساءهم مهانات، وأشباح موتاهم لا تزال تمثل أمام عيونهم. كان كل شيء في دنياهم القديمة قد تغير إلا العادات القديمة، فلقد بقيت الأعراف القديمة، وكان لا بد لها أن تبقى إلى الآن. كان كل ما تبقى لهم هي العادات، فكانوا يتمسكون جيداً بالأشياء التي كانوا قد عرفوها تمام المعرفة، وأحبوها كل الحب في الأيام السالفة: المرح، المجاملة، المصادفات السارة في علاقات البشر، وأكثر من كل هذا، وضع الحماية التي يقوم بها الرجال نحو النساء. وهكذا، فحسب التقاليد التي نشأوا فيها، كان الرجال مهذبين، رقيقي المعشر، وناجحين إلى حد كبير في خلق جو حماية لنسائهم من كل ما كان فظاً أو غير لائق بالعيون النسوية أن تراه. وهذا، هجست سكارلت، كان في منتهى السخف، فقد كان يوجد القليل الآن مما لم تكن قد رأته أو خبرته في السنين الخمس الأخيرة أشد النساء انحباساً في جذورها. لقد مرضن الجرحى، وأغمضن العيون المائتة، وقاسين من الحرب والنار والدمار، وعرفن الرعب والهرب والجوع. ولكن، مهما كانت المناظر التي رأوها، ومهما كانت الأعمال المهينة التي قاموا بها أو التي سيُقسَرون على القيام بها، فإنهم ظلوا سيدات، وسادة، ملوكاً في الغربة - صارمين، مترفعين، أنوفين، رحيمين بعضهم ببعض، صلاباً كالأحجار الكريمة، برّاقين قصاماً كقطع بلور الثريا المتدلية فوق رؤوسهم. لقد ذهبت الأيام القديمة غير أن هؤلاء الناس يتابعون طريقهم كأن الأيام القديمة ما زالت موجودة، فما زالوا محتفظين

بسحرهم ومرحهم، ومصمّمين على ألا يندفعوا ويزاحموا الآخرين من أجل البنسات كما فعل الشماليون. لقد صمّموا على أن لا يفارقوا شيئاً من الأيام القديمة.

وأدركت سكارلت أنها هي أيضاً كانت قد تغيرت كثيراً، وإلا لما كان في وسعها أن تقوم بما قامت به منذ كانت في أتلانتا أخيراً، ولما كانت تفكر الآن في عمل كانت ترجو يائسة أن تنجزه. على أنه كان هناك فرق بين صلابتهم هم وصلابتها هي، أما ما كان ذلك الفرق، فإنها لم تكن تستطيع معرفته في الوقت الحاضر. ربما كان ذلك الفرق هو أنه لم يكن يوجد شيء لا تتورع هي عن عمله، بينما كانت توجد أشياء كثيرة جداً، كان هؤلاء الناس يفضلون الموت على أن يفعلوها، وربما كان ذلك يعود إلى أنهم كانوا بلا أمل، غير أنهم ما زالوا يبتسمون للحياة، وينحنون بكياسة متغاضين عن منغصاتها، الأمر الذي لم تكن تستطيع سكارلت فعله.

لم يكن في وسع سكارلت أن تتجاهل الحياة، كان لا بد لها من أن تعيش، وكان من الوحشية البالغة في نظرها، بل من العداء اللدود، أن تحاول التعليق على قساوة الحياة بابتسامة. ولم ترَ سكارلت شيئاً من رقة أصدقائها، ولا من شجاعتهم وكبريائهم التي لا تذعن، بل رأت فيهم فقط، صلابة رأس حمقاء، ترى الحقائق ولكنها ترفض مواجهتها.

وبينما كانت تحدق في الراقصين الذين احمرت وجوههم من الريل، تساءلت عما إذا كانت الأقدار قد ساقتهم إلى نفس ما آلت هي إليه، فمات أحباؤهم، وتعطل أزواج النساء منهم، وجاعت أطفالهم، وتهددت أراضيهم، وغدت سقوف بيوتهم العزيزة مأوى للغرباء. غير أنهم حتماً كانوا مسوقين! فهي تعرف أوضاعهم معرفة لا تقل عن معرفتها بأوضاعها غير قليل. لقد كانت خسائرهم هي خسائرها،

وحرمانهم حرمانها، ومشاكلهم مشاكلها ذاتها، ومع ذلك فقد اختلف رد الفعل فيهم عنه في نفسها، فالوجوه التي كانت تراها في الغرفة لم تكن وجوهاً، لقد كانت أقنعة، أقنعة فاخرة لن تسقط أبداً.

ولكن إذا كانوا يقاسون من الأوضاع الوحشية بالضراوة ذاتها التي كانت تقاسيها هي - وإنهم لكذلك - فكيف وسعهم أن يحتفظوا بهذا المظهر المرح وفرحة القلب؟ وهل كان ينبغي لهم حقاً أن يحاولوا الاحتفاظ به؟ لقد كانوا أبعد من مدى إدراكها، كما كانوا يثيرون في نفسها غيظاً مبهماً. ولم يكن في وسعها أن تكون مثلهم. لم يكن في وسعها أن تراقب انهيار العالم بمظهر من اللامبالاة العارضة. لقد كانت مطاردة مذعورة كثعلب يركض بقلب يتفجر، يحاول بلوغ وجار يختبئ فيه، قبل أن تقبض عليه الوحوش.

وفجأة كرهتهم جميعاً، لأنهم كانوا يختلفون عنها، لأنهم كانوا يحملون خسائرهم بمظهر لم تستطع بلوغه، بل لم تكن ترجو أن تبلغه أبداً، لقد كرهتهم، هؤلاء الغرباء الباسمين الرشيقي الحركة، هؤلاء الحمقى المتكبرين الذين يتباهون بشيء قد خسروه. كانت النسوة يقدّرن أنفسهن كأنهن سيدات، مع أن العمل الحقير كان نصيبهن اليومي، ولم تكن الواحدة منهن تعرف من أين ستأتي بفستانها التالي... كلهن سيدات! ولكنها لم تكن تحس بأنها سيدة، رغم فستانها المخملي وشعرها المعطر، رغم كبرياء النسب الذي كان يدعمها، وكبرياء الثروة التي كانت تخصها يوماً. لقد انتزع التماس الخشن مع أرض تارا الحمراء، الرقة منها، وأدركت أنها لن تشعر بشعور السيدة مرة ثانية إلى أن تثقل مائدتها بالأواني الفضية والبلورية، ويتصاعد منها بخار الطعام الدسم، وإلى أن تقف خيولها وعرباتها في الإسطبلات، وإلى أن تقطف قطن تارا، الأيدي السوداء لا البيضاء.

- «آه»، فكرت غضبى وهي تبلع نَفَسها، «ذلك هو الفرق! فحتى

مع أنهن فقيرات، ما زلن يشعرن شعور السيدات، ولا يبدو أن الحمقاوات يدركن أن المرأة لا تستطيع أن تكون سيدة بلا مال!».

وحتى في هذه الومضة من الإلهام، أدركت سكارلت بغموض أنه مع أنهم - سيدات وسادة - كانوا يظهرون أغبياء، إلا أن تصرفهم كان هو التصرق الصائب، وكانت إيلين ستوافق على ذلك، الأمر الذي أقلق سكارلت. لقد كانت تعرف أن عليها أن تشعر كما يشعر هؤلاء الناس، ولكنها لم تستطع، كانت تعرف أن عليها أن تؤمن بإخلاص، كما كان هؤلاء الناس يؤمنون، بأن المرأة المولودة سيدة تظل سيدة حتى لو انحدرت إلى هوة الفقر، ولكنها لم تستطع أن تجعل نفسها تؤمن بهذا الآن.

كانت قد سمعت طوال حياتها الأحاديث الساخرة يقذف بها الشماليون، لأن مزاعمهم بالنبل كانت مبنية على أساس الثروة، وليس على أساس النسب، غير أنها في هذه الدقيقة، ومع معرفتها بأن هذا كان بمثابة الإلحاد، لم تستطع إلا أن تفكر في أن الشماليين كانوا على حق في هذه القضية، حتى ولو أنهم كانوا على خطأ في كل القضايا الأخرى. لقد كان الأمر يتطلب مالاً من أجل أن تصبح المرأة سيدة. وكانت سكارلت تعرف أن إيلين سيغمى عليها لو قُدِّر لها أن تسمع كلمات كهذه تصدر عن ابنتها، فلم يكن في وسع أي نازلة من الفقر أن تجعل إيلين تشعر بالعار، بالعار! أجل هكذا أحست سكارلت، أحست بالعار لأنها كانت فقيرة، وقد انحدرت إلى مستوى الثياب الزرية والفاقة والعمل الذي كان ينبغي للزنوج أن يعملوه.

وهزّت كتفيها في ضيق. ربما كان هؤلاء الناس مصيبين، وكانت هي على خطأ، ولكن الأمرين سيان، فهؤلاء الناس لم يكونوا ينظرون إلى الأمام كما كانت تنظر هي، تجهد كل عصب في جسدها، تخاطر حتى بالشرف والسمعة لتستفيد من الذي فقدته. لقد كان أدنى من مقام

الكثيرين منهم أن ينغمسوا في عمل مشين من أجل المال، لقد كانت الأيام قاسية صعبة تتطلب من المرء الجرأة والنضاء الصعب إذا ما أراد التغلب عليها. وكانت سكارلت تعرف أن تقاليد العائلات ستردع عنوة، الكثيرين من هؤلاء الناس عن نضال كهذا... نضال غايته الصريحة هي جمع المال. لقد كان الجميع يظنون أن عملية جمع المال الصريحة، وحتى الحديث عن المال، أمران مبتذلان للغاية. طبعاً كانت هناك استثناءات للمسألة: السيدة ميريويذر وفرنها، رينيه يسوق عربة الفطائر، هيو إلسينغ يقطع الحطب ويبيعه متجولاً، تومي يعمل مقاولاً، وفرانك يمتلك الرغبة العملية ليؤسس مخزناً تجارياً. ولكن ماذا حل بمراتبهم الاجتماعية؟ سيحرث المزارعون فدادين قليلة ويعيشون في الفقر، وسيعود المحامون والأطباء إلى مهنهم وينتظرون الزبائن الذين كان من المحتمل أن لا يأتوا أبداً، أما الآخرون، أولئك الذين كانوا قد عاشوا على دخلهم، من دون عمل يقومون به! ماذا سيحل بهم؟

ولكنها لن تظل فقيرة طوال حياتها. لن تبقى جالسة تنتظر بصبر حدوث معجزة لتساعدها، لا، بل ستندفع إلى الحياة وتنتزع منها ما تستطيع. لقد بدأ والدها كشاب مهاجر فقير، وقد ظفر بفدادين تارا الشاسعة، وما فعله والدها تستطيع ابنته أن تفعله. لم تكن هي كهؤلاء الناس الذين قامروا بكل شيء في سبيل قضية خسرت، وكانوا قانعين بأن يكونوا فخورين لأنهم خسروا تلك القضية، القضية التي كانت تستحق في نظرهم أية تضحية. لقد كانوا يستمدون شجاعتهم من الماضي، بينما كانت هي تستمد شجاعتها من المستقبل. وكان فرانك كنيدي هو مستقبلها في الوقت الحاضر، إذ كان على الأقل يملك مخزناً ونقوداً. وإن هي فقط استطاعت أن تتزوجه وتضع يدها على تلك النقود، فسيكون في وسعها أن تؤمن ميزانية تارا لسنة أخرى.

وبعد ذلك. . . ينبغي لفرانك أن يشتري المنجرة، فقد استطاعت هي نفسها أن ترى بأية سرعة كانت المدينة تعيد بناء ذاتها، وكل من كان في وسعه أن يؤسس صناعة خشبية الآن، حيث لا توجد إلا منافسة قليلة جداً، فسيمتلك منجم ذهب.

وبينما هي في تلك التأملات رجعت إليها من تجاويف عقلها، كلمات كان ريت قد تفوّه بها في سني الحرب الأولى، كلمات تتعلق بالمال الذي كان قد جمعه أثناء الحصار. ولم تكن سكارلت آنئذ قد كلفت نفسها مشقة فهم تلك الكلمات، غير أنها بدت الآن في غاية الوضوح، وتساءلت عما إذا كان الذي منعها من تقدير تلك الكلمات في ذلك الوقت هو صغر سنها فقط أو حماقتها الخالصة.

«أثناء انهيار حضارة ما، يوجد مال كثير ليجنى، تماماً بمقدار المال الذي يوجد أثناء ازدهار حضارة أخرى».

«هذا هو الانهيار الذي كان قد تنبأ به» فكرت سكارلت، «ولقد كان مصيباً، فما زال يوجد مال وفير، ليجنيه أي إنسان لا يخاف العمل. . . أو الاستغلال».

ورأت فرانك آتياً نحوها عبر القاعة، وبيده كأس من خمر ثمر العليق وقطعة صغيرة من الكعك موضوعة في صحن فنجان شاي. فأسرعت في إضفاء ابتسامة على وجهها، دون أن يخطر لها أن تتساءل عما إذا كانت تارا تستحق التزوج بفرانك. لقد كانت تعرف أنها تستحق، فلم تعطِ القضية ثانية من تفكيرها.

وابتسمت له وهي ترتشف الخمر، وأدركت أن وجنتيها كانتا موردتين جذابتين، أكثر من وجنتي أي من الراقصات، ولملمت تنورتها كي يجلس بجانبها، ولوّحت منديلها بتوانٍ كي تبلغ أنفه رائحة الكولونيا العطرة الخفيفة. كانت فخورة بالكولونيا لأنه لم تكن امرأة غيرها في

الصالة معطرة مثلها، وقد لاحظ فرانك ذلك، وهمس في أذنها في نوبة من الجرأة، قائلاً إنها كانت موردة الوجنتين، شذية الرائحة كالوردة.

آه، حبذا لو لم يكن حيياً، لقد كان يذكّرها بأرنب حقل بني عجوز جبان، حبذا لو كان يملك الشهامة والحمية، الصفتين اللتين كان يتمتع بهما أبناء تارلتون، أو حتى الوقاحة الفظة التي كان يتصف بها ريت باتلر. ولكن، لو كان فرانك يملك هذه الصفات، لكان من المرجح أن ينعم بإدراك كافٍ يجعله يحس باليأس الذي كان يكمن تحت جفنيها الخافقين برصانة. غير أن الواقع أن فرانك لم يكن يعرف عن النساء ما يدفعه حتى إلى الارتياب بما كانت على وشك التصريح به، وكان ذلك من حسن حظها، غير أنه لم يزد من احترامها له.

36

تزوجت سكارلت فرانك كنيدي بعد أسبوعين، إثر غزل عاصف، قالت عنه لفرانك بحياء إنه تركها عاجزة عن أن تقاوم أكثر رغبته الجامحة.

ولم يدرِ فرانك أنها خلال ذينك الأسبوعين، كانت تذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً، في كل ليلة، تصر أسنانها غيظاً من بطء فهمه للتلميحات والعبارات المشجعة؛ وتصلّي كي لا تصله أية رسالة غير متوقعة من سولين، تهدم خططها. لقد كانت تشكر اللّه لأن شقيقتها كانت أقل الناس كتابة للرسائل، فكانت تحب استلام الرسائل وتمقت كتابتها. ولكن كانت هناك دائماً إمكانية لكتابتها... إمكانية لأن تكتب له، فكرت سكارلت في ساعات الليل الطويلة، وهي تمشي جيئة وذهاباً، على أرض غرفة نومها الباردة، وشال إيلين الباهت يحوط ثوب نومها. ولم يدرِ فرانك كذلك أن سكارلت قد تلقت رسالة مقتضبة من ويل، ينبئها فيها أن جوناس ويلكرسون قد زار تارا ثانية وأنه عندما وجد أنها ذهبت إلى أتلانتا، راح يرغي ويزبد إلى أن أبعده ويل وآشلي عن المكان. وقد قرعت رسالة ويل على وتر الحقيقة في عقلها، الحقيقة التي كانت تعرفها تمام المعرفة... أن موعد دفع الضرائب الإضافية كان يزداد قرباً. وبينما هي ترى الأيام تدبر سريعاً، تملّكها يأس ضار وتمنت لو تقبض على الساعة الرملية بيدها، وتمنع رملها من الانهيار.

على أنها أخفت شعورها بمهارة فائقة، وبمهارة فائقة مثلت دورها فلم يشكّ فرانك في شيء البتّة، ولم يرَ أكثر مما كان بادياً. . . أرملة تشارلز هاملتون الفتية الجميلة الحائرة، التي كانت تحييه كل ليلة في ردهة العمة بيتي بات، وتصغي إليه بإعجاب، محتبسة النفس، وهو يتحدث عن مشاريع المستقبل لمخزنه، وعما يتوقع أن يجمع من المال عندما يصبح في مقدوره شراء المنجرة، كانت مشاركتها الرقيقة لشعوره، واهتمامها المتمثل في عينيها المشرقتين بكل كلمة ينطق بها، كان ذلك بمثابة بلسم للجرح الذي كان نكث سولين المزعوم قد أحدثه له. لقد كان قلبه متألماً حائراً من سلوك سولين. وكان غروره، الغرور الحيي النزق لعازب متوسط السن يعرف أنه غير جذاب للنساء، قد جرح جرحاً عميقاً، كما أنه لم يستطع أن يكتب إلى سولين يؤنبها على عدم وفائها له، فقد نفر من مجرد التفكير في ذلك. ولكنه استطاع أن يواسي قلبه بالتحدث عنها إلى شقيقتها دون أن يتفوّه بكلمة نابية عن سولين. وكذلك استطاعت سكارلت أن تخبره عما كان أسوأ معاملة شقيقتها له، وعن أي معاملة حسنة كان هو يستحق من امرأة تقدره حقاً.

لقد كانت السيدة هاملتون الصغيرة، امرأة جميلة موردة الخدين، تنتقل بين التنهدات المغمة عندما تفكر في ورطتها المحزنة، وبين الضحك والعذاب الهنيء الذي كان يشبه رنين الأجراس الفضية الصغيرة، عندما كان فرانك يروي فكاهات صغيرة ليبهجها. وكان فستانها الأخضر، الذي كان الآن قد نظف جيداً بيدي مامي، ينم بصورة تامة عن جسدها النحيل ذي الخصر الرشيق. وما كان أشد سحر العطر الخفيف الذي يلازم دائماً منديلها وشعرها! لقد كان من العار أن تظل امرأة شابة جميلة كهذه، وحيدة حائرة، في دنيا قاسية جداً إلى درجة لم تستطع معها حتى فهم قساوتها. ولم يكن لها زوج أو

أخ، أو حتى أب قادر على حمايتها في هذه الآونة الصعبة. وفكر فرانك أن الدنيا أضحت مكاناً فظاً جداً لامرأة وحيدة، وعلى هذه الفكرة وافقته سكارلت بصمت ومن صميم القلب.

كان فرانك يأتي للزيارة كل ليلة، لأن جو منزل بيتي كان ساراً ملطفاً، فابتسامة مامي على الباب الأمامي كانت الابتسامة التي يحتفظ بها لكرام الناس، وكانت بيتي تقدم له القهوة ممزوجة بالبراندي، وتحوم حوله، بينما كانت سكارلت تصغي باهتمام لكل كلمة ينطق بها، وكان فرانك أحياناً يصطحب سكارلت معه في عربته بعد الظهر، عندما يخرج في إحدى المهمات، وكانت هذه الركوبات سارة له، لأن سكارلت كانت تسأله خلالها أسئلة سخيفة كثيراً جداً - «كالنساء تماماً» على حد قوله لنفسه باستحسان. ولم يكن في وسعه إلا أن يضحك على جهلها بأمور العمل، وكانت هي أيضاً تضحك قائلة:

- «إنك لا يمكن أن تتوقع من امرأة فتية حمقاء مثلي أن تفهم شؤون الرجال».

وجعلته يشعر للمرة الأولى في حياته العانسة الطويلة، أنه كان رجلاً قوياً مستقيماً، خلقه اللّه من طينة أنبل من طينة غيره من الرجال، خلقه ليحمي النساء العاجزات الحمقاوات.

وعندما وقفا معاً أخيراً، لإتمام عقد زواجهما، ويدها المطمئنة الصغيرة في يده، وأهدابها المسبلة تلقي ظلالاً هلالية كثيفة قاتمة على وجنتيها الموردتين، كان فرانك لا يزال يجهل كيف حدث كل هذا الشيء، وكان يعرف فقط، أنه قام بعمل رومنطيقي مثير، لأول مرة في حياته. إنه فرانك كنيدي، الذي طوح بهذه المخلوقة الجذابة من قدميها إلى ذراعيه. وقد كان ذلك الشعور عندة شعوراً دافقاً.

لم يقف معهم في العرس قريب أو صديق. وكان الشهود غرباء استُدعوا من الشارع. لقد أصرت سكارلت على ذلك، فوافق هو رغم

إرادته، لأنه كان يحب أن تكون معه شقيقته وصهره القاطنان في جونسبورو، كما أن استقبالاً بالأنخاب تُشرب على شرف العروس في ردهة العمة بيتي وسط الأصدقاء السعداء، كان يمكن أن يكون أمراً مبهجاً له، ولكن سكارلت لم تشأ أن تسمح حتى بكون الآنسة بيتي حاضرة.

«فقط كلانا يا فرانك» رجته ضاغطة على ذراعه، «كالحبيبين الفارَّين. لقد كنت دائماً أرغب في أن أهرب وأتزوج! أرجوك يا حبيبي، فقط من أجلي!».

لقد كان ذلك التعبير التوددي الذي ما زال جديداً كل الجدة على أذنيه، وحبات الدمع المتلألئة في مآقي عينيها الخضراوين الشاحبتين وهي تنظر إليه متوسلة، هما اللذان غلباه على أمره. وفوق هذا، فقد كان من واجب الرجل أن يذعن قليلاً لعروسه، خصوصاً فيما يتعلق بالعرس، لأن النساء يعلّقن أهمية كبيرة على الأمور العاطفية.

وقبل أن يدري، كان قد تزوج.

* * *

وهكذا أعطاها فرانك الثلاثمئة دولار، وقد أربكه إلحاحها العذب بعد أن تمنَّع في البداية، لأن ذلك كان يعني نهاية أمله في شراء المنجرة حالاً. غير أنه لم يكن في وسعه أن يرى عائلته تُشرَّد، وسرعان ما تضاءلت خيبته عندما رأى سعادتها المشرقة، ثم تلاشت تماماً بفعل الأسلوب الحبي الذي كانت تستجيب به لأريحيته. ولم يكن فرانك قد عرف امرأة تتأثر به من قبل ولذلك انتهى إلى الشعور بأن النقود صرفت كما ينبغي على كل حال.

أرسلت سكارلت مامي إلى تارا فوراً، بمهمة ثلاثية: إعطاء النقود لويل، وإعلان نبأ زواجها وإحضار ويد إلى أتلانتا. وبعد يومين تلقت رسالة قصيرة من ويل، رسالة حملتها وراحت تطوف بها، وتقرأها

وتعيد قراءتها بفرح غامر. لقد كتب لها ويل أن الضرائب قد دُفعت، وأن جوناس ويلكرسون قد استشاط غيظاً عندما بلغه النبأ، غير أنه لم يوجه لهم تهديدات جديدة. وختم ويل رسالته متمنياً لها السعادة بعبارة رسمية موجزة لم يحمّلها أي معنى آخر. وعرفت هي أن ويل أدرك الذي فعلته، ولم يلمها ولم يثنِ عليها، ولكن ماذا ينبغي لآشلي أن يفكر؟ تساءلت بلهفة محمومة. ماذا ينبغي له أن يفكر فيَّ الآن، بعد الذي قلته له منذ فترة قصيرة جداً في بستان تارا؟

وتلقت سكارلت أيضاً رسالة من سولين، رسالة مليئة بالأخطاء الإملائية، رسالة قاسية بذيئة ملطخة بالدموع، مفعمة جداً بالحقد والتعليقات الصادقة عن سلوكها، بحيث لم تكن لتنساها أو تسامح كاتبتها. ولكن حتى كلمات سولين لم تكن لتستطيع تعكير سعادتها الناجمة من أن تارا كانت قد سلمت، وعلى الأقل، من خطر فوري.

لقد كان من الصعب أن تتحقق أن أتلانتا، وليس تارا، أضحت الآن مقرها الدائم. فأثناء استماتتها للحصول على نقود الضرائب، لم يكن يشغل تفكيرها سوى تارا، والمصير الذي يتهددها. وحتى في لحظات العرس، لم تكترث لحقيقة أن الثمن الذي كانت تدفعه مقابل سلامة بيتها، هو النفي الدائم عنه. والآن وقد أنجزت المهمة، تبينت هذا الأمر بفيض من الحنين إلى البيت، وصعب عليها الخلاص من ذلك الشعور. ولكن تلك كانت حقيقة أمرها، لقد أتمت صفقتها وعزمت على أن تقف إلى جانبها. ولقد كانت شاكرة جداً لفرانك لأنه أنقذ تارا، بحيث إنها شعرت بعاطفة حارة نحوه، وبتصميم أكيد حار يعادل تلك العاطفة، على أنه ينبغي ألّا يندم أبداً على التزوج بها.

كانت سيدات أتلانتا يعرفن شؤون جيرانهن معرفة أقل بقليل من معرفتهن التامة لشؤونهن الخاصة. وكن يحفلن بتلك أكثر جداً مما يحفلن بشؤونهن. وقد كان الجميع يعرف منذ سنين أن فرانك كان قد

وصل إلى «تفاهم» مع سولين أوهارا. والحقيقة أنه قد قال بحياء إنه يتوقع أن يتزوج بها في الربيع. ولذلك فإن ضوضاء اللغط والحدس والشك العميق، التي تلت نبأ إعلان زواجه الصامت بسكارلت، لم تكن مفاجئة، فالسيدة ميريويذر التي لم يحدث يوماً أن تركت فضولها يظل طويلاً دون إشباع إذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، سألته علانية عما كان يقصد بتزوجه إحدى الشقيقتين بينما كان هو خطب الأخرى. ثم أخبرت السيدة إلسينغ أن كل الجواب الذي ظفرت به نتيجة جهودها، كان مجرد نظرة حمقاء. وأما بالنسبة إلى سكارلت، فحتى السيدة ميريويذر، رغم كونها إنسانة جريئة، لم تجرؤ أن تقترب منها في هذا الموضوع. لقد كانت سكارلت تبدو وقورة وطيبة جداً هذه الأيام، غير أن عينيها كانتا تنطلقان برضى هنيء أزعج الناس، كما كان وجهها ينم عن نزعة إلى الشر لم يحفل أحد بإثارتها.

كانت سكارلت تعرف أن أتلانتا كانت تتحدث عنها ولكنها لم تعبأ بذلك. فعلى كل حال لم يكن يوجد أي أمر مشين في التزوج برجل، ثم إن تارا سلمت. فليتحدث الناس. إن لديها أموراً كثيرة جداً لتشغل عقلها بها، وكان أهم هذه الأمور، يتعلق بكيفية جعل فرانك يدرك بطريقة ماكرة لبقة، أن مخزنه يجب أن يدر نقوداً أكثر. ذلك أنه بعد الرعب الذي كان قد انتابها من جوناس ويلكرسون، لم تكن لتنعم براحة البال، إلى أن تدخر هي وفرانك بعض المال، وحتى إذا لم تنزل بهما حاجة ملحّة، فإن فرانك سيحتاج إلى جني نقود أكثر، إن هي أرادت أن توفر مبلغاً كافياً لتسديد ضرائب السنة القادمة. علاوة على أن ما قاله فرانك عن المنجرة، كان قد ثبت في عقلها. ففي وسع فرانك أن يجني أموالاً طائلة من معمل نجارة، إلا أن ذلك في وسع أي إنسان، ما دام الخشب يباع بهذه الأثمان الفادحة. واغتاظت بصمت لأن نقود فرانك لم تكن تكفي لدفع ضرائب تارا وشراء المصنع

أيضاً. وأجمعت رأيها على أن عليه أن يكسب نقوداً أكثر من المخزن بطريقة ما، وأن ينجز ذلك بسرعة، كي يستطيع شراء المصنع قبل أن ينتزعه شخص آخر. لقد استطاعت أن ترى أنه صفقة رابحة.

ولو كانت سكارلت رجلاً، لكانت ابتاعت ذلك المعمل ولو اضطرت إلى رهن المخزن من أجل إيجاد المال. ولكنها عندما اقترحت ذلك على فرانك بطريقة لبقة في اليوم التالي ليوم زواجهما، ابتسم وأخبرها ألّا تزعج رأسها الجميل البديع الصغير في شؤون العمل. لقد فاجأه أنها كانت تعرف حتى ماذا يعني الرهن، وطرب في بادئ الأمر، ولكنه سرعان ما زاولته الفرحة، ليحل محلها شعور بالصدمة، ولا يزالا في أيام زواجهما الأولى، وكان قد أخبرها فيما مضى، ومن دون انتباه منه، أن أناساً (وحرص على أن لا يذكر أسماءهم) كانوا مدينين له، ولكن لم يكن في وسعهم أن يوفوا ديونهما الآن. وكان هو طبعاً، غير راغب في أن يحرج هؤلاء الأصدقاء القدامى والناس الطيبين. وقد ندم فرانك على ذكر هذه الحقيقة أمامها. لأنه منذ ذلك الوقت، وسكارلت تسأله عنها مرة بعد مرة. لقد كانت تنعم بأعظم المظاهر الوديعة سحراً، ولكنها كانت فقط متلهفة، كما قالت، لتعرف الذين كانوا مدينين له، ومقدار ديونهم. وكان فرانك يراوغ كثيراً حول هذه القضية، فيسعل بعصبية ويلوِّح بيديه ويكرر عبارته المزعجة عن رأسها الصغير الجميل البديع.

وكان فرانك قد بدأ يسقط في يده، لأن هذا الرأس الصغير الجميل البديع نفسه، كان رأساً ماهراً في الأرقام، وفي الحقيقة، كان رأساً أمهر من رأسه بكثير، الأمر الذي أزعجه. لقد أذهله أن يكتشف أنه كان في وسعها جمع عمود طويل من الأعداد عقلياً بينما هو يحتاج إلى قلم وورقة من أجل جمع أكثر من ثلاثة أعداد. وكانت الكسور لا تمثل أية صعوبة بالنسبة إليها. وأحس فرانك أن هناك شيئاً غير لائق في

امرأة تفهم الكسور وشؤون العمل. واعتقد أنه إذا ما قُدِّر لامرأة أن تكون سيئة الحظ بامتلاكها فهماً لا يليق بالسيدات كهذا الفهم، فإن عليها أن تتظاهر بعدم مقدرتها على ذلك. وغدا الآن يكره أن يتحدث عن العمل معها، بقدر ما كان يبهجه ذلك قبل زواجهما. لقد كان آنئذ يعتقد أن هذه الأمور أبعد من متناول عقلها، وكان من الممتع له أن يشرح لها هذه الأمور، وها هو الآن قد أدرك أنها تفهم كل شيء فهماً تاماً. وأحس بسخط الرجل على رياء النساء، مضافاً إلى ذلك خيبة أمل الرجل المعتادة عند اكتشافه أن امرأة تملك عقلاً.

أما بعد كم من أيام زواجه علم فرانك بالخدعة التي استخدمتها سكارلت لتتزوج منه. فلم يعرف أحد أبداً، وربما بلجت عليه الحقيقة عندما جاء طوني فونتين إلى أتلانتا في مهمة عملية، وكان من الواضح أنه أعزب خلي البال. وربما أنبئ بالحقيقة بصورة أكثر مباشرة، في رسائل من شقيقته التي كانت تقطن جونسبورو والتي ذهلت بنبأ زواجه. على أنه حتماً لم يعلم بالأمر من سولين نفسها، فهي لم تكتب له أبداً. ولم يستطع هو طبعاً أن يكتب ويوضح الأمر لها، وأي فائدة كانت ستؤتيها الإيضاحات، على كل حال، وقد غدا متزوجاً الآن؟ وهكذا كان يتلوى ألماً في نفسه وهو يفكر في أن سولين لن تعرف الحقيقة وأنها ستفكر دائماً أنه هو الذي كان قد شجعها على الحب ثم أعرض عنها بقلب عديم الإحساس، وأن من المرجح أن يكون جميع الآخرين يفكرون بهذا التفكير أيضاً، وينتقدونه، الأمر الذي وضعه حتماً، في مركز لا يحسد عليه. ولم يكن فرانك يملك طريقة يبرئ نفسه بها، لأنه لم يكن في وسع الرجل أن يدور بين الناس قائلاً إنه كان قد فقد عقله في حب امرأة - كما أن الرجل الفاضل لم يكن يسعه أن يعلن عن حقيقة أن زوجته كانت قد اصطادته بكذبة.

لقد كانت سكارلت زوجته، وكانت الزوجة تكتسب حق إخلاص

زوجها لها. وأكثر من هذا، إن فرانك لم يكن يستطيع أن يقنع نفسه كي تصدق بأن سكارلت كانت قد تزوجته ببرود وبلا عاطفة نحوه ابداً. فغرور الرجل فيه لن يسمح لفكرة كهذه أن تظل طويلاً في عقله، وكان من المبهج أكثر، أن يفكر أنها كانت قد وقعت في حبه فجأة بحيث رضيت بالكذب في سبيل أن تظفر به. بيد أن القضية كلها كانت محيرة جداً. لقد كان يعرف أنه لم يكن غنيمة كبيرة لامرأة تبلغ من العمر نصف عمره، امرأة جميلة أنيقة حتى حذاءها. على أن فرانك كان رجلاً نبيلاً، ولذلك احتفظ بحيرته في نفسه. لقد كانت سكارلت زوجته، ولم يكن في وسعه أن يهينها بسؤالها أسئلة مربكة لن تصحح الأمور في النتيجة.

ولم يكن فرانك بصفة خاصة يرغب في تصحيح الأمور، فقد بدا له أن زواجه سيكون زواجاً سعيداً. لقد كانت سكارلت أعظم النساء فتنة وإثارة، واعتقد هو أنها كانت كاملة في كل شيء - سوى أنها كانت عنيدة جداً. وأدرك فرانك منذ بدء زواجه أنه ما دامت سكارلت تُركت تتصرف على هواها، فإن الحياة يمكن أن تكون بهيجة، ولكنها عندما كانت تعارض... وحين كانت تترك لتتصرف على هواها، كانت تكون هنيئة كطفلة، تضحك كثيراً جداً، وتأتي دعابات صغيرة سخيفة، وتجلس على ركبته وتنتش لحيته حتى إنه أقسم إنه كان يشعر بأنه أصغر من عمره بعشرين سنة. كما كانت تكون كذلك عذبة مفكرة بصورة غير متوقعة: تدفئ خفية على النار عندما يعود إلى البيت ليلاً، وتلغط بحنان، خوفاً على قدميه المبللتين ورأسه المصاب بالزكام الذي لا نهاية له. وكانت تتذكر أنه كان يحب دائماً قوانص الدجاج، وثلاث ملاعق سكّر في قهوته. أجل، لقد كانت الحياة لذيذة مريحة جداً مع سكارلت - ما دامت تترك على هواها.

وبعد أسبوعين من زواجه، أصيب فرانك بالإنفلونزا، وأمره

الدكتور ميد أن يلزم فراشه. وكان فرانك في أول سني الحرب قد أمضى شهرين في المستشفى مريضاً بداء الرئة، ومنذ ذلك الوقت، وهو يعيش في رعب من أن يهاجمه ذلك الداء ثانية. ولذلك كان سعيداً جداً في أن يضطجع تحت ثلاثة حرامات، يتصبّب عرقاً ويشرب الدواء الساخن الذي اخترعته مامي والعمة بيتي، ورِاحتا تجلبانه له في كل ساعة.

واستمر المرض، وقلق فرانك على مخزنه يزداد يوماً بعد يوم. لقد كان المخزن في عهدة المحاسب، الذي كان يأتي إلى البيت في كل ليلة ليقدم تقريراً عن مبيع اليوم. ولكن فرانك لم يكن مطمئناً، فظل يتبرم إلى أن وضعت سكارلت التي كانت تنتظر فرصة كهذه، يداً باردة على جبينه وقالت: «اسمع يا حبيبي، سأتضايق إذا استمررت على هذه الحال. سأذهب إلى المدينة وأرى بنفسي كيف تسير الأمور في المخزن».

وذهبت وابتسمت عندما خنقت احتجاجاته الضعيفة. لقد ظلت خلال الأسابيع الثلاثة من أيام زواجها الجديد، في لهفة محمومة إلى رؤية دفاتر حساباته واكتشاف حقيقة وضع أحواله المادية. ما أسوأ حظه لكونه طريح الفراش.

كان المخزن يقع قرب فايف بوينتس، وكان سقفه الجديد يتألق أمام الآجر المسود للجداران القديمة. وكانت هناك مظلات من الخشب تظلل الرصيف إلى نهاية الشارع. بينما كانت الخيول والبغال معقولة إلى القضبان الحديدية الطويلة الموصلة بين دعائم المظلات وقد حنت رؤوسها اتقاء للمطر الكثيف البارد، بينما غطيت ظهورها بالشراشف واللحف الممزقة. كان داخل المخزن يشبه تقريباً داخل مخزن بولارد في جونسبورو، سوى أنه لم يكن يوجد فيه قعود حول الموقد الحار إلى درجة الاحمرار، قعود يكشطون لعابهم ويبصقون دفقات من عصير التبغ

في صناديق الرمل. لقد كان أكبر من مخزن بولارد وأكثف ظلمة بكثير، فالمظلات الخشبية كانت تحجب معظم ضوء النهار الشتوي فيبدو داخل المخزن معتماً كابياً، لا يدخله إلا بصيص من نور من الكوى الصغيرة الملطخة بفعل الذباب في أعلى الجدارين الجانبيين. وكانت الأرض مغطاة بنشارة موحلة، وكان الوسخ والغبار متراكمين في كل مكان. غير أنه كان هناك شبه تنظيم في مقدمة المخزن، حيث كانت ترتفع في الظلمة رفوف طويلة تتكدس عليها رزم القماش الزاهية والأدوات الخزفية وأواني الطبخ، وغيرها من المرافق. ولكن في المؤخرة، خلف الحاجز، كانت الفوضى هي المسيطرة.

فهنا لم تكن الأرض مبلطة، وكان الخليط المتنوع من المواد مكوماً، يختلط حابله بنابله فوق الأرض المملوءة بالبضائع. ورأت سكارلت في شبه الظلام، صناديق وبالات من البضائع ومحاريث وعدد خيل وسروج ونواويس صنوبرية رخيصة وأثاثاً مستعملاً مصنوعاً من أنواع كثيرة من الخشب ابتداء من الخشب الصمغي الرخيص إلى المغنة وخشب الورد، كل ذلك رأته مكدساً في العتمة. وكانت الأقمشة الحريرية المعرقة الثمينة ولكن البالية، والمفروشات المصنوعة من شعر الخيل، تلمع بصورة متناقضة في ما يحيط بها من ظلام. وكانت الخزن والطسوت الخزفية ومجوعات الأباريق تملأ الأرض. وعلى طول الجدران الأربعة، كانت تصطف خوابي عميقة، مظلمة الأجواف جداً بحيث اضطرت سكارلت أن ترفع المصباح فوقها مباشرة لتكتشف أنها كانت تحوي حبوباً ومسامير ومزالج وأدوات للنجارة.

«لقد كنت أفكر أن رجلاً لغاطاً وعازباً كبيراً كفرانك يحفظ البضائع بصورة أكثر ترتيباً» هجست وهي تمسح يديها القذرتين بمنديلها، «إن هذا المكان مجرد حظيرة خنازير... أي طريقه هذه في إدارة مخزن! حبذا لو أنه أزال هذا الغبار عن البضاعة وأخرجها أمام

المخزن حيث يتمكن الناس من رؤيتها، إذ لكان في وسعه أن يبيع بضاعته بسرعة أكثر. وإذا كانت بضاعته بهذا الحالة، فماذا ينبغي أن تكون حساباته الآن؟».

«سأنظر في دفتر حساباته الآن» فكرت، وتناولت المصباح وخرجت إلى مقدمة المخزن، وتردد ويلي المحاسب في إعطائها دفتر الحسابات الكبير المتسخ الدفتين. لقد كان من الجلي أنه، رغم صغر سنه، يشارك فرانك رأيه في أن النساء ليس لهن مكان في ميدان العمل، ولكن سكارلت أسكتته بكلمة قاسية وأرسلته إلى الخارج ليتناول غداءه. وعندما ذهب أحست براحة أكثر لأن معارضته كانت قد ضايقتها، ثم استقرت في كرسي مشقوق القاعدة، قرب الموقد الهادر، ودست إحدى قدميها تحتها، وفتحت الدفاتر على حجرها. وكان الوقت وقت الغذاء والشوارع مهجورة، فلم يأتِ زبائن، ولذا أضحى المخزن لها وحدها.

أخذت تقلب الصفحات ببطء، وتنعم النظر بدقة، في صفوف الأسماء والأرقام المكتوبة بيد فرانك المشدودة، كأنها طابعة نحاسية، لقد كان الدفتر كما توقعت تماماً. وتجهّم وجه سكارلت عندما رأت أحدث دليل على قلة إدراك فرانك في العمل، فعلى الأقل كان هناك دين يبلغ خمسمئة دولار، وبعضه قد مضى عليه أشهر. كانت الديون مسجلة بأسماء أناس تعرفهم جيداً. وكان اسم آل ميريويذر بين أسماء العائلات المعروفة الأخرى، وكانت سكارلت قد تخيلت، بناء على أقوال فرانك المتملص فيها عن النقود المدينة للناس، أن المبالغ المدينة كانت قليلة. ولكن لماذا هذا الدين؟

«إن كانوا لا يستطيعون الدفع فلماذا يستمرون في الشراء» فكرت مكتظة، «وإن كان هو يعرف أنهم لا يستطيعون الدفع، فلماذا يستمر في بيعهم بضائعه؟ لقد كان في مقدورهم أن يدفعوا، طالما أنهم استطاعوا

شراء فستان جديد لفاني، وإقامة عرس باهظ لها. إن فرانك مجرد إنسان رقيق القلب جداً، والناس يستغلونه. كيف لا، وهو لو استطاع جمع نصف هذه النقود، لكان في وسعه شراء المنجرة، ولوفّر لي بسهولة ضرائب تارا أيضاً».

ثم فكرت «تصوروا فقط أن فرانك يدير منجرة! يا للّه! طالما أنه كان يدير هذا المخزن كمؤسسة إحسان، فكيف وسعه أن يتوقع جني المال من منجرة؟ سيضع مأمور التنفيذ في المدينة يده على منجرة فرانك بعد شهر. إن في مقدوري أنا، أن أدير هذا المخزن أفضل مما يفعل هو، وإن في مقدوري كذلك أن أدير مصنعاً أفضل مما يستطيع هو، حتى ولو أني لا أعرف شيئاً عن صناعة الأخشاب!».

إن هذه لفكرة مدهشة، أن تستطيع امرأة إدارة شؤون العمل مثل رجل أو أفضل منه. إنها فكرة ثورية بالنسبة إلى سكارلت، التي كانت قد نشأت وسط تقاليد تقول إن الرجال ذوو دراية بكل شيء، بينما النساء لسن ذكيات أبداً. طبعاً، كانت سكارلت قد اكتشفت أن هذا لم يكن بمجمله صحيحاً، ولكن الوهم السار كان ما زال راسخاً في عقلها. ولم تكن قد نطقت من قبل بهذه الفكرة الجديرة بالانتباه، ولذلك استمرت جالسة بهدوء، والدفتر الثقيل على حجرها، وفمها مفتوح في قليل من الدهشة، تفكر أنها خلال الأشهر العجفاء في تارا، كانت قد اضطلعت بعمل رجل، واضطلعت به جيداً. لقد كانت قد ربيت على الاعتقاد أن المرأة وحدها لا تستطيع أن تنجز شيئاً، ومع ذلك فقد أنجزت هي عملية الزراعة دون أن يساعدها رجل، إلى حين مجيء ويل. أجل، أجل. لج عقلها، إني أعتقد أن في وسع النساء إنجاز أي عمل في الدنيا، من دون عون الرجال - سوى عملية إنجاب الأطفال، واللّه يعلم، إن كل مرأة تنعم بعقل سليم، لا ترغب في إنجاب الأطفال إذا استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ورافق تفكير سكارلت في أنها مقتدرة كرجل، شعور دافق مفاجئ من الكبرياء، ولهفة زاخمة لإثبات هذه الفكرة، لجمع نقود لنفسها، نقود تكون خاصتها هي، نقود لن تضطر إلى طلبها أو تبرير طلبها من أي رجل.

«حبذا لو كان لدي مال كافٍ لأشتري ذلك المعمل أنا نفسي» قالت بصوت مرتفع وتنهدت، «فأنا واثقة بأني سأجلعة يدوي بضجيج العمل، ولن أدع حتى شظية خشب صغيرة تخرج منه بالدين». وتنهدت ثانية إذ لم يكن هناك مصدر تستطيع أن تأخذ منه نقوداً، وهكذا بدت الفكرة خارجة عن الموضوع.

ينبغي على فرانك ببساطة، أن يجمع هذه النقود التي تخصه ويشتري المعمل، المعمل الذي هو طريقة أكيدة لجني المال. وعندما يقتني المعمل، ستجد هي حتماً وسيلة ما، تجعله أكثر مهارة في إدارته من إدراته للمخزن.

ونزعت صفحة خلفية من الدفتر، وشرعت تنسخ قائمة بأسماء المدينين الذين لم يكونوا قد دفعوا منذ عدة شهور، إذ ستبحث المسألة مع فرانك عندما تبلغ البيت، ستجعله يدرك أن على هؤلاء الناس أن يدفعوا ديونهم حتى ولو كانوا أصدقاء قدامى، حتى ولو كظه أن يضغط عليهم من أجل المال، لقد كان من المرجح أن يتكدر فرانك من ذلك، لأنه كان هياباً مغرماً برضى أصدقائه. لقد كان حيياً جداً، بحيث كان يفضل خسارة نقوده، على أن يتصرف تصرف رجل عمل فيما يتعلق باستيفاء تلك النقود.

ومن المرجح أن يخبرها أن لا أحد من هؤلاء المدينين يملك نقوداً لدفعها. لا بأس، قد يكون ذلك حقيقياً، غير أن الفقر لم يكن شيئاً جديداً بالنسبة إليها ولذا فهي تعلم أن كل إنسان تقريباً كان قد أنقذ

الأواني الفضية أو المجوهرات، أو كان ما زال ينعم بملكية حقيقية صغيرة، وفي وسع فرانك أن يأخذ هذه الأشياء عوضاً عن نقوده.

واستطاعت سكارلت أن تتخيل كيف سيتأوه فرانك ألماً عندما تعرض عليه فكرة كهذه: أن يأخذ المصاغ والملكية من أصدقائه! حسناً، هزت كتفيها، في وسعه أن يتأوه كما يشاء، فأنا سأخبره آنذاك أن في إمكانه أن يرضى بالبقاء فقيراً في سبيل الصداقة، ولكن ليس في إمكاني ذلك. ولن ينجح فرانك في أي مضمار إن هو لم يصبح رجلاً عملياً، ولا بد له من أن ينجح في أحد الميادين! لا بد له من أن يجني مالاً حتى لو اضطررت إلى أن ألعب دور الرجل في العائلة لأساعده على القيام بذلك.

كانت سكارلت منهمكة بالكتابة، وجهها متجهّم من الجهد، ولسانها مضغوط بين أسنانها، عندما انفتح الباب الأمامي، واجتاح المخزن تيار دافق من الريح الباردة. ودخل الحانوت المعتم رجل طويل، كان يمشي بخطوات خفيفة كخطوات الهنود. ورفعت سكارلت بصرها لترى ريت باتلر أمامها.

كان يبدو بهي الطلعة، بملابس جديدة وشال جذاب ملقى من خلف كتفيه القويتين. وعندما قابلت عيناها عينيه نزع قبعته الطويلة وانحنى انحناءة كبيرة، ثم اتجهت يده إلى صدر قميص نظيف مثنى، ولمعت أسنانه البيضاء بصورة مخيفة في وجهه الأسمر، وقلبتها عيناه الوقحتان.

- «عزيزتي السيدة كنيدي» قال ذلك ومشى نحوها، «عزيزتي العزيزة السيدة كنيدي!» وانفجر في ضحكة هنيئة مدوية.

ذعرت سكارلت في بادئ الأمر، كأن شبحاً قد غزا المخزن، ولكنها بعدئذ سرعان ما أخرجت قدمها من تحتها واستقامت بجلستها ورمقته بنظرة باردة:

- «ماذا تفعل هنا؟».

- «زرت الآنسة بيتي وعلمت بنبأ زواجك، فهرعت إلى هنا لأهنئك».

فاحمر وجهها من العار، وقد تذكرت إهانتها على يديه.

- «أنا لا أدري كيف تملك الجرأة لتواجهني!».

- «بالعكس! أنت كيف تملكين الجرأة لتواجهيني؟».

- «ها، إنك أشد...».

- «ألا ندع الأبواق تصوت من أجل الهدنة؟» وابتسم لها ابتسامة عريضة براقة، تشوبها الوقاحة، لا العار من أفعاله أو اللوم على أفعالها. ورغماً عنها اضطرت إلى أن تبتسم أيضاً، ولكن ابتسامتها كانت ملتوية متكدرة.

- «يا للأسف لأنهم لم يعدموك!».

- «أخشى أن يكون آخرون يشاركونك شعورك هذا. اسمعي يا سكارلت، خففي ثورتك، فأنت تظهرين كأنك ابتلعت مدكّ بندقية، الأمر الذي لا يليق بك. من الأكيد أنك نعمت بمتسع من الوقت لتتعافي من... أعني... من دعابتي الصغيرة».

- «دعابة؟ ها! أنا لن أنساها أبداً!».

- «لا، بل ستنسين. إنك لا تظهرين بهذا الوجه الحانق إلا لأنك تعتقدين أنه المظهر اللائق الذي يدعو إلى الاحترام. هل يمكنني الجلوس؟».

- «لا».

ولكنه تهالك على كرسي بجانبها وافترَّ ثغره مبتسماً.

- «علمت أنك لم تستطيعي حتى أن تنتظريني أسبوعين» قال وتنهد ساخراً، «ما أشد تقلب المرأة!».

وعندما لم تجب، تابع حديثه:

- «أخبريني يا سكارلت، بين صديقين فقط - بين صديقين قديمين جداً، وودودين جداً - ألم يكن من الأفضل أن تنتظري إلى حين خروجي من السجن، أو أن مغريات الزواج بفرانك كنيدي كانت أكثر إغراء من العلاقات المحرمة معي؟».

وكما كانت العادة دائماً، حين كانت سخريته تثير الغضب فيها، تعارك الحنق والضحك في نفس سكارلت بفعل وقاحته.

- «لا تكن أحمق».

- «وهل لديك مانع في أن تُشبعي فضولي في قضية واحدة، أقلقتني بعض الوقت؟ أليس لديك كرامة أنثوية، إباء، نفور رقيق من الزواج ليس برجل واحد فحسب، بل برجلين لم تكوني تشعرين بأدنى حب لهما أو حتى بأدنى ميل؟ أو هل أُفهمتِ خلاف الواقع فيما يتعلق برقّة أنوثتنا الجنوبية؟».

- «ريت!».

- «إني أملك الجواب عن سؤالي، لقد كنت أشعر دائماً أن لدى النساء صلابة وجَلَداً يجهلهما الرجال، وذلك رغم الفكرة التي لُقِّنتها وأنا في عهد الطفولة، من أن النساء مخلوقات ضعيفة رقيقة حساسة. ولكن على كل حال، وطبقاً لقانون الأخلاق العادي في أوروبا، يعتبر من العادات السيئة أن يحب الزوجان بعضهما بعضاً، عادة رديئة جداً في الحقيقة. لقد كنت دائماً أشعر أن فكرة الأوروبيين هي الفكرة الصائبة في هذا الموضوع: تزوَّج من أجل الراحة، وأَحِب من أجل المتعة. إنه نظام معقول. ألا تعتقدين كذلك؟ إنك أقرب إلى البلاد القديمة[1] مما كنت أعتقد».

كم يكون من الممتع لو تصيح به: «إني لم أتزوج من أجل

---

(1) يقصد أوروبا - (المترجمان).

الراحة!» ولكن لسوء الحظ، لقد تغلب ريت عليها في تلك النقطة، وأي احتجاج منها تمليه البراءة المهانة سيؤدي إلى عبارات جارحة منه فقط.

- «كيف أنك تتابع حديثك!» قالت ببرود. ثم سألته وهي توّاقة إلى تغيير الموضوع «كيف خرجت من السجن؟».

- «ها، ذلك!» أجاب مبدياً حركة خفيفة الروح، «إنه ليس بمشقة عظيمة. لقد أطلقوا سراحي هذا الصباح، وكنت قد استخدمت نظاماً دقيقاً من البريد السري إلى صديق لي في واشنطن يحتل منصباً رفيعاً جداً في مجلس الحكومة الفدرالية... رجل عظيم... أحد وطنيي الاتحاد الأوفياء الذين كنت قد اعتدت أن أشتري منهم للحلف بنادق وتنانير وأطواق، وعندما وصلت قضية سجني المؤلمة إلى رعايته في شكلها الصحيح، أسرع في استخدام نفوذه، وهكذا أطلق سراحي. النفوذ هو كل شيء يا سكارلت. تذكّري ذلك عندما يلقى القبض عليك. النقوذ هو كل شيء، وما الإجرام والبراءة سوى مسألة أكاديمية».

- «إني أقسم لك إنك لم تكن بريئاً».

- «لا، الآن وقد تحررت من الأغلال، أعترف بصراحة أني مجرم كهابيل، لقد قتلت الزنجي لأنه تواقح على سيدة، وأي شيء غير هذا كان في وسع سيد جنوبي فاضل أن يفعل؟ وحيث إني أعترف الآن، ينبغي أن أقر أيضاً أني قتلت فارساً شمالياً إثر تفوُّهه ببعض الكلمات في إحدى الحانات. ولم أتهم بتلك الهفوة، ولذلك قد يكون أعدم بسببها رجل مسكين منذ زمن».

كان مسروراً جداً بجريمته، حتى إنها اقشعرت من ذلك وارتفعت إلى شفتيها كلمات سخط مؤدبة، ولكنها تذكرت فجأة الشمالي الذي كان يرقد تحت عريشة الكرمة في تارا، القتيل الذي لم يكن قد أرَّق

ضميرها أكثر مما يمكن أن يؤرقها قتل صرصور قد تكون داسته. ولذلك لم يكن في وسعها أن تقف من ريت موقف القضاء بينما هي مجرمة مثله.

- «ولما كان من الظاهر أني أصرح لك بكل شيء فينبغي إذن أن أخبرك بثقة مطلقة (وذلك يعني ألّا تخبري الآنسة بيتي بات) أني أملك النقود آمنة في مصرف في ليفربول».

- «النقود؟».

- «أجل، النقود التي كان الشماليون متلهفين إليها يا سكارلت. ولم تكن الخسة فقط هي التي منعتني من إعطائك النقود التي كنت في حاجة إليها، فلو أني سحبت سنداً منها لكان في وسعهم أن يتتبعوه بطريقة ما، الأمر الذي يجعلني أشك في إمكان نيلك شيئاً منها. وكان أملي الوحيد للاحتفاظ بالنقود هو في أن لا أقدم على عمل شيء، إذ كنت أعرف أن النقود في حرز حريز. ولو وقع المحذور، أي لو عرفوا مكان وجودها وحاولوا انتزاعها مني، فعندئذ كنت سأذكر أسماء جميع الوطنيين الشماليين الذين كانوا قد باعوني بنادق وذخائر أثناء الحرب، الأمر الذي كان يعني حدوث فضيحة، لأن بعضهم يتقلد الآن مناصب رفيعة جداً في واشنطن. والحقيقة هي أن تهديدي هو الذي أخرجني من السجن. إني...».

- «هل تعني أنك... أنك تملك حقاً ذهب الحلف؟».

- «ليس كله. يا إلهي العظيم، لا! لا بد أن يكون هناك خمسون مهرباً أو أكثر من المهربين السابقين، يملكون مقادير كبيرة مخبأة في ناسو أو إنكلترا أو كندا. سيمقتنا الشماليون الذين لم يثبتوا مهارتهم كما فعلنا نحن، إن لدي قرابة نصف مليون دولار. فقط فكري يا سكارت، نصف مليون دولار! لو أنك كبحت طبيعتك النارية فقط، ولم تندفعي إلى حظيرة الزواج ثانية!».

نصف مليون دولار. وشعرت بغصة، بمرض جسماني تقريباً، لدى تفكيرها بهذا المبلغ الكبير. وتجاوزت كلماته الساخرة رأسها دون أن تسمعها. كان من الصعوبة في مكان كبير أن تصدق أن هناك مالاً وفيراً بهذا المقدار في كل هذه الدنيا المريرة التي أخنى عليها الدهر. مبلغاً كبيراً كهذا، وإنساناً غيرها يملكه، وإنساناً أخذه بسهولة، دون أن يكون في حاجة إليه، بينما هي لا تملك في هذا العالم العدواني سوى زوج كهل مريض، وهذا المخزن الصغير القذر الحقير. ليس من العدل أن يملك رجل شرير كريت باتلر كل هذه الثروة، بينما هي، التي كانت تحمل عبئاً ثقيلاً جداً، لا تملك إلا القليل القليل. وأحست بالكراهية نحوه، وهو جالس هناك في كسائه الأنيق يعيرها... حسناً، لن تزيد غروره بإطراء ذكائه. وتحرقت بدافع أثيم، على كلمات جارحة تلذعه بها.

- «أظن أنك تفكرين أن من الأمانة أن أحافظ على مال الحلف. لا، ليس كذلك، فمن الجلي أن الأمر يعتبر خارج موضوع السرقة، وأنت تعرفين ذلك، ولن أحمّل ضميري تبعة سرقة. يا أمي، ما أشد حموضة العنب هذه الأيام!» صاح مقطباً وجهه، «أخبريني فقط من هو الذي أسرقه؟».

كانت سكارلت مخلدة إلى الصمت، تحاول أن تفكر في من هو الذي يسرقه ريت حقاً. وعلى كل حال، فما فعله لم يكن سوى ما فعله فرانك على مقياس صغير.

- «إن نصف النقود مال حلال لي» أردف قوله، «مال حلال جمعته بمساعدة مواطنين اتحاديين أمناء كانوا موافقين على بيع الاتحاد من خلف ظهره - مقابل بيع بضائعهم بربح مقداره مئة بالمئة. ثم هناك جزء آخر جنيته من تجاربي البسيطة في القطن في بداية الحرب، القطن الذي كنت قد اشتريته رخيصاً ثم بعته كل رطل بدولار، عندما كانت

المصانع البريطانية تستصرخ طلباً له، وجزء ثالث كسبته من المضاربة بالمواد الغذائية. فلماذا يتوجب عليَّ إذن أن أدع الشماليين يأخذون ثمرة أتعابي؟ إلا أن الجزء الباقي يخص الحلف، لقد حصلت عليه من أقطان الحلف التي استطعت تهريبها عبر الحصار وبيعها في ليفربول بأسعار خيالية. وكان القطن قد سلم إليَّ بثقة طيبة، لأشتري به جلوداً وبنادق وماكينات، وكانت الأوامر الصادرة إليَّ تنص على أن أضع الذهب باسمي في مصارف إنجليزية وذلك كي تكون سمعتي طيبة، وأنت تذكرين أيام أُحكِم طوق الحصار، عندئذ لم أستطع أن أتسلل بقارب واحد من أي الموانئ الحلفية أو إليه. وهكذا بقيت الأموال في إنكلترا، فماذا كان يجب عليَّ أن أفعل؟ أأسحب كل ذلك الذهب من المصارف الإنجليزية كرجل أبله، وأحاول تهريبه إلى ولمنفتون؟ هل أنا المسؤول عن إحكام طوق الحصار؟ هل أنا المسؤول عن فشل قضيتنا؟ لقد كان المال يخص الحلف. أجل، ولا يوجد حلف الآن - مع أنك لن تدركي ذلك ما لم تسمعي بعض الناس يتحدثون عنه. وإذن فإلى من سأعطي المال؟ إلى الحكومة الشمالية؟ إني أكره كرهاً شديداً أن يظن الناس أني لص».

وأخرج محفظة جلدية من جيبه، وسحب منها سيكاراً طويلاً وشمَّه بانشراح وهو يراقبها بلهفة زائفة كأنه كان يعلق كثيراً على كلماتها.

«ليأخذه الطاعون»، فكرت، «فهو دائماً يسبقني بخطوة واحدة. يوجد دائماً شيء خطأ في مناقشاته، ولكني لا أستطيع أبداً أن أضع إصبعي على ماهية الخطأ».

- «يمكنك» قالت برصانة، «أن توزعه على أولئك الذين هم في حاجة إلى المال. لقد ذهب الحلف، ولكن ما زال يوجد العديد من الحلفيين وعائلاتهم يتضورون جوعاً».

فألقى رأسه إلى الخلف، وضحك بفظاظة.

- «إنك أبداً لا تبدين في منتهى الفتنة أو في شدة الحمق مثلما تكونين عندما تبدين بعض النفاق شأنك الآن» صاح في غبطة صريحة، «إنك دائماً تقولين الحقيقة يا سكارلت، لأنك لا تستطيعين الكذب. إن الإيرلنديين هم أقل الناس كذباً في الدنيا. أصغي إليَّ الآن وكوني صريحة. إنك لم تبالي أبداً بمصير الحلف الذي تتصنعين الآن الأسى عليه كما أنك تبالين أقل من ذلك بالحلفيين الجائعين، وستصرخين محتجة إن أنا اقترحت توزيع كل تلك النقود دون أن أبدأ بمنحك نصيب الأسد منها».

- «أنا لا أريد نقودك» شرعت في الجواب، وهي تحاول أن تكون رصينة ببرود.

- «ها، لا تريدين! إن راحتك تحكك لتضربي حزام النقود الآن في هذه الدقيقة، وإن أنا أريتك ربع دولار، فستنقضّين عليه».

- «إذ كنت قد أتيت إلى هنا لتهينني وتضحك من فقري، فإني أرجو انصرافك» ردت على إهانته وهي تحاول تخليص حجرها من الدفتر الثقيل كي تستطيع النهوض وإظهار كلماتها بمظهر أكثر فعالية. وفي الحال كان هو قد انتصب على قدميه وانحنى فوقها ضاحكاً وهو يدفعها إلى كرسيها ثانية.

- «متى ستتغلبين على فورات غضبك عند سماع الحقيقة؟ إنك لا تبالين بقول الحقيقة عن الآخرين، فلماذا إذن تثورين عندما تسمعينها تقال عنك؟ إني لا أهينك. إني أعتقد أن التملك صفة رائعة جداً».

لم تكن واثقة بما تعنيه كلمة «تملُّك» ولكن بما أنه مدحها، شعرت بقليل من الراحة.

- «وأنا لم آتِ إلى هنا لأتحرى فقرط، وإنما لأرجو لك الهناء وطول العمر بزوجك. وبالمناسبة ماذا كان رأي الشقيقة سولين باغتصابك خطيبها؟».

- «بماذا؟!».

- «بسرقتك فرانك من تحت أنفها».

- «أنا لم. . .».

- «حسناً، لن نتشاجر على الكلمة، ماذا قالت؟».

- «لم تقل شيئاً» أجابت سكارلت، بينما رقصت عيناه وهما تتهمانها بالكذب.

- «ما أعظم إيثارها. والآن دعينا نسمع عن فقرك، فمن الأكيد أني أملك الحق في أن أعرف ذلك، بعد رحلتك القصيرة إلى السجن منذ مدة وجيزة. أليس لدى فرانك مال وفير كما رجوت؟».

لم يكن هناك مهرب من وقاحته، فإما أن تتحملها وإما أن تطلب منه أن ينصرف. ولكنها الآن لم تكن تريده أن ينصرف. لقد كانت كلماته شائكة، ولكنها أشواك الحقيقة. لقد كان يعرف حقيقة الذي فعلته، ولماذا فعلته، ولم يكن يبدو أن تقديرة لها قل بسبب ذلك. ومع أن أسئلته كانت باردة مكدرة إلا أنها كانت تبدو كأنها تصدر عن اهتمام ودّي. لقد كان ريت إنساناً تستطيع أن تبوح له بالحقيقة، الأمر الذي يكون متنفساً لها، لأنه كان قد مضى عليها زمن طويل لم تفصح خلاله لأحد عن حقيقة نفسها ورغباتها. فكلما كانت تصرح بأفكارها، كان يبدو الشعور بالفاجعة لدى الجميع، بينما كان حديثها مع ريت بشيء واحد فقط، هو الشعور بالراحة والارتياح الناجم عن ارتداء خفَّين عتيقين بعد رقص بخفَّين ضيّقين جداً.

- «ألم تحصلي على النقود لدفع الضرائب. لا تخبريني أن الذئب ما زال يقف على باب تارا» وكان يشوب صوته نغمة غريبة جداً.

ورفع بصرها لتقابل عينيه السوداوين. ولتلمح في وجهه تعبيراً أجفلها وحيرها بادئ الأمر، غير أنه ما لبث أن جعلها تبتسم فجأة، ابتسامة عذبة فاتنة قلَّ أن ظهرت على وجهها هذه الأيام. . . ما أوغده

وأشد مشاكسته! ولكن كم هو لطيف في بعض الأوقات! وأدركت الآن أن السبب الحقيقي لزيارته لم يكن لإغاظتها والكيد لها، وإنما ليتأكد من أنها حصلت على النقود التي كانت مستميتة للحصول عليها. وأدركت الآن أيضاً أنه كان قد هرع إليها حالما أطلق سراحه، دون أن يبدو عليه أمارة من أمارات السرعة، وذلك كي يقرضها النقود إن كانت لا تزال في حاجة إليها. ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يعذبها ويهينها وينكر أن ذلك قصده، لو أنها اتهمته به. لقد كان ريت أبعد تماماً من أي إدراك. هل كان حقاً يحفل بها، يحفل أكثر مما يرغب في التصريح به؟ أو هل كان لديه باعث آخر؟ ربما كان الاحتمال الثاني هو الصواب، فكرت، ولكن من كان في وسعه أن يعرف؟ وهو الذي كان يقوم بأعمال غريبة أحياناً.

- «لا» قالت، «لم يعد الذئب على الباب - لقد - لقد حصلت على النقود».

- «ولكن ليس دون كفاح، إني واثق بذلك. هل استطعت أن تردعي نفسك إلى أن تقلدت خاتم الزواج بإصبعك؟».

فحاولت أن تبتسم على عبارته الصحيحة، التي أجملت سلوكها، ولكنها لم تستطع منع غمازتيها من الابتسام. وعاد إلى الجلوس، ومد ساقيه الطويلتين في وضع مريح.

- «حسناً، حدثيني عن فقرك. هل خدعك فرانك الوحش فيما يتعلق بمطامحه؟ ينبغي أن يجلد تماماً لأنه استغل صبية عديمة الحيلة. هيا سكارلت، حدثيني عن كل شيء. يجب ألّا تكتمي شيئاً عني، فمن الأكيد أني أعرف أسوأ الأشياء عنك».

- «ها، ريت أنت أسوأها - الواقع أني لا أعرف ما هو... لا، إنه في الحقيقة لم يخدعني، ولكن -» فجأة بدا من الممتع لها أن تخفف عن كاهلها، «ريت، إذا ما استوفى فرانك نقوده المدانة للناس،

فلن أقلق على شيء. ولكن يا ريت، إن خمسين شخصاً مدينون له ولن يلحّ عليهم. إنه خجول جداً، ويقول إن الرجل الفاضل لا يستطيع أن يلح على رجل فاضل آخر، وربما تمضي شهور قبل أن نحصل على النقود».

- «حسناً، وماذا في ذلك؟ أليس لديك ما يكفي للأكل إلى أن يستوفي الديون؟».

- «بلى، ولكن - الواقع حقاً، أن في وسعي استخدام بعض المال، الآن فوراً. . .» وبرقت عيناها وهي تفكر في المعمل. ربما . . .

- «لأي شيء؟ ضرائب أخرى؟».

- «هل ذلك من شأنك؟!».

- «أجل، لأنك على وشك إثارتي لأقرضك، فأنا أعرف جميع طرقك لذلك. وسأقرضك يا عزيزتي السيدة كنيدي - من دون ذلك المقابل الفاتن الذي عرضته عليَّ منذ مدة وجيزة، إلا، بالطبع إن أصررت على تقديم المقابل».

- «إنك أوقح. . .».

- «لا أبداً، لقد أردت فقد أن أريح تفكيرك. لقد عرفت أنك ستقلقين بسبب تلك النقطة، ليس كثيراً. وإني راغب في إقراضك النقود ولكني أريد أن أعرف كيف ستصرفينها. فإذا كانت لشراء أثواب جميلة وعربة لك، فخذيها مع مباركتي، ولكن إذا كانت لشراء سروال سواري جديد لآشلي ويلكس، فإني أخشى أن أضطر إلى الامتناع عن إقراضك».

فاحترَّ جسدها بغضب مفاجئ وتلعثمت إلى أن أسعفتها الكلمات.

- «لم يحدث يوماً أن أخذ آشلي ويلكس سنتاً واحداً مني، ولا أستطيع إقناعه بأخذ سنت إذا كان يتضور جوعاً! أنت لا تفهمه. . . كم

هو شريف!... كم هو كبير النفس! طبعاً ليس في وسعك أن تفهم وأنت من أنت...».

- «لا تدعينا نشرع بالتنابذ بالألقاب، فإن في وسعي أن أنعتك بألقاب قليلة تعادل كل ما يمكنك أن تفكري فيه عني. أنت تنسين أني كنت على صلة بأخبارك عن طريق الآنسة بيتي بات، تلك المرأة الطيبة القلب التي تخبر كل ما تعرفه لأي مستمع متعطف يحسن الإصغاء. إني أعرف أن آشلي يقيم في تارا منذ عاد إلى البيت من جزيرة رك، وأعرف أنك تحملت حتى بقاء زوجته معك، الأمر الذي لا بد أن كانت فيه مشقة عليك».

- «إن آشلي...».

- «ها نعم» قال ملوحاً يده باستهتار، «إن آشلي سام جداً بالنسبة إلى إدراكي الدنيوي، ولكن أرجوك ألّا تنسي أني كنت شاهداً رغوباً على مشهدك العاطفي معه في تولف أوكس. وإن هاجساً يهجس لي أنه لم يتغير منذ ذلك الحين، كما أنك أنت لم تتغيري أيضاً. إنه لم يتصرف تصرف الملائكة في ذلك اليوم إذا كنت أتذكر جيداً، وأنا لا أعتقد أن تصرفه أفضل الآن من ذلك بكثير. لماذا لم يأخذ عائلته ويخرج ليجد عملاً؟ وينقطع عن العيش في تارا؟ طبعاً إنها مجرد خاطرة من خواطري، ولكني لست عازماً على إقراضك سنتاً واحداً من أجل تارا كي تساعدي في إعالته، إن بين الرجال نعتاً معيباً جداً للذين يسمحون للنساء بأن يُعِلْنهم».

- «كيف تجرؤ على التفوّه بهذه الأمور؟ إنه يشتغل كعامل حقل!» رغم كل سخطها تفطر قلبها لذكر آشلي وهو يكسر قضباناً للسياج.

- «ويساوي وزنه ذهباً، إني أجرؤ على قول هذا أيضاً. أي عامل ينبغي أن يكون آشلي مع السماد و...».

- «إنه...».

- «ها أجل أعرف، دعينا نفترض أنه يبذل جهده المستطاع، ولكني لا أتصور أنه عون كبير. فأنت لا تستطيعين أن تصنعي عامل حقل من ويلكسي - ولا أي شيء مفيد آخر. إن تلك الذرية خلقت لأجل الزينة فقط. والآن هدئي ريش القبعة المضطرب وتغاضي عن عباراتي الفظة المتعلقة بآشلي الشريف العزيز النفس. من الغريب أن تستمر هذه الأوهام حتى عند نساء عنيدات مثلك. كم تريدين من النقود ولماذا تريدينها؟».

وعندما لم تجب كرر:

- «لماذا تريدينها؟ وانظري ما إذا كان في إمكانك أن تقولي الحقيقة التي ستفيدك كالكذب، بل أكثر في الواقع. لأنك إذا كذبت عليَّ فسأكون واثقاً أني سأكتشف الأمر، وعندئذ، فكري في أي حيرة محرجة ستقعين فيها. تذكّري دائماً هذا الذي سأقوله لك يا سكارلت: إن في وسعي احتمال كل شيء منك إلا الكذب - كراهيتك لي وثوراتك، أساليبك المراوغة كلها، ولكن ليس الكذب. والآن من أجل ماذا تريدين النقود؟».

غير أن حنق سكارلت الذي تولاها بسبب هجومه على آشلي كان يمكن أن يجعلها تضحي بأي شيء، وتبصق عليه، وتقذف بعرضه المالي بكبرياء في وجهه الساخر. وخلال هنيهة قصيرة، كادت تفعل ذلك، ولكن يد الإدراك الباردة منعتها، فابتلعت غضبها كارهة، وحاولت أن تتصنع ملامح تعبّر عن وقار بهيج. وانحنى هو في كرسيه إلى الخلف، ومد ساقيه نحو الموقد.

- «إن كان يوجد شيء في الدنيا يمنحني متعة أكثر من أي شيء سواه»، قال معلقاً، «فإن هذا الشيء هو منظر صراعك العقلي عندما توضع أمامك قضية مبدئية مقابل شيء عملي كالنقود. طبعاً إني أعرف أن النزعة العملية فيك ستفوز دائماً، ولكني أظل متربصاً دائماً كي أرى

ما إذا كانت طبيعتك الفضلى لن تفوز يوماً ما. وعندما يأتي ذلك اليوم، سأحزم حقيبتي وأغادر أتلانتا إلى الأبد. فهناك عدد كبير من النساء اللواتي تنتصر طبيعتهن الفضلى دائماً... على كل حال، دعينا نرجع إلى قضايا العمل... كم تريدين ولماذا؟».

- «أنا لا أعرف تماماً المبلغ الذي سأحتاج إليه»، قالت بعبوس، «ولكني أريد أن أشتري منجرة - وأعتقد أن في وسعي شراءها بثمن رخيص. كما أني سأحتاج إلى شاحنتين وبغلين، وأريدهما بغلين جيدين، ثم حصاناً وعربة صغيرة لاستعمالي الخاص».

- «منجرة؟».

- «أجل، وإذا أقرضتني المال، فسأعطيك نصف أرباحها».

- «ماذا أفعل بمنجرة؟»

- «تكسب منها نقوداً! إن في وسعنا أن نربح أعدالاً من النقود، أو إني سأدفع لك فائدة على القرض - دعنا نرى، أي نسبة تعتبر فائدة جيدة؟».

- «خمسون بالمئة تعتبر حسنة جداً».

- «خمسون... لا. إنك تمزح! كف عن الضحك أيها الشطيان، فإني جادة».

- «وذلك هو سبب ضحكي، إني لأتساءل إذا كان أحد سواي يدرك ما يدور في ذلك الرأس الكامن خلف وجهك الحلو الغرار».

- «وأي إنسان يعبأ بهذا؟ أصغِ يا ريت، وفكر إذا كان ذلك لا يبدو عملاً مفيداً لك. لقد أخبرني فرانك عن ذلك الرجل الذي يملك منجرة، منجرة صغيرة تبعد قليلاً عن طريق بيتشتري، وهو يريد بيعها. ولأنه مضطر لتدبير مال نقدي بسرعة فإنه سيبيعها بثمن بخس. لا يوجد الآن في المنطفة مناجر كثيرة، كما أن الطريقة التي يعيد الناس فيه بناء - كيف لا، إن في وسعنا بيع كميات هائلة، جبال ضخمة من ألواح

الخشب. وسيبقى الرجل مديراً للمعمل مقابل أجر. لقد أنبأني فرانك بالأمر، وكان سيشتريه بنفسه لو كان يملك الثمن. إني أظن أنه كان مصمماً على شرائه بالنقود التي أعطاني إياها لسداد الضرائب».

- «يا لفرانك المسكين! ماذا سيقول عندما تخبرينه أنك قد اشتريت المعمل من دون علمه. وكيف ستوضحين له موضوع إقراضي النقود لك دون أن تعرّضي سُمعتك للشبهات؟».

ولم تكن سكارلت قد أعارت أي اهتمام لهذه النقطة، فلقد كانت مصممة على الظفر بالنقود التي سيقدمها لها المعمل.

- «حسناً، لن أخبره وحسب».

- «سيعرف أنك لم تلتقطيها من الشجرة».

- «سأخبره... ولم لا؟ أجل سأخبره أني بعت قرطَي اللؤلؤ وسأعطيك إياهما أيضاً، ذلك ما أقدمه».

- «لن آخذ قرطيك».

- «أنا لا أريدهما، أنا لا أحبهما، وهما في الحقيقة ليسا ملكي على كل حال».

- «ملك من؟».

فعاد تفكيرها سريعاً إلى الظهيرة الحارة الساكنة، إلى هدأة الريف الشاملة حول تارا، إلى الرجل الميت ذي البذلة الزرقاء منسدحاً في القاعة.

- «لقد تركهما معي... رجل توفي. لقد أصبحا خاصتي في الواقع. خذهما، إني لا أريدهما، إني أفضل النقود عليهما».

- «يا للّه العظيم» صاح وقد فرغ صبره، «ألا تفكرين مرة في غير المال؟».

- «لا» أجابت بصراحة. وسلطت له عينين خضراوين صارمتين، «وإذا ما عانيت الذي عانيته، فلن تفكر في غير المال أيضاً. لقد

اكتشفت أن المال هو أهم شيء في الحياة، وأشهد اللّه على أنني لن أرضى بعد اليوم أن أكون من دونه مرة ثانية».

وتذكرت الشمس الحارة والتراب الطري الأحمر تحت رأسها المريض، كما تذكرت الرائحة الزنجية تنبعث من غرف العبيد الصغيرة وراء أطلال تولف أوكس، وتذكرت اللازمة التي كان ينبض بها قلبها: «لن أجوع ثانية. لن أجوع ثانية».

- «سيصير في حوزتي نقود يوماً ما، نقود كثيرة فأستطيع أن أنال أي طعام أشتهيه ولا تكون عندئذ عصيدة ذرة أو فاصوليا جافة على مائدتي. وسأقتني ملابس جميلة وتكون كلها حريرية».

- «كلها؟».

- «كلها» قالت باقتضاب حتى دون أن تكلف نفسها عناء الخجل من مضمون سؤاله. «سيكون في حوزتي مال كثير جداً بحيث لن يستطيع الشماليون أبداً انتزاع تارا مني. وسأبني سقفاً جديداً لتارا ومخزناً جديداً. وسأشتري بغالاً جميلة للحرث وأظفر بقطن أكثر مما رأته عيناك. ولن أجعل ويد يعرف معنى للحاجة. لا، أبداً، سينال كل شيء في الدنيا، وكذلك كل أفراد عائلتي، لن يجوعوا ثانية. إني أعني ما أقول، كل كلمة مما أقول. إنك لا تفهم ما أقول. إنك مجرد كلب صيد أناني. ولم يحدث مرة أن جاءك الكاربت بكرز يحاولون طردك من بيتك. ولم يحدث مرة أن بردت وارتديت الخرق واضطررت إلى أن تقصم ظهرك كي لا تموت جوعاً».

فأجاب بهدوء: «لقد بقيت في جيش الحلف مدة ثمانية شهور، ولا أعرف مكاناً أفضل منه للموت جوعاً».

- «الجيش! ياه! أنت لم ترغم يوماً على قطف القطن وتعشيب القمح، لقد. . . لا تضحك عليّ!».

وثانية، أضحت يداه فوق يديها عندما ارتفع صوتها بشكل أجش.

- «لم أكن أضحك عليك، كنت أضحك على الفرق بين مظهرك وحقيقتك. وكنت أتذكر المرة الأولى التي رأيتك فيها في حفلة الباربكيو عند آل ويكلس. لقد كنت ترتدين آنئذ فستاناً أخضر وخفَّين أخضرين صغيرين، وكنت غارقة حتى ركبتيك بين الرجال، مملوءة زهواً بنفسك، وأراهن أنك لم تكوني تعرفين آنذاك كم بنساً يوجد في الدولار. كان يشغل عقلك آنئذ فكرة واحدة، وتلك كانت صيد آشلي...».

فانتزعت يديها بعيداً.

- «ريت، إذا كانت علاقتنا ستستمر أبداً، فعليك أن تكف عن الحديث عن آشلي ويلكس، فنحن سنتشاجر دائماً بسببه، لأنك لا تستطيع أن تفهمه».

- «أظن أنك تفهمينه كما تفهمين كتاباً» قال بخبث، «لا يا سكارلت، إذا كنت سأقرضك النقود، فإني أحتفظ بحق الحديث عن آشلي ويلكس بأي طريقة أشاء. إني أتنازل عن حقي في أخذ فائدة على قرضي، ولكني لا أتنازل عن ذلك الحق، ثم إن هناك عدداً من الأمور التي تتعلق بذلك الشاب، والتي أحب أن أعرفها».

- «لست مضطرة إلى الحديث عنه معك» أجابت باقتضاب.

- «ها، ولكنك مضطرة فعلاً! فأنا أمسك بخيوط المحفظة كما ترين، وعندما تصبحين غنية يوماً ما، سيكون في وسعك أن تملكي القدرة على أن تفعلي الشيء ذاته مع الآخرين... من الجلي أنك ما زالت تحفلين به».

- «أنا لا أحفل به».

- «ها. إن الأمر واضح جداً من الطريقة التي انبريت فيها للدفاع عنه، إنك...».

- «إني لا أحتمل أن يسخر من أصدقائي».

- «حسناً، سنتغاضى عن ذلك في الوقت الحاضر. هل ما زال هو يحفل بك؟ أو أن جزيرة روك جعلته ينسى؟ أو قد يكون عرف أي جوهرة هي زوجته؟».

وعند ذكر ميلاني، بدأت سكارلت تتنفس بصعوبة، واستطاعت بالكاد أن تمنع نفسها من التصريح بكل القصة، قصة أن الشرف وحده هو الذي كان يبقي آشلي مع ميلاني. وفتحت فمها لتتكلم ثم أطبقته.

- «وهكذا ما زال ينقصه الوعي الكافي لتقدير السيدة ويلكس؟ وشدائد السجن لم تخمد عاطفته نحوك؟».

- «أنا لا أرى حاجة إلى بحث هذا الموضوع».

- «إني أرغب في بحثه» قال ريت وفي صوته نغمة خفيضة لم تفهم سكارلت كنهها، كما أنها لم تمل إلى سماعها، «والله سأبحثه، وأتوقع منك أن تجيبي عن أسئلتي. إذن لا يزال يحبك؟».

- «حسناً، وماذا إن كان لا يزال يحبني؟» صاحت سكارلت متشجعة، «أنا لا أعبأ ببحث موضوعه معك، لأنك لا تستطيع أن تفهمه وتفهم نوع حبه، لأنه نوع الحب الوحيد الذي تعرفه أنت هو فقط... ذلك النوع الذي تتبعه مع نساء مثل تلك المرأة وتلينغ».

- «ها» قال ريت بلطف، «إذن لست قادراً إلا على الشهوات الجسدية فقط؟»

- «ذلك لا ريب فيه كما تعلم».

- «الآن أقدر ترددك في بحث الموضوع معي، فيداي وشفتاي القذرة تدنس طهارة حبه».

- «الواقع... نعم... شيء من هذا القبيل».

- «إني مهتم بهذا الحب الخالص...».

- «لا تكن قذراً إلى هذا الحد يا ريت، وإذا كنت سافلاً إلى درجة تفكر معها أنه حدث شيء غير شرعي بيننا...».

- «ها، في الحقيقة، إن تلك الفكرة لم تدخل عقلي أبداً، وذلك هو سبب اهتمامي الشديد بها. إنما لماذا لم يحدث شيء غير شرعي بينكما؟».

- «إن كنت تفكر أن آشلي يـ. . .».

- «ها، إذن آشلي هو الذي خاض معركة الطهر وليس أنت. . . في الحقيقة يا سكارلت، ينبغي ألّا تسلمي نفسك بهذه السهولة».

فنظرت إلى وجهه الرقيق المبهم، بسخط واضطراب:

- «لن نذهب أبعد من هذا في هذا الموضوع، وأنا لا أريد نقودك ولذلك اخرج».

- «نعم. . . إنك لا تريدين نقودي وإذ إننا قد توغلنا إلى هذا الحد، فلماذا نقف؟ من الأكيد أنه لا يمكن أن يوجد ضرر في بحث موضوع طاهر كهذا. . . ما دام ليس هناك أي شيء غير شرعي. إذن آشلي يحبك من أجل عقلك وروحك ونبل أخلاقك».

فتلوَّت سكارلت من الغيظ بفعل كلماته. طبعاً، لقد كان آشلي يحبها من أجل هذه الأمور بالذات، وكانت معرفتها هذه، لهذا الأمر هي التي تجعل الحياة محتملة لديها، هذه المعرفة أن آشلي الذي كان يربطه الشرف بها، كان يحبها من بعيد من أجل صفات جميلة مدفونة عميقاً فيها، بحيث كان في وسعه وحده أن يراها. غير أن تلك الصفات لم تبدُ جميلة عندما أخرجها ريت إلى الضوء، خصوصاً بذلك الصوت الناعم الغرار، الذي كان يغطي تهكمه.

- «إن معرفتي بأن حباً كهذا يمكن أن يوجد في دنيا فاسدة كهذه تعيد إليَّ مثاليات عهد الصبا» تابع ريت، «وإذن ليس للجسد أي تأثير في حبه لك؟ وكان الأمر يكون نفسه لو كنت قبيحة ولا تملكين تلك البشرة البيضاء؟ ولا تنعمين بهاتين العينين الخضراوين اللتين تجعلان الرجل يتساءل عما ستفعلين إذا هو أخذك بين ذراعيه؟ ولا بطريقة أرجحة

وركيك التي فيها إغراء لكل رجل دون التسعين من العمر، ولا بهاتين الشفتين. . . حسناً، ينبغي ألّا أدع شهواتي الجسدية تفرض نفسها. ألا يرى آشلي أياً من هذه الأمور؟ أو إن هو رآها، أفلا تثيره أبداً؟».

وعاد عقل سكارلت مختاراً إلى ذلك اليوم في البستان، وعندما راحت ذراعا آشلي تهتزان وهو يمسك بها، وعندما وقعت شفتاه حارَّتين على شفتيها كأنه لم يكن ليدعها تفلت أبداً. وتخضب وجهها من الذكرى، ولم يفت ريت معنى احمرار لونها.

- «وإذن» قال وقد شاب صوته نغم متهدج كأنه الغضب، «لقد فهمت، إنه يحبك من أجل عقلك فقط».

كيف يجرؤ على أن يلتمس الحقائق بأصابعه القذرة، جاعلاً الشيء الجميل المقدس في حياتها يبدو مشيناً؟ لقد كان يهدم ببرود وتصميم آخر احتياطي عندها، وكانت المعلومات التي يريدها آتية في الطريق.

- «أجل إنه يحبني من أجل عقلي» صاحت مبعدة عنها ذكرى شفتي آشلي.

- «عزيزتي، إنه لا يعرف أنك تنعمين بعقل. وإذا كان عقلك هو الذي جذبه، فإنه لم يكن في حاجة إذن إلى أن يجاهد ضدك، في وقت كان ينبغي عليه فيه أن يعمل في سبيل الاحتفاظ بهذا الحب هكذا. . . هل نقول (مقدساً)؟ لقد كان في وسعه أن يبقى مرتاحاً من دون عناء، لأنه على كل حال، في وسع أي رجل أن يكبر عقل امرأة وروحها، ويظل سيداً شريفاً ومخلصاً لزوجته، ولكن لا بد إن كان من العسير عليه أن يوفق بين شرف الويلكسيين واشتهاء جسدك، الاشتهاء الذي يعتمل به».

- «أنت تحكم على نوايا كل إنسان على أساس نواياك المنحطة».

- «ها، أنا لم أنكر أنني أشتهيك إذا كان ذلك ما تعنيه. ولكن

شكراً للّه، إني لا أقلق فيما يتعلق بقضايا الشرف، فالذي أريده آخذه إذا ما ستطعت الحصول عليه، وهكذا فأنا لا أصارع الملائكة أو الشياطين. أي جحيم ممتع لا بد أنك صنعته لآشلي! إن في وسعي أن أتأسف من أجله».

- «أنا. . . أنا صنعت جحيماً له؟».

- «أجل أنت، فتلك هي حقيقتك، إغراء دائم له. ولكنه كمعظم أبناء آله، يفضل ما يعتبر في هذه الأنحاء شرفاً على أي مقدار من الحب، ويبدو لي كأن الشيطان المسكين لم يظفر بالحب ولا بالشرف لينعش روحه».

- «إنه ينعم بالحب!. . أعني، إنه يحبني».

- «هل هو كذلك؟ إذن أجيبيني عن هذا السؤال، ونكون قد اكتفينا حديثاً عنه بالنسبة إلى هذا اليوم، وفي وسعك أن تأخذي النقود وترميها في المرحاض رغم حرصي عليها».

ونهض ريت على قدميه، وألقى بنصف السيجار في المبصقة. وكانت تشوب حركاته الحرية الملحدة ذاتها والقوة المكبوحة ذاتها اللتين لحظتهما سكارلت في ليلة سقوط أتلانتا، الأمر الذي هو على شيء من الشؤم والرعب: «إذا كان يحبك، فلأي سبب إذن سمح لك بأن تأتي إلى أتلانتا لتحصلي على نقود الضرائب، فأنا قبل أن أدع امرأة أحبها تفعل ذلك. . .».

- «لم يكن يعرف! لم يكن لديه أي فكرة عن أني. . .».

- «ألم يخطر في بالك أنه ينبغي أن يكون قد عرف؟» وكان في صوته نغمة وحشية مكبوتة صريحة، «إذا كان يحبك كما تقولين، كان يجب أن يعرف ماذا كنت ستفعلين عندما تولاك اليأس. كان يجب أن يقتلك على أن يدعك تأتين إلى هنا. . . وإليَّ أنا من بين جميع الناس! يا للّه في سماواتك!».

- «ولكنه لم يكن يعرف. . . ».

- «إذا لم يحزر ذلك دون أن يخبره به أحد، فلن يعرف أي شيء أبداً عنك وعن عقلك الثمين».

ما كان أشد ظلمه! كأن آشلي كان قارئ عقول! كأن آشلي كان في وسعه أن يوقفها حتى لو كان يعرف نيتها! ولكنها أدركت فجأة أنه كان في وسع آشلي أن يوقفها. لقد كانت أقل إشارة تصدر منه، وهما في البستان، وتوضح أن من الممكن أن تتغير الأمور في يوم ما، لقد كانت مثل تلك الإشارة كافية لتوقفها عن التفكير تماماً في أن تذهب إلى ريت، بل إن مجرد كلمة عاطفية، بل مداعبة وداعية منه وهي تصعد القطار، كانت كافية لتمنعها من السفر. ولكن آشلي لم يتحدث عن غير الشرف. ومع ذلك. . . أكان ريت صائباً؟ أكان ينبغي لآشلي أن يعرف ما كان يدور في خلدها؟ وأبعدت الفكرة الخائنة عنها بسرعة. طبعاً إن آشلي لم يكن يشكّ في ما انتوت فعله. إن آشلي لن يشكّ أبداً في أنها ستفكر في ارتكاب أي عمل شائن كهذا. إن آشلي رفيع الخلق جداً بحيث لا تراوده أفكار كهذه، ولقد كان ريت يحاول تشويه حبها فقط. لقد كان يحاول هدم أثمن شيء لديها. وفكرت، بنيّة أثيمة أنها يوماً ما، عندما يكون المخزن مزدهراً أو المعمل ينتج ربحاً وفيراً، وهي تنعم بالمال، ستجعل ريت باتلر يدفع ثمن البؤس والإهانة اللذين كان يسببهما لها.

كان يقف فوقها ينظر إليها بقليل من المتعة، وقد فارقته العاطفة التي كانت قد أثارته.

- «وماذا يهمك كل هذا الأمر؟» سألته، «إنه من شأني وشأن آشلي وليس من شأنك أنت».

فهز كتفيه.

- «إنه يهمني من هذه الناحية فقط: إني أحس بإكبار عميق غامض

لمعاناتك يا سكارلت، وأنا لا أحب أن أرى روحك تنسحق تحت وطأة أرحاء عديدة جداً. فهناك تارا، التي هي مهمة رجل كامل بحد ذاتها، وهناك والدك المريض بالإضافة إلى ذلك، والدك الذي لن يكون أي عون لك، ثم شقيقتاك، والزنوج، والآن أضفت إليهم زوجاً، وربما الآنسة بيتي بات أيضاً. إنك تحملين أعباء كافية، غير آشلي ويلكس وعائلته».

- «إنه ليس عبئاً عليَّ، إنه يساعد. . .».

- «باللّه عليك» قال بجزع، «لا تدعينا نسمع أكثر من هذا الكلام. إنه ليس عوناً، إنه عبء عليك، أو على أي شخص آخر إلى أن يموت، أنا شخصياً قد سئمت من كونه موضوع حديث. . . كم تريدين من المال؟».

فاندفعت كلمات لاذعة إلى شفتيها، إذ بعد كل إهاناته، وبعد أن انتزع منها تلك الأشياء الثمينة جداً لديها وداس عليها، ما زال يفكر في أنها ستأخذ نقوده!

ولكن الكلمات كبحت دون أن تلفظ. ما كان أجمل أن تهزأ بعرضه وتطرده من المخزن! لكن الغني الحقيقي، والشاعر باطمئنان حقيقي، هو الذي كان في وسعه فقط تنفيذ فكرة أثيرة كهذه، وما دامت فقيرة فستظل تتحمل مشاهد كهذه، ولكن عندما تصبح غنية - آه، أي فكرة جميلة منعشة هذه!. . . عندما تصبح غنية، لن تتحمل أي شيء لا تحبه، ولن تعيش محرومة من أي شيء ترغب فيه، أو حتى لن تكون مهذبة مع الناس ما لم ترضَ عنهم.

«سأخبرهم جميعاً أن يذهبوا إلى هاليفاكس»، فكرت، «وسيكون ريت باتلر أولهم».

وجلب السرور الناجم من هذه الفكرة، بريقاً للعينين الخضراوين ونصف ابتسامة لشفتيها، وابتسم ريت أيضاً.

- «إنك جميلة يا سكارلت» قال، «خصوصاً عندما تكونين تفكرين في الشر. ومن أجل منظر تلك الغمازة فقط، سأشتري لك ثلاثة عشر بغلاً إن كنت ترغبين في ذلك».

وانفتح الباب الأمامي، ودخل المحاسب وهو ينظف أسنانه بريشة. فنهضت سكارلت، ولفت ثيابها حولها، وعقدت رباط قبعتها بحزم تحت ذقنها، وكان عقلها قد قر قراره.

- «هل أنت مشغول بعد ظهر هذا اليوم؟ أفي وسعك أن تأتي معي الآن؟» سألت.

- «إلى أين؟».

- «أريدك أن تأخذني بالعربة إلى المعمل. لقد وعدت فرانك ألّا أخرج من المدينة وحدي».

- «إلى المعمل في هذا المطر؟».

- «أجل، فإني أريد شراءه الآن، قبل أن تغير رأيك».

فضحك بصوت مرتفع جداً، جعل المحاسب الشاب الواقف خلف البسطة يشرع في النظر إليه باستغراب.

- «هل نسيت أنك متزوجة؟ إن السيدة كنيدي لا يمكن أن ترضى بأن تُرى خارجة إلى الريف مع ذلك المنبوذ باتلر، الذي لا يستقبل في أحسن الردهات. هل نسيت سُمعتك؟».

- «سمعة! إن هذا هراء. إني أريد شراء ذلك المعمل قبل أن تغير رأيك أو أن يكتشف فرانك أني في صدد شرائه. لا تكن مسعراً بطيئاً يا ريت، ما تأثير هذا المطر الخفيف؟ دعنا نسرع».

* * *

المنجرة! لقد أمسى فرانك يئن كلما فكر فيها، لاعناً نفسه لأنه سبق وذكرها مرة أمام سكارلت. لقد كان من الزري جداً بها أن تبيع قرطيها إلى الكابتن باتلر (من بين جميع الناس!) وتشتري المنجرة،

وحتى دون أن تستشير زوجها في الأمر. ولكن لقد كان أكثر زراية من ذلك أنها لم تحولها إليه ليديرها هو، الأمر الذي بدا سيئاً، كأنها لم تكن تثق به أو بإدارته.

كان فرانك يشعر، مثل جميع الرجال الذين كان يعرفهم، أن الزوجة ينبغي أن توجه بمعرفة زوجها الأوسع من معرفتها، كما ينبغي أن تقبل بآرائه كلها دون أن يكون لها رأي، وكان فرانك يرغب في أن يمنح معظم النساء حريتهن في التصرف، فالنساء في نظره مخلوقات صغيرة مضحكة، ولا تضر أحداً أبداً، أن يتمتعن بنزواتهن الصغيرة. ولمّا كان وديعاً رقيقاً بالفطرة، لم يكن فيه ميل إلى أن ينكر على الزوجة كثيراً من أهوائها، وكان يجد متعة في بعض الأحيان في إشباع الميول السخيفة لإنسانة صغيرة رقيقة، وفي تأنيبها ودياً على حماقتها وإسرافها. ولكن الأمور التي صمّمت سكارلت على عملها لم تكن في الحسبان بالنسبة إليه.

فتلك المنجرة مثلاً، كانت صدمة حياته، وذلك عندما أخبرته سكارلت بابتسامة عذبة، جواباً عن أسئلته، أنها صممت على أن تديرها بنفسها: «سأنزل إلى صناعة الأخشاب بنفسي» كانت الصيغة التي استخدمتها. ولن ينسى فرانك هول تلك اللحظة. تنزل إلى العمل بنفسها! إن ذلك لا يمكن التفكير فيه، فلم تكن توجد نساء في ميدان العمل في أتلانتا، والواقع أن فرانك لم يكن قد سمع بامرأة تتعاطى العمل في أي مكان. وإذا كانت النساء سيئات الحظ جداً بحيث أرغمن على كسب قليل من النقود ليساعدن عوائلهن في هذه الأوقات الصعبة، فإنهن كن يفعلن ذلك بطرق نسائية هادئة... كأن يخبزن، كما كانت تفعل السيدة ميريويذر، أو يطلين الخزف ويخطن الثياب ويؤجرن غرف بيوتهن للنزلاء، كما كانت تفعل السيدة إلسينغ وفاني، أو يعلّمن في المدارس كما كانت تفعل السيدة ميد، أو يعطين دروساً في الموسيقى

كالسيدة بونل. لقد كانت هؤلاء النسوة يجنين نقوداً، ولكنهن كن يمكثن في البيوت وهنّ يقمن بأعمالهن، كما كان ينبغي للمرأة أن تفعل. أما أن تتخلى المرأة عن حماية بيتها وتخرج لتخاطر في دنيا الرجال الخشنة، تنافسهم في العمل وتحتكّ كتفاها بهم، وتكون عرضة للإهانة والتحدث عنها، فأمر لا يُحتمل، خصوصاً عندما لا تكون مضطرة إلى فعل ذلك، عندما يكون لها زوج قادر على توفير المال لها بسعة!

لقد رجا فرانك أن تكون سكارلت إنما تغيظه او تقوم بدعابة معه، دعابة لا تنمّ عن ذوق سليم، ولكنه سرعان ما وجد أنها كانت تعني ما تقول. لقد أدارت المنجرة بنفسها، وكانت تنهض أبكر منه، لتذهب إلى أبعد من طريق بيتشتري، ولم تكن ترجع غالباً إلا بعد أن يكون قد أغلق مخزنه بوقت طويل، وعاد إلى بيت العمة بيتي للعشاء. كانت تقطع الأميال الطويلة إلى المعمل في عربة العم بيتر، الذي كان يستنكر عملها، والذي كان حاميها الوحيد، في حين كانت تلك الغابات تغص بزنوج محررين وبأوغاد شماليين، ولم يكن في وسع فرانك أن يذهب معها، فقد كان المخزن يستغرق جميع وقته. على أنه عندما احتج، أجابته باقتضاب: «إذا لم أراقب ذلك الماكر المحتال جونسون، فسيسرق أخشابي ويبيعها ويضع النقود في جيبه. وعندما أستطيع الحصول على رجل طيب يدير المعمل نيابة عني، عندئذ لن أضطر إلى الذهاب هنالك مراراً عديدة، وعندئذ أستطيع أن أقضي وقتي في المدينة، أبيع الخشب».

تبيع الخشب في المدينة! تلك كانت أسوأ الجميع. فكثيراً ما كانت تعفي نفسها من يوم من أيام المنجرة وتتجول في المدينة لبيع الخشب. وكان فرانك في أيام البيع تلك، يتمنى لو يستطيع الاختباء في مؤخرة مخزنه المعتمة كي لا يرى أحد. . . زوجته تبيع خشباً!

وكان الناس يتحدثون حديثاً فظيعاً عنها، وربما عنه أيضاً، لأنه

كان قد سمح لها بأن تسلك هذا الطريق الذي لا يليق بالنساء. وأزعجه أن يواجه زبائنه من فوق البسطة، ويسمعهم يقولون: «لقد رأينا السيدة كنيدي منذ دقائق قليلة، هناك في . . .» وكان كل منهم يجد مشقة في إخباره عما كانت تفعل. وكان كل فرد يتحدث عما وقع في المكان الذي كان يشاد فيه الفندق الجديد، حيث كانت سكارلت قد وصلت تماماً في الوقت الذي كان فيه تومي ولبورن يشتري بعض الألواح الخشبية من رجل آخر. فنزلت سكارلت من عربتها بين البنائين الإيرلنديين الخشنين الذين كانوا يضعون الأساسات، وأخبرت تومي بإيجاز أنه كان يُخدع، وقالت إن خشبها كان أفضل وأرخص ولتبرهن على صدق قولها حسبت عموداً طويلاً من الأرقام في عقلها، وقدمت إليه ثمناً تقديرياً على الفور. لقد كان من الرديء جداً أن حشرت نفسها بين عمال غرباء خشان، ولكان كان لا يزال أردأ بالنسبة إلى المرأة أن ترى جهاراً أن في وسعها أن تحسب، كما فعلت سكارلت، وعندما قبل تومي الثمن الذي عرضته وأعطاها الحوالة المالية، لم تغادر المكان بسرعة وبوداعة، بل راحت تتسكع وتتحدث إلى جوني كاليغر، ناظر العمال الإيرلنديين وهو رجل قزم داهية ذو سمعة زرية. وهكذا ظلت المدينة تتحدث عن تلك الواقعة مدة أسابيع.

وكان على رأس جميع أعمالها الشائنة، أنها كانت تكسب فعلاً نقوداً من المعمل، ولم يكن في وسع أحد أن يشعر شعوراً طبيعياً نحو زوجة نجحت في نشاط عملي غير أنثوي أبداً. ولم تكن تحول النقود، أو أي جزء منها إلى فرانك ليستثمرها في المخزن، بل كان معظمها يذهب إلى تارا، وكانت تكتب لويل بنتين رسائل لا آخر لها، تخبره فيها كيف ينبغي صرف النقود. وأكثر من ذلك، أنها أخبرت فرانك أنه إذا أمكن إتمام الإصلاحات في تارا، ففي نيّتها استثمار نقودها بعمليات الرهون.

- «وا أماه!» هكذا كان يندب فرانك، كلما فكر في هذ العمل، فلم يكن من شأن المرأة حتى أن تعرف ماهية الرهن.

وكان عقل سكارلت قد امتلأ بالمشاريع في هذه الأيام، وكل مشروع منها كان يبدو لفرانك أسوأ من سابقه. لقد كانت تتكلم عن بناء حانة فوق الأرض التي كان يقوم عليها مخزونها قبل أن يحرقه شيرمان. ولم يكن فرانك ممتنعاً عن تعاطي المسكرات، ولكنه احتج على الفكرة بعصبية، ذلك أن امتلاك حانة كان عملاً شائناً، عملاً مشؤوماً، عملاً مزرياً كاستئجار بيت للدعارة تقريباً. أما لماذا كان مزرياً، فلم يكن في وسع فرانك أن يوضح، ولذلك أجابت على حججه الضعيفة بقولها: «هراء!».

- «إن الحانات تجد دائماً مستأجرين جيدين. لقد قال ذلك العم هنري»، أخبرته، «إنهم دائماً يدفعون بدل الإيجار. وانتبه يا فرانك، إن في وسعي بناء صالة زهيدة التكاليف من الخشب الرديء النوع الذي لا أستطيع بيعه، ثم أحصل على بدل إيجار جيد لها. وبنقود الإيجار، ونقود المعمل، وبما أستطيع جنيه من الرهونات، أستطيع أن أشتري مناجر أخرى».

- «حلوتي، لست في حاجة إلى أي منجرة أخرى!» صاح فرانك مذعوراً، «إن ما يجب عليك عمله هو أن تبيعي المنجرة التي تملكينها الآن. إنها تضنيك. وأنت تعرفين أي مشقة تكابدينها بتشغيل الزنوج المحررين هناك. . .».

- «حتماً إن الزنوج المحررين عديمو الفائدة» وافقت سكارلت متجاهلة تمام التجاهل تلميحه بوجوب بيعها المنجرة. «ويقول السيد جونسون إنه لا يعرف أبداً، عندما يأتي إلى المعمل في الصباح، ما إذا كان سيجد عدداً تاماً من العمال أو لا. لم يعد في وسع المرء أبداً الاعتماد على الزنوج، فهم يشتغلون يوماً أو يومين ثم يغادرون العمل

إلى أن يصرفوا الأجر الذي قبضوه، وكان جميع العمال. . . كلما رأيت عدداً أكبر من العبيد المحررين كلما اعتقدت أن عملية تحريرهم هي أكثر إجراماً. إنها دمرت الزنوج وحسب. فالألوف منهم لا يشتغلون أبداً، والأفراد الذين نستطيع جلبهم منهم إلى العمل في المنجرة، كسالى عديمو الحيلة جداً بحيث لا يستحقون أن نقتنيهم. وإن أنت اغتظت كثيراً وعنَّفتهم وضربتهم قليلاً في سبيل إصلاحهم، فإن قانون التحرير ينزل عليك كبقة تربض على بطة يونيو».

- «حلوتي، إنك لا تدعين جونسون يضرب هؤلاء. . .».

- «طبعاً لا» أجابت جازعة، «ألم أقل الآن إن الشماليين يضعونني في السجن إن أنا فعلت ذلك؟».

- «إني أراهن أن والدك لم يضرب زنجياً في حياته» قال فرانك.

- «الواقع، لقد ضرب زنجياً واحداً فقط، عاملاً في الإسطبل لم يدلّك حصانه بعد يوم صيد. ولٰكن يا فرانك، لقد كان الأمر آنئذ يختلف عما هو اليوم، فالزنوج المحررون أناس يختلفون عن أولئك، والجلد الجيد سيفيد البعض منهم فائدة قصوى».

لم يكن فرانك دهشاً من آراء زوجته ومشاريعها وحسب، بل كان دهشاً كذلك من التغير الذي طرأ عليها في الأشهر القليلة التي انقضت منذ زواجهما، إذ لم تعد تلك الإنسانة العذبة الرقيقة التي كان قد اتخذها زوجة له. لقد اعتقد خلال فترة معاشرته القصيرة لها، أنه لم يكن قد عرف امرأة أكثر منها أنثوية جذابة في استجابتها للحياة، امرأة جاهلة حيية عاجزة. بيد أن استجابتها أضحت الآن كاستجابة الرجل، فرغم وجنتيها الموردتين، ورغم غمازتيها وابتسامتها البديعة، كانت تتحدث وتتصرف كرجل وكان صوتها سريعاً حازماً، وكذلك كانت تقرر رأيها في الحال، ومن دون أي تردد أنثوي. لقد كانت تعرف ما تريد

فتلاحقه من أقصر طريق كما يفعل الرجال، وليس من الطرق الخفية الملتوية المألوفة لدى النساء.

ولم تكن القضية أن فرانك لم يكن قد رأى نساء متنفذات قبل هذه المرأة. فأتلانتا، كجميع المدن الجنوبية الأخرى، كان لها نصيبها من السيدات المسنات اللواتي كان الناس يتحاشون معارضتهن. ولم يكن من الممكن أن تكون امرأة أوسع نفوذاً من السيدة ميريويذر البدينة، أو أشد استبداداً من السيدة إلسينغ النحيلة، أو أعمق مكراً في ضمان نتائج أعمالها من السيدة ويتينغ ذات الصوت العذب والشعر الفضي. ولكن مهما كانت البدع التي كانت تستعملها هؤلاء السيدات ليبلغن مآربهن، فإنها كانت دائماً بدعاً نسوية. لقد كن يحرصن على أن تكون آراؤهن مغايرة لآراء الرجال، سواء أكنّ موجهات بآرائهن أو لم يكنّ. كان بهن من التهذيب ما يجعلهن يظهرن بأنهن موجهات بأقوال الرجال، الأمر الذي كان له أثر، ولكن سكارلت لم يكن يوجهها أحد سوى نفسها، وكانت تدير شؤونها بأسلوب رجل، الأمر الذي جعل كل المدينة تتحدث عنها، «ومن المرجح»، فكر فرانك، «أنها تتحدث عني أيضاً، لأني قد سمحت لها بأن تسلك هذا الطريق غير النسوي». ثم كان هناك ذاك الرجل باتلر، الذي كانت زياراته المتكررة لبيت العمة بيتي أعظم إهانة. وكان فرانك يكرهه دائماً، حتى عندما كان يتعاطى العمل معه، قبل الحرب. ولذلك راح يلعن مراراً اليوم الذي أحضره فيه إلى تولف أوكس وقدّمه إلى أصدقائه. كان فرانك يحتقره للأسلوب البارد الذي كان قد اتبعه في مضارباته خلال الحرب، ولأنه لم يكن في الجيش. ولم يكن أحد سوى سكارلت يعلم بخدمة ريت في الحلف لمدة ثمانية أشهر، لأنه كان قد رجاها بخوف مصطنع ساخر أن لا تفضح عاره لأحد. وكان أكثر الأشياء التي تجعل فرانك يحتقره هو احتفاظه بذهب الحلف، بينما كان الرجال الشرفاء الذين جوبهوا

بالظروف ذاتها كالأدميرال بولوك وآخرين قد أعادوا الألوف إلى خزينة الحلف. على أن ريت ظل زائراً مكثراً سواء أحب فرانك أم كره.

كان يأتي لزيارة الآنسة بيتي في الظاهر، ولم تكن هي تملك إدركاً أفضل من أن تصدقه وتتباهى بزياراته لها. ولكن فرانك كان يشعر شعوراً مزعجاً بأن الآنسة بيتي لن تكن الجاذب الذي كان يستدعيه. أما ويد الصغير فكان مغرماً جداً به، مع أنه كان حيياً مع معظم الناس. فكان يدعوه «عمي ريت» الأمر الذي كان يزعج فرانك. ولم يسع فرانك إلا أن يتذكر أن ريت كان قد تجول برفقة سكارلت أثناء الحرب، ودار الحديث عنهما آنئذ. وتصور أنه يمكن أن يدور عنهما الآن حديث أسوأ. ولم يكن أحد من أصدقائه يملك الشجاعة ليذكر شيئاً من هذا القبيل أمامه، رغم كل عباراتهم الصريحة عن سلوك سكارلت في موضوع المعمل. ولكن لم يسعه إلا أن يلاحظ أن دعوته هو وسكارلت إلى ولائم الطعام وإلى حفلات الرقص، كانت قد قلّت كثيراً، وأن عدد الناس الذين كانوا يزورونهما كان يتناقص شيئاً فشيئاً. وكانت سكارلت تبغض معظم جيرانها، كما كانت منهمكة جداً بمعملها بحيث لم تعبأ برؤية من ترغب في رؤيتهم، ولذلك لم يزعجها نقص الزيارات، غير أن فرانك أحس بالأمر إحساساً عميقاً.

لقد كان فرانك طوال حياته يعيش تحت تأثير عبارة «ماذا سيقول الجيران؟» كما كان عديم الحيلة أمام الصدمات التي كان يسببها له استهتار زوجته المتكرر بأصول اللياقة. وكان يشعر أن الجميع ممتعضون من سكارلت، مزدرون له لأنه سمح لها بـ«التخلي عن جنسها». لقد ارتكبت أموراً كثيرة، كان ينبغي للزوج، من وجهة نظر فرانك، ألّا يسمح بها، لكنه لو أمرها أن تمتنع عن فعلها أو لو جادلها أو انتقدها لانفجرت العاصفة على رأسه.

- «يا أماه!» فكر وقد أُسقِط في يده، «إن في وسعها أن تجن

أسرع من أي امرأة أخرى رأيتها، ثم أن تظل مجنونة مدة أطول كذلك!».

وحتى في الأوقات التي كانت الأمور فيها في غاية الإمتاع، كان من المدهش أن تنقلب تلك الزوحة المحبة الغائظة التي كانت تترنم لنفسها وهي تحوم في البيت، كان من المدهش أن تنقلب كلية وبسرعة غريبة إلى شخص مختلف تماماً. فما كان على فرانك إلا أن يقول «حلوتي، لو كنت في مكانك، لما. . .» حتى تنفجر العاصفة.

كان حاجباها الأسودان يندفعان معاً ليلتقيا في زاوية حادة فوق أنفها، بينما كان فرانك يجبن أمامها بصورة ملحوظة تقريباً. لقد كان لسكارلت طبع تتري وثوران هرة برية. وفي أوقات ثورانها كان يبدو أنها لم تكن تعبأ بما تقول أو بمدى إيلام الذي تقوله. وكانت سحب الكآبة تتجمع فوق البيت في مناسبات كهذه، ويذهب فرانك باكراً إلى المخزن ويظل هناك إلى وقت متأخر، بينما تزحف بيتي إلى غرفة نومها كأرنب يلهث إلى وجاره. أما ويد والعم بيتر فكانا ينسحبان إلى مرأب العربة، وتمكث كوكي في المطبخ وتمتنع عن رفع صوتها لتطري الرب في أغنية. لقد كانت مامي فقط تحتمل طبع سكارلت برباطة جأش، مامي التي أمضت سنين عديدة من التدريب على جيرالد أوهارا وثوراته.

ولم تكن سكارلت تقصد أن تكون سريعة الغضب، بل كانت تريد في الحقيقة أن تجعل من نفسها زوجة صالحة لفرانك، لأنها كانت مولعة به، عارفة لجميله في مساعدتها لإنقاذ تارا. بيد أنه كان يستنفد صبرها مراراً عديدة، وبأساليب مختلفة عديدة، فتنفجر.

ولم يكن في وسع سكارلت أبداً ان تحترم رجلاً يدعها تجري من فوقه، وكانت السحنة الحيية المترددة التي كان يبدو بها في كل مناسبة غير سارة، معها أو مع الآخرين، تضايقها بصورة غير محتملة. ولكن

كان في وسعها الآن أن تتغاضى عن هذه الأشياء، وحتى أن تكون سعيدة، بعد أن أضحت معظم مشاكلها المادية في طريق الحل، لولا غيظها المتجدد الدائم، الناجم عن الحوادث العديدة التي كانت تظهر أن فرانك لم يكن رجل أعمال ناجحاً، ولا يريدها أن تكون رجل أعمال ناجحاً.

وكما توقعت، كان قد رفض أن يطلب استيفاء فواتيره غير المدفوعة إلى أن وخزته وخزاً ليقوم بذلك، وعندئذ نفذ المهمة باعتذار وتهيُّب. وكانت تلك التجربة الدليل الأخير الذي كانت تفتقر إليه لتبرهن على أن عائلة كنيدي لن تنعم يوماً بأكثر من المعيشة المعدمة ما لم تكسب هي شخصياً المال الذي عزمت على أن تجنيه. لقد أدركت الآن أن فرانك يقنع في التقدم تقدماً وانياً بمخزنه الصغير القذر لبقية حياته، ولم يكن يبدو أنه يدرك ضآلة ما كانوا يملكونه لأمان مستقبلهم، وأهمية حصولهم على نقود أكثر في هذه الأوقات المرمضة، حيث النقود هي الحامي الوحيد من كوارث جديدة.

وفكرت سكارلت أنه يمكن لفرانك أن يكون رجل أعمال ناجحاً في الأيام السهلة قبل الحرب، غير أنه كان قديم الطراز جداً بشكل مزعج، وكان شديد العناد في تصميمه على أن ينفذ الأمور بالأساليب القديمة، بينما كانت الأساليب القديمة قد ذهبت. لقد كان يعوزه تماماً روح العدوانية الضرورية في هذه الأوقات المريرة الجديدة. طبعاً لقد كانت هي تنعم بتلك الروح، ولقد صممت على أن تستعملها سواء أحب فرانك أم كره. لقد كانا في حاجة إلى المال، وكانت هي تجني المال - الأمر الذي كان عملاً شاقاً في حد ذاته - ولذلك، فإن أقل عمل كان يمكن لفرانك أن يفعله، هو، في رأيها، أن يكف عن التدخل بمشاريعها التي كانت تؤتي أكلها.

لم تكن إدارة المعمل الجديد أمراً سهلاً على سكارلت، وذلك

لأنها تفتقر إلى الخبرة، ولأن المنافسة الآن أكثر حدة مما كانت في البدء. ولذلك كانت سكارلت عندما تعود ليلاً إلى البيت تبدو قلقة متعبة مقطبة في العادة، وعندما كان فرانك يسعل وهو يبرر موقفه ويقول: «حلوتي، ما كنت لأفعل هذا» أو «ما كنت أفعل ذاك يا حلوتي، لو كنت في مكانك» كان كل ما يستطيع عمله هو أن تمنع نفسها من الانفجار في الغضب، وما أكثر ما كانت تفشل في كبح ثورتها. فلئن كان يفتقر إلى روح العمل الحقيقية التي تمكنه من أن يخرج ويجني بعض المال، فلماذا كان دائماً يجد لها الأخطاء؟ ثم إن الأشياء التي كان ينقّ عليها بسببها، كانت تافهة جداً. ثم ماذا يهم إن كانت هي في أوقات كهذه تسلك سلوكاً غير نسوي؟ خصوصاً عندما كانت منجرتها غير النسوية تُدخل نقوداً كانوا في حاجة ماسَّة إليها، هي والعائلة وتارا وفرانك أيضاً.

لقد كان فرانك يريد الراحة والسكينة، ذلك لأن الحرب التي كان قد خدم فيها بكل إخلاص، كانت قد دمرت صحته وكلفته مستقبله وجعلت منه رجلاً عجوزاً. ولم يكن يأسف على أي من هذه الأمور، غير أن كل ما كان يرجوه من الحياة بعد أربع سنوات من الحرب، هي الطمأنينة والعطف: الوجوه المحبة حوله ورضى أصدقائه. ولكن سرعان ما وجد أن الطمأنينة البيتية كان لها ثمنها، وذلك الثمن كان في أن يترك سكارلت تتصرف على هواها، مهما كان يمكن أن يكون هواها ذاك. وهكذا، ولأنه كان تعباً، اشترى الطمأنينة حسب شروطها هي. وكان يفكر أحياناً أن ذلك الثمن يتناسب ورؤيته زوجته تبتسم له وهي تفتح الباب الأمامي في الغسق البارد، وتقبِّل أذنه أو أنفه أو أي مكان آخر غير مناسب، كما يتناسب أيضاً وإحساسه برأسها في الليل وهو يستكين ناعساً فوق كتفه، تحت اللحف الدافئة. كان يمكن أن تكون الحياة البيتية ممتعة جداً عندما كانت سكارلت تفعل ما يطيب لها، بيد

أن الطمأنينة التي حصدها كانت جوفاء، مجرد مظهر خارجي فقط، لأنه كان قد دفع ثمنها كل شيء أعتقد أنه صواب في الحياة الزوجية.

«ينبغي للمرأة أن تعير اهتمامها لبيتها ولعائلتها، وأن لا تتجول من مكان إلى مكان كالرجال» هجس فرانك، «الآن لو أنها رزقت طفلاً فقط...».

وابتسم عندما فكر في طفل، ومراراً ما كان يفكر في طفل. ولقد كانت سكارلت كثيراً ما أعلنت رغبتها في أنها لا تريد طفلاً، غير أن الأطفال نادراً ما ينتظرون إلى أن يدعوا. وكان فرانك يعرف أن نساء كثيرات كن قد قلن إنهن لا يردن أطفالاً، ولكن ذلك كله كان غباء وخوفاً. وإذا رزقت سكارلت طفلاً فستحبه وستقتنع بأن تظل في البيت لتعتني كبقية النساء، ثم إنها سترغم على بيع المعمل، وعندئذ ستنتهي مشاكله. كل النساء في حاجة إلى الأطفال ليتممن سعادتهن. وكان فرانك يعرف أن سكارلت لم تكن سعيدة، فرغم كونه جاهلاً بشؤون النساء لم يكن عمهاً جداً بحيث لا يستطيع أن يرى أنها كانت غير سعيدة في بعض الأوقات.

كان يستيقظ أحياناً في الليل ويسمع صوت الدموع الرقيق يتلاشى في الوسادة. وأول مرة استيقظ فيها ليشعر بالسرير يهتز بنحيبها، سألها مذعوراً: «حلوتي، ما القضية؟» إلا أنه زُجر بصرخة عاطفية: «آه دعني وحدي!».

أجل، إن طفلاً سيسعدها، وسينتزع تفكيرها من أمور لا شأن لها في أن تعبث بها. وكان فرانك يتنهد أحياناً وهو يفكر أنه كان قد اصطاد طائراً استوائياً، زاخراً بالحرارة، غنياً بلون الجواهر، بينما كان يمكن لأصغر عصفور أن يقدم له النتيجة ذاتها، وفي الحقيقة نتيجة أفضل بكثير.

37

كان ذلك في ليلة بهيمية ماطرة من ليالي أبريل، عندما قدم توني فونتين من جونسبورو إلى أتلانتا، راكباً حصاناً مرغياً نصف ميت من الإعياء، وراح توني يقرع باب البيت منهضاً سكارلت وفرانك من النوم وهما في غاية الذعر. وعندئذ، وللمرة الثانية منذ أربعة أشهر، قُدِّر لسكارلت أن تشعر بمرارة معنى التجديد[1]، بكل مضامينه. قُدِّر لها أن تفهم فهماً أكثر اكتمالاً ما كان يدور في عقل ويل عندما قال: «إن متاعبنا قد بدأت الآن» وأن تدرك أن كلمات آشلي الكئيبة، التي كان قد تفوّه بها في بستان تارا الذي عصفته الرياح، كانت كلمات صادقة: «إن هذا الذي يواجهنا جميعاً هو أسوأ من الحرب - أسوأ من السجن - أسوأ من الموت».

كانت المرة الأولى التي جابهت فيها سكارلت التجديد وجهاً لوجه، يوم علمت أن جوناس ويلكرسون يستطيع طردها من تارا بمؤازرة الشماليين. بيد أن مجيء توني وضعها أمام الحقيقة الساخرة بصورة أشد رعباً بكثير، فقد جاء في الظلام وتحت سياط المطر، وبعد دقائق انطلق في الليل ثانية وإلى الأبد. ولكن خلال الفترة القصيرة بين

(1) أو إعادة البناء، وهي الحركة التي تلت احتلال الشماليين للجنوب وتناولت مظاهر الحياة المختلفة - (المترجمان).

مجيئه وانطلاقه رفع توني الستار عن مشهد لهول جديد، مشهد شعرت سكارلت يائسة بأنه لن يسدل الستار عليه أبداً.

تلك الليلة العاصفة عندما قرع الطارق بإلحاح سريع جداً، وقفت سكارلت على بسطة السلم، ممسكة بدثارها حولها ناظرة إلى القاعة التي هي أسفل منها، لتظفر بلمحة واحدة من وجه توني الأسمر المتجهم، قبل أن ينحني إلى الأمام ويطفئ الشمعة التي كانت في يد فرانك، وعندئذ أسرعت تنزل في الظلام لتقبض على يده الباردة المبللة، ولتسمعه يهمس «إنهم يطاردونني - ذاهب إلى تكساس - إن حصاني على وشك أن يموت. . . وأكاد أموت جوعاً. . . لقد قال آشلي إنكما سـ. . . لا تضئ الشمعة! لا توقظ الزنوج. . . أنا لا أريد أن أورط جماعتكما في المتاعب إن كان في وسعي ذلك».

وبعد إغلاق مصاريع شبابيك المطبخ، وإسدال جميع الستائر إلى عتبات النوافذ، سمح توني بالضوء وراح يتحدث إلى فرانك بعبارات متهدجة سريعة، بينما كانت سكارلت تهرع من حولهما، تدبر وجبة طعام له.

كان من دون معطف، مبللاً حتى الجلد، حاسر الرأس، قد التصق شعره الأسود بجمجمته الصغيرة. ولكن مرح أبناء فونتين، ذلك المرح الفاتر في تلك الليلة، كان يبدو في عينيه الصغيرتين الراقصتين وهو يكرع الويسكي الذي قدمته سكارلت له، بعد أن شكرت اللّه لأن العمة بيتي بات كانت تشخر مطمئنة في الطابق العلوي، إذ كان سيغمى عليها حتماً إن هي رأت هذا الذي يشبه الشبح.

- «لقيط ملعون. . . أحقر من سكالاواغ» قال توني رافعاً كأسه من أجل جرعة أخرى، «لقد ركبت بجد، وسيكلفني روحي إن لم أخرج من هنا بسرعة. ولكن الأمر يستحق كل هذا، أجل واللّه! سأحاول أن أذهب إلى تكساس، وأعيش متخفياً هناك. كان آشلي معي

في جونسبورو وأشار عليَّ أن آتيكم. عليك أن تتدبر لي حصاناً آخر يا فرانك وبعض النقود، فحصاني يكاد يموت... كل الطريق إلى هنا وأنا منطلق بسرعة مميتة... وكالأبله. خرجت من البيت هذا اليوم كخفاش يخرج من الجحيم، من دون معطف أو قبعة أو سنت من النقود. ولا يعني هذا أن هناك نقوداً وفيرة في بيتنا».

وضحك، وأقنع نفسه بدافع الجوع بتناول خبز الذرة البارد وأوراق اللفت الباردة التي كان الشحم كثيفاً عليها في قطع بيضاء.

- «في وسعك أخذ حصاني» قال فرانك بهدوء، «ولدي الآن عشرة دولارات فقط، ولكن إذا كنت تستطيع الانتظار حتى الصباح...».

- «يا للجحيم! ليس في وسعي الانتظار!» قال توني بشكل حاسم، ولكن ببشاشة، «قد يكونون خلفي تماماً، فأنا لم أنطلق قبلهم بوقت طويل. ولولا أن آشلي انتزعني من هناك، ودفعني إلى امتطاء حصاني، لبقيت هناك كالأبله، وربما كانت رقبتي قد تدلت الآن. إن آشلي رجل طيب».

إذن آشلي كان مرتبطاً بهذه المشكلة المروِّعة المحيرة. وبردت سكارلت ووضعت يدها على بلعومها. هل اعتقل الشماليون آشلي الآن؟ لماذا لم يسأل فرانك عن سبب كل هذا الأمر؟ لماذا استقبل كل شيء بهذا البرود، وكأن القضية كانت مجرد أمر عادي؟ وجاهدت كي توصل السؤال إلى شفتيها.

- «ماذا...» شرعت، «من...».

- «ناظر والدك القديم... ذلك اللعين... جوناس ويلكرسون».

- «هل... هل هو ميت؟».

- «يا اللّه، سكارلت أوهارا!» قال توني برماً، «عندما أخرج

لأقتل إنساناً ما، لا تفكري أني سأقتنع بخدشه بحد سكيني غير الحاد، هل تفكرين كذلك؟ لا، والله، إني أقطعة إرباً».

- «حسناً» قال فرانك من دون تعمُّد، «فأن لم أمل إلى ذلك الرجل أبداً».

وتطلعت سكارلت إليه. لم يكن هذا هو فرانك الوديع الذي عرفت فيه منقب اللحية العصبي والذي كانت قد أدركت أنه يمكن الاستبداد به بسهولة فائقة، لقد كان يكتنفه الآن مظهر قصم بارد، لقد كان يواجه الطارئة بالكلمات الضرورية وحسب. لقد كان رجلاً، وكان توني رجلاً، وهذه الظروف القاسية كانت من شأن الرجال، حيث لم يكن للمرأة نصيب.

- «ولكن آشلي، هل...».

- «لا، لقد أراد أن يقتله ولكني أخبرته أن ذلك من حقي أنا، لأن سالي هي زوجة أخي. وأخيراً اقتنع بحجتي، وذهب معي إلى جونسبورو، كي يكون إلى جانبي في حال تغلّب ويلكرسون عليَّ. على أني أعتقد أن آشلي الرشيد لن يقع في أية ورطة بسبب هذا الحادث، أرجو ذلك. أليس لديك أي فاكهة مطبوخة لتؤكل مع هذا الخبز؟ هل في وسعك أن ترزمي شيئاً لآخذه معي؟».

- «سأزعق إن لم تخبرني بكل شيء».

- «انتظري إلى أن أذهب ثم ازعقي إن كنت مضطرة. سأخبرك بالأمر بينما فرانك يسرج الحصان. لقد سبب ذلك اللعين... ويلكرسون متاعب كثيرة حتى الآن. كانت طريقته في تهييج الزنوج. آه، لو أن أحداً كان قد أخبرني أني سأعيش لأرى اليوم الذي سأبغض فيه الزنوج! لعن الله نفوسهم السوداء. إنهم يصدقون كل ما يحدّثهم به أولئك الأوغاد، وينسون كل شيء فعلناه من أجلهم. ويتحدث الشماليون الآن عن السماح للزنوج بالتصويت، بينما هم لن يدعونا

نصوّت. أجل يوجد بالكاد حفنة من الديمقراطيين في كل ولاية، ممن لن يمنعوا من التصويت، وذلك بعد أن استثنوا منه كل رجل حارب في جيش الحلف. وإن هم منحوا الزنوج حق التصويت، فإن ذلك يعني نهايتنا. ليلعنهم اللّه، إنها ولايتنا نحن! إنها لا تخص الشماليين. واللّه يا سكارلت، إن الوضع لا يمكن أن يُحتمل! وإنه لن يُحتمل! سنفعل شيئاً في الموضوع حتى لو كان ذلك يعني حرباً ثانية. سرعان ما سيصبح لدينا قضاة زنوج ومشترعون زنوج... قرود سوداء خارجة من الغابة...».

- «أرجوك... أسرع، أخبرني! ماذا فعلت؟».

- «أعطيني كسرة أخرى من ذلك الخبز قبل أن ترزميه. أجل، لقد شاع أن ويلكرسون أوغل كثيراً في حملته من أجل مساواة الزنوج. أجل، إنه يتحدث بذلك إلى أولئك الحمقى السود في كل ساعة. لقد كان الحقد يسعره... الـ،...» وجمجم توني حائراً، «ليقول إن الزنوج لهم الحق في... في النساء البيضاوات».

- «ها، توني، لا!».

- «أجل واللّه، أنا لا أستغرب أن تبدي كالمريضة. ولكن يا للجحيم يا سكارلت! لا يمكن أن يكون ذلك نبأ جديداً بالنسبة إليك، فهم ما زالوا يخبرون به الزنوج هنا في أتلانتا».

- «إني... إني لم أعلم به».

- «حسناً، قد يكون فرانك كتمه عنك. وعلى كل حال، لقد أجمع رأينا بعد ذلك على أن نأتي السيد ويلكرسون سراً في الليل وننقضّ عليه. ولكن قبل أن نتمكن من ذلك... أنت تتذكرين ذلك الوغل الأسود، يوستس، الذي كان ناظرنا؟».

- «أجل، إني أتذكره».

- «لقد أتى إلى باب المطبخ هذا اليوم بينما كانت سالي تضع

الغداء، و. . . وأنا لا أعرف الذي قاله لها، وأظن أني لن أعرفه الآن أبداً، غير أنه قال شيئاً وسمعت أنا زعيقها وركضت إلى المطبخ وهناك وجدته: كان مخموراً كعاهرة عازف على الكمان. . . أرجو عفوك يا سكارلت، إنها زلة لسان فقط».

– «استمر».

– «فقتلته. وعندما ركضت أمي لتعتني بسالي، امتطيت حصاني وانطلقت إلى جونسبورو قاصداً ويلكرسون، فهو الذي كان ينبغي أن يلام، لأن الأسود الأحمق اللعين لم يكن ليفكر بارتكاب فعلته أبداً لولا ويلكرسون. وفي الطريق بجانب تارا، التقيت بآشلي، وطبعاً رافقني، وطلب أن أدعه ينفذ المهمة بسبب الطريقة التي تصرف بها ويلكرسون نحو تارا، ولكني رفضت طلبه، لأن ذلك كان من شأني أنا، فسالي هي زوجة أخي الميت. غير أن آشلي رافقني، وكان طول الطريق يحاول إقناعي. وعندما بلغنا البلدة، باللّه يا سكارلت، هل تعرفين أني لم أحضر حتى مسدسي. لقد تركته في الإسطبل، لقد كنت منفعلاً جداً بحيث إني نسيته. . .».

وصمت قليلاً، وقضم الخبز اليابس بينما ارتجفت سكارلت. إن ثورات غضب آل فونتين الدامية هي التي صنعت تاريخ المقاطعة، من قبل أن يفتح هذا الفصل بزمن طويل.

– «وهكذا اضطررت إلى أن أذهب بسكيني إليه. وبعد أن وجدته في الحانة، استدرجته نحو إحدى الزوايا، بينما كان آشلي يشغل انتباه الآخرين. وهناك بلّغته السبب قبل أن أطعنه. أجل، لقد تمت العملية قبل أن أعيها» قال توني وهو يتذكر، «أول شيء وعيته هو أن آشلي أركبني على حصاني، وأخبرني أن آتيكم. إن آشلي رجل مفيد في المآزق. إنه يحتفظ بعقله».

ودخل فرانك وناول توني معطفه الذي كان على ذراعه. لقد كان معطفه الثقيل الوحيد، ولكن سكارلت لم تحتج أبداً فلقد كانت تبدو خارج نطاق هذا الموضوع، هذا الموضوع الذي هو من شأن الرجال وحدهم.

- «ولكن يا توني... إنهم في حاجة إليك في البيت. من الأكيد أنك إذا عدت وشرحت...».

- «فرانك. لقد تزوجت امرأة بلهاء» قال توني بابتسامة خفيفة، وهو يجاهد ليرتدي المعطف، «إنها تفكر أن الشماليين سيكافئون رجلاً لأنه أبعد الزنوج عن حريمه. نعم إنهم يكافئونه بالمثول أمام محكمة عسكرية وبحبل. أعطني قبلة يا سكارلت، فلن يُغضب ذلك فرانك، إذ من المحتمل أن لا أراك ثانية. إن تكساس بعيدة جداً من هنا، ولن أجرؤ على مراسلتكم، ولذلك دعي أهلي يعلمون أني وصلت إلى هنا سالماً».

فسمحت سكارلت بتقبيلها، وخرج الرجلان في المطر المنهمر، ووقفا هنيهة يتحدثان في الشرفة الخلفية، ثم سمعت صوت رشاش مفاجئ انبعث من وقع حوافر، وهكذا ذهب توني، وفتح الباب قليلاً ورأت فرانك يقود حصاناً متعثراً لاهثاً إلى حظيرة العربات ثم أغلقت الباب ثانية، وجلست وركبتاها ترتجفان.

الآن عرفت ماذا كان يعني التجديد، عرفت تماماً كما لو كان البيت محاطاً بمتوحشين عراة، يجلسون القرفصاء بخرق تستر عوراتهم. الآن اندفعت إلى عقلها أمور كثيرة لم تكن قد أعارتها أخيراً إلا قليلاً من الاهتمام: محادثات كانت قد سمعتها ولكنها لم تكن قد أصغت إليها، أحاديث رجال كانت قد قطعت قبل نهاياتها عندما كانت تدخل الغرف، حوادث صغيرة لم تكن قد رأت فيها أي مغزى في ذلك الوقت، تحذيرات فرانك العقيمة لها بأن لا تخرج في عربتها إلى

المعمل بحماية بيتر الضعيف فقط. الآن انسجمت هذه الأمور جميعها معاً في صورة واحدة مروِّعة.

لقد أضحى الزنوج في القمة، وخلفهم حراب الشماليين. لقد كان يمكن أن تُقتل، لقد كان يمكن أن يُغتصب عفافها، وكان من المحتمل أن لا يتخذ أي شيء رداً على ذلك. وأي إنسان ينتقم لها سيعدمه الشماليون، سيعدمونه دون أن يُمنح حق المحاكمة من قبل القاضي والمحلفين. فلقد كان في وسع الضباط الشماليين الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القانون، والذين لم يكونوا يحفلون إلا قليلاً بظروف الجريمة، كان في وسعهم أن يتابعوا إجراءات المحاكمة، ويضعوا حبلاً حول عنق أي جنوبي.

«ماذا نستطيع أن نفعل؟» فكرت وهي تلوي يديها في نوبة شديدة من الخوف العاجز، ماذا نستطيع أن نفعل مع الشياطين الذين يمكن أن يعدموا شاباً جميلاً كتوني فقط لأنه قتل وغلاً مخموراً وسكالاواغاً وغداً، من أجل أن يحمي حريمه؟».

«إنها لا يمكن أن تحتمل!» هكذا صاح توني، وقد كان توني على حق، فإن هذا لا يمكن أن يُحتمل. ولكن ماذا كان في وسعهم أن يفعلوا سوى أن يحتملوه، وهم على هذه الحالة من عدم الحيلة؟ وأغرقت في الارتعاش، وللمرة الأولى في حياتها، رأت الناس والأحداث كشيء منفصل عنها، رأت بوضوح، أن سكارلت أوهارا المذعورة العاجزة، لم تكن هي كل ما يهم في القضية، فلقد كان هناك الألوف من النساء مثلها في جميع أنحاء الجنوب، كن مذعورات عاجزات، ولقد كان هناك أيضاً الألوف من الرجال الذين كانوا قد ألقوا سلاحهم في أبوماتوكس ثم امتشقوه ثانية ووقفوا على استعداد ليخاطروا بأعناقهم إثر إشارة عاجلة، ليحموا أولئك النسوة.

لقد كان هناك شيء في وجه توني، شيء انعكس في وجه فرانك،

تعبير كانت قد رأته مؤخراً في وجوه رجال آخرين في أتلانتا، ظاهرة كانت قد لحظتها، ولكنها لم تكن قد أتعبت نفسها في تحليلها. لقد كان تعبيراً يختلف اختلافاً تاماً عن البؤس المرهق الذي كانت قد رأته في وجوه الرجال العائدين من الحرب بعد الاستسلام، إذ لم يكن أولئك الرجال يعبأون بشيء سوى بلوغ بيوتهم، بينما كانوا الآن يعبأون بقضية أخرى. لقد كانت أعصابهم المخدرة تعود إلى الحياة، وروحهم القديمة تستأنف اشتعالها. لقد كان الهم يسيطر عليهم ثانية بمرارة باردة عديمة الرحمة. وكتوني، كانوا يفكرون في أن «هذا لا يمكن أن يُحتمل».

كانت سكارلت قد رأت رجالاً جنوبيين ناعمي الصوت خطرين في أيام ما قبل الحرب، مقاديم صلاباً في أيام القتال الأخيرة الموئسة، ولكنها رأت في وجهي الرجلين اللذين راحا يحدقان ببعضهما من فوق الشمعة، منذ فترة قصيرة جداً، شيئاً يختلف عما كانت قد رأت سابقاً، شيئاً قوّى من جأشها ولكنه أرعبها... غضباً لا يجد كلمات تعبّر عنه، وتصميماً لا يثنيه عن هدفه شيء.

وللمرة الأولى، أحست سكارلت بقرابة للناس الذين كانوا حولها، أحست أنها واحدة منهم، في مخاوفهم وفي مرارتهم وفي تصميمهم. لا، لا يمكن أن يحتمل، لقد كان الجنوب مكاناً بديعاً جداً بحيث لا ينبغي تركه يضيع من دون كفاح، مكاناً محبوباً جداً بحيث لا ينبغي أن يداس بجزمات الشماليين الذين كانوا يبغضون الجنوبيين كثيراً، إلى حد أنهم كانوا يبتهجون بسحقهم في الدمن. كان وطناً عزيزاً جداً بحيث لا يجوز أن ينقلب إلى مأوى للزنوج الجهلة، المخمورين بالويسكي والحرية.

وعندما فكرت سكارلت في قدوم توني الفجائي، وذهابه السريع، أحست أنها قريبة له، لأنها تذكرت القصة القديمة، قصة والدها الذي

كان قد غادر إيرلندا، غادرها بسرعة الليل، إثر جريمة قتل لم تكن جريمة في نظره، أو في نظر عائلته. لقد كان دم جيرالد، دمه العنيف، يجري في عروقها، وتذكرت فرحها الحار عندما قتلت الشمالي النهاب. لقد كان الدم العنيف، فيهم جميعاً، قريباً إلى السطح بصورة خطيرة، كان يكمن تماماً تحت مظاهره الخارجية المهذبة الرقيقة، جميعهم، جميع الرجال الذين كانت تكمن فيهم روح الفتك، عنيفين إذا ما دعا الداعي. وحتى ريت، رغم كونه رجلاً محتالاً بلا ضمير، كان قد قتل زنجياً لأنه «تواقح مع سيدة».

وعندما أطل فرانك وهو يسعل وينقط بماء المطر، وثبت سكارلت على قدميها، وقالت:

- «ها فرانك! إلى متى سيظل الحال على هذا المنوال؟».

- «ما دام الشماليون يبغضوننا إلى هذه الدرجة يا حلوتي».

- «ألا يستطيع أحد عمل شيء بهذا الصدد؟».

فمرر فرنك يداً تعبة على لحيته المبللة وقال:

- «إننا نعمل أشياء».

- «ماذا؟».

- «لماذا نتحدث عنها قبل أن ننجز منها شيئاً؟ قد يستغرق الأمر سنين، وربما بقي الجنوب أبداً على هذه الحال».

- «آه، لا».

- «حلوتي، هلمي إلى السرير. لا بد أنك مبتردة، فها إنك ترتجفين».

- «ومتى سينتهي كل شيء؟».

- «عندما نستطيع أن نصوت ثانية يا حلوتي، عندما يستطيع كل رجل حارب من أجل الجنوب أن يضع ورقة اقتراع في الصندوق لينتخب جنوبياً أو ديمقراطياً».

- «ورقة اقتراع؟» صاحت بخيبة، «أي فائدة للاقتراع عندما يكون الزنوج قد فقدوا عقولهم... وعندما يكون الشماليون قد سمَّموهم ضدنا؟».

فاستمر فرانك يشرح لها الأمر بأسلوبه الصبور، ولكن الفكرة أن الاقتراع كان يمكن أن يحل المشكلة، كانت أعقد من أن تستطيع إدراكها. وكانت تفكر شاكرة أن جوناس ويلكرسون لن يستطيع تهديد تارا بعد اليوم، كما كانت تفكر في توني أيضاً:

- «آه، يا للفونتينيين التعساء!» صاحت، «لقد بقي ألِكس فقط بينما هناك عمل كثير جداً يتطلب إنجازاً في ميموسا. لماذا لم يكن لدى توني من الإدراك ما يجعله... يجعله يقوم بفعلته في الليل، حيث لا أحد كان سيعرف الفاعل؟ كان أفضل له لو أنه ساعد في حراثة الربيع، من أن يكون في تكساس».

وطوقها فرانك بذراعه. وكان يفعل ذلك عادة بحذر كأنه كان يتوقع أن يردع بجزع، غير أن عينيه في هذه الليلة كانت تتخللهما نظرة بعيدة، وكانت ذراعه قوية حول خصرها.

- «هناك أمور أكثر أهمية الآن من الحراثة يا حلوتي، فإفزاع الزنوج وإعطاء السكالاواغز درساً، هو أحد هذه الأمور. وما دام على قيد الحياة شبان مخلصون كتوني، فإني أظن أننا لسنا في حاجة إلى أن نقلق على الجنوب كثيراً. هلمي إلى السرير».

- «ولكن يا فرانك...».

- «إذا نحن تعاضدنا فقط، ولم نعطِ الشماليين أي شيء مهما كان قليلاً، فإننا سننتصر يوماً ما. لا تزعجي رأسك الجميل بهذه القضية يا حلوتي، ودعي رجال وطنك يقلقون من أجلها. ربما لن تأتي النتيجة في زماننا، ولكنها ستأتي يوماً ما حتماً. ستعجز الشماليين مضايقتهم

لنا عندما يرون أن ليس في وسعهم التأثير فينا، وعندئذ سننعم بدنيا محترمة نعيش فيها ونربي أولادنا».

وفكرت سكارلت في ويد، وفي السر الذي كانت قد كتمته منذ بضعة أيام. لا، إنها لم تكن ترغب في أن يترعرع أطفالها في هذه الحمأة من الكراهية والريبة، هذه الحمأة من المرارة والقسوة التي كانت تكمن تحت السطح تماماً، الحماة من العوز والمحن الساحقة، والقلق. إنها لم ترد يوماً أن يعرف أطفالها نظير هذا البؤس. كانت تريد حياة آمنة منظمة تستطيع فيها أن تتطلع إلى الأمام وتعرف أن هناك مستقبلاً آمناً ينتظرهم، حياة يعرف فيها أطفالها طراوة العيش والدفء والملابس الجيدة والطعام الطيب وحسب.

لقد كان فرانك يعتقد أن هذا يمكن بلوغه عن طريق التصويت. التصويت؟ وما أهمية الأصوات ما دام كرام الناس في الجنوب لن يظفروا بأغلبية الأصوات ثانية؟! لقد كان يوجد في الحياة شيء واحد فقط، شيء كان متراساً أكيداً ضد أي كارثة يمكن أن يجلبها القدر، وذلك الشيء هو المال. وفكرت محمومة في أن عليهم أن يجمعوا مقادير وفيرة من المال لتحفظهم من الكوارث.

وفجأة أخبرته أنها سترزق طفلاً.

* * *

ظل بيت العمة بيتي طوال أسابيع خلت بعد فرار توني عرضة لتفتيش متكرر من قبل جماعات من الجنود الشماليين، كانوا يغيرون على البيت في كل الساعات، ومن دون سابق إنذار، يحتشدون داخل الغرف، يسألون أسئلة، ويفتحون مخادع النوم وينخسون زنابيل الثياب، ويحدقون تحت الأسرَّة. ذلك لأن السلطات العسكرية كانت قد سمعت أن توني نُصح بالذهاب إلى بيت العمة بيتي، وكانت واثقة بأنه ما زال مختبئاً هناك أو في مكان آخر مجاور.

وكنتيجة لذلك، ترددت العمة بيتي بصورة دائمة في ما دعاه العم بيتر «حالة عصبية»، فلم تكن تعرف أبداً متى كان يمكن أن تداهم غرفة نومها من قبل ضابط وجماعة من الرجال. ولم يكن فرانك أو سكارلت قد ذكرا أمامها نبأ زيارة توني القصيرة، وهكذا لم يكن في وسع السيدة العجوز أن تفضح شيئاً، حتى ولو كانت ترغب في ذلك. لقد كانت صادقة تماماً في احتجاجاتها المضطربة من أنها لم تكن قد رأت توني فونتين إلا مرة واحدة في حياتها، وذلك في عيد الميلاد من عام 1862.

وكانت تضيف إلى الجنود الشماليين قولها وهي تلهث: «وقد كان مخبولاً تماماً آنئذ»، وذلك محاولة منها في أن تكون ذا نفع لهم.

أما سكارلت التي كانت مريضة بائسة في مرحلة الحمل الباكرة، فقد كانت تتقلب بين كراهية شديدة للجنود الشماليين الذين كانوا يغيرون على خدرها ويحملون معهم غالباً أي سلعة صغيرة تروقهم، وبين خوف بالغ يعادل تلك الكراهية، خوف من أن يكون توني سبب وبالهم جميعاً. لقد كانت السجون ملأى بالناس الذين كانوا قد قُبض عليهم لأسباب أقل قيمة من هذا الأمر بكثير، ولذا كانت سكارلت تدرك أنه إذا ثبتت ضدهم ذرة من الحقيقة فلن تذهب هي وفرانك فقط إلى السجن، بل بيتي البريئة أيضاً.

وخلال فترة من الوقت، ارتفعت في واشنطن دعوة لمصادرة جميع أملاك الثوار، وذلك لتسديد ديون الحرب للولايات المتحدة، وقد أبقت هذه الدعوة سكارلت في حالة من الخوف المغم. والآن، بالإضافة إلى هذا، كانت أتلانتا تزخر بالإشاعات المروِّعة عن مصادرة أملاك المخالفين للقانون العسكري، وارتاعت سكارلت خوفاً من أن تفقد هي وفرانك، ليس حريتهما فقط بل البيت والمخزن والمعمل أيضاً. وحتى إذا لم تضع السلطات العسكرية يدها على ممتلكاتها، فإن

دخولها السجن سيكون بمثابة خسارة هذه الممتلكات، لأنه من كان سيعتني بأعمالها أثناء غيابهما؟

وشعرت سكارلت بالكراهية نحو توني لأنه أنزل بهم مصيبة كهذه. كيف وسعه أن يفعل أمراً كهذا بأصدقائه؟ وكيف وسع آشلي أن يرسله إليهم؟ لن تقدم عوناً بعد اليوم لأي إنسان، إذا كان ذلك سيعني انقضاض الشماليين عليها كسرب من الدبابير. لا، ستوصد الباب في وجه أي إنسان يحتاج إلى مساعدة، طبعاً باستثناء آشلي. لقد ظلت طوال أسابيع، بعد زيارة توني القصيرة، تستيقظ من أحلامها المزعجة، خشية أن يكون القادم هو آشلي، في محاولة للهرب إلى تكساس، لأنه كان قد ساعد توني، ولم تكن سكارلت تعرف كيف كانت الأمور تسير معه لأنهم لم يجرؤوا على الكتابة إلى تارا عن زيارة توني في منتصف الليل، فقد كان يمكن أن تضبط رسائلهم من قبل الشماليين، وعندئذ تنزل المتاعب بتارا أيضاً. ولكن عندما انقضت الأسابيع تباعاً، ولم يسمعوا بأي نبأ سيّئ، أدركوا أن آشلي قد نجا بطريقة ما. وهكذا كف الشماليون عن إزعاجهم في آخر الأمر.

ولكن حتى هذا الفرج، لم يحرر سكارلت من حالة الرعب التي بدأت تنتابها منذ جاء توني يقرع باب بيتهم، رعب كان أسوأ من الخوف المزلزل الذي كانت تبعثه قنابل الحصار، أسوأ حتى من الهول الذي كان يبعثه رجال شيرمان أثناء الأيام الأخيرة من الحرب، فكان ظهور توني في تلك الليلة البهيمة الماطرة كان قد نزع الأغشية الرحيمة عن عينيها وأرغمها على أن ترى قلق حياتها الحقيقي.

وتطلعت سكارلت حولها في ذلك الربيع البارد من عام 1866، فأدركت ما كان يواجهها وكل الجنوب. لقد كان في إمكانها أن ترسم وتخطط، وكان في إمكانها أن تعمل أشق مما كان يعمل عبيدها، وكان يمكن أن تنجح في التغلب على كل مصاعبها، وكان يمكن بزخم من

العزم أن تحل مشاكلها التي لم تكن حياتها الأولى قد دربتها عليها قط. ولكن رغم كل عملها وتضحيتها ودهائها، كان يمكن أن تنتزع منها في كل دقيقة مبادئ مشاريعها الصغيرة، التي تكون قد كلفتها آنذاك ثمناً باهظاً جداً. وإذا ما حدث هذا، فلن يكون لها أي حق شرعي أو تعويض قانوني يتعدى المحاكم العسكرية ذاتها التي كان توني قد تحدث عنها بمرارة قاسية، تلك المحاكم العسكرية ذات السلطة التعسفية، والتي رؤوس أعضائها كالطبول. فلقد كان الزنوج وحدهم فقط يتمتعون بالحقوق والتعويض هذه الأيام. لقد كان الجنوب منطرحاً على وجهه تحت أقدام الشماليين الذين كانوا عازمين على إبقائه على هذه الحالة. كان مترنحاً كأنه في قبضة عملاق حقود، بحيث أضحى هؤلاء الذين كانوا يحكمون فيما مضى، أعجز الآن مما كان عليه عبيدهم السابقون في أي وقت.

كانت جورجيا تعجّ بالحاميات العسكرية، الحاميات التي نالت أتلانتا منها أكثر من نصيبها. وكان آمرو الفرق الشمالية في المدن المختلفة يتمتعون بصلاحيات تامة، حتى بصلاحية الحكم بالحياة أو الموت على المدنيين، تلك الصلاحية التي مارسوها فعلاً. لقد كان في وسعهم أن يسجنوا المدنيين لأي سبب، ومن دون سبب، وأن يصادروا ممتلكاتهم ويعدموهم. كان في وسعهم، وهذا ما نفذوه، أن يضايقوا ويعرقلوا شؤون الأهلين بأنظمة متناقضة تتعلق بإدارة أعمالهم، بالأجور التي يجب عليهم دفعها لخدمهم، وبما يبنغي عليهم أن يقولوا في تصريحاتهم العامة والخاصة، وما يجب أن يكتبوا في صحفهم. وكذلك حددوا كيف ومتى وأين يجب أن يفرغ المواطنون النفايات وأقروا الأغاني التي تستطيع إنشادها بنات وزوجات الحلفيين السابقين، بحيث أصبح إنشاد أغنيتي «دكسي» و«العلم الأزرق الجميل» جريمة لا تقل في خطورتها عن الخيانة العظمى إلا قليلاً. كما أنهم

أصدروا أمراً بأن ليس في وسع أحد أن يتسلَّم رسالة من مكتب البريد دون أن يقسم «القَسَم الصارم[1]» وفي بعض الحالات، كانوا يمنعون حتى إصدار رخص الزواج ما لم يقسم الزوجان ذلك القسم البغيض.

كانت الصحف مكمَّمة الأفواه تماماً بحيث لم يكن في المستطاع أن يرتفع احتجاج شعبي ضد ظلم العسكريين واغتصابهم. أما الاحتجاجات الفردية فقد كانت تُخمد بأحكام السجن. وكانت السجون مليئة بالمدنيين البارزين الذين كانوا يقبعون فيها من دون أمل في محاكمة سريعة، فقد أوقفت عملياً المحاكمات التي تعتمد على المحلفين، كما أوقف قانون القاضي بدعوة المتهم للقضاء. أما المحاكم المدنية فكانت لا تزال تقوم بعملها في نطاق محدود، ولكنها كانت تقوم بذلك حسب مشيئة العسكريين الذين كان في وسعهم أن يتدخلوا بقراراتها، وهذا ما كانوا يقومون به بالفعل. وهكذا كان المدنيون الذين كان يسوقهم سوء طالعهم إلى أن يزجوا في السجن، تحت رحمة السلطات العسكرية عملياً. وما كان أكثر الذين زجوا في السجن، فإن مجرد الشك في تصريحات تدعو إلى التمرد على الحكومة، أو الارتياب بالاشتراك في جمعية كوكلوكس كلان، أو شكوى من زنجي بأن رجلاً أبيض قد تعجرف عليه، كل هذه الأمور كانت كافية لتوصل المواطن إلى السجن. ولم تكن هناك حاجة إلى الإثبات أو الشهادة، فالتهمة كانت كافية. وقد كان من الممكن دائماً إيجاد الزنوج الذين يرضون بتقديم التهم بسبب أعمال التحريض التي كانت تقوم بها هيئة التحرير.

لم يكن الزنوج قد مُنحوا حق التصويت بعد، ولكن الشمال كان مصمماً على وجوب منحهم هذا الحق، كما كان مصمماً أيضاً على أن

---

(1) قَسَم الولاء لحكومة الاتحاد الشمالية - (المترجمان).

تكون أصواتهم لمصلحته. وبإدراكهم هذه الحقيقة، لم يعد هناك شيء مُرضٍ في نظرهم. لقد كان الجنود الشماليون يدعمونهم في أي عمل يشاؤون الإقدام عليه، ولذا غدا أضمن طريق لأن يوقع الرجل الأبيض نفسه في مآزق هو في أن يتقدم بشكوى من أي نوع ضد أحد الزنوج.

لقد أضحى من كانوا عبيداً أسياد الناس الآن، وبمساعدة الشماليين ارتفع أحطهم وأجهلهم إلى القمة، بينما كانت الطبقة الفضلى منهم، التي ازدرت الحرية، تعاني بمرارة، كأسيادهم البيض، وقد ظل ألوف من خدم البيوت، وهم أرفع طبقة بين الزنوج، ظلوا مع أسيادهم البيض يقومون بالأعمال اليدوية التي كانت دون مكانتهم في الأيام القديمة. وكذلك رفض كثيرون من عمال الحقول المخلصين لأسيادهم أن يستفيدوا من الحرية الجديدة، إلا أن جماعات «الزنوج الحقيرين المتحررين» التي كانت تثير معظم المشاكل كانت في معظمها طبقة عمال الحقول هذه.

في أيام العبودية، كان هؤلاء السود المنحطون محتقرين من قبل الزنوج البيتيين وزنوج الحظائر، باعتبارهم مخلوقات قليلة القيمة، وتماماً كما كانت إيلين قد فعلت، كانت سيدات المزارع الأخريات، في أنحاء الجنوب، قد وضعن الزنوج الصغار في دورات تدريبية يستبعدن خلالها بعضهم وينتقين أفضلهم لإشغال المراكز ذات المسؤوليات الكبيرة. وكان الذين يُرسلون إلى الحقل منهم، هم أقل الجميع مقدرة على التعلم وأقلهم نشاطاً وأمانة واستقامة، وأكثرهم شراً وهمجية. هذه الطبقة، التي هي أحط الطبقات في نظام الزنوج الاجتماعي، كانت تجعل الآن من حياة الجنوب بؤساً.

وبمؤازرة المغامرين غير المحتسبين الذين كانوا ينفذون قانون التحرير، وبتحريض من حمى كراهية شمالية كادت تشبه التعصب الديني، وجد عمال الحقول السابقون أنفسهم فجأة يرتفعون إلى

مناصب القوة، حيث كانوا يتصرفون كما يمكن أن يتوقع من أناس يفتقرون إلى العقل. لقد أفلتوا كالقردة وكالأولاد الصغار بين أشياء مدخرة قيمتها أبعد من أن يدركوها، لقد تصرفوا بوحشية. . . إما بدافع سرورهم اللئيم في التدمير أو بدافع جهلهم.

ومما يشرف الزنوج، بمن فيهم أقلهم ذكاء، أن القليل منهم كان يدفعه الحقد. وهذه القلة كانت من «الزنوج المنحطين» حتى في أيام العبيد، ولكنهم كانوا، كطبقة، أطفالاً في عقولهم، سهلي القياد معتادين منذ القديم على تلقّي الأوامر. لقد كانت الأوامر في السابق تصدر إليهم عن أسيادهم البيض، بينما صارت لهم الآن مجموعة جديدة من الأسياد، ممثلة في هيئة التحرير وفي الكاربت بكرز، الذين كانت أوامرهم الآن تتمثل في القول الآتي: «إنك إنسان صالح كالرجل الأبيض، ولذلك تصرف على هذا الأساس. وحالما يصير في وسعك أن تقترع للديمقراطيين، ستحوز على ملكية الرجل الأبيض. إنها بمثابة ملكك الآن فخذها إن كنت تستطيع الظفر بها».

وإذ بهروا بهذه الروايات، أصبحت الحرية في نظرهم نزهة مستمرة لا نهاية لها أبداً، أصبحت حفلة باربكيو في كل يوم من أيام الأسبوع، مهرجاناً من الخمول واللصوصية والوقاحة. وتدفق زنوج الريف إلى المدن، تاركين المقاطعات الريفية من دون مَن ينتج الغلال. وازدحمت بهم أتلانتا، وما زالوا يفدون إليها بالمئات، كسالى خطرين، كنتيجة للمبادئ الجديدة التي لقنوها، فحشروا أنفسهم في الغرف القذرة، وانتشر الجدري والتيفوئيد والسل بينهم. ونظراً إلى أنهم كانوا معتادين على عناية سيداتهم بهم أثناء المرض في أيام العبودية، فإنهم لم يعرفوا كيف يمرضون أنفسهم أو مرضاهم. ونظراً إلى أنهم كانو يعتمدون على أسيادهم للعناية بعجائزهم وأطفالهم، لم يكن عندهم الآن أي شعور بالمسؤولية حيال ضعفائهم. أما هيئة التحرير فقد كانت منهمكة في

المسائل السياسية، بحيث لم يسعها تأمين العناية التي كان أصحاب المزارع يقدمونها لهم في الماضي.

كان الأطفال الزنوج السائبون يجرون كالحيوانات المذعورة في أنحاء المدينة حتى يأخذهم بعض البيض الرحماء، ليربوهم في مطابخهم، وكان زنوج الريف المسنون المهجورون من قبل أولادهم، والحائرون الفزعون في المدينة الصاخبة، يجلسون على الأرصفة ويصيحون للسيدات اللواتي كن يمررن بهم: «أيتها السيدة، أرجوك أيتها السيدة، اكتبي إلى سيدي القديم في مقاطعة فاييت، أني موجود هنا، وعندئذ سيأتي ويعيد هذا الزنجي العجوز إلى بيته. باللّه عليك، فأنا لم أستفد شيئاً من هذه الحرية».

وفي وقت متأخر جداً، أدركت هيئة التحرير، وقد أذهلتها الجموع الزنجية الفقيرة التي كانت تتدفق عليها، أدركت جزءاً من خطئها، وحاولت أن تعيدهم إلى أسيادهم السابقين. وأخبر رجالها الزنوج أنهم إذا رغبوا في العودة، فسيعودون كعمال أحرار تحميهم العقود المسجلة التي تحدِّد الأجور اليومية. وهكذا عاد الزنوج المسنون إلى مزارعهم سعداء، ليضحوا عبئاً أثقل مما كانوا في الماضي على المزارعين المعدمين الذين لم يكونوا يمكلون الشجاعة لطردهم. أما الزنوج الشبان فقد بقوا في أتلانتا، رافضين أن يكونوا عمالاً من أي نوع، وفي أي مكان. ولماذا يشتغلون ومعدهم متخمة؟

لقد استطاع الزنوج، لأول مرة في حياتهم، أن ينعموا بأي كمية من الويسكي يطلبونها، الويسكي الذي كان في أيام العبودية مشروباً لا يذوقونه أبداً إلا في عيد الميلاد، حيث كان كل منهم يتسلم «قطرة» منه مع منحته. وهكذا لم يعد محرِّضو هيئة التحرير والكاربت بكرز هم الذين يهيِّجون الزنوج فقط، بل كان هناك تهييج الويسكي أيضاً، الأمر الذي جعل انتهاك الحرمات أمراً لا مناص منه. ولم تكن الأرواح أو

الأملاك في مأمن منهم، واستولى الفزع على السكان البيض الذين تخلى القانون عنهم، فكان رجالهم يهانون وسط الشوارع، من قبل السود المخمورين. وكانت الجرائم من كل نوع، تُقترف، فلا يساق إلى العدالة إلا قليل من الآثمين.

بيد أن هذه الفضائح والأخطار لم تكن شيئاً إذا قيست بالخطر الذي كان يتهدد النساء البيض ممن كن يعشن وحيدات في المقاطعات البعيدة وعلى جوانب الطرق المنعزلة، وقد عدمت الكثيرات منهن حماية الرجال بسبب الحرب. وكانت حوادث انتهاك الأعراض الكثيرة والخوف الدائم على سلامة الزوجات والبنات، هما السببين اللذين دفعا الجنوبيين إلى السخط الحاد الدفين، وإلى ظهور جماعة الكوكلوكس كلان في الليل، وضد هذه المنظمة الليلية راحت جرائد الشمال ترفع أصواتها عالياً جداً، دون أن تدرك الضرورة المؤلمة التي بعثتها إلى الوجود. وطالب الشماليون باعتقال أعضاء الكوكلوكس كلان وإعدامهم لأنهم تجرؤوا على أن يأخذوا على عاتقهم أمر المعاقبة على الجرائم في وقت كانت إجراءات القانون والنظام العادية معطلة فيه من قبل الغزاة.

هنا في الجنوب كان يمثل المشهد المثير، مشهد نصف أمة تحاول أن تفرض على نصفها الآخر، برؤوس الحراب، حكم الزنوج الذين لم يكن قد مضى على خروج الكثيرين منهم من أدغال أفريقيا إلا جيل واحد أو أقل قليلاً. لقد أضحى من الواجب منحهم حق التصويت في وقت ينبغي فيه إنكار هذا الحق على معظم أسيادهم السابقين، بل كان ينبغي إبقاء الجنوب خاضعاً، وسلب البيض حريتهم كان إحدى الوسائل لتحقيق ذلك الغرض. فمعظم أولئك الذين كانوا قد حاربوا في سبيل الحلف، أو تقلدوا الوظائف في ظله، أو قدموا له مساعدة، أو رفهوا عنه، لم يكن يُسمح لهم بالتصويت أو بانتخاب موظفيهم

العموميين، وإنما كانوا كلية تحت سلطة حكم أجنبي. لقد رغب كثير من الرجال، بعد أن فكروا بتعقل في كلمات الجنرال لي وأمثاله، في أن يقسموا يمين الولاء ويصبحوا مواطنين ثانية، وينسوا الماضي. ولكن لم يسمح لهم بأداء اليمين، بينما رفض آخرون بشدة، ممن سُمح لهم بأدائها، أن يقدموا على ذلك العمل مترفعين عن أن يقسموا يمين الولاء لحكومة كانت تخضعهم عمداً للقسوة، للمذلة والظلم.

وسمعت سكارلت الناس مراراً وهم يكررون إلى حد الإزعاج عبارة: «كنت سأؤدي قسمهم اللعين بعد الاستسلام لو أنهم تصرفوا بتعقل! يمكن أن أرجع إلى حظيرة الاتحاد، لكن واللّه لا يمكن أن أجدد بواسطتها».

خلال هذه الأيام والليالي القلقة، كانت سكارلت تتمزق من الخوف، فالتهديد الدائم الذي كان يوجده الزنوج والجنود الشماليون العابثون بالقانون، كان ينهش عقلها، وخطر المصادرة كان يلازمها دائماً حتى في أحلامها، كما كانت تفزع من أن تنزل بها أهوال أشد نكراً. ولم يكن من الغريب، وقد غمّها عجزها وعجز أصدقائها، أن تتذكر مراراً خلال هذه الأيام، تلك الكلمات التي كان توني فونتين قد تفوَّه بها بمرارة بالغة: «واللّه يا سكارلت، إنها لا تُحتمل، ولن تُحتمل».

* * *

أصبحت أتلانتا ثانية، رغم الحرب والحريق وعهد التجديد، مدينة زاخرة بالنشاط، تشابه من عدّة نواحٍ المدينة الفتية المزدحمة التي كانت مزدهرة أيام الحلف الأولى. وكان الفرق المؤلم الوحيد ينحصر في أن الجنود المحتشدين في الشوارع كانوا يرتدون بزز العدو، وأن النقود كانت بغير أيدي أصحابها الشرعيين، وأن الزنوج كانوا يعيشون في فراغ ودعة، بينما كان أسيادهم السابقون يكدحون ويتضورون جوعاً.

كان البؤس والخوف يكمنان مستترين، فجميع مظاهر المدينة الخارجية كانت تنبئ بأنها مدينة نامية، تنهض بسرعة فائقة من وسط الخراب، مدينة صاخبة مسرعة. وبدا كأن أتلانتا كان لا بد لها أن تسرع دائماً مهما يمكن أن تكون ظروفها، بينما لم تكن كل من سافانا وشارلستون وأوغستا ونيو أورليانز لتسرع أبداً، فلقد كانت السرعة من علائم سوء التربية والإشمال[1]. بيد أن أتلانتا في هذه الحقبة، كانت أسوأ تربية وأكثر اقتداء بالشمال مما كانت في أي وقت مضى، أو مما يمكن أن تكون في المستقبل، فبـ«الناس الجدد» الذين احتشدوا فيها من جميع الجهات غصت الشوارع، وضجت من الصباح حتى الليل. وكانت العربات البراقة التي تخص زوجات الضباط الشماليين والكاربت بكرز الحديثي النعمة تنثر الوحل على عربات سكان المدينة الخرعة. بينما تجمعت البيوت الجديدة المزخرفة للغرباء الأثرياء بين المساكن الكئيبة للمواطنين القدماء.

كانت الحرب قد أكدت أهمية أتلانتا في شؤون الجنوب بصورة جازمة، وبهذا أصبحت المدينة التي كانت مغمورة قبل الآن واسعة الشهرة بعيدتها. وغدت السكك الحديد التي حارب شيرمان من أجلها طوال صيف كامل، وقُتل آلاف الرجال، تُنعش حياة المدينة مرة ثانية، المدينة التي كانت السكك ذاتها قد أخرجتها إلى الوجود. فقط أضحت ثانية مركز الأعمال لمنطقة واسعة، كما كانت قبل دمارها، وغدت تستقبل تياراً دافقاً من المواطنين الجدد من أخيار وأشرار.

واتخذ الكاربت بكرز الغزاة أتلانتا مركزاً لقيادتهم. وفي شوارعها كانوا يتدافعون بالمناكب مع أفراد أقدم العائلات في الحنوب، الذي كانوا أيضاً من القادمين الجدد. وكذلك جاءت لتعيش في أتلانتا،

(1) الاصطباغ بالصبغة الشمالية - (المترجمان).

عائلات من الأقاليم الريفية التي كانت الحرائق قد شردتها من بيوتها أثناء زحف شيرمان، والتي لم يعد في وسعها أن تعيل نفسها من دون العبيد لحراثة أرض القطن. وفي كل يوم، كان يدخل المدينة مستوطنون جدد قادمين من تنيسي وكارولاينا الشمالية والجنوبية حيث كانت يد التجديد أقسى حتى مما كانت عليه في جورجيا. كما أن الكثيرين من الإيرلنديين والألمان الذين كانوا متطوعين في جيش الاتحاد استقروا في أتلانتا بعد تسريحهم. وقدم أيضاً إلى المدينة، ليزيد في تضخم عدد سكانها، زوجات وعائلات حامية الشماليين، اللواتي كنّ يملأهن الفضول عن الجنوب، بعد أربع سنوات من الحرب. وكذلك توافد عليها حشود المغامرين من كل نوع يحدوهم الأمل في الثراء، بينما استمر زنوج الريف يفدون إليها بالمئات.

كانت المدينة صاخبة، وهي مشرعة الأبواب كقرية على الحدود، لا تبذل أي جهد لستر معايبها وآثامها، فقط كانت الصالات تتلألأ طوال الليل، صالتان وأحياناً ثلاث في الحي الواحد، وبعد أن كان الليل يسدل ستائره، كانت الشوارع تمتلئ بالرجال السكارى من السود والبيض، يترنحون جيئة وذهاباً بين الجدران والحواجز. وكان القتلة والنشالون والعاهرات يقبعون في المنعطفات المظلمة والشوارع المعتمة، وكانت بيوت القمار تعج بالناس وقلَّ أن مرَّت عليها ليلة من دون حوادث قتل أو مشاجرات جارحة. وشين أفاضل المواطنين عندما وجدوا أن أتلانتا أصبحت تضم منطقة نامية تشعشع فيها الأضواء الحمراء، منطقة أكبر وأسرع نماء مما كانت عليه خلال الحرب. وطوال الليل كانت البيانوات تعزف من خلف الستائر المسدلة، والأغاني المعربدة وأصوات الضحك تنساب إلى الخارج، تتخللها من وقت إلى آخر الصيحات وطلقات المسدسات. وكانت نزيلات هذه البيوت أوقح من عاهرات أيام الحرب، يمددن رؤوسهن من النوافذ

بوقاحة، وينادين المارة. وبعد أظهار أيام الآحاد، كانت العربات الجميلة المغلقة التي تخص مديرات هذه البيوت، تدرج في الشوارع الرئيسة، مملوءة بالبنات في أجمل حللهن، يتنسمن الهواء من خلف ستائر حريرية مسدلة.

كانت بيل وتلينغ أوسع مديرات البيوت شهرة زرية. وكانت قد فتحت بيتاً جديداً لها يتألف من بناية ذات طابقين جعلت المنازل المجاورة في المنطقة تبدو أمامها كأوكار الأرانب. كانت هناك في الطابق السفلي حانة، مزوَّقة بمهارة بالرسوم الزيتية، وكانت فرقة أوركسترا زنجية تعزف في كل ليلة. أما الطابق العلوي، فقد روت الإشاعات أنه كان مجهزاً بأفخم المفروشات الموبرة، وبالسجف الثقيلة المزركشة، وبالمرايا ذات الأطر الذهبية المستوردة من الخارج. وكانت الاثنتا عشرة شابة اللواتي زُوِّد البيت بهن، جميلات عندما يتبهرجن بالطلاء الزاهي، وكنّ يتصرفن باتزان أكثر مما كان يبدو عند أولئك اللواتي كن يقمن في البيوت الأخرى، وعلى الأقل، نادراً ما استُدعي رجال الشرطة إلى بيت بيل.

وكان هذا البيت موضوعاً تتهامس حوله خلسة سيدات أتلانتا المتزوجات، ويعظ القساوسة بعبارات متحفظة لتجنبه، لأن كان بمثابة بالوعة من الإثم والاشمئزاز والعار. وأدرك الجميع أن امرأة على نمط بيل لم يكن في وسعها أن تجمع وحدها نقوداً تكفي لتشييد هذه المؤسسة المترفة، فكان لا بد لها إذن من ظهير ورجل غني يدعمها. ولم يكن ريت باتلر يتمتع أبداً بالحشمة بحيث يخفي علاقاته معها، ولذا كان من الجلي أنه هو الذي لا بد أن يكون ظهيرها، وليس أي إنسان آخر. وكانت بيل نفسها تبدو بمظهر فاخر، عندما كانت ترى بين آونة وأخرى داخل عربتها المغلقة التي كان يسوقها زنجي وقح أصفر اللون، فعندما كانت تمر في عربتها، خلف حصانين كميتين بديعين،

كان جميع الصبيان في الشارع ممن كان في وسعهم تجنب أمهاتهم، يركضون لينظروا إليها وليهمسوا منفعلين: «ها هي! ها هي بيل العجوز! لقد رأيت شعرها الأحمر!».

وإلى جانب البيوت التي ثقبتها القنابل فغدت مرقعة بقطع من الخشب القديم وبآجر سوَّده الدخان، كانت ترتفع البيوت الجديدة لأثرياء الحرب والكاربت بكرز، بسطوح مزواة على طراز مانسارد[1] وبسطوح هرمية وبأبراج، وبنوافذ ذات زجاج ملون، وبمرجات خضراء واسعة. وفي كل ليلة، كانت نوافذ هذه البيوت المبنية حديثاً تشع بأنوار الغاز وينساب منها في الهواء صوت الموسيقى وحفيف الأقدام الراقصة. وكانت النساء المرتديات الثياب المصنوعة من الحرير المنشى الزاهي، يتجولن في الشرفات الطويلة، برفقة رجال في ثياب المساء، وبينما كانت سدادات زجاجات الشمبانيا تقرقع أثناء فتحها، كان طعام العشاء المؤلف من سبعة أصناف يوضع فوق شراشف الموائد المزركشة: لحم خنزير مملح منقوع بالنبيذ، بط معصور، لحم كبد بدين، فواكة نادرة، في موسمها وفي غير موسمها، كل هذا كان يُنشر في وفرة وإسراف.

أما خلف الأبواب المهترئة للمنازل القديمة، فكان يقيم الفقر والجوع... تانك الآفتان اللتان بدتا أشد مرارة مما يجب لما ولد عليه القوم من نعمة ورغدة، وأشد إيلاماً مما يجب لما اقترنتا به من مظهر خارجي أنوف لا يكترث للحاجات المادية. لقد كان في وسع الدكتور ميد أن يروي قصصاً بشعة عن هذه العائلات التي كانت قد طُردت من دُورها لتعيش في منازل بالأجرة، ومن منازل بالأجرة إلى غرف قذرة

---

(1) معماري فرنسي عاش في القرن السابع عشر، واستعمل السطح المزوى المتعدد الوجوه الذي يشبه سطح القرميد - (المترجمان).

في الشوارع الخلفية. كان قد قد عالج كثيرات جداً من السيدات المريضات اللواتي كنّ يعانين من «ضعف القلب» و«انحطاط القوى». كان يعرف، وكن يعرفن أنه كان يعرف، أنه آفة ذلك الموت البطيء جوعاً. لقد كان في وسع الطبيب أن يروي عن داء السل الذي كان يشن غاراته على عائلات بكاملها، وعن داء الجرب الذي كان فيما مضى منحصراً بين البيض الفقراء، بينما أصبح الآن يظهر بين أحسن عائلات أتلانتا. وكان هناك أطفال بسيقان نحيلة كسيحة، وأمهات لم يكن في وسعهن تمريضهم. كان الطبيب العجوز في الماضي قد اعتاد أن يشكر اللّه خاشعاً، كلما أخرج طفلاً إلى الحياة، بينما أصبح الآن يعتقد بأن الحياة ليست نعمة تستحق الشكر، فلقد غدت دنيا قاسية بالنسبة إلى الأطفال الصغار، ولذلك كان يقضي الكثيرون منهم في شهور الحياة القليلة الأولى.

وهكذا، بينما كانت الأنوار المتلألئة والخمر، القيثارات والرقص، الحرير المشجر والجوخ، تفيض بها البيوت الكبيرة الفخمة، كان في الجوار تماماً يقبع الموت البطيء جوعاً والبرد. وبينما كان الكبرياء والتصلب حليف الغالبين، كان الصبر المرير والكراهية نصيب الذين غُلبوا على أمرهم.

38

كانت سكارلت ترى هذا كله، تعيش فيه في النهار وتحمله معها إلى السرير في الليل. وكانت تخشى دائماً ما كان يمكن أن يتبع ذلك من أحداث، فقد كانت تعرف أنها وفرانك أمسيا في سجلات الشماليين السوداء بسبب توني، وأن من الممكن أن تنزل بهما الكارثة في أية ساعة. ولكنها الآن، من بين جميع الأوقات، لم يكن في وسعها أن تحتمل إعادتها إلى بدايتها... ليس الآن وجنينها قادم، والمعمل قد باشر في الإنتاج وتارا تعتمد عليها في النقود إلى أن يستثمر القطن في الخريف. آه، هب أنها ستفقد كل شيء! هب أنه سيكون عليها أن تبدأ كل شيء من جديد، بسلاحها الضعيف فقط، ضد هذا العالم المجنون. سيكون عليها أن تعبئ شفتيها الحمراوين، وعينيها الخضراوين ودماغها الماكر الضحل، ضد الشماليين، وضد كل شيء يدافع عنه الشماليون. وأحست، وقد أضناها الرعب، أنها تفضل قتل نفسها على أن تحاول أن تبدأ من جديد.

وفي وسط دمار ذلك الربيع من عام 1866 وفوضاه، وجهت سكارلت قواها بتصميم، لتجعل من المعمل أداة ربح. لقد كانت توجد نقود في أتلانتا، وكانت موجة التجديد تتيح لها الفرصة التي كانت تريدها، وأدركت أن في وسعها أن تجني النقود إذا ما استطاعت أن تبقى خارج السجن وحسب. ولكنها كانت تنبئ نفسها مرة بعد مرة

أخرى، بأن عليها أن تسير على مهل، وبحذر، وأن تكون رحبة الصدر أمام الإهانات، وأن تتقبل المظالم، وأن لا تسيء لإنسان أبداً، أسود كان أو أبيض، ممن يمكن أن يؤذيها. لقد كانت تكره الزنوج المحررين الوقحين كثيراً، كأي إنسان آخر، وكان جلدها يتخدر بالسخط كلما سمعت عباراتهم المهينة وضحكهم المدوي وهي تمر إزاءهم ولكنها لم تكن تلقي عليهم نظرة ولا حتى نظرة ازدراء. وكذلك كانت تكره الكاربت بكرز والسكالاواغز الذين كانوا يجمعون الثروات بسهولة بينما كانت هي تكافح في سبيل ذلك، غير أنها رغم هذا لم تكن تقول شيئاً في لومهم. ولم يكن يمكن لإنسان في أتلانتا أن يشمئز من الشماليين أكثر مما كانت هي تشمئز منهم، لأن مجرد رؤية معطف أزرق، كان يملأها سخطاً. ولكن حتى وهي في عزلتها البيتية كانت تحتفظ بالصمت فيما يتعلق بهم.

لن أكون حمقاء ثرثارة، فكرت باكتئاب، دع الآخرين يمزقونَ قلوبهم حزناً على الأيام السالفة، وعلى الرجال الذين لن يرجعوا أبداً، دع الآخرين يشتعلون سخطاً على حكم الشماليين، ويخسرون ورقة الاقتراع، دع الآخرين يدخلون السجن بسبب الجهر بآرائهم، ويوصلون أنفسهم إلى المقصلة لكونهم أعضاء في الكوكلوكس كلان (آه، ما كان أشد رهبة ذلك الاسم، كان مفزعاً لسكارلت كإفزاعه للزنوج تقريباً). دع النساء الأخريات يكنّ فخورات بأن أزواجهن ينتمون إلى تلك المنظمة. شكراً للّه، لم يكن فرانك في عدادها! دع الآخرين يغتاظون ويستشيطون غضباً ويتآمرون ويضعون الخطط لأمور لا يستطيعون التخلي عنها، فماذا يفيد الماضي إذا ما قورن بالحاضر الشديد والمستقبل الغامض؟ ماذا تفيد ورقة الاقتراع عندما يكون الخبز والسقف والبقاء خارج السجن هي المشاكل الحقيقية؟ أرجوك يا اللّه، فقط دعني خارج حوزة المتاعب حتى يونيو!

فقط إلى يونيو! لأن سكارلت كانت تعرف أنها في ذلك الشهر ستضطر إلى أن تعتزل في بيت العمة بيتي، وتظل منزوية هناك إلى ما بعد أن يولد الطفل. ومنذ الآن، كان الناس ينتقدونها لظهورها في المجتمع بينما هي في حالة كهذه، ولم يجدث أن أظهرت سيدة نفسها وهي في حالة الحمل. منذ الآن أيضاً، كان فرانك وبيتي يرجوانها ألّا تعرّض نفسها وإياهما للمضايقة. وكانت قد وعدتهما أن تنقطع عن العمل في يونيو.

فقط إلى يونيو! ففي يونيو لا بد أن تكون قد نظمت المعمل جيداً، بحيث تستطيع مغادرته، وفي يونيو، لا بد أن تكون قد جمعت نقوداً تكفي لتؤمن لها على الأقل بعض الحماية ضد النوائب. لقد كان عليها القيام بكل هذا العمل الكثير، ولم يكن لديها إلا وقت قصير جداً لتنجزه خلاله! وتمنت لو كان اليوم أكثر ساعات مما هو عليه، وراحت تعد الدقائق وهي تجهد نفسها محمومة في اقتفاء المال، ومقادير أخرى من المال.

ولأنها حثّت فرانك الحيي، أصبح المخزن ينتج الآن أكثر من السابق، وغدا فرانك يستوفي بعض ديونه القديمة. إلا أن المنجرة هي التي كانت ركزت آمالها عليها. فقد كانت أتلانتا هذه الأيام، كنبتة عملاقة، كانت قد قُطعت من أسفل ساقها، ولكنها كانت تنمو الآن ثانية ببراعم أصلب وأوراق أكثف وأغصان أكثر عدداً. وكانت الحاجة إلى مواد البناء أكبر بكثير مما يمكن تأمينها، ولذا حلَّقت أسعار الخشب والآجر والحجارة، وأبقت سكارلت المعمل يشتغل من الفجر إلى وقت إضاءة المصابيح.

كانت تقضي جزءاً من نهارها في المعمل، تتدخل في كل شيء، وتبذل جهدها لتمنع السرقة، التي كانت تشعر شعوراً أكيداً أنها كانت مستمرة. غير أنها في معظم الوقت، كانت تتجول راكبة في أنحاء

المدينة تطوف بالبنائين والمقاولين والنجارين، بل إنها كانت أيضاً تزور الغرباء الذين كان قد سمعت أن من المحتمل أن يباشروا البناء في مواعيد قادمة، فكانت تتحلفهم كي يعدوها بأن يشتروا منها، ومنها فقط.

وسرعان ما غدت سكارلت منظراً مألوفاً في شوارع أتلانتا، تجلس في عربتها الصغيرة بجانب السائق الزنجي العجوز المتجهم الوجه، والمستنكر لعملها، تجلس بجانبه وقد وضعت على حجرها دثاراً وشبكت يديها الصغيرتين المقفزتين في حجرها، وكانت العمة بيتي قد صنعت لها شالاً أخضر جميلاً، كان يستر قوامها، كما كانت قد صنعت لها أيضاً قبعة خضراء ناسبت عينيها. وهكذا كانت سكارلت تلبس هذه الأردية في زياراتها وتضع طلاء أحمر خفيفاً على وجنتيها، وعطراً أخف منه من الكولونيا، فكانت تبدو بصورة فاتنة ما لم تكن تترجل من عربتها وتكشف عن قوامها. ونادراً ما كانت هناك حاجة إلى ترجلها، لأنها كانت تبتسم وتشير، فيهرع الرجال إلى العربة، ومراراً ما وقفوا تحت المطر حاسري الرؤوس ليتحدثوا معها في شؤون العمل.

ولم تكن سكارلت الشخص الوحيد الذي رأى الفرص سانحة لجمع المال من تجارة الخشب. بيد أنها لم تخشَ منافسيها، إذ كانت تعرف بكبرياء واعٍ لحذقها، أنها كانت كفء لأي منهم، فقد كانت ابنة جيرالد، وكانت الغريزة التجارية الماهرة التي ورثتها قد شحذت الآن بتأثير الحاجة.

كان منافسوها قد ضحكوا عليها في بادئ الأمر، ضحكوا بازدراء سليم النية، على مجرد فكرة وجود امرأة تعمل، ولكنهم لم يكونوا يضحكون الآن، بل كانوا يشتمونها في سريرتهم، عندما يرونها تمر راكبة إزاءهم. فلقد كانت حقيقة كونها امرأة تخدمها غالباً، إذا كان في وسعها عند الحاجة أن تنتحل مظهر المسكينة المستعطفة بحيث تذيب

القلوب. ومن دون أية صعوبة، كان في وسعها أن تنقل إلى أذهان الرجال بصمت، صورة سيدة شجاعة، ولكنها حيية، تدفعها ظروف وحشية إلى وضع مستقبح، سيدة صغيرة عاجزة، من المحتمل أن تتضور جوعاً إذا لم يشترِ الزبائن أخشابها. ولكن عندما كانت المظاهر الرقيقة تفشل في إحراز النتائج، كانت سكارلت تنقلب ببرود إلى امرأة عملية وتضارب بخسارة وبطيبة خاطر على أسعار منافسيها، إذا كان ذلك سيجلب لها زبوناً جديداً. ولم تكن سكارلت أرفع من أن تبيع نوعاً رديئاً من الخشب بسعر النوع الجيد إذا اعتقدت أن فعلتها لن تُكتشف، ولم تكن الوساوس تنتابها بسبب تكديسها لأخشاب التجار الآخرين. وكانت، عند كل مظهر من التردد في فضح الحقيقة المكدرة، تتنهّد وتخبر الزبائن المأمولين بأن أخشاب منافسيها أغلى سعراً بكثير، وأنها نخرة، مليئة بالعقد والتجاويف، وأنها عموماً من نوع رديء يرثى له.

وأحست سكارلت، في أول مرة كذبت فيها على تلك الصورة، بالارتباك والإثم... الارتباك لأن الكذبة ارتفعت إلى شفتيها بسهولة فائقة، وبصورة طبيعية جداً، والإثم لأن فكرة خاطفة ومضت في عقلها: ماذا ستقول أمي؟

لم يكن ثمة شك فيما كانت إيلين ستقوله لابنة تفتري الأكاذيب وتنهمك في أعمال خشنة. كانت ستذهل ولا تصدق، وتتفوّه بكلمات رقيقة تلسع رغم رقّتها، ثم كانت ستتحدث عن الشرف والأمانة وواجب الإنسان نحو جاره. واستخذت سكارلت هنيهة قصيرة وهي تتصور النظرة في وجه أمها، ثم بهتت الصورة، وزالت بفعل رغبة جشعة مستهترة شديدة كانت قد ولدت في الأيام العجفاء في تارا، وقد اشتدت الآن بفعل قلق الحياة الحاضر. وهكذا اجتازت سكارلت هذا الشوط، كما اجتازت الأشواط الأخرى قبله... بتنهدة لم تكن

ترغب، كإيلين، في إخراجها، وبهزة كتف، وبترداد لتعويذتها التي لا تفشل «سأفكر في هذا كله فيما بعد».

ولكنها لم تعد تفكر في إيلين أبداً، في كل ما يتعلق بأمور عملها، ولم تعد تندم أبداً على أي وسيلة استخدمتها لتنتزع التجارة من تجار الخشب الآخرين. وكانت تعرف أنها في أمان تام من مغبة كذبها عليهم، فالمروءة الجنوبية كانت تحميها، إذ كان في وسع السيدة الجنوبية أن تكذب على السيد الجنوبي، بينما لم يكن في وسع هذا أن يكذب على سيدة. وكان أسوأ من ذلك أن ينعت الرجلُ امرأةً بـ«كذابة». وهكذا لم يكن في وسع تجار الأخشاب الآخرين، إلا أن يستشيطوا غيظاً في سرّهم، ويعلنوا بحدة داخل عوائلهم أنهم يتمنون من اللّه لو كانت السيدة كنيدي رجلاً لمدة خمس دقائق فقط.

ومرة حاول رجل أبيض مسكين، كان يملك معملاً في طريق ديكاتور، أن ينازل سكارلت بأسلحتها ذاتها، قائلاً بصراحة إنها كانت كاذبة وغشاشة، ولكن ذلك أساء إليه بدلاً من أن يفيده، فقد هال الجميع أن يتفوَّه حتى رجل أبيض فقير بأمور مذهلة كهذه عن سيدة من عائلة عريقة، حتى لو كانت السيدة تسلك سلوكاً لا يتفق وشيم السيدات. وتحملت سكارلت إهاناته بوقار صامت، وبمرور الوقت، حولت كل اهتمامها نحو زبائنه وراحت تضارب على أسعاره بصورة عديمة الرحمة، فقدمت لزبائنها، بأنات مكتومة، نوعاً فاخراً جداً من الأخشاب كي تثبت نزاهتها، حتى إنه سرعان ما أفلس. وعندئذ اشترت معمله بالسعر الذي أرادته، الأمر الذي أفزع فرانك.

ونجمت الآن، وقد تملكت المعمل، المشكلة المعقدة المتعلقة بإيجاد رجل جدير بالثقة، لتعيِّنه مسؤولاً عن المعمل. ولم تكن تريد رجلاً آخر كالسيد جونستون، فقد كانت تعرف أنه، رغم مراقبتها له، كان لا يزال يبيع أخشابها من دون علمها أحياناً. غير أنها فكرت أن

من السهل إيجاد الرجل المطلوب. ألم يكن كل الناس فقراء مساكين كديك أيوب الرومي[1]، أولم تكن الشواع ملأى بالرجال الذين لا عمل لهم ممن كان بعضهم من الأغنياء سابقاً؟ ولم يكن النهار يمضي، دون أن يعطي فرانك بعض النقود لجندي قديم جائع، أو دون أن ترزم بيتي أو كوكي بعض الطعام لمستجدين هزال الأجساد.

ولكن سكارلت لسبب لم تستطع فهمه، لم تكن تريد أياً من هؤلاء: «أنا لا أريد رجالاً لم يجدوا شيئاً ليعملوه بعد سنة» فكرت، «فإذا كانوا لم يكيفوا أنفسهم مع السلم حتى الآن، فلن يكون في وسعهم إذن أن يتكيفوا معي، كما أن جميعهم يبدون أذلاء مدحورين، وأنا لا أريد إنساناً مدحوراً، بل أريد إنساناً حاذقاً نشيطاً كرينيه أو تومي ولبورن أو كلز ويتينغ أو أحد أبناء سيمونز أو... أو أي واحد من تلك الفئة. فهم لا تشوبهم نظرة عدم الاكتراث لشيء، تلك النظرة التي انتابت الجنود بعد الاستسلام مباشرة، وإنما كانوا يبدون كأنهم يهتمون بعدد كبير من الأمور».

غير أن الذي أدهشها هو أن أبناء سيمونز الذين كانوا قد شرعوا باستثمار أتون آجر، وكلز ويتينغ الذي كان يبيع مستحضراً مصنوعاً من مطبخ أمه، ومضموناً في تقويم أكثر شعور الزنوج جعودة، بعد استعماله ست مرات، أنهم جميعاً ابتسموا بأدب وشكروها رافضين عرضها. كما أن أحد أبناء شقيقة السيدة ميريويذر، علّق بوقاحة قائلاً إنه في الوقت الذي لا يسعده أن يسوق عربة النقل الكبيرة، بصفة خاصة، إلا أن تلك كانت عربته هو، وإنه يفضل أن يبلغ أي قسط من النجاح بعمله الخاص، على أن يبلغه في مشروع سكارلت.

---

(1) رجل ورد اسمه في الإنجيل مقروناً بما قاسى من عذاب عظيم، ومع ذلك لم يفقد إيمانه باللّه - (المترجمان).

وبعد ظهر أحد الأيام، أوقفت سكارلت عربتها بجانب عربة فطير رينيه بيكارد، وحيَّته وتومي ولبورن الأعرج الذي كان قد انتهز فرصة لقاء صديقه ليركب معه إلى البيت:

- «اسمع يا رينيه، لماذا لا تأتي وتشتغل عندي؟ فإدارة معمل نجارة أكثر احتراماً من سواقة عربة فطير. إني أعتقد أنك تكون خجلاً وأنت تقوم بعملك هذا».

- «أنا، إني ميت من الخجل» ابتسم رينيه، «من يكون محترماً؟ لقد كنت طوال حياتي إلى أن حررتني الحرب كالزنوج. لا ينبغي لي أبداً أن أعود مبجلاً موجع الرأس. أعود حراً كالطير؟! أعوذ باللّه، إني أحب عربة فطيري، إني أحب بغلي، إني أحب الشماليين الأعزاء الذين يشترون بلطف زائد، الفطير من السيدة بيل مير، لا يا سكارلت، لا بد لي من أن أصبح ملك الفطير. إن هذا هو ما قُدِّر لي! وكنابليون أتبع طالعي» وهز سوطه هزة عنيفة.

- «ولكنك لم تنشأ لبيع الفطير، كما أن تومي لم ينشأ ليتعامل مع زمرة من البنائين الإيرلنديين الخشان. إن عملي من نوع أكثر...».

- «وأظن أنك نشئت لتديري معمل أخشاب» قال تومي وشدقاه ينتفضان، «نعم، إن في وسعي الآن أن أرى سكارلت الصغيرة على ركبة أمها، تتلعثم بتلاوة درسها، - لا تبيعي خشباً جيداً إن كان في وسعك أن تحصلي على ثمن أفضل للنوع الرديء».

وانفجر رينيه ضاحكاً على هذه العبارة، ورقصت عيناه الصغيرتان كعيني قرد، رقصتا بفرح وهو يربت على ظهر تومي المنحني.

- «لا تكن وقحاً» قالت سكارلت ببرود، لأنها شعرت بقليل من السخرية في عبارة تومي، «طبعاً، أنا لم أنشأ لأدير منجرة».

- «أنا لم أقصد أن أكون وقحاً، ولكنك تديري منجرة سواء نُشِّئتِ لذلك العمل أم لا، وتديرينها بصورة ممتازة كذلك. والحقيقة أننا

جميعاً، كما أستطيع أن ألاحظ، لا نقوم بما كنا نعزم على القيام به في هذا الوقت بالذات، ولكني مع ذلك أعتقد أننا سنفلح. والشخص المسكين وأمه المسكينة هما اللذان يجلسان ويندبان لأن الحياة ليس بالضبط كما توقعاها أن تكون. لماذا لا تختارين أحد الكاربت بكرز الجريئين، ليشتغل عندك يا سكارلت؟ إن الغابات مليئة بهم، واللّه يعلم ذلك».

- «أنا لا أريد كاربت بكرز، فهؤلاء سيسرقون كل ما لم يكن متقداً كالجمر أو ثابتاً مسمراً. ولو كان فيهم خير، لبقوا حيث كانوا، بدلاً من أن يأتوا هنا إلى الجنوب، ليهشموا عظامنا. إني أريد رجلاً صالحاً من أناس صالحين، رجلاً حاذقاً أميناً نشيطاً و. . . ».

- «أنت لا تريدين الكثير. إنك لن تظفري به بهذا الأجر الذي تقترحينه، فكل الرجال من ذلك النوع باستثناء المصابين منهم بإصابات بالغة، قد توصلوا إلى عمل يعملونه. قد يكونون في أعمال لا يصلحون لها، ولكنهم جميعاً قد وجدوا عملاً يعملونه، عملاً خاصاً بهم، يفضلون أن يقوموا به على أن يعملوا عند امرأة».

- «إن الرجال لا يدركون إدراكاً واسعاً، ولو لم يكونوا كذلك لما وصلت إلى الحضيض».

- «ربما، ولكنهم يملكون كثيراً من الكبرياء» قال تومي بوقار.

- «كبرياء! إن الكبرياء طعمها لذيذ للغاية، خصوصاً عندما يكون غلافها رقيقاً وتضع حلوى عليه». قالت سكارلت بحدة.

وضحك الرجلان، على شيء من الكره، وبدا لسكارلت أنهما اتفقا في استنكار مذكر لها. لقد كان الذي قاله تومي أمراً حقيقياً، فكرت سكارلت وهي تستعرض في عقلها الرجال الذين كانت قد فاتحتهم في الموضوع، والرجال الذين كانت قد عزمت على مفاتحتهم. لقد كانوا جميعاً مشغولين، مشغولين بعمل ما، وهم

يشتغلون بجد، يشتغلون بجد أكثر مما كان يمكن أن يحلموا في أيام ما قبل الحرب، بأنه ممكن الوقوع. ربما لم يكونوا يقومون بالعمل الذي كانوا يريدون عمله، أو العمل الأسهل تنفيذاً، أو العمل الذي نشأوا للقيام به، غير أنهم لم يكونوا يقومون بأي عمل، فالأوقات كانت صعبة جداً، بحيث لم يكن الاختيار في مقدور الرجال. وإن كانوا يأسفون على الآمال الضائعة ويتوقون إلى أساليب الحياة القديمة، فلم يكن أحد سواهم يعلم ذلك. لقد كانوا يحاربون حرباً جديدة، حرباً أقسى من تلك التي سبقتها، وكانوا يهتمون بالحياة ثانية، يهتمون بها بالإلحاح والعنف ذاتيهما اللذين كانا يبعثان فيهم الحياة قبل أن تشطر الحرب حياتهم شطرين.

- «سكارلت» قال تومي بفظاظة، «إني أمقت أن أسألك إحساناً، بعد أن كنت وقحاً معك، غير أني سأسأله على كل حال، ومن الممكن أن يساعدك ذلك بطريقة ما. إن شقيق زوجتي، هيو إلسينغ، لا يظفر بنتيجة حسنة أثناء تجواله في بيع الحطب، لأن جميع الناس، باستثناء الشماليين، يخرجون ويجمعون حطبهم. وإني أعلم أن الأمور سيئة للغاية مع جميع عائلة إلسينغ. وأنا... أنا أقوم بما يسعني، ولكنك تعرفين أن عليَّ أن أعيل فاني، وأن أهتم أيضاً بأمي وشقيقتي الأرملتين، اللواتي يعشن هناك في سبارطة. إن هيو رجل طيب، وأنت تريدين رجلاً طيباً، كما أنه من عائلة طيبة، كما تعلمين، بالإضافة إلى أنه أمين».

- «ولكن... الواقع أن هيو لا ينعم بأي حذق، وإلا لنجح في بيع الحطب».

فهزَّ تومي كتفيه باستهجان:

- «إنك تنظرين إلى الأمور بطريقة صارمة يا سكارلت» قال، «ولكن تروّي في الحكم على هيو. إن في وسع المرء أن ينطلق بعيداً،

ويأتي بنتيجة أسوأ، ولكني أعتقد أن أمانة هيو، وإرادته الطيبة، سترجحان على نقص حذقه».

فلم تجب سكارلت لأنها لم تكن تريد أن تكون فظة جداً. ولكن في نظرها، لم تكن توجد سوى صفات قليلة ترجح على الحذق، هذا إن وُجدت.

ولما كانت قد فشلت في التماس بغيتها في أنحاء المدينة، ورفضت إلحاح كثير من الكاربت بكرز المتلهفين على العمل، قررت أن ترضى باقتراح تومي، وتطلب من هيو العمل لديها.

وكان هيو هذا ضابطاً مقداماً واسع الحيلة أثناء الحرب، ولكن بدا أن جرحين بليغين وأربع سنوات من القتال قد أنضباه من كل سعة حيلته هذه الأيام، وتركاه ليواجه شدائد السلم بعجز الطفل. كانت تشوب عينيه نظرة كلب ضائع وهو يتجول لبيع حطبه، ولم يكن هو أبداً ذلك الرجل الذي كانت قد أملت الحصول عليه.

«إنه أحمق»، فكرت، «إنه لا يعرف شيئاً عن التجارة، وأنا أراهن أن ليس في وسعه أن يجمع اثنين واثنين، كما أنني أشك في ما إذا كان سيتعلم ذلك يوماً. لكنه على الأقل رجل أمين ولن يختلس أموالي».

ولم تكن سكارلت تعتمد على الأمانة في نفسها كثيراً هذه الأيام، ولكن كلما كانت تقلل من أهميتها في نفسها، شرعت في تعظيم قيمتها في الآخرين.

«إنه لمن المؤسف أن يكون جوني كاليغر مرتبطاً مع تومي ولبورن في عمل البناء ذاك» فكرت سكارلت، «إنه تماماً ذلك النوع من الرجال الذي أريده. إنه صلب كالمسامير، مرن كالحية، ويكون أميناً حين يجد الأمانة في ما يغنيه عن عدمها. إني أفهمه كما أنه يفهمني، وفي وسعنا أن نقوم بالتجارة معاً بنجاح تام. ربما ظفرت به عندما ينتهي بناء الفندق، وحتى ذلك الوقت، عليَّ أن أعتمد على هيو والسيد

جونستون. وإذا أنا عيَّنت هيو مسؤولاً عن المعمل الجديد، وأبقيت السيد جونستون مسؤولاً عن المعمل القديم، فسيكون في وسعي أن أظل في المدينة وأنصرف لشؤون البيع، بينما يشرفان هما على قص الخشب وشحنه. وإلى أن أظفر بجوني، عليَّ أن أخاطر في أن أدع السيد جونستون يسرقني إذا ظللت في المدينة طوال الوقت. آه، حبذا لو لم يكن لصاً! إني أعتقد أني سأبني مخزن أخشاب على نصف تلك المساحة التي خلّفها لي تشارلز. حبذا لو أن فرانك لم يرفع صوته عليَّ حول فكرة بنائي لصالة على نصف الأرض الأخرى. على كل حال، سأبني الصالة حالما أحوز على نقود كافية مقدماً، مهما كان موقفه من ذلك. آه، حبذا لو أن فرانك لم يكن حساساً إلى هذه الدرجة. آه يا إلهي، حبذا لو أني لم أكن مقبلة على ولادة طفل في هذا الوقت عينه! فبعد فترة قصيرة سأغدو بدينة جداً بحيث لن يسعني الخروج من البيت. آه يا إلهي، حبذا لو أني لم أكن مقبلة على ولادة طفل! وآه يا إلهي، حبذا لو أن الشماليين يتركوني وشأني! لو...».

لو! لو! لو! لقد كانت هناك تمنيات كثيرة في الحياة، في وقت خلا فيه التأكد من الظفر بشيء، وافتقر منه الناس إلى أي شعور بالأمان، وخشوا فقدان كل شيء، والوقوع فريسة البرد والجوع ثانية. طبعاً، لقد كان فرانك يجني قليلاً من النقود الآن، بيد أنه كان دائماً يعتل بالزكام ويضطر غالباً إلى البقاء في سريره مدة أيام. هب أنه أصبح عليلاً عاطلاً عن العمل. لا، لم تكن تستطيع أن تعتمد على فرانك للحصول على الكثير. لا، ينبغي ألّا تعتمد على أي إنسان أو أي شيء سوى ذاتها. غير أن الذي كان في وسعها أن تكسبه وحدها، بدا ضئيلاً يدعو للرثاء. آه، ماذا ستفعل إذا ما أتى الشماليون وانتزعوا منها كل شيء... لو! لو! لو!...

كان نصف الذي تنتجه في كل شهر، يذهب إلى ويل في تارا،

وجزء منه إلى ريت لسداد القرض، والباقي تدخره هي. ولم يحدث أن كان بخيل يوماً يعدّ ذهبه كما كانت تعدّ ذهبها، ولم يحدث أن خاف بخيل يوماً على ضياع ذهبه أكثر من خوفها هي. ولم تكن سكارلت ترغب في وضع نقودها في المصرف، لأنه كان من الممكن أن يفلس أو يصادره الشماليون. ولذلك كانت تحمل معها ما تستطيع حمله، تدسه في مشدها، وتخبئ رزماً من السندات حول البيت، وتحت قطع من الآجر المتفكك على الموقد، وفي محفظة أدواتها الصغيرة، وبين صفحات الإنجيل. وكان طبعها قد أخذ يزداد حدة بمرور الأسابيع لأنها كانت تعتقد أن كل دولار تكسبه كان يضاف إلى الدولارات التي ستخسرها إذا نزلت النازلة.

وكان فرانك وبيتي والخدم يتحملون ثوراتها بعطف مهووس، عازين مزاجها السيّئ لكونها حاملاً، وغير مدركين السبب الحقيقي أبداً. وكان فرانك يعرف أن النساء الحوامل ينبغي أن يراعين، ولذلك وضع كبرياءه في جيبه، ولم يعد يقول شيئاً عن نزولها إلى المدينة في وقت كهذا، الأمر الذي لم يكن ينبغي لسيدة أن تفعله. لقد كان في سلوكها إزعاج دائم له، ولكنه حسب أن في وسعه أن يتحمل ذلك لمدة أخرى، فقد كان يعتقد أن سكارلت، بعد أن تلد الطفل، ستكون الفتاة الرقيقة العذبة ذاتها التي كان قد عاشرها. ولكن على الرغم من كل شيء قام به من أجل تهدئتها، استمرت في ثوراتها، ومراراً ما فكر أنها كانت تتصرف كامرأة سكنتها روح شريرة.

ولم يبدُ أن أحداً كان يدرك ما كان يتحكم بتصرفاتها حقاً، ولا ما كان يسوقها كامرأة مجنونة. إنه رغبتها الشديدة الجارفة في تنظيم شؤونها قبل أن تضطر إلى الاعتزال خلف الأبواب، وفي أن تجمع من المال قدر المستطاع، خشية أن يغمرها الطوفان ثانية، وفي أن تحوز على ركيزة قوية من المال النقدي تجابه به موجة الحقد الشمالية

المرتفعة. لقد كانت النقود هي الروح الشريرة الملازمة المتسلطة على عقلها في هذه الأيام، ولو حدث وفكرت في الطفل، كان ينتابها سخط حائر على قدومه قبل أوانه. الموت والضرائب والولادة! لا يوجد أبداً أي وقت مناسب لأي منها.

* * *

كانت أتلانتا قد جللها العار عندما بدأت سكارلت، امرأة، تدير منجرة، ولكن مع مرور الوقت قررت المدينة أنه لا يوجد حد لما يمكن أن تفعله سكارلت. لقد كانت تجارتها الجريئة أمراً مذهلاً، خصوصاً أن أمها المسكينة كانت من آل روبيلارد، وأن من الشائن حتماً أن استمرت تتجول في الشوارع بينما كان الجميع يعرفون أنها حامل. ولم يحدث مرة أن خرجت امرأة بيضاء محترمة من بيتها بعد اللحظة الأولى من شكّها في أنها تحمل جنيناً، وكذلك معظم الزنجيات. وقد صرحت السيدة ميريويذر ساخطة بأنه نظراً إلى الطريقة التي تتصرف بها سكارلت فإن من المحتمل أن تلد طفلها في الشوارع العامة.

غير أن جميع الانتقادات السابقة لسلوكها، لم تكن شيئاً إذا ما قيست بدوي الثرثرة التي كانت تدور الآن في المدينة، والمتعلقة بكون سكارلت لم تكن تتاجر مع الشماليين فحسب، بل كانت أيضاً تبدي كل ما يدل على أنها ترغب في هذه التجارة حقاً.

لقد كانت السيدة ميريويذر، وجنوبيون كثيرون آخرون، يتاجرون كذلك مع القادمين الجدد من الشمال، ولكن الفرق كان في أنهم لم يكونوا يستحسنون عملها هذا، بل كانوا يُظهرون بصراحة أنهم لم يكونوا يستحسنونه. بينما كانت سكارلت تستحسن عملها وتكشف عن رأيها بذلك، الأمر الذي كان رديئاً كالعمل ذاته. كانت سكارلت قد تناولت الشاي فعلاً مع زوجات الضباط الشماليين في بيوتهن، بل الحقيقة أنها كانت قد قامت عملياً بكل شيء عدا دعوتهن إلى بيتها،

وقد تكهنت المدينة بأنها تقدم حتى على ذلك الأمر لولا وجود العمة بيتي وفرانك.

كانت سكارلت تعرف أن المدينة كانت تتحدث عنها، ولكنها لم تكن تبالي، ولم يكن في وسعها أن تبالي. كانت لا تزال تكره الشماليين كراهية عنيفة، ككراهيتها لهم يوم حاولوا إحراق تارا، ولكن كان في وسعها أن تتغاضى عن تلك الكراهية. لقد أدركت أنها إذا كانت ستجمع مالاً، فإن عليها أن تجمعه من الشماليين، كما أنها كانت قد عرفت أن مداهنتهم بالابتسامات والكلمات اللطيفة، هي أوثق طريق للظفر بالتعامل معهم من أجل مصنعها.

يوماً ما، عندما تغدو غنية جداً، وتكون نقودها مخبأة حيث لا يستطيع الشماليون العثور عليها، عندئذ ستخبرهم بالضبط كيف كانت تنظر إليهم، ستخبرهم إلى أي درجة تكرههم وتحتقرهم وتنفر منهم. وما أبهج ما سيكون ذلك! ولكن حتى ذلك الوقت، كان من المنطق الجلي تماماً أن تستمر في التعامل معهم. وإذا كان ذلك نفاقاً، فلتشهر بها أتلانتا لأجله ما شاءت.

واكتشفت سكارلت أن مصادقة الضباط الشماليين أمر سهل سهول صيد طيور وهي على الأرض، فقد كان هؤلاء غرباء معزولين في بلاد معادية، وكان الكثير منهم يتحرق إلى علاقات نسائية شريفة في مدينة كانت فيها النساء المحترمات يجذبن تنانيرهن جانباً أثناء مرورهن بهم، ويظهرن كأنهن يرغبن في أن يبصقن عليهم، وكانت فيها العاهرات والزنجيات هنّ وحدهن اللواتي يتحدثن إليهم حديثاً لطيفاً. غير أن من الواضح أن سكارلت كانت تبدو سيدة، وسيدة من عائلة شريفة، رغم أنها كانت تشتغل، ولذلك طربوا لابتسامتها المشرقة، ولبريق عينيها الخضراوين الممتع.

وعندما كانت سكارلت تتحدث إليهم وتحرك غمازتيها وهي

جالسة في عربتها الصغيرة، كان بغضها لهم يثور مراراً بعنف شديد بحيث كان من العسير عليها أن تلعنهم في وجوههم. ولكنها كانت تكبح جماح نفسها، بعد أن اكتشفت أن ثني الرجال الشماليين حول إصبعها لم يكن أكثر صعوبة من تلك التسلية ذاتها التي كانت تمارسها مع الرجال الجنوبيين اللّهم إلا أن هذا لم يكن تسلية وإنما تجارة جدية. كان الدور الذي تقوم به هو دور سيدة جنوبية مهذبة حلوة أصيبت بضيق. فبمظهرها المتحفظ الوقور، كانت تستطيع أن تُبقي ضحاياها على بُعد لائق منها، ولكن رغم ذلك، كان يوجد لطف في أسلوبها، لطف يترك في ذاكرات الضباط الشماليين دفئاً معيناً عن السيدة كنيدي.

هذا الدفء كان نافعاً جداً... كما قصدت سكارلت أن يكون. إذ إن كثيراً من ضباط الحامية، الذين لم يكونوا يعرفون كم سيبقون في أتلانتا، كانوا قد أرسلو يطلبون زوجاتهم وعوائلهم، ونظراً إلى أن الفنادق وبيوت الأجرة كانت تفيض بالنزلاء، لذلك راح هؤلاء الضباط يبنون بيوتاً صغيرة، وكانوا سعداء في أن يشتروا أخشابهم من السيدة كنيدي اللطيفة التي كانت تعاملهم بأدب أكثر من أي إنسان آخر في المدينة. وكذلك الكاربت بكرز والسكالاواغز، الذين كانوا يبنون منازل ومخازن وفنادق رائعة، بثرواتهم الجديدة، فإنهم وجدوا أن من الممتع أكثر أن يتعاملوا مع سكارلت من أن يتعاملوا مع الجنود الحلفيين السابقين، الذين كانوا أيضاً لطفاء، ولكن لطفهم كان أكثر جدية وأشد فتوراً من الكراهية الصريحة.

وهكذا، لأنها كانت جميلة فاتنة، ولأنه كان في وسعها أن تبدو عاجزة يائسة بعض الأحيان، تساند الشماليون مستودع أخشابها ومخزن فرانك، إذ شعروا أن عليهم مساعدة امرأة فتية جريئة، لم يكن لها من يعيلها سوى زوج عديم الحيلة. وأحست سكارلت، وهي ترى تجارتها

تزدهر، أنها لم تكن تحمي حاضرها وحسب، بنقود شمالية، بل مستقبلها أيضاً، بأصدقاء شماليين.

لقد كان احتفاظ سكارلت بعلاقاتها مع الضباط الشماليين على الصعيد الذي أرادته، أمراً أسهل مما توقعت، فقد بدا أن جميعهم كانوا يحترمون السيدات الجنوبيات. ولكن سرعان ما وجدت سكارلت أن زوجاتهم كنّ يشكلن مشكلة لم تكن قد توقعتها. ولم يكن الاتصال بالنساء الشماليات من أهدافها، وكان يسعدها أن تتجنبهن ولكنها لم تستطع ذلك لأن زوجات الضباط كنّ مصممات على أن يقابلنها. لقد كان بهن فضول متعطش عن الجنوب والجنوبيات، فقدمت لهن سكارلت الفرصة الأولى ليشبعن هذا الفضول. ولم يكن لنساء أتلانتا الأخريات ما يفعلنه مع الشماليات، حتى إنهن رفضن أن ينحنين لهن في الكنيسة، ولذلك كانت سكارلت عندما أحضرتها التجارة إلى بيوتهن، بمثابة استجابة لدعاء. ومراراً ما حدث، حين كانت سكارلت تجلس في عربتها أمام منزل شمالي تتحدث إلى رب البيت عن الأعمدة وقطع السقف الخشبية، أن خرجت الزوجة لتشترك في الحديث، أو لتصر على أن تدخل سكارلت لتناول فنجان شاي، ونادراً ما رفضت سكارلت، مهما كان يمكن أن تكون الفكرة قبيحة، لأنها كانت تأمل دائماً أن تسنح لها الفرصة، فتقترح بلياقة على مضيفيها أن يتعاملوا مع مخزن فرانك. بيد أنها، في كثير من الأوقات، تعرّضت لامتحانات قاسية فيما يتعلق بضبط النفس، وذلك نظراً إلى الأسئلة الشخصية التي كنّ يسألنها، وبسبب حالة الخيلاء والتلطف المصطنع التي كانت تشوبهم تجاه كل ما هو جنوبي.

فالشماليات اللواتي كن يعتبرن كتاب **كوخ العم توم** كينبوع صدق يلي الإنجيل في صدقه، كنّ جميعاً يرغبن في المعرفة عن الكلاب المفترسة التي كان يحتفظ بها كل جنوبي، لتمزيق العبيد الفارين،

ولذلك لم يصدّقن سكارلت أبداً عندما أخبرتهن أنها لم تكن قد رأت طوال حياتها إلا كلباً صغيراً وديعاً، وليس كبيراً شرساً ضخماً. لقد كنّ يردن أن يعرفن شيئاً عن قطع الحديد الرهيبة الكاوية، التي كان المزارعون يستعملونها ليسموا بها وجوه عبيدهم، وعن السوط ذي التسع شعب الذي كانوا يجلدونهم به حتى الموت. وقد أعلن أن ما كانت تحس به سكارلت تجاه العبيد كان مظهراً ينمّ عن اهتمام مثير زري بالتسرّي الرقيق. وقد امتعضت سكارلت من ذلك بصورة خاصة بالنظر إلى الازدياد الهائل في عدد الأطفال الخلاسيين في أتلانتا، منذ استقر الجنود الشماليون في المدينة.

كان يمكن لأي امرأة أتلانتية أخرى أن تموت من الغضب إذا ما قُدِّر لها الإصغاء إلى جهل متعصب كهذا، بيد أن سكارلت نجحت في أن تضبط نفسها وكان يؤازرها في ذلك حقيقة أنهن كنّ يُثرن ازدراءها أكثر من إثارتهن لغضبها. وقبل كل شيء، لقد كنّ شماليات، ولم يكن أحد يتوقع خيراً من هذا من الشماليات. وهكذا فإن إهاناتهن الطائشة لحالها ولشعبها وأخلاقه، مرّت مروراً خاطفاً، ولم تكن تؤثر فيها مطلقاً تأثيراً أعمق من أن يسبب لها أكثر من هزء خفي مكتوم، إلى أن وقع حادث جعلها تستشيط غيظاً، وأرأها، إن كانت في حاجة إلى أن ترى، ما كان أوسع الهوة بين الشمال والجنوب وكم كان من المستحيل تماماً طمر تلك الهوة.

ففي أثناء عودتها إلى البيت مع العم بيتر، بعد ظهر أحد الأيام، مرت بالبيت الذي كانت قد اجتمعت فيه عوائل ثلاثة ضباط كانوا يبنون بيوتهم بأخشابها. كانت الزوجات الثلاث واقفات في الممشى عندما مرت سكارلت بجانبهن، فلوَّحن لها أن تقف وخرجن إلى موقف العربات، وحيَّينها بلهجة كانت دائماً تجعلها تشعر أن في وسع الإنسان أن يسامح الشماليين على كل شيء تقريباً، إلا أصواتهم.

- «أنت بالذات، الشخص الذي أريد رؤيته يا سيدة كنيدي» قالت امرأة طويلة نحيلة من ميْن، «أريد أن أحصل على بعض المعلومات عن هذه المدينة التي تعيش في الظلام».

فابتعلت سكارلت الإهانة الموجهة إلى أتلانتا، ابتلعتها بالاحتقار الذي تستحقه، وابتسمت أفضل ابتسامة استطاعتها.

- «وماذا يسعني أن أخبرك؟»

- «إن مربيتنا بريدجت، قد ذهبت إلى الشمال. لقد قالت إنها لن تظل هنا يوماً آخر، بين «الزنوج» كما تدعوهم، ولذلك فإن الأطفال يوقعونني الآن بحيرة عظيمة. أخبريني كيف أستطيع أن أحصل على مربية أخرى، فأنا لا أعرف إلى من ألجأ في هذا الصدد».

- «يبنغي ألّا يكون هذا أمراً صعباً» قالت سكارلت وضحكت، «إذا استطعت أن تجدي زنجية قدمت من الريف لتوّها، ولم تفسدها هيئة التحرير، فعندئذ ستفوزين بأحسن نوع ممكن من الخدم. فقط قفي على بوابتك هنا واسألي كل زنجية تمر أمامك، وأنا واثقة..».

فانفجرت النسوة الثلاث بصيحات السخط.

- «هل تعتقدين أني أؤمّن زنجية سوداء على أطفالي؟» صاحت امرأة ميْن، «إني أريد فتاة إيرلندية مخلصة».

- «أخشى ألّا تجدي خادمات إيرلنديات في أتلانتا» أجابت سكارلت والبرودة في صوتها، «فأنا شخصياً لم أرَ خادمة بيضاء أبداً، ولن أهتم في إيجاد واحدة منهن في بيت»، ولم تستطع أن تمنع لهجة تهكم خفيفة من أن تشوب كلماتها، «إني أطمئنك أن الزنوج ليسوا من أكلة لحوم البشر، وأنهم جديرون بالثقة تماماً».

- «يا للّه، لا! لن أحوي واحدة في بيتي، يا لها من فكرة!».

- «أنا لا يمكن أن أثق بهم أكثر مما أستطيع أن أراهم. وأما أن أدعهم يعتنون بأطفالي...».

وفكرت سكارلت بيدي مامي الرحيمتين المغضنتين، اللتين اهترأتا وعرّتهما الخشونة في تربية إيلين وتربيتها هي وتربية ويد. ماذا يعرف هؤلاء الغرباء عن الأيدي السوداء، وكم يمكن أن تكون عطوفة مواسية، وما كان أصوب معرفتها بكيفية التهدئة والتربيت والتدليل؟ وضحكت قليلاً.

- «إنه لمن الغريب أن تشعرن بمثل ذلك الشعور بينما أنتم الذين حررتم الزنوج».

- «يا للّه، لست أنا يا عزيزتي» ضحكت امرأة مين، «أنا لم أرَ زنجياً حتى جئت الجنوب في الشهر الماضي، وأنا لا أحفل إن لم أرَ زنجياً آخر. إن جسدي يقشعر من رؤيتهم. لن أثق بأي منهم...».

وكانت سكارلت قد انتبهت، لبضع لحظات، إلى أن العم بيتر كان يتنفس بصعوبة، ويجلس منتصب القامة تماماً وهو يحدق بثبات إلى أذني الحصان. وقد ازداد انتباهها له عندما انفجرت امرأة مين فجأة بضحكة، وأومأت إليه كي تراه رفيقتاها.

- «انظرا إلى ذلك الزنجي العجوز، ينتفخ كضفدعة» قالت مقهقهة، «إني أراهن أنه مهرجك العجوز، أليس كذلك؟ أنتم الجنوبيين لا تعرفون كيف تعاملون الزنوج، إنكم تفسدونهم للغاية».

فبلع بيتر نفسه، وظهرت تجاعيد عميقة على جبينه المتغضن ولكنه ظل ينظر باستقامة إلى الأمام، ذلك أن بيتر طوال حياته لم يكن قد دعي أبداً بلفظة «زنجي» من قبل إنسان أبيض، أما من قبل الزنوج الآخرين فقد حدث ذلك. ثم أن يقال عنه إنه غير جدير بالثقة ويدعى «مهرجاً عجوزاً» وهو بيتر الذي كان السند الموقر لآل هاملتون منذ سنين، فشيء لا يُحتمل.

وشعرت سكارلت، دون أن ترى، أن الذقن السوداء تهتز بكبرياء جريحة، فاجتاحها سخط فتّاك. كانت قد أصغت بازدراء هادئ بينما

كانت هؤلاء النسوة يستخففن بالجيش الحلفي ويحقرن جف ديفيس ويتهمن الجنوبيين بقتل عبيدهم وتعذيبهم، ولو كان الأمر في سبيل مصلحتها، لتحملت الإهانات بحق فضيلتها، وأمانتها، ولكن علمها بأنهن آلمن الزنجي العجوز الوفي بملاحظاتهن الحمقاء، أشعلها كعود ثقاب في بارود، ونظرت لهنيهة إلى المسدس الكبير في حزام بيتر، وتحرقت يدها على لمسه. لقد كانت هؤلاء الظافرات المتعجرفات الوقحات الجاهلات يستحققن القتل، ولكنها عضت بأسنانها حتى برزت عضلات شدقها، مذكرة نفسها بأن الوقت لم يحن بعدُ حين يكون في وسعها أن تصارح الشماليين بما تفكر فيه تماماً. يوماً ما، أجل، يا إلهي، أجل! ولكن لم يحن الوقت بعد.

- «إن العم بيتر أحد أفراد عائلتنا» قالت وصوتها يرتجف، «عمن مساء، انطلق يا بيتر».

فساط بيتر الحصان بضربة مفاجئة، جعلت الحيوان الجفل يقفز إلى الأمام. وعندما اندفعت العربة، سمعت سكارلت امرأة مين تقول بلهجة حائرة: «عائلتها؟ ألا تظنان أنها تقصد قريبها؟ ولكنه أسود للغاية».

- «ليلعنهم اللّه! ينبغي أن يُزالوا عن وجه الأرض. وإذا ما قُدِّر لي أن أحصل على نقود كافية، فسأبصق في وجوههم جميعاً! سأ. . .».

وألقت نظرة على بيتر، فرأت أن دمعة كانت تسيل على أنفه. وفي الحال، غمرتها عاطفة من الحنان، من الحزن على إذلاله، عاطفة جعلت عينيها تلسعانها، وبدا الأمر كأن إنساناً كان قد عامل طفلاً معاملة عديمة الرحمة. لقد آلمت أولئك النسوة العم بيتر. . . بيتر الذي كان قد خاض الحرب المكسيكية مع الكولونيل العجوز هاملتون، بيتر الذي كان قد حمل سيده بين ذراعيه عندما مات، والذي ربى ميلي

وتشارلز واعتنى ببيتي بات السخيفة الخائبة، وحماها عندما نزحت إلى ميكون، ودبر حصاناً ليعود بها عليه بعد الاستسلام، خلال بلاد مزقتها الحرب. ومع ذلك لقد قلن إنهن لا يثقن بزنجي!

- «بيتر» قالت وقد انقطع صوتها وهي تضع يدها على ذراعه النحيلة، «إني لأشعر بالعار بسبب بكائك. لماذا تهتم؟ إنهن لا شيء سوى شماليات ملعونات!».

- «لقد تحدثن أمامي كما لو كنت بغلاً وليس في وسعي فهمهن. . . كما لو كنت أفريقياً ولا أعرف عما كن يتحدثن» قال بيتر ونفث زفيراً حاداً، «ودعونني زنجياً، وأنا لم أدعَ زنجياً أبداً من قبل إي أنسان أبيض. ودعونني مهرجاً عجوزاً، وقالوا إن الزنوج لا يوثق بهم. أنا لا يوثق بي! أنا الذي قال لي الكولونيل العجوز وهو يعاني سكرات الموت: «أنت يا بيتر! اعتنِ بأولادي واعتنِ بسيدتك الشابة، الآنسة بيتي بات، إنها، كما قال، لا تملك إدراكاً أوسع من إدراك جرادة» ولقد اعتنيت بها جيداً طوال هذه السنين».

- «لم يكن في وسع أحد أن يفعل أفضل مما فعلت، سوى الملاك جبريل» قالت سكارلت تهدئ روعه، «ونحن لم يكن في وسعنا أن نعيش من دونك».

- «أجل، أشكرك يا سيدة، إني أعرف ذلك كما تعرفينه، ولكن أولئك الشماليين لا يعرفونه، وهم لا يريدون أن يعرفوه. كيف أتيح لهم أن يتدخلوا في شؤوننا يا آنسة سكارلت؟ إنهم لا يفهموننا، نحن الحلفيين».

ولم تقل سكارلت شيئاً لأنها كانت لا تزال تشتعل بالسخط الذي لم تفجّره في وجوه النسوة الشماليات. واستمر الاثنان في طريقهما إلى البيت صامتين، وانقطعت شهقات بيتر، وبدأت شفته السفلى تتدلى

تدريجياً حتى برزت بشكل ينذر بالشر، كان سخطه يتأجج الآن، بعد أن خف الألم البدائي.

وفكرت سكارلت: ما أغرب هؤلاء الشماليين الملاعين! الشماليون! يبدو أن أولئك النسوة كنّ يفكرن أنه لمّا كان العم بيتر أسود، فهو لم يكن يملك أذنين ليسمع بهما، ولا شعوراً كشعورهن ليُجرح، ولم يكنّ يعرفن أن الزنوج يجب أن يعاملوا برفق، كما لو كانوا أطفالاً، يوجَّهون ويشجَّعون، ويدلَّلون ويعنَّفون. لم يكن الشماليون يفهمون الزنوج ولا العلاقات بين الزنوج وأسيادهم السابقين، ومع ذلك فقد خاضوا حرباً لتحريرهم. والآن وبعد أن حرروهم لا يرغبون أو يثقون بهم أو يفهمونهم، ومع ذلك فقد كانت صرختهم الدائمة هي أن الجنوبيين لم يكونوا يعرفون كيف يعاملون الزنوج.

لا أثق بزنجي! لقد كانت سكارلت تثق بهم أكثر بكثير من ثقتها بمعظم الناس البيض، وحتماً أكثر من ثقتها بأي شمالي، لقد كان في الزنوج شيم من الإخلاص والتفاني بالعمل والحب بحيث لم يكن في وسع أي شدة أن تفسدها، أو أي نقود أن تشتريها. وفكرت في القلة الأوفياء الذين بقوا في تارا في وجه الغزو الشمالي، في الوقت الذي كان في وسعهم فيه أن يهرولوا أو يلتحقوا بالجنود لينعموا بحياة البطالة، ولكنهم بقوا. وفكرت في دلسي تكدح في حقول القطن إلى جانبها، وفي بورك يخاطر بحياته في أقنان الدجاج المجاورة، كي تتمكن العائلة من إيجاد طعامها، وفي مامي تأتي معها إلى أتلانتا لتمنعها من أن تقع في الخطيئة. وفكرت في خدم الجيران الذين وقفوا بإخلاص إلى جانب أسيادهم البيض، يحمون سيداتهم والرجال في الجبهة، وينزحون معهم خلال أهوال الحرب، يمرضون الجرحى ويدفنون الموتى، ويواسون الثكالى، يشتغلون، يستعطون، يسرقون

ليوجدوا الطعام على الموائد. وحتى في هذا الوقت، وبوجود هيئة التحرير التي كانت تعدهم بكل أنواع المعجزات، ما زال أولئك الخدم ملازمين لجماعتهم البيض، يعملون بشكل أشق مما كانوا يعملون في أيام العبودية. غير أن الشماليين لم يفهموا هذه الأمور، ولن يفهموها.

- «ومع ذلك فقد حرروك» قالت سكارلت بصوت مرتفع.

- «لا يا سيدة، إنهم لم يحرروني. ولن أدع أناساً حقيرين كهؤلاء يحرروني» قال بيتر ساخطاً، «إني ما زلت أتبع الآنسة بيتي، وعندما أموت، ستدفنني في مقبرة آل هاملتون حيث أنتمي... ستثور ثائرة سيدتي عندما أخبرها كيف أنك سمحت لهؤلاء الشماليات بأن يهينني».

- «أنا لم أفعل شيئاً من هذا القبيل!» صاحت سكارلت مجفلة.

- «لقد فعلت ذلك يا آنسة سكارلت» قال بيتر مبرزاً شفته أكثر، «إن القضية هي أنه لم يكن لك ولا لي شأن بالبقاء مع الشماليات حتى يهينني. ولو أنك لم تتحدثي إليهن، لما أتيحت لهن الفرصة ليعاملنني كبغل أو أفريقي. كما أنك لم تدافعي عني أيضاً».

- «لقد دافعت» قالت سكارلت ملذوعة من تهكمه، «ألم أخبرهن أنك أحد أفراد العائلة؟».

- «إن ذلك ليس دفاعاً، إن ذلك مجرد حقيقة» قال بيتر، «آنسة سكارلت، ليس من الضروري أن تتعاملي مع الشماليين، فليس هناك سيدة أخرى تفعل ذلك. إنك لن تُقنعي الآنسة بيتي بأن تمسح حذاءها الصغير على حقيرات كهؤلاء، ولن يسرّها الأمر عندما تسمع ما قلنه عني».

لقد آلم نقد بيتر سكارلت أكثر من أي شيء قاله فرانك أو العمة بيتي أو الجيران. لقد كدرها ذلك كثيراً، بحيث رغبت في أن تهز الزنجي العجوز إلى أن تصطفق لثتاه العديمتا الأسنان. كان الذي قاله بيتر كلاماً حقيقياً ولكنها كانت تمقت سماعه من زنجي، ومن زنجي

عائلة أيضاً. فأن لا يكون الإنسان رفيع المقام في نظر خدمه، أمر كان أشد ما يمكن أن يقع للجنوبي من إذلال.

- «مهرج عجوز!» دمدم بيتر، «إني أقول إن الآنسة بيتي لا تريدني أن أسوق عربتك بعد ذلك الحادث. لا يا سيدة!».

- «ستريدك الآنسة بيتي أن تسوق عربتي كالمعتاد» قالت بعبوس، «ولذلك دعنا لا نسمع المزيد عن هذه القضية».

- «إني سأعاني من ألم في ظهري» أنذر بيتر وهو عابس، «إن ظهري يبرح بي تبريحاً شديداً في هذه الدقيقة، بحيث أكاد لا أستطيع أن أجلس باعتدال، وسيدتي لن تريدني أن أسوق عندما أكون متألماً... آنسة سكارلت، لن يفيد التعامل مع الشماليين والبيض الحقيرين شيئاً، إذا كان أهلك لا يرضون عنك».

كان ذلك أدق موجز صحيح يمكن تقديمه عن وضع سكارلت، التي انكمشت في صمت ساخط. أجل، لقد كان المحتلون راضين عنها، بينما لم تكن عائلتها وجيرانها كذلك. وكانت هي تعرف كل الأشياء التي كانت المدينة تتحدث بها عنها. وحتى بيتر استنكر عملها الآن، إلى حد أنه لم يعد يريد أن يُرى معها في الأماكن العامة، وذلك آخر ما كانت تتوقعه.

كانت سكارلت فيما مضى غير عابئة بالرأي العام، ليس هذا فحسب، بل كانت تزدريه بعض الازدراء أيضاً. ولكن كلمات بيتر جعلت الغيظ العنيف يشتعل في صدرها، وجعلته يسوقها إلى نقطة دفاعية، ويجعلها فجأة تبغض الجيران كما تبغض الشماليين.

- «لماذا ينبغي أن يهتموا بما أفعل؟» فكرت، «لا بد أنهم يفكرون أنني أُسَرُّ بمعاملة الشماليين وبالكدح كعاملة حقل. إنهم إنما يجعلون العمل الصعب أصعب عليّ. ولكني لا أعبأ بما يفكرون، ولن أدع نفسي تعبأ، فليس في وسعي أن أعبأ بذلك، ولكن يوماً ما - يوماً ما -».

آه، يوماً ما! عندما يعود الأمان إلى دنياها ثانية، عندئذ ستجلس وتثني يديها وتعود سيدة عظيمة كما كانت إيلين. ستصبح إنسانة عاجزة مخدرة كما ينبغي للسيدة أن تكون، وعندئذ سيرضى الجميع عنها. آه، ما أعظم ما ستكون عندما تحوز المال ثانية. عندئذ سيكون في وسعها أن تدع نفسها رحيمة لطيفة كما كانت إيلين، مفكرة في الناس الآخرين، وباللياقات أيضاً. ولن تكون منقادة إلى المخاوف ليلاً ونهاراً، وستكون حياتها أمراً مطمئناً وئيد الخطى. سيكون لديها الوقت لتلعب مع أولادها ولتسمع دروسهم، سيكون هناك أمسيات طويلة دافئة تزورها فيها السيدات، وتقدم إليهن فيها الشاي والسندويتش الشهي والكعك وسط حفيف تنانير التفتة، والقرقعة المنتظمة الجشاء المنبعثة من المراوح المصنوعة من أوراق النخيل. وستقضي الساعات بحديث غير معجل، وستكون شديدة العطف على أولئك الذين قاسوا الشدائد، وستحمل السلال إلى الفقراء والحساء وحلوى الهلام إلى المرضى، وستحمل اللواتي هن أقل منها حظاً في عربتها لتروِّح عن نفوسهن. ستكون سيدة على الطريقة الجنوبية الصادقة، كما كانت أمها، وعندئذ سيحبها الجميع كما أحبوا إيلين، وسيقولون ما أعظم إيثارها ويدعونها «السيدة الكريمة».

ولم يعكر سرورها بأفكار المستقبل هذه أي إدراك بأنه لم تكن لديها أي رغبة حقيقية لتكون مؤثرة أو محسنة أو عطوفة، وكل ما أرادته في الواقع هو أن تشتهر بحيازتها لهذه الصفات. بيد أن تلافيف دماغها كانت أوسع وأخشن من أن تستطيع أن تجيز فروقاً صغيرة كهذه. كان حسبها أنها يوماً ما، عندما تحوز المال، سيرضى عنها الجميع.

يوماً ما! ولكن ليس الآن. ليس الآن، رغم ما يمكن أن يقوله أي إنسان عنها، فلم يكن الوقت مؤاتياً الآن لتكون سيدة عظيمة.

كان بيتر صادقاً ككلمته، فلقد ثارت العمة بيتي واشتد ألم بيتر

طول الليل إلى حد أنه لم يسق العربة ثانية. ومنذ ذلك الحين، ساقتها سكارلت وحيدة، وعاودت راحتيها تلك القرح التي كانت قد بدأت تزول منهما.

وهكذا مرت شهور الربيع، وتحوَّل طقس أبريل الممطر اللطيف إلى طقس مايو البلسمي الدافىء. وكانت الأسابيع مثقلة بالعمل والقلق وعقبات الحمل النامي، وبالأصدقاء القدامى يزدادون فتوراً نحوها، وبعائلتها تزداد عطفاً مطرداً عليها، واهتماماً جنونياً بها، وتعامياً عما كان يدفعها في تصرفاتها. وخلال أيام القلق والكفاح هذه، كان يوجد في دنياها شخص واحد فقط، يمكن الاعتماد عليه، وذلك الشخص هو ريت باتلر، لقد كان من الغريب أن يظهر من بين جميع الناس في هذا الضوء، فقد كان عديم الاستقرار كالزئبق، شريراً كشيطان خرج من الجحيم حديثاً، ولكن كان يمنحها العطف، الشيء الذي لم تكن قد نعمت به من أحد، والذي لم تكن تتوقعه منه أبداً...

وغالباً كان ريت يظل خارج المدينة في تلك الرحلات الغامضة إلى نيو أورليانز، الرحلات التي لم يكن يكشف عن سرها أبداً، والتي كانت سكارلت تشعر واثقة، بطريقة غيورة غامضة، بأنها كانت تتعلق بامرأة - أو بنساء. ولكن بعد أن رفض العم بيتر أن يقود عربتها، صار باتلر يمكث في أتلانتا فترات أطول وأطول.

وأثناء إقامته في المدينة، كان يقضي معظم وقته في المقامرة داخل الغرف التي تقع فوق صالة «فتاة العصر» أو في حانة بيل وتلينغ، حيث كان يتداول مع أغنياء الشماليين والكاربت بكرز في خطط جمع المال، الأمر الذي جعل سكان المدينة يمقتونه حتى أكثر من عشرائه، ولم يكن يزور بيت العمة بيتي الآن، وقد يكون ذلك مراعاة لشعور فرانك وبيتي، اللذين كان يمكن أن يغتاظا من زيارة رجل في وقت كانت فيه سكارلت في وضع دقيق. غير أن هذه كانت تلتقي به عرضاً كل يوم

تقريباً. ومرة بعد أخرى كان يتجه إلى عربتها وهو على حصانه، وذلك عندما كانت تمر خلال أماكن منعزلة في طريقي بيتشتري وديكاتور حيث كان يقع المعملان. وكان يجذب عنان فرسه دائماً ويتحدث إليها، وأحياناً كان يربط حصانه خلف العربة ويقود سكارلت في جولاتها. وكانت هي تتعب هذه الأيام بسرعة أعظم مما كانت تود أن تعترف، ولذلك كانت دائماً تشكر صنيعه بصمت، عندما يتسلم زمام عربتها. ورغم أنه كان دائماً يفارقها قبل أن يبلغا المدينة، فإن جميع سكان أتلانتا كانوا يعلمون باجتماعاتهما، الأمر الذي أضفى على الحديث عنها شيئاً جديداً، ليضاف إلى قائمة تعديات سكارلت على أوجه اللياقة.

وكانت سكارلت تتساءل بين الفينة والأخرى عما إذا كانت هذه اللقاءات ليست أكثر من عرضية، هذه اللقاءات التي أخذت تزداد حدوثاً كلما مرت الأسابيع، في وقت كان التوتر يشتد في المدينة من جرّاء انتهاك الزنوج للأعراض. ولكن لماذا كان باتلر ينشدها الآن من بين جميع الأوقات، وهي تبدو بأسوأ مظاهرها؟ من الأكيد أنه لم يكن يضمر لها السوء، إن كان قد أضمر يوماً. وقد بدأت سكارلت تشك حتى في هذا الأمر، فقد انقضت شهور منذ أن تفوَّه بأي تلميح ساخر عن مشهدها المغيظ في السجن الشمالي. كما أنه لم يذكر آشلي أو حبها له أبداً، وكذلك لم ينبس بأي عبارات فظة بذيئة عن «اشتهائه لها» وفكرت سكارلت أن من الأفضل أن تدع الكلاب النائمة تستغرق في نومها، وهكذا لم تسأله إيضاحاً عن سبب لقائهما المتكرر، وأخيراً قررت أنه، لكونه لا يملك إلا القليل ليعمله بالإضافة إلى القمار، ولكونه لا ينعم إلا بالقليل جداً من الأصدقاء الطيبين في أتلانتا، فإنه كان ينشدها وحيدة من أجل الرفقة.

ومهما كان يمكن أن يكون دافعه، فإنها وجدت رفقته مبهمة جداً،

فقد كان يصغي إلى تذمراتها عن الزبائن المفقودين والديون المزعجة وانزعاجها من أساليب السيد جونستون المحتالة، ومن عدم كفاءة هيو، وكان يطري انتصاراتها، بينما كان فرانك يبتسم لها مجاملاً فقط، وبيتي تقول: «يا للّه!» في أسلوب ينم عن بهر. وكانت سكارلت واثقة بأن باتلر كثيراً ما كان يقذف بالأعمال في طريقها، لأنه كان يعرف الشماليين والكاربت بكرز الأغنياء معرفة ودية. ولكنه كان دائماً ينكر أنه كان يساعدها. لقد كانت تعرفه على حقيقته ولم تكن تثق به أبداً، غير أنها كانت تنتعش بالبِشْر دائماً عند رؤيته راكباً حول منعطف طريق ظليل، فوق حصانه الأسود الكبير. وعندما كان يصعد إلى عربتها، ويأخذ العنان منها، ويقذفها ببعض العبارات الوقحة، كانت تشعر أنها ما زالت شابة مرحة جذابة، رغم كل همومها وتضخم جسدها المطرد. لقد كان في وسعها أن تتحدث إليه عن كل شيء تقريباً، دون أن تعبأ بإخفاء بواعثها أو آرائها الحقيقية، ولم تكن تتهرب أبداً من الأمور التي كان ينبغي أن تقولها، كما كانت تفعل مع فرانك، أو حتى مع آشلي، إن كان لا بد من أن تكون صادقة مع نفسها. ولكن طبعاً، في كل أحاديثها مع آشلي، كانت هناك أمور كثيرة جداً لم يكن من الممكن أن تقال حفاظاً على الشرق، بحيث إن قوة تلك الأمور كانت تنهى عن التصريح بعبارات أخرى. ولذلك كان من العزاء لها أن تنعم بصديق كريت طالما قرر أن يسلك سلوكاً حسناً معها لسبب لا يمكن تعليله. أجل، كان ذلك من العزاء العظيم لها، لأنها لم تكن تنعم إلا بقليل جداً من الأصدقاء في هذه الأيام. - «ريت» - قالت منفعلة، «بعد قرار العم بيتر الأخير بفترة قصيرة، لماذا يعاملني الناس في هذه المدينة بخسة بالغة، ويتحدثون عني هكذا؟ لا أدري بمن يشهرون أكثر، بي أم بالكاربت بكرز؟ إنني لا أهتم إلا بأعمالي الخاصة، ولم أرتكب أي عمل خاطئ أو -».

- «إذا لم ترتكبي أي عمل خاطئ، فذلك لأنه لم تتح لك الفرصة، وقد يكونون أدركوا ذلك بغموض».

- «كن جدياً أرجوك! إنهم يثيرونني كثيراً، إن ما فعلته هو محاولة جمع نقود قليلة و -».

- «كل ما فعلته يختلف عن عمل النساء الأخريات، ولقد نجحت به قليلاً. وكما أخبرتك قبلاً، تلك هي الجريمة التي لا تغتفر في أي مجتمع، كوني مخالفة تكوني ملعونة! اسمعي يا سكارلت، مجرد نجاحك في عملك هو إهانة لكل رجل لم ينجح. تذكّري أن مكان المرأة الراقية النشأة هو البيت، ولا ينبغي لها أن تعرف شيئاً عن هذا العالم الصاخب المتوحش».

- «ولكن لو قبعت في بيتي، لما بقي لي أي بيت أقيم فيه».

- «والنتيجة أنه كان يجب أن تتضوري جوعاً وتحتفظي برقّتك وكبريائك».

- «إنه هراء! ولكن انظر إلى السيدة ميريويذر، إنها تبيع الفطائر للشماليين، الأمر الذي هو أسوأ من إدارة معمل. والسيدة إلسينغ تخيط الثياب وتؤجر النزلاء، وفاني تطلي أدوات خزفية بشعة لا يرغب فيها أحد، ولكن الجميع مع ذلك يشترونها لمساعدتها، و -».

- «ولكنك غفلت عن النقطة الأساسية يا مدللتي. إنهن لسن ناجحات، ولذلك فهن لم يتعدين على الكبرياء الجنوبية الكامنة في رجالهن. ولا يزال في وسع أي من هؤلاء الرجال أن يقول: «يا للغبيات الحلوات المسكينات، ما أشق ما يحاولن! حسناً سأدعهن يعتقد أنهن يساعدننا». هذا علاوة على أن السيدات اللواتي ذكرتهن لا يغتبطن باضطرارهن إلى العمل، وهنّ يعلنّ أنهن إنما يقمن بذلك حتى يأتي رجل ويريحهن من أعبائهن غير النسوة. وهكذا يشعر أيضاً بأنك لن تسمحي لأي رجل بأن يرعى تجارتك بدلاً منك، ولن تسامحك

أتلانتا أبداً على هذه الخطيئة. إن من الممتع جداً أن يشعر الإنسان بالأسف من أجل الناس».

- «أرجو أن تكون جدياً في بعض الأوقات».

- «هل اتفق لك أن سمعت المثل الشرقي «الكلاب تنبح والقافلة تسير»؟ دعيهم ينبحون يا سكارلت فأنا أخشى ألّا يستطيع أحد إيقاف قافلتك».

- «ولكن لماذا ينبغي لهم أن يستاؤوا من جمعي قليلاً من النقود؟».

- «ليس في إمكانك أن تنالي كل شيء يا سكارلت، ففي وسعك إما أن تجمعي مالاً بطريقتك الحالية التي لا تتفق وشيم النساء، فتقابلين وجوهاً فاترة في كل مكان تذهبين إليه، أو أن تكوني فقيرة دمثة الأخلاق فتنعمين بأصدقاء كثر، ولقد أجريت اختيارك».

- «لن أكون فقيرة» قالت بسرعة، «ولكن... إنه الاختيار الصائب، أليس كذلك؟»

- «إذا كانت النقود هي أهم ما ترغبين فيه».

- «نعم، إني أرغب في المال أكثر من أي شيء آخر في الدنيا».

- «إذن لقد اخترت الشيء الوحيد، ولكن هناك العقاب المترتب عليه، الأمر الذي يوجد مع معظم الأشياء التي ترغبين فيها... إنه العزلة».

فأسكتها ذلك هنيهة، لقد كان قولاً صادقاً، وعندما كفت عن التفكير فيه، شعرت بأنها كانت حقاً منعزلة عن رفقة النساء. فخلال سني الحرب كانت هناك إيلين تزورها عندما كانت تشعر بصدرها ينقبض، ومنذ وفاة إيلين كانت هناك ميلاني دائماً، مع أنها هي وميلاني لم تكونا تتفقان على أمر واحد سوى العمل الشاق في تارا... والآن

لم يكن يوجد أحد، لأن العمة بيتي لم تكن تنعم بفهم للحياة أوسع من دائرة ثرثرتها الصغيرة.

- «أظن. . . أظن. . .» بدأت مترددة، «أني كنت دائماً وحيدة حيث كان للنساء شأن، فليس عملي فقط هو الذي يجعل نساء أتلانتا يبغضنني، وإنما هنّ لا يحببني على أية حال، بل لم يحدث أن أحبتني امرأة حباً حقيقياً باستثناء أمي. حتى شقيقتاي لم تكونا تحبانني. ولست أعرف سبب ذلك، ولكن حتى قبل الحرب، وحتى قبل أن أتزوج بتشارلي، لم يبدُ أن السيدات كنّ يرضين على أي شيء كنت أفعله».

- «لقد نسيت السيدة ويلكس» قال ريت وعيناه تشعان بالمكر، «لقد كانت دائماً ترضى عنك حتى القمة، وإني لأتجرأ على القول إنها كانت تستحسن كل شيء كنت تفعلينه، كل شيء أقل من جريمة قتل».

ففكرت باكتئاب «لقد رضيت حتى عن القتل» ثم ضحكت بازدراء:

- «ها، ميلي!» قالت وأردفت بتحسر: «ليس في صالحي حتماً أن تكون ميلي هي المرأة الوحيدة التي ترضى عني، لأنها لا تملك إدراك دجاجة، هذ إذا كان تملك أي إدراك» وصمتت في شيء من الارتباك.

- «لو كانت تملك أي إدراك، لأدركت بعض الأمور ولما كان في وسعها أن ترضى عنك» أتم ريت العبارة، «على كل حال، أنت تعرفين عن ذلك الأمر أكثر مما أعرف أنا طبعاً».

- «آه، لعن اللّه ذاكرتك وأخلاقك!».

- «سأتجاوز عن وقاحتك التي لا مبرر لها بالصمت الذي تستحقه، وأعود إلى موضوعنا السابق. كيِّفي عقلك مع ما سأقوله لك: إذا كنت تختلفين عن غيرك من النساء، فلن تُعزَلي عن الناس الذين هم في سنك فقط، بل عن أولئك الذين هم في جيل والديك، ومن جيل أولادك أيضاً. فهم لن يفهموك وسيذهلون مما تفعلين، مهما كان.

ولكن من المحتمل أن يفخر جداك بك ويقولان «شبل من ذاك الأسد» بينما سيتنهد أحفادك حسداً ويقولون: «لا بد أن كانت جدتنا عجوزاً شديدة الفسق» وسيحاولون أن يقتدوا بك».

فضحكت سكارلت طرباً.

- «إنك تصيب الحقيقة أحياناً، فقد كان لي جدة تدعى روبيلارد، اعتادت مامي أن تعيرني بها كلما ارتكبت خطأ. وكانت جدتي هذه عجوزاً باردة كجبل من الجليد، متعنتة فيما يتعلق بأخلاقها وأخلاق جميع الناس الآخرين، ولكنها مع ذلك تزوجت ثلاث مرات، وحظيت بعدد من المبارزات في سبيل نيلها. وكانت تضع أحمر الشفاه وترتدي أكثر الفساتين القصيرة إثارة، وترتديها من دون - حسناً - ولا ترتدي شيئاً كثيراً تحت فساتينها».

- «وكنت تكبرينها غاية الإكبار، رغم أنك حاولت أن تكوني كأمك! كان لي جد من عائلة أبي، وكان قرصاناً».

- «ليس حقيقة! من فئة القتلة السفاكين؟».

- «أستطيع القول إنه كان يسوق الناس إلى حتوفهم إذا وجد أن هناك مجالاً لنيل نقود عن ذلك السبيل. وعلى كل حال، لقد جمع مالاً كافياً لجعل والدي ثرياً تماماً، ولكن العائلة كانت تشير إليه دائماً بـ «قائد بحري». لقد قُتل أثناء مشاجرة في إحدى الحانات قبل أن أولد بمدة طويلة. ولا داعي للقول إن وفاته كانت فرجاً عظيماً لأولاده، ذلك لأن والدهم العظيم كان ثملاً معظم أوقاته. وعندما كان يجلس بين الكؤوس، كان عرضة لنسيان أنه كان قائداً بحرياً متقاعداً، فيروي ذكريات تقشعر لها شعور أولاده. وعلى كل حال، لقد أعجبت به وحاولت أن أحذو حذوه، أكثر بكثير مما حذوت حذو والدي، لأن والدي رجل ودود، غني بالعادات الشريفة والأقوال الدينية - وهكذا ترين كيف تجري الأمور. إني واثق أن أولادك لن يرضوا عنك يا

سكارلت، أكثر مما ترضى عنك السيدة ميريويذر والسيدة إلسينغ وذريتهما الآن، ذلك أن أولادك يرجح أن يكونوا مخلوقات حيية رقيقة، كما يكون أولاد ذوي الطباع الصلبة المغمز في العادة. ومما يزيد في نقائصهم هو أنك كأي أم أخرى، قد تكونين مصممة على أنه لا ينبغي لهم أن يعرفوا الشدائد التي عرفتها أنت، الأمر الذي هو خطأ كلية، لأن الشدائد هي التي تخلق الإنسان أو تسحقه. وهكذا سيكون عليك أن تنتظري الرضى من أحفادك».

- «إني لأتساءل كيف سيكون أحفادنا؟».

- «هل تعنين بـ«أحفادنا» تلك، أنك وأنا سنرزق أحفاداً مشتركين؟ يا للعار يا سيدة كنيدي!».

فاحمر وجه سكارلت وقد وعت فجأة غلطة حديثها. والواقع أن الذي جعلها تشعر بالعار كان أكثر من كلماته الساخرة، فقد تنبهت فجأة إلى حالة جسدها المنتفخ. ولم يكن أحد منهما قد أشار قبلاً إلى حالتها تلك، بأي شكل من الأشكال. وكانت هي دائماً، تبقي رداء الحَبَل عالياً تحت إبطيها عندما تكون برفقته، حتى في الأيام الحارة، معزية نفسها، شأن غيرها من النساء، بالاعتقاد أنها لم تكن تبدو حاملاً أبداً وهي مسربلة هكذا. ولذلك تولاها فجأة غضب شديد سريع على حَبَلها، كما تولاها عار لأنه عرف بهذا الحَبَل.

- «اخرج من هذه العربة أيها الوغد القذر التفكير» قالت وصوتها يرتجف.

- «لن آتي شيئاً قذراً» أجاب بهدوء، «ستظلم الدنيا قبل أن تصلي إلى البيت. وهناك مستعمرة جديدة للزنوج، من الخيام والأكواخ، قرب الينبوع التالي، زنوج أوغاد كما أنبئت، ولست أرى سبباً يضطرك إلى أن تقدمي للكوكلوكس كلان حجة لارتداء قمصان الليل والخروج هذا المساء».

- «اخرج» صاحت وهي تهز العنان، بيد أن القيء اندفع من فمها فجأة. وعندئذ أوقف ريت العربة بسرعة، وناولها منديليه النظيفين، وأمسك رأسها فوق جانب العربة بشيء من المهارة. وكانت شمس المساء تميل منخفضة عبر الأشجار المورقة حديثاً، وأحست سكارلت أنها تدور للحظات قليلة في دوامة ممرضة من اللونين الذهبي والأخضر. وبعد أن زالت النوبة، وضعت رأسها بين يديها وراحت تبكي من هذه المهانة العلنية، فهي لم تتقيأ أمام رجل وحسب - الأمر الذي كان يعتبر بحد ذاته حادثاً سيئاً من أفظع ما يمكن أن يحل بامرأة - بل إنها أيضاً لا بد أن تكون بعملها هذا قد كشفت عن الحقيقة المخزية، حقيقة كونها حبلى. وأحسن أنها لن تستطيع أبداً أن تنظر في وجهه ثانية. آه، أن يحدث هذا معه من بين جميع الناس، مع ريت الذي لم يكن يحترم النساء! وبكت، وكانت تتوقع منه بعض العبارات الماجنة الفظة، التي لن تستطيع نسيانها أبداً.

- «لا تكوني حمقاء» قال بهدوء، «إنك لحمقاء إن كنت تبكين خزياً. اسمعي يا سكارلت، لا تكوني طفلة. لا بد أنك تعلمين أنني كنت أعرف أنك حامل، طالما أني لست أعمى».

فقالت: «آه» في صوت مذهول، وضغطت أصابعها على وجهها المحمر. لقد كانت الكلمة نفسها ترعبها، لقد كان فرانك دائماً يشير إلى حبلها بارتباك، بكلمة «حالتك»، كما أن جيرالد كان من عادته أن يقول برقّة «في طريق تكوين عائلة» كلما اضطر إلى ذكر أمور كهذه. وكذلك السيدات، كن يشرن إلى موضوع الحبل بأدب وبعبارة «إنها في حالة حرجة».

- «أنت طفلة إذا كنت تفكرين أني لم أكن أعرف، رغم أنك كنت تخنقين نفسك داخل ذلك الرداء الحار. طبعاً لقد كنت أعرف. لماذا تفكرين أني كنت -».

وصمت فجأة، وخيَّم السكوت بينهما، ثم تناول الزمام، وقرقع للحصان وتابع حديثه بهدوء. وبينما كانت كلماته البطيئة تهبط على مسامعها، كانت الحمرة تتلاشى من وجهها المطرق إلى أسفل.

- «لم أكن أعتقد أنك يمكن أن تُصدَمي هكذا يا سكارلت. كنت أعتقد أنك إنسان عاقل ولقد خاب أملي الآن. أمن الممكن أن تكون الحشمة ما زالت تكمن في صدرك؟ أخشى ألّا أكون رجلاً فاضلاً لأني طرقت الموضوع. غير أني أعرف أني لست رجلاً فاضلاً، نظراً إلى أن الحبالى لا يربكنني كما ينبغي. فأنا أجد أن من الممكن أن أعاملهن كمخلوقات عادية، وأن لا أنظر إلى الأرض أو السماء أو أي مكان آخر في الدنيا، باستثناء حضورهن - ومن ثم أختلس النظرات إليهن، النظرات التي كنت أعتقد أنها ذروة الشين. لماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟ إنها حالة طبيعية تماماً. إن الأوروبيين أعقل منا بكثير جداً. إنهم يهنئون الأمهات الحوامل على حملهن. وعلى الرغم من أنني لا أنصح بالتطرف إلى هذا الحد، فإنني أعتقد أن ذلك أعقل من طريقتنا في محاولة تجاهل الأمر. إنها حالة طبيعية، ويجب على النساء أن يفخرن بها، بدلاً من أن يختبئن خلف الأبواب المغلقة كأنهن اقترفن جريمة».

- «يفتخرن!» صاحت بصوت متلعثم - «يفتخرن، أوه!».

- «ألست فخورة لأنك تحملين طفلاً؟».

- «آه، يا للّه العزيز، لا! - إني - إني أكره الأطفال!».

- «تقصدين - طفل فرانك؟».

- «لا، طفل كل إنسان».

ولهنيهة أحست بالضيق ثانية، من جرّاء الغلطة الجديدة في كلامها. ولكن صوته استمر طبيعياً كأنه لم يلحظ خطأها.

- «إذن فنحن مختلفان. إني أحب الأطفال».

- «أنت تحبهم؟» صاحت رافعة بصرها، مشدوهة بقوله بحيث نسيت ضيقها، «ما أفظع كذبك!».

- «إني أحب الأطفال، وأحب الأولاد الصغار إلى أن يكبروا ويكتسبوا عادات الشبان البالغين في التفكير والمقدرة على الكذب والخداع والقذراة، وإن ذلك لا يمكن أن يكون جديداً عليك، فأنت تعرفين أني أحب ويد هاملتون حباً جماً، رغم أنه ليس الصبي الذي ينبغي أن يكونه».

لقد كان ذلك كلاماً صادقاً، فكرت سكارلت فجأة باستغراب، فقد كان يبدو على ريت أنه يبتهج حقاً باللعب مع ويد، ومراراً ما جلب له الهدايا.

- «الآن وقد كشفنا القناع عن هذا الموضوع الرهيب، واعترفت بأنك تنتظرين مولوداً في المستقبل القريب، فإني سأقول شيئاً كنت أريد أن أقوله منذ أسابيع - شيئين: الأول أنه من الخطر عليك أن تخرجي بالعربة وحدك. أنت تعرفين ذلك، ولقد أخبرتك به مراراً. وإذا كنتِ شخصياً لا تعبئين، أَهُتِكَ عِرضُك أم لا، فإن في إمكانك أن تقدري النتائج. فقد تؤدّين بنفسك، بسبب عنادك، إلى وضع يضطر معه أبناء مدينتك الشهام إلى أن ينتقموا لعرضك بشنق بعض الزنوج، الأمر الذي سيدفع الشماليين إلى مطاردتهم وشنق أحدهم على الأرجح. هل خطر في بالك يوماً، أنه ربما كان أحد الأسباب التي تجعل السيدات لا يحببنك، هو أن سلوكك يمكن أن يسبب إعدام أحد أبنائهن أو أزواجهن؟ وأكثر من ذلك، إذا ما قبض الكوكلوكس كلان على عدد كبير آخر من الزنوج، فإن الشماليين سيشددون قبضتهم على أتلانتا بصورة تجعل فظائع شيرمان تبدو ملائكية أمام أعمالهم. إني أعرف عما أتكلم، لأني على صلة وثيقة بهم. وإني أخجل أن أقول إنهم يعاملونني كواحد منهم، فأسمعهم يتحدثون بصراحة. إنهم ينوون أن

يستأصلوا شأفة الكوكلوكس ولو كان ذلك يعني حرق المدينة مرة ثانية وإعدام كل ذكر يتجاوز العاشرة من عمره. إن ذلك سيؤذيك يا سكارلت، إذ من الممكن أن تخسري بعض المال. هذا وليس في وسع أحد أن يعرف أين ستقف النار الهائجة، إذا ما اندلعت: مصادرة أملاك، ضرائب أبهظ، غرامات على النساء المريبات - لقد سمعتهم يقترحون ذلك كله. أما بخصوص الكوكلوكس -».

- «هل تعرف أحداً من الكوكلوكس؟ هل تومي ولبورن أو هيو أو -».

فهز كتفيه وقد نفد صبره:

- «كيف يمكنني أن أعرف؟ إني رجل خائن، مارق، سكالاواغ، فهل من الممكن أن أعرف؟ إلا أنني أعرف رجالاً يرتاب بهم الشماليون، وأي حركة خاطئة تصدر عنهم ستودي بهم إلى المقصلة. وبينما أعرف أنك لا تندمين على إيصال جيرانك إلى المشنقة، أعتقد أنك ستندمين على خسارة معمليك. إني أدرك من النظرة العنيدة التي تبدو في وجهك، أنك لا تصدقينني وأن كلماتي تنزل على أرض صخرية. ولذلك فإن كل ما أستطيع قوله: احتفظي بمسدسك ذاك في متناول يدك - وعندما أكون في المدينة، سأحاول أن أكون تحت تصرفك لأقود لك العربة».

- «ريت، هل أنت حقاً - هل من أجل حمايتي -؟».

- «أجل يا عزيزتي، إنها فروسيتي الذائعة الصيت هي التي تجعلني أحميك». أجابها وقد بدا البريق الساخر يتراقص في عينيه السوداوين بينما زالت من وجهه كل أمارات الجد، «وأما لماذا؟ فلحبي العميق لك يا سيدة كنيدي. أجل، إني أتحرق بصمت جوعاً وعطشاً إليك، إني أعبدك من بعيد، ولما كنت رجلاً شريفاً كالسيد آشلي ويلكس، فقد أخفيت ذلك عنك. إنك ويا للأسف زوجة فرانك، وقد

منعني الشرف من أن أصارحك بهذا. ولكن، لما كان حتى شرف السيد ويلكس ينثلم من وقت إلى آخر، فهكذا ينثلم شرفي الآن، وأنا أفصح عن عاطفتي السرية وعن -».

- «آه، من أجل اللّه، اصمت!» قاطعته سكارلت وقد انزعجت كعادتها عندما يجعلها تبدو كحمقاء مخدوعة، لا تحفل بأن يصبح آشلي وشرفه موضوع حديث مستطرد... «وما هو الشيء الآخر الذي كنت تريد أن تخبرني به؟».

- «ماذا! تغيّرين الموضوع عندما أكشف لك عن قلب محب ممزق؟ حسناً، إن الشيء الآخر هو ما يلي:» وتلاشى الضوء الساخر من عينيه ثانية، وبدا وجهه أسمر مطمئناً «أريدك أن تفعلي شيئاً بخصوص هذا الحصان. إنه حرون وله فم صلب كالحديد. إن قيادته تتعبك، أليس كذلك؟ وإذا ما ارتأى أن يجمح مرة، فلن يكون في وسعك إيقافه. وإذا ما قلبت في أحد الخنادق فمن المحتمل أن يودي ذلك بجنينك وبك أيضاً. عليك أن تستعملي أمتن شكيمة تستطيعين الحصول عليها، وإلا دعيني أقايض عليه بحصان سهل القياد، ذي فم أكثر حساسية».

فتطلعت في وجهه الرقيق المبهم، وفجأة زال غيظها، تماماً كما كان ضيقها قد اختفى إثر الحديث عن حَبَلها. لقد كان رحيماً بها قبيل دقائق قليلة عندما أراد أن يهدئ من روعها، بينما كانت هي تتمنى لو كانت ميتة. وقد كان الآن أرحم من المرة السابقة، إذ كان دائب التفكير في أمر الحصان. أحست بدفق من عرفان الجميل نحوه وتساءلت لماذا لم يكن في وسعه أن يكون بهذه الصفة دائماً.

- «إن الحصان صعب القياد» وافقت بوداعة، «فبعض الأحيان تظل ذراعاي تؤلمانني طول الليل من جرّاء جذبي له. افعل به ما تراه الأفضل يا ريت».

فبرقت عيناه بلؤم:

- «إن هذا الكلام يبدو شديد العذوبة والأنوثة يا سيدة كنيدي. وهو ليس بأسلوبك المسيطر المعتاد أبداً. حسناً، إن المسألة لا تتطلب غير معاملة بارعة، كي يستخرج الإنسان منك كرمة متدلية».

فتجهم وجهها وثارت ثائرتها مجدداً.

- «ستنزل من هذه العربة هذه المرة، وإلا سأضربك بالسوط. أنا لا أعرف لماذا أصبر عليك - لماذا أحاول أن أكون لطيفة معك. فأنت لا أخلاق لك ولا أدب. أنت لا شيء سوى - هيا اخرج، إني أعني ما أقول».

ولكن عندما نزل، وفك فرسه من خلف العربة، ووقف في الطريق المنيرة بضوء الغسق، يبتسم كيداً لها، لم تستطع أن تخنق ابتسامتها وهي تنطلق بالعربة.

أجل لقد كان فظاً، كان محتالاً، كان التعامل معه أمر لا يؤتمن، ولم يكن في مقدور أحد أن يعرف متى يمكن أن يتحول السلاح الذي وضعته في يديه في لحظة من الغفلة إلى أحدِّ نصل، ولكن مع ذلك، كان ريت منعشاً ك - حسناً، ككوب من البراندي يؤخذ خلسة!

وكانت سكارلت خلال هذه الشهور قد عرفت فائدة البراندي. فعندما كانت تعود إلى البيت أواخر النهار وهي مبللة من المطر، متوترة الأعصاب، متألمة من الساعات الطوال التي قضتها في العربة، لم يكن يعنيها شيء سوى التفكير في القارورة المخبأة في جارور مكتبها العلوي، الجارور المقفل خوفاً من عيني مامي المتجسستين، ولم يكن الدكتور ميد قد قرر أن يحذرها من أن امرأة في حالتها لا ينبغي لها أن تشرب الخمر، لأنه لم يخطر له أبداً أن امرأة محتشمة يمكن أن تشرب أي مشروب آخر غير نبيذ سكوبرنونغ[1]، طبعاً، باستثناء كأس من

---

(1) Scuppernong: نهر في كارولاينا الشمالية - (المترجمان).

الشمبانيا في عرس، أو كأس من خمر تمر النخيل الحار عند ملازمة الفراش بزكام شديد. طبعاً كانت توجد نساء تعسات يشربن فيسمن عوائلهن بالعار إلى الأبد، تماماً مثلما كانت توجد نساء معتوهات أو مطلقات، أو نساء يشاركن الآنسة سوزان ب. أنطوني اعتقادها بأن النساء ينبغي أن يصوتن. ولكن بالقدر الذي كان فيه الدكتور غير راضٍ عن سكارلت، لم يداخله أي ارتياب في أنها لا تشرب.

كانت سكارلت قد وجدت أن جرعة البراندي الخالص تؤخذ قبل العشاء تساعدها إلى درجة لا تقاس، وكان في وسعها دائماً أن تمضغ القهوة أو أن تتغرغر بالكولونيا لتخفي رائحة البراندي. وإنها لتتساءل لماذا كان الناس سخفاء جداً فيما يتعلق بشرب الخمر، بينما كان في وسع الرجال، وهذا ما كانوا يفعلونه، أن يشربوا حتى يترنحوا ثملين، كلما رغبوا في ذلك؟ بعض الأحيان، عندما كان فرانك يضطجع وهو يشخر إلى جانبها، والنوم يهرب من جفنيها، عندما كانت تستلقي على وجهها ومخاوف الفقر تنهشها، والشماليون يرهبونها، والشوق إلى تارا واللهفة على آشلي تحرقانها، كانت تفكر في أنها ستجن لولا وجود قارورة البراندي. وعندما كان الدفء اللاذ الأنيس يتسلل إلى عروقها، كانت متاعبها تشرع في الزوال، وكان في وسعها دائماً أن تقول بعد جرعات ثلاث: «سأفكر في هذه الأمور غداً، عندما يكون في وسعي احتمالها بشكل أفضل».

ولكن كانت هناك بعض الليالي التي لم يستطع حتى البراندي أن يسكن الألم في قلبها أثناءها، الألم الذي كان أقوى حتى من الخوف من فقدان المصنعين، ألم الشوق لرؤية تارا ثانية. فأتلانتا بضجيجها، بأبنيتها الجديدة، بوجوهها الغريبة، بشوارعها الضيقة المزدحمة بالخيل والعربات، وبالجماهير الصاخبة، أتلانتا هذه كانت تبدو أحياناً كأنها تخنقها. لقد كانت تحب أتلانتا، ولكن - آه، على الطمأنينة العذبة

والهدوء الريفي في تارا، على الحقول الحمراء والصنوبرات الدكناء حولها! آه، حبذا العودة إلى تارا مهما يمكن أن تكون الحياة صعبة فيها، وحبذا قرب آشلي، لتراه فقط، لتسمعه يتكلم، لتنتعش بمعرفة أنه يحبها! لقد كانت كل رسالة من ميلاني تخبرها بأنهم جميعاً في حالة جيدة. لقد كانت كلّ مذكرة قصيرة من ويل تحدّثها عن الحراثة وعن الزرع ونمو القطن. لقد كان كل ذلك يجعلها تتوق إلى البيت ثانية.

سأذهب إلى البيت في يونيو، فلن يكون في وسعي عمل شيء هنا بعد ذلك التاريخ. سأذهب إلى البيت لأمكث مدة شهرين، فكرت، وقلبها ينتعش. وفعلاً ذهبت سكارلت إلى البيت في يونيو، ولكن ليس كما كانت قد رغبت في أن تذهب، ذلك أنه في وقت مبكر من ذلك الشهر، وصلت رسالة قصيرة من ويل تعلن وفاة جيرالد.

39

كان القطار يسير ببطء شديد، وكان ضوء غسق يونيو الأزرق القاتم يغمر الريف، عندما نزلت سكارلت في جونسبورو، حيث كانت أشعة المصابيح الصفراء تكشف داخل المخازن والبيوت القليلة جداً التي سلمت من الحريق، فهنا وهناك، كانت توجد فسحات واسعة بين مباني الشارع الرئيس، حيث كان السكان قد احترقوا أو لاقوا حتفهم من قصف المدافع. وكانت البيوت المدمرة التي فتحت القنابل فجوات في سقوفها، وانتصبت جدرانها نصف متهدمة، تحدق بسكارلت صامتة قاتمة. ورأت سكارلت بعض خيول الركوب وبغال الحراثة مربوطة خارج خيمة مخزن بولارد الخشبية، أما الطريق الحمراء المغبرة فقد كانت خالية من المارة وعديمة الحياة، وكانت الأصوات القليلة المسموعة من القرية، عبارة عن بعض صيحات وضحكات مخمورة فقط، تطفو في هواء الغسق الساكن، صادرة من حانة بعيدة في أسفل الشارع.

لم تكن محطة القطار قد أعيد بناؤها بعد منذ أن احترقت في المعركة. وكانت تقوم في مكانها مظلة خشبية، مظلة بلا جوانب لاتقاء أعراض الطقس، وسارت سكارلت تحت المظلة وجلست على أحد البراميل الصغيرة الفارغة التي كان من الواضح أنها وضعت هناك لتستعمل كمقاعد. ثم راحت تحدق نحو أعلى الشارع وأسفله بحثاً عن

ويل بنتين، الذي كان ينبغي أن يكون هنا لاستقبالها، والذي كان ينبغي أن يعرف أنها كانت ستأخذ أول قطار ممكن، بعد أن تلقت رسالته الموجزة المتضمنة نبأ وفاة جيرالد.

لقد سافرت على عجل، بحيث إنها لم تكن تحمل في حقيبتها الصغيرة سوى ثوب نوم وفرشاة أسنان فقط، حتى ولا غيار لملابسها الداخلية. ولم تكن مرتاحة في الثوب الأسود الضيق الذي كانت قد استعارته من السيدة ميد لأنه لم يكن لديها الوقت لتبتاع ثياب حداد لها. وكانت السيدة ميد نحيفة الآن بينما كان حبل سكارلت يتقدم به الوقت، الأمر الذي جعل ثوب الحداد مضاعف الضيق. ولم تغفل سكارلت، حتى وهي في حزنها على موت جيرالد عن المظهر الذي كانت تبدو به، فكانت تنظر إلى جسدها باشمئزاز، كان قوامها قد تغير كلية، وكان وجهها وكاحلاها متورمة. ولم تكن تحفل بمظهرها قبل الآن، ولكن لما كانت سترى آشلي في خلال ساعة من الوقت، فإنها اهتمت بالأمر كثيراً. وحتى وهي مفجوعة القلب، انكمشت من فكرة مواجهته، بينما هي تحمل طفل رجل غيره. لقد كانت تحبه، وكان هو يحبها، ولكن هذا الطفل غير مرغوب فيه، كان يبدو الأمر برهاناً على الكفر بذلك الحب. ورغم شدة نفورها من أن يراها وقد ذهب منها ضمور خصرها ورشاقة خطوها، فإنه لم يكن في وسعها الآن تجنب هذا الأمر.

وقرعت بقدمها الأرض بنفاد صبر، فقد كان ينبغي أن يستقبلها ويل. طبعاً، لقد كان في وسعها أن تذهب إلى مخزن بولارد وتستوضح عنه، أو تطلب من أحد الحوذيين الموجودين هناك أن يقلّها بعربته إلى تارا، وذلك إذا ما اكتشفت أن ويل لم يستطع القدوم. غير أنها لم تكن ترغب في الذهاب إلى مخزن بولارد، فالليلة كانت ليلة السبت، ومن المحتمل أن يكون نصف رجال المقاطعة موجودين هناك، ولم تكن

ترغب في أن تعرض حالها وهي في هذا الثوب الأسود العديم الذوق، الذي يُبرز هيكلها بدلاً من أن يحجبه. ولم تكن تريد كذلك أن تسمع عواطف الحزن التي ستتدفق عن جيرالد، فهي لم تكن تريد أن يشاركها أحد في أحزانها، لأنها كانت تخشى البكاء إذا ما ذكر بعضهم أمامها حتى مجرد اسم والدها، ولم تكن هي تريد البكاء، لأنها كانت تعرف أنها إذا شرعت فيه مرة، فسيحدث لها مثلما حدث يوم بكت ورأسها في عرف الحصان في تلك الليلة الرهيبة عندما سقطت أتلانتا وغادرها ريت في الطريق المظلم خارج المدينة، هناك حيث سفحت الدموع الغزيرة التي مزقت قلبها، ولم يكن في المستطاع إيقافها.

لا، لن تبكي! وأحست بالغصة في حلقها ترتفع ثانية كما حدث لها مراراً منذ بلغها النبأ. بيد أن البكاء لن يجديها شيئاً وإنما سيربكها ويضعفها. عجباً، آه، لماذا لم يكتب لها ويل أو ميلاني أو شقيقتاها أن جيرالد كان بين براثن الألم؟ لو فعلوا ذلك لأخذت أول قطار إلى تارا لتعتني به، ولأحضرت طبيباً من أتلانتا إذا اقتضى الأمر. يا للأغبياء، جميعهم! ألم يكن في وسعهم تدبير أي شيء من دونها؟ فهي لم تكن تستطيع أن تكون في مكانين في وقت واحد، والله يعرف أنها كانت تعمل جهدها من أجل مصلحتهم جميعاً في تارا.

وتململت في جلستها فوق البرميل وقد غدت نزقة برمة لأن ويل لم يأتِ بعد. أين كان؟ ثم سمعت صرير الفحم الحجري الموجود بين قضبان السكة الحديد خلفها، وعندما استدارات بجسدها، رأت ألِكس فونتين يعبر القضبان باتجاه إحدى العربات، وعلى كتفه كيس من الشوفان.

- «يا للّه العظيم! ألست سكارلت؟» صاح طارحاً الكيس وراكضاً ليصافحها، والسرور يغمر كل وجهه الصغير الأسمر الصارم، «إنني سعيد جداً برؤيتك. لقد شاهدت ويل هنالك في دكان الحداد، يحذو

حصانه. لقد تأخر القطار فاعتقد أن لديه بعض الوقت. هل أجري وأحضره؟».

- «نعم أرجوك يا ألِكس» قالت مبتسمة رغم حزنها، فقد كان من دواعي الشعور بالفرح أن ترى أحد وجوه الولاية ثانية.

- «آه - اي - سكارلت» شرع يتحدث بارتباك وهو ما زال ممسكاً بيدها، «إني حزين جداً على والدك».

- «أشكرك» أجابت متمنية لو لم يتفوّه بها، لأن كلماته ذكّرتها بجلاء تام، بوجه جيرالد المورد وبصوته الهدار.

- «إننا هنا فخورون جداً به يا سكارلت، إن كان في هذا شيء من العزاء لك» تابع ألِكس مفلتاً يدها، «إنه - حسناً ، إننا نعتبر أنه مات كجندي وفي قضية جندي».

ماذا كان يعني ذلك، فكرت سكارلت حائرة، جندي؟ هل قتله أحد؟ هل تعارك مع السكالاواغز كما سبق لتوني أن فعل؟ ولكن ينبغي ألّا تسمع أكثر من ذلك، لأنها ستبكي إن هي تحدثت عنه، بينما كان ينبغي ألّا تبكي. نعم، إلى أن تغدو آمنة في العربة مع ويل، خارج البلدة، في الريف حيث لا يستطيع غريب أن يراها. أما ويل فلن يؤثر وجوده، فلقد كان بمثابة الشقيق تماماً.

- «ألِكس، إني لا أرغب في التحدث عن هذا الأمر» قالت باقتضاب.

- «أنا لا ألومك مطلقاً يا سكارلت» قال ألِكس، بينما كان دم الغضب الأسود يتدفق في وجهه، «لو أنها كانت أختي - لكنت - على كل حال يا سكارلت، أنا لم أتفوه حتى الآن بأي كلمة قاسية عن أي امرأة، ولكني أعتقد أنه ينبغي أن تجلد سولين بسوط جلدي».

«أي سخف كان الذي يتحدث عنه الآن، ما علاقة سولين بهذا كله؟».

- «ويؤسفني أن أقول إن كل إنسان في الجوار يشعر بالشعور ذاته نحوها. إن ويل هو الشخص الوحيد الذي يدافع عنها - والآنسة ميلاني طبعاً، غير أن هذه قديسة، ولن ترى سوءاً في أي إنسان و -».

- «قلت إني لا أريد أن أتحدث عن هذا الأمر» قالت ببرود، ولكن لم يبدُ أن ألِكس قد صُدم بردّها، وإنما بدا كأنه فهم وقاحتها، الأمر الذي كان مزعجاً لها. ولم تكن ترغب في أن تسمع أنباء سيئة عن عائلتها من رجل غريب عن هذه العائلة، كما لم تكن تريده أن يعرف جهلها بما كان قد حدث. لماذا لم يبعث لها ويل بالتفاصيل الكاملة؟

ورجت ألّا ينظر إليها ألِكس بقسوة شديدة، وشعرت أنه أدرك حالها، الأمر الذي ضايقها. غير أن الذي كان يفكر فيه ألِكس وهو يحدق بها في ضوء الغسق هو أن وجهها كان قد تغير تغيراً تاماً بحيث إنه تساءل كيف استطاع أن يميز شخصها. قد يكون ذلك لأنها حبلى، فالنساء كنّ يبدون كالشياطين في أوقات كهذه. وطبعاً، لا بد أنها كانت تشعر بحزن شديد على السيد أوهارا العجوز، فقد كانت مدللته. ولكن لا، لقد كان التغير أعمق من ذلك. كانت في الحقيقة تبدو أحسن مما كانت عليه عندما رآها آخر مرة، فعلى الأقل، كانت تبدو الآن كما لو كانت تأكل ثلاث وجبات كاملة في اليوم، وقد غادرت نظرة الحيوان المطارد عينيها جزئياً، وأضحت العينان اللتان كانتا مخيفتين يائستين، أضحتا صارمتين، يكتنفهما مظهر من السلطة والثقة والتصميم، حتى وهي تبتسم. ولكنها، أخذ يفكر، كانت تؤمّن حياة هنيئة لفرانك العجوز! أجل لقد تغيرت. لقد كانت امرأة جميلة بلا شك، غير أن كل تلك النعومة العذبة الحلوة قد ذهبت من وجهها، وتلك الطريقة المتملقة في التطلع إلى الرجل، التي كان يعرفها فيها معرفة تفوق قدرة البشر، قد اختفت تماماً.

حسناً، ألم يكونوا جميعهم قد تغيروا؟ ونظر ألِكس إلى ثيابه الخشنة وكست وجهه ملامح المرارة المعتادة. ففي بعض الأحيان، عندما كان يضطجع مستيقظاً، متسائلاً كيف كانت أمه ستقوم بتلك الأعمال المنوطة بها، وكيف كان الصبي الصغير المسكين، ابن جو الميت، سينال تعليمه، وكيف هو سينال نقوداً لشراء بغل آخر، عندئذ يتمنى لو استمرت الحرب، يتمنى لو استمرت إلى الأبد. فهم لم يكونوا يعرفون مصيرهم آنئذ، وكان يوجد في الجيش شيء للأكل دائماً، حتى لو كان خبز ذرة، لقد كان هناك دائماً إنسان يعطي الأوامر، ولم يكن هناك أبداً شيء من هذا الإحساس المعذب بمواجهة المشاكل التي لا يمكن حلها - لا شيء تتكدر من أجله في الجيش سوى أن تقع قتيلاً. ثم كان هناك ديمتي مونرو، التي كان ألِكس يرغب في التزوج بها، والتي كان يعرف أنه لم يكن في وسعه ذلك حين كان كثيرون يتطلعون إليه ليعيلهم. وكان ألِكس قد أحبها منذ زمن طويل، وقد أخذت الورود تذبل في وجنتيها الآن، وبريق السعادة يخبو في عينيها. حبذا لو أن توني لم يضطر للهرب إلى تكساس، فوجود رجل آخر معه كان يمكن أن يسبب كل الاختلاف في دنياه. إن شقيقه الصغير المحبوب السيّئ الطبع يعيش الآن معدماً في مكان ما في الغرب. أجل لقد تغيروا جميعهم. ولم لا؟ وتنهد عميقاً.

- «أنا لم أشكرك بعد لما قمت به أنت وفرانك من أجل توني» قال، «لقد كنتما من ساعداه على الهرب، أليس كذلك؟ لقد كان ذلك عملاً جميلاً منكما. قد سمعت بطريقة غير مباشرة أنه يعيش الآن آمناً في تكساس. لقد كنت خائفاً من أن أكتب إليك وأسألك - ولكن هل أقرضته أنت أو فرانك أي نقود؟ فأنا أريد أن أسدد -».

- «ها ألِكس، أرجوك اصمت! ليس الآن!» صاحت سكارلت، إذ لم تكن النقود تعني شيئاً لها الآن.

وصمت ألِكس هنيهة.

- «سأحضر لك ويل» قال، «وسنلتقي جميعاً في الجنازة غداً».

وعندما تناول كيس الشوفان واستدار بعيداً، خرجت تترنح من أحد الشوارع الجانبية عربة بعجلات خرعة، تصر وهي تسير نحوها، ونادى ويل من المقعد: «إني آسف لتأخري يا سكارلت».

نزل ويل من العربة مرتبكاً ثم راح يتعثر نحوها وانحنى مقبِّلاً وجنتها. ولم يكن قد قبَّلها من قبل، كما لم يدعها مرة دون أن يقرن اسمها بكلمة «آنسة»، ولذا أدهشها الأمر، إلا أنه رغم ذلك أدفأ قلبها وأفرحها كثيراً. ثم رفعها ويل بعناية فوق الدولاب إلى داخل العربة، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأت أنها كانت العربة القديمة الخرعة ذاتها التي كانت قد هربت فيها من أتلانتا. كيف أمكن أن تبقى متماسكة هذه المدة الطويلة؟ لا بد أن ويل قد رممها جيداً. واشمأزت سكارلت قليلاً وهي تنظر إليها وتتذكر تلك الليلة. لو أنها أبقت قدميها عاريتين بلا أحذية، وتركت مائدة العمة بيتي خاوية بلا طعام، لرأت عربة جديدة في تارا، بعد أن حرقت هذه.

ولم يتكلم ويل في البداية، الأمر الذي ارتاحت له سكارلت، ولكنه ألقى بقبعته البالية إلى مؤخرة العربة وهمهم للفرس فانطلقت بهما. وكان ويل ما زال على حاله تماماً: هزيلاً ضامراً، أحمر الشعر قاتمه، وديع العينين صبوراً كحيوان الجر.

وتركا القرية خلفهما وانعطفا في الطريق الحمراء المؤدية إلى تارا. وكانت حمرة خفيفة لا تزال تتوانى عند أطراف السماء، وغيوم قزعية ملبدة تتألق بلون الذهب والخضرة الشاحبة. وغمرها سكون الغسق الريفي، مطمئناً كالصلاة. كيف استطاعت أن تتحمل ذلك، هجست، ذلك البعاد طوال الأشهر كله، البعاد عن الرائحة الذكية لهواء الريف والأرض المحروثة وصفاء ليالي الصيف؟ وكان هذا التراب

الأحمر الندي يتضوع برائحة شذية، ويبدو أليفاً جداً، ودوداً جداً، بحيث إنها أرادت أن تخرج من العربة وتغرف حفنة منه. وكان نبات العلندا الذي يزين الطريق الحمراء المحفوفرة بخضرة متشابكة، عطراً يعبق بالأنوف، شأنه دائماً بعد المطر، أشذى عطر في الدنيا. وفوق رأسها أخذ يحوم فجأة سرب من سنونو المداخن بأجنحتها الخفاقة، وبين آونة وأخرى كان ينطلق أرنب مجفلاً عبر الطريق وذيله الأبيض يهتز كريش بطريق. ورأت سكارلت، باغتباط، القطن ينتصب قوياً بينما كانت العربة تمر بين الحقول المحروثة، حيث برزت الشجيرات الخضراء قوية من الأرض الحمراء. ما كان أجمل هذا المنظر! الضباب الأشهب الناعم في المنخفضات، التربة الحمراء والقطن النامي، والحقول المنحدرة ذات الصفوف الخضراء المنحنية، والصنوبرات السوداء تنتصب خلف كل شيء، كجدران قاتمة.

- «سكارلت، قبل أن أخبرك عن السيد أوهارا... وأنا أريد أن أخبرك كل شيء قبل أن تصلي إلى البيت... أريد أن أسألك عن رأيك في إحدى القضايا، إذ إني أعتبرك عميدة العائلة الآن».

- «ما هي هذه القضية يا ويل؟».

فأدار نظرته الرزينة إليها هنيهة.

- «إني أطلب موافقتك على زواجي بسولين».

فأمسكت سكارلت بالمقعد وهي مندهشة جداً بحيث كادت تقع إلى الخلف. يتزوج سولين! لم تكن قد فكرت أبداً في أن أي إنسان يتزوج سولين منذ أن انتزعت فرانك كنيدي منها، من سيتزوج سولين؟!

- «بالله يا ويل!».

- «إذن أعتبر أنك لا تمانعين؟».

- «أمانع! لا، ولكن... كيف يا ويل، لقد فاجأتني! أنت تتزوج سولين؟ لقد كنت أظن دائماً يا ويل أنك تهوى كارين».

فاستمر ويل ينظر إلى الحصان ثم هز العنان، دون أن يتغير وضع وجهه، ولكنها ظنت أنه تنهد تنهداً خفيفاً.

- «ربما كنت كذلك» قال.

- «حسناً، ألا ترضى بك؟».

- «أنا لم أسألها أبداً».

- «ها، ويل، إنك أحمق. سَلْها. إنها تساوي اثنتين من سولين».

- «سكارلت، إنك تجهلين الكثير من الأشياء التي حدثت في تارا، فأنت لم تتكرمي علينا بالكثير من عنايتك هذه الأشهر الأخيرة».

- «أنا؟ ألم أفعل» قالت «ماذا كنت تظن أني أفعل في أتلانتا؟ أتجول في عربة ذات أربعة خيول وأذهب إلى حفلات الرقص؟ ألم أكن أرسل لكم نقوداً كل شهر؟ ألم أدفع عنكم الضرائب، وأصلح السقف، وأشتري المحراث الجديد والبغال؟ ألم -».

- «أصغي إليَّ، لا تطوحي بزمام الأمر وتثيري طبعك الإيرلندي؟» قاطعها بهدوء، «إذا كان أحد يعرف ما عملته فهو أنا، ولقد كان عمل رجلين».

فخفَّت ثائرتها قليلاً وسألت: «حسناً إذن، ماذا تعني؟».

- «حسناً، لقد حفظت السقف فوق رؤوسنا والطعام في غرفة المؤونة، وأنا لا أنكر ذلك، غير أنك لم تعيري ما كان يجري في عقل كل منا في تارا انتباهاً كافياً. أنا لا ألومك يا سكارلت، فتلك هي طريقتك تماماً، وأنت لم تكوني يوماً شديدة الاهتمام بما يكمن في عقول أهلك. ولكن الذي أحاول أن أخبرك به هو أني لم أقترح الزواج على الآنسة كارين لأني عرفت أن ذلك لن يجدي، أجل، لقد كانت لي بمثابة شقيقة صغيرة، وأظن أنها كانت تتحدث معي بصراحة أكثر من صراحتها مع أي إنسان آخر في الدنيا، ولكنها لم تنسَ أبداً ذكرى فتاها

القتيل، ولن تنساها أبداً، ويمكنني أن أخبرك أيضاً أنها عازمة على الدخول إلى أحد الأديرة في شارلستون».

- «هل تمزح؟».

- «لقد عرفت أن النبأ سيذهلك. ولكني أريد أن أطلب منك يا سكارلت ألّا تناقشيها في الأمر أو تضحكي عليها. دعيها تذهب، فذلك كل ما تبتغيه الآن. إن قلبها محطم».

- «ولكن، يا للّه، قلوب كثير من الناس تحطمت، ولم يلتجئ أصحابها إلى الدير. تأمَّل حالي، لقد فقدت زوجاً يوماً ما».

- «ولكن قلبك لم يتحطم» قال ويل بهدوء، وتناول قشة من قاع العربة، ووضعها في فمه وراح يمضغ ببطء. وانتزعت عبارته العاصفة أنفاسها، فكما هو الحال دائماً، عندما كانت تسمع الحقيقة تقال، مهما كانت هذه الحقيقة غير مستساغة، كانت الاستقامة الأصيلة فيها تدفعها إلى أن تعترف بها كحقيقة، ولذلك صمتت هنيهة، وحاولت أن تعوِّد نفسها على فكرة كون كارين راهبة.

- «عديني أنك لن تثوري عليها».

- «ها، حسناً، أعدك» ثم نظرت إليه بفهم جديد وببعض الدهشة. كان ويل قد أحب كارين حباً جماً، وقد غدا الآن يحبها حباً كافياً لجعله يقف إلى جانبها ويسهل أمر اعتزالها الدنيا، ومع ذلك أراد الزواج بسولين.

- «حسناً، وما قضية سولين؟ أنت لا تحفل بها، أليس كذلك؟».

- «ها، أجل، إني أحفل بها بعض الشيء» قال وأخرج القشة من فمه وراح يتأملها كأنها شيء شيق جداً، «ليست سولين رديئة كما تفكرين يا سكارلت، وأعتقد أننا سنوفق في حياتنا. إن كل ما يزعج سولين حاجتها إلى زوج وبعض الأولاد، وذلك هو بالضبط ما تحتاج إليه كل امرأة».

وتهادت العربة فوق الطريق المحفوفرة، ولدقائق قليلة، وبينما جلس الاثنان صامتين، كان عقل سكارلت منهمكاً في التفكير. لا بد أن يكون هناك شيء أكثر مما يبدو في الظاهر، شيء أعمق وأكثر أهمية، شيء يجعل ويل الوديع، الرقيق الحديث، يرغب في الزواج بفتاة نكدة متذمِّرة كسولين.

- «إنك لم تخبرني السبب الحقيقي يا ويل. إذا كنت أنا عميدة العائلة فلي الحق في أن أعرف ذلك».

- «صحيح» قال ويل، «وأظن أنك ستفهمينه. أنا لا أستطيع أن أغادر تارا، فلقد أضحت موطني يا سكارلت، الموطن الحقيقي الوحيد الذي عرفته، وإني أحب كل حجر فيها، فلقد عملت في أرضها كما لو كانت ملكي، وعندما يعمل المرء في شيء فإنه يصبح يحبه. تعرفين ما أعني؟».

عرفت سكارلت الذي عناه، وخرج قلبها في دفق من العاطفة القوية نحوه، وهي تسمعه يقول إنه هو أيضاً أحب الشيء الذي أحبته أكثر من أي شيء.

- «وإنني أتصور الأمر كما يلي: بذهاب والدك وصيرورة كارين راهبة سنظل أنا وسولين وحدنا، وطبعاً، لن يكون في وسعي أن أستمر في الحياة في تارا، دون أن أتزوج سولين، فأنت تعرفين كيف يتحدث الناس؟».

- «ولكن... ولكن يا ويل هناك ميلاني وآشلي...».

وعندما سمع اسم آشلي، التفت ونظر إليها وعيناه الشاحبتان لا يكنه سرهما. وعندئذ انتابها الشعور القديم بأن ويل كان يعرف كل شيء عنها وعن آشلي، كان يفهم كل شيء دون أن يلومها أو يشجعها.

- «سيرحلان سريعاً».

- «يرحلان؟ إلى أين؟ إن تارا موطنهما كما هي موطنك».

- «لا، ليست موطنهما، وذلك هو ما ينهش في آشلي. إنها ليست موطنه، وهو لا يشعر شعور من يكسب قوته بعرق جبينه، فهو لا يجيد الزراعة، وهو يعرف ذلك. إن اللّه يعلم أنه يحاول جهده، ولكنه لم يخلق للزراعة، وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه أنا. وإذا هو كسر حطباً فمن الأرجح أن يقطع قدمه، ولا يستطيع أن يقود المحراث مستقيماً في ثلم أفضل مما يستطيع بو، وإن جهله في تصريف الأمور ليملأ كتاباً. وليست تلك غلطته، وإنما هو لم يخلق لذلك. والذي يضايقه هو أنه رجل يعيش في تارا، على إحسان امرأة، ولا يقدم الكثير في مقابل ذلك».

- «إحسان، هل حدث وقال -».

- «لا، إنه لم يقل كلمة واحدة، أنت تعرفين آشلي، ولكني أستطيع أن أقول ذلك، ففي الليلة الماضية، عندما بقينا ساهرين إلى جانب والدك، أخبرته أني قد طلبت يد سولين وأنها وافقت، وعندئذ قال إن ذلك النبأ أنقذه. لأنه كان يشعر شعور كلب، لبقائه في تارا، وكان يعرف أن عليه وميلاني أن يظلا في تارا الآن، بعد أن توفي السيد أوهارا، فقط ليمنع الناس من التحدث عني وعن سولين، وهكذا أخبرني عندئذ أنه ينوي مغادرة تارا، والحصول على عمل».

- «عمل؟ أي نوع من العمل؟ وأين؟».

- «أنا لا أعرف ماذا سيفعل على وجه الدقة، ولكنه قال إنه ذاهب إلى الشمال، لأن له صديقاً شمالياً في نيويورك كتب له عن وجود عمل له في مصرف هنالك».

- «ها، لا!» صاحت سكارلت من أعماق قلبها. وعندئذ رمقها ويل بالنظرة السابقة ذاتها.

- «ربما كان من الأفضل، من كل النواحي، إن هو سافر إلى الشمال».

- «لا! لا! أنا لا أعتقد ذلك».

وراح عقلها يفكر محموماً. ليس في وسع آشلي أن يسافر إلى الشمال! فمن الممكن أن لا تراه أبداً مرة ثانية إن هو سافر. ومع أنها لم تكن قد رأته منذ شهور، ولم تكن قد تحدثت إليه على انفراد منذ مشهدهما المشؤوم في البستان، إلا أنه لم يكن يمضي يوم دون أن تفكر فيه وتشعر بالسرور لأنه يأوي تحت سقف بيتها. ولم تكن قد أرسلت دولاراً واحداً إلى ويل دون أن تحس بالغبطة لأن ذلك سيهوِّن على آشلي حياته. طبعاً، لم يكن يصلح أبداً كمزارع فهو قد خُلق لأمور أفضل، فكرت بكبرياء، لقد خلق ليحكم، ليعيش في بيت كبير، خلق ليركب الخيول الجميلة وليقرأ كتب الشعر ويأمر الزنوج بما يفعلون. أما وإنه لم يعد هناك بيوت وخيول وزنوج، ولم يبقَ غير كتب قليلة، فإن ذلك لم يبدل الأمور. لا لم يخلق آشلي ليحرث ويكسر الحطب، فلا عجب أنه يريد مغادرة تارا.

بيد أنها لا تستطيع أن تدعه يذهب بعيداً من جورجيا، وإذا اقتضى الأمر فستضطر فرانك إلى أن يمنحه عملاً في المخزن، ستجعل فرانك يخرج الصبي الذي كان يقف وراء المعد[1] الآن، ولكن لا - ليس مكان آشلي خلف المعد بأفضل منه خلف المحراث، ويلكسي وحانوتي! أبداً لن يكون هذا. لا بد من إيجاد عمل في مكان مناسب - أجل، معملها طبعاً! وغمرها شعور الفرج بهذه الفكرة، حتى إنها ابتسمت، ولكن هل يقبل هو عرضاً منها؟ هل يظل يعتبر أن ذلك إحسان؟ ينبغي أن تكيف الأمر بحيث تجعله يفكر أنه يصنع معها معروفاً لو قبل. ستطرد السيد جونستون وتضع آشلي مسؤولاً عن المعمل القديم بينما يدير هيو المعمل الجديد. ستوضح لآشلي كيف أن صحة

(1) البسطة التي أمام التاجر في متجره - (المترجمان).

فرانك السيئة وضغط العمل في المخزن منعاه من مساعدتها، وستتوسل بحَبَلها كسبب آخر لحاجتها إلى مساعدته.

ستجعله يدرك بطريقة ما، أنها لن تستطيع العمل في هذا الوقت من دون عونه، وستعطيه نصف ربح المعمل، إن هو وافق على العرض - ستعطيه أي شيء لتبقيه قربها فقط، أي شيء من أجل أن ترى تلك الابتسامة المشرقة تضيء وجهه، أي شيء من أجل سنوح فرصة تلمح فيها بعينيه وعلى غفلة منه، نظرة ترى أنه ما زال يحفل بها، ولكن، لقد وعدت نفسها أنها لن، لن تحاول ثانية أن تدفعه إلى كلمات الحب، لن تحاول ثانية أن تجعله يلقي بعيداً بذلك الشرف السخيف الذي كان يقدره أكثر من الحب. ينبغي بطريقة ما، أن تنقل إليه برفق، قرارها الجديد هذا، وإلا فيمكن أن يرفض خشية حدوث مشهد آخر كذلك المشهد الرهيب الأخير.

- «في وسعي أن أجد له عملاً في أتلانتا» قالت.

- «حسناً، ذلك من شأنك وشأن آشلي» قال ويل وأعاد القشة إلى فمه، «هيا شيرمان[1]. والآن يا آنسة سكارلت، يوجد شيء آخر ينبغي أن أطلبه منك قبل أن أحدثك عن والدك. أنا لا أريدك أن تثوري على سولين، فالذي عملته عملته، وإذا ما اقتلعت جميع شعر رأسها، فلن يعيد ذلك السيد أوهارا، هذا فضلاً عن أنها كانت تظن مخلصة أنها كانت تعمل من أجل المصلحة».

- «لقد أردت أن أسألك عن ذلك، فعلام كل هذا اللغو عن سولين؟ لقد نطق ألِكس بلغو، وقال إنه ينبغي أن تُجلَد. فماذا فعلت؟».

- «أجل، إن الناس مغتاظون جداً منها. جميع الناس الذين

---

(1) اسم الحصان - (المترجمان).

التقيت بهم بعد ظهر هذا اليوم، في جونسبورو، كانوا يعدون بقطع رأسها في المرة التالية التي سيرونها بها، ولكن ربما ينسون الأمر. والآن، عديني أنك لن تثوري عليها، فأنا لا أريد أن يقع شجار الليلة والسيد أوهارا مسجى على فراش الموت في الردهة».

إنه لا يريد أن يقع أي شجار! هجست سكارلت بسخط، إنه يتكلم كما لو أن تارا أصبحت ملكه سلفاً!

ثم فكرت في جيرالد ميتاً في الردهة، وفجأة شرعت تبكي، تبكي في شهقات مريرة غاصة، وطوَّقها ويل بذراعه، وقرَّبها منه بصورة مواسية دون أن يقول شيئاً.

وفيما هما يتهاديان ببطء فوق الطريق الآخذة في الظلمة، ورأسها على كتفه، وقبعتها مائلة، نسيت جيرالد السنتين الأخيرتين، السيد الهرم الغامض، الذي كان يرنو إلى الأبواب، ينتظر امرأة لن تدخل أبداً، وتذكرت منه الرجل العجوز الشجاع المفعم بالحيوية، بشعره الجعدي الأبيض، وبمرحه الدافق، وبحذائه الشديد الوطأة، وبدعاباته الفظة وبكرمه. وتذكرت كيف أنه كيافع كان يبدو أروع رجل في الدنيا، هذا الأب الصاخب الذي كان يحملها أمامه على السرج عندما كان يثب عبر الأسيجة، وكان يقلبها ويعاقبها عندما تتصرف بخبث، ثم يبكي إن هي بكت، ويعطيها أرباع دولارات لتكفكف دموعها. وتذكرته عائداً إلى البيت من شارلستون وأتلانتا محملاً بالهدايا التي لم تكن يوماً مناسبة. وتذكرت أيضاً وهي تبتسم ابتسامة غامضة خلال الدموع، كيف كان يأتي إلى البيت في الساعات المتأخرة من أيام المحاكمات في جونسبورو، مخموراً كسبعة أيرلات، وهو يقفز عبر الأسيجة، وصوته العابث يرتفع بنشيد «ارتداء الثوب الأخضر». وما كان أشد خجله وهو يواجه إيلين في الصباح التالي. حسناً، لقد غدا مع إيلين الآن.

- «لماذا لم تكتب إليَّ أنه كان مريضاً؟ إذ لقدمت بسرعة فائقة -».

- «لم يكن مريضاً، ولا لدقيقة. إليك يا حلوتي، خذي منديلي وسأخبرك كل شيء عن القضية».

فمخطت بمنديله الملون، لأنها كانت قد أتت من أتلانتا حتى من دون منديل، ثم أسندت ظهرها إلى ذراع ويل المحنية. ما كان ألطف ويل، لم يكن شيء يقلقه!

- «حسناً، لقد حدث الأمر على الوجه التالي يا سكارلت: لقد كنت ترسلين لنا نقوداً باستمرار، وآشلي وأنا... على كل حال، لقد دفعنا الضرائب واشترينا البغل والبذار وكل شيء وبعض الخنازير والدجاج. ولقد اعتنت الآنسة ميلاني بالدجاج عناية بالغة. أجل يا سيدتي إنها اعتنت به، إنها امرأة رائعة، الآنسة ميلاني ممتازة. حسناً، على كل حال، بعد أن اشترينا متطلبات تارا، لم تبقَ معنا نقود كثيرة للأشياء التافهة، ولم يكن أحد منا يتذمر سوى سولين. وكانت الآنستان ميلاني وكارين تظلان في البيت، وتلبسان ثيابهما القديمة كأنهما فخورتان بلبسها، ولكنك تعرفين سولين يا سكارلت. إنها لم تعتد أبداً أن تظل بلا فساتين جديدة. لقد كان يؤلمها اضطرارها إلى ارتداء فساتين قديمة كلما أخذتها معي إلى جونسبورو أو فايتفيل، خصوصاً لأن بعض نساء الكاربت بكرز يرفلن بثياب مزركشة مبهرجة. وزوجات أولئك الشماليين الملعونين، القائمين على هيئة التحرير، إنهن يلبسن ثياباً فاخرة! والواقع أن ارتداء سيدات الولاية أسوأ ملابسهن أثناء ذهابهن إلى المدينة، أضحى مصدراً لاعتزازهن، وذلك ليرين كيف أنهن لم يكن ليحفلن بذلك، بل كنّ فخورات بثيابهن هذه. غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى سولين، التي كانت ترغب في حصان وعربة أيضاً، وقد ألمحت إليَّ أنك تملكين مثل ذلك».

- «إنها ليست عربة، إنها عربة عتيقة» قالت سكارلت بسخط.

- «لتكن ما تكون. وفي وسعي أن أخبرك أيضاً أن سولين لم تنسَ أبداً قضية زواجك بفرانك كنيدي، وأنا لا أدري لماذا ألومها على ذلك، فأنت تعرفين أن من الاحتيال المشين أن تخدعي شقيقة».

فرفعت سكارلت رأسها من على كتفه، ثائرة كشرير يتهيأ للضرب.

- «احتيال مشين، هه؟ سأكون شاكرة إن احتفظت بلسان مهذب في فمك يا ويل بنتين! هل كان في وسعي تجنب الأمر إن كان هو قد فضلني عليها؟».

- «أنت فتاة ذكية يا سكارلت، وأنا أتصور أن كان في وسعك تجنب أمر تفضيله إياك، فذلك في وسع الفتيات دائماً. ولكن أظن أنك راودته بطريقة ما، فأنت إنسانة أخاذة جداً عندما تريدين أن تكوني كذلك، ولكن مهما كان الأمر فلقد كان عشيق سولين. كيف لا، وقد كانت قد استلمت رسالة منه قبيل أن تذهبي إلى أتلانتا بأسبوع، وكان عذباً كالسكّر فيما يتعلق بها، وتحدث عن كيف سيتزوجان عندما سيجني نقوداً قليلة أخرى في المستقبل، إني أعرف ذلك لأنها أطلعتني على الرسالة».

وصمتت سكارلت، لأنها كانت تعرف أنه كان يقول الحقيقة، ولم يكن في وسعها التفكير في شيء تقوله، ولم تكن قد توقعت أن يقاضيها ويل من بين جميع الناس. أضف إلى ذلك أن الكذبة التي كانت قد أخبرتها لفرانك، لم تقرع ضميرها بشدة أبداً. . . إذا لم تستطع الفتاة أن تحافظ على عشيقها فإنها تستحق فقدانه.

- «اسمع يا ويل، لا تكن دنيئاً» قالت، «لو أن سولين تزوجته، فهل تعتقد أنها كانت تصرف بنساً واحداً على تارا أو على أي منا؟».

- «قلت إن في وسعك أن تكوني أخاذة جداً، إذا شئت» قال ويل والتفت إليها بابتسامة هادئة، «لا، أنا لا أعتقد أننا كنا سنرى بنساً من نقود فرانك العجوز، ولكن ما زلت لا تستطيعين المراوغة في القضية،

فقد كان الأمر احتيالاً مشيناً، وإذا كنت تريدين أن تبرري الغاية بالوسيلة فليس الأمر من شأني، ومن أنا لأتذمّر؟ ولكن مهما كان الأمر، فلقد غدت سولين كالزنبار من ذلك الوقت. وأنا لا أعتقد أنها كانت تحفل كثيراً بفرانك العجوز، غير أن القضية كانت بمثابة جرح لكبريائها، فراحت تتحدث كيف أنك تنعمين بثياب جميلة وبعربة، وتعيشين في أتلانتا، بينما هي مدفونة هنا في تارا. إنها تحب القيام بالزيارات والذهاب إلى الحفلات كما تعرفين، وأنا لا ألومها، فالنساء كذلك».

- «حسناً، منذ شهر تقريباً، أخذتها إلى جونسبورو وتركتها لتقوم بالزيارات، بينما انصرفت أنا لملاحقة أعمالي. وعندما رجعت بها إلى البيت، كانت صامتة كفأر. ولكن كان في وسعي أن أرى أنها كانت مضطربة جداً بحيث كانت على استعداد لتنفجر. وظننت أنها كانت قد اكتشفت أن أحد الناس كان سيتـ - وأنها كانت قد سمعت بعض الحديث اللاذع، فلم أعرها اهتماماً كبيراً، غير أنها ظلت تحوم حول البيت قرابة أسبوع وهي ثائرة مضطربة، لا تتحدث إلا قليلاً، ثم ذهبت لترى الآنسة كاثلين كالفرت - ستتلفين عينيك من البكاء على كاثلين يا سكارلت. يا لها من فتاة مسكينة، كان من الأفضل أن تموت على أن تتزوج هيلتون، ذلك الشمالي الخسيس. هل علمت أنه قد رهن البيت وخسره، وأنهم سيضطرون إلى مغادرته؟».

- «لا لم أعلم ولا أريد أن أعلم. أريد أن أعلم عن والدي».

- «حسناً، سأصل إلى تلك النقطة» قال ويل بصبر، «وعندما رجعت من هنالك، قالت إننا جميعنا قد أخطأنا في الحكم على هيلتون، ودعته السيد هيلتون، وقالت إنه كان رجلاً حاذقاً، ولكننا ضحكنا عليها وحسب. ثم شرعت تأخذ والدك خارجاً ليتنزها معاً في الأماسي، ولقد رأيتها مرات كثيرة وأنا عائد من الحقل إلى البيت

تجلس معه على الجدار المحيط بالمقبرة، تتحدث إليه بخشونة، وتلوِّح بيديها، وكان السيد العجوز يتطلع إليها فقط، بمظهر حائر نوعاً ما ويهز رأسه. أنت تعرفين كيف كانت حالته يا سكارلت، لقد كان يزداد ذهولاً حتى أصبح كأنه بالكاد يعرف أين هو ومن نحن. ومرة رأيتها تشير إلى ضريح أمك، بينما السيد العجوز يشرع في البكاء. وعندما رجعت إلى البيت سعيدة جداً مضطربة المظهر، وجهت إليها حديثاً، وكان صارماً، فقلت: «آنسة سولين، لأي سبب في الجحيم تثيرين والدك وتذكّرينه بأمك؟ إنه لا يتبين حقيقة كونها ميتة معظم الوقت، وها أنت تذكّرينه بالحقيقة» فأجابتني بأن هزت رأسها فقط ثم ضحكت قائلة: «اهتم بشؤنك، ويوماً ما، ستكونون جميعاً سعداء بفضل ما أقوم به». ولقد أخبرتني الآنسة ميلاني في الليلة الماضية، أن سولين كانت قد أعلمتها بخططها، غير أن الآنسة ميلاني قالت إنها لم تتصور أبداً أن سولين كانت جادة في حديثها، وقالت إنها لم تخبر أحداً منا لأنها امتعضت كثيراً من مجرد الفكرة».

- «أية فكرة؟ هل سنصل إلى صلب الموضوع؟ نحن في منتصف الطريق إلى البيت الآن، وأنا أريد أن أعرف قضية والدي».

- «إني أحاول أن أطلعك عليها» قال ويل، «لقد اقتربنا جداً من البيت، ولذلك أظن أن من الأفضل أن نتوقف هنا إلى أن أتم حديثي».

وجذب عنان الفرس التي وقفت ثم شخرت. وكانت نقطة توقفهما قرب سياج الأشجار البرية النامية، الشبيهة بأشجار البرتقال والتي كانت تحدد ملكية آل ماكنتوش. واستطاعت سكارلت وهي ترسل بصرها تحت الأشجار القاتمة، أن ترى تماماً أن المداخن الطويلة كالأشباح كانت لا تزال تنتصب فوق الدمار الصامت، وتمنت لو اختار ويل مكاناً آخر ليقف فيه.

- «حسناً، إن فكرتها تتلخص في جعل الشماليين يدفعون تعويضاً

عن القطن الذي أحرقوه، والمواشي التي ساقوها معهم، والأسيجة والمخازن التي هدموها».

- «الشماليين؟!».

- «ألم تسمعي بالأمر؟ إن الحكومة الشمالية تدفع تعويضات عن الملكيات المدمرة لمؤيدي الاتحاد في الجنوب».

- «طبعاً لقد سمعت بهذا» قالت سكارلت، «ولكن ما علاقة ذلك بنا؟».

- «علاقة كبيرة في رأي سولين، ففي ذلك اليوم الذي أخذتها فيه إلى جونسبورو، التقت بالسيدة ماكنتوش. وبينما كانتا تتحدثان، لم يسع سولين إلا أن تلاحظ أية ثياب جميلة كانت ترتديها السيدة ماكنتوش، ولم تستطع إلا أن تسألها عنها، وعندئذ أضفت السيدة ماكنتوش على نفسها مظهراً وقوراً وتحدثت عن كيف أن زوجها قدم للحكومة الفيدرالية طلب تعويض مقابل تدمير ملكية مؤيد مخلص للاتحاد، مؤيد لم يكن قد قام بأي عون أو نجدة للحلف في أي صورة أو صفة».

- «إنهم لم يقدموا أي عون أو نجدة لأي إنسان» زمجرت سكارلت، «أولئك الإيرلنديين - الاسكتلنديين!».

- «حسناً، قد يكون ذلك حقيقياً، فأنا لا أعرفهم، على أن الحكومة منحتهم، الواقع - لقد نسيت كم ألف دولار. لقد كان مبلغاً كبيراً جداً، الأمر الذي أذهل سولين، فراحت تفكر فيه طوال الأسبوع دون أن تقول لنا شيئاً، لأنها كانت تعرف أننا لا نملك إلا أن نضحك فقط. ولكن كان لا بد لها من أن تتحدث إلى أحد الناس، ولذلك ذهبت إلى منزل كاثلين كالفرت فزوّدها ذلك الأبيض الحقير هيلتون بمجموعة من الأفكار الجديدة. لقد أشار إلى أن والدك لم يكن مولوداً في هذه البلاد، وأنه لم يكن قد اشترك في الحرب، ولم يكن لديه أولاد ليحاربوا، وأنه لم يكن يتقلد أي وظيفة في ظل الحلف. كما قال

إنهم يمكن أن يعلقوا أهمية كبيرة على كون السيد أوهارا مؤيداً مخلصاً للاتحاد. وهكذا ملأها بأفكار كهذه، فعادت إلى البيت وبدأت تنفذ خطتها في السيد أوهارا، إني أراهن على حياتي أن والدك لم يكن يعرف طوال نصف الوقت عما كانت تتحدث، وذلك ما كانت تعتمد عليه، وسيقسم «القَسَم الصارم» حتى دون أن يعلم بذلك».

- «والدي يقسم «القَسَم الصارم»!» صاحت سكارلت.

- «كان قد أصبح ضعيف العقل جداً في الشهور الأخيرة، وإني أظن أنها كانت تعتمد على ذلك. انتبهي، لم يرتَبْ أحد منا بأي شيء عن القضية، لقد كنا نعرف أنها كانت تطبخ شيئاً ما، ولكننا لم نكن نعرف أنها كانت تستخدم أمك الميتة لتؤنبه لكون بناته يرتدين الخرق، بينما كان في وسعه أن ينال مئة وخمسين ألف دولار من الشماليين».

- «مئة وخمسين ألف دولار» دمدمت سكارلت وقد خفّت رهبتها من القَسَم.

أي مبلغ كبير من المال كان ذلك! وأن يكون نيله مقابل التوقيع على قَسَم الولاء لحكومة الولايات المتحدة فقط، قَسَم يقرر أن الموقع كان دائماً يساند الحكومة وأنه لم يقدم معونة أو نجدة لأعدائها. مئة وخمسون ألف دولار! تلك النقود الكثيرة مقابل تلك الكذبة الصغيرة! إذن لم يكن في وسعها أن تلوم سولين. يا للّه العظيم، أكان ذلك ما عناه ألِكس بإرادته جلدها؟ وما عنته الولاية بعزمها على قتلها؟ إنهم حمقى، جميعهم. أي شيء لم يكن في وسعها أن تفعله بواسطة ذلك المال الوفير؟! أي شيء لم يكن في وسع أي من سكان الولاية أن يفعله به؟! وماذا كانت ستؤثر كذبة صغيرة كهذه؟ أضف إلى ذلك أن كل شيء تستطيع تحصيله من الشماليين كان مالاً حلالاً مهما كانت كيفية الحصول عليه.

- «وأمس، قرب الظهر، عندما كنت وآشلي نكسر الخشب

قضباناً، أخذت سولين هذه العربة ووضعت والدك فيها وانطلقا إلى البلدة دون أن تنبس بكلمة لأي إنسان. وكانت لدى الآنسة ميلي فكرة عما كان هدف سولين، ولكنها كانت ترجو أن شيئاً ما سيغير رأيها، ولذلك لم تقل شيئاً لأي منا. إنها لم تدرك أبداً كيف كان في وسع سولين أن تقدم على عمل كهذا. ولقد سمعت اليوم كل شيء عن الذي حدث، إن ذلك الرجل الخسيس هيلتون يتمتع ببعض النفوذ، هو والسكالاوغز والجمهوريون الآخرين الذين في البلدة، وكانت سولين قد وافقت على أن تعطيهم بعض النقود - ولست أعرف كم هو المبلغ - وذلك إذا ما أشاروا بغمز عين إلى أن السيد أوهارا كان اتحادياً مخلصاً، وأنه كان رجلاً إيرلندياً ولم يحارب في الجيش وهلم جراً، ثم وقعوا على توصيات. وكل ما كان على والدك فعله هو أن يتلو القَسَم ويوقع على الورقة، ومن ثم تُحمل إلى واشنطن.

وهكذا غمغموا بفحوى القَسَم بسرعة، ولم يقل هو شيئاً، وسارت الأمور على ما يرام إلى أن دعته إلى التوقيع عليه. وعندئذ رجع السيد العجوز إلى نفسه هنيهة، وهز رأسه ممتنعاً. أنا لا أعتقد أنه عرف حقيقة الأمر، ولكنه لم يرغب فيه، كما أن سولين كانت تقوده في الطريق الخاطئ أبداً. وعلى كل حال، لقد أثارها موقفه تماماً بعد كل الجهد الذي بذلته، فصحبته إلى خارج المكتب، وأخذا يروحان ويجيئان في العربة على الطريق، وهي تتحدث إليه عن أن أمك تصرخ عليه من القبر لأنه يدع بناتها يعانين الشقاء، بينما كان في وسعه أن يؤمن لهن حاجاتهن، وقد أخبرني أن والدك جلس هناك في العربة وراح يبكي كالطفل، كما كان يفعل دائماً عندما يسمع اسمها. ولقد رآهما كل من في المدينة. وقصد أِلكس فونتين إليهما ليرى ما في الأمر، ولكن سولين أنَّبته وأخبرته أن يهتم بشؤونه، وهكذا ابتعد عنهما مجنوناً.

أنا لا أعرف من أين جاءت بالفكرة، ولكنها في إحدى الساعات

بعد الظهر جاءت بقارورة براندي، وعادت بالسيد أوهارا إلى المكتب وبدأت تسكب له منها. ويا سكارلت، لم نكن نملك أي مشروب في تارا منذ سنة، اللهم إلا عرق ثمر العليق الذي تصنعه دلسي، والذي لم يكن السيد أوهارا معتاداً عليه. وهكذا غدا مخموراً حقاً. وبعد أن كانت سولين ناقشت وتنكدت مدة ساعتين، استسلم وقال نعم إنه سيوقع على أي شيء تريده. فأخرجوا القَسَم ثانية، وما إن أوشك على وضع القلم على الورقة تماماً، حتى ارتكبت سولين غلطتها، إذ قالت: «حسناً الآن، أظن أن آلا سلاتري وآل ماكنتوش لن يتكبروا علينا!»، وأنت تعرفين يا سكارلت أن آل سلاتري كانوا قد طلبوا تعويضاً بمبلغ كبير مقابل كوخهم الصغير الذي كان الشماليون قد أحرقوه، وقد حصله لهم زوج إيمي عن طريق واشنطن.

وأخبروني أنه عندما نطقت سولين بهذين الاسمين، انتصب والدك بقامته، وشمخ برأسه، ونظرا إليها شزراً، ولم يعد ذاهلاً أبداً، وقال: «هل وقع آل سلاتري وآل ماكنتوش على وثيقة كهذه؟».

وثارت عصبية سولين وقالت نعم ولا، وتلعثمت، وصاح هو بصوت مرتفع مدوٍّ: «أخبريني هل وقّع ذلك الأورانجي وذلك الأبيض الحقير، اللذان لعنهما اللّه، على شيء كهذه؟» وتكلم ذلك الوغد هيلتون بلهجة مهدئة وقال: «أجل يا سيدي، لقد وقّعا ونالا كومة من المال كما ستنال أنت».

وعندئذ دوى السيد العجوز بخوار كخوار الثور سمعه ألِكس فونتين من أسفل الشارع وهو في الحانة - على حد قوله - ثم قال بلهجة إيرلندية أصلية واضحة: «وهل كنت تفكرين أن أوهارياً من تارا سيتبع الخطوات القذرة لأورانجي وأبيض حقير لعنهما اللّه؟» ثم مزق الورقة قطعتين ورماها في وجه سولين، وصاح هائجاً: «أنت لست ابنتي» وخرج من المكتب قبل أن يكون في وسعك أن تقولي «جاك روبنسون».

وقال أَلِكس إنه رآه خارجاً إلى الشارع، جامحاً كالثور. وقال إن السيد العجوز كان يبدو كشخصه السابق، للمرة الأولى منذ وفاة والدتك. وأضاف أنه كان يترنح مخموراً ويشتم بأعلى صوته، وقال أَلِكس إنه لم يسمع أبداً شتائم فظيعة كتلك. وكان حصان أَلِكس يقف هناك، فامتطاه والدك من دون استئذان، وانطلق على صهوته بسحابة من الغبار كثيفة جداً بحيث كانت تخنق. وكان يشتم مع كل نفس يخرجه.

وهكذا قرب الغروب، بينما كنت جالساً وآشلي على الدرجة الأمامية ننظر نحو أسفل الطريق قلقين، وكانت الآنسة ميلاني في الطابق العلوي، تبكي في سريرها دون أن تشاء إخبارنا بشيء، إذ بنا نسمع فجأة وقع حوافر في أسفل الطريق، وأحد الناس يصيح كما لو كان يصيد ثعالب، فقال آشلي: «إن ذلك لصوت غريب! إنه يشبه صوت السيد أوهارا عندما كان يأتي إلى بيتنا قبل الحرب».

ثم رأيناه بعيداً عند طرفي المرعى، ولا بد أنه كان قد قفز عن السياج هناك. وأتى يصعد التلة بسرعة مخيفة، ويغني بأعلى صوته كأنه لم يكن يحمل هماً في هذه الدنيا. ولم أكن أعرف أن والدك يملك صوتاً كهذا، كان يغني «بغ في عربة منخفضة المؤخرة» ويضرب الحصان بقبعته، وكان الحصان ينطلق كالمجنون. ولم يجذب العنان عندما وصل قرب القمة، وأدركنا أنه سوف يقفز عن سياج المرعى، فهرولنا مسرعين خائفين حتى الموت. ثم صاح: «انظري يا إيلين! راقبيني أقوم بهذه القفزة!» غير أن الحصان وقف فوراً مقعياً على وركيه عند السياج ولم يقفز، بينما اندفع والدك ساقطاً على رأسه. لم يقاسِ أبداً وكان ميتاً عندما بلغناه، وأظن أن السقطة كسرت عنقه...».

وانتظرها ويل دقيقة كي تتكلم، وعندما لم تفعل تناول العنان وقال: «هيا شيرمان» وانطلق الحصان باتجاه البيت.

40

تأملت سكارلت قليلاً في تلك الليلة، وعندما بزغ الفجر وراحت الشمس تزحف فوق الصنوبرات القائمة على التلال الشرقية، نهضت من سريرها المتأرجح وجلست على كرسي صغير قرب النافذة، ووضعت رأسها التعب على ذراعها وسرحت نظرها عبر ساحة المخزن وبستان تارا، باتجاه حقول القطن. كان كل شيء يبدو أخضر نضراً، ندياً صامتاً. وبعث بها منظر حقول القطن دفقاً من الفرج والعزاء لقلبها الكليم، فقد كانت تارا تبدو عند الشروق مكاناً محبوباً، معتنى به، مطمئناً، رغم أن سيدها كان مسجى على فراش الموت. وكان قن الدجاج المصنوع من الخشب السميك، مطلياً بالوحول كي يمنع دخول الجرذان وأبناء عرس، ولكنه كان مبيضاً نظيفاً، وهكذا كان الإسطبل. وكانت الحديقة بما فيها من صفوف القمح، ونبات القرع الأصفر اللألاء، وفول الليما واللفت، جيدة التعشيب، منظمة التسييج بقضبان السنديان. وكان البستان منظفاً من الشجيرات السفلية، ولم يكن ينمو تحت صفوف الأشجار سوى أزهار الأقحوان. وكانت أشعة الشمس الخفيفة المتلألئة تنعكس على حبات التفاح والدراق الأحمر ذي الفروة المختبئ جزئياً بين الأوراق الخضراء. وفي ما وراء البستان، كانت صفوف القطن تمتد ساكنة خضراء تحت ذهب السماء الجديد. وكان البط والدجاج يتهادى ويتخاطر وهو في طريقه إلى الحقول، لأنه كانت

توجد تحت الشجيرات في التربة الطرية المحروثة، أفضل الحشرات والديدان.

وانتفخ قلب سكارلت بالعاطفة والعرفان بالجميل لويل الذي كان قد قام بكل هذا العمل. ولم يكن في وسع إخلاصها لآلشي أن يجعلها تعتقد أنه كان مسؤولاً عن الكثير من هذا الوضع الجيد، لأن ازدهار تارا لم يكن من مهمة مزارع أرستقراطي، وإنما كان من عمل «مزارع صغير» كادح لا يكل، محب لأرضه. لقد كانت مزرعة لا تحوي غير حصانين، ولم تكن مزرعة الأيام القديمة الفخمة، ذات المراعي المليئة بالبغال والخيول الجميلة، والقطن والذرة الممتدين على مدى البصر. غير أن الذي كان يوجد في تلك المزرعة الفخمة الآن، كان في حالة جيدة، كما كان من الممكن أن تستصلح الفدادين المتروكة من دون زراعة عندما تتحسن الظروف، وعندئذ ستكون أكثر خصباً بسبب استراحتها من الإنتاج.

لقد قام ويل بأكثر من مجرد زراعة فدادين قليلة، إذ قد صد بثبات ذينك العدوين لمزارعي جورجيا: فواسق بذور الصنوبر، وأشجار العليق الشائكة، فلم تكن هذه النباتات قد استولت خلسة على الحديقة والمرعى وحقول القطن والمرجة ونمت جذوعها بوقاحة بجانب شرفات تارا، كما كانت قد فعلت في مزارع عديدة لا تحصى في الولاية.

وسكن قلب سكارلت في إحدى خفقاته عندما فكرت ما كان أقرب تارا إلى العودة إلى أن تصبح أرضاً جدباء. أجل، لقد قامت هي وويل بعمل عظيم، لقد صدا الشماليين والكاربت بكرز وهجمات الطبيعة. وأعظم من كل هذا، أن ويل كان قد أخبرها أنه بعد أن يجني القطن في الخريف، فلن تعود بها حاجة إلى إرسال نقود. . . هذا إذا لم يشتهِ أحد الكاربت بكرز الآخرين تارا ويرفع الضرائب كثيراً.

وكانت سكارلت تعرف أن ويل كان سيتحمل عبئاً ثقيلاً من دون مساعدتها، ولكنها أكبرت استقلاله واحترمته. وطالما أنه كان في مركز العون المستأجر، كان سيأخذ نقودها، غير أنه، وقد كان الآن سيصبح صهرها ورجل البيت، مصمم على أن يعتمد على جهوده الخاصة وحسب. أجل، لقد كان ويل شيئاً أرسله اللّه لها.

* * *

كان بورك قد حفر القبر في الليلة السابقة، قريباً من قبر إيلين. وكان يقف، والمجرفة في يده، خلف التراب الأحمر الرطب الذي كان سريعاً ما سيعيده إلى مكانه، وكانت سكارلت تقف خلفه في بقع من ظلال شجرة أرز ملتوية ذات أغصان منخفضة. وكانت شمس صباح يونيو الحارة ترقطها بأشعتها، وتحاول أن تبعد عينيها عن الحفرة الحمراء التي أمامها. وجاء جيم تارلتون وهيو مونرو الصغير وألِكس فونتين وأصغر حفداء العجوز ماكري، قادمين ببطء وارتباك على الجادة من البيت، وهم يحملون ناووس جيرالد على لوحين طويلين من ألواح السنديان، وخلفهم على مسافة محترمة، سار صامتاً جمهور متعثر من الجيران والأصدقاء، جمهور رث الثياب. وبينما كانوا يسيرون في الممر المشمس عبر الحديقة، حنى بورك رأسه فوق مقبض المجرفة وشرع في البكاء، ورأت سكارلت بدهشة طبيعية أن جعدات الشعر في رأسه، التي كانت سوداء فاحمة عندما ذهبت إلى أتلانتا منذ شهور قليلة، قد أضحت الآن صهباء.

وشكرت سكارلت اللّه، وهي خائرة القوى، لأنها ذرفت كل دموعها في الليلة الفائتة، ولذا كان في استطاعتها الآن أن تقف منتصبة القامة، جافة العينين. وأغاظها صوت دموع سولين الذي كان ينبعث من خلف كتفيها تماماً، واضطرت إلى أن تشد قبضتها لتمنع نفسها من الاستدارة وصفع وجه شقيقتها المتورم. لقد كانت هذه سبب وفاة

والدها، سواء قصدت ذلك أم لم تقصده، وكان ينبغي أن تكون لديها الحشمة الكافية لتكبح عاطفتها أمام الجيران ذوي الشعور العدائي لها. ولم يكن قد تكلم معها أحد في ذلك الصباح أو ألقى عليها نظرة مواساة، بينما كان الجميع قد قبّلوا سكارلت وصافحوها، كما دمدموا ببعض الكلمات لكارين وحتى لبورك ولكنهم نظروا عبر سولين كأنها لم تكن هناك.

فبالنسبة إليهم، كانت قد ارتكبت أكثر من قتل والدها. لقد حاولت أن تخدعه كي يخون الجنوب، الأمر الذي كان في نظر تلك الجماعة المتعنتة المترابطة كثيراً، شبيهاً بمحاولتها خيانة شرفهم جميعاً. لقد كسرت تلك الجبهة القوية التي كانت المقاطعة تظهر بها أمام العالم. وبمحاولتها تحصيل المال من حكومة الشمال، تكون قد انضمت إلى صفوف الكاربت بكرز والسكالاواغز المكروهين أكثر مما كان الجنود الشماليون مكروهين. وبذهابها إلى العدو، وهي إحدى أفراد عائلة حلفية قديمة وفية، عائلة مزارع، تكون قد جلبت العار لكل عائلة في المقاطعة.

كان المشيعون يتلوون من السخط، غير أن الحزن كان قد هدَّهم، خصوصاً ثلاثة منهم... ماكري الرجل العجوز الذي كان خل جيرالد منذ جاء إلى الشمال من سافانا قبل سنين عديدة، والجدة فونتين التي كانت تحبه لأنه زوج إيلين، ثم السيدة تارلتون التي كانت أقرب إليه من أي شخص آخر من جيرانها، لأنه كما كانت تصرح كثيراً، كان الرجل الوحيد في الولاية الذي يعرف الحصان الفحل من المخصي.

كان مشهد وجوه هؤلاء الثلاثة الغاضبة في القاعة المعتمة التي سجي فيها جيرالد قبل الجنازة، قد سبب بعض القلق لآشلي وويل، فانسحبا إلى مكتب إيلين للمشاورة.

- «سيتفوّه بعضهم بشيء عن سولين» قال ويل فجأة وهو يقرض

قشّته، «إنهم يعتقدون أن لديهم الحق في أن يقولوا شيئاً، وربما كان لديهم ذلك، فليس من شأني أن أقرر هذا. ولكن يا آشلي، سواء أكانوا على حق أم لا، فعلينا أن نستنكر هذا العمل إن حدث، لكوننا رجلي العائلة، وذلك خشية أن تنشأ متاعب. ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً مع الرجل العجوز ماكري، لأنه أصم كعمود خشبي ولا يستطيع أن يسمع الناس وهم يسكتونه. وأنت تعرف أنه لم يحدث أن وُجد إنسان في دنيا اللّه استطاع منع الجدة فونتين من أن تصرح برأيها. وأما بالنسبة إلى السيدة تارلتون... أما رأيتها تقلب عينيها الخمريتين كلما نظرت إلى سولين؟ إنها تبدو متحفزة وقلما تستطيع الانتظار. وإذا هم تفوّهوا بشيء فعلينا أن ندحضه، نحن الذين لدينا الآن متاعب كافية في تارا، دون أن نكون على خصام مع جيراننا».

فتنهد آشلي قلقاً، إذ كان يعرف طباع جيرانه أفضل من ويل، وكان يتذكر أن نصف المنازعات، وبعض حوادث القتل التي حدثت في الأيام التي سبقت الحرب، كانت قد نشأت من عادة المقاطعة في إلقاء كلمات قليلة على أجداث جيرانهم الراحلين. وكانت كلمات التأبين مغرقة في الثناء بصفة عامة، ولكنها لم تكن كذلك في بعض الحالات، فأحياناً كانت الكلمات التي يقصد بها الاحترام الفائق، يساء فهمها من قبل أقرباء الميت المتوتري النفوس، ونادراً ما كانت حفنات التراب الأخيرة تتراكم فوق الجدث، قبل أن تكون المتاعب قد بدأت.

ونظراً إلى عدم وجود كاهن، كان على آشلي أن يقوم بالطقوس الدينية بمؤازرة كتاب عبادات كارين. أما مساعدة المبشرين المعمدانيين والنظاميين من جونسبورو فكانت قد رفضت بلباقة. وإذا كانت كارين كاثوليكية أكثر تعبداً من شقيقتيها، فقد اضطربت كثيراً لأن سكارلت لم تُحضر معها كاهناً من أتلانتا. ولكنها ما لبثت أن هدأت قليلاً لأنها

تذكرت أنه عندما سيأتي الكاهن لعقد قران ويل وسولين، سيكون في وسعه أن يقرأ الصلوات على قبر جيرالد. وكانت هي التي عارضت قدوم المبشرين البروتستانت المجاورين، وعهدت بالأمر إلى آشلي بعد أن أشارت إلى فقرات خاصة في كتابها كي يقرأها. وكان آشلي يعرف وهو متكئ على المنضدة العتيقة في مكتب إيلين، أن مسؤولية منع حدوث المتاعب تقع عليه هو. ولما كان يعرف طباع المقاطعة النارية السريعة الغضب، فإنه أضحى في حيرة فيما يتعلق بكيفية سيره في الأمر.

- «لا يوجد مفر هنا يا ويل» قال وهو يجعد شعره اللماع، «فأنا لا أستطيع أن أطرح الجدة فونتين أرضاً أو ماكري العجوز كذلك، كما أنه لا يسعني أن أرفع يدي على فم السيدة تارلتون. وإن ألطف الأشياء التي سيقولونها هي أن سولين مجرمة وخائنة، وأنه لولاها لكان السيد أوهارا ما زال حياً. ليلعن اللّه عادة التحدث على قبر الميت هذه، إنها عادة بربرية».

- «اسمع يا آشلي» قال ويل ببطء، «أنا لا أنوي أن أدع إنساناً يتفوّه بشيء ضد سولين، مهما كانوا يفكرون، فدع الأمر لي، وعندما تفرغ من القراءة والصلاة وتقول «إن كان أحد منكم يريد أن يتكلم بضع كلمات» انظر إليَّ رأساً كيما أستطيع أن أتكلم أولاً».

على أن سكارلت، التي كانت تتأمل الصعوبة التي كان يلاقيها حاملو بساط الرحمة في إدخال الناووس عبر المدخل الضيق إلى أرض المقبرة، لم تكن لديها أي فكرة عن المتاعب التي ستنشأ بعد الدفن. لقد كانت تفكر بقلب موحش أنها كانت تدفن بدفن جيرالد إحدى الروابط الأخيرة التي كانت تربطها بالأيام القديمة، أيام السعادة وعدم المسؤولية.

وأخيراً أنزل حملة بساط الرحمة الناووس قرب القبر، ووقفوا

يطوون وينشرون أصابعهم المتألمة بينما اصطف آشلي وميلاني وويل في الباحة خلف بنات أوهارا ووقف خلفهم جميع الجيران الأقربين الذين استطاعوا أن يحتشدوا في الباحة، أما الآخرون فوقفوا خارج الحائط الآجري. وقد أدهش عددهم الضخم سكارلت وأذهلها، وهي التي كانت تراهم لأول مرة في الحقيقة. لقد كان من لطف الكثيرين أن يأتوا ووسائل النقل محدودة جداً. كان هناك خمسون أو ستون شخصاً، بعضهم من أماكن بعيدة جداً بحيث إن سكارلت استغربت كيف سمعوا بالنبأ في الوقت المناسب حتى استطاعوا المجيء. وكانت هناك عائلات برمّتها قدمت من جونسبورو وفايتفيل ولافجوي، يرافقها بعض الخدم والزنوج، وكان هناك أيضاً كثير من المزارعين الصغار الذين قدموا من مناطق بعيدة عبر النهر، وكذلك كريكرز من أقاصي البقاع الغابية المهجورة، ثم جمهرة من سكان الأهوار. وكان الأخيرون عبارة عن عمالقة ذوي لحى خفيفة، يرتدون ملابس محلية الصنع، وعلى رؤوسهم قبعات من جلد الراكون، وقد استقرت بنادقهم على أذرعهم القوية بسهولة، وكفت أفواههم عن لَوْكِ مضغ التبغ التي أخلدت إلى السكينة داخلهم. وكانوا قد جلبوا معهم نساءهم اللواتي كانت أقدامهن غارقة في التربة الطرية الحمراء، واللواتي تراكم النشوق على شفاههن السفلية، وبدت وجوههن تحت قبعاتهن الشمسية شاحبة اللون كأنها مصابة بالملاريا، ولكنها نظيفة مشرقة. أما أثوابهن المصنوعة من الخام والمكوية حديثاً، فقد كانت تتألق بمادة النشاء.

وكان الجيران القريبون قد حضروا جميعاً، فالجدة فونتين كانت هناك تتكئ على عصاها وقد بدت ذاوية متغضنة صفراء كطير مسن منتوف الريش. وخلفها كانت تقف سالي مونرو فونتين والآنسة الشابة فونتين اللتان كانتا تحاولان عبثاً إقناع الجدة، بتوسلات مهموسة وبشد تنورتها، بالجلوس على الحائط الآجري. أما زوج الجدة، الطبيب

العجوز، فلم يكن موجوداً، إذ كان قد توفى منذ شهرين، الأمر الذي جعل كثيراً من مرح الحياة المشرق الخبيث يغادر عيني الجدة. ثم كانت هناك كاثلين كالفرت هيلتون التي كانت تقف وحيدة كمخلوقة متهمة ساعد زوجها على وقوع المصيبة الحالية، وكانت قبعتها الشمسية الباهتة تخفي وجهها المطرق. ورأت سكارلت وهي مشدوهة أن فستانها الشيتي كان ملطخاً ببقع دهنية، وأن يديها كانتا كلفتين غير نظيفتين، بل كانت توجد أهلة سوداء تحت أظافرها أيضاً، ولم يكن يزينها الآن شيء من صفات كرام الناس. كانت تبدو كأنها من الكريكرز، بل حتى أسوأ من ذلك، كانت تبدو من البيض الفقراء، حائرة عديمة الهندام.

«سرعان ما ستنغمس في النشوق، هذا إذا لم تكن قد شرعت باستعماله قبل الآن» هجست سكارلت مرتاعة، «يا للّه العزيز، يا لها من سقطة!».

واقشعر بدنها، وحولت عينيها عن كاثلين، بعد أن تبينت عمق الهوة بين كرام الناس والبيض الفقراء.

«لولا مهارتي في العمل لكنت في مثل حالتها» فكرت، ثم ماجت فيها الكبرياء عندما أدركت أنها وكاثلين قد بدأتا بالعدة نفسها بعد الاستسلام: أيد فارغة وما كانتا تملكانه في رأسيهما.

«لقد عملت ما فيه الخير» فكرت، ورفعت ذقنها وابتسمت.

ولكنها توقفت في نصف ابتسامتها عندما رأت عيني السيدة تارلتون الفاضحتين مصوَّبتين عليها، تينك العينين اللتين كانت تكتنفهما دائرتان حمراوان من جرّاء البكاء. وبعد أن رمقت السيدة تارلتون سكارلت بنظرة تأنيب، عاودت نظرتها إلى سولين، وكانت نظرة صارمة حانقة تنذر بالشر. وكان يقف خلفها وخلف زوجها بنات تارلتون الأربع، اللواتي كانت خصل شعورهن الحمراء لا تتفق والمناسبة

المهيبة، وعيونهن الخمرية لا تزال تبدو جريئة خطرة كعيون حيوانات فتية نشيطة.

وسكنت قرقعة الأقدام، ورُفعت القبعات، وانثنت الأيدي، وصمت حفيف التنانير عندما خطا آشلي إلى الأمام وهو يحمل في يده كتاب عبادات كارين البالي، ثم وقف ينظر دقيقة إلى الأسفل والشمس تنعكس متلألئة على رأسه الذهبي. وخيّم سكون عميق على الجمهور، سكون عميق جداً بحيث إن خفقان الريح الأجش بين أوراق الماغنوليا بلغ مسامعهم جلياً، كما أن الزقزقة البعيدة المتكررة لطير الحداء بدت مرتفعة حزينة، إلى درجة لا تُحتمل.

وبدأ آشلي يتلو الصلوات، وانحنت جميع الرؤوس عندما ردد صوته الرخيم الرنان الكلمات المهيبة الموجزة.

«آه» فكرت سكارلت وبلعومها ينقبض، «ما أبدع صوته! إذا كان لا بد من أن يقوم إنسان بهذا العمل من أجل والدي، فأنا سعيدة بأن هذا الإنسان هو آشلي. إني أفضله على كاهن. إني أفضل أن يدفن والدي من قبل أحد أفراد جماعته على أن يتم ذلك على يد إنسان غريب».

وعندما بلغ آشلي في صلاته الجزء المتعلق بالأرواح في المطهر، ذلك الجزء الذي كانت كارين قد أشارت إليه ليقرأه، أغلق الباب فجأة. ولكن لم يلاحظ أحد عملية حذف بقية الصلاة سوى كارين التي تطلعت مشدوهة. وكان آشلي يعرف أن نصف الناس الحاضرين لم يكونوا قد سمعوا بالمطهر، أما أولئك الذين كانوا قد سمعوا به، فسيعتبرونها كإهانة شخصية إن هو ألمح، حتى في الصلاة، إلى أن رجلاً طيباً جداً كالسيد أوهارا لم يذهب إلى السماء مباشرة.

وهكذا تجاوز آشلي عن أي ذكر للمطهر إكراماً للرأي العام. وشارك المجتمعون في صلاة الرب بحرارة، ولكن أصواتهم أخذت

تضعف إلى أن تلاشت في صمت كئيب عندما شرع بتسبيحة «السلام عليك يا مريم» إذ لم يكونوا قد سمعوا بتلك الصلاة أبداً، فراحوا ينظرون خلسة بعضهم إلى بعض عندما رأوا أن بنات أوهارا وميلاني وخدم تارا قد أجابوا بالردة «صلّي من أجلنا، الآن وفي ساعة موتنا، آمين».

ثم رفع آشلي رأسه ووقف حائراً مدة دقيقة، بينما اتجهت أنظار مجاوريه إليه مترقبة، وهم يعدلون وقفاتهم في أوضاع أكثر إراحة تحسباً لخطبة طويلة. كانوا ينتظرونه ليتابع بقية الطقوس، إذ لم يخطر لأي منهم أن آشلي كان قد بلغ نهاية الصلوات الكاثوليكية، فمآتم المقاطعة كانت طويلة دائماً، ولم تكن لدى الكهنة النظاميين والمعمدانيين الذين يؤدونها مجموعة مقررة من الصلوات، بل كانوا يرتجلونها حسبما تقتضي الظروف، ونادراً ما كانوا يكفون عن القراءة قبل أن يكون جميع المشيعين قد أغرقوا في الدموع، بينما قريبات الفقيد من السيدات يولولون حزناً. كان من المنتظر أن يصدم الجيران ويحزنوا ويسخطوا لو كانت هذه الصلوات القصيرة هي كل القداديس الدينية التي تقام فوق جدث صديقهم العزيز. ولم يكن أحد يعرف هذه الحقيقة أفضل من آشلي. كان من المتوقع أن تُبحث القضية على موائد العشاء طوال أسابيع، وكان رأي المقاطعة سيستقر على أن بنات أوهارا لم يُظهرن احتراماً لائقاً بوالدهن.

ولذلك ألقى نظرة اعتذارية سريعة على كارين، ثم حنى رأسه ثانية وشرع يتلو من الذاكرة قداس الدفن الأسقفي الذي كان قد قرأه مراراً على أجداث الزنوج المدفونين في تولف أوكس «أنا النشور والحياة... وكل من... يؤمن بي... لن يموت».

ولم يتذكر آشلي العبارات بسرعة، ولذلك كان يتلو ببطء، ويصمت بين آونة وأخرى هنيهة قصيرة، ينتظر العبارات لتخرج من

ذاكرته. غير أن هذا الأداء المتقطع المنتظم جعل كلماته مؤثرة، وشرع المشيعون الذين كانت عيونهم جافة من قبل، شرعوا الآن يلتمسون مناديلهم. ولما كان جميعهم من النظاميين والمعمدانيين المتعصبين، اعتقدوا أن ما يتلوه آشلي هو الشعائر الكاثوليكية، وعلى الفور صححوا رأيهم الأول في أن الشعائر الكاثوليكية فاترة وبابوية. أما سكارلت وسولين فكانتا متساويتين في جهلهما واعتقدتا أن العبارات مواسية جميلة. ولم يتبين أحد سوى ميلاني وكارين أن إيرلندياً كاثوليكياً تقياً كان يوسد مقره الأخير بطقوس كنيسة إنكلترا. وكانت كارين منذهلة جداً من الحزن، ومن ألمها الناجم عن خيانة آشلي، بحيث لم تستطع التدخل.

وعندما انتهى آشلي من الصلاة، فتح واسعاً عينيه الرماديتين الحزينتين، وتطلع إلى الجمهور. وبعد هنيهة صامتة، وقعت عيناه على عيني ويل وقال: «هل يوجد بين الحضور من يريد أن يلقي كلمة؟».

فانتفضت السيدة تارلتون بعصبية، ولكن قبل أن تستطيع التقدم، كان ويل قد خطا إلى الأمام، ووقف عند رأس الناووس وشرع بالتكلم:

- «أيها الأصدقاء» بدأ بصوته الخفيض الخافت، «من المحتمل أنكم تظنون أني أتجاوز مقامي لأني تقدمت للكلام أولاً - أنا الذي لم أعرف السيد أوهارا إلا منذ سنة تقريباً، بينما أنتم جميعاً تعرفونه منذ عشرين سنة أو أكثر، ولكن إليكم حجتي، لو أنه عاش لشهر آخر أو أكثر قليلاً، لكان أصبح من حقي أن أدعوه عمي».

فسَرَت بين الجمهور حركة ذاهلة. لقد كانوا مهذبين جداً بحيث لم يهمسوا، إلا أنهم بدلوا مواضع أقدامهم، وتطلعوا إلى رأس كارين المطرق، فلقد كان الجميع يعرفون إخلاصه الصامت لها. وعندما رأى ويل وجهة أنظارهم، تابع حديثه كأنه لم يلحظ شيئاً:

«ولما كنت سأتزوج الآنسة سولين حالما يصل الكاهن من أتلانتا اعتقدت أن ذلك يمكن أن يمنحني حق التكلم أولاً».

وضاع الجزء الأخير من حديثه في طنين خافت سرى بين المجتمعين، طنين غاضب كدويّ النحل. وكانت تشوب الطنين نغمة سخط وخيبة. لقد كان الجميع يحبون ويل ويحترمونه جرّاء ما قدمت يداه لتارا، وكان الجميع يعرفون أن عواطفه مع كارين، ولذلك وقع نبأ رغبته في التزوج بمنبوذة المنطقة بدلاً منها موقعاً سيئاً في نفوسهم. ويل العجوز الطيب يتزوج سولين أوهارا الصغيرة الخسيسة تلك!

ولهنيهة، ظل الجو متوتراً، وشرعت عينا السيدة تارلتون تبرقان وشفتاها تصوغان كلمات عديمة الصوت. وخلال ذلك الصمت، كان يمكن سماع صوت الرجل العجوز ماكري، وهو يتوسل إلى حفيده كي ينبئه عما قيل. وواجه ويل الجميع، وما زال وجهه وديعاً، ولكن كان في عينيه الزرقاوين الشاحبتين شيء يتحداهم جميعاً في أن يقولوا كلمة واحدة عن زوجته المستقبلية. ولهنيهة ظل الميزان متأرجحاً بين الشعور الوفي الذي يكنه الجميع لويل، وبين ازدرائهم لسولين، وفاز ويل فتابع الحديث كأن صمته كان توقعاً طبيعياً.

«لم أكن أعرف السيد أوهارا وهو في الأوج، كما كنتم تعرفونه. وكل ما عرفته فيه شخصياً، هو أنه كان سيداً نبيلاً مسناً، شارد الذهن قليلاً. ولكني سمعتكم جميعاً تتحدثون عما كان في ماضيه. وأنا أريد أن أقول ما يلي: لقد كان السيد أوهارا إيرلندياً مكافحاً، وسيداً جنوبياً، وحلفياً مخلصاً كأعظم الحلفيين إخلاصاً في الوجود. وليس في وسعكم أن تجدوا مجموعة صفات كهذه، وليس من المحتمل أن نرى الكثير من أمثاله، لأن الأوقات التي ولدت رجالاً مثله، أضحت ميتة مثله. لقد ولد في بلاد غريبة، ولكن الرجل الذي نحتفل بدفنه هنا اليوم كان جورجياً أكثر من أي منا نحن الذين نشيعه. لقد عاش عيشتنا

وأحب بلادنا، وعندما تتحرون الحقيقة، تجدون أنه مات من أجل قضيتنا، تماماً كما فعل الجنود. لقد كان واحداً منا، وكان يتحلى بعاداتنا الطيبة، ويتصف بعاداتنا الخبيثة، وكان ينعم بقوّتنا، ويتميز بضعفنا. كان يتحلى بعاداتنا الطيبة من حيث إنه لم يكن يخاف من أي مخلوق يمشي في حذاء جلدي، ولذا لم يكن هناك أي شيء خارجي يستطيع أن يسحق روحه.

فهو لم يخشَ الحكومة الإنجليزية عندما قررت إعدامه، وإنما انسل خارجاً وغادر وطنه. وعندما أتى إلى هذه البلاد، وكان فقيراً، لم يُخِفْه ذلك مثقال ذرة، بل اندفع إلى العمل وجمع ثروته. كما أنه لم يخشَ أن يستقر في هذا الإقليم، يوم كان هذا الإقليم مقفراً جزئياً، وكان الإنجوس[1] قد غادروه حديثاً، فأبدع مزرعة كبيرة من أرض قفر. وعندما نشبت الحرب وأخذت نقوده بالنفاد، لم يخشَ أن يصبح فقيراً ثانية، وعندما اجتاح الشماليون تارا، وكان يمكن أن يحرقوها أو يقتلوه، لم يضطرب أبداً ولم تضعف معنوياته، بل ثبت قدميه وظل في أرضه. وذلك هو السبب الذي قلت لأجله إنه كان يتحلى بعاداتنا الطيبة، فليس هناك أي شيء خارجي يمكن أنْ يسحق أياً منا.

غير أنه كان يتصف بمواطن الضعف فينا كذلك. فقد كان يمكن أن يهزم من الداخل. والذي أقصد قوله هو أن ما لم يكن في وسع العالم بأسره أن يفعله، استطاع قلبه أن يفعله، فعندما ماتت السيدة أوهارا، مات قلبه أيضاً، وانسحقت روحه. ومن كنا نراه يمشي من حولنا هنا، لم يكن هو السيد أوهارا».

وصمت ويل قليلاً، وطافت عيناه في دائرة الوجوه حوله. كان الجمهور يقف في الشمس الحارة، وكأنه مسمر بالأرض، وقد نسي كل

---

(1) الإنجوس: قبيلة هندية أوروبية - (المترجمان).

ما كان يشعر به من سخط على سولين. واستقرت عينا ويل على سكارلت، وزوتا قليلاً عند المآقي، كأنه يبتسم في قلبه مواساة لها، وأحست سكارلت، التي كانت تكافح لتمنع دموعها المنحبسة من الانبجاس، بالعزاء. لقد كان ويل يتحدث حديثاً معقولاً، بدلاً من جعجعة طويلة عن جمع الشمل في عالم أفضل آخر، وإخضاع إرادتها لمشيئة اللّه. وكانت سكارلت تجد العزاء والقوة في المنطق السليم دائماً.

«وأنا لا أريد أن يقلل أي منكم من اعتباره للفقيد لأنه توفي على تلك الصورة، فجميعكم، وأنا أيضاً، مثله، نتصف بالضعف ذاته والنقائض ذاتها. ليس هناك مخلوق يمشي يستطيع أن يسحقنا أكثر مما استطاع سحقه، لا الشماليون، ولا الكاربت بكرز، ولا الأوقات الصعبة، ولا الضرائب المرتفعة، حتى ولا المجاعة العامة. ولكن ذلك الضعف الكامن في قلوبنا، يستطيع وحده أن يهزمنا ما بين فتحة عين وغمضتها. وليس فقدان إنسان حبيب، وهو دائماً السبب في ذلك، كما حدث للسيد أوهارا، فالدوافع الأصيلة تختلف في الناس. وإني أريد أن أقول هذا: إن الناس الذين تثور دوافعهم يموتون ميتة أفضل من الآخرين، وليس لهؤلاء مكان في الدنيا هذه الأيام، وهم أسعد في مماتهم منهم في حياتهم... وهذا هو السبب في قولي إنكم جميعاً لا تملكون داعياً للحزن على السيد أوهارا الآن، فوقت الحزن قد مضى عندما جاء شيرمان وفقد الراحل زوجته السيدة أوهارا. أما الآن وقد غادرنا جسده ليتصل بقلبه، فأنا لا أرى سبباً لأن نندبه، ما لم نكن أوغاد في منتهى الأنانية. والذي يقول ذلك هو أنا الذي أحببته كما لو كان والدي... ولن تُلقى كلمات أخرى إذا كنتم أيها الناس لا تمانعون في ذلك، لأن العائلة في كرب عظيم بحيث لا تستطيع الإصغاء، ولن يكون عملنا رفيقاً بهم».

وصمت ويل، والتفت إلى السيدة تارلتون وخاطبها بصوت أقل ارتفاعاً من سابقه: «إني لأتساءل عما إذا لم يكن في وسعك أن تأخذي سكارلت إلى البيت يا سيدة؟ فليس من الصواب أن تقف في الشمس هذه المدة الطويلة؟ ومع احترامي للجدة فونتين فإنها لا تبدو نشيطة جداً للقيام بهذا العمل».

تخضب وجه سكارلت من الانفعال، عندما تحولت جميع الأنظار إليها، وقد أجفلها هذا الانتقال المفاجئ من التأبين إلى شخصها. لماذا كان لا بد لويل من أن يشهر بحَبَلها الذي غدا جلياً آنذاك؟ ورمته بنظرة حيية ساخطة، إلا أن نظرة ويل المطمئنة جعلتها تغض الطرف.

«أرجوك» قالت نظرته، «إني أعرف الذي أفعله».

لقد أضحى الآن رب البيت، ولذلك استدارت سكارلت نحو السيدة تارلتون وهي عديمة الحيلة وغير راغبة في أن تقدم مشهداً للناس. أما السيدة تارلتون التي صرفت فجأة، كما قصد ويل، عن الأفكار المتعلقة بسولين إلى موضوع التناسل الأخاذ أبداً، سواء كان يتعلق بالحيوان أو الإنسان، فقد أخذت ذراع سكارلت قائلة:

- «هيا تعالي إلى البيت يا حلوتي».

وكان يكسو وجهها من الاهتمام الرحيم الواعي، وسمحت سكارلت لنفسها بأن تقاد خلال الجمهور الذي تراجع وأفسح لها ممراً ضيقاً. وبينما كانت تمر بين أفراده، ارتفعت دمدمة عطف، كما أن عدة أيدٍ امتدت لتربت على ظهرها مواسية. وعندما وصلت إزاء الجدة فونتين، مدت لها السيدة العجوز يداً عجفاء وقالت: «أعطيني ذراعك يا بنيتي» ثم أضافت وهي تلقي نظرة قاسية على سالي والآنسة الشابة، «لا، لا تأتيا، فأنا لا أريدكما».

سرن ثلاثتهن ببطء بين الجمهور الذي انضمت صفوفه خلفهن، ثم صعدن الممشى المظلل باتجاه البيت. وكانت يد السيدة تارلتون المعينة

الغيور قوية جداً تحت إبط سكارلت، بحيث كادت ترفعها عن الأرض عند كل درجة.

- «أخبريني، لماذا فعل ويل ذلك؟» صاحت سكارلت محتدة وقد أصبحن خارج دائرة الأسماع، «فقد قال بصورة عملية «انظروا إليها، إنها ستضع وليداً!»».

- «طبعاً، إن ذلك صحيح. أليس كذلك؟» قالت السيدة تارلتون، «لقد فعل ويل الصواب، فقد كان من الغباء أن تقفي في الشمس الحارة، في حين كان يمكن أن يغمى عليك وتجهضي».

- «لم يكن ويل قلقاً على إجهاضها» قالت الجدة، منقطعة النفس قليلاً وهي تكدح عبر الساحة الأمامية نحو الدرجات، وقد شعَّت ابتسامة متجهمة واعية في وجهها، «إن ويل رجل حاذق، فلم يكن يريدك أنت أو أنا يا بياتريس أن نلقي كلمة على الضريح، لأنه كان يخشى ما كان يمكن أن نقوله، وقد أدرك أن هذه هي الوسيلة ليتخلص منا... بل لقد كان الأمر أكثر من ذلك... إنه لم يكن يريد أن تسمع سكارلت كدى الطين تسقط على التابوت، وإنه على حق. تذكّري يا سكارلت أنه ما دمتِ لم تسمعي ذلك الصوت فسيظل الأموات بالنسبة إليك كأنهم ليسوا أمواتاً حقاً، ولكنك إذا ما سمعته مرة... الواقع أنه أرهب الأصوات الحاسمة في الدنيا... ساعديني لأصعد الدرج يا بنيتي، وناوليني يدك يا بياتريس... فلم تعد سكارلت في حاجة إلى ذراعك أكثر من حاجتها إلى عكازين... وأنا لست نشيطة جداً كما لاحظ ويل... لقد عرف ويل أنك كنت مدللة والدك، ولذلك لم يرد أن تصبح الأمور أسوأ بالنسبة إليك مما كانت عليه حتى الآن، وحسب أن القضية لن تبدو مزعجة جداً بالنسبة إلى شقيقتيك، فإن لدى سولين عارها ليعضدها، بينما يعضد كارين إلهها. أما أنت فليس لديك ما يعضدك، ألديك يا بنية؟».

- «لا» أجابت سكارلت وهي تعين السيدة العجوز على صعود الدرجات، وقد أدهشتها قليلاً الحقيقة التي بدت في الصوت الهرم الزمار، «لم يكن لدي يوماً ما يعضدني - سوى والدتي».

- «ولكنك عندما فقدتها، اكتشفت أنه كان في وسعك تحمُّل الصدمة وحيدة، أليس كذلك؟ حسناً، ولكن بعض الناس لا يستطيعون، ولقد كان والدك أحد هؤلاء. إن ويل على صواب. لا تحزني. فلم يكن في وسعه أن يستمر في الحياة من دون إيلين. وإنه لأسعد حيث يرقد الآن، تماماً كما سأكون أنا أسعد عندما ألحق بالدكتور العجوز».

كانت الجدة تتكلم من دون أي رغبة في مشاركة سكارلت أحزانها على خلاف السيدة تارلتون. كانت تتكلم، وبصورة طبيعية، كما لو كان زوجها حياً، وفي جونسبورو، وبمقدور رحلة قصيرة بالعربة أن تجمعهما معاً. لقد كانت مسنة جداً، خبرت الكثير الكثير، بحيث لم تكن تخاف الموت.

- «ولكن - إن في وسعك أن تستمري وحدك أيضاً» قالت سكارلت.

فألقت عليها السيدة العجوز نظرة مشعة خاطفة كنظرة طائر.

- «أجل، ولكن ذلك يكون مزعجاً جداً بعض الأحيان».

- «انتبهي يا جدة» قاطعتها السيدة تارلتون، «ينبغي ألّا تتحدثي إلى سكارلت بمثل هذا الحديث، فهي مضطربة بما فيه الكفاية من قبل، فكيف هي الآن بعد هذه المسيرة إلى هنا، وبذلك الثوب الضيق، وحزنها والحرارة. إن لديها ما يكفي ليسبب لها الإجهاض من دون ما تضيفينه إليه وأنت تتحدثين حديث الحزن والأسى».

- «يا للّه» صاحت سكارلت منفعلة، «إني لست مضطربة، كما أني لست من أولئك الغبيات السقيمات اللواتي يجهضن».

- «ليس في وسعك أبداً أن تتنبئي بذلك» قالت السيدة تارلتون، وكأنها عليمة بكل شيء، «فلقد فقدت أول جنين حملت به عندما رأيت ثوراً يجرح أحد زنوجنا وأنت تتذكرين، فرسي نيلي؟ اسمعي، لقد كانت أطيب الأفراس التي رأيتها صحة، ولكنها كانت عصبية المزاج، شديدة الحساسية، وإن أنا لم أراقبها، كانت. . .».

- «بياتريس، صه» قالت الجدة، «إني أراهنك أن سكارلت لن تجهض. دعينا نجلس هنا في القاعة حيث الجو معتدل، فإن تياراً منعشاً يجري هنا. والآن اذهبي يا بياتريس واجلبي لنا كأس لبن، أو ابحثي في غرفة المؤونة وانظري ما إذا كان هناك بعض الخمرة، فإن كأساً منها تنعشني. سنجلس هنا إلى أن يأتي المشيعون ليستأذنوا بالانصراف».

- «ينبغي أن تأوي سكارلت إلى فراشها» أصرت السيدة تارلتون وهي تميزها بنظرها بهيئة امرأة خبيرة حسبت مدة الحمل حتى آخر دقيقة منها:

- «هيا اذهبي» قالت الجدة، ووخزتها بعصاها. وسارت السيدة تارلتون نحو المطبخ، وألقت قبعتها باستهتار فوق البوفيه، ومررت يديها في شعرها الأحمر الرطب.

واستلقت سكارلت على كرسيها وفكت الزرَّين العلويين في قميصها الضيق. كان الجو معتماً معتدل المناخ في القاعة المرتفعة السقف، وكان تيار الهواء العابث الذي يجري من مؤخرة البيت إلى مقدمته منعشاً بعد حرارة الشمس. ونظرت سكارلت عبر القاعة إلى الردهة، حيث كان جيرالد قد أسجي، ثم انحرفت بأفكارها عنه، وتطلعت إلى صورة الجدة روبيلارد المعلقة فوق الموقد، فكان لتلك الصورة المجرحة برؤوس النصال، المتجلية بشعر صاحبتها المجموم

عالياً، وبثدييها نصف العاريين، وبعجرفتها الباردة، كان لها تأثير مقوٍّ على سكارلت.

- «أنا لا أعرف أيهما آلم بياتريس تارلتون أكثر: فقدان أبنائها أم فقدان خيولها» قالت الجدة فونتين، «فهي لم تكن أبداً تعير اهتماماً كبيراً لجيم أو لبناتها كما تعرفين. إنها إحدى هؤلاء الناس الذين كان ويل يتحدث عنهم. لقد انهارت دوافعها الأصيلة، وإني لأتساءل أحياناً عما إذا لم يكن سيصيبها ما أصاب والدك من الذهول. فهي لم تكن سعيدة في أي يوم ما لم تكن الخيول والناس تتوالد أمام ناظريها مباشرة، وإن واحدة من بناتها لم تتزوج أو تأمل بالظفر بزوج في هذه المقاطعة، ولذا فليس لديها شيء ليشغل عقلها. ولو لم تكن كذلك في قلبها لكانت امرأة عامية تماماً... أكان ويل يقول الحقيقة عن زواجه بسولين؟».

- «أجل»، قالت سكارلت وهي تحدق في عين السيدة العجوز تحديقاً. يا للّه، لقد استطاعت أن تتذكر ذلك الوقت الذي كانت تفزع فيه حتى الموت من الجدة فونتين. حسناً، لقد كبرت منذ ذلك الوقت، وسرعان ما تخبرها أن تذهب إلى الجحيم إن هي تدخلت في شؤون تارا.

- «لقد كان في وسعه أن يفعل أفضل من ذلك» قالت الجدة بصراحة.

- «حقاً؟» قالت سكارلت بكبرياء.

- «انزلي عن كبريائك يا آنسة» قالت السيدة العجوز محتدة، «أنا لن أنتقد شقيقتك الغالية، مع أنه كان يمكن أن أفعل ذلك لو أني بقيت عند القبر. إن ما أقصده هو أنه نظراً إلى ندرة الرجال في المنطقة، فإن في وسع ويل أن يتزوج أي فتاة تقريباً، فهناك بنات بياتريس الأربع الشبيهات بالقطط البرية، وبنات مونرو وماكري -».

- «إنه سيتزوج سولين، وهذا كل ما في الأمر».

- «إنها سعيدة الحظ به».

- «إن تارا سعيدة الحظ به».

- «إنك تحبين هذا المكان، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «تحبين كثيراً بحيث إنك لا تبالين بأن تتزوج شقيقتك رجلاً من غير طبقتها ما دام هذا الرجل يستطيع أن يعتني بتارا؟».

- «طبقة؟» قالت سكارلت وقد أذهلتها الفكرة، «طبقة؟ ماذا تهم الطبقة الآن! ما دامت الفتاة تحصل على زوج يستطيع الاعتناء بها؟».

- «تلك مشكلة فيها نظر» قالت السيدة العجوز، «سيقول بعض الناس إنك تتكلمين كلاماً معقولاً، وسيقول آخرون إنك تخفضين الحواجز التي ينبغي ألّا تخفض مقدار بوصة واحدة. من الأكيد أن ويل ليس من الفئة الممتازة، بينما كان بعض أهلك منهم».

واتجهت عيناها المسنتان الحادتان إلى صورة الجدة روبيلارد. وفكرت سكارلت في ويل: رجل نحيل وديع غير مثير يمضغ القشة دائماً، ويخلو مظهره من أي حيوية بصورة خداعة، شأن معظم الكريكرز. ولم يكن سليل صف طويل من السلف الثري العريق الشهير، وربما كان أول رجل من عائلته وضع قدمه على التربة الجورجية أحد مديني أوكليثورب[1] أو خادماً رقيقاً، كما أنه لم يكن قد أرسل إلى كلية. والحقيقة أن أربع سنوات في مدرسة بعيدة عن العمران، كانت كل فترة الثقافة التي حظي بها. لقد كان أميناً، وكان مخلصاً، كما كان صبوراً ومجدّاً، ولكنه حتماً لم يكن من النخبة. وما

(1) جنرال إنجليزي (1696-1785) وهو مؤسس ولاية جورجيا - (المترجمان).

لا ريب فيه أن سولين كانت تنحدر في الدنيا بالنسبة إلى مقاييس آل روبيلارد.

- «وهكذا فأنت ترضين عن انتماء ويل إلى عائلتك».

- «أجل» أجابت سكارلت بحدة وهي على استعداد لضرب السيدة العجوز بقبضتها عند أول كلمة تأنيب تصدر عنها.

- «يمكنك أن تقبّليني» قالت الجدة بصورة تدعو للدهشة، ثم ابتسمت ابتسامة تنم عن أعظم استحسان، «أنا لم أحبك كثيراً إلا الآن يا سكارلت، فلقد كنت دائماً صلبة صلابة قشرة جوزة الهند حتى وأنت طفلة، وأنا لا أحب الفتيات الصلبات، باستثناء نفسي. إلا أنني أحب الطريقة التي تقابلين بها الأمور، فأنت لا تقيمين ضجة حول الأمور التي لا يمكن تجنبها، حتى ولو كنت غير موافقة. إنك تدرئين نفسك بدقّة كصياد ماهر».

ابتسمت سكارلت بارتياب وأطاعت العجوز فطبعت قبلة على الوجنة الذابلة التي قدمت لها. كان من المبهج أن تسمع كلمات الاستحسان ثانية، حتى لو كانت تملك بعض الفكرة عما كانت تعني تلك الكلمات.

- «هناك كثير من الناس في هذه الأنحاء ممن سيكون لديهم بعض ما يقولونه عنك لأنك سمحت لسولين أن تتزوج بكريكر، رغم أن الجميع يحبون ويل. إنهم سيقولون بلهجة واحدة «ما أجمله من رجل وما أفظعها بالنسبة إلى فتاة أوهارية أن تتزوج من طبقة أقل منزلة من طبقتها» ولكن لا تدعي الأمر يزعجك».

- «أنا لم يزعجني أبداً كلام الناس».

- «هذا ما سمعت به» وشاب الصوت الهرم نغم حاد، «حسناً، لا تنزعجي مما يقوله الناس. من المحتمل أن يكون زواجاً ناجحاً. طبعاً سيبدو ويل ككريكرز دائماً، ولن يحسّن الزواج ثقافته أبداً. وحتى لو

أبدع مسك نقود، فإنه لن يضفي على تارا أي إشراق أو بريق، كما أضفى عليها والدك، فالكريكرز ضئيلو البريق. بيد أن ويل سيد في قلبه، إنه ينعم بالسجايا السليمة، إذ لم يكن في وسع أحد، سوى السيد الأصيل، أن يضع إصبعه على مواطن الضعف فينا بدقّة، كما فعل هو الآن في المقبرة. إن العالم بأسره لا يستطيع أن يهزمنا، غير أننا يمكن أن نهزم أنفسنا بأن نتوق توقاً عظيماً جداً إلى أشياء لم نعد نملكها - وبأن نتذكر ماضينا كثيراً جداً. أجل، إن ويل سيكون مفيداً لسولين ولتارا».

- «إذن لقدْ استحسنت عملي لأني سمحت له بالزواج بها».

- «يا اللّه، لا!» كان الصوت المسن تعباً مريراً ولكنه كان عنيفاً، «أستحسن أن يتزوج الكريكرزْ من العائلات العريقة؟ باه! هل أستحسن زواج الأدنياء من كرام الأصل؟ آه، إن الكريكرز طيبون وصلاب وأمناء ولكنهم. . .».

- «ولكنك قلت إنك تظنين أنه سيكون زواجاً ناجحاً!» صاحت سكارلت مشدوهة.

- «إني أظن أنه نجاح بالنسبة إلى سولين، في أن تتزوج ويل - في أن تتزوج أي إنسان، بسبب تلك القضية، لأنها تحتاج إلى زوج حاجة ماسَّة. ومن أي مكان آخر كانت تستطيع الحصول على زوج؟ ومن أي مكان آخر تستطيعين الحصول على مدير ماهر لتارا؟ ولكن ذلك لا يعني أني أستحسن هذه الوضيعة أكثر مما تستحسنينها أنت».

«ولكني أستحسنها» هجست سكارلت وهي تحاول أن تلقط معنى حديث السيدة العجوز، «وإني سعيدة لأن ويل سيتزوجها، لماذا تفكر أني تضايقت من ذلك؟ إنها تعتبر أن من المفروغ منه أني أتضايق مثلها تماماً».

وشعرت بالحيرة وبقليل من الخجل، كما كان يحدث دائماً عندما

كان الناس يعزون إليها العواطف والبواعث التي كانوا يملكونها هم، معتقدين أنها تشاركهم فيها.

وتابعت الجدة حديثها بسرعة، وهي تروّح بورقة النخيل: «أنا لا أستحسن هذا الزواج أكثر مما تستحسنينه أنت، ولكني امرأة عملية، وكذلك أنت. وعندما يأتي الأمر إلى قضية غير سارة، ولا يمكن تجنبها، فإني لا أجد أي معنى في الضجيج والرفس حولها، فليس تلك هي الطريقة المثلى لمواجهة مراقي الحياة ودركاتها. إني أعرف ذلك لأن عائلتي وعائلة الدكتور العجوز خبرتا من تقلبات الدهر أكثر مما كان نصيبنا منها، وإذا كان لدينا نحن الناس شعار ما فهو هذا: «لا تضج - ابتسم وانتظر فرصتك». لقد تخطينا كثيراً من العقبات بهذه الطريقة، نبتسم وننتظر فرصتنا. لقد كان علينا أن نكون بارعين في تخطي العقبات، أجل، لقد كان علينا ذلك. لقد راهنا على الخيول الخاسرة دائماً، هربنا من فرنسا مع الهوغونوت[1] وهربنا من إنكلترا مع الملكيين، وهربنا من اسكتلندا مع الأمير تشارلي الصغير، وهربنا من هايتي بسبب الزنوج، وها نحن الآن يهزمنا الشماليون، ولكننا دائماً نعود إلى القمة في سنين قليلة، أتعرفين لماذا؟».

ورفعت رأسها خيلاء، وفكرت سكارلت أنها لم تكن تشبه شيئاً أكثر من شبهها ببغاء عجوز عليم.

- «لا، لا أعرف، إني أؤكد لك» أجابت بأدب، ولكنها كانت مكتظة قلبياً تماماً كما كانت ذلك اليوم، عندما حثت الجدة ذكرياتها عن ثورة الوادي.

- «حسناً، هذا هو السبب، إننا نرضخ للذي لا يمكن تلافيه،

---

(1) طائفة البروتستانت الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر - (المترجمان).

فنحن لسنا قمحاً وإنما حنطة سوداء! عندما تهبّ عاصفة، فإنها تعصف بالقمح الناضج لأنه يكون جافاً ولا يستطيع الانحناء للريح، بينما الحنطة السوداء الناضجة تحوي عصارة ولذلك تنحني، وبعد أن تمر الريح، تنتصب مستقيمة قوية كما كانت من قبل تقريباً. نحن لسنا عشيرة عنيدة، نحن ليِّنون للغاية عندما تهبّ ريح عاصفة، لأننا نعرف أن من الأفضل للمرء أن يكون ليناً. وعندما تأتي المتاعب، ننحني لما لا يمكن تجنبه من دون أي تذمر، ونعمل ونبتسم وننتظر فرصتنا، ونتعامل مع من هم أقل منا، ونأخذ ما نستطيع أخذه منهم، حتى إذا ما أضحينا أقوياء كما ينبغي، نركل الناس الذين صعدنا على رقابهم. ذلك يا بنيتي سر البقاء» وبعد برهة صمت، أضافت: «إني أقدم هذا الشعار لك».

وزقزقت السيدة العجوز، كأنها كانت فرحة لحديثها، رغم ما كان ينفث به من حقد. وبدا كأنها كانت تتوقع تعقيباً من سكارلت. ولكن العبارات لم تكن تعني إلا قليلاً بالنسبة إلى هذه، فلم تستطع التفكير في شيء تقوله.

- «لا يا سيدتي» أردفت العجوز، «لقد سحق شعبنا ولكنه سينهض ثانية، وإن ذلك أكثر مما أستطيع أن أقوله بالنسبة إلى أناس كثيرين ليسوا بعيدين جداً عن هذا المكان. انظري إلى كاثلين كالفرت، إن في وسعك أن تري إلام وصلت، مجرد بيضاء فقيرة! وأقل قدراً بكثير من الرجل الذي تزوجته، انظري إلى آل ماكري، إنهم معدمون على الأرض، عديمو الحيلة، لا يعرفون ما يفعلون، لا يعرفون كيف يقدمون على أي شيء، وحتى إنهم لا يحاولون عمل شيء، إنهم يبددون وقتهم بالنواح على الأيام السعيدة القديمة. ثم انظري إلى - حسناً، انظري إلى أي إنسان في هذه المقاطعة تقريباً، باستثناء ألِكس وابني سالي وأنت وجيم تارلتون وبناته وبعض الآخرين، لقد انهار الباقون لأنهم لا يملكون أي عصارة في ذواتهم، لأنهم لم يكونوا

يملكون المهارة لينهضوا ثانية. لم يكن هؤلاء الناس يملكون سوى المال والزنوج، والآن وقد ذهب المال والزنوج سيغدون كريكرز في جيل قادم».

- «لقد نسيت الويلكسيين».

- «لا، أنا لم أنسهم وإنما فكرت فقط أن أكون مهذبة فلا أذكرهم في وقت أرى فيه آشلي ضيفاً تحت هذا السقف. ولكن وقد ذكرت اسمهم - انظري إليهم! فهناك إنديا التي أضحت بناء على ما سمعت، عانساً عجوزاً جافة، تضفي على نفسها كل مظاهر الترمل لأن ستيورات تارلتون قُتل، ولا تبذل أي جهد في سبيل نسيانه ومحاولة صيد رجل آخر. طبعاً إنها مسنة، إلا أن في وسعها اصطياد رجل أرمل ذي عائلة كبيرة إذا هي حاولت، وكذلك هوني المسكينة، كانت دائماً فتاة حمقاء، مجنونة على رجل، ولا تملك إدراكاً أوسع من إدراك دجاجة غينياوية. وأما بالنسبة إلى آشلي، فتأمليه!».

- «إن آشلي رجل رائع جداً» شرعت سكارلت بحماس.

- «أنا لم أقل أبداً إنه ليس كذلك، ولكنه عديم الحيلة كسلحفاة مقلوبة على ظهرها. وإذا ما قُدِّر لآل ويلكس أن يجتازوا هذه الظروف الصعوبة فستكون ميلي هي التي ستجعلهم يجتازونها، وليس آشلي».

- «ميلي، يا للّه أيتها الجدة! عم تتحدثين؟ لقد عشت مع ميلي مدة كافية لأعرف أنها امرأة سقيمة جبانة، وليس لديها الحذق الكافي لتقول «بو» لوزّة».

- «لأي سبب في الوجود ينبغي لأي إنسان أن يقول «بو» لوزّة؟ إن ذلك يبدو لي دائماً كهدر للوقت - فمن الممكن أن لا تقول «بو» لوزة، ولكنها تقول «بو» للدنيا ولحكومة الشماليين أو لأي شيء آخر يهدد آشليها الغالي أو ابنها أو آراءها عن النبل. إن طريقها ليس طريقك يا سكارلت أو طريقي أنا، إنها الطريق التي كانت أمك

ستسلكها لو أنها بقيت حية. إن ميلي تذكّرني بأمك عندما كانت صبية. . . وربما جعلت آل ويلكس يجتازون المحنة».

- «ها، إن ميلي مجرد حمقاء صغيرة حسنة النية. ولكنك غير منصفة أبداً بحق آشلي! إنه. . .».

- «ها، ذلك الذنب! لقد خُلق آشلي ليقرأ الكتب، لا لشيء آخر، الأمر الذي لا يساعد الرجل في اجتياز مأزق صعب كهذا الذي نرزح فيه الآن. وبناء على ما أسمع، إنه أسوأ حرّاث في المقاطعة! قارنيه بابني ألِكس وحسب! لقد كان ألِكس قبل الحرب أتفه غندور في الدنيا ولم يكن ليفكر في غير ربطة عنق جيدة، والشرب حتى الثمالة، وقتل إنسان، ومطاردة البنات اللواتي لم يكنّ أفضل مما كان ينبغي لهن أن يكنّ. ولكن انظري إليه الآن! لقد تعلم الزراعة لأنه كان عليه أن يتعلم وإلا لتضوّر وتضوّرنا جوعاً. إنه ينتج الآن أحسن قطن في المقاطعة - أجل يا آنسة، إنه أحسن بكثير من قطن تارا! - وهو يعرف ماذا يفعل بالخنازير والدجاج. ها، إنه شاب بديع رغم طبعه السيّئ. إنه يعرف كيف ينتظر فرصته، ويتغير مع الأساليب المتغيرة، وعندما تنتهي مأساة هذا التجديد كله، ستجدين ابني ألِكس رجلاً غنياً كما كان والده وجدّه، بينما آشلي -».

كانت سكارلت متكدرة من ازدراء الجدة لآشلي ولذلك أجابت ببرود:

- «إن كل ما تقولينه يبدو جعجعة بالنسبة إليّ».

- «الواقع أنه ينبغي ألّا يبدو لك كذلك» قالت الجدة وصوبت نظرة حادة إليها، «لأنه هو النهج ذاته تماماً، الذي كنت تسيرين عليه منذ ذهبت إلى أتلانتا. أجل! إننا نسمع بمخازيك، حتى لو كنا مدفونين هنا في الريف. لقد تغيرت مع الأوقات المتغيرة كذلك. نحن نسمع كيف تمالئين الشماليين والبيض الحقيرين والكاربت بكرز الحديثي

الشراء، لأجل أن تكسبي المال منهم. إن الزبدة لا تذوب في فمك بحسب ما أسمع. على كل حال، إني أقول لك، تابعي طريقك، وحصّلي كل سنت تستطيعين تحصيله منهم. لكن عندما يُصبح في حوزتك مال كافٍ اركليهم في وجوههم، لأنهم لن يخدموك أكثر من ذلك. وتأكدي أنك ستقدمين على هذا العمل، وستقدمين عليه كما يجب، لأن التراب العالق على أطراف معطفك يستطيع أن يسحقك».

فنظرت سكارلت إليها وجبينها متغضن بما كانت تبذله من جهد كي تستوعب كلام الجدة الذي ما زال لا يعني كثيراً، وكانت لا تزال حانقة لأن آشلي كان قد دعي سلحفاة مقلوبة على ظهرها.

- «أعتقد أنك مخطئة فيما يتعلق بآشلي» قالت فجأة.

- «سكارلت، أنت لست ذكية أبداً».

- «ذلك هو رأيك» قالت سكارلت بوقاحة، وهي تتمنى لو كان من المسموح صفع خدود السيدات المسنات.

- «ها، أنت ذكية جداً فيما يتعلق بالدولارات والسنتات وذلك هو أسلوب الرجل في أن يكون ذكياً، ولكنك لست ذكية أبداً كامرأة. إنك لست ذكية مثقال ذرة فيما يتعلق بالناس».

وشرعت عينا سكارلت تنفثان النار، ويداها تنقبضان وتنفتحان.

- «لقد جعلتك طيبة ومجنونة، أليس كذلك؟» سألت السيدة العجوز وهي تبتسم، «الواقع أني قصدت أن أفعل ذلك الشيء تماماً معك».

- «لقد فعلت، أليس كذلك؟ ولكن لماذا، أرجوك؟».

- «إن لدي أسباباً كثيرة ووجيهة».

واسترخت الجدة في كرسيها، وتبينت سكارلت فجأة أنها كانت تبدو تعبة جداً، ومسنة جداً إلى درجة لا يمكن تصديقها. كانت يداها الصغيرتان الشبيهتان بمخلبين، المثنيتان حول المروحة، صفراوين

شاحبتين كيدي رجل ميت. وزاول الغضب قلب سكارلت عندما راودتها فكرة، فانحنت إلى الأمام وأخذت إحدى اليدين في يديها.

- «أنت عجوز كذابة رائعة جداً» قالت، «إنك لم تكوني تعنين كلمة من كل هذا الهذر. لقد كنت تتكلمين لتبعدي تفكيري عن والدي فقط».

- «لا تعبثي معي!» قالت السيدة العجوز متذمرة، منتزعة يدها بعيداً، «من أجل ذلك السبب من جهة، ولأن الذي كنت أقوله لك هو الحقيقة من جهة أخرى. على أنك غبية جداً بحيث لم تتبيَّني ما كنت أقوله».

ولكنها ابتسمت قليلاً، بحيث خففت لذعة كلماتها، بينما فرغ قلب سكارلت نفسه من السخط الناجم بسبب آشلي. لقد كان من الجميل أن تعرف أن الجدة لم تكن تعني كلمة مما قالت.

- «أشكركِ على كل حال، لقد كان من الجميل أن تتحدثي إليَّ - وإني سعيدة لأنك تؤيدينني فيما يتعلق بويل وسولين، حتى ولو - حتى ولو أن كثيراً من الناس الآخرين يستنكرون ذلك».

وجاءت السيدة تارلتون عبر القاعة تحمل كوبين من اللبن. وكانت هذه لا تحسن القيام بأي عمل بيتي، ولذلك كان اللبن يطفح من الكوبين.

- «لقد اضطررت إلى الذهاب إلى الحظيرة لأحضر اللبن» قالت، «اشرباهما بسرعة، لأن الناس قادمون من المقبرة. سكارلت، هل حقاً ستدعين سولين تتزوج ويل؟ ليس لأنه لا ينعم بمظهر جميل بالنسبة إليها ولكن أنت تعرفين أنه كريكرز -».

فقابلت عينا سكارلت عيني الجدة. كان هناك في العينين المسنتين بريق ماكر وجد جواباً في عينيها.

41

عندما أُلقيت تحية الوداع الأخيرة، وتلاشى صوت العجلات والحوافر الأخير، دخلت سكارلت إلى مكتب إيلين، وأخرجت شيئاً براقاً من حيث كانت قد خبأته في الليلة السابقة، بين الأوراق المصفرة في خانات المنضدة. وعندما سمعت بورك ينشق في غرفة الطعام، وهو منهمك في إعداد مائدة العشاء، نادته. فجاءها ووجهه الأسود قانط ككلب ضائع فقد سيده.

- «بورك» قالت بجفاء، «إذا ما بكيت مرة أخرى فقط فسأ - فسأبكي أنا أيضاً، ينبغي أن تكف عن البكاء».

- «سمعاً وطاعة. إني أحاول، ولكن كلما أحاول، أفكر في السيد جيرالدُ و -».

- «حسناً، لا تفكر فيه، فإن في وسعي أن أتحمل دموع أي شخص آخر، ولكن ليس دموعك، انظر» غيَّرت الحديث فجأة، «ألا ترى؟ ليس في وسعي أن أتحمل دموعك لأني أعرف كم كنت تحبه. امخط يا بورك، إن عندي هدية لك».

فبرقت عينا بورك ببعض الاهتمام وهو يمخط بصوت مرتفع: بيد أن ذلك البريق كان تأدباً أكثر منه اهتماماً.

- «أنت تذكر تلك الليلة، عندما أصبت برصاصة وأنت تسرق قن أحد الناس».

- «يا للّه يا آنسة سكارلت، أنا لم -».

- «الواقع أنك سرقت، لذلك لا تكذب عليَّ فيما يتعلق بذلك الحادث في هذا الوقت المتأخر. أنت تذكر أني قلت لك إني سأمنحك ساعة لأنك كنت وفياً جداً؟».

- «نعم، إني أتذكر. تصورتُ أنكِ نسيت».

- «لا، أنا لم أنسَ، وهذه هي».

ومدت يدها نحوه بساعة ذهبية كبيرة، عليها نقش بارز كثيف، وتتدلى منها سلسلة فيها زخارف وحلقات كثيرة.

- «من أجل اللّه يا آنسة سكارلت!» صاح بورك، «تلك ساعة السيد جيرالد، لقد رأيته ينظر إلى تلك الساعة مليون مرة!».

- «أجل، إنها ساعة والدي، وإني أعطيك إياها، خذها».

- «ها، لا» تراجع بورك فزعاً، «تلك ساعة سيد أبيض، وساعة السيد جيرالد بالذات، فكيف تتحدثين عن منحها لي يا آنسة سكارلت؟ تلك الساعة تخص ويد هاملتون الصغير شرعاً».

- «إنها تخصك. ماذا قدم ويد هاملتون لبابا؟ هل كان يعتني به عندما كان مريضاً وضعيفاً؟ هل كان يحممه ويلبس ويحلق له ذقنه؟ هل وقف إلى جانبه عندما أتى الشماليون؟ هل كان يسرق من أجله؟ لا تكن أحمق يا بورك. إذا كان أحد يستحق ساعة، فأنت هو الذي يستحقها. إني أعرف أن بابا كان سيوافق على ذلك. خذها».

وتناولت سكارلت اليد السوداء ووضعت الساعة في كفها. وحدق بورك فيها بمهابة، وغمر السرور وجهه ببطء.

- «لي، حقاً يا آنسة سكارلت؟».

- «أجل، حقاً».

- «حسناً، أشكرك يا سيدة».

- «هل تريد أن آخذها إلى أتلانتا من أجل أن ينقش عليها؟».

- «ماذا يعني أن ينقش عليها؟» وبدا صوته مرتاباً.

- «يعني أن تدوّن كتابة على ظهرها مثل - مثل «إلى بورك من الأوهاريين - خادم وفيّ أمين في عمله»».

- «لا - أشكرك يا سيدة، لا يهمني النقش» وتراجع خطوة إلى الوراء وهو يقبض على الساعة بحزم.

واختلجت شفتاها بابتسامة صغيرة.

- «ما القضية يا بورك؟ ألا تثق بي أن أرجعها إليك؟».

- «بلى، إني أثق بك - وإنما، وإنما، حسناً، يمكن أن تغيري رأيك».

- «لن أفعل ذلك».

- «الواقع، يمكن أن تبيعيها. إني أقول ذلك لأنها تساوي مبلغاً كبيراً من المال».

- «هل تظن أني سأبيع ساعة والدي؟».

- «نعم - إذا كنت في حاجة إلى ثمنها».

- «ينبغي أن تضرب عقاباً على ذلك يا بورك. يساورني رأي في أن أسترد الساعة منك».

- «لا، لن تسترديها يا سيدة!» وظهرت أول ابتسامة خفيفة ذلك اليوم على وجهه الأسود الذي أضناه الحزن. «إني أعرفك - ويا آنسة سكارلت -».

- «أجل يا بورك».

- «لو أنك لطيفة مع الناس البيض نصف لطفك مع الزنوج، فإني أقول إن العالم سيعاملك معاملة أفضل من معاملته لك الآن».

- «إنه يعاملني معاملة طيبة كما ينبغي» قالت، «اذهب وجد السيد آشلي وأخبره أني أريد أن أراه هنا، فوراً».

كان آشلي يجلس على كرسي الكتابة الذي كان يخص إيلين، وقد

جعل جسده الطويل قطعة الأثاث الهزيلة هذه تبدو صغيرة، وذلك حينما كانت سكارلت تعرض عليه نصف أرباحِ المعمل. لم تقابل عيناه عينيها مرة واحدة ولم يقاطعها بكلمة واحدة، بل جلس ينظر إلى يديه، يقلبهما ببطء يتأمل باطنهما أولاً ثم ظاهرهما، كأنه لم يكن رآهما من قبل. ورغم العمل الشاق، كانت يداه لا تزالان نحيلتين بضّتين، معتنى بهما بصورة غريبة إذا ما قيستا بيدي مزارع.

وأزعجها صمته ورأسه المطرق قليلاً، فضاعفت جهودها لتجعل المعمل يبدو جذاباً مغرياً. وأعدت كل سحر الابتسامة والنظرة اللتين تنعم بهما للتأثير عليه، ولكن من دون جدوى لأنه لم يرفع عينيه. حبذا لو أنه ينظر إليها! ولم تتطرق إلى ذكر النبأ الذي أخبرها به ويل عن عزم آشلي على السفر شمالاً. وراحت تتحدث بافتراض ظاهري عن عدم وجود عائق يقف في طريق موافقته على خطتها. ومع ذلك فإنه لم يتكلم، وأخيراً تلاشت كلماتها في الصمت. كانت كتفاه النحيلتان منصبتين بعزم شديد أفزعها، حتماً إنه لن يرفض! أي سبب في الوجود كان في وسعه أن يعتمد عليه في رفضه؟

- «آشلي» شرعت تتحدث ثانية، ثم صمتت. ولم تكن قد عزمت على أن تستخدم موضوع حَبَلها كحجة لها، بل لقد نفرت من مجرد التفكير في أن آشلي سيراها منتفخة بشعة هكذا. ولكن عندما ظهر أن وسائل الإقناع الأخرى لم تلقَ أي تأثير لديه، قررت أن تستخدم موضوع حَبَلها وعجزها، كورقة أخيرة.

- «ينبغي أن تأتي إلى أتلانتا، إني أحتاج إلى مساعدتك الآن حاجة ماسَّة لأني لا أستطيع الاهتمام بمعملي، ومن المحتمل أن تمضي شهور قبل أن يكون في مقدوري ذلك. لأني - لأني - وعلى كل حال، لأني -».

- «أرجوك» قال بخشونة، «يا للّه يا سكارلت!».

ونهض وذهب فجأة إلى النافذة ووقف وظهره إليها، ووقف يراقب صف البط المهيب وهو يستعرض نفسه عبر ساحة المخزن.

- «هل ذلك - هل ذلك هو السبب في أنك لن تنظر إليّ؟» استوضحت باستخذاء، «إني أعرف أني أبدو...».

فاستدار نحوها بسرعة خاطفة وقابلت عيناه الرماديتان عينيها بشدة جعلت يديها تسرعان إلى بلعومها.

- «لعنة اللّه على مظاهرك!» قال بقوة وسرعة، «أنت تعرفين أنك دائماً تبدين جميلة في عيني».

ففاضت منها السعادة حتى إن عينيها ترقرقتا بالدمع.

- «ما أعذبها منك أن تقول ذلك! لأني كنت أشعر بالخجل إذ سمحت لك بأن تراني -».

- «أنت تشعرين بالخجل؟ لماذا ينبغي لك أن تشعري بالخجل؟ أنا الذي ينبغي أن أشعر بالخجل. ولولا حماقتي لما كنت في هذا المأزق ولما كنت تزوجت فرانك أبداً. كان يجب ألّا أدعك تغادرين تارا في الشتاء المنصرم. آه ما كان أغباني! كان يجب أن أعرفك - أعرف أنك كنت يائسة، يائسة جداً بحيث إنك - كان يجب - يجب -» وشحب وجهه.

وخفق قلب سكارلت بعنف. لقد كان يتحسر لأنه لم يهرب معها!

- «إن أقلَّ ما كان يمكنني عمله هو أن أخرج وأحترف مهنة قاطع طريق أو القتل لأحصل على نقود الضرائب لك حين كنت قد احتضنتنا كشحاذين. آه! لقد أسأت التصرف من جميع الوجوه» فانكمش قلبها بالخيبة وغادرها بعض السعادة، لأن هذه لم تكن الكلمات التي أملت سماعها.

- «كنت سأذهب على أية حال» قالت بعناء، «لم يكن في وسعي

أن أدعك تفعل أي شيء من ذلك القبيل. وعلى كل حال، لقد قضي الأمر الآن».

- «أجل لقد قضي الأمر الآن» قال بمرارة بطيئة، «إنك لم ترضي أن أقوم بأي عمل منحط، ولكنك رضيت أن تبيعي نفسك لرجل لم تكوني تحبينه - وتحملين طفلاً منه، حتى لا تجوع عائلتي وأنا. لقد كان لطفاً منك أن تؤوي عجزي».

كانت الحدة في صوته تنطق عن جرح فج غير مندمل، جرح كان يؤلمه داخلياً. وجلبت كلماته العار إلى عينيها، لقد كان سريعاً في ملاحظة ذلك فتحول وجهه إلى الرقة.

- «إنك لم تعتقدي أني كنت ألومك؟ يا للّه العزيز يا سكارلت! لا. إنك أظرف امرأة عرفتها في حياتي، إني ألوم نفسي».

واستدار عنها، وسرح بصره عبر النافذة مرة ثانية، ولم تكن كتفاه المعروضتان أمام عينيها تبدوان منتصبتين تماماً. وانتظرت سكارلت هنيهة طويلة وهي صامتة، آملة أن يعود آشلي إلى مزاجه الذي تكلم فيه عن جمالها، آملة أن يزيد من كلماته التي كان في وسعها أن تحتفظ بها ككنز ثمين. لقد مضى زمن طويل منذ كانت قد رأته، وكانت قد عاشت على الذكريات إلى أن بليت الذكريات وأضحت واهية. كانت تعرف أنه ما زال يحبها، فتلك الحقيقة كانت ظاهرة في كل تقسيم من تقاسيم وجهه، في كل كلمة مريرة أدان بها نفسه، في استيائه من حملها بطفل فرانك. وتحرقت كثيراً لسماعه ينطق بتلك الكلمات، وتحرقت لتتكلم هي بنفسها كلمات تثيره فتدفعه إلى اعتراف، ولكنها لم تتجرأ. ثم تذكرت وعدها الذي كانت قد قطعته له في الشتاء الماضي في البستان، وعدها بأنها لن تقذف بنفسها على رأسه مرة أخرى أبداً. وأدركت بحزن أن ذلك الوعد كان يجب أن يوفى به إذا كان آشلي سيظل بقربها. فمجرد صرخة حب أو شوق واحدة منها، مجرد نظرة واحدة

متوسلة من أجل ذراعيه. . . وينتهي الأمر إلى الأبد. غير أن من الأكيد أن آشلي كان ينوي السفر إلى نيويورك، ويجب ألّا يذهب بعيداً عنها.

- «آه آشلي، لا تلم نفسك! كيف كان يمكن أن تكون غلطتك! ستأتي إلى أتلانتا وتساعدني، ألن تأتي؟».

- «لا».

- «ولكن يا آشلي» وشرع صوتها يتقطع بالألم والخيبة، «ولكني سأعتمد عليك. إني في حاجة ماسَّة إليك. إن فرانك لا يستطيع مساعدتي. إنه مشغول جداً في المخزن. وإن أنت لم تأتِ فإني لا أعرف من أين أجد رجلاً! كل رجل ذكي في أتلانتا مشغول بشؤونه الخاصة، والآخرون غير قديرين أبداً و -».

- «لا جدوى من هذا الكلام يا سكارلت».

- «تعني أنك تفضل الذهاب إلى نيويورك والعيش بين الشماليين على المجيء إلى أتلانتا؟».

- «من أخبرك ذلك؟» والتفت وواجهها وكدرة خفيفة تجعد جبينه.

- «ويل».

- «أجل، لقد قررت أن أذهب إلى الشمال، لقد عرض عليَّ صديق قديم، كان قد قام معي بالرحلة العظيمة قبل الحرب، وظيفة في مصرف والده. وهذا أفضل يا سكارلت، ولن أكون ذا نفع لك، فأنا لا أعرف شيئاً عن صناعة الأخشاب».

- «ولكنك تعرف أقل عن أعمال المصرف، وإنها لأصعب بكثير! كما أني أعرف أني سأدفع لك علاوات لعدم خبرتك أكثر مما سيدفع الشماليون».

فأجفل آشلي، وأدركت أنها أخطأت. ثم استدار وأطلق بصره خارج النافذة ثانية.

- «أنا لا أريد علاوات توهب لي، إني أريد أن أعتمد على نفسي

فيما أنا جدير به. ماذا فعلت في حياتي حتى الآن؟ لقد آن الأوان لأصنع شيئاً من نفسي - أو أنهار بسبب خطئي. لقد ظللت متقاعداً على نفقتك منذ مدة طويلة وإلى الآن».

- «ولكني أعرض عليك نصف أرباح المعمل يا آشلي! ستعتمد على نفسك لأن العمل - كما ترى، سيكون عملك الخاص».

- «سنصل إلى الشيء ذاته، فإنني لن أكون منتجاً لما يؤهلني لنصف الأرباح، بل سأكون آخذاً إياه كهبة. ولقد أخذت هبات كثيرة منك حتى الآن يا سكارلت. غذاء ومأوى وحتى ثياباً لي ولميلاني وللطفل، وأنا لم أعطك شيئاً مقابل ذلك».

- «ها، ولكنك أعطيتني. لم يكن في وسع ويل. . .».

- «إن في وسعي تكسير الحطب جيداً الآن».

- «آه آشلي» صاحت يائسة والدموع في عينيها، وقد أثارتها النغمة الساخرة في صوته، «ماذا حدث لك منذ أن غادرت تارا؟ - إنك تبدو قاسياً جداً! لم يكن من عادتك أن تكون كذلك».

- «ماذا حدث؟ شيء جدير بالاعتبار كثيراً. لقد كنت أفكر. إني لا أعتقد أنني كنت أفكر حقيقة منذ الاستسلام إلى حين ذهبت بعيداً من هنا. لقد كنت في حالة من الحيوية الخامدة، وكان يكفيني أن أنعم بشيء أقتات به وسرير أنام عليه. ولكن عندما ذهبت إلى أتلانتا، وأخذت على عاتقك عبء رجل، ألفيت نفسي أقل بكثير من رجل - أقل بكثير من امرأة في الحقيقة. إن أفكاراً كهذه ليست سارة ليعيش الإنسان معها، وأنا لا أنوي أن أعيش معها مدة أطول. لقد خرج رجال آخرون من الحرب وهم يملكون أقل مما كنت أملك، ولكن انظري إليهم الآن، ولذا فإني ذاهب إلى نيويورك».

- «ولكن - أنا لا أفهم! إذا كان العمل هو ما تبغي، فلماذا لا تفي أتلانتا بالقصد كنيويورك؟ وإن معملي -».

- «لا يا سكارلت، إن هذه هي فرصتي الأخيرة. سأذهب إلى الشمال. وإن أنا ذهبت إلى أتلانتا وعملت عندك فإني سأضيع إلى الأبد».

ودوَّت كلمة «أضيع - أضيع» في قلبها بصورة مرعبة كجرس موت يقرع. وأسرعت عيناها تنشدان عينيه ولكنهما كانتا متسعتين رماديتين بلوريتين، وكانتا تنظران خلالها وإلى ما وراءها، إلى مصير لم يكن في وسعها أن تراه، ولم يكن في وسعها أن تدركه.

- «تضيع؟ هل تعني - هل قمت بشيء في وسع شماليي أتلانتا القبض عليك بسببه؟ أعني، فيما يتعلق بمساعدة توني على الهروب، أو - أو - آه يا آشلي، أنت لست عضواً في الكوكلوكس، أليس كذلك؟».

فعادت عيناه الشاردتان إليها بسرعة، وابتسم ابتسامة موجزة لم تبلغ عينيه أبداً.

- «لقد نسيت أنك حرفية جداً. لا، ليس الشماليون هم الذين أخافهم، إني أعني أنه إذا ما ذهبت إلى أتلانتا وعدت إلى أخذ العون منك فسأدفن إلى الأبد كل أمل في الاعتماد على نفسي».

- «آه» تنهدت في فرج سريع، «إذا كان هذا كل ما في الأمر!».

- «أجل» وابتسم ثانية، وكانت ابتسامة أكثر كآبة من سابقتها، «هذا فقط، كبريائي المذكرة، كرامتي الشخصية، وروحي الخالدة. إن طاب لك أن تدعيها كذلك».

- «ولكن» استدارت بجسدها وفي رأسها خطة أخرى، «تستطيع أن تشتري المعمل مني تدريجياً، وسيصبح ملكك، وعندئذ -».

- «سكارلت» قاطعها بحدة، «إني أقول لك لا! توجد أسباب أخرى!».

- «أي أسباب؟».

- «أنت تعرفين هذه الأسباب أحسن من أي شخص آخر في الدنيا».

- «ها، تلك؟ ولكن - لن تضيرك أبداً» أكدت بسرعة، «لقد وعدتك كما تعرف، هناك في البستان في الشتاء الماضي، وسأحافظ على وعدي و -».

- «إذن أنت واثقة بنفسك أكثر من ثقتي بنفسي. إني لا أستطيع أن أعتمد على نفسي في الحفاظ على وعد كهذا. كان ينبغي ألّا أقول ذلك، ولكن عليَّ أن أجعلك تفهمين. سكارلت، لن أتحدث بهذا ثانية، لقد انتهى. وعندما ستتزوج سولين وويل، سأذهب إلى نيويورك».

وقابلت عيناه الواسعتان الحانقتان عينيها لحظة، ثم قطع الغرفة بسرعة، ورنت سكارلت إليه في ألم شديد بينما كانت يده على مقبض الباب. لقد انتهت المقابلة، ولقد خسرتها هي. وفجأة أحست بالضعف الناجم عن جهد اليوم السابق وحزنه، وعن الخيبة الحالية. وهكذا انهارت أعصابها فجأة وزعقت: «آه، آشلي» ثم طوحت بنفسها على الكنبة مسترخية، وانفجرت في عويل صارخ.

وسمعت وقع خطواته الحائرة تغادر الباب وصوته المرتبك ينطق باسمها مرة بعد مرة، وهو فوق رأسها، ثم سمعت قرقعة خطوات سريعة تجري في القاعة آتية من المطبخ، واخترقت ميلاني الغرفة وعيناها متسعتان من الذعر.

- «سكارلت، أليس الطفل؟...».

فدسّت سكارلت رأسها في الكنبة المغبرة وزعقت ثانية:

- «آشلي - إنه حقير، حقير لعين - مقيت جداً!».

- «آه آشلي، ماذا فعلت لها؟» وألقت ميلاني بنفسها على الأرض بجانب الكنبة، وضمَّت سكارلت بين ذراعيها، «ماذا قلت لها؟ كيف

وسعك؟! كان يمكن أن تسبب لها إجهاضاً! يكفي يا عزيزتي، ضعي رأسك على كتف ميلاني! ما القضية؟».

- «آشلي - إنه - إنه عنيد ومقيت جداً!».

- «آشلي، إني مندهشة منك! تثيرها إثارة بالغة وهي حامل والسيد أوهارا لم يكد يوسد قبره!».

- «لا تثوري عليه!» صاحت سكارلت بصورة غير منطقية، ثم رفعت رأسها فجأة عن كتف ميلاني، وكان شعرها الأسود الخشن قد تناثر داخل شبكته بينما هطلت الدموع سيولاً على وجهها، «إن له الحق في أن يفعل ما يطيب له!».

- «ميلاني» قال آشلي ووجهه أبيض، «دعيني أوضح لك الأمر. لقد كانت سكارلت لطيفة جداً في أن عرضت عليَّ وظيفة في أتلانتا كمدير لأحد معمليها -».

- «مدير!» صاحت سكارلت بسخط، «عرضت عليه نصف الربح، ولكنه -».

- «وأخبرتها أني قد أعددت ترتيبات لسفرنا إلى الشمال، ولكنها. . .».

- «آه» صاحت سكارلت وقد شرعت في النحيب ثانية، «لقد أخبرته وأخبرته كيف أنني في حاجة شديدة إليه - كيف أنه لم يكن في وسعي أن أحصل على أي رجل ليدير المعمل - وكيف أني سألد هذا الطفل - وقد رفض أن يأتي! والآن - الآن، عليَّ أن أبيع المعمل، وإني أعرف أني لن أستطيع أن أحصل على ثمن جيد له، وسأخسر مالاً وإني أظن أن من المحتمل أن نتضور جوعاً على إثر ذلك، ولكنه لم يعبأ بكل هذا. إنه حقير جداً!» ودست رأسها ثانية في كتف ميلاني النحيلة، وغادرها بعض الألم الحقيقي عندما استيقظ فيها شعاع من الأمل. كان في وسعها أن تدرك أنها كانت تنعم بحليف في قلب

ميلاني المخلص، كما كان في وسعها أن تحس بسخط ميلاني على أي إنسان، حتى على زوجها المحبوب، إذا هو دفع سكارلت إلى البكاء. وانقضّت ميلاني على آشلي كحمامة صغيرة مصممة، نقرته للمرة الأولى في حياتها:

- «آشلي، كيف استطعت أن ترفض رجاءها؟ وبعد كل الذي فعلته من أجلنا! ما أعظم ما جعلتنا نبدو ناكرين للجميل! إنها حائرة جداً الآن بسبب وليدها - ما أقلّها شهامة منك! لقد ساعدتنا عندما كنا في حاجة إلى المساعدة، وقد أنكرت عليها الآنِ عونك وهي في حاجة إليك!».

وتطلعت سكارلت إلى آشلي خلسة، ورأت الدهشة والحيرة واضحتين في وجهه فيما كان ينظر في عيني ميلاني السوداوين الحانقتين. وكانت سكارلت دهشة كذلك من عنف هجوم ميلاني، لأنها كانت تعرف أن ميلاني تعتبر زوجها أرفع من الملامة الزوجية، وتعتقد أن قراراته تلي قرارات الإله فقط.

- «ميلاني. . .» بدأ آشلي، ولكنه لم يلبث أن قذف يديه حائراً.

- «آشلي، كيف تستطيع أن تتردد؟ وفكر في الذي فعلته من أجلنا - من أجلي! كنت سأموت في أتلانتا عند ولادة بو لو لم تكن هي موجودة! ثم إنها - أجل، إنها قتلت شمالياً دفاعاً عنا. هل عرفت ذلك؟ لقد قتلت رجلاً من أجلنا. ولقد اشتغلت وكدحت كالعبيد قبل أن تأتي أنت وويل، وذلك فقط لتُوجد طعاماً لأفواهنا. وعندما أفكر فيها وهي تحرث وتقطف القطن، لا أستطيع إلا أن - آه يا عزيزتي!».

وهوت برأسها وقبَّلت شعر سكارلت الشعث في إخلاص شديد «وهذه هي المرة الأولى التي تسألنا فيها لنفعل شيئاً من أجلها -».

- «أنت لست في حاجة لتخبريني ما فعلت من أجلنا».

- «وفكر فقط يا آشلي! إنها علاوة على مساعدتها، فكر فقط ماذا

ستعني بالنسبة إلينا أن نعيش في أتلانتا بين شعبنا، وأن لا نضطر إلى أن نعيش مع الشماليين! فهناك ستكون عمتي وعمي هنري وجميع أصدقائنا. ويستطيع بو أن ينعم بالكثير من الرفاق ويذهب إلى المدرسة. بينما إذا ذهبنا إلى الشمال، فلن يكون في وسعنا أن ندعه يختلط بالأولاد الشماليين، ويجلس مع الزنوج الصغار في صفه! وستضطر إلى اقتناء مربية، ولأنا لا أرى كيف سنؤمن -».

- «ميلاني» قال آشلي وصوته هادئ للغاية، «هل أنت حقيقة ترغبين في الذهاب إلى أتلانتا رغبة أكيدة؟ إنك لم تقولي ذلك أبداً عندما تحدثنا عن الذهاب إلى نيويورك. إنك لم تلمّحي أبداً -».

- «ها، ولكن عندما تحدثنا عن الذهاب إلى نيويورك، كنت أعتقد أنه لم يكن يوجد عمل لك في أتلانتا. وعلاوة على ذلك، لم يكن من حقي أن أقول أي شيء. إن واجب المرأة هو أن تذهب حيث يذهب زوجها. ولكن الآن، وسكارلت تحتاج إلينا حاجة ماسَّة، ولديها وظيفة تستطيع أنت فقط أن تشغلها، أصبح في وسعنا أن نذهب إلى بيتنا! بيتنا!» كان صوتها جذلاً وهي تضغط على سكارلت، «وسأرى فايف بوينتس ثانية وطريق بيتشتري و - و - آه. كيف أني فقدتها جميعاً! وربما كان في وسعنا أن ننعم ببيت خاص بنا! وأنا لن أحفل مهما كان صغيراً زرياً، ولكن - بيت خاص بنا!».

وتألقت عيناها بالحماس والسعادة، وحدق الاثنان بها: آشلي بنظرة غريبة مشدوهة، وسكارلت بدهشة يشوبها الخجل، فلم يكن قد خطر لها أبداً أن ميلاني افتقدت أتلانتا إلى هذه الدرجة الكبيرة وتلهفت للعودة إليها، تلهفت لبيت خاص بها. لقد كانت تبدو قانعة جداً في تارا، فجاءت معرفة تلهفها إلى بيت كصدمة لسكارلت.

- «ها سكارلت، ما أحسنك لأنك رسمت كل هذا من أجلنا! فقد كنت تعرفين شدة لهفتي للبيت!».

وشأنها دائماً، عندما كانت تواجه بعادة ميلاني في عزو البواعث القيمة لها حيث لا وجود لأي قيمة لديها، أحست سكارلت بالخجل والضيق، وفجأة لم يعد في استطاعتها أن تواجه عيني آشلي، ولا عيني ميلاني.

- «إن في وسعنا أن نحصل على بيت صغير خاص بنا. هل تدرك أنه مضى على زواجنا خمس سنوات ولم ننعم ببيت أبداً؟».

- «في وسعكم الإقامة معنا في بيت العمة بيتي، ذلك بيتكم» جمجت سكارلت وهي تعبث بوسادة، مبقية اتجاه عينيها إلى أسفل كي تخفي بريق النصر المشرق فيهما بعد أن أحست أن الموجة تنقلب لمصلحتها.

- «لا، ولكني أشكرك على كل حال يا عزيزتي. إن ذلك سيزحمنا كثيراً. سنحصل على بيت - آشلي، قل نعم!».

- «سكارلت»، قال آشلي وصوته عديم النغمة، «انظري إليّ».

فرفعت بصرها الذاهل وقابلت عينيه الرماديتين اللتين كانتا مريرتين بالخيبة، مليئتين بالرضوخ المتعب، «سكارلت، سأجيء إلى أتلانتا فأنا لا أستطيع أن أحاربكما كليكما».

واستدار خارجاً من الغرفة، وخمد بعض النصر في قلبها بفعل خوف مضايق. لقد كانت النظرة التي شابت عينيه عندما تكلم، النظرة ذاتها التي شابتهما عندما قال إنه سيضيع إلى الأبد إن هو ذهب إلى أتلانتا.

* * *

بعد أن تزوجت سولين بويل، وبعد أن ذهبت كارين إلى الدير في شارلستون، جاء آشلي وميلاني وبو إلى أتلانتا، وأحضروا معهم دلسي للطبخ والتمريض. أما برسي وبورك فقد تُركا في تارا إلى حين يستطيع

ويل الحصول على زنوج آخرين يساعدونه في الحقول، وعندئذ سيأتيان إلى أتلانتا، هما أيضاً. . .

كان البيت الآجري الصغير، الذي استأجره آشلي لعائلته، يقع في شارع آيفي، خلف بيت العمة بيتي مباشرة، بحيث إن الساحتين الخلفيتين كانتا متصلتين. ولا يفصل البيت بينهما سوى سياج مهلهل من نبات الحناء النامي. وكانت ميلاني قد اختارت هذا البيت خصيصاً لهذا السبب. فقد قالت في اليوم الأول من عودتها إلى أتلانتا وبينما كانت تضحك وتصيح وتضم سكارلت والعمة بيتي، قالت إنها كانت قد فرقت عن أحبائها مدة طويلة بحيث إنه لم يكن في وسعها أن تكون قريبة كما ينبغي منهم مرة ثانية.

كان البيت في الأصل مؤلفاً من طابقين، غير أن الطابق العلوي كان قد دمر بفعل القنابل أثناء الحصار، وكان يعوز صاحبه الذي عاد بعد الاستسلام، المال لإعادة بنائه، ولذلك أقنع نفسه بوضع سقف مسطح على الطابق الأرضي الذي تبقى له، الأمر الذي أضفى على البناء المظهر المشوه العديم التناسق والتنظيم لبيت كرتوني من بيوت لعب الأطفال المصنوعة من علب الأحذية. كان البيت عالياً عن الأرض، مبنياً فوق قبو كبير. وكانت مجموعة الدرجات الطويلة التي توصل إليه تجعله يبدو مضحكاً قليلاً. إلا أن مظهر هذا البيت المسطح السقف والعديم التناسق كان يبدو أحسن نوعاً ما بالسنديانتين القديمتين البديعتين اللتين تظللانه، وبشجرة الماغنوليا المغبرة الأوراق، المبرقشة بالأزهار البيضاء، وهي تنتصب بجانب الدرجات الأمامية. وكانت المرجة واسعة خضراء ببرسيم كثيف، يحوطها سياج من نبات الحناء المتعرج العديم التناسق، ويتخلل السياج دوالٍ من الياسمين البري الحلو الرائحة، وهنا وهناك بين العشب كانت الورود تقذف براعم من سيقان مكسرة عتيقة، وكان الآس الحريري الأحمر والأبيض مزهراً

كأن الحرب لم تكن قد مرت فوق رأسه وكأن خيول الشماليين لم تقضم أغصانه.

وفكرت سكارلت أن ذلك البيت كان أقبح مسكن رأته عيناها، ولكن بالنسبة إلى ميلاني لم يكن تولف أوكس بكل فخامته أكثر جمالاً منه. لقد كان بيتها، وقد اجتمعت هي وآشلي وبو أخيراً تحت سقف خاص بهم.

وعادت إندِيا ويلكس من ميكون، حيث كانت تعيش وهوني منذ عام 1864، فسكنت مع شقيقها زاحمة سكان البيت الصغير. إلا أن آشلي وميلاني رحبا بها، فمع أن الأوقات كانت قد تغيرت والنقود ندرت، إلا أن شيئاً ما لم يكن قد غير قانون الحياة الجنوبية في أن العائلات كانت دائماً تفسح بسرور مكاناً للقريبات المعوزات أو غير المتزوجات.

كانت هوني قد تزوجت، وكما قالت إنديا، تزوجت رجلاً دون مقامها، رجلاً غريباً وضيعاً من الميسيسيبي، كان قد أقام في ميكون، رجلاً ذا وجه أحمر وصوت جهوري وأساليب طروبة. ولم تكن إنديا قد استحسنت هذا الزواج، ولذلك لم تكن سعيدة في بيت صهرها فرحبت بنبأ حصول آشلي على بيت خاص به الآن، وهكذا أضحى في وسعها أن تبعد نفسها عن محيط لا يجانسها، وعن المشهد المؤلم، مشهد شقيقتها مسرورة جداً وبحماقة برجل غير جدير بها.

على أن بقية أفراد العائلة فكروا في قرارة نفوسهم في أن هوني الضحوك الساذجة العقل، قد أنجزت عملاً أفضل بكثير مما كان يتوقع منها، كما أنهم استغربوا من أنها كانت قد ظفرت برجل ما. لقد كان زوجها سيداً ورجلاً غنياً بعض الغنى. أما بالنسبة إلى إنديا المولودة في جورجيا، والمنشأة على التقاليد الفرجينية فإن أي إنسان لم يكن من أبناء الساحل الشرقي، كان في نظرها جلفاً وبربرياً. وقد يكون زوج

هوني سعيداً في خلاصه من رفقتها يوم همَّت بفراقه، لأن الحياة مع إنديا لم تكن سهلة هذه الأيام.

كان وشاح العزوبة قد استقر على كتفيها الآن، لقد بلغت من العمر الخامسة والعشرين وبدت بهذا العمر، وهكذا لم يعد فيها أي حاجة لتحاول أن تكون جذابة. كانت عيناها الشاحبتان العديمتا الأهداب تنظران إلى الدنيا مباشرة وبلا لين، وكانت شفتاها الرقيقتان مستقرتين في توتر متعجرف، وكان يميزها الآن مظهر من الوقار والكبرياء، الأمر الذي جعلها تبدو، وبصورة مستغربة جداً، أفضل مما كانت عليه أيام العذوبة العنيدة الطائشة في تولف أوكس. كان الوضع الذي تردت فيه وضع أرملة، لأن الجميع كانوا يعرفون أن ستيورات تارلتون كان سيتزوجها لو أنه لم يقتل في غتيسبورغ. وهكذا فقد استحقت الاحترام الواجب تجاه امرأة كانت مطلوبة للزواج وإن لم تتزوج.

أما الغرف الست التي كان يتألف منها البيت الصغير في شارع آيفي فسرعان ما أثثت بقلة، بأرخص الأثاث المصنوع من خشب الصنوبر والسنديان الموجود في مخزن فرانك، لأنه، لما كان آشلي لا يملك سنتاً واحداً وكان مضطراً إلى أن يشتري بالدين، فقد رفض أن يبتاع أي شيء سوى أقل الحاجات كلفة والضروريات الملحّة. وقد ضايق هذا الأمر فرانك الذي كان مغرماً بآشلي، وكذلك آلم سكارلت. فقد كان يمكن أن يقدم كلاهما بطيبة خاطر، ومن دون أي مقابل، أجمل الأثاث المصنوع من خشب الماهوغوني وخشب الورد المحفور الموجود في المخزن، إلا أن الويلكسيين رفضوا ذلك بإصرار. كان بيتهم قبيحاً عارياً بصورة مؤلمة، وكانت سكارلت تمقت بعناد أن ترى آشلي يعيش في الغرف العارية من السجاد والستائر، ولكن لم يكن يبدو أن آشلي كان يلاحظ ما يحيط به.

وكانت ميلاني، وقد حظيت ببيتها للمرة الأولى منذ زواجها، سعيدة جداً بحيث إنها كانت فخورة حقاً بسكنها. لقد كان من المحتمل أن تعاني سكارلت نوبات مؤلمة من الشعور بالضعة إن هي اضطرت إلى أن يجدها الأصدقاء من دون أقمشة وسجاجيد ووسائد وعدد كافٍ من الكراسي وأكواب الشاي والملاعق، أما ميلاني فكانت تقوم بواجبات الضيافة في بيتها، كما لو أن السجف البلشية[1] والأرائك الحريرية المعرقة كانت موجودة فيه.

ولكن رغم سعادتها الجلية، لم تكن ميلاني في صحة جيدة، إذ كان بو الصغير قد كلفها صحتها، وكان العمل الشاق الذي قامت به في تارا منذ ولادة بو قد تقاضى ضريبة أخرى من قوّتها. لقد كانت نحيلة جداً بحيث إن عظامها الصغيرة كانت تبدو بارزة من خلال جلدها الأبيض. وكانت تظهر من بعيد، وهي تمرح في الساحة الخلفية مع طفلها، كأنها فتاة صغيرة، فقد كان خصرها نحيلاً بصورة لا تصدق، وكانت في الواقع بلا قوام، ولم تكن تنعم بصدر، وكان وركاها مستويين كوركي بو. ولما لم تكن تملك الكبرياء ولا الإدراك السليم (كما كانت تعتقد سكارلت) لتخيط كشاكش في صدر قميصها الخارجي أو تضع لبد صغيرة خلف مشدّيها، لذلك كانت نحالتها واضحة جداً. وكان وجهها نحيلاً وشاحباً جداً كجسدها، وكان حاجباها الحريريان مقوَّسين رفيعين كمجاسي فراشة، بارزين بلونهما الشديد السواد في بشرتها العديمة اللون. وكانت عيناها تبدوان كبيرتين جداً في وجهها الصغير، بحيث كانتا تتجاوزان حدود الجمال، وكانت البقع القاتمة تحتهما تجعلهما تظهران واسعتين، إلا أن تعبيرهما لم يكن قد تغير منذ أيام بنوتتها المطمئنة. فلقد كانت الحرب والألم الدائم والعمل الشاق

---

(1) نسيج ذو وبر طويل - (المترجمان).

عاجزة أمام هدوئها العذب، كانتا عيني امرأة سعيدة، امرأة يمكن للزوابع أن تعصف حولها دون أن تكدر نواة وجودها الرضية.

كيف حافظت على عينيها بتلك الحالة، فكرت سكارلت وهي تنظر إليها بعين حسود، فلقد كانت تعرف أن عينيها هي كانتا تبدوان أحياناً كعيني قطة جائعة. ماذا قال ريت مرة عن عيني ميلاني - آفتهما أنهما كانتا كشمعتين؟ ها، أجل، كعملين طيبين في دنيا فاسدة. نعم، لقد كانتا كشمعتين، شمعتين منعزلتين عن كل ريح، ضوءين ناعمين يتألقان بالسعادة لأنهما عادتا إلى حماهما ثانية بين الأصدقاء.

كان البيت الصغير يعج بالزوار دائماً. لقد كانت ميلاني محبوبة حتى وهي طفلة، ولذلك اندفعت المدينة لترحب بها عند عودتها إلى البيت، وكان كل من القادمين يجلب معه هدية إلى البيت: صوراً وملعقة فضية أو ملعقتين وأغشية وسائد كتانية وفوط سفرة وبسط خلقان وأدوات صغيرة كانوا قد أنقذوها من شيرمان وادخروها، إلا أنهم كانوا يقسمون الآن إنها لم تكن ذات فائدة مادية لهم.

وجاء لرؤية ميلاني أيضاً، الرجال المسنون الذين كانوا قد اشتركوا في غزوة المكسيك مع والدها، والذين كانوا يحضرون معهم زواراً ليروا الابنة الحلوة للكولونيل هاملتون المسن. وكذلك كانت صديقات والدتها القديمات يلتففن حولها لأن ميلاني كانت تكنّ إكراماً لمن يفقنها سناً، إكراماً كان مواسياً جداً للسيدات المسنات في هذه الأيام الهمجية حيث كان يبدو أن الشباب قد نسي جميع أخلاقه. أما بنات جيلها الزوجات الشابات والأمهات الأرامل فكن يحببنها أيضاً لأنها كانت قد قاست الذي قاسينه هنّ، ومع ذلك فلم تغدُ نكدة بل كانت دائماً تعيرهن أذناً صاغية وعطفاً، وكان الشبان يأتون كما يأتي الشباب عادة، أي بصريح القول، لأنهم كانوا ينعمون بوقت طيب في بيتها ويقابلون أصدقاءهم الذين كانوا يريدون مقابلتهم.

حول شخص ميلاني اللبق المنكر لذاته، نمت بسرعة ثلة من الشبان والعجزة الذين كانوا يمثلون ما تبقى من أحسن مجتمع أتلانتا قبل الحرب، كانوا جميعهم فقراء في المال، فخورين بالنسب، عنيدين من أصلب نوع. وبدا الأمر كأن مجتمع أتلانتا المبعثر المدمر بفعل الحرب، المستنفد بفعل الموت، المذهول من التغير، قد وجد فيها نواة عنيدة كان في وسعه أن يتكون حولها من جديد.

لقد كانت ميلاني شابة، إلا أنها كانت تتحلى بكل الصفات التي كانت تكبرها هذه البقية المعدّة للقتال: فقر وكبرياء في الفقر، شجاعة عديمة التذمر، مرح، كرم ضيافة، لطف، وفوق كل هذا، إخلاص لكل التقاليد القديمة. لقد رفضت ميلاني أن تتغير، رفضت حتى أن تعترف بوجود أي سبب للتغير في دنيا متغيرة. كانت الأيام القديمة تبدو تحت سقفها كأنها تعود ثانية. وتشجع الناس وأحسوا بازدراء أكثر نحو موجة الحياة الهمجية والمعيشة الباذخة التي كانت تجتاح الكاربت بكرز والجمهوريين الحديثي النعمة.

وعندما كانوا ينظرون إلى وجهها الفتي ويرون فيه الإخلاص العنيد للأيام القديمة، كان في وسعهم أن ينسوا لهنيهة، الخونة في طبقتهم، الذين كانوا يثيرون السخط، والخوف ومآسي القلوب، والذين كان يوجد منهم الكثير هذه الأيام. فقد كان هناك رجال من عائلات كريمة دفعهم الفقر إلى اليأس فاتصلوا بالعدو وأصبحوا جمهوريين، وقبلوا مراكز من المحتلين كي لا تعيش عوائلهم على الإحسان. وكان هناك جنود سابقون شبان تنقصهم الشجاعة ليواجهوا السنين الطويلة الضرورية لبناء المستقبل، هؤلاء الفتيان كانوا ينهجون نهج ريت باتلر فيعلمون يداً بيد مع الكاربت بكرز في خطط جمع المال - خطط من أنواع مسيخة.

وكان أسوأ هؤلاء الخونة، بنات بعض أشهر عائلات أتلانتا. فهؤلاء الفتيات اللواتي كنّ قد بلغن سن النضوج منذ الاستسلام لم يكنّ

ينعمن إلا بذكريات طفلية عن الحرب وكانت تعوزهن المرارة التي كان يحيا عليها كبار عوائلهن، فلم يكنّ قد فقدن أزواجاً أو أحباء، وكان لديهن ذكريات قليلة عن الثروة الماضية والمجد - وكان الضباط الشماليون وساماً جداً، بديعي الملبس، مستهترين للغاية، فكانوا يدعونهن إلى حفلات رقص فاخرة، وكانوا يسوقون خيولاً رائعة، وبصراحة، كانوا يعبدون الصبايا الجنوبيات! كانوا يعاملونهن كملكات، وكانوا حريصين جداً على أن لا يؤذوا كبرياءهن السريع الغضب. وبعد كل هذا - لماذا لا يختلطن معهم؟

لقد كان هؤلاء الضباط أكثر جاذبية بكثير من عشاق المدينة الذين كانت ثيابهم رثة، واتزانهم بالغاً، وعملهم مضنياً بحيث لم يكن لديهم إلا القليل من الوقت للدعابة. وهكذا جرى عدد من حوادث الهرب مع الضباط الشماليين، الحوادث التي حطمت قلوب عائلات أتلانتا، ولذلك كنت تجد إخواناً يمرون بشقيقاتهم في الطريق دون أن يكلموهن، وأمهات وآباء لم يكونوا يذكرون أسماء بناتهم أبداً.

وكان رعب خفيف يجري في عروق أولئك الذين كان شعارهم «لا استسلام» وهم يتذكرون هذه المآسي، رعب كان يبدده مجرد منظر وجه ميلاني الناعم ولكن غير المستسلم. لقد كانت، طبقاً لقول العجائز، مثلاً فاخراً ناجحاً للفتيات الشابات في المدينة. ولأنها لم تكن تقوم بعرض مزاياها، لذلك لم تمتعض الصبايا منها.

لم يخطر لميلاني أبداً أنها كانت تغدو قائدة مجتمع جديد، بل كانت تفكر فقط أن الناس كانوا لطفاء في أن يأتوا ليزوروها وليطلبوا إليها أن تنضم إلى حلقات الخياطة الخاصة بهم، وإلى نوادي رقصهم، وجمعياتهم الموسيقية. لقد كانت أتلانتا موسيقية دائماً وكانت تحب الموسيقى الجميلة رغم التعليقات الساخرة التي كانت تطلقها المدن الشقيقة في الجنوب فيما يتعلق بنقص المدينة الثقافي. وكان يوجد فيها

الآن بعث حماسي من الاهتمام المتزايد بالموسيقى كلما ازدادت الأوقات قسوة وشدة، فلقد كان من الأسهل على الناس أن ينسوا الوجوه السوداء الوقحة في الشوارع وجنود الحامية ذوي البزز الزرقاء، وهم يصغون إلى الموسيقى.

ولقد ارتبكت ميلاني قليلاً، عندما وجدت نفسها ذات يوم على رأس «حلقة موسيقى مساء السبت» المؤلفة حديثاً. ولم يكن في وسعها أن تعلل سبب ارتفاعها إلى هذا المركز إلا بأنها كانت تستطيع أن ترافق على البيانو أي منشد، حتى الآنستين ماكلور اللتين كانتا لا تميزان الأنغام، ولكن كانتا مع ذلك تنشدان أناشيد ثنائية.

وكانت حقيقة المسألة تكمن في أن ميلاني كانت قد استطاعت بطريقة دبلوماسية أن تدمج «حلقة السيدات العازفات على الطنبور» و«نادي الطرب للسادة» و«حلقة صبايا المندولين والقيثارة» في «حلقة موسيقى مساء السبت»، وهكذا نعمت أتلانتا الآن بموسيقى جديرة بأن تسمع. والحقيقة أن معزوفة «الفتاة البوهيمية» للحلقة، كانت أرفع جداً، كما قال الكثيرون، من معزوفات الممتهنين التي كانت تسمع في نيويورك ونيو أورليانز. وبعد أن كانت السيدة ميريويذر قد ناورت لإدخال «حلقة السيدات العازفات على الطنبور» في الحظيرة، قالت للسيدتين ميد وإلسينغ أن يضعن ميلاني على رأس الحلقة، فإن كان في وسعها أن تنجح مع العازفات على الطنبور، فإن في وسعها إذن أن تنجح مع أي جماعة أخرى. هكذا صرحت السيدة ميريويذر، التي كانت هي نفسها تعزف على الأرغن لجوقة كنيسة النظاميين، والتي كانت، كعازفة على الأرغن، تكنّ احتراماً قليلاً للطنابير والعازفات عليها.

وكذلك عُيِّنت ميلاني أمينة سر «جمعية تجميل القبور لموتانا الأمجاد» و«حلقة الخياطة لأرامل وأيتام الحلف» كليهما. وقد حظيت

بهذا الشرف الجديد بعد اجتماع مشترك مثير لهاتين الجمعيتين، اجتماع كان يهدد بالانتهاء بالعنف، وقطع روابط الصداقة الدائمة بين الجمعيتين. وقدْ ثارت المشكلة في الاجتماع حول موضوع «هل نعشب قبور الجنود الاتحاديين القريبة من قبور الحلفيين أم لا؟» إذ كان مظهر القبور الشمالية العجفاء، يذهب سدى جميع جهود السيدات في تجميل قبور موتاهن. وفي الحال، اشتعلت النيران التي كانت مكبوتة تحت القمصان الضيقة، اشتعلت بضراوة، وانشقت الجمعيتان عن بعضهما، وراحت العضوات يتبادلن النظرات العدائية. كانت «حلقة الخياطة» في جانب تعشيب القبور الشمالية بينما كانت «جمعية سيدات التجميل» تعارض ذلك بشدة.

وقد عبرت السيدة ميد عن آراء الجمعية الثانية عندما قالت: «نستأصل الأعشاب عن قبور الشماليين؟ مقابل سِنْتين اثنين أنبش جميع قبورهم وأقذف بالجثث في مستودع قمامة المدينة».

ونتيجة لهذه الكلمات الرنانة، نهضت الجمعيتان وراحت كل سيدة تعبر عن رأيها، ولم تعد واحدة تصغي للأخرى. وكان الاجتماع قد عقد في ردهة السيدة ميريويذر، وقد روى الجد ميريويذر فيما بعد، وكان قد نفي إلى المطبخ، روى أن الضجة كانت تبدو كدوي البنادق المنطلقة في معركة فرانكلين. وأضاف أنه كان يظن أنه كان مشهداً صاخباً، وأنه أفضل للمرء أن يحضر معركة فرانكلين من أن يحضر اجتماع السيدات المذكور.

وبطريقة ما شقت ميلاني طريقها إلى وسط الاجتماع المضطرب، وبطريقة ما جعلت صوتها الناعم المعتاد، يسمع فوق الضوضاء. كان قلبها في بلعومها بسبب الرعب من المغامرة بمخاطبة هذا الجمع الساخط. وارتعد صوتها ولكنها استمرت في الصياح: «أيتها السيدات! أرجوكن!» إلى أن ماتت الضوضاء.

- «إني أريد أن أقول - أعني، لقد فكرت منذ مدة طويلة أن - أن ليس علينا فقط أن نقتلع الأعشاب، بل علينا أيضاً أن نغرس الأزهار على - أنا - أنا لا أعبأ بما تفكرن، ولكن كلما ذهبت لأضع أزهاراً على قبر تشارلي العزيز، كنت أضع دائماً الأزهار على قبر شمالي مجهول قريب منه - فهو - فهو يبدو مهملاً جداً».

فانفجرت الضجة ثانية في كلمات أكثر ارتفاعاً، واختلطت عضوات الجمعيتين هذه المرة، ورحن يتكلمن كأنهن جمعية واحدة:

- «على قبور الشماليين! آه ميلي، كيف وسعك ذلك»، «وهم الذين قتلوا تشارلي!»، «لقد كادوا يقتلوك!»، «كيف لا، وقد كان يمكن أن يقتل الشماليون بو عندما ولد!»، «لقد حاولوا أن يحرقوا تارا ويخرجوك منها!».

وتمسكت ميلاني بظهر كرسيها لتسند نفسها وهي مقطبة الوجه تقريباً تحت عبء استنكار لم تكن قد عرفته من قبل.

- «أيتها السيدات!» صاحت متوسلة، «أرجوكن، دعنني أتم حديثي! إني أعرف أني لا أملك الحق للتكلم في هذه القضية، لأنه لم يقتل أحد من أحبائي سوى تشارلي، كما أني أعرف أين يرقد، شكراً للّه! ولكن هناك الكثيرات بيننا الآن من اللواتي لا يعرفن أين يرقد أبناؤهن وأزواجهن وإخوانهن و -».

وغصت، وساد الغرفة صمت تام.

وتحوّل الوهج في عيني السيدة ميد إلى كآبة مغمة وهي التي كانت قد قامت بالرحلة الطويلة إلى غتيسبورغ بعد المعركة لتُحضر جثة دارسي، فلم يكن في وسع أحد أن يخبرها أين كانت الجثة مدفونة، هناك في مكان ما في أحد الخنادق المحفورة على عجل في بلاد العدو. وكذلك ارتعش فم السيدة آلان، فقد كان زوجها وشقيقها في ذلك الهجوم النكد الطالع الذي شنَّه مورغن على نهر أوهايو. وكان

آخر خبر سمعته عنهما هو أنهما كانا قد سقطا على ضفاف النهر، عندما انقضّ فرسان الشماليون، ولذلك لم تكن تعرف أين يرقدان. وكان ابنها قد توفي في سجن معسكر شمالي، ولم يكن في مقدورها، وهي أفقر الفقراء، أن تُحضر جثته إلى البيت. وكان هناك أخريات كن قد قرأن في قوائم الإصابات: «مفقود - يُعتقد أنه ميت» وبهذه الكلمات، كن قد عرفن آخر نبأ كان لهن أن يعرفنه عن رجال رأينهن يزحفون إلى الجبهة.

والتفتت جميع هؤلاء إلى ميلاني بعيون تقول «لماذا تنكئين هذه الجروح ثانية؟ هذه الجروح التي لم تكن لتندمل أبداً - الجروح الناجمة عن عدم معرفتهن أين يرقدون!».

واستجمع صوت ميلاني قوة من سكون الغرفة:

- «إن قبورهم تقع في مكان ما شمالاً، في بلاد العدو، تماماً كما تقع قبور الشماليين هنا. وآه، ما أفظع أن نعرف أن إحدى النساء الشماليات قالت إنها ستنبش قبورهم و -».

فزفرت السيدة ميد صوتاً مرعباً قصيراً.

- «ولكن ما أجمل أن نعرف أن إحدى النساء الشماليات الطيبات - ولا بد أن توجد هناك بعض النساء الطيبات. أنا لا أحفل بما يقوله الناس، فليس من الممكن أن يكون جميع الشماليين أشراراً! - ما أجمل أن نعرف أنهن يستأصلن الأعشاب من قبور رجالنا ويجلبن الأزهار إليها، حتى ولو كانوا أعداء. لو كان تشارلي مدفوناً في الشمال، لكان من العزاء لي أن أعرف أن أحد الناس - وأنا لا أحفل بما تفكرين في هذا أيتها السيدة» وغص صوتها ثانية، «سأنسحب من كلا الجمعيتين وسـ. . . وسأقتلع كل نبتة عشب من كل قبر شمالي أستطيع أن أجده، وسأزرع الأزهار أيضاً - و - وإني أتحدى أي إنسان أن يمنعني من ذلك».

وبهذا التحدي النهائي، انفجرت ميلاني في البكاء، وحاولت أن تتخذ طريقها المتعثر إلى الباب.

وقد روى الجد ميريويذر، الذي كان يجلس آمناً في محيط يقتصر على الرجال في صالون الفتاة العصرية، روى بعد ساعة من ذلك الاجتماع للعم هنري هاملتون أنه على أثر تلك الكلمات بكت جميع الحاضرات وضممن ميلاني وانتهى كل شيء في وليمة حبية وجعلت ميلاني أمينة السر للمنظمتين.

- «وسيقتلعن الحشائش، وكان أفظع ما في الأمر أن دولي قالت إني سأكون سعيدة جداً لأساعد في العمل معهن، لأنه ليس لدي عمل آخر لأعمله وليس لدي شيء ضد الشماليين. بيد أن الآنسة ميلي كانت على حق، بينما بقية أولئك السيدات الشبيهات بالقطط البرية كن مخطئات. على أن فكرة اقتلاعي الحشائش، وأنا في هذه السن من حياتي ولديَّ «اللمباغو!»».

وكانت ميلاني من هيئة إدارة «بيت اليتيم» من السيدات، وكذلك كانت تساعد في جمع الكتب لمكتبة جمعية الشباب الحديثة النشأة، وحتى جمعية الممثلين الذين كانوا يقومون بتمثيليات هواية مرة في كل شهر راح أعضاؤها يستصرخون من أجل انضمام ميلاني إليهم، إلا أنها كانت حيية جداً بحيث لم ترضَ الظهور خلف صف مصابيح الكاز على أرض المسرح، ولكن كان في وسعها أن تصنع ملابس من أكياس القنب إذا كانت هذه هي المادة الوحيدة الموجودة. وكانت ميلاني هي التي أعطت صوتها الذي رجح كفة التصويت في «حلقة قراءة شكسبير» إزاء القرار القائل إن أدب شكسبير ينبغي أن يقرأ معه، في سبيل التنويع، نتاج السيد ديكنز والسيد بلور ليتون، وليس قصائد اللورد بيرون، كما كان قد اقترح عضو شاب كانت ميلاني تخشى أن يكون عضواً عازباً متهوراً من أعضاء الحلقة.

وفي ليالي الصيف الأخيرة، كان بيتها الصغير الخافت الأضواء يعج دائماً بالضيوف. ولم تكن هناك أبداً، كراسي تكفي الحضور، فكانت السيدات يجلسن على درجات الشرفة الأمامية، والرجال يتجمعون حولهن على الدرابزين، وعلى الصناديق، وعلى المرجة في الأسفل، وأحياناً، عندما كانت سكارلت ترى الضيوف جالسين على العشب، يرتشفون الشاي، المرطب الوحيد الذي كان في وسع الويكلسيين تقديمه، كانت تتساءل كيف كان يسع ميلاني أن توصل نفسها إلى أن تعرض فقرها بهذه الصورة الوقحة. ولم تكن سكارلت تنوي استقبال الضيوف في بيتها - خصوصاً الضيوف المرموقين كأولئك الذين كانوا يزورون ميلاني - إلا بعد أن يصبح في مقدورها أن تؤثث بيت العمة بيتي كما كان قبل الحرب، وأن تقدم لضيوفها النبيذ الجيد وشراب الجلاب ولحم الخنزير المشوي ولحوم الغزلان الباردة.

وكان ممن يزورون بيت ميلاني مراراً الجنرال جون ب. غوردون، بطل جورجيا العظيم، مع عائلته، والأب ريان، كاهن الحلف الشاعر الذي لم يحجم مرة عن أن يزور البيت كلما مر بأتلانتا فكان يسحر المجتمعين هناك بذكائه، ونادراً ما كان يحتاج إلى إلحاح كثير كي يتلو قصيدته «سيف لي» أو قصيدته الخالدة «القلم المهزوم»، تلك القصيدتين اللتين لم تفشلا أبداً في استدرار دموع النساء. وكان يزور البيت أيضاً، كلما كان في المدينة، ألِكس ستيفنس، آخر نائب رئيس للحلف. وما إن كان يشيع نبأ وجوده في بيت ميلاني حتى يمتلئ البيت بالقادمين ويجلس الناس ساعات متأثرين بسحر الرجل العليل النحيل ذي الصوت الرنان. وكان يوجد حينذاك اثنا عشر طفلاً، يطرقون برؤوسهم نعساً في أذرع والديهم بعد أن تنقضي ساعات على ميعاد نومهم الرسمي، إذ لم تكن هناك عائلة ترضى بأن يحرم أولادها المقدرة على القول في السنين القادمة إن نائب الرئيس العظيم قد قبَّلهم

أو إنهم كانوا قد صافحوا اليد التي ساعدت على توجيه القضية الوطنية. وهكذا صار كل شخص ذي أهمية من الأشخاص الذين يؤمون المدينة، يجد طريقه إلى بيت آل ويكلس، وغالباً ما يقضي ليلته هناك، الأمر الذي كان يزحم البيت الصغير المستوي السطح، ويرغم إنديا على أن تنام في فراش من قش في غرفة بو الصغيرة، ويرسل دلسي مسرعة عبر السياج الخلفي لتقترض بيضاً للفطور من طاهية العمة بيتي. بيد أن ميلاني كانت تسلي ضيوفها بلطف كأن بيتها كان قصراً.

لا، لم يخطر لميلاني أن الناس كانوا يلتفون حول علم محبوب بالٍ، ولذلك أجفلت وارتبكت عندما قبَّل الدكتور ميد يدها، بعيد أمسية سارة في بيتها، حيث برأ ذمته بقراءة جزء من رواية ماكبث، ثم ذكر بعض الملاحظات بالصوت ذاته الذي كان قد تكلم به مرة وهو يتحدث عن قضيتنا المجيدة.

- «عزيزتي الآنسة ميلي، إنها لميزة ومسرة دائماً، أن يوجد الإنسان في بيتك، لأنك - والسيدات أمثالك - قلوبنا جميعاً وكل الذي بقي لنا. لقد أخذوا زهرة رجولتنا وضحكة صبايانا. لقد هدموا صحتنا واستأصلوا حيويتنا وزعزعوا عاداتنا. لقد دمروا سعادتنا وأخَّرونا خمسين سنة، ووضعوا عبئاً ثقيلاً على كواهل أولادنا الذين كان يجب أن يكونوا في المدارس، وكبارنا المسنين الذين يجب أن يكونوا نائمين في الشمس. إلا أننا سنعيد البناء لأننا نملك قلوباً كقلبك لنبني عليها. وما دمنا نحن ننعم بهذه القلوب، فإن في وسع الشماليين أن يأخذوا البقية!».

* * *

ظلت سكارلت تنسل وفرانك عبر السياج الخلفي لينضما إلى اجتماعات ليالي الصيف على شرفة ميلاني، إلى أن بلغ جسدها حداً من التضخم لم يستطع معه حتى شال العمة بيتي الأسود أن يستر

حَبَلها. كانت تجلس دائماً خارج نطاق الضوء بشكل ناجح، تختبئ في الظلال الواقية حيث لم يكن يتعذر تمييزها فقط، بل كان في وسعها أيضاً أن تراقب وجه آشلي إرضاء لقلبها دون أن يلحظها أحد.

لقد كان آشلي فقط هو الذي يجذبها إلى البيت، لأن الأحاديث كانت تضايقها وتنفرها، الأحاديث التي كانت دائماً تتبع نموذجاً مقرراً - أولاً الأوقات الصعبة، ثم الوضع السياسي، وبعدئذ الموضوع الذي لا يمكن تجنبه ألا وهو الحرب. كانت السيدات يندبن الأسعار المرتفعة لجميع المواد، ويسألن السادة إن كانوا يعتقدون أن الأوقات الطيبة يمكن أن تعود. وكان الرجال العليمون يقولون دائماً إنها ستعود حتماً وإن القضية قضية وقت فقط، فالظروف الصعبة لن تدوم. وكانت السيدات يعرفن أن السادة يكذبون على سبيل التندر، فتتظاهر السيدات بأنهن يصدقنهن، لأن الجميع كانوا يعرفون أن الأوقات الصعبة كانت موجودة لتبقى.

وحدث مرة أن أبعد موضوع الأوقات الصعبة، وتحدثت السيدات عن وقاحة الزنوج المتفاقمة وانتهاكات الأعراض من قبل الكاربت بكرز، كما تحدثن عن الإذلال الناجم عن كون الجنود الشماليين يتسكعون في كل زاوية في المدينة. هل كان السادة يعتقدون أن الشماليين سيتبجحون يوماً في تجديد جورجيا؟ لقد كان السادة المطمئنون يعتقدون أن التجديد سينتهي في وقت سريع جداً - يعني تماماً حالما يستطيع الديمقراطيون أن يستعيدوا حق التصويت. بيد أن السيدات كنّ رصينات جداً بحيث لم يسألن متى كان سيتم هذا الأمر. وهكذا بعد أن فرغن من الحديث عن السياسة، بدأ الحديث عن الحرب.

كلما التقى حلفيان سابقان في أي مكان، لم يكن هناك أبداً موضوع للحديث سوى موضوع الحرب. وحيث كان يجتمع عشرة

أشخاص أو أكثر، فإن نتيجة اجتماعهم المفروغ منها، كانت أن الحرب ستخاض ثانية، وكان كلمة «لو» تحظى بالمركز الأكثر بروزاً من الحديث.

- «لو أن إنكلترا كانت قد اعترفت بنا» - «لو أن جف ديفيس كان قد صادر كل القطن وأوصله إلى إنكلترا قبل اشتداد الحصار» - «لو أن لونغستريت كان قد أطاع الأوامر في غتيسبورغ» - «لو أن جب ستيورات لم يكن بعيداً في تلك الحملة، عندما كان مارس بوب في حاجة إليه» - «لو أننا لم نفقد ستونوول جاكسون» - «لو أن فيكسبورغ لم تسقط» - «لو كان في وسعنا أن نقاوم سنة أخرى» ودائماً «لو أنهم لم يعيِّنوا هود بدلاً من جونستون» أو «لو أنهم عيَّنوا هود قائداً في دالتون بدلاً من جونستون».

لو! لو! كانت الأصوات البطيئة الناعمة تسرع بانفعال قديم وهم يتحدثون في الظلام الساكن - مشاة - فرسان - رجال مدفعية، ويثيرون الذكريات عن الأيام، عندما كانت الحياة في أوجها، لقد كانوا يستعيدون ذكرى الحرارة القاسية لمنتصف صيفهم في هذا الغروب اليائس لشتائهم.

«إنهم لا يتحدثون عن أي شيء آخر» فكرت سكارلت، «لا شيء سوى الحرب، الحرب دائماً، ولن يتحدثوا عن أي شيء إلا الحرب، إلى أن يموتوا».

وتطلعت حولها ورأت الصبية الصغار يضطجعون على أذرع آبائهم المثنية، وأنفاسهم تخرج سريعة، وعيونهم تتوهج وهم يسمعون عن هجمات منتصف الليل وانقضاضات الفرسان الضارية وغرز الأعلام في صدور الأعداء. لقد كانوا يسمعون الطبول والأبواق وصيحة الثورة وهم يرون رجالاً مقرحي الأقدام، يزحفون في المطر بأعلام ممزقة مائلة.

«وهؤلاء الأطفال لن يتحدثوا عن أي شيء آخر كذلك، بل سيعتقدون أنه كان عملاً مدهشاً مجيداً أن يحارب أهلوهم الشماليين ثم يعودوا إلى البيت عمياناً وعرجاً - أو أن لا يعودوا أبداً. إنهم جميعاً يحبون أن يتذكروا الحرب ليتحدثوا عنها. ولكني لا أحب ذلك، لا أحب حتى أن أفكر فيها، وكنت سأنسى كل شيء عنها لو استطعت إلى ذلك سبيلاً - آه حبذا لو أني استطعت!».

وأصغت سكارلت وبشرتها تتخدر عندما راحت ميلاني تروي قصص تارا، جاعلة سكارلت بطلة لأنها واجهت الغزاة وأنقذت سيف تشارلز، متباهية كيف أن سكارلت أخمدت النار. إلا أن هذه لم تشعر بالسرور أو الفخر عند ذكر هذه الأمور لأنها لم تكن ترغب في أن تفكر فيها أبداً.

«ها، لماذا لا يستطيعون أن ينسوا؟ لماذا لا يستطيعون أن ينظروا إلى الأمام وليس إلى الوراء؟ لقد كنا أغبياء لأننا خضنا تلك الحرب. وكلما أسرعنا في نسيانها، كلما كان ذلك أفضل».

ولكن لم يكن هناك أحد يريد أن ينسى، لا أحد سواها، كما - كان يظهر. ولذلك كانت سكارلت سعيدة عندما استطاعت أن تخبر ميلاني بنية صادقة أنها كانت ترتبك إذا ما ظهر شخصها، حتى وهي في الظلمة. وقد فهمت ميلاني التي كانت شديدة الحساسية في كل الأمور التي تتعلق بالولادة، فهمت في الحال إيضاح سكارلت هذا. لقد كانت ميلاني ترغب في إنجاب طفل آخر، بيد أن كلا الطبيبين ميد وفونتين كانا قد قالا إن طفلاً آخر سيكلفها حياتها. وهكذا، وبنصف استسلام لمصيرها، كانت تقضي معظم وقتها مع سكارلت تتمتع بحَبَل ليس حَبَلها. أما بالنسبة إلى سكارلت، التي كانت لا ترغب في إنجاب طفلها إلا رغبة قليلة جداً، والتي كانت مغتاظة من مجيئه في غير أوانه، فإن موقف ميلاني هذا كان يبدو لها منتهى الحماقة العاطفية. ولكنها

كانت تشعر بسرور آثم لأن قرار الطبيبين جعل من المستحيل حدوث أي اتصال حقيقي بين آشلي وزوجته.

كانت سكارلت ترى آشلي مراراً هذه الأيام، ولكنها لم تكن تراه وحيداً أبداً. فقد كان يمر بالبيت في كل ليلة، وهو في طريقه من المعمل إلى منزله ليقدم تقريراً عن عمل اليوم، إلا أن فرانك وبيتي كانا يوجدان عادة معهما، أو أسوأ من ذلك، كانت توجد ميلي وإنديا. فلم يكن في وسعها والحالة هذه أن تسأله سوى أسئلة تتعلق بالعمل فقط وتقدم اقتراحات ثم تقول «لقد كان لطفاً منك أن تمر بي. عم مساء».

حبذا لو أنها لم تكن تحمل جنيناً! فها هنا فرصة ربانية لتركب وإياه إلى المعمل كل صباح، عبر الغابات المنعزلة، بعيداً عن العيون المتجسسة، وحيث كان في وسعهما أن يتخيلا نفسيهما في المقاطعة ثانية، في الأيام السعيدة قبل الحرب.

لا، لن تحاول أن تجعله يقول أي كلمة حب! لن تشير إلى الحب بأية طريقة. ستقسم يميناً لنفسها إنها لن تفعل ذلك ثانية. ولكن، ربما إذا انفردت به مرة أخرى، يمكن أن يسقط قناع المجاملة الرسمية الذي تقنع به منذ مجيئه إلى أتلانتا. ربما رجع إلى حقيقته ثانية وأضحى آشلي الذي كانت قد عرفته قبل الباربكيو، قبل أية كلمة حب كانت قد قيلت بينهما. فإذا لم يكن في وسعهما أن يكونا متحابَّين فإن في مقدورهما أن يكونا صديقين ثانية، وتستطيع هي أن تدفئ قلبها البارد الموحش في وهج صداقته.

«حبذا لو كان في وسعي أن أضع الطفل وأنتهي من أمره» فكرت بفراغ صبر، «إذن لكان في وسعي عندئذ أن أركب معه كل يوم، ولكان في وسعنا أن نتكلم -».

ولم تكن الرغبة في مرافقته هي فقط التي جعلتها تتلوى بجزع عاجز من الحصر الذي هي فيه، بل كان المعملان في حاجة إليها

أيضاً. لقد كانا يخسران نقوداً منذ اعتزلت الإشراف العملي عليهما، تاركة هيو وآشلي مسؤولين عنهما.

كان هيو عاجزاً جداً، رغم أنه حاول جهده بجد كبير. لقد كان ضعيفاً في فن التجارة، وأضعف من ذلك في إشرافه على العمل، وكان في وسع أي إنسان أن يغلبه في المساومة على الأسعار. وإذا ما ارتأى أي مقاول مكار أن يقول إن الخشب كان من نوع رديء ولا يستحق الثمن المطلوب - فإن هيو كان يحس أن كل ما كان في وسع الرجل الفاضل أن يفعله هو أن يعتذر ويقبل بثمن أقل. وعندما سمعت سكارلت بالثمن الذي تقاضاه مقابل ألف قدم من الألواح الأرضية، انفجرت في دموع الغضب: «إن أحسن أنواع الخشب الأرضي كان المعمل قد أنتجه، قد أضاعه هيو عملياً!». وكذلك لم يكن في وسع هيو أن يسوس عماله. كان الزنوج يصرون على أن يدفع لهم أجرهم يومياً، فكانوا غالباً يسكرون حتى يخمروا بأجورهم، ولا يأتون إلى العمل في الصباح التالي، وفي مثل هذه الحالة، كان هيو يضطر إلى تصيد عمال جدد، فيتأخر المعمل في مباشرة العمل. ومع وجود هذه الصعوبات لم يكن هيو ينزل إلى المدينة ليبيع الخشب طوال أيام بلا انقطاع.

وهكذا غدت سكارلت مجنونة بسبب عجزها عن العمل وحماقة هيو، وهي ترى الأرباح تفلت من بين أصابعه. وحالما سيولد الطفل ويصير في إمكانها العودة إلى العمل، ستتخلص من هيو وتستخدم رجلاً آخر، فأي رجل يستطيع أن ينتج أفضل منه، كما أنها لن تخدع بالزنوج المحررين ثانية. ولكن كيف كان في وسع أي إنسان أن يستخلص أي عمل من الزنوج المحررين الذين كانوا يتملصون من العمل طوال الوقت؟

- «فرانك» قالت بعد مقابلة عاصفة مع هيو فيما يتعلق بعماله المفقودين... إني على وشك أن أقرر استئجار مجرمين محكوم عليهم

ليشتغلوا في المعملين، وقبيل فترة قصيرة، كنت أتحدث مع جوني كاليغر، ناظر تومي ولبورن عن المتاعب التي نعانيها في إنجاز أي عمل بواسطة الزنوج، فسألني لماذا لم أحصل على مجرمين وبدت تلك فكرة جيدة في نظري. لقد قال إن في وسعي أن أستأجرهم بمنتهى الرخص وأغذيهم بطعام رديء رخيص. وقال إن في وسعي أن أنجز عملاً بواسطتهم بأية طريقة أريدها، دون أن يأتي رجال هيئة التحرير وينقضّوا عليَّ كالزنابير مدخلين أنوفهم في أشياء ليست من شأنهم. وحالما تنتهي اتفاقية جوني كاليغر، سأستخدمه ليدير معمل هيو. فكل رجل يستطيع أن يستخلص عملاً من تلك الزمرة من الإيرلنديين الهمجيين الذين يشرف عليهم، يستطيع حتماً أن يستخلص عملاً كبيراً من المجرمين.

مجرمين! وانقلب فرانك إلى رجل أبكم! إن استئجار المجرمين كان أسوأ المشاريع الطائشة التي كانت سكارلت قد اقترحتها، أسوأ حتى من فكرتها في بناء حانة.

وعلى الأقل، لقد بدأ أسوأ من تلك في نظر فرانك وفي نظر الأوساط المحافظة التي كان ينتقل فيها. كان هذا النظام الجديد في استئجار المجرمين، قد ظهر إلى الوجود بسبب فقر الدولة بعد الحرب. فلكونها عاجزة عن إعالة المجرمين، راحت تؤجرهم لأولئك الذين كانوا في حاجة إلى جماعات كبيرة من العملة في بناء السكك الحديد وفي غابات أشجار التربنتين وفي معسكرات الأخشاب. وبينما كان فرانك وأصدقاؤه المتدينون الهادئون يدركون ضرورة هذا النظام، إلا أنهم كانوا يستنكرونه مع ذلك.

لقد كان الكثير منهم لا يؤمنون حتى بنظام العبودية، ولذلك اعتقدوا أن هذا النظام كان أسوأ مما كانت عليه العبودية في أي وقت مضى.

بيد أن سكارلت كانت تريد أن تستأجر مجرمين! وكان فرانك يعرف أنها إذا فعلت ذلك، فلن يستطيع أن يرفع رأسه ثانية. لقد كان هذا أسوأ بكثير من امتلاكها للمعملين وإدارتها إياهما بنفسها، أو من أي شيء آخر كانت قد فعلته. لقد كانت معارضاته السالفة مقرونة دائماً بالسؤال التالي «ماذا سيقول الناس؟» إلا أن هذا - هذا الأمر الأخير كان له في نفسه أثر أعمق من خوفه من الرأي العام. لقد أحس أنه كان تجارة محرمة في أجساد بشرية، تجارة مساوية للبغاء، إثماً سينزل على روحه إن هو سمح لها بارتكابه.

من هذا الاعتقاد بالخطيئة، استجمع فرانك شجاعة ليمنع سكارلت من ارتكاب شيء كهذا. وكانت ملاحظاته قوية جداً بحيث إنها ارتدت صامتة وهي مجفلة. وأخيراً ومن أجل تهدئته، قالت بوداعة إنها لم تكن تعني ما قالته حقيقة، وإنما كانت يائسة من هيو ومن الزنوج المحررين بحيث إنها فقدت طبعها. غير أنها ظلت تفكر في الأمر وببعض اللهفة على تحقيقه، فعمل المجرمين سينهي أحد مشاكلها. ولكن إذا كان فرانك سيستمر على هذه الوتيرة فيما يتعلق بالموضوع...

وتنهدت. لو أن أحد المعلمين كان يثمر نقوداً، لكان في وسعها أن تتحمل الوضع. غير أن آشلي كان يسير بمعمله أفضل بقليل من هيو.

في البدء، صدمت سكارلت وخاب أملها لأن آشلي لم يمسك بزمام الأمور فوراً، ويجعل المعمل ينتج ضعف ما كان ينتج وهو تحت إدارتها. لقد كان ذكياً جداً، وكان قد قرأ كتباً كثيرة جداً، ولم يكن هناك سبب البتة يمنعه من أن يحرز نجاحاً باهراً ومقادير وفيرة من المال، غير أنه لم يكن أكثر نجاحاً من هيو. فلقد كان عدم خبرته، وأخطاؤه، وافتقاره المطلق إلى الحنكة في التجارة، وارتيابه فيما يتعلق

بالمعاملات التي يعتمد فيها على الثقة، كانت كل هذه الصفات ذات نظائرها عند هيو.

إلا أن حب سكارلت سرعان ما وجد المعاذير له، فلم تعتبر الرجلين في المستوى ذاته. لقد كان هيو مجرد غبي عديم الحيلة، بينما كان آشلي حديثاً في التجارة وحسب. ومع ذلك، من دون استدعاء، أتتها فكرة أن آشلي لم يكن في وسعه أبداً أن يقوم بتقدير سريع صحيح في عقله للأثمان، كما كان في وسعها هي أن تفعل، وكانت أحياناً تتساءل عما إذا كان قد تعلم أن يميز بين الألواح الخشبية وعتبات النوافذ السفلية. ولأنه كان رجلاً فاضلاً جديراً بالثقة، فإنه كان يثق بكل وغد يأتي إلى المعمل، ولذا كان يمكن أن يُخسرها نقوداً في مرات عديدة لو لم تتدخل هي بلباقة. وإذا هو أحب شخصاً... وكان يبدو أنه يحب أشخاصاً كثيرين جداً... فإنه يبيعه الخشب بالدين دون أن يفكر في أن يكتشف ما إذا كانت لديه نقود في مصرف أو عقار. لقد كان رديئاً كفرانك من تلك الناحية.

ولكنه سيتعلم حتماً! وبينما كان يتعلم، كانت هي تتجمل بصبر ورفق أمومي ودود أمام أخطائه. وفي كل مساء، عندما كان يمر ببيتها منهوكاً واهن العزيمة كانت تدأب على تقديم اقتراحاتها المساعدة اللبقة له. ولكن رغم كل تشجيعها ومرحها، فقد كانت تشوب عينيه نظرة غريبة سقيمة لم تستطع فهمها، الأمر الذي أفزعها. لقد كان مختلفاً، مختلفاً جداً عن الرجل الذي اعتاد أن يكونه. حبذا لو كان في وسعها أن تراه على انفراد، فربما اكتشفت السبب.

هذه الوضعية أرقتها ليالي كثيرة. لقد كانت قلقة على آشلي، أولاً لأنها كانت تعرف أنه كان غير سعيد، وثانياً لأنها كانت تعرف أن عدم سعادته لم يكن ليساعده على أن يغدو تاجر أخشاب ناجحاً. وكان مما يعذبها كون معمليها في أيدي رجلين لا يملكان من الوعي التجاري

أكثر مما يملك هيو وآشلي. وتقطر قلبها أسى وهي ترى أن منافسيها كانوا ينتزعون أحسن زبائنها، بينما كانت هي قد عملت بجد كبير، ووضعت خططها بعناية فائقة لهذه الشهور التي تكون فيها عاجزة عن العمل. آه حبذا لو كان في وسعها أن تعود إلى العمل ثانية! إذن لكانت تأخذ بيد آشلي، وعندئذ سيتعلم حتماً، وفي وسع جوني كاليغر أن يدير المعمل الآخر، بينما هي تستطيع الإشراف على البيع، وعندئذ سيكون كل شيء على ما يرام. أما بالنسبة إلى هيو، ففي وسعه أن يسوق عربة تسليم الأخشاب لمشتريها إن كان لا يزال يريد أن يشتغل عندها، وذلك ما كان يصلح له.

طبعاً، كان كاليغر يبدو كرجل لا مبدأ له رغم كل مهارته، ولكن - أي شخص آخر كان في وسعها الحصول عليه؟ لماذا كان جميع الرجال الآخرين الحاذقين والأمناء متمردين على العمل معها؟ لو أنها فقط كانت تنعم بأحدهم الآن بدلاً من هيو لما اضطرت إلى أن تقلق هذا القلق العظيم، ولكن. . .

كان تومي ولبورن، رغم وزوزته، أوفر المقاولين عملاً في المدينة وأكثرهم كسباً للمال، كما كان يقول الناس. وكذلك كانت السيدة ميريويذر ورينيه ناجحين، وقد افتتحا الآن فرناً في أسفل المدينة يديره رينيه بحسن تدبير فرنسي صادق، وكان الجد ميريويذر يسوق عربة فطير رينيه وهو مسرور لخلاصه من زاوية المدخنة. وكذلك كان أبناء سيمونس منهمكين جداً بتشغيل فرنهم لعمل الآجر بثلاث دفعات من العمال يومياً. كما كان ألِكس ويتينغ يجني من مقوم الشعر الذي كان يصنعه، لأنه كان يخبر الزنوج أنه لن يسمح لهم بالتصويت إن ظل شعرهم جعداً.

وكان ذلك أيضاً شأن جميع الشبان الحاذقين الذين كانت تعرفهم: الأطباء والمحامين والتجار. إذ كان الجمود الذي انتابهم فور انتهاء

الحرب قد زال تماماً الآن، وكانوا منهمكين جداً في بناء مستقبلهم بحيث لم يكن في وسعهم أن يساعدوها في بناء مستقبلها. أما الذين كانوا بلا عمل فهم الذين كانوا على شاكلة هيو - أو آشلي.

إنها لمشكلة كبيرة أن يحاول المرء أن يدير عملاً ويحمل وليداً أيضاً.

«لن أحمل بوليد آخر أبداً!» قررت بحزم، «ولن أكون كالنساء الأخريات فأحبل كل سنة. يا للّه، ذلك يعني أن أظل بعيدة عن معملي ستة شهور من السنة! وإني أرى الآن أني لا أستطيع أن أظل بعيدة عنهما حتى ليوم واحد. سأخبر فرانك بصراحة أني لا أريد إنجاب أطفال آخرين».

كان فرانك يريد عائلة كبيرة، إلا أنها كانت تستطيع إقناعه بطريقة ما. وقر رأيها. لقد كان هذا طفلها الأخير، فالمعملان كانا أكثر أهمية بكثير من الأطفال بالنسبة إليها.

42

كان وليد سكارلت بنتاً، مخلوقة صغيرة صلعاء، قبيحة كقرد عديم الشعر وشبيهة بفرانك بصورة تدعو إلى السخرية، ولم يكن في وسع أي إنسان باستثناء أبيها المغرم أن يرى أي شيء جميل فيها. إلا أن الجيران كانوا طيبين جداً عندما قالوا إن جميع الأطفال القبيحين يصبحون جميلين أخيراً. سميت الطفلة إيلا لورينا، إيلا تكريماً لجدتها إيلين ولورينا لأنه كان أشهر أسماء البنات الدارجة في ذلك الوقت، تماماً كما كان روبرت لي، وستونوول جاكسون، الاسمين الشائعين للصبيان، وأبراهام لينكولن وإمانسيبيشن[1] لأولاد الزنوج.

ولدت إيلا لورينا في منتصف أسبوع، حين كان ينتاب أتلانتا اضطراب مجنون، وحين كان الجو متوتراً بانتظار كارثة. ذلك أن زنجياً كان قد تباهى بهتك أحد الأعراض وكان قد أُلقي القبض عليه فعلاً، ولكن قبل أن يستطاع إحضاره إلى المحكمة، هوجم السجن من قبل الكوكلوكس كلان وأعدم السجين بهدوء. وقد فعل الكلان ذلك لينقذوا الضحية التي لم يكن قد شاع اسمها بعد، ومن أن تضطر إلى الاستجواب في محاكمة علنية. وكان والدها وشقيقها يفضلان أن يقتلاها على أن تظهر وتعلن عن عارها. ولذا بدا إعدام الزنجي بلا

(1) Emancipation ومعناها التحرير - (المترجمان).

محاكمة حلاً معقولاً في نظر أهل المدينة، والحقيقة أنه كان الحل المحتشم الممكن الوحيد. غير أن السلطات العسكرية غضبت ولم ترَ أي سبب يمنع الفتاة من أن تستجوب علنياً.

وراح الجنود يقبضون على الناس يمنياً وشمالاً، ويقسمون أن يزيلوا الكلان من الوجود، ولو اضطروا إلى أن يزجوا كل رجل في أتلانتا في السجن. وشرع الزنوج الفزعون المكتئبون يدمدمون عن عمليات الثأر بحرق البيوت، وتلبد الجو بإشاعات عن إعدام بالجملة من قبل الشماليين إذا ما اكتشفت الجماعات المجرمة، وعن ثورة مدبرة على البيض من قبل الزنوج. ومكث أهل المدينة في بيوتهم خلف الأبواب الموصدة والنوافذ المغلقة، بعد أن خشي الرجال الذهاب إلى أعمالهم وترك نسائهم وأولادهم بلا حماية.

وشكرت سكارلت اللّه بوداعة وصمت، وهي مستلقية في سريرها خائرة القوى، لأن آشلي كان لديه من الإدراك الواسع جداً ما منعه من الانضمام إلى الكلان، ولأن فرانك كان مسناً وضعيف الروح. ما أفظع ما سيكون أن تعرف أن الشماليين يمكن أن ينقضّوا على البيت ويقبضوا عليهما في أي دقيقة! لماذا لم يترك شباب الكلان المختلو العقول الأوغاد وشأنهم فلم يثيروا الشماليين على هذه الصورة؟ وبعد كل هذا، فإن من المحتمل أن لا تكون الفتاة قد اغتصبت، من المحتمل أن تكون قد أرعبت بصورة حمقاء وحسب، وبسببها يمكن أن يفقد كثير من الرجال أرواحهم.

في هذا الجو، استعادت سكارلت قواها بسرعة، وهي متوترة الأعصاب كمن يراقب فتيل المتفجرات يشتعل باتجاه برميل من البارود. ومكنتها الحيوية السليمة التي كانت قد اجتازت بها الأيام الصعبة في تارا، من أن تصبح في حالة جيدة الآن. وهكذا أضحت سكارلت بعد أسبوعين من ولادة إيلا لورينا، في حالة من القوة مكنتها

من أن تجلس وتثور على خمولها. وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع نهضت معلنة أن لا بد لها من الاهتمام بمعمليها اللذين كانا متوقفين عن الإنتاج لأن كلا هيو وآشلي كانا يخشيان مغادرة عائلتيهما وحيدتين طوال النهار.

ثم وقعت الضربة.

استجمع فرانك الذي كان مفعماً بكبرياء الأبوة الجديد، استجمع قوة كافية لمنع سكارلت من مغادرة البيت ما دامت الأوضاع خطرة جداً. ولم تكن أوامره لتزعجها أبداً. وكان من المتوقع أن تذهب لتشرف على معمليها رغم تلك الأوامر، لو أنه لم يكن قد وضع حصانها وعربتها في إسطبل الأجرة، وأمر بوجوب عدم تسليمها لأي إنسان سواه، ولكي تزداد الأمور سوءاً، كان فرانك ومامي قد فتشا البيت بصبر دائب أثناء مرض سكارلت، واكتشفا مدخرها من النقود، ثم أودع فرانك هذه النقود في مصرف باسمه. وهكذا لم يعد في وسعها الآن حتى استئجار عربة.

وثارت سكارلت على فرانك ومامي كليهما، ثم انجزرت ثورتها إلى رجاء، وأخيراً راحت تبكي طوال صباح أحد الأيام كولد غاضب معاكس الرغبات. ولكن رغم كل محاولاتها لم تكن تسمع من فرانك سوى «اسمعي يا حلوتي، إنما أنت فتاة مريضة صغيرة». ولم تكن تسمع من مامي سوى «يا آنسة سكارلت، إذا لم تقلعي عن هذا البكاء، فسيختثر حليبك، وستصاب الطفلة بالمغص، وهذا مؤكد ككون المدفع من حديد».

واندفعت سكارلت وهي في مزاج حانق عبر ساحة البيت الخلفية إلى منزل ميلاني. وهناك فرجت عن نفسها بأعلى صوتها معلنة أنها ستذهب إلى المعملين سيراً على الأقدام، وستتجول في أتلانتا، تخبر كل إنسان أي وغد كانت قد تزوجت، وأنها لن ترضى أن تعامل كطفلة

شقية ساذجة العقل، وستحمل مسدساً وتقتل كل من يهددها. لقد قتلت رجلاً وإنها لتحب، أجل لتحب أن تقتل رجلاً آخر. إنها ستقتل...

وفزعت ميلاني التي كانت تخاف أن تخاطر بالخروج إلى شرفة بيتها الأمامية، فزعت من هذه التهديدات.

- «آه، ينبغي ألّا تخاطري بنفسك! إني سأموت إذا حدث مكروه لك، آه أرجوك...».

- «سأذهب، سأذهب، سأذهب مشياً...».

فنظرت ميلاني إليها، ورأت أن هذه لم تكن هستيريا امرأة لا تزال ضعيفة من الولادة. لقد كان هناك في وجه سكارلت التصميم المتهور الفتاك ذاته الذي كانت ميلاني قد رأته مراراً في وجه جيرالد عندما كان عقله يصمم على رأي ما. ولذلك طوقت خصر سكارلت بذراعيها وتمسكت بها بقوة.

- «إنها جميعها غلطتي أنا لأني لم أكن شجاعة مثلك، ولأني أبقيت آشلي معي طوال هذا الوقت، بينما كان ينبغي أن يكون في العمل. آه يا عزيزتي! إني امرأة ساذجة. عزيزتي، سأخبر آشلي أني لست فزعة أبداً وسآتي أقيم معك والعمة بيتي، عندئذ يستطيع أن يعود إلى عمله و...».

ولم تكن سكارلت لتعترف، حتى لنفسها، بأنها لم تكن تعتقد أن في وسع آشلي أن يكافح الوضع وحيداً، ولذلك صرخت: «لن تفعلي شيئاً من هذا النوع! أي نتيجة يمكن أن يؤديها آشلي في المعمل إذا كان قلق البال عليك في كل دقيقة؟ إن الجميع مقيتون جداً، حتى العم بيتر يرفض أن يخرج معي! ولكني لا أبالي! سأذهب وحدي، سأمشي كل خطوة من الطريق وأنتقي جماعة من الزنوج من مكان ما...».

- «آه، لا! ينبغي ألّا تُفعلي ذلك! فيمكن أن يقع لك حادث مروِّع. إنهم يقولون إن مستعمرة شانتيتون الواقعة على طريق ديكاتور

تعج بالزنوج الأوغاد، وأنت ستمرين إزاءها تماماً. دعيني أفكر - عزيزتي، عديني أنك لن تفعلي شيئاً هذا اليوم وأنا سأفكر في حل ما. عديني أنك ستذهبين إلى البيت وتأوين إلى فراشك، فأنت تبدين شاحبة تماماً. عديني».

ولأنها كانت منهوكة جداً من جرّاء غضبها بحيث لم يكن في وسعها أن تفعل خلاف ذلك، وعدت سكارلت ميلاني بعبوس، وذهبت إلى البيت، رافضة بعجرفة أي عروض سلمية من أفراد بيتها.

وبعد ظهر ذلك اليوم اجتاز رجل غريب سياج ميلاني وعبر ساحة بيتي الخلفية. كان من الواضح أنه أحد أولئك الرجال الذين كانت مامي ودلسي تشيران إليهم بـ«الأوغاد الذين تلتقطهم الآنسة ميلي من الشوارع وتدعهم ينامون في قبو بيتها».

كانت هناك ثلاث غرف في قاعدة بيت ميلاني كانت سابقاً مساكن للخدم وغرفة خمر، وكانت دلسي تشغل إحداها الآن، بينما كانت الغرفتان الأخريان مشغولتين باستمرار من قبل سيل من عابري الطريق البائسين الزريي الثياب.

ولم يكن أحد باستثناء ميلاني يعرف من أين كانوا يأتون وإلى أين كانوا يذهبون، ولم يكن أحد سواها أيضاً يعرف من أين كانت تجمعهم. وربما كانت الزنجيتان مصيبتين في أن ميلاني كانت تلتقطهم من الشوارع. ولكن كما كان الرجال العظام وأشباه العظام ينجذبون إلى صالتها الصغيرة، كذلك كان التعساء يجدون طريقهم إلى قبوها، حيث كانوا يطعمون وينامون، ثم يستأنفون طريقهم محملين برزم الطعام. وكان نزلاء تينك الغرفتين في العادة جنوداً حلفيين سابقين من الفئة الأمية الفظة، ورجالاً بلا مأوى، ورجالاً بلا عائلات، يضربون في أنحاء الولاية أملاً في إيجاد عمل.

ومراراً ما قضت الليل هناك نساء ريفيات سمراوات ذاويات

يصحبن أطفالاً صامتين كثيثي الشعور، نساء رمَّلتهن الحرب، طُردن من مزارعهن، ينشدن أقرباءهن الذين كانوا مبعثرين مفقودين. وكان الجيران يشعرون بالمهانة أحياناً بسبب وجود هؤلاء الغرباء، الذين كانوا يتكلمون الإنجليزية قليلاً أو لا يتكلمونها أبداً، والذين كانوا قد انجذبوا إلى الجنوب بتأثير القصص البراقة عن الثروات التي تجمع بسهولة فيه. وحدث مرة أن نام جمهوري هناك، أو على الأقل، أصرت مامي على أنه جمهوري، قائلة إن في وسعها أن تشم رائحة الجمهوري تماماً كما يشم حصان حبة الجرس. بيد أن أحداً لم يصدق قصة مامي، لأنه يجب أن تكون هناك حدود لإحسان ميلاني، وهذا ما كان يرجوه كل إنسان على الأقل.

أجل، فكرت سكارلت، وهي تجلس على جانب الشرفة في شمس نوفمبر الشاحبة، والطفلة على حجرها، إنه أحد كلاب ميلاني العرج، وإنه لأعرج حقاً، بلا جدال!

كان الرجل الذي اتخذ طريقه عبر الساحة الخلفية يخطو على ساق خشبية مثل ويل بنتين. كان رجلاً مسناً نحيفاً طويل القامة ذا رأس أصلع يلمع قذراً محمراً، ذا لحية شائبة طويلة جداً، بحيث كان في وسعه أن يدسها تحت حزامه. وكان يبدو أنه تجاوز الستين من العمر بالنظر إلى وجهه اليابس المتغضن، ومع ذلك فإن عمره لم يحنِ قامته وكان أيضاً ضامر الجسد فظ الهيئة، ولكنه كان يتحرك بسرعة رغم ساقه الخشبية.

ثم صعد الدرجات واتجه إليها، وعرفت سكارلت إنه كان من أبناء الجبال حتى قبل أن يتكلم ويظهر في لهجته طنين وتشديد لحرف الراء تلك الميزة غير المعتادة في المناطق المنخفضة. ورغم قذارته وثيابه الرثة، فقد كان يكتنفه، شأن كل الجبليين، مظهر من الكبرياء الصامتة الصارمة، التي لا تسمح بأي حرية، ولا تبيح أي سخف. وكانت لحيته

ملطخة بعصير التبغ، بينما كانت مضغة كبيرة في شدقه تجعل وجهه يبدو مشوهاً. وكان أنفه نحيفاً مشمخراً، وحاجباه كثَّين متينين في خصل الساحرات. أما أذناه فكانت تبز منهما جمة كثيفة من الشعر، تضفي عليهما مظهر أذني وشق[1] مكسوين بالشعر. وتحت أحد حاجبيه كانت توجد نقرة فارغة يمتد منها ندب على وجنته، حافراً خطاً منحرفاً خلال لحيته. أما العين الأخرى فكانت صغيرة شاحبة ساكنة، عين عديمة الرحمة لا تطرف. وقد علق في حزام سرواله مسدساً ثقيلاً بادياً للعيان. وكان يبرز من أعلى جزمته المهلهلة مقبض سكين صيد طويل.

رد الغريب على تحديق سكارلت ببرود، وبصق من فوق الدرابزين قبل أن يتكلم. وكانت عينه تنطق بالازدراء، ليس ازدراء شخصياً لها، بل ازدراء لكل جنسها.

- «لقد أرسلتني السيدة ويلكس لأشتغل عندك» قال باقتضاب. كان يتكلم ببلادة كإنسان لم يكن معتاداً على التكلم، وكانت الكلمات تخرج بطيئة من فمه، بصعوبة تقريباً «اسمي آرشي».

- «إني آسفة لعدم وجود عمل لك لدي يا سيد آرشي».

- «إن آرشي هو اسمي الأول».

- «أرجو عفوك، ما هو اسمك الأخير؟».

فبصق ثانية، «أعتقد ذلك من شأني أنا» قال، «فآرشي يكفي».

- «أنا لا أحفل باسمك الأخير! ليس لدي عمل لك».

- «أعتقد أن لديك. لقد كانت السيدة ويلكس مهمومة فيما يتعلق برغبتك في التجول وحدكِ كامرأة بلهاء، ولذا أرسلتني هنا لأسوق لك العربة».

- «حقاً؟» صاحت سكارلت حانقة من وقاحة الرجل وتدخُّل ميلي.

---

(1) حيوان أصغر من الفهد ذو ذيل قصير - (المترجمان).

وقابلت عينه عينيها ببغض غير شخصي، «أجل، ليس من شأن المرأة أن تضايق رجال عائلتها عندما يحاولون أن يحرصوا عليها. إذا كنت مضطرة إلى الخروج والتجول، فسأسوق عربتك. إني أكره الزنوج - والشماليين أيضاً».

ونقل مضغة التبغ إلى الشدق الآخر، ودون أن ينتظر دعوتها جّلس على الدرجة العليا. «أنا لم أقل إني أحب أن أقود النساء في تجوالهن، ولكن السيدة ويلكس أحسنت إليَّ وسمحت لي بالنوم في قبوها ثم أرسلتني لأسوق عربتك».

- «ولكن. . .» بدأت سكارلت حائرة، ثم صمتت ونظرت إليه. وبعد لحظة، شرعت تبتسم. إنها لم تحب نظرات هذا الوبش العجوز ولكن قدومه سيسهل الأمور، فبوجوده إلى جانبها، كان يسعها أن تذهب إلى المدينة وتركب إلى المعملين وتزور الزبائن. ولكن لا يكون في وسع أحد أن يرتاب في سلامتها معه ومجرد مظهره كان كافياً ليقيها فضيحة الناس.

- «المسألة فيها نظر» قالت، «أعني إذا وافق زوجي».

أعلن فرانك موافقته المترددة بعد محادثة خاصة مع آرشي. وبعث كلمة إلى إسطبل الأجرة ليطلق سراح الحصان والعربة. وكان فرانك متألماً قانطاً لأن الأمومة لم تكن قد غيرت سكارلت كما كان قد أمل. ولكن إذا كانت مصرة على أن تعود إلى معمليها اللعينين فإن آرشي كان نعمة من عند اللّه.

وهكذا بدأت العلاقة التي أذهلت أتلانتا في بادئ الأمر. فقد كان آرشي وسكارلت نقيضين غريبين: الرجل العجوز الشرس القذر ينتصب بساقه الخشبية في مقدمة العربة، والمرأة الشابة الجميلة الأنيقة الثياب المنقبضة الجبين في عبوس مشدوه. وكان يمكن أن يريا في كل الساعات وفي كل الأمكنة في أتلانتا وعلى مقربة منها، ونادراً ما رُئيا

يتكلمان معاً، بل كان من الواضح أنهما كانا يكرهان بعضهما بعضاً. غير أنهما مع ذلك كانا مرتبكين معاً في حاجة متبادلة: هو في حاجته إلى المال، وهي في حاجتها إلى الحماية. ولقد قالت سيدات أتلانتا، إن هذا على الأقل أفضل من أن تركب بصفاقة متناهية مع ذلك الرجل باتلر. وكن يتساءلن بفضول أين كان ريت هذه الأيام، لأنه كان قد غادر المدينة فجأة منذ ثلاثة شهور، ولم يكن أحد، حتى سكارلت، يعرف أين كان الآن.

كان آرشي رجلاً صامتاً، لا يتكلم أبداً ما لم يخاطب، وكان يجيب عادة بصوت كأنه القباع. كان يجيء كل صباح من قبو ميلاني ويجلس على درجات بيت بيتي، يمضغ التبغ ويبصق على الأرض إلى أن تخرج سكارلت ويحضر بيتر العربة من الإسطبل. وكان العم بيتر يخافه، أقل بقليل من خوفه من الشيطان أو الكوكلوكس كلان. وحتى مامي كانت تمشي صامتة متهيبة حوله. وكان آرشي يكره الزنوج الذين كانوا يعرفون ذلك. ويخافونه. وكان قد دعم مسدسه وسكينه بمسدس آخر، وشاعت شهرته واسعاً بين السود. إلا أنه لم يضطر يوماً إلى أن يسحب مسدسه أو حتى أن يضع يده على السكين. فتأثيره النفسي كان كافياً، إذ لم يكن أي زنجي يجرؤ على الضحك عندما يكون آرشي في مدى السمع.

ومرة سألته سكارلت بفضول، عن سبب كراهيته للزنوج. فدهشت عندما أجابها كما كان يجيب عن كل الأسئلة بصفة عامة:

- «إني أكرههم كما يكرههم جميع الجبليين. ونحن لم نحبهم أبداً، كما أننا لم نمتلك واحداً منهم مطلقاً. لقد كان الزنوج هم الذين أشعلوا الحرب. إني أكرههم لذلك السبب أيضاً».

- «ولكنك اشتركت في الحرب».

- «أعتقد أن ذلك حق خاص بالرجل. إني أكره الشماليين أيضاً،

أكثر مما أكره الزنوج، أكرههم كراهية شديدة ككراهيتي للنساء الثرثارات».

مثل هذه الوقاحة الصريحة، كانت السبب الذي جعل سكارلت تتردى في ثورات صامتة وتتوق للخلاص منه. ولكن كيف كان في وسعها أن تشتغل من دونه؟ بأي طريقة أخرى كان في وسعها أن تحصل على حرية كهذه؟ لقد كان وقحاً قذراً تفوح منه من حين إلى آخر رائحة نتنة جداً. بيد أنه كان يخدم غايتها. كان يسوق عربتها من المعملين وإليهما، وفي جولاتها على الزبائن، وهو يبصق أو يحدق بعيداً، بينما كانت هي تتحدث أو تصدر الأوامر. وإذا ما نزلت من العربة نزل خلفها وتبع خطواتها. وإذا كانت بين العمال الخشان أو الزنوج أو الشماليين، كان نادراً ما يبعد عن مرفقها أكثر من خطوة.

وسرعان ما ألفت أتلانتا رؤية سكارلت وحارسها. ومن هذه الألفة، شرعت السيدات يحسدنها على حريتها في التنقل، فمنذ اقتصاص الكوكلوكس، كانت النسوة محجوزات عملياً، حتى إنهن لم يكنّ يذهبن إلى المدينة لابتياع حوائجهن ما لم يكنّ ستة على الأقل، ولمّا كنّ اجتماعيات التفكير بالفطرة، لذلك شرعن بالتذمر، ووضعن كبرياءهن في جيوبهن وبدأن يلتمسن إعارة آرشي لهن من سكارلت، وهكذا كلما لم تكن في حاجة إليه، كانت لطيفة جداً في أن تستغني عنه لخدمة السيدات الأخريات.

وسرعان ما أصبح آرشي مؤسسة أتلانتية، وصارت السيدات يتنافسن على وقت فراغه، ونادراً ما انقضى صباح دون أن يأتي ولد أو خادم زنجي في وقت الفطور، يحمل رسالة تقول: «إذا كنت لن تستخدمي آرشي بعد ظهر هذا اليوم، فأعيريني إياه، لأني أريد الذهاب إلى المقبرة ببعض الزهور» أو «عليَّ أن أذهب إلى محلات بيع القبعات» أو «إني أرغب في أن يسوق آرشي عربة العمة نيلي في نزهة

قصيرة» أو «عليَّ أن أذهب في زيارة إلى شارع بيتر والجد لا يشعر بصحة جيدة كي يأخذني، فهل يستطيع آرشي أن -».

كان يسوق عرباتهن جميعاً: صبايا ومتزوجات وأرامل. وكان يبدي تجاه الجميع ذات الازدراء الذي لا يلين. لقد كان من الواضح أنه لا يحب النساء، باستثناء ميلاني، أكثر مما يحب الزنوج والشماليين! إلا أن النساء تعوَّدن عليه أخيراً رغم أنهن صدمن من وقاحته في بادئ الأمر. ولمّا كان شديد الصمت باستثناء ما كان يصدر عنه من فرقعات متقطعة ناجمة عن بصق عصير التبغ، لذلك اعتبرنه أمراً لا بد منه، كالخيل التي كان يسوقها، ونسين وجوده ذاته. والحقيقة أن السيدة ميريويذر روت للسيدة ميد التفاصيل الكاملة لمضايقات حصر ابنة شقيقتها حتى قبل أن تتذكر وجود آرشي على مقعد العربة الأمامي.

ولم يكن من الممكن قبول وضعية كهذه في وقت غير هذا الوقت، فقبل الحرب لم يكن من الممكن أن يسمح لآرشي حتى بدخول مطابخ السيدات، بل كن يناولنه الطعام من الأبواب الخلفية ثم يرسلنه في سبيله، غير أنهن الآن كن يرحبن بوجوده المطمئن. ورغم أنه كان فظاً أمياً قذراً، فقد كان متراساً يحول بين السيدات وأهوال التجديد. ولم يكن هو صديقاً ولا خادماً، وإنما حارساً مستأجراً يحمي النساء في الوقت الذي كان فيه الرجال يشتغلون نهاراً أو يغيبون عن بيوتهم ليلاً.

وبدا لسكارلت أن فرانك أخذ يتغيب عن البيت مراراً بعد أن دخل آرشي في خدمتها. كان يقول إن من الواجب أن توازن دفاتر حسابات المخزن وأن العمل أضحى كثيراً جداً الآن بحيث لم يكن يسمح له بوقت يكفيه للقيام بهذه الموازنة في ساعات العمل. ثم إن هناك أصدقاء مرضى كان يجب أن يزورهم، ثم منظمة الديمقراطيين التي كانت تجتمع كل ليلة لتبتكر أساليب لاسترجاع حق الاقتراع، ولم يكن فرانك يضيع أياً من اجتماعاتها. وكانت سكارلت تعتقد أن هذه

المنظمة لم تعمل إلا قليلاً بالإضافة إلى تقريظ مزايا الجنرال جون ب. غوردون وتقديمها على مزايا أي جنرال آخر ما عدا الجنرال لي، وكذلك بالإضافة إلى خوض الحرب مجدداً، إذ كان من الأكيد أنها لم تستطع أن تلاحظ أي تقدم في اتجاه استرجاع حق الاقتراع. ولكن من الواضح أن فرانك كان يبتهج بالاجتماعات لأنه كان يظل خارج البيت طوال ساعات تلك الليالي.

وكان آشلي يزور المرضى أيضاً، وكذلك كان يحضر اجتماعات الديمقراطيين، وكان يتغيب عادة في الليالي ذاتها التي كان فرانك يتغيب فيها. وكان آرشي يرافق في هذه الليالي بيتي وسكارلت وويد وإيلا الصغيرة، عبر الساحة الخلفية، إلى منزل ميلاني حيث كانت العائلتان تقضيان الأمسيات معاً: السيدات يخطن بينما ينبطح آرشي بكامل قامته على كنبة الردهة ويأخذ بالشخير وشارباه الرماديان يهتزان عند كل شهيق وزفير. ولم يكن أحد يدعوه ليرقد بجسده على الكنبة، التي كانت السيدات يتذمرن كلما اضطجع عليها لأنها أجمل قطعة أثاث في البيت. وكان آرشي يدس حذاءه في الفراش الجميل، بيد أن واحدة منهن لم تكن تمتلك الشجاعة لتعترض عليه، خصوصاً بعد أن علق قائلاً إن من حسن حظه أنه كان ينام بسهولة، وإلا لكان صوت السيدات الذي يقرقع كسرب من الدجاج الغينياوي سيودي به حتماً إلى الجنون.

كانت سكارلت تتساءل من أي بلاد أتى آرشي، وكيف كانت حياته قبل أن يأتي للعيش في قبو ميلاني، غير أنها لم تسأله أي سؤال في هذا الصدد، فلقد كان ما يشوب وجهه الكئيب الأعور، هو الذي يخمد فضولها. وكل ما كانت تعرفه هو أن صوته كان يدل على سكان الجبال الشمالية، وأنه كان في الجيش وفقد ساقه وعينه قبل الاستسلام بقليل. ولم يكشف الحقيقة عن ماضيه إلا بعض الكلمات التي تفوّهت بها سكارلت في نوبة غضب ضد هيو إلسينغ.

ففي صباح أحد الأيام، وكان الرجل العجوز قد ساق عربة سكارلت إلى معمل هيو، وكان هي قد وجدت المعمل متوقفاً عن العمل والزنوج غير موجودين وهيو يجلس يائساً تحت شجرة. ولم يكن عماله قد حضروا في ذلك الصباح، فكان في حيرة مما ينبغي عمله. وثارت سكارلت، ولم تتردد في أن تمد ثورتها إلى هيو، لأنها كانت قد تلقت طلباً لتقديم كمية كبيرة من الخشب - طلباً سريعاً بلا جدال - كانت قد استخدمت نشاطها وفتنتها ومهارتها في المساومة لتظفر بذلك الطلب والآن ها هو المعمل متوقف عن العمل.

- «خذني إلى المعمل الآخر» أمرت آرشي، «أجل إني أعرف أن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً وأننا لن نتناول غداءنا، ولكن لماذا أدفع لك راتبك؟ عليَّ أن أدع السيد ويلكس يوقف الذي يعمله الآن، وينجز لي هذا الطلب سريعاً، هذا ما لم يكن عماله لا يشتغلون كذلك. يا للجحيم! أنا لم أرَ غبياً مثل هيو إلسينغ. سوف أتخلص منه حالما يتم جوني كاليغر ذاك، بناء المخازن التي يعمل بها. ماذا يهمني إن كان كاليغر جندياً من الجيش الاتحادي؟ إنه سيشتغل. إني لم أرَ إيرلندياً خاملاً حتى الآن. ولقد سئمت من الزنوج المحررين، فليس في وسع المرء أن يعتمد عليهم، سأعيِّن جوني كاليغر وأستأجر بعض الأشقياء المحكومين، فهو سيستخلص عملاً منهم، سي -».

فالتفت آرشي إليها وعينه تنطق بالحقد، وعندما تكلم خامر غضب بارد صوته الصدئ:

- «إن اليوم الذي تستأجرين فيه أشقياء هو اليوم الذي أتركك فيه»، قال.

فأجفلت سكارلت: «يا للّه! لماذا؟».

- «إني أعرف ما يعني استئجار الأشقياء، إني أدعو ذلك قتل الأشقياء، شراء الرجال كما لو كانوا بغالاً، ومعاملتهم أسوأ من أي

معاملة تعامل بها البغال، وضربهم وتجويعهم وقتلهم. ومن يعبأ؟ الحكومة لا تعبأ لأنها تحصل بدل الإيجار، والناس الذين يستأجرونهم لا يعبأون، وإنما يريدون أن يطعموهم أرخص طعام ويستخلصون منهم أكثر مما يستطيعون من عمل. يا للجحيم يا سيدة! لم أكن أقدر النساء كثيراً، وإني لا أقدرهن أقل من ذلك الآن».

- «هل هذا من شأنك؟».

- «أعتقد ذلك» قال آرشي باقتضاب، ثم أردف بعد فترة صمت: «لقد كنت شقياً مجرماً قرابة أربعين سنة».

فشهقت سكارلت، ولهنيهة، تراجعت متكئة على الوسائد. هذا إذن هو الجواب على لغز آرشي، وعدم رغبته في أن يقول اسم عائلته أو مكان ولادته أو أي نبذة عن حياته الماضية، الجواب على الصعوبة التي كان يتكلم بها وعلى كراهيته الباردة للدنيا. أربعون سنة!! ينبغي أن يكون قد دخل السجن شاباً. أربعون سنة! عجباً - ينبغي أن يكون سجيناً مؤبداً، والسجناء المؤبدون كانوا -

- «ما السبب - جريمة قتل؟».

- «أجل» أجاب بإيجاز وهو يهز العنان، «زوجتي».

فرف جفنا سكارلت بسرعة من الرعب.

وبدا أن الفم الذي كان تحت اللحية، أخذ يتحرك كأنه يبتسم على خوفها بشكل كالح، «أنا لن أقتلك يا سيدة، إذا كان ذلك ما أفزعك. يوجد سبب واحد فقط لقتل امرأة».

- «أنت قتلت زوجتك!».

- «كانت تضاجع شقيقي الذي هرب. لست متأسفاً أبداً لأني قتلتها، فالنساء المنحلّات ينبغي أن يُقتلن. وليس من حق القانون أن يسجن رجلاً بسبب ذلك، ولكني سجنت».

- «ولكن كيف خرجت من السجن؟ هل هربت؟ هل أُعفي عنك؟».

- «يمكنك أن تسميه عفواً» وتلوى حاجباه الأشهبان الثخينان معاً، كأن الجهد الذي كان يبذله في إخراج الكلمات منسجمة مع بعضها كان جهداً صعباً.

- «عندما قدم شيرمان في عام 1864 كنت في سجن ميلدجفيل، شأني منذ أربعين سنة. وعندئذ دعا السجان جميع المسجونين وقال إن الشماليين قادمون، يحرقون ويقتلون. وإذا كنت أنا أكره شيئاً أكثر من كراهيتي للزنوج أو للنساء، فإن هذا الشيء هو الشماليون».

- «لماذا؟ هل كنت - هل كنت تعرف أي شمالي؟».

- «لا، ولكني أسمع عنهم، أسمع أنهم لا يستطيعون أن يعتنوا بشؤونهم الخاصة. ماذا كانوا يفعلون في جورجيا، يحررون زنوجنا ويحرقون بيوتنا ويقتلون حيواناتنا؟ على كل حال، قال السجان إن الجيش في حاجة إلى جنود آخرين حاجة ماسَّة، وإن أياً منا يلتحق بالجيش، سيغدو حراً عند نهاية الحرب - إذا ما خرجنا أحياء منها. ولكن نحن المؤبدين - نحن القتلة، قال السجان إن الجيش ليس في حاجة إلينا. وكان ينبغي أن نرسل إلى سجن آخر في مكان ما، ولكني قلت للسجان إني لست كمعظم المؤبدين، وإني سجنت لأني قتلت زوجتي وحسب، وإنها كانت تستحق القتل، وإني أريد أن أحارب الشماليين. ورأى السجان رأيي في الأمر، فأخرجني مع المساجين الآخرين».

وصمت ثم قبع بصوته:

- «ها، لقد كان ذلك مضحكاً في الحقيقة. لقد أدخلوني السجن بسبب القتل ثم أخرجوني وبندقية في يدي ولدي حق مطلق في أن أقترف عمليات قتل أكثر. كان من الجميل أن أغدو حراً والبندقية في

يدي ثانية. ولقد قمنا نحن الرجال الذين غادرنا سجن ميلدجفيل بقتل وبتقتيل عظيمين، وقتل الكثير منا، ولم أعرف أن أحداً فر من المعركة. وعندما تم الاستسلام غدونا أحراراً. لقد فقدت هذه الساق وهذه العين، غير أني لست آسفاً».

- «ها» قالت سكارلت بوهن.

وحاولت أن تتذكر ما كانت قد سمعته عن تحرير مجرمي ميلدجفيل في آخر محاولة يائسة لإيقاف موجة شيرمان. وكان فرانك قد ذكر ذلك أمامها في عيدي ميلاد 1864. وماذا كان قد قال؟ بيد أن ذكرياتها عن ذلك الوقت كانت مشوشة جداً. وثانية شعرت بالهول الضاري الذي عم تلك الأيام، وسمعت مدافع الحصار، ورأت صف العربات تنقط دماً على الطرقات الحمراء، والحرس الوطني يزحف إلى الجبهة، وكذلك تلاميذ المدرسة الحربية الصغار، والصبيان أمثال فل ميد، والعجزة أمثال العم هنري والجد ميريويذر، والأشقياء، كانوا قد زحفوا إلى الجبهة أيضاً، ليموتوا في غسق الحلف، ليتجمدوا في ثلج وبرد تلك الحملة الأخيرة في تنيسي.

ولهنيهة قصيرة، فكرت سكارلت ما كان أحمق هذا الرجل العجوز عندما ذهب ليحارب من أجل حكومة كانت قد أخذت أربعين سنة من حياته. لقد سلبت جورجيا شبابه وسني عمره الوسطى عقاباً على جريمة لم تكن جريمة في نظره، ومع ذلك فقد قدم مختاراً ساقاً وعيناً لجورجيا. وعاودتها الكلمات المُرَّة التي كان ريت قد تفوه بها في أيام الحرب الأولى، وتذكرته يقول إنه لا يريد أن يحارب من أجل مجتمع كان قد طرده منبوذاً، ولكن عندما برزت الضرورة، انطلق ليحارب من أجل ذلك المجتمع عينه، تماماً كما فعل آرشي. وبدا لها أن كل الرجال الجنوبيين من الطبقات العليا والدنيا حمقى عاطفيون لا يهتمون بنفوسهم بقدر ما يهتمون بكلمات عديمة المعاني.

ونظرت إلى يدي آرشي العجوزتين المشوهتين وإلى مسدسيه وسكينه ووخزها الخوف ثانية. أكان يوجد مجرمون سابقون أحراراً مثل آرشي: قتلة وأوباش ولصوص، أُعفي عن جرائهم باسم الحلف؟ كيف لا، وأي غريب في الشارع يمكن أن يكون مجرماً! إذا ما عرف فرانك الحقيقة عن آرشي، فعندئذ ستقع الواقعة، أو إذا عرفت العمة بيتي - بيد أن الصدمة ستقتل بيتي. وأما بالنسبة إلى ميلاني - كانت سكارلت ترغب تقريباً في أن تتمكن من إطلاع ميلاني على حقيقة آرشي، لأن ذلك يعزز صوابها في التقاط الحقيرين وحشرهم بين أصدقائها وأقربائها.

- «إني - إني مسرورة لأنك أخبرتني بذلك يا آرشي، وإني - وإني لن أخبر أحداً. سيكون النبأ صدمة عظيمة للسيدة ويلكس والسيدات الأخريات إذا هنَّ عرفن به».

- «ها، السيدة ويلكس تعرف به. لقد أخبرتها أول ليلة سمحت لي فيها بالنوم في القبو. أتظنين أني أدع سيدة لطيفة مثلها تُدخلني إلى بيتها وهي لا تعلم حقيقة أمري؟».

- «ليحفظنا القديسون!» صاحت سكارلت مشدوهة.

كانت ميلاني تعرف أن هذا الرجل قاتل، وقاتل امرأة أيضاً، ولم تبعده عن بيتها، بل إنها أمنت على ابنها وعلى عمتها وزوجة شقيقها وجميع صديقاتها، ولم تكن، وهي أكثر النساء جبناً، تخشى أن تظل وحيدة معه في بيتها.

- «إن السيدة ويلكس عاقلة تماماً بالنسبة إلى امرأة. لقد أقرت ببراءتي. لقد أقرت بأن الكذاب يستمر في الكذب واللص يستمر في اللصوصية، ولكن الإنسان لا يقترف أكثر من جريمة قتل واحدة في حياته. واعتبرت أن كل من قاتل من أجل الحلف قد كفَّر عن أي سيئة

كان قد اقترفها بقتاله. على أني أعتقد أني لم أقترف أي سيئة في قتل زوجتي. . . أجل إن السيدة ويلكس عاقلة تماماً بالنسبة إلى امرأة. . . وإني أخبرك أنه في اليوم الذي تستأجرين فيه أشقياء، سأتركك».

فلم تجب سكارلت، إلا أنها فكرت.

«كلما أسرعت في تركي ناسبني ذلك أكثر». إنه قاتل! كيف وسع ميلاني أن تكون هكذا - هكذا - الواقع، ليس هناك نعت ينعت به عمل ميلاني في إيواء هذا الوغد العجوز، ودون أن تخبر أصدقاءها أنه من نزلاء السجون. . . وهكذا تكفر الخدمة في الجيش عن المآثم السابقة! إن ميلاني كانت تخلط بين ذلك وبين التنصير! ولكنها في ذلك كانت حمقاء تماماً فيما يتعلق بالحلف، ورجاله المدربين، وبكل ما يتعلق بهم. ولعنت سكارلت الشماليين في سرها، وأضافت مثلبة أخرى إلى مجموعة مثالبهم لديها، فلقد كانوا مسؤولين عن الوضع الذي اضطر المرأة إلى أن تؤوي مجرماً إلى جانبها كي يحميها.

وبينما كان آرشي عائداً بسكارلت إلى البيت إبان الغسق البارد، سمعت وقع حوافر خيول، ورأت عربات صغيرة وكبيرة تقف خارج صالة الفتاة العصرية، ثم رأت آشلي يجلس فوق حصانه، وعلى وجهه سمة التيقظ والجهد. وكان أبناء سيمونس يمدون أعناقهم من عربتهم ويشيرون بإشارات توكيدية. وكان هيو إلسينغ يلوح بيديه وخصلة شعره البني متهدلة على عينيه، بينما وقفت في وسط الحلقة عربة فطير الجد ميريويذر. وعندما تقدم آرشي بالعربة، رأت سكارلت أن تومي ولبورن والعم هنري هاملتون كانا يجلسان على المقعد إلى جانب الجد.

«أرجو» فكرت سكارلت مغتاظة، «أن لا يركب العم هنري إلى البيت في تلك العربة الخرعة الغريبة، إذ ينبغي أن يخجل من أن يُرى داخلها. وليس الأمر ناجماً عن أنه لا يملك حصاناً، وإنما هو يفعل ذلك كي يستطيع الذهاب والجد معاً إلى الحانة كل ليلة».

وعندما حاذت الجمهور بلغها بعض التوتر الذي كان يخامرهم رغم أنها كانت قليلة التأثر، ثم شرع الخوف يقبض على قلبها.

«ها» فكرت، «أرجو ألّا تكون فتاة أخرى قد اغتصبت! إذا ما أعدم الكوكلوكس زنجياً آخر، فسيمحوننا الشماليون» وخاطبت آرشي، «قف، توجد حادثة».

- «إنك لن تقفي خارج الصالة» قال آرشي.

- «سمعتني. قف. عمو مساء جميعاً. يا آشلي - يا عم هنري، هل حدث حادث سيّئ؟ إنكم جميعاً تبدون -».

فالتفت الجمهور نحوها، وأمالوا قبعاتهم مبتسمين، ولكن عيونهم كانت تنطق بانفعال مضطرم.

- «حادث حسن أو سيّئ» صاح العم هنري بشراسة، «الأمر يعتمد على كيفية نظرتك إليه. إن ما أقدره هو أن المجلس التشريعي لم يكن في وسعه أن يفعل غير ذلك».

«المجلس التشريعي؟» فكرت سكارلت وهي تتنفس الصعداء. كانت تهتم قليلاً بالمجلس التشريعي، لأنها كانت تشعر أن إجراءاته لم تكن لتؤثر عليها إلا قليلاً، وما كان يخيفها هو موضوع هيجان الجنود الشماليين ثانية.

- «ماذا ينوي المجلس التشريعي أن يفعل الآن؟».

- «لقد رفض التصديق على التعديل نهائياً» قال غراندبا ميريويذر وفي صوته نغم من كبرياء، «الأمر الذي سيري الشماليين».

- «وسندفع الثمن غالياً... أرجو عفوك يا سكارلت» قال آشلي.

- «ها، التعديل؟» استوضحت سكارلت وهي تحاول أن تتظاهر بالذكاء.

لقد كانت السياسة تقع فيما وراء اهتمامها، ونادراً ما بددت الوقت في التفكير فيها. كان قد صدق على تعديل ثالث عشر فيما

مضى أو ربما كان هو التعديل السادس عشر، ولكن ماذا كان يعني التصديق، لم يكن لديها أية فكرة، بينما كان الرجال يبتهجون عادة فيما يتعلق بهذه الأمور، وظهرت على وجهها أمارات النقص في وعيها، وابتسم آشلي.

- «إنه التعديل الذي يسمح للزنوج بالتصويت كما تعلمين» أوضح آشلي، «قدم للمجلس التشريعي فرفض أن يصادق عليه».

- «ما أحمقهم! أنت تعرف أن الشماليين سيفرضونه على أعناقنا!».

- «وهذا ما عنيته بقولي إننا سندفع الثمن غالياً» قال آشلي.

- «إني فخور بالمجلس التشريعي، فخور بحكمته!» صاح العم هنري.

- «لن يستطيع الشماليون أن يفرضوه على أعناقنا إن نحن رفضنا قبوله».

- «يستطيعون وسيفعلون ذلك» أجاب آشلي بصوت هادئ، إلا أن عينيه كانتا تنطقان بالقلق «الأمر الذي سيزيد الأوضاع صعوبة بالنسبة إلينا».

- «أجل يمكن أن تزداد الأوضاع سوءاً، حتى عما هي عليه الآن. هبي أنه أصبح لدينا مجلس تشريعي زنجي؟ وحاكم زنجي؟ هبي أن الحكم العسكري صار أقسى مما هو الآن؟».

فاتسعت عينا سكارلت من الرعب عندما دخل عقلها بعض الفهم.

- «كنت أحاول أن أفكر ماذا سيكون الأفضل لجورجيا، الأفضل لنا جميعاً» قال آشلي وقد تقلص وجهه، «أيكون من الحكمة أن نحارب هذا القانون كما فعل المجلس التشريعي، ونثير الشمال ضدنا. أترضى بذلك أم لا. أم... نبلع كبرياءنا على أحسن صورة مستطاعة ونخضع بلين ونتغاضى عن كل الموضوع بالسهولة الممكنة؟ إن الأمر سيؤدي

إلى النتيجة ذاتها في النهاية. إننا عاجزون، إننا مضطرون إلى أن نبلع الجرعة التي صمموا على أن يقدموها لنا، وربما يكون من الأفضل لنا أن نتناولها دون أن نرفس».

لم تستطع سكارلت سماع كلمات آشلي إلا بصعوبة، فمن المؤكد أن فحواها التامة قد تجاوزت عقلها. لقد كانت تعرف أن آشلي، كعادته دائماً، كان يرى كلا جانبي هذه القضية، بينما كانت هي ترى جانباً واحداً فقط، وهو كيف يمكن أن تؤثر فيها هذه الصفعة على وجوه الشماليين.

- «هل تريد أن تنقلب إلى راديكالي وتكون مع الجمهوريين يا آشلي؟» سخر غراندبا ميريويذر بفظاظة.

وخيَّم على الجمع صمت متوتر، ورأت سكارلت يد آرشي تتجه بحركة سريعة إلى مسدسه، ثم تتوقف. لقد كان آرشي يعتقد، ومراراً ما صراح باعتقاده أن غراندبا كان مجرد كيس هوائي عجوز، فلم يكن ينوي أن يسمح له بإهانة زوج السيدة ميلاني، حتى ولو كان زوج السيدة ميلاني يتكلم كأحمق.

واختفى الارتباك فجأة من عيني آشلي، وتوهج فيهما غضب عارم، ولكنه قبل يستطيع أن التكلم، هاجم العم هنري غراندبا قائلاً:

- «أنت أيها الإله - أنت أيها الآفة - أرجو عفوك يا سكارلت، يا غراندبا أيها المغفل، لا تقل ذلك لآشلي!».

- «إن في وسع آشلي أن يهتم بنفسه دون أن تدافع عنه» قال غراندبا ببرود، «ثم إنه يتكلم كأنه سكالاواغ. نخضع، يا للجحيم! إني أرجو عفوك يا سكارلت».

- «أنا لم أكن أؤمن بالانفصال» قال آشلي وصوته يرتجف من الغضب، «ولكن عندما انفصلت جورجيا وقفت إلى جانبها. وأنا لم

أكن أؤمن بالحرب، ولكني اشتركت فيها، وأنا لا أؤمن في جعل الشماليين أكثر جنوناً مما هم الآن، ولكن إذا كان المجلس التشريعي قرر أن ينفذ ذلك، فسأقف إلى جانب المجلس التشريعي، إني -».

- «آرشي» قال العم هنري فجأة، «سق عربة الآنسة سكارلت إلى البيت، فليس لها مكان هنا. إن السياسة ليست من شأن النساء بأي حال من الأحول. وسترتفع شتائم بعد دقيقة، هيا يا آرشي، وعمي مساء يا سكارلت».

وبينما كانت العربة تدرج في شارع بيتشتري، كان قلب سكارلت يخفق بسرعة من الخوف، هل سيكون لهذا القرار الأحمق الذي اتخذه المجلس التشريعي أي تأثير على سلامتها؟ هل سيثير حنق الشماليين كثيراً بحيث يمكن أن تخسر معمليها؟

- «على كل حال يا سيدتي» دمدم آرشي، «لقد سمعت أناساً يتحدثون عن أرانب تبصق في وجوه كلاب، ولكني لم أرَ ذلك حتى الآن. ويمكن أن يهتف أعضاء المجلس التشريعي كذلك: «مرحى لجف ديفيس وللحلف الجنوبي» وذلك من أجل مصلحتهم - ومصلحتنا، على أن الشماليين المحبين للزنوج قد قر رأيهم على أن يجعلوا الزنوج رؤساءنا، ومع ذلك فلا بد لك من أن تكبري روح أعضاء المجلس الشريعي».

- «أكبرها؟ يا للجحيم! أكبرها؟ ينبغي قتلهم. إن قرارهم سيدفع الشماليين إلى أن يرقدوهم علينا كما ترقد بطة فوق بقة يونيو، لماذا لم يستطيعوا أن يصا - يصا - الشيء الذي كان مفروضاً أن يفعلوه، ويهدئوا الشماليين عوضاً عن إثارتهم ثانية؟ إنهم سيضطروننا إلى أن نخضع، بينما من الممكن أن نخضع الآن كما سنخضع فيما بعد».

فرمقها آرشي بعين باردة.

- «نخضع من دون قتال؟ إن النساء لا يشعرن بكبرياء أكثر مما تشعر الماعز».

* * *

عندما استأجرت سكارلت عشرة أشقياء، خمسة لكل معمل، وفى آرشي بوعيده، ورفض أن تكون له أية علاقة معها، ولم تجد في إقناعه كل توسلات ميلاني وفرانك، كي يعود إلى قيادة عربتها. غير أنه رضي بطيبة خاطر أن يسوق عربة لميلاني وإنديا وبيتي وصديقاتهن في المدينة، ولكن ليس لسكارلت، بل حتى إنه رفض أن يسوقها للسيدات الأخريات إذا كانت سكارلت معهن في العربة. لقد كان من المضايق أن يكون الأرعن العجوز قاضياً عليها، وكان أكثر مضايقة أن تؤيد عائلتها وأصدقاؤها الرجل العجوز فيما ذهب إليه.

كان فرانك يتوسل إليها كي لا تقدم على هذه الخطوة، كما أن آشلي رفض في البداية أن يشغل أشقياء، ولكنه اقتنع رغم إرادته بعد دموع وتضرعات ووعود بأنها عندما تتحسن الظروف ستستأجر زنوجاً محررين. وكذلك جاهر الجيران باستنكارهم لهذا العمل، ووجد فرانك وبيتي وميلاني أن من العسير عليهم رفع رؤوسهم بين الناس، وحتى بيتر ومامي أعلنا أن استخدام الأشقياء كان فألاً سيئاً وأنه لن ينتج عن ذلك أي خير. وهكذا اتفق جميع الناس على أن من الخطأ استغلال بؤس وتعاسة الآخرين:

- «إنك لم تكن تعارض أبداً في تشغيل العبيد!» صاحت سكارلت ساخطة.

ها، ولكن ذلك كان أمراً يختلف عن هذا، إذ لم يكن العبيد بؤساء ولا تعساء، لا كانوا أفضل حالاً بكثير وهم تحت نظام العبودية مما هم عليه الآن تحت نظام الحرية، وإذا لم تكن تصدق ذلك، فلتتطلع حولها فقط! ولكن كما هي العادة، كان تأثير المعارضة يزيد

في تصميم سكارلت على خطتها. وهكذا عزلت هيو من إدارة المعمل، وعيَّنته سائق عربة خشب، وأنهت التفاصيل النهائية لشروط استئجار جوني كاليغر.

كان يبدو أن كاليغر هو الشخص الوحيد من بين الذين كانت تعرفهم، الذي كان يستحسن فكرة استخدام الأشقياء، فلقد أومأ برأسه المستطيل موافقاً، ثم قال إنه كان إجراء حذقاً. بينما نظرت سكارلت إلى الخيال السابق الصغير الحجم، الواقف بثبات فوق ساقيه المقوَّستين القصيرتين ووجهه الأريب جدي كوجوه رجال الأعمال، وفكرت «إن كل الذين سمحوا له بركب خيولهم، لم يكونوا يهتمون بإنضاء تلك الخيول، أما أنا فلن أدعه يقترب أكثر من عشرة أقدام من أي من خيولي».

غير أنها لم تكن نادمة على إسنادها إليه أمر زمرة من الأشقياء.

- «وسأكون حر التصرف بزمرة الأشقياء؟» استوضح وعيناه باردتان كعقيق رمادي.

- «حر التصرف. وكل ما أطلبه منك هو أن تحافظ على ذلك المعمل في شغل دائم وتقدم الخشب في الوقت الذي أريده فيه، وبالقدر الذي أريده».

- «إني في إمرتك» قال جوني باقتضاب، «سأخبر السيد ولبورن أني سأترك العمل معه».

وعندما راح يتمايل خلال جمهور البنائين والنجارين وحَمَلة العوارض الخشبية، أحست سكارلت بالفرج وارتفعت معنوياتها. لقد كان جوني رجلها حقاً، فقد كان صلباً صارماً لا يعرف العبث، وكان فرانك يدعوه بازدراء «إيرلندي مخلوق لأعمال المناجر» غير أن سكارلت كانت تقدره لذلك السبب ذاته. كان تعرف أن إيرلندياً يتمتع بعزم لبلوغ هدفه كان رجلاً قيّماً يستحق التوظيف، من دون اعتبار لما

يمكن أن تكون عليه أخلاقه الشخصية. وأحست نحو جوني بقرابة أقوى منها نحو كثير من الرجال من طبقتها، لأنه كان يعرف قيمة المال.

وخلال الأسبوع الأول الذي أشرف فيه جوني على العمل، حقق جميع آمالها، لأنه أنجز بخمسة أشقياء عملاً أكثر من أي عمل كان هيو قد أنجزه بعشرين من الزنوج المحررين. وفوق ذلك، أمَّن لسكارلت فراغاً من الوقت أطول مما كانت قد نعمت به منذ قدمت إلى أتلانتا في السنة الماضية، لأنه لم يكن يرغب في حضورها إلى المعمل، الأمر الذي أعلنه بصراحة.

- «اهتمي بواجبك في البيع ودعيني أهتم بواجبي في قص الخشب» قال باقتضاب، «فمعسكر الأشقياء ليس مكاناً لائقاً بالسيدة وإن لم يخبرك أحد بذلك، فإن جوني كاليغر يخبرك به الآن. إني أؤمن لك مطلوبك من الخشب أليس كذلك؟ والواقع، أني لم أفهم لماذا ينبغي أن أضايَق كل يوم كالسيد ويلكس، وهو الذي يحتاج إلى مراقبة ولست أنا».

وهكذا ظلت سكارلت بعيدة عن معمل كاليغر كارهة، لأنها خشيت أن يترك العمل إن هي زارته مراراً، الأمر الذي سيكون وبالاً عليها. ولذعتها ملاحظته في أن آشلي كان في حاجة إلى مراقبة، لأن تلك الملاحظة كانت تنطق بحقيقة أكثر مما كانت تريد هي أن تعترف به. لقد كان آشلي ينتج بواسطة الأشقياء أفضل قليلاً مما كان ينتج بواسطة العمال الأحرار، مع أنه لم يكن يستطيع معرفة السبب. وأكثر من ذلك كان يبدو كأنه خجل من تشغيل الأشقياء، وكان لديه القليل ليخبرها به هذه الأيام.

وكانت سكارلت قلقة من جرّاء هذا التغير الذي طرأ على آشلي، فقد وَخَطَ بعض الشعر الشائب رأسه الآن، وغدت كتفاه تنوءان بعبء

كبير، ونادراً ما كان يبتسم. إنه لم يعد آشلي الظريف الذي كان قد أسر خيالها سنين عديدة من قبل. وإنما كان يبدو كرجل يضنيه سراً ألمٌ قلَّ أن يُحتمل. كان يكتنف فمه مظهر كئيب صارم، مظهر حيَّرها وآلمها. وساورتها الرغبة في أن تجذب رأسه بقوة وتشده إلى كتفها، وتربت الشعر الشائب، وتصيح به: «أخبرني ما الذي يقلقك؟ إني أزيل أسبابه. إني أسوّي الأمر لك!».

ولكن مظهره الرسمي الشارد أبقاها على بُعد ذراع منه.

43

كان اليوم أحد أيام ديسمبر النادرة، حيث كانت الشمس حارة كأيام صيف هندي تقريباً. كانت الأوراق الحمراء الجافة لا تزال عالقة بأشجار السنديان في ساحة منزل العمة بيتي، وكانت خضرة خفيفة مصفرة ما انفكت متشبثة بالعشب الميت. وخرجت سكارلت، والطفلة بين ذراعيها، إلى الشرفة الجانبية حيث جلست على كرسي هزاز في بقعة تغمرها أشعة الشمس. كانت ترتدي فستاناً جديداً من قماش صوفي مزركش بياردات كثيرة من الشريط الأسود المتعرج، وكانت تضع على رأسها قبعة ذات شريط للاستعمال البيتي كانت العمة بيتي قد صنعتها لها، وكان كلا الثوب والقبعة يناسبانها جداً، وكانت تعرف ذلك وتسر بهما كثيراً. ما كان أعظم أن تبدو جميلة مرة ثانية، بعد الشهور الطويلة من المظهر الفظيع للغاية الذي كانت تظهر به!

وبينما كانت جالسة تهز الطفلة، وتدندن في سرها، سمعت وقع حوافر آتية من الشارع الجانبي، فحدقت بفضول خلال زاوية الدوالي الذابلة على الشرفة، ورأت ريت باتلر راكباً باتجاه البيت.

كان قد غاب عن أتلانتا طوال شهور، بعد وفاة جيرالد تماماً، وقبل ولادة إيلا لورينا بوقت طويل. وكانت سكارلت قد افتقدته غير أنها تمنت الآن بحرارة لو كانت توجد وسيلة ما تجنبها رؤيته. والحقيقة أن منظر وجهه الأسمر حمل شعوراً من الذعر الآثم إلى صدرها. لقد

كانت ترقد في ضميرها قضية تتعلق بآشلي، قضية لم تكن ترغب في أن تبحثها مع ريت. ولكنها أدركت أنه سيفرض بحثها فرضاً، مهما تكن غير ميالة إلى بحثها.

وجذب عنان فرسه أمام البوابة، وطوح بجسده بخفة إلى الأرض، وفكرت وهي ترنو إليه بعصبية، أنه كان يبدو تماماً كصورة للإيضاح في الكتاب الذي كان ويد يضايقها دائماً كي تقرأ له منه بصوت مرتفع.

«كل ما يحتاج إليه هو قرطان وخنجر بحار بين أسنانه» فكرت، «على كل حال، سواء أكان قرصاناً أم لا، فهو لن يقطع رقبتي اليوم إذا استطعت تحمّل وجوده».

وعندما سار في الممشى حيَّته واستدعت أجمل ابتسامة. ما كان أعظم حظها لأنها كانت ترتدي الفستان الجديد والقبعة اللائقة ولأنها كانت تبدو جميلة جداً. وعندما استعرضتها عيناه، أدركت أنه هو أيضاً فكر أنها جميلة.

- «طفل جديد! حسناً يا سكارلت إنه مفاجأة!» وضحك منحنياً ليزيح الشرشف عن وجه إيلا لورينا الصغير القبيح.

- «لا تكن أحمق» قالت ووجهها يحمر خجلاً، «كيف حالك يا ريت؟ لقد غبت مدة طويلة».

- «أجل مدة طويلة، دعيني أحمل الطفل يا سكارلت. ها، إني أعرف كيف أحمل الأطفال. إني أنعم بكفاءات غريبة كثيرة. على كل حال، من الأكيد أنه يشبه فرانك، يشبهه في كل شيء ما عدا الشاربين. ولكن أمهليه بعض الوقت».

- «أرجو ألّا يكون كذلك. إنه بنت».

- «بنت! إن ذلك أفضل، إن الصبيان مزعجون كثيراً، إياك أن تلدي صبياً آخر يا سكارلت».

وكادت تجيب بمرارة أنها لم تكن تنوي أن تنجب أي طفل آخر،

صبياً كان أم بنتاً، ولكنها أمسكت عن الكلام في الوقت المناسب، وابتسمت باحثة في عقلها بسرعة عن موضوع للحديث، الذي سيؤجل حلول اللحظة النحسة، عندما سيحين موعد الموضوع الذي كانت تخشى بحثه.

- «هل نعمت برحلة طيبة يا ريت! أين ذهبت هذه المرة؟».

- «ها، كوبا - نيو أورليانز - وأماكن أخرى. خذي الطفلة يا سكارلت، فقد طفق لعابها يسيل، ولن أستطيع أن أبلغ منديلي. إنها طفلة جميلة. إني واثق بذلك. غير أنها تبلل صدر قميصي».

فأعادت الطفلة إلى حجرها، بينما أجلس ريت نفسه بتوان على الدرابزين مخرجاً سيكاراً من علبته الفضية.

- «إنك تذهب دائماً إلى نيو أورليانز» قالت ومطت شفتيها قليلاً، «وأنت لم تخبرني أبداً ماذا تفعل هناك».

- «إنني رجل شغال يا سكارلت، وقد يكون عملي هو الذي يأخذني هناك»

- «شغال! أنت!» وضحكت بوقاحة، «أنت لم تشتغل أبداً طوال حياتك. أنت خامل جداً. كل ما تفعله هو تقديم المال للكاربت بكرز ليقوموا بسرقاتهم ثم تأخذ نصف الأرباح، كما أنك ترشو الضباط الشماليين ليشاركوك في خطط سلبنا أموال الضرائب».

فألقى رأسه إلى الوراء واسترسل في الضحك.

- «وما أعظم رغبتك في أن يكون لديك مال كافٍ لرشوة الضباط كي يصير في وسعك أن تفعلي مثلما أفعل».

- «إن مجرد الفكرة -» وشرعت ترتعش.

- «ولكن قد تجمعين نقوداً كافية لتتعاطي الرشوة على مقياس واسع يوماً ما. ربما أصبحت غنية بواسطة أولئك الأشقياء الذين استأجرتهم».

- «ها» قالت وهي مرتبكة قليلاً، «كيف اكتشفت أمر عمالي بهذه السرعة؟».

- «لقد وصلت المدينة الليلة الماضية، وقضيت الأمسية في حانة الفتاة العصرية، حيث يسمع المرء جميع أنباء البلد. إنها بورصة الأحاديث، أفضل من حلقة خياطة سيدات، هناك أخبرني الجميع أنك استأجرت زمرة أشقياء، وعيَّنت كاليغر القصير القامة القبيح مسؤولاً عنهم، ليشغلهم حتى الموت».

- «تلك كذبة» قالت غاضبة، «فهو لن يشغلهم حتى الموت، وسأراقب ذلك».

- «ستراقبين؟».

- «طبعاً، سأراقب. كيف يسعك أن تتطرق إلى هذه الأمور؟».

- «ها، أرجو عفوك يا سيدة كنيدي! إني أعرف أن غاياتك هي فوق التأنيب دائماً. وعلى كل حال، إن جوني كاليغر عربيد صغير بارد إن كنت قد رأيت عربيداً. فمن الأفضل أن تراقبيه وإلا ستعانين متاعب عندما يقوم المفتش بجولته».

- «اعتنِ بشؤونك وسأعتني أنا بشؤوني» قالت ساخطة، «وأنا لا أريد أن أتحدث عن الأشقياء أكثر من هذا الحديث. لقد وقف الجميع موقفاً مقيتاً فيما يتعلق بهم. إن زمرتي هي من شأني أنا - وأنت لم تخبرني حتى الآن ماذا تفعل في نيو أورليانز، فأنت تذهب هنالك مراراً عديدة، الأمر الذي دفع جميع الناس إلى القول -» وصمتت هنيهة. ولم تكن قد عزمت على أن تقول كل هذا.

- «ماذا يقولون؟».

- «على كل حال - إن لك حبيبة هناك، وإنك ستتزوج بها. هل ستتزوج يا ريت؟».

كان الفضول يملأها فيما يتعلق بهذا الموضوع منذ مدة طويلة

بحيث إنها لم تستطع الامتناع عن توجيه هذا السؤال الصريح له. وانتابتها غصة خفيفة غريبة من الحسد من جرّاء فكرة زواج ريت، مع أنها لم تكن تعرف سبب تلك الغصة.

وفجأة توسّعت عيناه الرقيقتان وتيقظتا واستمر يحدّق فيها إلى إلى أن زحفت حمرة ضعيفة على وجنتيها.

- «هل يهمك ذلك كثيراً؟».

- «الواقع أني أمقت أن أخسر صداقتك» قالت متكلفة الجد. وانحنت لتجذب الشرشف أقرب إلى رأس إيلا لورينا وهي تحاول أن تبدو عديمة الاهتمام.

وفجأة ضحك ضحكة قصيرة ثم قال: «انظري إليَّ يا سكارلت» فرفعت بصرها كارهة، وحمرة وجهها تزداد، «في وسعك أن تخبري أصدقاءك الفضوليين أنني عندما أتزوج، سيكون دافع زواجي ذاك هو أني لم أستطع الحصول على المرأة التي أريدها بأي طريقة سوى الزواج. وإلى الآن لم أرغب في امرأة رغبة قوية جداً تدفعني إلى الزواج بها».

فتولتها الحيرة والضيق الحقيقيين، لأنها تذكرت تلك الليلة التي كانا يجلسان فيها على هذه الشرفة ذاتها خلال الحصار، عندما قال: «إني لست رجل زواج» ثم اقترح عرضاً أن تكون خليلته - وتذكرت أيضاً اليوم الرهيب عندما كان في السجن، وأحست بالعار بفعل تلك الذكرى. وغمرت وجهه ابتسامة بطيئة حقودة وهو يقرأ عينيها.

- «ولكني سأشبع فضولك المبتذل لأنك سألت سؤالاً صريحاً كهذا. ليس ما يأخذني إلى نيو أورليانز حبيبة، إنما طفل، صبي صغير».

- «صبي صغير!» وأزالت صدمة هذا النبأ غير المتوقع اضطرابها.

- «أجل، إنه تحت وصايتي الشرعية، وإني مسؤول عنه. إنه في المدرسة في نيو أورليانز. وإني أذهب هناك مراراً كي أراه».

- «وتأخذ له الهدايا؟». وهكذا فكرت في أن ذلك هو السبب في أنه يعرف أي نوع من الهدايا يحبه ويد.

- «أجل» قال كارهاً باقتضاب.

- «الواقع أني لم أكن أعلم ذلك أبداً. هل هو جميل؟».

- «أجمل مما تقتضيه مصلحته».

- «هل هو صبي صغير لطيف المعشر؟».

- «لا، إنه مشاغب حقيقي. أتمنى لو لم يولد. إن الصبيان مخلوقات متعبة. هل هناك أي شيء آخر تريدين معرفته؟» وفجأة بدا ساخطاً ثم قطب جبينه كأنه ندم على التصريح بهذه الحقائق.

- «لا، إذا كنت لا ترغب في أن تخبرني أكثر» قالت بترفع مع أنها كانت تتحرق على أنباء أكثر، «إنما لا أستطيع أن أتصورك بزي الأوصياء» وضحكت آملة أن تربكه.

- «لا، أنا لا أفترض أنك تستطيعين، فخيالك محدود جداً». ولم يزد على قوله هذا، وراح يدخن سيكاره في صمت لهنيهة، بينما كانت سكارلت تبحث عن ملاحظة سليطة كملاحظته، ولكنها لم تستطع العثور على شيء.

- «سأكون ممتناً إن لم تفشي كلمة من هذا الحديث لأي إنسان» قال أخيراً، «رغم أني أفترض أن طلب السر من امرأة هو طلب المستحيل».

- «إني أستطيع أن أحفظ السر» قالت بكبرياء جريحة.

- «تستطيعين؟ إن من الجميل أن يعرف الإنسان أموراً غير متوقعة عن الأصدقاء. والآن، كفي عن التجهم يا سكارلت. إني آسف

لوقاحتي، غير أنك تستحقينها لتدخلك فيما لا يعنيك. ابتسمي لي ودعينا نبتهج لدقيقة أو دقيقتين قبل أن أبدأ بخوض موضوع غير سار».

«يا للّه!» هجست سكارلت، «سيتكلم الآن عن آشلي والمعمل» وأسرعت تبتسم وتري غمازتيها كي تصرفه عن الموضوع، «وإلى أي مكان آخر ذهبت يا ريت؟ فأنت لم تمكث في نيو أورليانز طوال هذا الوقت، أليس كذلك؟».

- «لا، كنت في شارلستون في آخر شهر. لقد توفي والدي».

- «آه، إني متأسفة».

- «لا تتأسفي فأنا واثق بأنه لم يحزن على موته -».

- «ريت، ما أفظع ما تقول!».

- «وسيكون أشد فظاعة بكثير إن أنا تظاهرت بالحزن في حين أني لست حزيناً، أليس كذلك؟ إذ لم يكن هناك أي محبة بيني وبينه. وأنا لا أستطيع أن أذكر متى كان السيد العجوز راضياً عني. لقد كنت أشبه والده شبهاً عظيماً جداً، وكان هو غير راضٍ عن والده قلبياً. وعندما كبرت، أصبح عدم رضاه عني كراهية صريحة أعترف أني لم أعمل غير القليل من أجل تغييرها، لقد كانت جميع الأشياء التي أراد والدي أن أعملها وأتحلى بها أشياء مضايقة. وأخيراً طردني إلى الدنيا دون أن يكون في حوزتي بنس واحد، ودون أن تكون لدي أي خبرة من أي نوع، لتجعلني أي شيء، سوى سيد شارلستوني، ومطلق نار ماهر ولاعب بوكر ممتاز. ثم ظهر لي أنه اعتبر من الإهانة الشخصية له أني لم أتضور جوعاً بل استخدمت لعبي البوكر بنجاح فائق وأعلت نفسي بشكل ممتاز بواسطة القمار - لقد اغتاظ كثيراً من أن يغدو باتلري مقامراً، بحيث إني عندما عدت إلى البيت أول مرة، منع أمي من رؤيتي. وطوال أيام الحرب، عندما كنت أمارس التهريب من

شارلستون، كانت أمي تضطر إلى أن تكذب وتتسلل لتراني. وطبيعي أن لا يزيد ذلك من حبي له».

- «ها، لم أكن أعلم بكل ذلك».

- «لقد كان، كما يقال، سيداً مسناً جليلاً من المدرسة القديمة، الأمر الذي يعني أنه كان جاهلاً غليظ العقل عديم التسامح، غير قادر على التفكير بأي أسلوب، سوى ما يفكر فيه السادة الآخرون أبناء المدرسة القديمة. وكان الجميع يكبرونه لأنه بترني من العائلة واعتبرني ميتاً (إذا كانت عينك اليمنى تؤذيك فاقتلعها). ولقد كنت أنا عينه اليمنى، ابنه الأكبر، فاقتلعني منتقماً».

وابتسم قليلاً، وبدت عيناه صارمتين بتأثير الذكرى الشيقة.

- «وعلى كل حال، لقد كان في وسعي أن أصفح عن كل ذلك. غير أني لا أستطيع أن أصفح عما فعل بأمي وبشقيقتي منذ انتهاء الحرب. لقد كانتا معدمتين تقريباً، لأن بيت المزرعة كان قد أحرق، ولأن حقول الأرز عادت إلى ما كانت عليه، أراضي مستنقعات. كما أننا فقدنا بيتاً في المدينة بسبب الضرائب، ولذا اضطرتا إلى العيش في غرفتين لم تكونا تناسبان حتى الزنوج. وعندما بعثت النقود إلى والدتي، أعادها والدي إليّ - نقود نجسة! فهمت! ثم إني ذهبت إلى شارلستون عدة مرات وأعطيت شقيقتي نقوداً بطريقة سرية - ولكن والدي كان يكتشف الأمر دائماً ويقيم الدنيا عليها ويُقعدها، إلى أن أضحت حياتها لا تستحق أن تحيا، يا لها من فتاة مسكينة! وهكذا كانت النقود ترد إليّ، ولست أعرف كيف كانتا تعيشان... بلى إني أعرف. كان أخي يعطيهما ما يستطيع، مع أنه لا يملك الكثير للعطاء، ولا يرضى أن يأخذ مني شيئاً كذلك - فنقود المضارب مشؤومة، فهمت! وعلى إحسان أصدقائهما أيضاً. لقد كانت عمتك يولالاي

رحيمة جداً، إنها إحدى أحسن صديقات أمي كما تعرفين. لقد قدمت لها الثياب و - يا للّه الرحيم! أمي تعيش على الإحسان!».

كانت هذه هي إحدى المرات القليلة التي رأت سكارلت ريت خلالها من دون قناعه. كان وجهه صارماً بكراهية شريفة لأبيه، وبكرب على أمه.

- «عمتي يولالاي! ولكن يا للّه العظيم يا ريت، إنها لا تملك شيئاً زيادة عما أبعثه لها!».

- «ها، إذن أنت مصدر عطاياها! ما أحسن هذا منك يا عزيزتي. أن تتباهي بشيء كهذا في وجه مهانتي، ينبغي أن تدعيني أرد لك معروفك».

- «إني أتقبله بسرور» قال سكارلت وفمها يتكور فجأة بابتسامة قابلها هو بابتسامة أخرى.

- «آه يا سكارلت، أرأيت كيف أن فكرة الدولار تجعل عينيك تتألقان؟! هل أنت واثقة بأنه ليس في عروقك دم اسكتلندي أو ربما يهودي مع الدم الإيرلندي؟».

- «لا تكن مقيتاً. إني لم أقصد أن أجابهك بموضوع العمة يولالاي. ولكن، إني أصدقك القول إنها تعتقد أني مجبولة من المال، فهي تكتب لي دائماً طالبة المزيد، واللّه يعلم أن لدي من الأعباء ما يكفيني، دون أن أعيل كل من في شارلستون. ممَّ توفي والدك؟».

- «من مجاعة لطيفة، كما أعتقد... وآمل. لقد خدمته كما ينبغي، وكان يريد أن يجعل أمي وروز ماري تتضوران جوعاً معه. والآن، وقد مات أستطيع أن أساعدهما. لقد اشتريت لهما منزلاً في حي باتري، كما أن لديهما خدماً للاعتناء بهما. ولكن طبعاً، ليس في وسعهما أن تدعا أحداً يعرف أن مصدر المال هو أنا».

- «لم لا؟».

- «عزيزتي، من الأكيد أنك تعرفين شارلستون! لقد زرتها. قد تكون عائلتي فقير، إلا أنها تحتل مركزاً يجب المحافظة عليه. وليس في وسعهما المحافظة عليه إذا ما عرف أن مال القمار ومال المضاربة ومال كاربت بكرز يسند هذا المركز. ولذا أشاعتا أن والدي ترك لهما نقوداً وفيرة كان قد أمّن بها على حياته، وأنه كان قد أعوز نفسه وجوعها حتى الموت، كي يستمر في الدفع من أجل أن يؤمّن لهما الحياة بعد موته. وهكذا ينظر إليه الآن كسيد عظيم من المدرسة القديمة، أعظم مما كان ينظر إليه سابقاً. . . وفي الحقيقة، كشهيد في سبيل عائلته. . . إني أرجو أن يكون الآن يتقلب في قبره، لمعرفته أن أمي وروز ماري مرتاحتان رغم جهوده. . إني، نوعاً ما، آسف لأنه مات لأن كان يريد أن يموت. . . لأنه كان يسعده جداً أن يموت».

- «لماذا؟».

- «ها، لقد مات في الحقيقة، عندما استسلم الجنرال لي. ، أنت تعرفين ذلك الطراز من الرجال. لم يكن في وسعه أبداً أن يكيف نفسه مع الظروف الجديدة، بل كان يقضي وقته في الحديث عن الأيام القديمة الطيبة».

- «ريت، هل جميع الناس المسنين من ذلك الطراز؟» سألته وهي تفكر في جيرالد وما كان ويل قد قاله عنه.

- «لا باللّه! انظري فقط إلى عمك هنري وذلك الهر البري العجوز، السيد ميريويذر، لقد ذكرت هذين لأسمّي لك اثنين فقط لقد بدآ مرحلة جديدة من الحياة عندما زحفا إلى الجبهة مع الحرس الوطني، وإنه ليبدو لي أنهما أصبحا أصغر سناً وأكثر حيوية منذ ذلك الحين. لقد قابلت الرجل العجوز ميريويذر في هذا الصباح، وكان يسوق عربة فطير رينيه، ويلعن الحصان كأنه سائق بغل في الجيش، وأخبرني أنه يشعر بأنه أصبح أصغر من عمره الحقيقي بعشرين سنة،

منذ أن تخلص من البيت ومن بلادة كنته، وباشر في قيادة العربة. وكذلك عمك هنري، فإنه تسرّه منازلة الشماليين داخل المحكمة وخارجها، وهو يدافع عن الأرامل والأيتام ضد الكاربت بكرز. . . وأخشى أن يكون ذلك من دون مقابل. ولو لم تقع حرب، لكان قد تقاعد منذ زمن طويل ومرض بداء المفاصل. . . لقد انقلبا شابين ثانية لأنهما أضحيا ذوي نفع ثانية، يشعران أن مجتمعها في حاجة إليهما. وهما يحبان هذا العهد الجديد الذي يقدم للعجزة فرصة أخرى. ولكن هناك كثير من الناس، من الشباب الذين يشعرون شعور والدي ووالدك. إنهم لا يستطيعون أن يتكيفوا مع الظروف الجديدة ولا يريدون ذلك. وهذا يوصلني إلى الموضوع المكدر الذي أريد بحثه معك يا سكارلت».

فأربكها انتقاله المفاجئ كثيراً بحيث إنها أجابت متلعثمة: «ماذا. . . ماذا!»، وأنَّت في سرّها: «آه، يا إلهي! إنها آتية، إني لأتساءل ما إذا كان في وسعي إخضاعه بالتملق؟».

- «كان ينبغي ألّا أتوقع منك صدقاً أو شرفاً أو معاملة مستقيمة وأنا أعرفك كما أعرفك، ولكني وثقت بك بحماقة».

- «أنا لا أعرف ماذا تعني».

- «أعتقد أنك تعرفين. وعلى كل حال، فإنك تبدين آثمة جداً. اسمعي، بينما كنت أسير راكباً في شارع آيفي منذ فترة قصيرة، وأنا في طريقي إلى زيارتك، وإذا بالسيدة ويلكس تحيِّيني من خلف أحد الأسيجة! طبعاً وقفت وتبادلت الحديث معها».

- «حقاً؟».

- «أجل، لقد تبادلنا حديثاً ممتعاً، وأخبرتني أنها كانت دائماً ترغب في أن تجعلني أعرف أنها كانت تفكر في عظم شجاعتي لأني

وجهت ضربة من أجل الحلف، حتى لو كان ذلك في الساعة الحادية عشرة».

- «ها، هراء! إن ميلي غبية. كان من الممكن أن تموت تلك الليلة بسبب إقدامك على عملك البطولي ذاك».

- «أتصور أنها كان يمكن أن تفكر في أن حياتها ضحيت في سبيل قضية مجيدة. وعندما سألتها ماذا تفعل في أتلانتا، بدت مشدوهة تماماً بسبب جهلي، وأخبرتني أنهم يعيشون هنا الآن، وأنك تلطفت فأشركت آشلي ويلكس في معملك».

- «حسناً، وماذا لو فعلت ذلك؟» استوضحت سكارلت باقتضاب.

- «عندما أقرضتك النقود لتشتري ذلك المعمل، وضعت شرطاً واحداً وافقت عليه. وكان ذلك الشرط ينص على أن من الواجب أن لا تذهب نقودي لإعالة آشلي ويلكس».

- «إنك تتصرف تصرفاً سيئاً جداً. لقد رددت لك نقودك، والمعمل ملكي، والذي أفعله به من شأني أنا».

- «هل لديك مانع من أن تخبريني كيف جمعت المال لتسديد قرضي؟».

- «جمعته من بيع الخشب طبعاً».

- «جمعته من المال الذي أقرضته لك لأمنحك نقطة انطلاق. إن ذلك هو ما تقصدينه. إن نقودي تستخدم لإعالة آشلي. أنت امرأة عديمة الشرف تماماً، ولو لم تسددي قرضي لكنت قد سررت جداً في أن أطلب إيقافه الآن، وأبيع معملك في المزاد العلني إن لم تستطيعي الدفع».

كان يتكلم باستخفاف، ولكن عينيه كانتا تشعان بالغضب.

وأسرعت سكارلت تنقل القتال إلى أرض العدو:

- «لماذا تبغض آشلي إلى هذه الدرجة الكبيرة؟ إني أعتقد أنك تغار منه».

كان يمكن أن تعض لسانها بعد أن نطقت بهذه الكلمات، فقد ألقى برأسه إلى الوراء وراح يضحك إلى أن احمر وجهها من المهانة.

- «أضيفي الغرور إلى قلة الشرف» قال، «إنك لن تنسي أبداً أنك كنت حسناء المقاطعة. هل ستنسين؟ إنك ستبقين دائماً تفكرين أنك تلك الفتاة الماكرة الفاتنة الصغيرة، التي ترتدي حذاء جلدياً، وأن كل رجل تقابلينه يكاد يموت في سبيل حبك».

- «إني لا أفكر في ذلك أبداً!» صاحت بحدة، «غير أني فقط لا أستطيع أن أرى لماذا تكره آشلي إلى هذه الدرجة، وذلك هو التفسير الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه».

- «حسناً، فكري في شيء آخر أيتها الفاتنة الجميلة، لأن ذلك هو التفسير الخاطئ، وأما بالنسبة إلى كراهيتي لآشلي... فأنا لا أكرهه أكثر مما أحبه. والحقيقة أن عاطفتي الوحيدة نحوه ونحو أمثاله هي الشفقة».

- «الشفقة؟».

- «أجل، وقليل من الازدراء. والآن انتفخي كديك رومي وأخبريني أنه يساوي ألف سفيه مثلي، وأنه ينبغي ألّا أجرؤ على أن أكون وقحاً إلى درجة أشعر معها بالشفقة أو الازدراء نحوه، وعندما تنتهين من الانتفاخ سأخبرك ما أعني إذا كنت مهتمة بالأمر».

- «لا، لست مهتمة».

- «على كل سأخبرك، لأني لا أستطيع أن أتحمل عنك استمرارك في تبنّي وهمك السار فيما يتعلق بغيرتي. إني أشفق عليه لأنه يجب أن يكون ميتاً، وهو ليس ميتاً، وإني أشعر بالازدراء نحوه لأنه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه الآن، بعد أن انقضى عالمه».

لقد كان هناك شيء مألوف لديها في الفكرة التي عبر عنها. لقد كان لديها ذكرى مضطربة من سماعها لكلمات مماثلة، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أين ومتى سمعت بها، كما أنها لم تفكر جدياً في تلك الذكرى لأن غضبها كان شديداً.

- «لو تحقق رأيك لكان جميع الناس المحترمين في الجنوب قد ماتوا».

- «ولو تحققت آراؤهم، فإني أعتقد أن أمثال آشلي يفضلون أن يكونوا ميتين، يرقدون تحت حجارة نظيفة نقش عليها: «هنا يرقد جندي حلفي، مات في سبيل الأرض الجنوبية» أو «هنا مرقد الوسامة واللياقة»... أو من العبارات الأخرى الشائعة التي تكتب فوق القبور».

- «إني لم أرَ السبب!».

- «إنك لا ترين أبداً أي شيء غير مكتوب بحروف يبلغ ارتفاعها قدماً، توضع تحت أنفك مباشرة، أليس كذلك؟ إذا كانوا ميتين فستنتهي متاعبهم ولن يكون هناك مشاكل ليواجهوها، مشاكل ليس لها حلول. وأكثر من ذلك، ستكون عوائلهم فخورة بهم خلال أجيال لا تحصى. ولقد سمعت أن الموتى سعداء، فهل تفترضين أن آشلي ويلكس سعيد؟».

- «كيف لا، طبعاً...» بدأت، ولكنها ما لبثت أن تذكرت النظرة التي كانت تشوب عيني آشلي مؤخراً، ولذلك توقفت عن متابعة الكلام.

- «هل هو أو هيو إلسينغ أو الدكتور ميد سعداء. أسعد مما كان والدي أو والدك؟».

- «قد لا يكونون سعداء كما كانا، لأنهم جميعاً فقدوا أموالهم».

فضحك ريت.

- «ليس فقدانهم المال يا محبوبتي هو السبب، دعيني أخبرك أن السبب هو فقدانهم عالمهم... العالم الذي نشأوا فيه. إنهم كالسمك خارج الماء، أو كالهرر المجنحة، فلقد نُشِّئوا ليكونوا أشخاصاً من نوع معيَّن، وليقوموا بأعمال معيَّنة، وليشغلوا مراكز لائقة معيَّنة، ولكن هؤلاء الأشخاص وهذه الأعمال والمراكز قد زالوا إلى الأبد، عندما وصل الجنرال لي إلى أبوماتوكس. لا تبدي يا سكارلت حمقاء هكذا! ماذا يوجد لآشلي ويلكس ليعمله الآن وقد ضاع بيته وصودرت مزرعته بسبب الضرائب وغدا السادة الوسام كل عشرين ببنس واحد؟ هل يستطيع أن يشتغل برأسه أو بيديه؟ إني أراهن أنك قد خسرت نقوداً بكثرة وبسهولة منذ تسلَّم إدارة معملك ذاك».

- «إني لم أخسر».

- «ما أروع ذلك. هل يمكن أن أراجع دفاترك مساء يوم أحد، عندما تكونين في وقت فراغ؟».

- «يمكنك أن تذهب إلى الشيطان وليس في وقت فراغك. يمكنك أن تذهب الآن، ولن أبالي».

- «يا مدللتي، لقد كنت مع الشيطان وإنه لمخلوق غبي جداً ولن أذهب إليه ثانية... حتى ولو من أجلك... لقد أخذت نقودي عندما كنت تحتاجين إليها حاجة ماسَّة واستعلمتها بعد أن أجرينا تلك الاتفاقية. فقط تذكّري يا خادعتي الصغيرة الغالية أن الوقت سيحين عندما ترغبين في أن تقترضي مني نقوداً أخرى. سترغبين في أن أقرضك بفائدة ضئيلة لا تصدق، كي تستطيعي شراء معامل أخرى وبغال أخرى، وبناء حانات أخرى. وعندئذ، في وسعك أن تصغري من أجل المال».

- «عندما أحتاج إلى نقود سأقترضها من المصرف، أشكرك» قالت ببرود، ولكن صدرها كان يخفق بالسخط.

- «هل ستقترضين من المصرف؟ جرّبي أن تفعلي ذلك، فأنا أملك أسهماً كثيرة في المصرف».

- «حقاً؟».

- «أجل، إني مهتم ببعض المشاريع الشريفة».

- «يوجد مصارف أخرى».

- «مصارف كثيرة جداً، وإذا ما استطعت أن أتدبر الأمر، فلن تستطيعي الحصول على سنت من أي منها. وفي وسعك أن تذهبي إلى مرابي الكاربت بكرز إذا أردت مالاً».

- «سأذهب إليهم بسرور».

- «ستذهبين ولكن بقليل من السرور وذلك عندما تطلعين على أسعار الفائدة التي يتقاضونها يا حلوتي. هناك عقوبات في دنيا العمل للمعاملات المعوجة. كان ينبغي أن تسلكي معي باستقامة».

- «إنك رجل طيب، أليس كذلك؟ رجل غني وقوي النفوذ، ومع ذلك فإنك تضايق الناس التعساء أمثالي وآشلي!».

- «لا تضعي نفسك في مستواه. فأنت لست تعسة، ولن يتعسك شيء، بينما هو رجل تعس وسيظل كذلك ما لم يوجد شخص يدعمه، ويرشده ويحميه، ما دام هو حياً. وليس في نيتي أن أدع مالي يستخدم في مصلحة إنسان كهذا».

- «إنك لم تمانع في مساعدتي عندما كنت تعسة و...».

- «لقد كانت مساعدتي لك مغامرة طيبة يا عزيزتي، مغامرة لاذة. لماذا؟ لأنك لم تلقي نفسك على أقربائك الذكور وتندبي الأيام القديمة، بل خرجت ونشطت، وها إن ثروتك تقوم في أساسها على النقود المسروقة من محفظة رجل ميت، والنقود المسروقة من الحلف. لقد قتلت وسرقت زوجك، وحاولت الزنا والكذب والمعاملة السيئة وكل ضرب من ضروب الاحتيال الفاضح. إنها لصفات تدعو إلى

الإعجاب جميعاً، فقد جعلتك تبدين كشخص ذي عزيمة ومجاذفة مالية رابحة. إن مساعدة الناس الذين يساعدون أنفسهم أمر بهيج. فأنا أقرض مبلغ عشرة آلاف دولار حتى من دون أي سند، إلى ربة البيت الرومانية المسنة تلك، السيدة ميريويذر. لقد بدأت بسلة فطير، وتأملي وضعها الآن، لقد أصبح لديها فرن يستخدم ستة رجال، كما أن غراندبا العجوز سعيد بعربته التي يوصل بها البضاعة إلى الزبائن، ورينيه، ذلك الأوروبي الأميركي المولد، الصغير الخمول، يجدّ ويحب عمله... أو ذلك الشيطان، تومي ولبورن، الذي يقوم بعمل رجلين وهو يملك نصف جسد رجل، ويقوم به جيداً... أو... على كل حال، لن أتابع حديثي وأضايقك».

- «إنك تضايقني إلى حد الذهول» قالت ببرود، آملة أن تثيره وتصرفه عن الموضوع، الموضوع النكد دائماً، موضوع آشلي. ولكنه لم يزد على أن ضحك باقتضاب ورفض مهاجمتها.

- «إن الناس أمثال هؤلاء يستحقون المساعدة، أما آشلي ويلكس... باه! ليس لمن على شاكلته نفع أو قيمة في عالم مقلوب كعالمنا، كلما انقلب العالم رأساً على عقب، فإن من على شاكلة آشلي أول من يفنوا، ولماذا لا؟ إنهم لا يستحقون أن يبقوا، لأنهم لن يكافحوا... لا يعرفون كيف يكافحون. وليست هذه هي المرة الأولى التي ينقلب فيها العالم. لقد انقلب قبلاً وسينقلب ثانية. وعندما ينقلب، يخسر كل إنسان كل شيء، ويتساوى الجميع، ثم ينطلقون ثانية من النقطة نفسها، وهم لا يملكون شيئاً البتّة، أعني لا شيء سوى حصافة أدمغتهم وقوة أيديهم. ولكن بعض الناس كآشلي، لا يملكون الحصافة ولا القوة، أو إنهم حتى يملكونها، يحارون من كيفية استخدامها. وهكذا يهوون إلى الحضيض، ويجب أن يهووا. إنه قانون طبيعي، والدنيا أفضل من دونهم. ولكن لا تخلو الدنيا دائماً من قلة من

الأشداء يشقّون طريقهم بأنفسهم، وإذا ما أعطوا وقتاً كافياً فسرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه تماماً قبل أن تنقلب الدنيا».

- «لقد كنت فقيراً. لقد قلت الآن إن أباك طردك ولم يكن لديك بنس واحد» قالت سكارلت غضبى، «لذا أعتقد أنك ستفهم الوضع وتشعر مع آشلي».

- «إني أفهم وضعه، ولكني ملعون إن أنا شعرت معه. لقد كان في حوزة آشلي بعد الاستسلام أكثر مما كان في حوزتي حين طردت من البيت، وعلى الأقل، كان ينعم بأصدقاء آووه، بينما كنت أنا كإسماعيل[1]. ولكن ماذا فعل آشلي بنفسه؟».

- «إذا كنت تقارنه بنفسك، أيها المخلوق المغرور، كيف... إنه لا يشبهك شكراً للّه! إنه لن يلوث يديه كما تفعل أنت، فيجني المال بمشاركة الكاربت بكرز والسكالاواغز والشماليين. إنه شريف يقظ الضمير!».

- «ولكن ليس شريفاً يقظ الضمير إلى الحد الذي يرضى معه أن يأخذ المعونة والمال من امرأة».

- «أي شيء آخر كان في وسعه أن يفعل؟».

- «ومن أنا لأجيبك عما كان في وسعه أن يفعل؟ إني أعرف ما فعلته أنا فقط، سواء عندما طردت أو في هذه الأيام، كما أني أعرف ما فعله الرجال الآخرون غيره. لقد رأينا فرصة سانحة في انهيار إحدى المدنيات، فانتهزناها أحسن انتهاز، بعضنا انتهزها بآمانة، وبعضنا الآخر بأساليب مشبوهة، ونحن ما زلنا ننتهزها على الوجه الأفضل، ومع آن آشليي هذا العالم ينعمون بالفرص ذاتها، إلا أنهم لا ينتهزونها. إنهم ليسوا نبهاء يا سكارلت، والنبهاء فقط هم الذين يستحقون البقاء».

---

(1) هو ابن ابراهيم الخليل الذي شرد وأمه - (المترجمان).

وبالكاد سمعت سكارلت ما كان يقوله، إذ كانت تعاودها الآن الذكرى نفسها التي كانت قد أغاظتها لدقائق خلت، عندما شرع في التكلم بادئ الأمر. . . تذكرت الريح الباردة التي كانت تجتاح بستان تارا حيث كان آشلي يقف قرب كومة من القضبان وعيناه تنظران إلى ما وراءها، وكان قد ذكر - ماذا كان قد ذكر؟ ذكر اسماً غريباً مضحكاً يشبه في لفظه «بروفانتي»[1] . . . وكان قد تحدث عن نهاية العالم، ولم تكن قد عرفت ماذا كان يعني عندئذ، ولكن الفهم التائه كان يأتيها الآن، يصاحبه شعور كال مريض.

- «عجباً، لقد قال آشلي -».

- «نعم؟».

- «مرة في تارا، قال شيئاً عن ال - عن أفول الآلهة وعن نهاية العالم وسخافة كهذه. . .».

- «ها، الآخرة!» وبدت عيناه حادتين بلهفة، «وماذا قال أيضاً؟».

- «لا أذكر بالضبط، إذ لم أكن أعيره انتباهاً كبيراً ولكن - أجل - شيئاً عن أن الأقوياء يجتازون المحنة بينما الضعفاء يذرون بعيداً».

- «ها، إذن، هو يعرف ذلك، إذن إن معرفته تلك تجعل الأمر أكثر صعوبة له. إن معظم أمثاله لا يعرفون، ولن يعرفوا مطلقاً، وسيظلون طوال حياتهم يتساءلون أين اختفى السحر المفقود، سيظلون يقاسون في صمت شامخ عاجز وحسب. غير أن آشلي يعرف. إنه يعرف أنه قد ذرى بعيداً».

- «آه، إن لم يذرَ. لا، ولن يذرى وفي جسمي نفس».

فنظر إليها بهدوء، ووجهه الأسمر صافي التعبير.

- «سكارلت، كيف استطعت أن تنالي موافقته على المجيء إلى أتلانتا وإدارة المعمل؟ هل قاوم رغبتك بقوة؟».

---

(1) Profanity ومعناها الدنس - (المترجمان).

فخطرت لها ذكرى سريعة لمشهدها مع آشلي، المشهد الذي جرى بعد جنازة جيرالد، ولكنها أبعدت الذكرى عنها.

- «الواقع، طبعاً لا» أجابت ساخطة، «عندما أوضحت له أني في حاجة إلى مساعدته لأني لا أثق بذلك الوغد الذي كان يدير المعمل، ولأن فرانك كان مشغولاً جداً بحيث لم يكن في وسعه أن يساعدني. وإني كنت سأ - على كل حال، كنت حاملاً بإيلا لورينا، فهمت. كان سعيداً جداً بأن يساعدني للخروج من المأزق».

- «رائعة هي فوائد الأمومة! وإذن بهذه الطريقة تغلبت عليه. حسناً، لقد ظفرت به حيث تريدينه الآن. ذلك الشيطان المسكين، إنه مقيد بالتزاماته لك، شأن تقيد أي من أشقيائك بأغلاله. وإني أتمنى السعادة لكما، ولكن كما قلت في بداية هذا الحديث، لن تحصلي أبداً على أي سنت آخر مني، من أجل أي من مشاريعك الصغيرة غير النسوية، أيتها السيدة التي تفتقر إلى الأمانة».

كانت تتألم من الغضب، والخيبة أيضاً، لأنها كانت ذات يوم تفكر في أن تقترض من ريت مالاً أكثر، لتشتري أرضاً في أسفل المدينة وتبدأ في بناء مستودع أخشاب هناك.

- «في وسعي الاستغناء عن نقودك» صاحت، «فأنا أجني نقوداً من معمل جوني كاليغر، نقوداً وفيرة، لأني لا أستخدم زنوجاً محررين الآن. كما أن لدي بعض المال من الرهونات، وكذلك فنحن نكسب نقوداً من تجارة العبيد».

- «أجل، هكذا سمعت. ما أذكى أن تخدعي العاجز والأرملة واليتيم والجاهل! ولكن إذا كان لا بد لك من أن تسرقي يا سكارلت، فلماذا لا تسرقين من الأغنياء والأقوياء بدلاً من الفقراء والضعفاء؟ فمن أيام روبن هود إلى اليوم، وذلك يعتبر أمراً خلقياً رفيعاً».

- «لأن» قالت سكارلت باقتضاب، «السرقة من الفقراء - كما تدعوها - أسهل وآمن».

فضحك في سرّه واهتزت كتفاه.

- «إنك محتالة شريفة رائعة يا سكارلت!».

محتالة! كان من المستغرب أن يكظها ذلك النعت. إنها لم تكن محتالة، حدثت نفسها بحدة. وعلى الأقل، لم يكن ذلك ما تريد أن تكونه، فقد كانت تريد أن تكون سيدة عظيمة. ولهنيهة، عاد عقلها سريعاً عبر السنين، ورأت أمها تتحرك بحفيف التنورة الخفيف، وبحقيبة ينبعث منها عطر خفيف، ويداها الصغيرتان المنهمكتان في العمل لا تكلان من خدمة الآخرين. سيدة محبوبة محترمة معززة. وفجأة انتاب السقم قلبها.

- «إذا كنت تحاول أن تعذبني» قالت بسأم، «فلن يجديك ذلك نفعاً. فأنا أعرف أني لست حساسة الضمير كما ينبغي أن أكون في هذه الأيام. كما أني لست لطيفة سارة كما نُشّئت لأكون. ولكن لا حيلة لي في ذلك يا ريت. حقاً إني لا أستطيع. أي شيء آخر كان في وسعي أن أفعل؟ ماذا كان سيحل بي، بويد، بتارا وبكل منا لو أنني كنت لطيفة عندما جاء ذلك الشمالي إلى تارا؟ كان ينبغي أن أكون - ولكن لا أريد حتى أن أفكر في ذلك. ثم عندما كان من المنتظر أن ينتزع جوناس ويلكرسون البيت منا، هب أنني كنت لطيفة وحساسة الضمير؟ فأين كان ينتظر أن نكون الآن؟ ثم لو أني كنت عذبة وساذجة ولم أنقّ على فرانك فيما يتعلق بالديون الميتة التي كانت لنا - على كل حال، يمكن أن أكون وغدة غير أني لن أكون وغدة إلى الأبد يا ريت. ولكن خلال هذه السنين المنصرمة - وحتى الآن - أي شيء آخر كان في وسعي فعله؟ بأي طريقة أخرى كان في وسعي أن أتصرف؟ كنت أشعر أني كنت أحاول التجديف بقارب ثقيل الحمل في عاصفة، وكنت أنوء

بمتاعب كثيرة، فرحت أحاول أن أظل عائمة وحسب، بحيث إنه لم يكن في وسعي أن أقلق من جرّاء أمور لم تكن تؤثر - أمور كان في وسعي أن أتخلى عنها بسهولة دون أن أفتقدها، كالأخلاق الحميدة و - وأمور أخرى كذلك. لقد كنت خائفة جداً من أن يغرق قاربي وهكذا رحت أقذف من على القارب بالأشياء التي كانت تبدو أقل قيمة من غيرها».

- «كالكبرياء والشرف والصدق والفضيلة واللطف» سرد ريت بخبث، «إنك على صواب يا سكارلت فهذه الأمور ليست بذات بال عندما يكون القارب على وشك الغرق، ولكن انظري إلى أصدقائك، تجدينهم إما يقودون قواربهم إلى الشاطئ بأمان، وبحمولات كاملة، وإما يقنعون بأن يغرقوا وأعلامهم تخفق».

- «إنهم زمرة أغبياء» قالت باقتضاب، «هناك وقت لجميع الأمور، عندما يصير في حوزتي مبلغ وفير من المال، سأكون لطيفة كما تريد، ولن تذوب الزبدة في فمي. سيكون في وسعي أن أكون لطيفة عندئذ».

- «سيكون في وسعك أن تكوني - ولكنك لن تكوني - إن من الصعب إنقاذ حمولة ملقاة في الماء، وحتى لو استردت فإنها تكون عادة تالفة إلى درجة لا يمكن ترميمها. وإني أخشى أنه عندما يكون في وسعك اصطياد الشرف والفضيلة واللطف التي قد ألقيتها من ظهر القارب، ستجدين أنها قد تغيرت بفعل البحر، وأن تغيرها لم يكن، كما أخشى، إلى شيء غني وفريد...».

ونهض فجأة وتناول قبعته.

- «أذاهب أنت؟».

- «أجل، ألم يسرِ عنك؟ إني أتركك لما تبقى من ضميرك».

وصمت، ونظر إلى الطفلة، ومد إليها إصبعه لتقبض عليه:

- «أظن أن فرانك يفخر بها كثيراً».

- «ها، طبعاً».

- «وأفترض أن لديه مشاريع كثيرة من أجل هذه الطفلة؟».

- «طبعاً، إنك تعرف عِظم حمق الرجال فيما يتعلق بأطفالهم».

- «إذن أخبريه» قال ريت وصمت قليلاً وقد بان على وجهه تعبير غريب. «أخبريه أنه إذا أراد أن تتحقق مشاريعه لابنته، فمن الأفضل له أن يقيم في بيته ليلاً، أكثر مما يفعل الآن؟».

- «ماذا تعني؟».

- «تماماً ما أقوله، أخبريه أن يقيم في البيت».

- «ها، أيها المخلوق السفيه! تريد أن توعز بأن فرانك المسكين -».

- «ها، يا للّه الرحيم!» وانفجر في ضحكة مدوية، «أنا لم أقصد أنه يلاحق النساء! فرانك، يا للّه العظيم!».

ونزل الدرج وما انفك يضحك.

44

كان الجو عاصفاً بارداً بعد ظهر ذلك اليوم من شهر مارس، فجذبت سكارلت الدثار عالياً تحت إبطيها وهي تسوق العربة من طريق ديكاتور في اتجاه معمل جوني كاليغر. وكان خروجها وحيدة أمراً خطيراً هذه الأيام، وكانت هي تعرف ذلك، لقد كان أخطر من أي يوم مضى، إذ أضحى الزنوج الآن منطلقين من عقالهم تماماً. وكما كان آشلي قد تنبأ، فقد كان على الجنوبيين دفع الثمن غالياً منذ رفض المجلس التشريعي المصادقة على التعديل. لقد كان الرفض الشديد بمثابة صفعة على وجه الشمال الحانق. وجاء رد الثأر سريعاً. لقد صمَّم الشمال على أن يفرض أصوات الزنوج على الولاية، ومن أجل هذه الغاية اعتبرت جورجيا في ثورة ووضعت أشد القوانين العسكرية صرامة، بل إن كيان جورجيا ذاته كولاية أزيل من الوجود، وأضحت هي وفلوريدا وألاباما «المنطقة العسكرية رقم 3» تحت حكم جنرال اتحادي.

وإذا كانت الحياة مرعبة غير آمنة قبل هذا، فقد تضاعف إرعابها وعدم أمانها الآن، وأصبحت التنظيمات العسكرية التي كانت تبدو صارمة جداً في السنة الماضية، أصبحت الآن خفيفة إذا ما قورنت بالقوانين الصارمة من قبل الجنرال بوب. وهكذا بدا المستقبل مظلماً لا أمل فيه، وبدت الولاية المنغصة تتضور ألماً وعجزاً. أما بالنسبة إلى

الزنوج فإن أهميتهم الجديدة دخلت في رؤوسهم فأخمرتها، وعندما أدركوا أن الجيش الشمالي يسندهم، زادت حوادث تعدياتهم وانتهاكاتهم لحقوق الناس، ولم يكن أحد آمناً من شرهم.

في هذا الظرف الوحشي المخيف، كانت سكارلت فزعة - فزعة ولكن مصممة، وما انفكت تقوم وحيدة بجولاتها ومسدس فرانك مدسوس في فراش العربة. كانت تلعن المجلس التشريعي في سرّها لأنه جلب هذه الكارثة الفادحة عليهم جميعاً. أي نفع أداه هذا الموقف الشجاع الرائع، هذه الإيماءة التي نعتها الجميع بالشهامة؟ لقد زادت الأمور سوءاً وحسب.

وبينما كانت تقترب من الدرب الموصل، عبر الأشجار العارية، إلى أسفل الوادي، حيث كانت تقع مستعمرة شانتيتون صاتت الحصان ليحث خطاه. لقد كانت تشعر بالقلق دائماً وهي تسير إزاء هذه المجموعة القذرة الحقيرة من الخيام والتخشيبات التي كانت للجيش فهجرها. هذه المجموعة التي كانت تتردى بسمعة أسوأ من سمعة أي بقعة داخل أتلانتا أو قربها، إذ كان يعيش فيها الآن الزنوج القذرون المشردون والعاهرات السوداوات وجماعة مشردة من البيض الفقراء من الطبقة الدنيا، كما شاع أن هذه المستعمرة كانت مأوى المجرمين من السود والبيض، وأنها كانت أول مكان يفتشه الجنود الشماليون عندما كانوا ينشدون رجلاً. كانت حوادث القتل والجرح تستمر هنا بانتظام غريب بحيث ندر أن تحملت السلطة مشقة التحقيق فيها، إذ كانت تترك سكان شانتيتون ينهون قضاياهم المظلمة بأنفسهم. وكان يوجد في الغابات خلف المستعمرة، معمل تقطير ينتج نوعاً رخيصاً من ويسكي الذرة. وهكذا كانت غرف أسفل الوادي، تتصادى ليلاً بصيحات المخمورين وشتائمهم.

حتى الشماليون اعترفوا أنها بقعة موبوءة ويجب أن تزال من

الوجود، غير أنهم لم يتخذوا أي إجراء في هذا السبيل، واشتد السخط بين سكان أتلانتا وديكاتور، الذين كانوا مضطرين إلى أن يستعملوا الطريق للسفر بين البلدين. وكان الرجال يمرون إزاء شانتيتون ومسدساتهم مهيأة في قراباتها، أما النسوة الجميلات فلم يكنّ يمررن أبداً إزاء هذا المكان بطيبة خاطر، حتى وهنّ بحماية رجالهن، إذ كانت نساء زنجيات قميئات مخمورات، يجلسن على طول الطريق ويقذفن الإهانات ويصحن بكلمات فظة.

ولم تكن سكارلت طوال وجود آرشي إلى جانبها قد أعارت شانتيتون أدنى اهتمام، إذ لم تكن حتى أكثر الزنجيات وقاحة، لتجرأ على الضحك بحضوره. ولكن منذ أن اضطرت أن تركب وحدها، وقع عدد من الحوادث المكدرة المجننة، وبدا أن الزنجيات القميئات شرعن يمارسن وقاحتهن كلما مرت إزاءهن. ولم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً سوى تجاهلهن والتميز غضباً. ولم يكن في وسعها حتى أن تجد عزاء في الترويح عن نفسها بسرد متاعبها على جيرانها أو عائلتها، لأن الجيران سيقولون حينذاك بنشوة الظافر: «وماذا تتوقعين غير ذلك؟» وستلحّ عائلتها عليها ثانية بصورة مرعبة وتحاول إيقافها، ولم تكن هي تنوي التوقف عن جولاتها.

شكراً للّه، لم تكن هناك نساء زريات على جانب الطريق هذا اليوم! وبينما كانت تعبر الدرب الموصل إلى المستعمرة، نظرت باشمئزاز إلى مجموعة الأكواخ الرابضة في الوادي في شمس بعد الظهر المائلة الكئيبة. وكانت ريح باردة تخفق، وبلغ منخريها بعد أن عبرت الدرب مزيج من روائح دخان الحطب ولحم الخنزير المشوي والمراحيض المهملة، فأشاحت بأنفها وساطت ظهر الحصان بعنف، وحثت خطاه حول منعطف الطريق.

وحالما أخذت تتنفس الصعداء، وثب قلبها إلى بلعومها برعب

مفاجئ، إذ انساب زنجي ضخم بصمت من خلف شجرة سنديان كبيرة فارتاعت ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها تفقد عقلها. وعلى الفور جذبت عنان الفرس، وأضحى مسدس فرانك في يدها.

- «ماذا تريد؟» صاحت بكل العبوس الذي استطاعت حشده. ولكن الزنجي الضخم عاد منكمشاً إلى خلف الشجرة، وكان صوته الذي أجابها يرتعد فرقاً:

- «يا للّه يا آنسة سكارلت، لا تقتلي سام الكبير!».

سام الكبير! وللوهلة الأولى، لم تستطع استيعاب كلماته. سام الكبير ناظر عمال تارا الذي كانت قد رأته آخر مرة في أيام الحصار. ماذا...

- «اخرج ودعني أرى إذا كنت سام حقاً!».

فانصلت من مخبئه متردداً. رجل ضخم زري المنظر حافي القدمين يرتدي سروال سواري قطنياً خشناً مخططاً ومعطف بزة عسكرية اتحادية زرقاء، معطفاً قصيراً وضيقاً جداً بالنسبة إلى هيكله الكبير. وعندما رأت سكارلت أن الرجل كان سام الكبير حقاً، دست المسدس في فراش العربة وابتسمت بسرور.

- «هيا يا سام! ما أجمل أن أراك!».

فخبَّ سام إلى العربة وعيناه تشعان فرحاً وأسنانه البيضاء تلمع، وأمسك بيدها الممدودة نحوه بيدين سوداوين كبيرتين كفخذي خنزير، وتدلى لسانه الأحمر بلون البطيخ، وراح كل جسده يقمص، وكانت قمصاته الهنيئة مضحكة كقمصات كلب قوي كبير.

- «يا إلهي، إن من الجميل حتماً أن أرى أحد أفراد العائلة ثانية» صاح ضاغطاً على يدها حتى شعرت أن العظام تكاد تتشقق «كيف وصلت إلى مثل هذه المنزلة الوضيعة، تحملين مسدساً يا آنسة سكارلت؟».

- «هناك عدد كبير من الناس المنحطين في هذه الأيام يا سام، ولذا فإني مضطرة إلى حمله. ماذا تفعل في مكان زري كشانتيتون وأنت الزنجي المحترم؟ ولماذا لم تأتِ إلى المدينة لتراني؟».

- «لا يا آنسة سكارلت، إني لا أسكن في شانتيتون. إني أقيم فيها لمدة قصيرة فقط. وليس هنالك ما يمكن أن يغريني على الإقامة في ذلك المكان. إني لم أرَ في حياتي زنوجاً حقيرين كهؤلاء. كما أني لم أكن أعرف أنك في أتلانتا. لقد ظننت أنك موجودة في تارا، وكنت أنوي العودة إلى تارا حالما تسنح لي الفرصة».

- «هل ما زلت تعيش في أتلانتا منذ الحصار؟».

- «لا يا سيدة! كنت متنقلاً!» وأفلت يدها وطوتها هي في ألم، لترى ما إذا كانت العظام ما زالت سليمة على حالها، «أتذكرين عندما رأيتني آخر مرة؟».

فتذكرت سكارلت اليوم الحار، قبل بدء الحصار، عندما كانت تجلس وريت في العربة، ومرّت عصبة الزنوج وسام على رأسهم، مرّت في الشارع المغبر متجهة إلى الخنادق وهي تغني «اهبط يا موسى»، ولذلك أومأت برأسها أن نعم.

- «حسناً، لقد اشتغلت ككلب وأنا أحفر الخنادق وأملأ أكياس الرمل إلى أن غادر الحلفيون أتلانتا. وكان الكابتن المسؤول عني قد قُتل، ولم يكن هناك أحد ليخبر سام الكبير ماذا يفعل، ولذلك رقدت بين الشجيرات وفكرت في أن أحاول الوصول إلى تارا. ولكني سمعت بعدئذ أن كل الريف المحيط بتارا قد أحرق، فضلاً عن أنه لم يكن هناك سبيل لي للعودة، فقد كنت أخشى أن يقتلني الحراس لأني لم أكن أملك تصريحاً بالمرور. ثم جاء الشماليون وأخذني سيد منهم، وكان برتبة كولونيل، لأعتني بحصانه وجزماته. أجل يا سيدة! لقد شعرت بالكبرياء طبعاً، لأني غدوت خادماً خاصاً كبورك، بينما أنا لم

أكن شيئاً سوى عامل حقل. ولم أخبر الكولونيل بأنني كنت عامل حقل، وهو - على كل حال يا آنسة سكارلت إن الشماليين قوم جهلة! فلم يكن سيدي يعرف الفرق! وهكذا أقمت معه وذهبت برفقته إلى سافانا، وذلك عندما قصدها شيرمان. وواللّهِ يا آنسة سكارلت، إني لم أرَ زحفاً كذاك الذي رأيته في طريقي إلى سافانا: نهب وحرق - هل أحرقوا تارا يا آنسة سكارلت؟».

- «لقد أشعلوا النيران فيها ولكننا أخمدناها».

- «حسناً، من الأكيد أني سعيد بسماع ذلك، فتارا موطني وإني أنوي العودة إليها. وعندما انتهت الحرب قال لي الكولونيل «اسمع يا سام، ستذهب معي إلى الشمال، وسأنقدك راتباً جيداً». وطبعاً، كجميع الزنوج، كنت متحرقاً لأجرب الحرية المرتجاة قبل أن أعود إلى البيت، ولذلك ذهبت مع الكولونيل. أجل، لقد ذهبت إلى واشنطن ونيويورك ثم إلى بوسطن حيث يقطن الكولونيل. أجل يا سيدة، إني زنجي رحالة! ويا آنسة سكارلت يوجد خيول وعربات في شوارع الشماليين، أكثر مما نستطيع حصرها. ولقد كنت خائفاً طوال الوقت من أن يدوسني أحدها».

- «هل أحببت الشمال يا سام؟».

فحك رأسه ذا الشعر الصوفي.

- «لقد أحببته - ولم أحبه. إن الكولونيل رجل طيب للغاية وهو يفهم الزنوج. ولكن زوجته، إنها نوع آخر. زوجته، لقد نادتني «يا سيد» في أول مرة رأتني فيها. أجل، لقد فعلت ذلك، وكدت أسقط متعثراً عندما فعلت ذلك، لقد أخبرها الكولونيل أن تدعوني «سام» وعندئذ صارت تدعوني باسمي. إلا أن جميع الشماليين كانوا يدعونني «سيد أوهارا» منذ المرة الأولى التي رأوني فيها، وكانوا يسألونني أن أجلس معهم كما لو كنت مثلهم تماماً. والحقيقة أني لم أكن قد

جلست مع أناس بيض أبداً، كما أني طاعن في السن بحيث إني لن أتعلم آداب الجلوس. كانوا يعاملونني كما لو كنت مثلهم تماماً يا آنسة سكارلت. ولكنهم لم يكونوا يحبونني في قلوبهم - لم يكونوا يحبون أي زنجي، بل كانوا يخافونني لأنني ضخم القامة. وكانوا يسألونني دائماً عن الكلاب الدامية التي كانت تطاردني وعن الضرب الذي كنت أتلقاه، بينما أنا لم أكن قد ضُربت أبداً! أنت تعرفين أن السيد أوهارا لم يكن يسمح لأي إنسان بأن يضرب زنجياً حساساً مثلي!

وعندما أنبأتهم بذلك وأخبرتهم أن السيدة إيلين رحيمة بالزنوج، وكيف أنها كانت تقيم أسبوعاً بطوله إلى جانبي عندما كنت أصاب بداء الرئة، لم يصدقوني. ويا آنسة سكارلت، لقد غدوت متلهفاً إلى السيدة إيلين وإلى تارا حتى بدا كأني لم أعد أستطع تحمُّل البعد مرة أخرى. وفي إحدى الليالي، هربت قاصداً العودة إلى البيت، وركبت الشاحنات طول الطريق حتى وصلت إلى أتلانتا. وإن أنتِ ابتعتِ لي تذكرة سفر إلى تارا، فمن الأكيد أني سأكون سعيداً ببلوغ بيتي. من الأكيد أني سأكون سعيداً برؤية الآنسة إيلين والسيد جيرالد ثانية. لقد نعمت بقسط كافٍ من الحرية، وأريد الآن من يطعمني غذاء جيداً بانتظام ويخبرني ما أفعل وما لا أفعل، ويعتني بي عندما أمرض. هبي أني أصبت بداء الرئة ثانية؟ فهل كان ينتظر أن تعتني بي تلك السيدة الشمالية؟ يا سيدة! كانت ستدعوني «سيد أوهارا» ولكنها لم تكن لتمرضني. بينما السيدة إيلين ستمرضني، فهل أمرض و - ما القضية يا آنسة سكارلت».

- «إن كلا بابا وماما متوفيان يا سام».

- «متوفيان؟ هل تمزحين معي يا آنسة سكارلت؟ ذلك ليس أسلوباً جيداً لمعاملتي!».

- «إني لا أمزح. إنها الحقيقة؟ لقد ماتت أمي عندما اخترق رجال شيرمان تارا. وبابا - لقد قضى في يونيو الماضي. آه يا سام، لا تبكِ،

أرجوك لا تبكِ، فإن أنت بكيت فسأبكي أنا أيضاً. سام لا تبكِ! فأنا لا أستطيع احتمال ذلك. دعنا لا نتكلم عن هذا الموضوع الآن، وسأخبرك بكل شيء عنه في وقت آخر... إن الآنسة سولين تعيش في تارا، وقد تزوجت برجل طيب للغاية هو السيد ويل بنتين. وأما السيدة كارين فإنها في -» وصمتت سكارلت هنيهة. لم يكن في وسعها أبداً أن توضح للعملاق الباكي ماذا كان يعني الدير، «إنها تعيش في شارلستون الآن، ولكن بورك وبرسي في تارا... كفى يا سام، امخط، هل ترغب حقاً في الذهاب إلى البيت؟».

- «أجل، ولكن الأمر لن يكون كما ظننت، بمعية الآنسة إيلين و...».

- «سام، إلى أي حد ترغب في البقاء في أتلانتا والعمل لدي؟ إني في حاجة إلى سائق، وفي حاجة ماسّة إليه، نظراً إلى وجود أناس منحطين كثيراً في هذه الأيام».

- «أجل، إنك في حاجة ماسّة حتماً، لقد كنت أنوي أن أقول لك أن ليس من شأنك أن تسوقي وحدك يا آنسة سكارلت، فأنت لا تعرفين ما أشد انحطاط بعض الزنوج هذه الأيام، خصوصاً أولئك الذين يعيشون هنا في شانتيتون. لا أمان عليك، إذ لم يمض عليَّ سوى يومين في شانتيتون، ولكني سمعتهم يتحدثون عنك. وأمس عندما مررت إزائهم، وراحت تلك العاهرات السوداوات يصحن عليك، عرفت شخصك، ولكنك كنت تسيرين بسرعة عظيمة، بحيث لم أستطع اللحاق بك. على أني حتماً دققت جلودهم، أولئك الزنوج! حتماً فعلت. ألا تلاحظين أنه لا يوجد أحد منهم هنا اليوم؟».

- «لقد لاحظت ذلك وإني أشكرك طبعاً يا سام. وعلى كل حال، إلى أي حد ترغب في أن تكون سائق عربتي؟».

- «آنسة سكارلت، أشكرك يا سيدة، ولكني أقول إني أفضل الذهاب إلى تارا».

وخفض سام الكبير بصره، وخط بإصبع قدمه الكبير شارات عفوية في الأرض، وبدا كأنه في حالة قلق خفي.

- «والآن قل لي لماذا؟ سأعطيك مرتباً حسناً، ينبغي أن تبقى معي».

وتطلع إليها الوجه الأسود الكبير، وجه غبي سهل القراءة كوجه الطفل، تطلع إليها وهو وينطق بالخوف، ثم اقترب منها وانحنى فوق جانب العربة وهمس: «آنسة سكارلت، عليَّ أن أخرج من أتلانتا، عليَّ أن أذهب إلى تارا حيث لن يجدوني. لقد - لقد قتلت رجلاً».

- «زنجياً؟».

- «لا، رجلاً أبيض، جندياً شمالياً، وهم يبحثون عني الآن، وذلك هو سبب وجودي في شانتيتون».

- «كيف حدث ذلك؟».

- «كان مخموراً، وكان يتفوَّه بعبارات لم أستطع تحمّلها بأي وجه من الوجوه، فطوقت عنقه بيدي - ولم أكن أقصد قتله يا آنسة سكارلت، غير أن يدي قويتان جداً وقبل أن أدري كان قد مات. وتملّكني الخوف بحيث لم أعرف ماذا أفعل! ولذلك جئت لأختبئ هنا. وعندما رأيتك تمرّين أمس بالقرب من هذا المكان، قلت: «تبارك اللّه! تلك هي الآنسة سكارلت! ستهتم بي، ولن تدع الشماليين يقبضون عليّ، وسترسلني إلى تارا»».

- «تقول إنهم يلاحقونك؟ هل يعرفون أنك أنت الفاعل؟».

- «أجل، إن قامتي كبيرة جداً بحيث إنهم لا يخطئونني. أظن أني أضخم زنجي في أتلانتا، لقد جاؤوا في طلبي أمس، ولكن فتاة زنجية خبأتني في كهف هناك في الغابات، إلى أن ذهبوا».

جلست سكارلت مقطبة الوجه هنيهة، غير أنها لم تكن مذعورة أو مغمومة أبداً لأن سام كان قد اقترف جريمة قتل، وإنما كانت خائبة الأمل لأنه لم يكن في وسعها أن تستخدمه كسائق لعربتها. وزنجي كبير كسام، كان ينتظر أن يكون حارساً مفيداً كآرشي. على كل حال، ينبغي أن توصله سالماً إلى تارا بطريقة ما، لأنه، طبعاً، يجب ألّا تدع السلطات تقبض عليه، فهو زنجي قيم جداً، بحيث يجب ألّا يعدم، كيف لا، وقد كان أحسن ناظر عمال نعمت به تارا. ولم يدخل في عقل سكارلت أنه كان حراً، بل كانت ترى أنه ما زال يخصها، شأن بورك ومامي وبيتر وكوكي وبرسي. كان ما زال «أحد أفراد عائلتنا» ولذلك كان ينبغي حمايته.

- «سأرسلك إلى تارا هذه الليلة» قالت أخيراً، «والآن يا سام، ينبغي أن أسير خارج الطريق مسافة قصيرة، ولكن عليَّ أن أعود هنا قبيل الغروب فكن في انتظاري عندما أعود ولا تخبر أحداً عن مكان ذهابك. وإذا كنت تملك قبعة فأحضرها معك لتستر بها وجهك».

- «إني لا أملك قبعة».

- «حسناً، خذ ربع الدولار هذا، واشترِ قبعة من زنوج الأكواخ تلك، وتعال لملاقاتي هنا».

- «سمعاً وطاعة» وعلى الفور تألق وجهه بالفرح لأنه صار ينعم بمن يخبره ما يفعل.

ساقت سكارلت العربة وهي تفكر، من الأكيد أن ويل سيرحب بعامل حقل ماهر في تارا، لأن بورك لم يكن ذا نفع أبداً في الحقول ولن يكون ذا نفع مطلقاً. وبوجود سام في المزرعة، سيكون في وسع بورك أن يأتي إلى أتلانتا، ويلتحق بدلسي كما كانت قد وعدته عند وفاة جيرالد.

وعندما بلغت المعمل، كانت الشمس تغرب، وكان الوقت أكثر

تأخراً من الوقت الذي كانت حريصة على أن لا تظل فيه خارجاً، وكان جوني كاليغر يقف عند باب الكوخ الحقير الذي كان يستعمل كغرفة طهي لمعسكر الخشب الصغير، وكان أربعة من الأشقياء الخمسة الذين كرستهم سكارلت لمعمل جوني يجلسون على قطعة خشب أمام التخشيبة التي كانت بمثابة غرفة نومهم. كانت ثيابهم الخاصة بالمجرمين قذرة ملوثة بالعرق، وكانت الأغلال تقرقع بين كواحل أقدامهم وهم يتحركون بإعياء، وكان يكتنفهم مظهر من اليأس وتبلد الشعور. كانوا فئة هزيلة عديمة الصحة، فكرت سكارلت وهي ترنو إليهم بنظرات حادة. لقد كانوا عندما استأجرتهم منذ وقت قصير رجالاً منتصبي القامات، بينما هم الآن لم يرفعوا حتى عيونهم وهي تترجل من العربة. أما جوني فالتفت نحوها ونزع قبعته من دون اكتراث، وقد بدا وجهه الأسمر الصغير وهو يحيِّيها صلباً كحبة بندق.

- «لست مرتاحة من مظهر الرجال» قالت فجأة، «إنهم لا يبدون في حالة حسنة، أين خامسهم؟».

- «يقول إنه مريض» قال جوني باقتضاب، «إنه في غرفة النوم».

- «ممَّ يشكو؟».

- «من الكسل غالباً».

- «سأذهب لأراه».

- «لا تفعلي ذلك، قد يكون عارياً. سأهتم به وسيعود إلى العمل غداً».

وترددت سكارلت، ورأت أحد الأشقياء الأربعة يرفع رأسه منهوكاً، ويرمق جوني بنظرة كراهية شديدة، قبل أن ينظر إلى الأرض ثانية.

- «وهل جلدت هؤلاء الرجال؟».

- «اسمعي يا سيدة كنيدي، أرجو عفوك، من الذي يدير هذا

المعمل؟ لقد عيَّنتِني مسؤولاً عنه، وأخبرتني أن أديره، وقلت إني مطلق الصلاحية، فليس لك إذن ما تشتكين منه عليَّ، أليس كذلك؟ ألا أقدم لك أنا ضعف ما كان يقدمه السيد إلسينغ؟».

- «أجل إنك تفعل ذلك» قالت سكارلت، ولكن رعشة انتابتها، كوزة ذبيح تمشي فوق قبرها.

كان هناك شيء مشؤوم يكتنف هذا المعسكر بأكواخه الزرية، شيء لم يكن موجوداً عندما كان هيو يديره. كانت هناك وحشة، عزلة تكتنفه، الأمر الذي جعلها تقشعر منه. وكان هؤلاء الأشقياء مذهولين جداً من كل شيء، واقعين كلية تحت رحمة جوني كاليغر. وإذا ما ارتأى أن يجلدهم أو أن يسيء معاملتهم، فمن المحتمل أن لا تعلم بذلك أبداً، لأن الأشقياء سيخافون أن يشكوا إليها خشية قصاص أسوأ ينزل بهم بعد ذهابها.

- «إن الرجال يبدون هزلى. هل تقدم لهم طعاماً كافياً؟ إن اللّه وحده يعلم أني أصرف على طعامهم نقوداً تكفي لجعلهم سماناً كالخنازير. لقد كلفني الدقيق ولحم الخنزير فقط ثلاثين دولاراً في الشهر الماضي. ماذا ستقدم لهم عشاء؟».

وتقدمت نحو تخشيبة الطهي، وتطلعت داخلها. فانحنت المرأة الخلاسية البدينة التي كانت منحنية فوق موقد قديم صدئ، انحنت نصف انحناءة عندما رأت سكارلت، ثم استمرت في تحريك قِدر كانت تطهي فيه بسلى. كانت سكارلت تعرف أن جوني كاليغر يعيش مع هذه الخلاسية، ولكنها فكرت أن من الأفضل تجاهل تلك الحقيقة، ثم رأت أنه باستثناء البسلى ووعاء خبز الذرة، لم يكن يوجد أي طعام قيد التحضير.

- «أليس لديك أي طعام آخر لهؤلاء الرجال؟».

- «لا».

- «ألا يوجد لحم في هذه البسلى؟».

- «لا».

- «ولا دهن خنزير؟ ولكن البسلى لا تصلح من دون دهن خنزير. لا يوجد غذاء مقوٍّ فيها. لماذا لا يوجد شيء من اللحم المقدَّد فيها؟».

- «يقول السيد جوني أن لا فائدة من وضع الدهن من دون لحم».

- «تضعين اللحم المقدَّد فيه. أين تحفظين المؤن؟».

فأدارت الزنجية عينين مذعورتين إلى الخزانة الصغيرة التي كانت تستعمل كمخزن للمؤونة، وفتحت سكارلت بابها بعنف. كان هناك على أرضها برميل مفتوح من طحين الذرة، وكيس صغير من الدقيق، ورطل من القهوة وقليل من السكر وإبريق سعته غالون من عسل النبات وفخذان لحم خنزير، أحدهما حديث الطهي موضوع على الرف، قد قطعت منه شرحة أو شرحتان وحسب. واستدارت سكارلت هائجة نحو جوني كاليغر وواجهت نظرته الغضبى الباردة:

- «أين أكياس الدقيق الخمسة التي أرسلتها في الأسبوع الماضي، وكيسا السكر والقهوة؟ ولقد أرسلت خمسة فخاذ خنازير وعشرة أرطال لحم واللّه يعلم كم بوشل[1] بطاطا حلوة وبطاطا إيرلندية. على كل حال، أين هي؟ لا يمكن أن تكون قد استهلكتها جميعاً في أسبوع حتى لو كنت أطعمت الرجال خمس وجبات يومياً. لقد بعتها! ذلك ما فعلته أيها اللص! بعت مؤني الجيدة ووضعت النقود في جيبك وأطعمت هؤلاء الرجال البسلى الجافة وخبز الذرة. لا عجب إذن أن يبدوا بهذا الهزال. اخرج من دربي».

واندفعت نحو البوابة مارة به.

- «أنت أيها الرجل الجالس في النهاية، أجل أنت! تعال هنا!».

---

(1) مكيال للحبوب يساوي 8 غالونات - (المترجمان).

فنهض الرجل ومشى نحوها بتثاقل وأغلاله تصِلُّ. ورأت سكارلت أن كاحليه العاريين كانا أحمرين مسحوجين نتيجة احتكاك الحديد بهما.

- «متى أكلت لحم خنزير آخرة مرة؟».

فأطرق الرجل بعينيه إلى الأرض.

- «تكلم!».

ولكن الرجل ما زال يغضي صامتاً زري المنظر. وأخيراً رفع عينيه ونظر إلى وجه سكارلت متوسلاً، وأطرق بصره ثانية.

- «تخاف أن تتكلم، أليس كذلك؟ حسناً، ادخل غرفة المؤونة تلك واجلب فخذ الخنزير من على الرف. ربيكا، أعطيه سكينك. خذه إلى هؤلاء الرجال وقسمه بينهم. ربيكا، اصنعي بعض البسكويت والقهوة لهم، وقدمي لهم كثيراً من عسل النبات. هيا، الآن، كيما أراك تنفذين ذلك».

- «ذاك دقيق وقهوة السيد جوني الخاصين» دمدمت ربيكا مذعورة.

- «دقيق وقهوة السيد جوني، قدمي! وأظن أن ذاك هو فخذ خنزيره أيضاً! افعلي ما أقوله لك. هيا باشري. جوني كاليغر، اخرج إلى العربة معي».

وخطت عبر الساحة المفروشة قشاً، وتسلقت إلى داخل العربة وهي تلاحظ برضى متجهم أن الرجال كانوا يمزقون لحم الخنزير ويحشون أفواههم بقطعه بشراهة. كانوا يبدون كأنهم يخافون أن ينتزع اللحم منهم في أية لحظة.

- «إنك وغد نادر المثال!» صاحت حانقة على جوني كاليغر وهو يقف عند العجلة وقد أزاح قبعته عن جبينه المكفهر، «وفي وسعك الآن

أن تناولني ثمن جميع مؤني. وفي المستقبل سأجلب لك المؤن يومياً بدلاً من شرائها لمدة شهر، وعندئذ لن تستطيع خيانتي».

- «في المستقبل لن أكون هنا».

- «تعني أنك ستترك العمل!».

وللوهلة الأولى، كان لسان سكارلت الناقم على وشك أن يصيح: «اذهب ويا له من خلاص عظيم!» ولكن يد الحذر الباردة أوقفتها... فإذا ترك جوني العمل، فماذا تفعل؟ لقد كان ينتج ضعف كمية الخشب التي كان ينتجها هيو، والآن في هذا الوقت بالذات، كان لديها طلب كبير، أكبر طلب حظيت به، طلب كبير وسريع في الوقت نفسه، وكان عليها أن توصل الخشب المطلوب إلى أتلانتا، فإذا ترك جوني العمل فمن ستجد لإدارة المعمل؟

- «أجل سأترك العمل. لقد أسندت إليَّ المسؤولية تامة هنا، وأخبرتني أن كل ما ترجينه مني هو إنتاج أكبر كمية أستطيعها من الخشب، ولم تخبريني آنئذ كيف يجب أن أدير عملي، ولست أنوي أن أدعك تبدئين في توجيهي الآن. أما كيف أنتج الخشب فليس من شأنك. كما ليس في وسعك أن تتذمري من أني قصرت في ما اتفقنا عليه. لقد جمعت لك مالاً، ولقد كسبت راتبي - كما كسبت أيضاً ما استطعت جنيه بطريقة خاصة. وها قد أتيت الآن هنا، تتدخلين في شؤوني وتسألين أسئلة، وتدمّرين سلطتي أمام الرجال. كيف تنتظرين أن أحفظ النظام بعد هذا؟ وماذا يحدث لو ضُرب الرجال من وقت إلى آخر؟ فالخامل العديم الجدوى يستحق أسوأ من ذلك؟ ثم ماذا إن لم يطعموا جيداً ويشبعوا؟ إنهم لا يستحقون أفضل من هذا. إما أن تهتمي بعملك وتدعيني أهتم بعملي أو أنني أترك العمل الليلة».

كان وجهه الصغير الصارم يبدو أصلب مما كان عليه في أي وقت

مضى. ووقعت سكارلت في ورطة. فإن هو غادرها الليلة، فماذا ستفعل؟ لم يكن في وسعها أن تقيم هنا طوال الليل، لتحرس الأشقياء!

وفضحت عيناها بعض ورطتها، إذ تغيرت سحنة جوني بدهاء، وزاولت وجهه بعض الصرامة، وشاب صوته عندما تكلم نغمة رقيقة رضية:

- «لقد أضحى الوقت متأخراً يا سيدة كنيدي، ومن الأفضل أن تعودي إلى البيت. كما أننا لن نختلف على شيء صغير كهذا، أليس كذلك؟ ما قولك لو أخذت عشرة دولارات من راتبي للشهر القادم، ودعينا نعتبر القضية قد سويت».

واتجهت عينا سكارلت إلى الجماعة البائسة التي كانت تقضم لحم الخنزير، وفكرت في الرجل المريض الذي كان يضطجع داخل التخشيبة التي كانت تلعب فيها الريح... ينبغي أن تتخلص من جوني كاليغر. لقد كان لصاً ومتوحشاً، كما لم يكن يمكن التنبؤ بما كان يفعل بالأشقياء أثناء غيابها. ولكن من الناحية الثانية، كان جوني حاذقاً، ويعلم اللّه أنها كانت في حاجة إلى رجل حاذق. على كل حال، لم يكن في وسعها تركه الآن. لقد كان يكسب النقود لها، وما عليها فقط إلا أن تتحقق من أن الأشقياء سينالون مخصصاتهم الغذائية المعينة لهم في المستقبل.

- «سآخذ عشرين دولاراً من راتبك» قالت باقتضاب، «وسأعود هنا وأبحث الأمر بصورة أشمل في الصباح».

وتناولت الزمام، ولكنها كانت تعرف أنه لن يجري بحث أشمل وتعرف أن القضية انتهت وأن جوني أدرك ذلك.

وبينما كانت تسوق عربتها في الدرب المؤدي إلى طريق ديكاتور، كان ضميرها يصارع رغبتها في المال. كان تعرف أن ليس من مصلحتها تعريض حياة الناس لرحمة الرجل الصغير القاسي الذي إن

سبب موت أحدهم فستكون هي شريكته في الإثم، لأنها كانت قد أبقته مسؤولاً بعد أن عرفت بوحشيته، ولكن من الناحية الأخرى - الواقع، من الناحية الأخرى، ليس من واجب الرجال أن يصبحوا أشقياء، فإذا هم خالفوا القوانين واعتقلوا، فسيكونون إذن جديرين بما ينالون. وأراحت هذه الخاطرة ضميرها جزئياً. ولكن بينما كانت تسوق نحو أسفل الطريق ظلت وجوه الأشقياء النحيلة الكئيبة تعاود تفكيرها.

- «آه، سأفكر فيهم فيما بعد» قررت ودفعت الفكرة داخل غرفة عقلها الخربة وأغلقت الباب دونها.

* * *

كانت الشمس قد غربت تماماً عندما بلغت سكارلت منعطف الطريق شمال شانتيتون، وقد غدت الغابات حولها مظلمة، ومع غروب الشمس سقطت على الدنيا المنيرة بضوء الغسق، برودة لاذعة، وهبَّت ريح باردة خلال الغابات المظلمة، جاعلة الأغصان العارية تصطفق، والأوراق الجافة تهتز بحفيف مسموع، ولم يسبق لسكارلت أن ظلت خارج البيت وحدها إلى مثل هذا الوقت المتأخر، ولذلك انتباها القلق وتمنت لو كانت في البيت.

ولم يكن سام الكبير موجوداً في أي مكان في مدى بصرها، وعندما جذبت العنان لتنتظره، أحست بالضيق من جرّاء غيابه، وخافت أن يكون الشماليون قد اعتقلوه الآن. ثم سمعت وقع خطوات قادمة في الدرب من المستعمر، وخرجت تنهدة الفرج من شفتيها... إنها ستقاصص سام حتماً لأنه أبقاها تنتظر.

بيد أن الذي كان قادماً حول المنعطف لم يكن سام.

كان رجلاً أبيض كبيراً زري المنظر وفي رفقته رجل أسود وزواز ذو كتفين ككتفي الغوريلا وصدر كصدره. وساطت سكارلت الحصان

على عجل، وقبضت على المسدس، وانطلق الحصان خبباً ولكنه أجفل فجأة عندما طوح الرجل الأبيض بيديه أمامه:

- «أيتها السيدة» قال، «هل في وسعك أن تمنحيني ربع دولار؟ إني جائع جداً».

- «تنحَّ عن الطريق» أجابت مبقية صوتها ثابت اللهجة بقدر ما استطاعت، «ليس لدي نقود! هيا».

وبحركة سريعة مفاجئة، أضحت يد الرجل على لجام الحصان.

- «اقبض عليها!» صاح بالزنجي، «فمن المحتمل أن تكون نقودها في صدرها!».

أما ماذا حدث بعد ذلك، فقد كان كحلم رهيب بالنسبة إلى سكارلت، فقد توالت الحوادث بسرعة مذهلة: أخرجت سكارلت مسدسها بسرعة وأنبأتها إحدى غرائزها بألّا تطلق النار على الرجل الأبيض لئلا تقتل الحصان. وعندما هرع الزنجي ركضاً إلى العربة تغضن وجهه الأسود في تكشيرة شزراء، فأطلقت النار عليه جهاراً، ولم تعرف أأصابته أم لا. ولكن في الدقيقة التي تلت، كان المسدس قد انتُزِع من يدها بقبضة كادت تهشم معصمها تقريباً، وأضحى الزنجي بجانبها، قريباً جداً بحيث استطاعت أن تشم رائحته النتنة وهو يحاول أن يجرّها إلى جانب العربة. وقاومت بجنون مستخدمة يدها الطليقة الوحيدة، وجرحت وجهه بأظافرها، ثم أحست بيده الكبيرة على حنجرتها، وسمعت صوت الانفتاق، صوت انشقاق قميصها من العنق إلى الخصر، ثم راحت اليد السوداء تبحث بين ثدييها. وتولاها الفزع والاضطراب بصورة لم يسبق لها مثيل، وشرعت تزعق كامرأة مجنونة.

- «أخرسها! جُرَّها خارج العربة» صاح الرجل الأبيض. ثم مرَّت اليد السوداء عبر وجه سكارلت إلى فمها. فعضَّتها بقدر ما استطاعت من ضراوة، وراحت تزعق ثانية. وخلال زعيقها سمعت الرجل الأبيض

يشتم، وتبينت أن هناك رجلاً ثالثاً في الطريق المظلمة. ثم ارتدّت اليد السوداء عن فمها ووثب الزنجي بعيداً عندما انقض سام الكبير عليه.

- «انطلقي يا آنسة سكارلت» صاح سام وهو يتعارك والزنجي، بينما أمسكت سكارلت الزاعقة المرتجفة الزمام وهوت به على الحصان، فانطلق في وثبة، وأحست هي بالعجلات تمر فوق شيء طري، شيء مقاوم. كان هو ذلك الرجل الأبيض الذي رقد في الطريق حيث كان سام قد صرعه.

وساطت سكارلت الحصان ثانية وقد جننها الرعب، وثانية انطلق الحصان وثباً، الأمر الذي جعل العربة تهتز وتترنح، وتنبهت سكارلت حتى وهي مرتعبة، إلى وقع أقدام تجري خلفها، ولذلك صاحت بالحيوان كي يحث خطاه. إذا ما بلغها القرد الأسود ثانية، فستموت حتى قبل أن يقبض عليها بيديه.

وصاح صوت من خلفها: «آنسة سكارلت، قفي!».

ومن دون أن تخفف سرعتها، نظرت من فوق كتفها وهي ترتعش، فرأت سام الكبير يسرع في الطريق خلفها، وساقاه الطويلتان تتحركان كمكبسين شديدي الاندفاع، وعندما بلغها جذبت العنان وطوح هو بجسده إلى داخل العربة التي أمالها وزنه الثقيل إلى أحد جانبيها. كان العرق والدم يجريان على وجهه وهو يلهث:

- «هل أوذيت؟ هل ألحقا بك سوءاً؟».

لم يكن في وسعها أن تتكلم، ولكنها عندما رأت اتجاه عينيه، وتحولهما السريع عن ذلك الاتجاه، أدركت أن قميصها كان مفتوحاً حتى الخصر، وأن صدرها العاري ومشدّها كانا باديين للعيان فأمسكت بطرفي القميص معاً بيد مرتجفة ثم أطرقت برأسها وشرعت تبكي بشهقات مذهلة.

- «أعطيني الزمام» قال سام منتزعاً العنان منها، «أيها الحصان، هيا في طريقك!».

وقرقع السوط، وانطلق الحصان المجفل في وثبة طويلة، وثبة كادت توقع العربة في الخندق.

- «أرجو أن أكون قد قتلت ذلك القرد الأسود، غير أني لم أنتظر لأتبيَّن مصيره» قال وهو يلهث، «ولكن إذا كان قد آذاك يا آنسة سكارلت، فسأعود وأتأكد من نهايته».

- «لا - لا، تابع سيرك بسرعة» قالت وهي تنشج.

45

في تلك الليلة، عندما أودع فرانك سكارلت والعمة بيتي والطفلين ببيت ميلاني، وانطلق في الشارع مع آشلي، كان في وسع سكارلت أن تنفجر من السخط والألم. كيف وسعه أن يمضي إلى اجتماع سياسي في هذه الليلة من بين كل الليالي؟ اجتماع سياسي! وفي الليلة ذاتها التي هوجمت فيها زوجته والتي كان يمكن أن يقع لها فيها أي حادث! لقد كانت تلك أنانية منه وعدم إحساس، إلا أنه ساعتئذ كان قد قابل الأمر كله بهدوء يدعو إلى الجنون، وذلك منذ أن حملها سام إلى البيت وهي تنشج، وقميصها مشقوق حتى الخصر، ولم يمشط فرانك لحيته بيده ولو مرة واحدة، وهي تسرد عليه قصتها باكية، وإنما استوضح بلطف «حلوتي، هل لحقك سوء أو أنك مذعورة وحسب؟».

ولما كان الغضب يشوب دموعها لم يكن في وسعها أن تجيب، ولذا تطوع سام بالقول إنها كانت مذعورة وحسب:

- «لقد بلغتها قبل أن يمزقا فستانها».

- «إنك شاب طيب يا سام، ولن أنسى ما فعلته. إذا كان هناك شيء أستطيع فعله لك -».

- «أجل يا سيدي، تستطيع أن ترسلني إلى تارا بأسرع ما يمكنك، فالشماليون يطاردونني».

كان فرانك استمع إلى تلك العبارة بهدوء أيضاً، دون أن يسأل أي

سؤال. كان يبدو كما بدا في تلك الليلة التي جاء فيها توني يقرع الباب كما لو كان هذا الأمر من شأن الرجال وحدهم، ويجب أن يعالج بالحد الأدنى من الكلمات والعواطف.

- «اذهب واركب في العربة، سأجعل بيتر يقودها لك حتى رف آند ريدي هذه الليلة، وفي وسعك أن تختبئ في الغابات حتى الصباح حيث تأخذ القطار إلى جونسبورو. ستكون الرحلة أكثر أماناً... والآن، كفي عن البكاء يا حلوتي، فقد انتهى الأمر، وأنت لست مصابة حقاً. آنسة بيتي، هل في وسعك الحصول على أملاح الإغماء خاصتك؟ وأنت يا مامي، اجلبي كأس خمر للآنسة سكارلت».

وكانت سكارلت قد انفجرت في سيل جديد من الدموع، دموع ساخطة هذه المرة. كانت في حاجة إلى مواساة، إلى حنو، إلى تهديدات بالانتقام. كانت تفضل حتى أن يثور عليها ويقول إن هذا هو كان ما قد حذرها من وقوعه - أي شيء آخر كان أفضل من أن يستقبل الأمر كله بهذه الصورة العرضية، ويقابل الخطر الذي تهددها كمسألة قليلة الأهمية. طبعاً لقد كان لطيفاً رقيقاً، ولكن بطريقة ذاهلة كما لو كان عقله مشغولاً بقضية أكثر أهمية من هذه بكثير.

وقد ظهر أن تلك القضية الهامة هي اجتماع سياسي صغير!

وبالكاد استطاعت سكارلت أن تصدق أذنيها عندما طلب إليها فرانك أن تبدل ثيابها وتستعد ليرافقها إلى بيت ميلاني لقضاء السهرة. كان يجب أن يعرف ما كان أقسى تجربتها وأن يعرف أنها لم تكن ترغب في أن تقضي سهرة في بيت ميلاني، في حين كان جسدها المتعب وأعصابها الصاخبة تستصرخ من أجل الاسترخاء الدافئ على سرير تحت الشراشف - مع آجرة ساخنة تخدر أصابع قدميها وقليل من خمر النخيل الدافئ يهدئ مخاوفها. وإذا كان هو يحبها حقاً، فلم يكن في وسع شيء أن يمنعه من البقاء إلى جانبها في هذه الليلة من بين كل

الليالي. كان ينتظر أن يظل في البيت ويمسك بيدها ويخبرها مرة بعد أخرى أنه كان يمكن أن يموت لو أن مكروهاً لحق بها. . . أجل، عندما يعود إلى البيت هذه الليلة وتنفرد به، ستخبره بهذا الأمر حتماً.

كانت ردهة ميلاني الصغيرة تبدو هادئة، شأنها في الليالي التي كان يغيب فيها فرانك وآشلي، حين تجتمع النسوة معاً للخياطة. كانت الغرفة دافئة منعشة في ضوء النار، وكان المصباح الموضوع على الطاولة يرسل وهجاً أصفر هادئاً على الرؤوس الأربعة الناعمة المكبة على أشغال الإبرة. وكانت تنانير أربع تتموج بحشمة بينما استقرت أقدام ثمان صغيرة فوق متكآت الأرجل المنخفضة بوضع أنيق. وكان صوت تنفس ويد وإيلا وبو المطمئن يُسمع من غرفة الأطفال خلال البيت المفتوح، أما آرشي فقد جلس على كرسي صغير قرب الموقد، ظهره مسنود إلى المدفأة، وجنتاه منتفختان بالتبغ، وهو دائب على بري قطعة خطب. وكان التباين بين الرجل العجوز القذر الكثيف الشعر والسيدات الظريفات المتألقات كبيراً جداً، كما لو كان هو كلب حراسة مسناً أصهب أثيماً، وكنّ هنّ أربع زهيرات صغيرات.

وتابع صوت ميلاني المشوب بالسخط حديثه بينما كانت صاحبته تتحدث عن الثوران النفسي الأخير الذي كان قد بدر عن «جمعية السيدات العازفات على القيثارة»، ذلك أن أولئك السيدات، وقد عجزن عن الاتفاق مع «نادي الطرب للسادة» على برنامج الحفلة التالية، كنّ قد زرن ميلاني بعد ظهر ذلك اليوم، وأعلنّ عزمهن على الانسحاب كلية من الجمعية الموسيقية، الأمر الذي استنفد كل دبلوماسية ميلاني لتقنعهن بإرجاء تنفيذ قرارهن.

وكادت سكارلت المنهوكة تصيح: «آه ليلعن اللّه السيدات العازفات على القيثارة». لقد كانت تريد أن تتحدث عن تجربتها المروِّعة، كانت تتميز غيظاً على روايتها بالتفصيل، كيما تستطيع أن

تخفف من رعبها بإرعاب الآخرين. كان تريد أن تظهر كم كانت شجاعة، فقط لتؤكد لنفسها بواسطة سماع صوت كلماتها أنها كانت شجاعة حقاً، ولكنها في كل مرة همَّت فيها بالكلام، كانت ميلاني تقود الحديث بمهارة في مجار أخرى آمنة، الأمر الذي أغاظ سكارلت أكثر مما تستطيع أن تتحمل، لقد كنّ خسيسات كفرانك.

كيف وسعهن أن يكن هادئات مطمئنات هكذا، بينما كانت هي قد أفلتت من مصير مرعب للغاية، قبيل برهة قصيرة فقط؟ إنه لم يقمن حتى بالمجاملة العادية، عندما أنكرن عليها حق التفريج عن نفسها بالتحدث عن الموضوع.

كانت أحداث الأمسية قد هزتها أكثر مما حرصت على أن تعترف به حتى لنفسها. وفي كل مرة كانت تفكر فيها بذلك الوجه الأسود الخبيث وهو يرنو إليها من ظلال طريق الغابة المضاءة بضوء الغسق، كانت تنتابها الرجفة، وعندما كانت تفكر في اليد السوداء تعبث في صدرها وما كان يمكن أن يحدث لو لم يظهر سام الكبير، كانت تحني رأسها وتعصر عينيها عصراً شديداً وهما مغمضتان. وكلما طال بها الجلوس الصامت في الغرفة المطمئنة، وهي تحاول أن تخيط وتصغي إلى صوت ميلاني، زادت أعصابها توتراً، وأحست أنها يمكن أن تسمعها تنفجر حقيقة في أية دقيقة، تنفجر بالأزيز ذاته الذي يُخرجه وتر البانجو عندما ينقصم.

وأزعجها بري آرشي لقطعة الحطب فعبست في وجهه، وبدا لها فجأة أن من الغريب أن يكون هذا الرجل جالساً هناك، يشغل نفسه بقطعة حطب. وكان آرشي في العادة يضطجع متمدداً على الكنبة، خلال الأمسيات التي كان يقوم فيها بالحراسة، ثم ينام ويشخر شخيراً حاداً جداً، بحيث إن لحيته الطويلة كانت تثب في الهواء مع كل نفس. والذي كان أكثر غرابة هو أن كلاً من ميلاني وإنديا لم توعزا له بأن

عليه أن ينشر ورقة على الأرض كي تقع عليها شظايا خشبته المبرية، التي كان قد جمع كومة كبيرة منها الآن على سجادة الموقد، ولكن لم يبدُ أن أياً منهما قد لاحظته.

وبينما كانت سكارلت تراقبه، التفت آرشي فجأة نحو النار، وبصق عليها سيلاً من عصير التبغ بصوت مرتفع جداً جعل إنديا وميلاني وبيتي يقفزن كأن قنبلة قد انفجرت.

- «أبحاجة أنت إلى أن تبصق بمثل هذا الصوت المرتفع؟» صاحت إنديا بصوت متهدج من التوتر العصبي، الأمر الذي جعل سكارلت تنظر إليها بدهشة، لأن إنديا كانت منطوية على نفسها دائماً.

إلا أن آرشي بادلها نظرة بنظرة.

- «أعتقد أني في حاجة» أجاب ببرود، وبصق ثانية، بينما ألقت ميلاني نظرة عابسة قليلاً على إنديا.

- «لقد كنت دائماً سعيدة جداً لأن والدي لم يكن يمضغ التبغ» بدأت بيتي، بينما وثبت ميلاني نحوها وقد زاد تقطيب جبينها ونطقت بكلمات أقسى من أي كلمات سمعتها سكارلت منها طوال حياتها.

- «ها، اصمتي يا عمتي، إنك غير لبقة أبداً».

- «آه، يا عزيزتي» وأسقطت بيتي أدوات الخياطة من حجرها، وتكوم فمها من الألم، «أعلن أني لا أعرف ما يؤلمكما هذه الليلة، فأنت وإنديا نزقتان حانقتان كعجوزين حمقاوين».

فلم يجبها أحد، ولم تعتذر ميلاني حتى من غضبها بل رجعت إلى خياطتها بقليل من العنف.

- «إنك تتركين بوصة بين القصبة والأخرى» أعلنت بيتي ببعض الرضى، «وعليك أن تفتقي جميع هذه القطب. ما بالكم؟».

ولكن ميلاني لم تجب.

أكانت هناك قضية تشغلهم؟ تساءلت سكارلت. أكانت هي غارقة

في مخاوفها بحيث لم تلحظ حقيقة الحال؟ أجل، فرغم محاولات ميلاني لجعل الأمسية تبدو كأي أمسية من أمسيات الخميس التي كان قد قضاها الجميع معاً، كان يوجد اختلاف في الجو، توتر لا يمكن أن يعزى جميعه إلى فزعهم وصدمتهم بسبب ما وقع ظهر ذلك اليوم. وراحت سكارلت تسترق النظر إلى رفيقاتها، والتقت نظرتها بنظرة من إنديا، نظرة كدرتها لأنها كانت طويلة تقديرية، تحمل في أعماقها الباردة شيئاً أقوى من الكراهية، شيئاً أكثر إهانة من الازدراء.

«كما لو أنها تظن أني أنا التي ينبغي أن ألام بسبب ما حدث» فكرت سكارلت بسخط.

وأشاحت إنديا بوجهها عنها، والتفتت إلى آرشي وقد فارق وجهها كل الانزعاج الذي كان قد شابه بسبب بصاقه، ثم ألقت عليه نظرة استفهام شغوفة محجبة، غير أنه لم يبادلها النظر، بل كان ينظر إلى سكارلت، يحدق فيها بالطريقة القاسية الجامدة ذاتها التي بدت في عيني إنديا.

وغمر الغرفة صمت كئيب عندما لم تستأنف ميلاني الحديث ثانية. وسمعت سكارلت خلال السكون، صوت الريح التي كانت تهب في الخارج، وفجأة بدأت الأمسية تتحول إلى أمسية منغصة جداً. وطفقت سكارلت تشعر بتوتر الجو، وتساءلت عما كان هذا التوتر موجوداً خلال الأمسية بطولها، وإنها كانت مضطربة جداً بحيث لم تستطع التحسس بوجوده، كان يشوب وجه آرشي مظهر انتظار وتيقظ، وكانت أذناه المكورتان المكسوتان بالشعر تبدوان مثقوبتين كأذني وشق، وكان يكتنف ميلاني وإنديا قلق مكبوت بضراوة، قلق جعلهما ترفعان رأسيهما عن الخياطة عند كل صوت حوافر صادر عن الطريق، عند كل أنة أغصان عارية تحدثها الريح المولولة، عند كل حفحفة أوراق جافة تتدحرج عبر المرجة. كانتا تجفلان عند كل طقطقة ناعمة تنبعث من

كتل الخشب المشتعلة في الموقد، كما لو كانت وقع خطوات تتسلل خفية.

كان هناك شيء غير طبيعي، وقد تساءلت سكارلت في نفسها عن هذا الشيء. كان هناك شيء قيد التنفيذ، ولكنها لم تكن تعلم به. وأخبرتها نظرة ألفتها على وجه العمة بيتي السمين الصريح، والمتجهم في عبوس، أخبرتها أن السيدة العجوز كانت تجهل السر مثلها، بينما كان يعرفه آشلي وميلاني وإنديا، لقد كان في وسعها، والسكون ضارب الجران، أن تحس تقريباً أفكار إنديا وميلاني تدور بجنون كسناجب في قفص. كانتا تعرفان شيئاً. تنتظران حدوث شيء رغم جهودهما لجعل الأمور تبدو عادية. ولكن قلقهما الداخلي نقل تأثيره إلى سكارلت وجعلها أكثر توتراً من قبل. وبينما كانت تحرك إبرتها باكتئاب وخزت إبهامها، وبصيحة قصيرة من الألم والضيق جعلت الجميع يقفزون، عصرت إبهامها إلى أن ظهرت عليه نقطة دم حمراء متلألئة.

- «إني متوترة الأعصاب جداً بحيث لا أستطع الخياطة» أعلنت قاذفة بثياب الرتق إلى الأرض، «إني متوترة الأعصاب جداً بحيث أكاد أزعق. أريد أن أذهب إلى البيت وآوي إلى فراشي. لقد كان فرانك يعرف ذلك وكان ينبغي ألّا يخرج هذه الليلة. إنه يتحدث ويتحدث ويتحدث عن حماية النساء من الزنوج والكاربت بكرز، وعندما تسنح له الفرصة ليقوم ببعض الحماية... أين هو الآن؟ في البيت، يعتني بي؟ لا، في الحقيقة إنه يتبختر في أنحاء المدينة مع زمرة من الرجال الآخرين الذين لا يفعلون شيئاً سوى التحدث و -».

واستقرت عيناها الخاطفتان على وجه إنديا، وصمتت. كانت إنديا تتنفس بسرعة، وكانت عيناها الشاحبتان العديمتا الأهداب مثبتتين على وجه سكارلت ببرود مميت.

- «إذا لم يكن ذلك يؤلمك كثيراً يا إنديا» انفجرت سكارلت

بتهكم، «فسأكون شاكرة جداً لك إن أخبرتني لماذا كنت تحدقين بي طوال الأمسية. هل امتقع لون وجهي، أو حدث لي أي شيء آخر؟».

- «لا، لن يؤلمني أن أخبرك، بل إني أخبرك بسرور» قالت إنديا وعيناها تتألقان، «إني أمقت أن أراك تحطين من قدر رجل رائع كالسيد كنيدي في الوقت الذي - لو أنك عرفت -».

- «إنديا!» قالت ميلاني محذرة، ويداها تقبضان على ما تخيط.

- «أعتقد أني أعرف زوجي أفضل مما تعرفينه أنت» قالت سكارلت، بينما كان توقع العراك، أول عراك علني لها مع إنديا، يرفع من معنوياتها ويلاشي توترها، غير أن عيني ميلاني رمقتا عيني إنديا فأطبقت هذه شفتيها كارهة، ولكنها ما عتمت أن تكلمت ثانية، وكان صوتها مشحوناً بالكراهية:

- «إنك تمرضينني يا سكارلت أوهارا وأنت تتحدثين عن الحماية! أنت التي لا تهتمين بحماية نفسك. فلو كنت تهتمين بذلك، لما عرضت نفسك للمخاطر كما فعلت طوال هذه الشهور. تقحمين نفسك في هذه المدينة وتتباهين بظهورك للرجال الغرباء، آملة أن يكبروك! والذي وقع لك بعد ظهر هذا اليوم كان حقيقاً بك تماماً. ولو كانت هناك أية عدالة لنلت أسوأ من هذا القصاص».

- «ها إنديا، اصمتي» صاحت ميلاني.

- «دعيها تتكلم» صاحت سكارلت، «إني مسرورة بحديثها. لقد كنت أعرف دائماً أنها تبغضني، ولقد كانت منافقة جداً، فلم تعترف ببغضها لي. لو أنها تظن أن أي إنسان سيعجب بها، لقطعت الشوارع عارية على قدمَيها من الفجر حتى الظلام».

فانتصبت إنديا على قدميها وجسدها النحيل ينتفض من الإهانة:

- «إني أبغضك» قالت بصوت جلي، إلا أنه مرتعش، «ولكن لم يكن النفاق هو الذي منعني من التصريح بذلك، وإنما الذي منعني شيء

لا تستطيعين فهمه، أنت التي لا تملكين أي - أي مجاملة اجتماعية - أي تربية اجتماعية صالحة. إنه إدراك أنه إذا لم نتَّحد جميعاً معاً، ودفن كراهياتنا الصغيرة، فلن نتوقع التغلب على الشماليين. ولكن أنت - أنت - لقد ارتكبت كل ما في وسعك لتحطي من مقام كرام الناس - تشتغلين وتجلبين العار على زوج طيب. تعطين الشماليين والرعاع الحق في أن يضحكوا علينا ويتفوهوا بعبارات جارحة عن عدم نبلنا. إن الشماليين لا يملكون من الوعي ما يجعلهم يدركون أنك لا تنعمين بأي نبل، وعندما كنت تتجولين بعربتك بين الغابات، وتعرضين نفسك للهجوم، كنت بذلك تعرضين كل امرأة مهذبة في المدينة للهجوم وذلك بوضعك الإغراء في طريق الزنوج والبيض الحقيرين المنحطين. هذا علاوة على أنك وضعت أرواح رجالنا في خطر، إذ أصبح من واجبهم أن -».

- «باللّه عليك يا إنديا!» صاحت ميلاني، بينما ذهلت سكارلت على الرغم من سخطها، وهي تسمع ميلاني تلفظ اسم الإله عبثاً، «ينبغي أن تصمتي! إنها لا تعرف وهي - ينبغي أن تصمتي! لقد وعدت -».

- «ها أيتها البنات!» توسلت الآنسة بيتي بات وشفتاها ترتعشان.

- «ما الذي لا أعرفه؟» انتصبت سكارلت على قدميها حانقة، ووقفت تواجه إنديا المتأججة ببرود، وميلاني المتوسلة.

- «دجاج غينياوي» قال آرشي فجأة وصوته ينم عن ازدراء. وقبل أن تستطيع إحداهن زجره، ارتفع رأسه الشائب بعنف، ونهض عن الأرض بسرعة: «إن أحد الناس قادم في الممشى، وليس هو السيد ويلكس، أكففن عن النقيق».

كان في صوته سلطة الرجل، ولذلك وقفت النسوة صامتات والغضب يتلاشى سريعاً من وجوههن، بينما راح هو يوزوز عبر الغرفة إلى الباب.

- «من الطارق؟» استوضح قبل أن يقرع القادم الباب.

- «الكابتن باتلر، دعني أدخل».

وعبرت ميلاني الغرفة بسرعة فائقة، بحيث إن أطواقها كانت تتأرجح بشدة، كاشفة عن سروالها حتى الركبتين، وقبل أن يستطيع آرشي أن يضع يده على مقبض الباب، فتحت الباب دفعاً، وإذا بريت باتلر يقف عند البوابة، وقبعته السوداء المتدلية منخفضة فوق عينيه والريح شديدة ترطم معطفه على جسده في طيات خاطفة. وللمرة الأولى تخلى عن أخلاقه الحميدة فلم يرفع قبعته تحية لها ولم يتحدث إلى الآخرين في الغرفة، بل لم يكن ينظر إلا إلى ميلاني، ثم تكلم فجأة ومن دون تحية:

- «أين ذهبوا؟ أخبريني بسرعة، فمصيرهم معلق بين الحياة والموت».

وأجفلت سكارلت وبيتي واضطربتا وتبادلتا النظرات في استغراب، بينما انسلت إنديا عبر الغرفة إلى جانب ميلاني كقطة هزيلة مسنة.

- «لا تخبريه بأي شيء» صاحت على عجل، «إنه جاسوس، سكالاواغ!».

فلم يجبها ريت، ولا حتى بنظرة.

وبدا أن ميلاني كانت في شلل من الرعب، ولم يسعها إلا أن تحملق في وجهه فقط.

- «ماذا -» بدأت سكارلت.

- «إخسئي» قال آرشي باقتضاب، «وأنت أيضاً يا آنسة ميلي. اخرج من هنا، أيها السكالاواغ».

- «لا يا آرشي، لا» صاحت ميلاني، ووضعت يداً مرتجفة على

ذراع ريت كأنها تريد حمايته من آرشي، «ماذا حدث؟ كيف - كيف عرفت؟».

كانت البشاشة وفراغ الصبر يتصارعان على وجه ريت الأدكن.

- «يا للّه العزيز يا سيدة ويلكس، لقد كانوا جميعاً محط الريبة منذ البداية، غير أنهم كانوا أذكى من أن يكشفوا عن أنفسهم حتى جاءت هذه الليلة! كيف أعرف؟ كنت ألعب البوكر مع ضابطين شماليين سكرانين فأعلنا الخطة أمامي. لقد كان الشماليون يعرفون أنه ستقع حوادث الليلة، وقد استعدوا للأمر. لقد وقع الأغبياء في شرك».

ولهنيهة، بدا كأن ميلاني كانت تترنح تحت تأثير ضربة قوية وامتدت ذراع ريت حول خصرها لتسندها.

- «لا تخبريه! إنه يحاول خداعك» صاحت إنديا وهي تنظر شزراً إلى ريت، «ألم تسمعيه يقول إنه كان مع ضابطين شماليين هذه الليلة؟».

ولكن ريت ما انفك لا ينظر إليها، فقد كانت عيناه مصوَّبتين بإصرار إلى وجه ميلاني الشاحب.

- «أخبريني أين ذهبوا؟ هل لهم مكان معيَّن للاجتماع؟».

ورغم خوفها وعدم فهمها للموضوع، فكرت سكارلت أنها لم تكن قد رأت وجهاً أكثر إبهاماً وعدم تعبير من وجه ريت، ولكن كان من الواضح أن وجه ميلاني كان يرى شيئاً آخر، شيئاً جعلها تمنحه ثقتها. وانتصبت بجسدها الصغير بعيداً عن ذراعه الساندة، وقالت بهدوء ولكن بصوت متهدج:

- «خارج طريق ديكاتور، قرب شانتيتون. إنهم يجتمعون في مقصورة مزرعة سوليفان العجوز - المزرعة نصف المحترقة».

- «أشكرك، سأنطلق إليهم بسرعة. وعندما يأتي الشماليون هنا، فليدَّعِ كل منكم أنه لا يعرف شيئاً».

وانطلق بسرعة فائقة، وتلاشى معطفه الأسود في الليل، بحيث لم يعد في وسعهم إلا بصعوبة أن يتحققوا من وجوده إلى أن سمعوا تناثر الحصباء ووقع الحوافر المجنونة لحصان يجري بأقصى سرعته.

- «الشماليون قادمون هنا؟» صاحت بيتي، وخذلتها قدماها الصغيرتان ثم تهالكت على الكنبة مذعورة جداً بحيث لم يكن في وسعها البكاء.

- «ما القضية؟ ماذا كان يعني ريت؟ إذا لم تخبريني سأجن» ووضعت سكارلت يديها على ميلاني وهزتها بعنف، كما لو كان في وسعها أن تنتزع منها جواباً بالقوة.

- «يعني؟ يعني أنك ربما كنت السبب في موت آشلي والسيد كنيدي!» كان يشوب صوت إنديا نغم منتصر رغم نوبة الخوف الشديدة، «كفي عن هز ميلاني فسيغمى عليها».

- «لا، لن يغمى عليَّ» همست ميلاني قابضة على مؤخرة الكرسي.

- «يا إلهي، يا إلهي، إنني لا أفهم!... أقتل آشلي؟ أرجوك، ليخبرني أحدكم -».

وقطع صوت آرشي كلمات سكارلت كمقصلة صدئة «اجلسي» أمر باقتضاب: «تناولن ثياب الخياطة، خيطن كأن شيئاً لم يحدث، لأننا جميعاً نعرف أن الشماليين يمكن أن يكونوا يتجسسون على هذا البيت منذ الغروب. أقول اجلسن وخيطن».

فأطعن وهنّ يرتجفن، حتى بيتي التقطت جورباً عن الأرض بأصابع مرتعشة، بينما كانت عيناها المتسعتان كعيني طفل مذعور، تحومان في الحلقة تنشدان إيضاحاً.

- «أين آشلي؟ ماذا حدث له يا ميلي؟» صاحت سكارلت.

- «أين زوجك؟ ألست مهتمة به؟» وبرقت عينا إنديا الصفراوان بحقد مجنون وهي تجعد وتنشر المنشفة الممزقة التي كانت ترقعها.

- «إنديا أرجوك» كانت ميلاني قد سيطرت على صوتها ولكن وجهها الأبيض المخضوض وعينيها المعذبتين، كانت تعكس مدى الجهد الذي كانت ترزح تحته، «سكارلت، ربما كان يجب أن نخبرك ولكن - ولكن - لقد عانيت كثيراً بعد ظهر هذا اليوم بحيث إننا - بحيث إن فرانك ظن أن ليس من الـ - كما أنك كنت دائماً غير متحفظة في حديثك عن الكلان».

- «الكلان -».

نطقت سكارلت الكلمة في بادئ الأمر، كما لو أنها لم تكن قد سمعتها من قبل، ولم يكن لديها أي علم بمعنى للكلمة، ولكنها بعدئذ كررت:

- «الكلان!» وأخرجتها كزعيق تقريباً، «ليس آشلي في الكلان! ولا يمكن أن يكون فرانك فيه، لقد وعدني!».

- «طبعاً إن السيد كنيدي في الكلان، وآشلي أيضاً، وكل الرجال الذين نعرفهم» صاحت إنديا، «إنهم رجال، أليس كذلك؟ ورجال بيض وجنوبيون. كان ينبغي أن تكوني فخورة به، بدلاً من أن تجعليه يتسلل خارجاً كما لو أن الأمر أمر معيب و -».

- «إنكم جميعاً تعرفون كل شيء، وأنا لا -».

- «كنا نخاف أن يثيرك ذلك» قالت ميلاني متأسفة.

- «إذن هناك هم يذهبون، عندما يُفترض أن يكونوا في الاجتماعات السياسية؟ آه، لقد وعدني! والآن سيأتي الشماليون وينتزعون مني معملي والمخزن ويضعون فرانك في السجن. آه، ماذا عنى ريت باتلر؟».

فقابلت عينا إنديا عيني ميلاني في خوف هائل، بينما نهضت سكارلت وقذفت بخياطتها إلى الأرض.

- «إذا لم تخبروني، فسأذهب إلى المدينة وأكتشف الحقيقة. سأسأل كل إنسان أراه إلى أن أعرف -».

- «اجلسي» قال آرشي، ورمقها بعينه، «سأخبرك، لأنك رحت تتخطرين بعد ظهر هذا اليوم وأوقعت نفسك في المشاكل. أجل بسبب غلطتك خرج السيد كنيدي والسيد ويلكس والآخرون هذه الليلة ليقتلوا ذينك الوعلين الزنجي والرجل الأبيض إذا استطاعوا إلقاء القبض عليهما، وليزيلوا مستعمرة شانتيتون جميعها عن الوجود. وإذا كان ما قاله ذلك السكالاواغ صحيحاً فإن الشماليين قد ارتابوا بشيء ما، وأرسلوا جنوداً ليكمنوا لرجالنا الذين يكونون قد وقعوا في الشرك. وإذا كان ما قاله باتلر ليس صحيحاً، إذن فهو جاسوس وسيكشف أمر رجالنا للشماليين، الأمر الذي سينتهي بقتلهم أيضاً. وإذا هو كشف أمرهم للشماليين فسأقتله حتى لو كان ذلك آخر عمل في حياتي. وإذا لم يُقتلوا، فسيكون عليهم جميعاً أن يفروا من هنا إلى تكساس ويختبئوا هناك وربما لن يعودوا أبداً. إن تلك كلها غلطتك وذلك الدم من صنع يديك».

أزال الغضبُ الخوفَ من وجه ميلاني، وهي ترى الإدراك يزحف بطيئاً عبر وجه سكارلت، ثم يتبعه الرعب سريعاً. وعندئذ نهضت ووضعت يدها على كتف سكارلت:

- «كلمة أخرى شبيهة وتخرج من البيت يا آرشي» قالت بعبوس، «ليست تلك غلطتها، إنها فقط فعلت - فعلت الذي كانت تشعر بأن عليها أن تفعله. إن على الناس أن يفعلوا ما ينبغي لهم أن يفعلوه، نحن لا نفكر جميعاً التفكير ذاته ولا نتصرف التصرف، ومن الخطأ أن - أن

نقاضي الآخرين بأنفسنا. كيف تستطيع أنت وإنديا أن تتفوها بكلمات قاسية كهذه بينما يمكن أن يكون زوجها وزوجي - يمكن أن يكونا -».

- «أصغي» قاطعها آرشي بلطف، «اجلسي يا سيدة. هناك صوت خيل».

فجلست ميلاني على كرسي، والتقطت أحد قمصان آشلي، وشرعت من دون وعي منها، تمزق الكشائش إلى شرائط صغيرة، وقد أحنت رأسها فوق القميص.

ازداد صوت وقع الحوافر ارتفاعاً بينما كانت الخيل تخب إلى البيت، ثم سمعت جلجلة لقم الأعنة واحتكاك الجلود وأصوات الرجال، وعندما وقفت الحوافر أمام البيت، علا صوت بقية الأصوات، في أمر، وسمع المصغون أقداماً تتجه عبر الساحة الجانبية نحو الشرفة الخلفية، وأحسوا أن ألف عين عدائية تنظر إليهم عبر النافذة الأمامية العديمة الستائر. وحنت النسوة الأربع رؤوسهن وكببن على إبرهن والخوف يملأ قلوبهن، وكان قلب سكارلت يصرخ في صدرها: «لقد قتلت آشلي! لقد قتلته!» وفي تلك اللحظة الرهيبة لم تفكر في أنها يمكن أن تكون قد قتلت فرانك أيضاً، إذ لم يكن في عقلها متسع لأي صورة باستثناء صورة آشلي مضطجعاً عند قدمَي فارس شمالي وشعره الأشقر ملطخ بالدم.

وبينما كان القرع العنيف السريع يدوي على الباب، نظرت سكارلت إلى ميلاني، ورأت تعبيراً جديداً يزحف على الوجه الصغير المتوتر، تعبيراً غامضاً كذلك الذي رأته على وجه ريت باتلر، التعبير الغامض الأنيس للاعب بوكر يربح اللعبة احتيالاً بورقتين اثنتين وحسب.

- «آرشي، افتح الباب» قالت بهدوء.

دس آرشي سكينه في أعلى حذائه، وأرخى المسدس في حزام

سرواله ووزوز نحو الباب، وفتحه دفعاً. وزعقت بيتي زعقة قصيرة كفأرة تحس أن المصيدة أطبقت عليها، عندما رأت البوابة وقد احتشد فيها ضابط شمالي وفصيل من جنوده. غير أن الأخريات لم يقلن شيئاً. ورأت سكارلت وهي يساورها شعور خفيف من الفرج، أنها تعرف هذا الضابط، كان هو الضابط توم جفري أحد أصدقاء ريت، وكانت قد باعته خشباً لبناء بيته، وكانت تعرفه سيداً فاضلاً، وربما لن يجرّهم إلى السجن لأنه كان فاضلاً، وعرف الضابط شخصها فوراً، وانحنى نازعاً قبعته، متأثراً بعض التأثر.

- «عمي مساء يا سيدة كنيدي، وأي منكن أيتها السيدات هي السيدة ويلكس؟».

- «أنا هي السيدة ويلكس» أجابت ميلاني ناهضة، والوقار يطفر منها رغم صغر حجمها، «وإلام أعزو هذا الدخول إلى بيتي من دون إذن؟».

فحامت عينا الضابط في الغرفة بسرعة، واستقرتا هنيهة على كل وجه. وبسرعة، تخطتا الوجوه إلى المنضدة ومشجب القبعات، كأنهما كانتا تتطلعان إلى وجود الذكور.

- «إني أرغب في التحدث إلى السيد ويلكس والسيد كنيدي إذا ما تفضلت».

- «ليسا هنا» قالت ميلاني وصوتها الناعم تشوبه برودة.

- «أواثقة أنت؟».

- «لا تسأل السيدة ويلكس أية كلمة» قال آرشي وقد قبت لحيته.

- «أرجو عفوك يا سيدة ويلكس، إني لم أقصد إهانتك. إذا ما صدقتني القول، فلن أفتش البيت».

- «إني أصدقك القول، ولكن فتش إذا كنت ترغب في ذلك. إنهما موجودان في اجتماع في المدينة، في مخزن السيد كنيدي».

- «ليسا في المخزن، ولم يكن يوجد أي اجتماع الليلة» أجاب الضابط بعبوس، «سننتظر خارجاً إلى أن يعودا!».

وانحنى قليلاً وخرج مغلقاً الباب خلفه، وسمع من في البيت أمراً صارماً خفَّفت الريح حدَّته: «طوقوا البيت، وليقف رجل على كل نافذة وعلى كل باب» وسمع وقع أقدام، وكبحت سكارلت انطلاقة ذعر، عندما رأت بغموض، وجوهاً ملتحية تحدق فيهم من النوافذ. أما ميلاني فقد جلست ومدت يداً غير مرتجفة وتناولت كتاباً من على الطاولة. لقد كان نسخة من **البؤساء**، ذلك الكتاب الذي كان يأسر خيال الجنود الحلفيين، فلقد قرأوه في ضوء نيران المعسكرات وكانوا يشعرون ببعض السرور الكئيب حين يدعونه «بؤساء لي» وفتحت ميلاني الكتاب في منتصفه وبدأت تقرأ بصوت رتيب واضح.

- «خطن» أمر آرشي في همسة جشاء، والتقطت النسوة الثلاث أشغالهن وأحنين رؤوسهن وقد تشجعن بصوت ميلاني الهادئ.

لم تدر سكارلت مطلقاً كم من الوقت استمرت ميلاني في القراءة تحت تلك الحلقة من العيون المراقبة. ولكن الأمر بدا لها كأنه ساعات مع أنها لم تسمع مجرد كلمة مما قرأت ميلاني، إذ كانت الآن قد شرعت تفكر في فرانك كما كانت تفكر في آشلي. . . إذن هذا هو تعليل هدوئه الظاهر البيِّن هذا المساء. كان قد وعدها ألّا تكون له أي علاقة بالكلان، آه، هذه هي المصيبة التي كانت تخشى أن تنزل بهم! كل عمل هذه السنة سيذهب سدى. لقد بددت جميع نضالاتها ومخاوفها ومساعيها في المطر والبرد، ومن كان يعتقد أن فرانك، ذلك العجوز البليد، يمكن أن يورط نفسه في أعمال الكلان الطائشة؟ حتى في هذه الدقيقة يمكن أن يكون ميتاً، وإذا لم يكن ميتاً، وكان الشماليون قد أسروه ، فإنه سيعدم، وآشلي أيضاً!

وغرزت أظافرها في راحتيها، حتى بدا على الجلد أربع أهلة

حمراء ظاهرة. كيف كان في وسع ميلاني أن تستمر في القراءة بهذه الطمأنينة بينما كان يتهدد آشلي خطر الإعدام؟ بينما كان يمكن أن يكون ميتاً؟ غير أن شيئاً في الصوت الهادئ الناعم الذي كان يتلو أحزان جان فالجان ثبَّت جأشها ومنعها من أن تثب على قدميها وتصيح.

وعاد عقلها سريعاً إلى الليلة التي كان توني فونتين قد جاءهم فيها مطارداً منهوكاً وبلا نقود. لو أنه لم يبلغ بيتهم ويتسلَّم نقوداً وحصاناً مرتاحاً، لكان قد أعدم منذ زمن طويل. وإذا لم يكن فرانك وآشلي قتيلين في هذه الدقيقة بالذات، فإنهما يكونان في وضع توني، بل أسوأ من وضعه. ولم يكن في وسعهما والبيت محاصر بالجنود أن يأتيا إلى البيت ويتزودوا بالمال والثياب دون أن يُلقى القبض عليهما. وربما كان يحوط كل بيت في الشارع حرس شمالي كهؤلاء ولذلك لم يكن في وسعهما الالتجاء إلى أصدقاء من أجل العون. ويمكن أن يكونا الآن منطلقين بضراوة فوق حصانيهما خلال الليل، إلى تكساس مباشرة. ولكن ريت - ربما كان ريت قد بلغهما في الوقت المناسب. إن ريت دائماً يحمل مبلغاً وفيراً من المال في جيبه، وربما أقرضهما مقداراً كافياً ليطمئن إلى أنهما نجوا. على أن ذلك كان أمراً مستغرباً، إذ لماذا كان ينبغي لريت أن يزعج نفسه على سلامة آشلي؟ من الأكيد أنه كان يبغضه، ومن الأكيد أن أقر بازدرائه له، إذن لماذا - ولكن هذه الأحجية ابتلعها خوف متجدد على سلامة آشلي وفرانك.

«آه إنها جميعها غلطتي!» ولولت في سرّها، «لقد نطقت إنديا وآرشي بالصدق. إنها جميعها غلطتي. غير أني لم أفكر أبداً أن أياً منهما كان غبياً إلى درجة يلتحق معها بالكلان! كما أني لم أفكر أبداً في أن أي مكروه سيلحق بي حقيقة! ولكن لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك. لقد نطقت ميلي بالصدق، إن على الناس أن يفعلوا ما ينبغي لهم فعله. ولقد كان عليَّ أن أبقي المعملين في عمل مستمر! كان عليَّ

أن أجني مالاً! وقد أفقد الآن كل شيء، وإنها جميعها غلطتي بأي وجه من الوجوه».

وبعد برهة طويلة من القراءة، أخذ صوت ميلاني يتلجلج، ثم توانى ليغيب في الصمت. وأدارت صاحبته رأسها نحو النافذة، وحدقت كما لو أنه لم يكن هناك جندي شمالي، يحدق من خلف الزجاج، ورفع الآخرون رؤوسهم، وقد خبلهم صمتها المصغي فراحوا يصغون هم أيضاً.

كان هناك صوت حوافر خيل وغناء، صوت كانت الأبواب والنوافذ المغلقة تلاشيه، وكانت الريح تحمله بعيداً، ومع ذلك فما زال يمكن تمييزه. كان الصوت ينشد أسوأ الأغنيات وأشدها كراهية واستنكاراً، الأغنية المتعلقة برجال شيرمان - الزحف عبر جورجيا - وكان ريت باتلر هو الذي ينشدها.

ولم يكد ريت ينهي الأسطر الأولى، حتى عارضه صوتان آخران، صوتان مخموران، صوتان أحمقان محتدان، يتلعثمان بالكلمات، ويخلطانها معاً، ثم سمع من في البيت أمراً سريعاً صادراً عن الضابط جفري في الشرفة الأمامية، تلاه وقع أقدام سريعة. ولكن حتى قبل أن ترتفع هذه الأصوات، تبادلت السيدات النظر مشدوهات. وذلك لأن الصوتين المخمورين اللذين كانا يعارضان صوت ريت، كانا صوتَي آشلي وهيو إلسينغ.

واشتد ارتفاع الأصوات في الممشى الأمامي، صوت الضابط جفري الأجش واستجوابه، زعيق هيو وضحكه الأحمق، صوت ريت العميق المستهتر وصراخ آشلي الغريب الزائف:

- «يا للجحيم! يا للجحيم!».

- «لا يمكن أن يكون ذلك هو آشلي!» فكرت سكارلت مرتاعة،

«فهو لا يسكر أبداً. ولا ريت - فعندما يسكر ريت، يغدو أهدأ وأهدأ - ولا يبدو كذلك أبداً».

نهضت ميلاني ونهض آرشي معها، ثم سمع الجميع صوت الضابط الصارم: «ألقوا القبض على هذين الرجلين» وأطبقت يد آرشي على زناد مسدسه.

- «لا» همست ميلاني بحزم، «لا، دع الأمر لي».

كان يشوب وجهها المظهر ذاته الذي كانت سكارلت قد رأته ذلك اليوم في تارا، عندما وقفت ميلاني على قمة الدرج ومعصمها الضعيف مرتخ بحمل السيف الثقيل - نفس حيية رقيقة أثارتها الظروف حتى أضحت نمرة في حذرها وشراستها.

- «أدخله يا كابتن باتلر» صاحت بصوت جلي يلذع بالحقد، «أظن أنك ألفيته مخموراً مرة ثانية، أدخله».

ومن الممشى المظلم العاصف، ارتفع صوت الضابط الشمالي: «إني متأسف يا سيدة ويلكس، ولكن زوجك والسيد إلسينغ قيد الاعتقال الآن».

- «قيد الاعتقال؟ لأي سبب؟ بسبب السكر؟ إذا قبض على كل إنسان في أتلانتا بسبب السكر، فإن الحامية الشمالية بأسرها ستزج في السجن باستمرار، على كل حال، أدخله يا كابتن باتلر، وذلك إذا كنت تستطيع المشي -».

لم يكن عقل سكارلت يعمل بسرعة، ولهنيهة قصيرة لم تدرك شيئاً. لقد كانت تعرف أن كلاً من ريت وآشلي لم يكونا مخمورين، وكانت تعرف أيضاً أن ميلاني كانت تعرف أنهما لم يكونا مخمورن، ومع ذلك فها هي ميلاني اللطيفة المهذبة عادة، تزعق كامرأة سليطة، وأمام الشماليين أيضاً، مصرحة بأن كليهما كانا مخمورين جداً بحيث لا يقويان على المشي.

وتلا ذلك حوار قصير مغمغم، تخللته شتائم، ثم صعدت الدرج أقدام مضطربة، وظهر آشلي في البوابة، وجهه أبيض متدل وشعره البراق مشعث، وجسده الطويل مدثر من الرقبة إلى الركبتين بمعطف ريت الأسود. وكان هيو إلسينغ وريت المضطربا الخطوات يسندانه من كلا الجانبين، وكان من الواضح أنه كان ينتظر أن يقع على الأرض لولا مساعدتهما. وخلف الثلاثة، صعد الضابط الشمالي ووجهه صفحة من مزيج من الشك والدهشة، ووقف في البوابة المفتوحة رجال يحدقون بفضول من فوق كتفيه، بينما اجتاحت الريح الباردة المنزل.

وراحت عينا سكارلت المذعورة الحائرة، تنتقل من ميلاني إلى آشلي المرتخي، ثم جاءها نصف فهم لما حولها، وهمَّت لتصرخ «ولكنه لا يمكن أن يكون مخموراً» إلا أنها عضت على الكلمات قبل أن تخرج، إذ أدركت أنها كانت تشهد تمثيلية، تمثيلية يائسة كانت تتوقف عليها أرواح أناس أحياء. وعرفت أنها لم تكن جزءاً في هذه التمثيلية، وكذلك العمة بيتي، بينما كان الآخرون أجزاء فيها، وكانوا يتبادلون الإشارات فيما بينهم، كممثلين في مسرحية مكررة التلاوة كثيراً. وهكذا فهمت نصف حقيقة الوضع فقط، إلا أن ذلك كان كافياً ليجعلها تخلد إلى الصمت.

- «ضعه على ذلك الكرسي» صاحت ميلاني ساخطة. «وأنت يا كابتن باتلر، غادر هذا البيت فوراً! كيف تجرؤ على الظهور هنا بعد أن ورطته في هذه الهوة ثانية؟».

وأراح الرجلان آشلي على كرسي هزاز، وتمسك ريت بظهر الكرسي وهو يتهادى كي يثبت جسده، ثم خاطب الضابط وصوته ينطق بالألم:

- «تلك تشكرات رائعة أنالها، أليس كذلك؟ ذلك لأني منعت

رجل الشرطة من القبض عليه، وأوصلته إلى البيت وهو يصيح ويحاول خدشي بأظافره!».

- «وأنت يا هيو إلسينغ، إني أشعر بالعار من أجلك! ماذا ينتظر أن تقول أمك المسكينة؟ مخمور وخارج البيت مع - مع سكالاواغ محب للشماليين كالكابتن باتلر! وأنت يا سيد ويلكس، كيف وسعك أن تأتي عملاً كهذا؟».

- «ميلي، لست مخموراً جداً» غمغم آشلي، وتهالك إلى الأمام واضعاً وجهه على المائدة ودافناً رأسه داخل ذراعه.

- «آرشي، خذه إلى غرفته وضعه في سريره - كالعادة». أمرت ميلاني، «عمتي بيتي، أرجوك أسرعي وهيئي السرير، آه» وانفجرت بالدموع فجأة، «آه، كيف وسعه ذلك؟ بعد أن وعدني!».

- «لا تلمسه، إنه قيد الاعتقال. أيها الجاويش!».

وعندما خطا الجاويش داخل الغرفة وهو يجرجر بندقيته خلفه، وضع ريت يده على ذراع الضابط وركز عليه بصره بصعوبة، وقد بدا جلياً أنه كان يسند نفسه خشية الوقوع:

- «توم، لأي سبب أنت قابض عليه؟ إنه ليس سكران جداً. لقد رأيته في حالات أشد من هذه سكراً».

- «ليسكر حتى الثمالة» صاح الضابط، «إن في وسعه أن يرقد في المرحاض دون أن أحفل بذلك، فأنا لست شرطياً - بيد أنه والسيد إلسينغ قيد الاعتقال بتهمة الاشتراك في هجوم كلاني على شانتيتون، وقد قُتل زنجي ورجل أبيض من جرّاء ذلك. وكان السيد ويلكس هو قائد الحملة».

- «هذه الليلة؟» وطفق ريت يضحك، راح يضحك ضحكاً شديداً جداً بحيث إنه اضطر إلى أن يجلس على الكنبة ويضع رأسه بين يديه، «ليس هذه الليلة يا توم» قال عندما استطاع التكلم، «هذان الاثنان كانا

معي هذه الليلة - منذ الساعة الثامنة فصاعداً، أي في الوقت الذي كان يُفترض فيه أن يكونا في الاجتماع».

- «معك يا ريت؟ ولكن -» وخفت عبسة جبين الضابط ونظر بارتياب إلى آشلي المشخر وإلى الزوجة الباكية، «ولكن - أين كنتم؟».

- «لا أريد أن أقول أين كنا» وقذف ريت نظرة مخمور على ميلاني.

- «من الأفضل أن تقول!».

- «دعنا نخرج إلى الشرفة وهناك أخبرك أين كنا».

- «أخبرني الآن».

- «إني أمقت أن أصرح بذلك أمام السيدات. إذا خرجتن أيتها السيدات من الغرفة -».

- «لن أخرج» صاحت ميلاني وهي تكفكف دموعها بسخط، «إن لي الحق في أن أعرف أين كان زوجي».

- «في ماخور السيدة بيل وتلينغ» قال ريت وقد بدا خجلاً.

- «لقد كان هناك وهيو وفرانك كنيدي والدكتور ميد و - مجموعة كاملة منهم. كانوا ينعمون بحفلة، حلفة كبيرة، شمبانيا وفتيات -».

- «في - في بيت بيل وتلينغ؟».

وارتفع صوت ميلاني إلى أن غص بألم شديد جعل كل العيون تلتفت إليها مذعورة. وامتدت يداه لتقبض على صدرها، وقبل أن يستطيع آرشي أن يمسك بها، كان قد أغمي عليها، وتلا ذلك هرج ومرج: آرشي يرفعها، إنديا تجري إلى المطبخ لتجلب ماء، بيتي وسكارلت يروحان لها وتصفعان معصميها بينما هيو إلسينغ يصرخ مرة بعد أخرى: «لقد فعلتها الآن! لقد فعلتها الآن!».

- «الآن سيعم الخبر جميع المدينة» قال ريت بفظاظة، «أرجو أن

تكون قد اقتنعت يا توم. لن تكون هناك زوجة في أتلانتا تتكلم مع زوجها غداً».

- «ريت، لم تكن لدي فكرة -» ومع أن الريح الباردة كانت تهبّ على ظهره من خلال الباب المفتوح، إلا أن الكابتن كان يتصبب عرقاً، «أصغِ إليّ، هل تقسم إنهم كانوا في - في بيت بيل؟».

- «يا للجحيم! نعم أقسم» همهم ريت، «اذهب وسل بيل نفسها إن كنت لا تصدقني. والآن دعني أحمل السيدة ويلكس إلى غرفتها، أعطنيها يا آرشي. أجل فأنا أستطيع حملها. آنسة بيتي، سيري أمامي بمصباح».

- «احمل السيد ويلكس إلى السرير يا آرشي، فأنا لا أريد أن تقع عليه عيناي أو يداي ثانية بعد هذه الليلة».

كانت يد بيتي ترتجف بحيث إن المصباح كان يهدد سلامة البيت، ولكنها مع ذلك، حملته وتقدمت به خبباً نحو غرفة النوم المظلمة، بينما دس آرشي ذراعه تحت آشلي وحمله وهو يصيح كخنزير.

- «ولكن لا بد لي من أن أقبض على هذين الرجلين!».

وعندئذ التفت ريت نحوه وهو في القاعة المعتمة:

- «اقبض عليهما في الصباح إذن، فليس في وسعهما الهرب وهما في هذه الحالة. لم أكن أعلم قبل الآن، أن من غير القانوني أن يسكر المرء في ماخور. يا للّه العظيم يا توم، هناك خمسون شاهداً ليثبتوا أنهم كانوا في بيت بيل».

- «هناك دائماً خمسون شاهداً ليثبتوا أن جنوبياً كان في مكان ما، بينما لا يكون هنالك!» قال الضابط محتداً، «هلم معي يا سيد إلسينغ، وسأدع السيد ويلكس في عهدة شرفه -».

- «إني شقيقة السيد ويلكس، وإني مسؤولة عن ظهوره أمامكم

غداً» قالت إندیا ببرود، «والآن هل تتفضل بالذهاب؟ لقد سببت من المتاعب ما يكفي لليلة واحدة».

- «إني متأسف من أجل ذلك كثيراً» وانحنى الضابط بفظاظة، «أرجو فقط أن يتمكنا من إثبات أنهما كانا موجودين في - في بيت الآنسة - السيدة وتلينغ. هل تخبرين شقيقك أنه يجب أن يظهر أمام الحاكم العسكري غداً صباحاً للاستجواب؟».

فانحنت إنديا ببرود، ووضعت يدها على مقبض الباب، موعزة بصمت إلى أن انسحابه السريع أمر مرغوب فيه. وهكذا خرج الضابط والجاويش وبصحبتهما هيو إلسينغ، بينما أغلقت إنديا الباب خلفهم بعنف. وحتى دون أن تنظر إلى سكارلت هرعت إلى كل نافذة من نوافذ البيت، وأسدلت الستائر. أما سكارلت المرتجفة الركبتين، فقد تمسكت بالكرسي الذي كان آشلي قد جلس عليه، كي تسند نفسها. وعندما نظرت إلى الكرسي، رأت على وسادة ظهره بقعة قاتمة رطبة، أكبر من راحتها. فامتدت يدها فوقها وهي مشدوهة، وعندئذ ظهرت على كفها رطوبة حمراء لزجة، الأمر الذي أفزعها.

- «إنديا» همست، «إنديا، إن آشلي - إنه مصاب».

- «أيتها الحمقاء! هل ظننت أنه كان سكران حقاً؟».

وسحبت إنديا الستار الأخير، وانطلقت بقدمين طائرتين إلى غرفة النوم، وسكارلت خلفها تماماً، سكارلت التي كان قلبها في حلقها. وكان جسد ريت الكبير يسد الباب ولكن سكارلت رأت آشلي من فوق كتفه، رأته يضطجع شاحباً ساكناً على السرير. أما ميلاني التي كانت نشيطة بصورة مستغربة بالنسبة إلى إنسان كان مغمياً عليه منذ قليل، فقد كانت تقص قميص آشلي المشرب بالدم بمقص تطريز، بينما حمل آرشي المصباح منخفضاً فوق السرير لينير المكان، وقد وضع أحد أصابعه الخشنة على معصم آشلي.

- «هل هو ميت؟» صاحت الفتاتان معاً .

- «فقط مغمى عليه من جرّاء نزف الدم. إن الإصابة في كتفه» قال ريت.

- «لماذا أحضرته هنا أيها الأحمق» صاحت إنديا، «دعني أصل إليه! دعني أمر! لماذا أحضرته هنا، كي يلقى القبض عليه؟»,

- «لقد كان خائر القوى كثيراً بحيث لم يكن في وسعه السفر، ولم أجد مكاناً آخر لآخذه إليه يا آنسة ويلكس. ورغم ذلك - هل تريدينه أن يكون منفياً كتوني فونتين، وهل تريدين أن تعيش دزينة من جيرانك في تكساس، بأسماء مستعارة، لبقية حياتهم؟ إن هناك أملاً أن نبرئهم جميعاً إذا بيل -».

- «دعني أمرّ».

- «لا يا آنسة ويلكس، يوجد عمل لك .ينبغي أن تذهبي لإحضار طبيب - ليس الدكتور ميد، فهو متورط في هذه القضية، ومن المحتمل أن يكون في هذه الدقيقة بالذات يشرح موقفه للشماليين. أحضري طبيباً آخر، هل تخافين الخروج وحدك في الليل؟».

- «لا» قالت إنديا وعيناها الشاحبتان تبرقان، «لا أخاف» وتناولت معطف ميلاني ذا القبعة، والذي كان معلقاً على مشجب في القاعة، «سأذهب الى بيت الدكتور دين العجوز» قالت وقد زال الانفعال من صوتها كما لو أنها جلبت الطمأنينة لنفسها بقوة وجهد، «إني آسفة لأني دعوتك جاسوساً وأحمق، إذ لم أفهم حقيقة الأمر. وإني الآن شاكرة جداً لما قدمته لآشلي - بيد أني أزدريك على كل حال».

- «إني أقدر الصراحة - وإني أشكرك عليها» انحنى ريت وتدلت شفته بابتسامة طروبة - «الآن اذهبي بسرعة وفي طرق خلفية، وعندما

تعودين، لا تدخلي إلى هذا البيت إن رأيت ما يشير إلى وجود جنود حوله».

فألقت إنديا نظرة ألم سريعة أخرى على آشلي، ولفت المعطف حولها، وجرت بخفة في القاعة إلى الباب الخلفي وخرجت في الليل بهدوء.

أحست سكارلت بقلبها يخفق ثانية، عندما رأت عيني آشلي مفتوحتين وهي تحدق بعينيها من فوق كتف ريت، وذلك حينما جذبت ميلاني منشفة مطوية من مشجب المغسلة، وضغطتها على كتفه النازفة دماً، وابتسم هو لها بتوان ولكن بتعبير مطمئن، وأحست سكارلت أيضاً بعيني ريت النافذتين مسلطتين عليها، وعرفت أن قلبها كان جلياً في وجهها ولكنها لم تحفل. لقد كان آشلي ينزف دماً، وربما كان يحتضر، وقد سببت هي التي كانت تحبه، ذلك الثقب في كتفه. وأرادت أن تجري إلى السرير وتتهالك بجانبه، وتضمه إليها، ولكن ركبتيها كانتا ترتجفان بحيث إنها لم تستطع دخول الغرفة. وراحت تحملق بعينيها، ويدها على فمها، بينما كانت ميلاني تلف منشفة أخرى على كتفه، وتضغطها بشدة، كما لو كان في وسعها أن تحبس الدم في جسده. غير أن المنشقة احمرت، كما لو كان ذلك بفعل السحر.

كيف كان في إمكان رجل أن ينزف كل هذا الدم ويظل حياً؟ ولكن شكراً للّه، لم تكن هناك فقاعة دم على شفتيه، آه، تلك الفقاعات الحمراء المرغية نذر الموت التي كانت تعرفها تمام المعرفة من يوم معركة وادي بيتشتري الرهيبة، عندما كان الجرحى يموتون في مرجة العمة بيتي بأفواه دامية.

– «تمالكي نفسك» قال ريت وفي صوته نغمة صارمة ساخرة قليلاً، «لن يموت، والآن اذهبي وخذي المصباح واحمليه للسيدة ويلكس، لأني أحتاج إلى آرشى للقيام ببعض المهمات».

نظر آرشي عبر المصباح إلى ريت:

- «إني لا أتلقى أي أمر منك» قال باقتضاب، ناقلاً مضغة التبغ إلى شدقه الآخر.

- «افعل ما يقوله لك» قالت ميلاني بحزم، «وافعله بسرعة. افعل كل شيء يقوله الكابتن باتلر. وأنت يا سكارلت خذي المصباح».

تقدمت سكارلت إلى الأمام، وأخذت المصباح وحملته بكلتا يديها، خشية إسقاطه. كانت عينا آشلي قد أغمضتا ثانية، وكان صدره العاري يخفق، يتمدد ببطء ثم ينخفض سريعاً فينبجس الدم الأحمر من بين أصابع ميلاني المتوترة. وسمعت سكارلت بغموض، آرشي يوزوز عبر الغرفة نحو ريت، ثم كلمات ريت الخفيضة السريعة. كان تفكيرها محصوراً تماماً في شخص آشلي، بحيث إنها لم تسمع من كلمات ريت الأولى نصف المهموسة سوى... خذ حصاني... مربوط خارجاً... أركب بأقصى سرعتك...

وتمتم آرشي بسؤال، وسمعت سكارلت ريت يجيبه: «مزرعة سوليفان القديمة، ستجد المعاطف مدفونة داخل المدخنة الكبيرة، أحرقها».

- «أجل» نخر آرشي.

- «ويوجد اثنان - رجلان في المقصورة، اربطهما فوق الحصان أحسن ربطة تستطيعها، وخذهما إلى تلك الساحة الشاغرة خلف بيت بيل - الساحة التي تقع بين بيتها وخطوط السكة الحديد. كن حريصاً. إذا رآك أحد، فستعدم مثلنا نحن الآخرين. ضعهما في تلك الساحة، وضع مسدسين قربهما - في يديهما. دونك - خذ مسدسي».

ورأت سكارلت وهي تنظر عبر الغرفة، ريت يمد يده تحت أذيال معطفه ويخرج مسدسين أخذهما آرشي ودسّهما في حزام خصره.

- «أطلق رصاصة واحدة من كل منهما. ينبغي أن يبدو الأمر كأنه قضية شجار جلية. إنك تفهم ما أعني؟».

فأطرق آرشي رأسه بالإيجاب كأنه فهم تماماً، وبرق في عينه الباردة شعاع من الاحترام القسري. إلا أن الفهم كان بعيداً عن سكارلت، فقد كانت نصف الساعة الأخيرة ككابوس شديد الوطأة عليها بحيث إنها لم تشعر أن شيئاً سيتضح وينجلي ثانية. ومهما يكن من أمر، فقد كان يبدو أن ريت كان يتسلَّم زمام الوضع المضطرب، الأمر الذي كان فيه بعض العزاء لها.

واستدار آرشي ليمضي إلى مهمته، ثم التفت على عجل، واتجهت عينه الوحيدة إلى وجه ريت مستوضحة.

- «هو؟».

- «أجل».

فقبع آرشي وبصق على الأرض.

- «ما أفظعها!» قال وهو يوزوز في القاعة إلى الباب الخلفي.

وبعث شيء كائن في الكلمات الأخيرة الخفيضة المتبادلة، بعث خوفاً جديداً في سكارلت، وارتفع الشك في صدرها كفقاعة باردة، منتفخة أبداً. وعندما انفجرت تلك الفقاعة صاحت:

- «أين فرانك؟».

وأسرع ريت عبر الغرفة إلى السرير وجسده الكبير يتهادى بخفة وبلا ضجيج كجسد قط - «الجميع ينعمون بوقت طيب» قال وابتسم ابتسامة قصيرة، «لا تؤرجحي المصباح يا سكارلت، فأنت لا تريدين أن تحرقي السيد ويلكس. يا آنسة ميلي -».

فرفعت ميلاني بصرها إليه كجندي مطيع صغير ينتظر أمراً. كان الجو متوتراً جداً بحيث لم تفطن ميلاني أن ريت دعاها باسمها بصورة

أليفة للمرة الأولى، الأمر الذي لا يفعله سوى أفراد العائلة والأصدقاء القدامى.

- «أرجو عفوك، أعني السيدة ويلكس...».

- «ها كابتن باتلر، لا تطلب عفوي. ينبغي أن أشعر بالتبجيل إن أنت دعوتني بـ«ميلي» من دون لفظة «الآنسة»، إني أشعر كما لو أنك - شقيقي، أو ابن عمي. ما ألطفك وما أذكاك! كيف يسعني أن أشكرك كما تستحق!».

- «شكراً» قال ريت وبدا الانفعال عليه لهنيهة قصيرة، «ينبغي ألّا أجرؤ إلى هذا الحد. ولكن يا آنسة ميلي» وكانت لهجته اعتذارية، «إني آسف لأني اضطررت إلى أن أقول إن السيد ويلكس كان في بيت بيل وتلينغ. إني آسف لأني اضطررت إلى توريط الآخرين في - كهذه. ولكن كان عليَّ أن أفكر بسرعة عندما انطلقت من هنا، وتلك كانت الخطة الوحيدة التي عنَّت لي. وكنت أعرف أن كلمتي ستقبل لأن لدي أصدقاء كثيرين جداً بين الضباط الشماليين. إنهم يمنحونني التكريم المريب حين يفكرون في أني أكاد أكون واحداً منهم ولأنهم يعرفون - هل ندعوها «عدم محبتي» بين رجال مدينتي. ولقد كنت ألعب البوكر في حانة بيل في وقت مبكر من المساء، كما أن هناك دزينة من الجنود الشماليين الذين يستطيعون أن يشهدوا بذلك، وكذلك بيل وبناتها سيكنّ سعيدات لأن يكذبن علانية ويقلن إن السيد ويلكس والآخرين كانوا - في الطابق العلوي طوال الأمسية وسيصدقهن الشماليون. إن الشماليين غريبو الأطوار في تلك الناحية، ولن يخطر لهم أن نساء في - في مهنتهن قادرات على الإخلاص الشديد أو الوطنية الفذة. لن يأخذ الشماليون بكلام سيدة أتلانتية راقية واحدة فيما يتعلق بمكان وجود الرجال الذين كان يُفترض وجودهم في اجتماع الليلة، ولكنهم سيأخذون بكلام - سيدات الهوى. وإني لأعتقد أنه بين كلمة الشرف

من سكالاواغ وكلام دزينة من سيدات الهوى يمكن أن نظفر بفرصة لإطلاق سراح رجالنا».

كانت تشوب وجهه ابتسامة تهكمية، وهو ينطق بالكلمات الأخيرة، ولكن تلك الابتسامة ما عتمت أن تلاشت عندما رفعت ميلاني إليه وجهها الذي كان يتألق بعرفان الجميل.

- «كابتن باتلر، إنك ذكي جداً! إني لم أكن لأهتم لو أنك قلت إنهم كانوا في جهنم نفسها هذه الليلة، إن كان ذلك سينقذهم، وذلك لأني أعرف، وكل إنسان آخر ذو شأن يعرف، أن زوجي لم يكن في أي يوم في مكان فظيع كذاك!».

- «على كل حال -» بدا ريت مرتبكاً، «في الحقيقة إنه كان في بيت بيل هذه الليلة».

فانكمشت ميلاني ببرود.

- «لن تستطيع أبداً أن تجعلني أصدق كذبة كهذه».

- «أرجوك يا آنسة ميلي، دعيني أشرح لك الأمر! عندما خرجت إلى مزرعة سوليفان القديمة هذه الليلة، وجدت السيد ويلكس مجروحاً وبرفقته هيو إلسينغ والدكتور ميد والرجل المسن ميريويذر -».

- «ليس السيد المسن!» صاحت سكارلت.

- «لا يكبر الرجال أبداً إلى حد لا يكونون فيه حمقى. وعمك هنري -».

- «آه، ارحمنا يا اللّه» صاحت العمة بيتي.

- «وكان الآخرون قد تفرقوا بعد وقوع المناوشة مع الجنود، وكانت الجماعة التي تكتلت معاً قد أتت إلى مزرعة سوليفان، لتخبئ معاطفها في المدخنة، ولترى إلى أي درجة كانت إصابة السيد ويلكس بليغة. ولولا جرحه، لكان ينتظر أن يكونوا الآن في طريقهم إلى تكساس - جميعاً، ولكن لم يكن في وسعه أن يركب مسافة بعيدة، ولم

يشاؤوا أن يتركوه. وكان من الضروري أن نثبت أنهم كانوا موجودين في مكان ما، بدلاً من المكان الذي كانوا فيه حقيقة، ولذا أخذتهم إلى بيت بيل وتلينغ في طرق خلفية».

- «ها - فهمت. إني أرجو عفوك عن وقاحتي يا كابتن باتلر. إنى أرى الآن أنه كان من الضروري أخذه هنالك، ولكن - آه يا كابتن باتلر، لا بد أن الناس رأوكم وأنتم تدخلون ذلك المكان».

- «لم يرنا أحد. لقد دخلنا من باب خاص يفتح على خط السكة الحديد. إنه باب مظلم ومقفل دائماً».

- «إذن كيف - ؟».

- «لدي مفتاح» قال ريت باقتضاب، وقابلت عيناه عيني ميلاني بنظرة رصينة.

وعندما شعرت بالصدمة التي ينطوي عليها معنى كلامه، ارتبكت جداً بحيث إنها راحت تعبث بالعصابة إلى أن انزلقت عن الجرح تماماً.

- «إني لم أقصد أن أتحرى -» قالت في صوت كتيم ووجهها الشاحب محمر خجلاً، وهي تسرع في ضغط المنشفة على الجرح ثانية.

- «إنى آسف أن أضطر إلى إخبار سيدة بشيء كهذا».

«إذن فالأمر حقيقي!» فكرت سكارلت بغصة مستغربة، «إذن فهو يعيش مع تلك المخلوقة الرهيبة وتلينغ! إنه يملك بيتها!».

- «لقد رأيت بيل وأوضحت لها الموضوع. لقد أعطيناها قائمة بأسماء الرجال الذين خرجوا مع الكلان في هذه الليلة، وستشهد هي وبناتها أنهم كانوا جميعاً في بيتها هذه الليلة. ثم من أجل أن نجعل خروجنا أكثر مجلبة للانتباه، نادت بيل الوغدين اللذين يحافظان على النظام في بيتها فجرّانا إلى الطابق السفلي، ونحن نتعارك، ثم سحبانا

خلال صالة الشراب وألقيا بنا في الشارع كسكارى مشاغبين كانوا يزعجون المكان».

وابتسم وهو يتذكر الحادث، «لم ينجح الدكتور ميد في تمثيل شخصية السكران الحقيقي. إن مجرد كونه في مكان كهذا جرح كرامته، ولكن عمك هنري والعجوز ميريويذر - لقد كانا رائعين. لقد خسر المسرح ممثلين عظيمين جداً لأنهما لم يمارسا التمثيل، ولقد بدا أنهما كانا مبتهجين للقيام بدورهما. وإني أخشى أن يكون عمك هنري قد حسد السيد ميريويذر نظراً إلى حماس هذا الأخير لدوره. إنه -».

وانفتح الباب الخلفي ودخلت إنديا يتبعها الدكتور دين العجوز. كان شعره الأبيض الطويل مشعثاً، ومحفظته الجلدية البالية ناتئة من تحت معطفه. وعندما بلغ الغرفة حنى رأسه قليلاً دون أن ينبس بكلمة لأولئك الحاضرين، ثم رفع العصابة عن كتف آشلي بسرعة.

- «بعيدة جداً عن الرئة. إن لم تكن قد هشمت عظمة العنق، فليست خطيرة جداً. أعطيني عدة مناشف أيتها السيدات، وقطناً إن كان لديكن شيء منه وبعض البراندي».

أخذ ريت المصباح عن سكارلت ووضعه على الطاولة، بينما أسرعت ميلاني وإنديا تلبيان أوامر الطبيب.

- «لن تستطيعي فعل شيء هنا. هلمي إلى الردهة، لنقف قربه النار» وتناول ذراعها وساقها خارج الغرفة.

كانت هناك في كلا يدها وصوتها رقة غريبة بالنسبة إليه: «لقد عانيت يوماً فظيعاً، أليس كذلك؟»؟

سمحت سكارلت لنفسها أن تقاد إلى الغرفة الأمامية. ومع أنها وقفت على سجادة الموقد أمام النار، إلا أنها بدأت ترتجف من البرد. كانت فقاعة الشك في صدرها تنتفخ الآن، وغدا الأمر أكثر من شك،

لقد أضحى يقيناً تقريباً، ويقيناً مروِّعاً. ونظرت إلى وجه ريت العديم التأثر، ولهنيهة، لم تستطع التكلم، ثم نطقت:

- «هل كان فرانك في - بيت بيل وتلينغ؟».

- «لا».

وكان صوت ريت وانياً.

- «إن آرشي يحمله الآن إلى الساحة الشاغرة، على مقربة من بيت بيل، إنه ميت، مصاب في رأسه».

46

لم ينم سوى عائلات قليلة في طرف المدينة الشمالي في تلك الليلة، وذلك بسبب نبأ كارثة الكلان. وانتشرت استراتيجية ريت بسرعة على أقدام صامتة، وذلك عندما انساب هيكل إنديا ويلكس الشبيه بالشبح عبر الساحات الخلفية يهمس على عجل، خلال أبواب المطابخ، ثم يسير منساباً في الظلام العاصف. وفي كل مكان مرت به، كانت إنديا تترك الخوف والأمل اليائس.

كانت البيوت تبدو من الخارج مظلمة صامتة، يلفّها النوم. أما في الداخل فقد ظلت الأصوات تهمس بحدة، حتى الفجر. ولم يكن هؤلاء المتورطون في غزوة الليل، هم وحدهم الذين كانوا مستعدين للهرب، بل إن كل عضو في الكلان كان مستعداً كذلك. وكانت الخيل في كل إسطبل تقريباً في شارع بيتشتري تقف مسرجة في الظلام، والمسدسات في القرابات، والطعام في الخروج. وكان الشيء الوحيد الذي منع حدوث هجرة بالجملة هو رسالة إنديا المهموسة: «يقول الكابتن باتلر أن لا تفرّوا، فالطرقات ستكون مراقبة. لقد رتب الأمر مع تلك المخلوقة وتلينغ -». وكان الرجال يهمسون في الغرف المعتمة «ولكن لماذا يجب عليَّ أن أثق بباتلر، ذلك السكالاواغ الملعون؟ قد يكون ذلك شركاً». وكانت أصوات النساء تتوسل «لا تذهبوا! فإذا كان قد أنقذ آشلي وهيو، إذن فمن المحتمل أن ينقذ الجميع. وإذا كانت

إنديا وميلانى تثقان به -» وهكذا وثقوا به نصف ثقة، وظلوا في بيوتهم، لأنه لم يكن هناك أي مجال مفتوح أمامهم.

وفي وقت مبكر من الليل، كان الجنود قد قرعوا دزينة من الأبواب، وسيق أولئك الذين لم يستطيعوا، أو لم يشاؤوا، أن يقولوا أين كانوا في تلك الليلة، سيقوا مقبوضاً عليهم، وكان بين أولئك الذين قضوا ليلتهم في السجن: رينيه بيكارد وأحد أبناء شقيقة السيدة ميريويذر وأبناء سيمونز وإندي بونل. هؤلاء الذين كانوا قد اشتركوا في الغارة السيئة الطالع، ولكنهم انفصلوا عن الآخرين بعيد إطلاق النار. وهكذا لأنهم كانوا قد هرعوا فزعين إلى بيوتهم، قبض عليهم قبل أن يعلموا بخطة ريت. ولحسن الحظ، كان جواب الجميع عن الأسئلة الموجهة إليهم إن المكان الذي كانوا فيه شأن من شؤونهم الخاصة وليس من شأن أي اتحادي لعين. ومع ذلك فقد حجزوا من أجل استجوابات أوسع في الصباح، أما العجوز ميريويذر والعم هنري فقد أعلنا بكل صفاقة أنهما كانا قد قضيا الأمسية في ماخور بيل وتلينغ، وعندما علق الكابتن جفري محتداً بأنهما مسنان جداً بالنسبة إلى أفعال كهذه، همّا بأن يقاتلاه.

وأما بيل وتلينغ فقد أجابت بنفسها على نداءات الكابتن جفري الهاتفية. وقبل أن يستطيع الإعلان عن مهمته، صاحت بأن البيت كان قد أقفل في تلك الليلة لأن زمرة من السكارى المشاغبين كانوا قد أموا المكان في المساء الباكر وتشاجروا بعضهم مع بعض وأتلفوا المكان، وكسروا أجمل مراياها، وأفزعوا الصبايا كثيراً بحيث أوقف كل عمل تلك الليلة. «ولكن إذا كان الكابتن جفري يريد أن يتناول مشروباً، فإن الحانة ما زالت مفتوحة -».

ولما كان الكابتن جفري عالماً بدقة مدى تألم رجاله وشاعراً بعجز بأنه كان يحارب ضباباً، لذلك أعلن بغضب أنه لا يريد صبايا ولا

مشروباً. ثم سأل إذا كانت بيل تعرف أسماء زبائنها المخربين. ها طبعاً، لقد كانت تعرف أسماءهم، كيف لا، وقد كانوا زبائنها الدائمين، يأتون كل ليلة أربعاء، ويدعون أنفسهم ديمقراطيي الأربعاء، مع أنها لم تكن تعرف ماذا كانوا يعنون بذلك أو تهتم به... وإذا هم لم يدفعوا مقابل الأضرار التي ألحقوها بمرايا للقاعة العليا، فستطلب تطبيق القانون بحقهم. لقد كانت تدير بيتاً محترماً و - ها، أسماؤهم...؟ فسردت بيل أسماء اثني عشر رجلاً من المشكوك في أمرهم من دون تردد، بينما ابتسم الكابتن جفري بحقد.

- «إن هؤلاء الثوار الملعونين منظمون ببراعة كشرطتنا السرية» قال، «عليك أنت وبناتك أن تحضرن أمام الحاكم العسكري غداً».

- «هل سيرغمهم الحاكم على دفع ثمن مراياي؟».

- «إلى الجحيم بمراياك! دعي ريت باتلر يدفع ثمنها. إنه يملك المكان، أليس كذلك؟».

وقبل الفجر، كانت كل عائلة من العائلات الحلفية سابقاً، قد عرفت بكل شيء. وكذلك زنوجهم الذين لم يكونوا قد أنبئوا بشيء، عرفوا كل شيء أيضاً، بواسطة ذلك النظام البرقي السري الذي كان يتحدى إدراك البيض. وهكذا عرف الجميع بتفاصيل الغارة ومقتل فرانك كنيدي ووفاة ولبورن الوزواز، وجرح آشلي وهو يحمل جسد فرانك بعيداً.

وعندما عرفت النسوة أن زوج سكارلت قد قُتل خفَّ بعض شعور الكراهية المرة التي كنّ يحملنها لها بسبب دورها في المأساة - ولكن سكارلت لم تستطع أن تسلم بحقيقة النبأ، وتنعم بالعزاء التعس في طلب جثته. لقد كان ينبغي أن تتظاهر بأنها لم تكن تعرف شيئاً، إلى أن يكشف ضوء الصباح عن أمر الجثتين، وتبلغها السلطات النبأ. وكان فرانك وتومي يرقدان متيبّسين بين الحشائش الميتة في ساحة خالية،

والمسدسين في يديهما الباردتين. وكان من المنتظر أن يقول الشماليون إنهما قتلا بعضهما بعضاً في شجار عادي مخمور، في تنافس على فتاة في بيت بيل. وعظم العطف على فاني، زوجة تومي التي كانت قد أنجبت طفلاً في الآونة الأخيرة. ولكن لم يكن في وسع أحد أن ينطلق خلال الظلام ويراها ويواسيها، لأن فصيلاً من الشماليين كان يطوق بيتها، ينتظر عودة تومي، كما كان هناك فصيل آخر يطوق بيت العمة بيتي، في انتظار عودة فرانك.

وقبل الفجر، كان قد انتشر النبأ القائل إن محكمة التحقيق العسكري ستعقد في ذلك اليوم، وعرف أهل المدينة، وعيونهم ثقيلة من عدم النوم والانتظار والقلق، أن نجاة بعض أبرز مواطنيهم تتوقف على ثلاثة أشياء - مقدرة آشلي ويلكس في الوقوف على قدميه أمام الهيئة العسكرية كما لو أنه لا يعانى شيئاً أكثر خطورة من صداع صباحي، ثم كلمة بيل وتلينغ بأن هؤلاء الرجال كانوا في بيتها طوال الأمسية، وأخيراً كلمة باتلر أنه كان معهم.

وتلوَّت المدينة ألماً من هذين الشيئين الأخيرين! بيل وتلينغ، - يدينون حياة رجالهم لها! إن ذلك لا يمكن احتماله! وتساءلت النسوة اللواتي كن يعبرن الشارع متباهيات عندما كنّ يرين بيل قادمة، تساءلن عما إذا كانت هذه تذكر الحدث وانتفضن فرقاً من أن تذكره. أما الرجال فقد كانوا يشعرون بمهانة أقل من تلك التي كانت تشعر بها النساء، والتي كانت ناجمة عن أن رجالهن كانوا سينقذون أرواحهم بفضل بيل، ذلك لأن كثيراً منهم كان يعتقد أنها امرأة من طينة جيدة غير أنهم كانوا مصعوقين لأنه كان عليهم أن يدينوا بحياتهم وبحريتهم لريت باتلر المضارب والسكالاواغ - بيل وريت، أشهر امرأة داعرة في المدينة، وأشد الرجال كرهاً فيها. ولا بد من أن يكونوا مدينين بالشكر لهما.

وهناك فكرة أخرى صعقت الرجال إلى حد السخط الواهن، وهي معرفة أن الشماليين والكاربت بكرز، سيضحكون، ها، كم أنهم سيضحكون! اثنا عشر رجلاً من أبرز مواطني المدينة افتضحوا كزبائن معتادين على الذهاب إلى ماخور بيل وتلينغ... وقد قُتل اثنان منهم في شجار على فتاة صغيرة رخيصة، وألقي آخرون خارج المكان لأنهم كانوا سكارى جداً بحيث لم يكن بالمستطاع احتمالهم، حتى من قبل بيل، كما أن البعض مقبوض عليهم وهم يرفضون الاعتراف بأنهم كانوا هنالك بينما كان الجميع يعرفون أنهم كانوا هنالك!

كانت أتلانتا على حق في خوفها من أن يضحك الشماليون الذين كانوا قد ترمضوا طويلاً جداً بسبب الازدراء الجنوبي لهم، وها هم الآن ينفجرون ابتهاجاً. إذ راح الضباط يوقظون زملاءهم ويقصون النبأ عليهم، وكذلك أيقظ الرجال زوجاتهم، وأخبروهن عن الأمر بقدر ما تسمح الحشمة في إخبار النساء، فارتدين ثيابهن على عجل ورحن يقرعن أبواب جيرانهن، وينشرن القصة. لقد ابتهجت جميع السيدات الشماليات بالنبأ، وضحكن إلى أن جرت الدموع على وجناتهن، هذه كانت الفروسية والشهامة الجنوبيتان! ربما لن تظل أولئك النسوة اللواتي كنّ يرفعن رؤوسهن عالياً ويرفضن جميع المحاولات لمصادقتهن، ربما لن يظللن مغرورات الآن، وقد عرف الجميع أين كان يقضي رجالهن الوقت، في حين كان يُفترض أن يكونوا في الاجتماعات السياسية. الاجتماعات السياسية! حسناً، لقد كان ذلك أمراً مضحكاً!

ولكن حتى وهم يضحكون، كانوا يبدون الأسف على سكارلت ومأساتها، فعلى كل حال لقد كانت سكارلت سيدة وإحدى سيدات قليلات في أتلانتا كن لطيفات مع الشماليين. كانت قد اكتسبت عطفهم بفعل حقيقة كونها مضطرة إلى أن تعمل لأن فرانك لم يكن يستطيع أو

يرغب في إعالتها كما ينبغي. وحتى مع أن زوجها كان آسفاً لعملها فلقد كان من الفظاعة أن تكتشف تلك المخلوقة البائسة أنه كان غير مخلص لها وكان من الفظاعة المضاعفة أن موته حدث في آن واحد مع اكتشاف خيانته لها، وبعد كل هذا، فإن زوجاً مسكيناً، كان أفضل من لا زوج البتّة. وهكذا قررت السيدات الشماليات أنهن سيكنّ أكثر لطفاً مع سكارلت. أما الأخريات، السيدة ميد والسيدة ميريويذر والسيدة إلسينغ وأرملة تومي ويلبورن وخاصة السيدة آشلي ويلكس، فسيضحكن أمامهن كلما رأينهن، وكذلك سيعلّمنهن قليلاً من آداب المجاملة.

كان معظم الهمس الذي استمر في الغرف المعتمة في ناحية المدينة الشمالية تلك الليلة، يدور حول هذا الموضوع ذاته. فكانت سيدات أتلانتا يخبرن أزواجهن بقوة أنهن لا يحفلن مثقال ذرة في ما كان يفكر الشماليون، ولكنهن كنّ يشعرن في قرارة نفوسهن بأن تحمُّل قصاص هندي[1] كان أفضل إلى درجة غير محدودة من معاناة عذاب ابتسامات الشماليين، ومن عدم استطاعتهن أن يقلن الحقيقة عن أزواجهن.

وقد أخبر الدكتور ميد زوجته وهو ممتهن الكرامة بسبب هذا المأزق الذي كان ريت باتلر قد أوقعه فيه والآخرين، أخبرها أنه يفضل أن يعترف بالحقيقة ويعدم، على أن يقول إنه كان في ماخور بيل، لولا حقيقة أنه سيورط الآخرين.

- «إنها إهانة لك يا سيدة ميد» قال وهو يستشيط غضباً.

- «ولكن الجميع سيعرفون أنك لم تكن هناك، لأن - لأن».

- «الشماليون لن يعرفوا. سيضطرون إلى تصديق القصة إن نحن

(1) قصاص عسكري يقضي بأن يمر المذنبون بين صفين من الجنود يتوالون عليهم ضرباً - (المترجمان).

أنقذنا أعناقنا، وسيضحكون. إن مجرد فكرة كون إنسان ما سيصدق للقصة، وسيضحك، أمر يثيرني، كما أنه يهينك لأن - لقد كنت دائماً وفياً لك يا عزيزتي».

- «إني أعرف ذلك» وابتسمت السيدة ميد في الظلام، ودست يداً نحيلة في يد الدكتور.

- «ولكني أفضل أن تكون القصة صادقة فعلاً على أن تتعرض شعرة من رأسك للخطر».

- «سيدة ميد، هل تعرفين ما تقولين؟» صاح الدكتور مشدوهاً من واقعية زوجته الصريحة.

- «أجل أعرف. لقد فقدتُ دارسي وفقدتُ فل، وإنك كل ما أملك، وإنني لأفضل أن تتخذ إقامتك الدائمة في ذلك المكان على أن أفقدك».

- «إنك طائشة. إنك لا تستطيعين معرفة ما تقولينه».

- «أيها الأحمق العجوز» قالت السيدة ميد بلطف، ووضعت يدها على ردنه.

تحوَّل غضب الدكتور ميد إلى غيظ صامت، وراح يربت على وجنة زوجته ولكنه ما عتم أن انفجر ثانية:

- «وأن أكون مديناً بالشكر لذلك الرجل باتلر! إن الإعدام سيكون سهلاً إذا ما قورن بذلك. لا، لا يمكنني أن أكون مؤدباً معه، ولو كنت مديناً له بحياتي. إن وقاحته هائلة، وإن صفاقته فيما يتعلق باستغلاله، تجعلني أغلي بالثورة. أن أكون مديناً بحياتي لرجل لم يلتحق بالجيش أبداً».

- «لقد قالت ميلي إنه انضم إلى الجيش بعد سقوط أتلانتا».

- «إنها كذبة. إن الآنسة ميلي يمكن أن تصدق أي وغد غرار. والذي لا أستطيع فهمه هو سبب قيام ريت بكل هذا - سبب قيامه

بجميع هذا الإزعاج. إني أمقت أن أقولها، ولكن - على كل حال، كان هناك دائماً حديثاً عنه وعن السيدة كنيدي. لقد رأيتهما آتيين معاً من ركوبات كثيرة في هذه السنة. لا بد أنه فعل ذلك من أجلها».

- «لو كان من أجل سكارلت، لما رفع يده، بل كان من المنتظر أن يكون سعيداً في أن يرى فرانك كنيدي معلقاً على حبل المشنقة، أعتقد أنه من أجل ميلي -».

- «سيدة ميد، لا يمكن أن تكوني توعزين بأنه كان هناك يوماً أي علاقة سرية بين ذينك الشخصين!».

- «ها، لا تكن أحمق، ولكنها كانت دائماً مغرمة جداً به، وذلك منذ حاول أن يحرر آشلي خلال الحرب عن طريق تبادل الأسرى. ولا بد لي أن أذكر هذا، إذ إنه لا يبتسم أبداً بتلك الطريقة الكريهة المثيرة عندما يكون معها، وإنما يبدو رجلاً ساراً عاقلاً إلى أقصى حد - رجلاً يختلف حقاً عما هو عليه في العادة. وفي وسعك أن تقول، بناء على المسلك الذي يسلكه مع ميلي، إن في وسعه أن يكون مهذباً إذا ما رغب في ذلك. والآن، إن رأيي فى سبب عمل ريت هذا كله، هو -»، وصمتت هنيهة، «دكتور، إنك لا ترتاح إلى فكرتي».

- «إني لا أرتاح إلى أي شيء يتعلق بهذا الأمر كله!».

- «على كل حال، إنني أعتقد أنه فعل ذلك جزئياً من أجل ميلي ولكنه غالباً لأنه ظن أن ذلك سيكون موضوع هزل عظيم علينا. لقد كرهناه كرهاً بالغاً. وجاهرنا بذلك في صراحة. وها هو الآن يتمكن منا في مأزق تجدون أنفسكم فيه جميعاً بين أمرين: إما أن تقولوا إنكم كنتم في بيت بيل وتلينغ ذلك، وتهينوا أنفسكم وزوجاتكم أمام الشماليين - أو أن تصرحوا بالحقيقة وتعدموا. وهو يعرف أننا جميعاً سنكون مدينين بالفعل له ول - خليلته. وإننا لنفضل أن نُعدم على أن نكون مدينين بالفعل لهما. وإني أراهن أنه سعيد بهذا الأمر».

فأنَّ الدكتور وأجاب «لقد كان يبدو طروباً حين أخذنا إلى الطابق العلوي من ذلك المكان».

- «دكتور. . . » وترددت السيدة ميد، «ماذا يشبه ذلك المكان؟».

- «ماذا تقولين يا سيدة ميد؟».

- «بيتها، ماذا يشبه؟ هل يوجد فيه ثريات من البلور؟ وستائر من نسيج بلش الأحمر، وكثير من المرايا المذهبة الأطر؟ وهل كانت الفتيات - هل كن عاريات؟»

- «يا للّه العظيم» صاح الدكتور مصعوقاً، لأنه لم يكن قد خطر بباله أن فضول امرأة طاهرة فيما يتعلق بشقيقاتها غير الطاهرات، كان شرهاً إلى هذا الحد. «كيف يسعك أن تسألي أسئلة سليطة كهذه؟ إنك لست على طبيعتك. سأركّب لك دواء مخدراً».

- «أنا لا أريد دواء مخدراً. أريد أن أعرف. آه يا عزيزي، إن هذه هي فرصتي الوحيدة لأعرف ماذا يشبه بيت المرأة الفاسدة، وإنك لحقير لأنك لا تخبرني!».

- «لم ألاحظ شيئاً. إني أؤكد لك أني كنت منفعلاً جداً لأني ألقيت نفسي في مكان كهذا، منفعلاً بحيث إني لم أستطع أن ألاحظ ما كان يحيط بي» قال الدكتور بلهجة رسمية وقد زاد انفعاله بسبب هذا الانكشاف الصريح لأخلاق زوجته عما كان بسبب جميع أحداث المساء السابقة، «إذا سمحت لي الآن، فسأحاول أن أنعم ببعض النوم».

- «حسناً، اذهب إلى النوم إذن» أجابت بصوت ينم عن خيبة. وعندما انحنى الدكتور ليخلع حذاءه، سمع صوتها من الظلمة وقد شابه مرح متجدد: «إني أتصور أن دولي عرفت كل شيء من الرجل المسن ميريويذر وفي وسعها أن تخبرني عن ذلك البيت».

- «يا للّه العظيم يا سيدة ميد! هل تقصدين أن تخبريني أن النساء الطيبات يتحدث عن أمور كهذه فيما بينهن -».

- «ها، اذهب إلى السرير» قالت السيدة ميد.

* * *

أمطرت السماء برداً في اليوم التالي، ولكن عندما زحف ضوء الغسق ووقف البرد عن السقوط، وسارت ميلاني متلفعة بمعطفها في ممشى بيتها الأمامي خلف حوذي زنجي كان قد دعاها سراً إلى عربة مغلقة كانت تنتظر أمام البيت. وعندما بلغتها، فتح الباب، ورأت ميلاني امرأة داخل العربة المعتم.

وعندما انحنت نحو العربة، وحدقت في داخلها سألت:

- «من أنت؟ ألا تأتين إلى البيت؟ الطقس بارد جداً بحيث -».

- «أرجوك، ادخلي إلى العربة، واجلسي معي دقيقة واحدة يا سيدة ويلكس».

خرج صوت أليف خافت، صوت متهدج من أعماق العربة.

- «ها، إنك الآنسة - السيدة وتلينغ!» صاحت ميلاني، «لقد رغبت كثيراً جداً في أن أراك! ينبغي أن تأتي إلى البيت».

- «إني لا أستطيع أن أفعل ذلك يا سيدة ويلكس» ارتفع صوت بيل وتلينغ مشيناً، «ادخلي أنت إلى العربة لدقيقة واحدة معي».

دخلت ميلاني إلى العربة وأغلق الحوذي الباب خلفها، فجلست إلى جانب بيل ومدت يدها لمصافحتها:

- «كيف أستطيع أن أشكرك كما ينبغي على ما فعلته اليوم! كيف يستطيع أي منا أن يشكرك كما ينبغي!».

- «سيدة ويلكس، لم يكن يتوجب عليك أن ترسلي لي تلك الرسالة هذا الصباح، ليس لأني لم أكن فخورة باستلام رسالة منك، ولكن لأنها كان يمكن أن تقع في أيدي الشماليين. أما بالنسبة إلى

قولك إنك كنت ستزورينني لتشكريني - الواقع يا سيدة ويلكس لا بد أنك فقدت عقلك! يا للفكرة ذاتها! لقد أتيت هنا حالما خيم الظلام لأخبرك أنك ينبغي ألّا تفكري في أي شيء من هذا القبيل، الواقع أني - الواقع أنك - لن يكون ذلك لائقاً بك أبداً».

- «لن يكون لائقاً بي أن أزور وأشكر امرأة لطيفة أنقذت حياة زوجي؟».

- «لا، أبداً يا سيدة ويلكس. إنك تعرفين ما أعني!».

ظلت ميلاني صامتة لدقيقة وهي متأثرة من مضمون كلام بيل. فبوجه من الوجوه، لم تكن هذه السيدة الجميلة المحتشمة الثياب، الجالسة في ظلام العربة، لم تكن تبدو وتتكلم كما تصورت ميلاني امرأة عاطلة، سيدة ماخور، ينبغي أن تبدو وتتكلم. لقد كانت تبدو مثل - نعم لقد كانت تبدو عامية وقروية قليلاً، ولكنها بديعة لطيفة.

- «لقد كنت مدهشة أمام الحاكم العسكري اليوم يا سيدة وتلينغ! أنت والأخريات - فتيا - السيدات الشابات، أنقذتن أرواح رجالنا حتماً».

- «لقد كان السيد ويلكس هو المدهش، إني لا أعرف كيف وقف وروى قصته بسحنة باردة كتلك التي بدا بها. من الأكيد أنه كان ينزف كخنزير عندما رأيته في الليلة الماضية . هل أوشك على الشفاء يا سيدة ويلكس؟».

- «نعم، أشكرك. يقول الطبيب إنه جرح سطحي. ورغم أنه فقد كمية كبيرة من الدم، لقد كان هذا الصباح - الواقع، كان منتعشاً جداً بفعل البراندي، وإلا لما نعم بالقوة ليقوم بذلك الدور كله على هذه الصورة الحسنة. ولكن لقد كنت أنت يا سيدة وتلينغ التي أنقذته. وعندما ثرت وتكلمت عن المرايا المكسرة، كنت مفحمة جداً جداً».

- «أشكرك يا سيدة، ولكني - ولكني أعتقد أن الكابتن باتلر قام بدور رائع جداً، هو أيضاً» قالت بيل وفي صوتها كبرياء حيية.

- «ها، لقد كان مدهشاً!» صاحت ميلاني بحرارة، «لم يكن في وسع الشماليين إلا أن يصدقوا شهادته. لقد كان ذكياً جداً فيما يتعلق بالقصة كلها. وليس في وسعي أبداً شكره كما ينبغي - أو شكرك أنت أيضاً. ما ألطفك وأحسنك!».

- «أشكرك شكراً جزيلاً يا سيدة ويلكس. لقد كان من دواعي سروري أن أقوم بذلك العمل. إني - إني أرجو ألّا يضايقك أبداً قولي إن السيد ويلكس يأتي إلى بيتي بانتظام، إنه لا يأتي مطلقاً، وأنت تعرفين ذلك -».

- «أجل أعرف. لا، إن ذلك لا يضايقني أبداً. إني ممتنة لك جداً».

- «إنى أراهن أن السيدات الأخريات لسن ممتنات لي» قالت بيل بحقد مفاجئ، «وإني أراهن أنهن لسن ممتنات من الكابتن باتلر أيضاً، بل إني أراهن أنهن ازددن كراهية لي بسبب هذا الحادث، كما أني أراهن أنك ستكونين السيدة الوحيدة التي تشكرني. وأراهن أنهن لن ينظرن إلى وجهي عندما يرينني في الشارع. ولكني لا أحفل، ولم أكن لأتأثر لو أعدم جميع أزواجهن، ولكني تأثرت بسبب السيد ويلكس، فأنا لم أنسَ كم كنت لطيفة معي خلال الحرب فيما يتعلق بالنقود التي قدمتها للمستشفى. ولم تكن هنالك أية سيدة في هذه المدينة لطيفة معي كما كنت. وإني لا أنسى المعروف، ولذلك فكرت كيف أنك ستصبحين أرملة إذا ما أعدم السيد ويلكس. إن ابنك لطفل صغير لطيف يا سيدة ويلكس. إن لي ابناً أنا نفسي، ولذلك فإني -».

- «لك ولد؟ هل يقيم - أو -».

- «ها، لا يا سيدة، إنه ليس في أتلانتا، ولم يكن هنا أبداً، إنه

في المدرسة في مكان بعيد، ولم أره منذ كان صغيراً - إني - حسناً - على كل حال عندما رغب إليَّ الكابتن باتلر في أن أكذب من أجل هؤلاء الرجال، أردت أن أعرف مَن هم هؤلاء الرجال، وعندما سمعت أن السيد ويلكس كان أحدهم، لم أتردد أبداً، وقلت لبناتي، قلت: «سأجلدكن جميعاً حتى أريكن نجوم النهار إن لم تذكرن بصفة خاصة أنكن كنتن مع السيد ويلكس طوال الأمسية».

- «ها!» قالت ميلاني، وهي أكثر ارتباكاً بسبب عودة بيل العفوية إلى موضوع «بناتها» - «ها لقد كان ذلك - لطفاً منك و - منهن أيضاً».

- «لا، إنك تستحقين أكثر» قالت بيل بحرارة «ولكني لم أكن لأفعل ذلك من أجل أي إنسان آخر. ولو كان زوج السيدة كنيدي هو وحده، لما تدخلت أبداً مهما قال الكابتن باتلر».

- «لماذا؟».

- «الواقع يا سيدة ويلكس، أن من يتعاطى مثل مهنتي يطلع على أشياء كثيرة. وكثير من السيدات الطيبات سيدهشن ويصدمن إذا كانت لديهن أي فكرة عما نعرف عنهن من أمور كثيرة. إنها ليست امرأة صالحة يا سيدة ويلكس، لقد قتلت زوجها، وذلك الشاب الطيب ويلبورن، تماماً كما لو أنها أطلقت النار عليهما. لقد كانت السبب في المشكلة كلها: تتجول وحيدة في أتلانتا، تغري الزنوج وحقيري البيض. الواقع أن لا واحدة من بناتي -».

- «ينبغي ألّا تتفوهي بأمور قاسية عن زوجة أخي» وانكمشت ميلاني ببرود.

ووضعت بيل يداً مطمئنة على ذراع ميلاني، ثم سحبتها بسرعة.

- «لا تؤاخذيني، أرجوك يا سيدة ويلكس، فأنا لا أستطيع احتمال زعلك بعد أن كنت لطيفة عذبة جداً معي. لقد نسيت أنك

تحبينها جداً، وإني آسفة لما بدر مني. إني حزينة على السيد كنيدي المسكين، الذي قتل أيضاً. لقد كان رجلاً طيباً، وقد اعتدت شراء حوائج بيتي من مخزنه، وكان يعاملني معاملة تدعو للسرور. ولكن السيدة كنيدي - الواقع أنها ليست في مستواك ذاته يا سيدة ويلكس. إنها امرأة خالية من الشعور، وأنا لا استطيع احتمال ذلك إن فكرت فيه. متى سيدفنون السيد كنيدي؟».

- «صباح غد. وإنك مخطئة فيما يتعلق بالسيدة كنيدي، كيف لا، وهي في هذه الدقيقة بالذات غارقة في أحزانها».

- «ربما تكون كذلك» قالت بيل بعدم تصديق جلي، «على كل حال، ينبغي أن أذهب الآن، لأني أخشى أن يميز البعض هوية هذه العربة إن أنا مكثت هنا مدة أطول، الأمر الذي لن يعود عليك بالخير. ويا سيدة ويلكس، إذا ما رأيتني في الشارع - فلا - فلا ينبغي لك أن تتحدثي إليّ. إني أفهم وضعك».

- «سأكون فخورة بالتحدث إليك، فخورة بأن أكون ممتنة لك. وأرجو - أرجو أن أراك ثانية».

- «لا» قالت بيل، «فذلك لن يكون مناسباً. ليلة سعيدة».

47

كانت سكارلت تجلس في غرفة نومها، تلتقم الطعام من صينية العشاء التي كانت مامي قد أحضرتها لها، وتصغي إلى الريح تخفق مولولة في الليل وكان البيت ساكناً بصورة مفزعة، أكثر سكوناً حتى مما كان عليه حين كان فرانك مسجى في الردهة قبيل ساعات قليلة فقط. فقد كان هناك آنئذ أقدام تخطو على رؤوس الأصابع، وأصوات مهموسة، وقرعات خفيضة على الباب الأمامي، وجارات يدخلن بحفيف أثوابهن، ويهمسن بعواطفهن أو شهقات ترتفع بين الآونة والأخرى، صادرة عن شقيقة فرانك التي كانت قد وصلت من جونسبورو للمشاركة في الجنازة.

أما الآن فقد كان البيت غارقاً في سكون شامل، ومع أن باب غرفتها كان مفتوحاً، لم يكن في وسعها سماع أي صوت من الطابق السفلي. وكان ويد وإيلا قد أُخذا الى بيت ميلاني منذ أُحضرت جثة فرانك إلى البيت، وهكذا افتقدت سكارلت صوت قدمي الصبي، ومناغاة الطفلة. كما أن هدنة كانت قد عقدت في المطبخ، فلم يبلغ مسامعها منه أي صوت شجار صادر عن بيتر أو مامي أو كوكي. وحتى العمة بيتي التي كانت في المكتبة في الطابق السفلي، لم تكن تهز كرسيها الصائت، مراعاة لحزن سكارلت.

لم يكن أحد يدخل عليها من دون إذن، اعتقاداً منهم بأنها كانت

ترغب في أن تُترك وحيدة وأحزانها. بيد أن تركها وحيدة كان آخر شيء ترغب فيه سكارلت، إذ لو كان الحزن وحده هو الذي يرافقها الآن، لكان في وسعها أن تتحمله، كما كانت قد تحملت أحزاناً أخرى. ولكن، بالإضافة إلى شعورها المصعوق بالخسارة الناجمة عن وفاة فرانك، كان هناك الخوف والندم وعذاب ضمير كان قد استيقظ فجأة. ولأول مرة في حياتها، كانت تندم على أمور فعلتها، تندم عليها بخوف وهمي كاسح، جعلها تلقي بنظرات جانبية على السرير الذي كانت تنام وفرانك عليه.

لقد قتلت فرانك. لقد قتلته بكل تأكيد، كما لو كان إصبعها هو الذي ضغط على الزناد. كان فرانك قد رجاها ألّا تتجول وحدها ولكنها لم تصغ إليه، وها قد مات الآن بسبب عنادها، وسيعاقبها اللّه على ذلك. ولكن لقد كانت تجثم على ضميرها قضية أخرى، قضية كانت أثقل وأشد إفزاعاً حتى من قضية تسببها لموته، قضية لم تكن قد أزعجتها أبداً إلى أن نظرت الى وجهه المغطى بالكفن. فقد كان هناك شيء حائر مثير للشجون في ذلك الوجه الصامت، الذي كان يتهمها، وسيعاقبها اللّه لأنها كانت قد تزوجت به، بينما كان هو يحب سولين في الحقيقة. إذن لا بد لها من أن تجثو على ركبتيها يوم الحساب، وتجيب عن تلك الكذبة التي أخبرته بها عندما كانت عائدة في عربته من معسكر الشماليين.

وكان من غير المجدي لها الآن أن تدافع عن نفسها بالقول إن الغاية تبرر الوسيلة، وإنها سيقت إلى صيده، وإن مصير أناس كثيرين جداً كان متوقفاً عليها، بحيث لم يكن يدعها تفكر في حقوق فرانك وسولين وسعادتهما. وبرزت الحقيقة أمامها واضحة، لكنها أشاحت بوجهها عنها. كانت قد تزوجته من دون عاطفة، وعاملته ببرود. ولقد جعلته تعساً خلال الأشهر الأخيرة، بينما كان في وسعها أن تجعله

سعيداً جداً. وسيعاقبها اللّه لأنها لم تكن أكثر لطفاً معه - سيعاقبها على جميع عربداتها، وعلى ثورات طبعها وعباراتها الجارحة، وعلى إبعادها أصدقائه عنه، وإشانته بإدارتها للمعملين وبناء الصالون واستئجار الأشقياء.

لقد جعلته تعساً جداً، وكانت تعرف ذلك، ولكنه كان قد تحمَّل كل هذا، تحمَّله كرجل فاضل. وكان الشيء الوحيد الذي فعلته، والذي منحه بعض السعادة الحقيقية هو أنها قدمت إليه إيلا. وكانت تعرف أنه لو وسعها أن لا تنجب إيلا، لما ولدتها أبداً.

وارتجفت فزعة، وتمنت لو كان فرانك حياً كي تستطيع أن تكون لطيفة معه، لطيفة جداً، بحيث تعوض عن كل ما فات. آه، حبذا لو أن اللّه لم يكن يبدو حانقاً هكذا. آه، حبذا لو أن الدقائق لم تكن تمر بطيئة هكذا! والبيت لم يكن ساكناً هكذا! حبذا لو أنها لم تكن وحيدة هكذا!

ليت ميلاني كانت معها، فلقد كان في وسع ميلاني أن تهدئ مخاوفها. ولكن ميلاني كانت في بيتها تمرض آشلي. وفكرت سكارلت لهنيهة أن تستدعى بيتي بات، لتقف بينها وبين ضميرها، ولكنها ترددت، إذ كان من المحتمل أن تزيد بيتي الأمور سوءاً لأنها كانت تندب فرانك بإخلاص، فرانك الذي كان من روح عصرها أكثر مما كان بالنسبة إلى سكارلت. وكانت بيتي مغرمة بفرانك جداً، وكان هو يؤمِّن حاجتها إلى «وجود رجل في البيت» لأنه كان يجلب لها هدايا صغيرة، ويوفر لها حديثاً ودعابات، وقصصاً بريئة، كما كان يقرأ لها الجريدة في الليل، ويوضح قضايا الساعة، بينما تكون تصلح له جواربه. وكذلك كانت تنهمك من حوله، وتخصصه بأنواع معينة من الطعام، وتدلله أثناء إصاباته العديد بالزكام، ولذلك افتقدته الآن بشدة، وراحت تردد مرة بعد أخرى، وهي تلطم على عينيها المنتفختين الحمراوين: «حبذا لو أنه لم يخرج مع الكلان!».

حبذا لو أن هناك أحداً يستطيع أن يواسيها، يهدئ مخاوفها، يفسر لها ماهية مخاوفها المضطربة تلك، مخاوفها التي كانت تجعل قلبها يفور بسقم بارد! حبذا لو أن آشلي... إلا أنها انكمشت من الفكرة. لقد كادت تقتل آشلي، تماماً كما قتلت فرانك. وإذا ما اتفق وعرف آشلي الحقيقة، حقيقة أنها كذبت على فرانك لتظفر به، وعرف ما كان أحقرها مع فرانك، فلن يكون في وسعه أن يحبها بعد ذلك. لقد كان آشلي شريفاً جداً، صادقاً جداً، لطيفاً جداً، وكان ينظر إلى الأمور باستقامة وبوضوح فائقين، وإذا هو عرف الحقيقة كاملة، فسيفهم كل شيء. آه، أجل، سيفهم كل شيء تمام الفهم! ولكنه لن يبقى على حبها أبداً، ولذلك فمن الواجب أن لا يعرف الحقيقة، لأنه ينبغي أن يبقى على حبه لها. فكيف تستطيع أن تحيا إذا ما انتزع منها ذلك المصدر الخفي لقوّتها، ألا وهو حبه؟ ولكن أي فرج سيكون في أن تضع رأسها على كتفه، وتبكي وتخفف العبء عن قلبها الآثم!

وراح البيت الساكن بشعور الموت الثقيل الجاثم فوقه، يضغط على وحدتها إلى أن أحست أنه لم يعد في وسعها أن تحتمله دون أن يكون هناك ما يواسيها. فنهضت بحذر وأغلقت الباب نصف إغلاقة، ثم أخذت تنبش في جرار المنضدة السفلي، تحت ثيابها الداخلية، ثم أخرجت «قارورة إغماء العمة بيتي»، أي قارورة البراندي التي كانت قد خبأتها هناك، ورفعتها إلى المصباح. كانت القارورة قد فرغت حتى منتصفها، ومن الأكيد أنها لم تشرب تلك الكمية كلها منذ الليلة الماضية! وسكبت مقداراً كبيراً في كوب ماء، وجرعته. وكان عليها أن تعيد القارورة إلى مكانها في قبو المؤونة قبل الصباح، تعيدها مملوءة بالماء حتى فوهتها. وكانت مامي قد بحثت عنها قبيل الجنازة، تماماً عندما طلب حاملو بساط الرحمة كأس شراب، واتفق أن كان جو المطبخ متوتراً من قبل، مشحوناً بالريبة بين كوكي وبيتر.

اشتعل البراندي في جوفها بإمتاع شديد، إذ ليس هناك شيء كالبراندي، وأنت في حاجة إليه. والحقيقة أن البراندي مفيد في كل وقت تقريباً، أكثر فائدة بكثير من النبيذ العديم الطعم. لأي سبب في الوجود ينبغي أن يكون من اللائق بالمرأة أن تشرب النبيذ ولا تشرب الكحول؟ وكانت السيدة ميريويذر والسيدة ميد قد اشتمتا نفسها بوضوح أثناء الجنازة، وقد رأت هي نظرة الظفر التي تبادلتاها. تانك القطتان العجوزان!

وسكبت جرعة أخرى، فإن هي سكرت قليلاً هذه الليلة، فإن ذلك لن يؤثر لأنها كانت ستأوي إلى فراشها سريعاً، وفي وسعها أن تتغرغر بالكولونيا قبل أن تصعد مامي لحل شرائطها. وتمنّت لو كان في وسعها أن تسكر تماماً فتغيب عن الوعي، كما كان يفعل جيرالد أيام القضاء، إذ تنسى عندئذ وجه فرانك الغائر، وهو يتهمها بتدمير حياته ثم بقتله.

وتساءلت عما إذا كان كل إنسان في المدينة يعتقد أنها هي التي قتلته. فمن الأكيد أن الناس الذين اشتركوا في الجنازة كانوا باردين تجاهها. إذ كانت زوجات الضباط الشماليين الذين كانت تتعامل معهم، هن الوحيدات اللواتي حملت عباراتهن المواسية بعض الدفء لها. وعلى كل حال، لم تكن سكارلت تحفل بما كانت المدينة تقوله عنها، فما كان أقل أهمية هذه المسألة - أمام ما كان ينبغي أن تجيب به ربها!

وتناولت جرعة أخرى إثر هذه الفكرة، وارتعدت عندما سال البراندي الحار في بلعومها. لقد أحست بدفء عظيم الآن، ولكنها ما زالت عاجزة عن إبعاد فكرة فرانك عن عقلها. ما كان أغبى الرجال عندما كانوا يقولون إن الشراب يجعل الناس ينسون آلامهم! فما لم تشرب إلى الدرجة التي تفقد معها شعورها، ستظل ترى وجه فرانك كما كان يبدو في آخر مرة رجاها فيها ألّا تسوق العربة وحدها، وجهاً حيياً مؤنباً معتذراً.

كان الطارق على الباب الأمامي يقرع بصوت خافت، جعل البيت الساكن يتصادى مع الطرقات، وسمعت سكارلت خطوات العمة بيتي المتهادية تعبر القاعة، وكذلك صوت انفتاح الباب، ثم سمع صوت تحية ودمدمة لم يكن في المستطاع تمييزها، لعل أحد الجيران جاء ليتحدث عن الجنازة أو ليحضر طعاماً، الأمر الذي ستستحسنه بيتي، إذ كانت قد شعرت بارتياح وعزاء عظيمين بالتحدث إلى الزوار المعزين.

وتساءلت سكارلت من دون استهجان عمّن كان هذا الزائر. ولكن عندما علا صوت رجل مدوٍّ ومتباطئ فوق همس بيتي الحزين عرفت صاحبه، وغمرتها السعادة والفرح. لقد كان صاحبه هو ريت، الذي لم تكن قد رأته منذ أن كشف لها نبأ وفاة فرانك، وأدركت الآن في أعماق قلبها أنه الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتها هذه الليلة.

- «أعتقد أنها لا تمانع في أن تراني» ارتفع صوت ريت إليها.

- «ولكنها في فراشها الآن يا كابتن باتلر، ولن ترى أي إنسان. تلك الصبية المسكينة، إنها خائرة القوى، إنها...».

- «أعتقد أنها ستراني، أرجو أن تخبريها أني مسافر غداً، ومن المحتمل أن أغيب بعض الوقت، فالقضية مهمة جداً.»

- «ولكن...» قالت العمة بيتي بات بتأثر.

وخرجت سكارلت جرياً إلى القاعة، ولاحظت ببعض الدهشة أن ركبتيها كانتا ترتجفان قليلاً، ثم انحنت فوق الدرابزين:

- «سأنزل فوراً يا ريت».

ولمحت وجه العمة بيتي بات البدين المتطلع نحوها إلى الأعلى بعينين كعيني البوم دهشة واستنكاراً... الآن سيعم الخبر المدينة، بأني تصرفت أفظع تصرف مستهجن في يوم جنازة زوجي، فكرت سكارلت وهي تعود بسرعة إلى غرفتها، وتشرع في تسريح شعرها. ثم زررت قميصها الأسود حتى ذقنها، وضمت طرفي الياقة بدبوس حداد بيتي

بات: «إني لا أبدو جميلة جداً»، هجست وهي تنحني تجاه المرآة شاحبة خائفة. ولهنيهة، امتدت يدها إلى الصندوق المقفل حيث كانت تخبئ أحمر الشفاه، ولكنها صمدت في وجه رغبتها، فالعمة بيتي بات تضطرب حقاً إن هي نزلت إلى الطابق السفلي محمرة الشفتين، موردة الوجه. وتناولت قارورة الكولونيا واحتست جرعة كبيرة، وبعد أن تمضمضت بها باعتناء، بصقت في وعاء الماء القذر.

ونزلت الدرج بسرعة واتجهت نحو الاثنين اللذين ما فتئا واقفين في القاعة، إذ إن بيتي كانت قد امتعضت كثيراً من جرّاء طلب سكارلت الجلوس من ريت . وكان ريت يرتدي ثوباً أسود لائقاً، وكان قميصه الكتاني ذو الكشاكش منشى، كما كان مظهره مستوفياً كل ما تتطلبه العادة من صديق قديم يقوم بزيارة مؤاساة لصديق ثاكل. والحقيقة أنه كان زياً مغالياً في الكمال، بحيث كان يقارب زي مهزلة تمثيلية رغم أن بيتي بات لم تلاحظه، وعندما بلغته سكارلت، اعتذر بلباقة عن إزعاجه لها وأظهر أسفه لأنه لم يستطع حضور الجنازة نظراً إلى انهماكه في إنهاء أعماله قبل أن يغادر المدينة.

- «ما الذي يرغمه على القدوم؟» تساءلت سكارلت «إنه لا يعني كلمة مما يقول».

- «إني أمقت أن أتطفل عليك في هذا الوقت، إلا أن لدي قضية للبحث لا يمكن تأخيرها تتعلق بعمل. وهي قضية كنت أدرسها والسيد كنيدي. . . ».

- «لم أكن أعرف أن بينك وبين السيد كنيدي علاقات أعمال» قالت العمة بيتي بات وهي ساخطة تقريباً لأن بعض نشاطات فرانك لم تكن معروفة لديها.

- «لقد كان السيد كنيدي رجل مصالح واسعة» قال ريت برصانة «هل ندخل إلى الردهة؟».

- «لا!» صاحت سكارلت وهي تنظر إلى الأبواب المغلقة. كانت لا تزال ترى التابوت في تلك الغرفة، وكانت ترجو ألّا تضطر يوماً إلى دخولها ثانية. وأدركت بيتي مقصدها، مع أنها لم تبدُ مرتاحة أبداً.

- «استعملا المكتبة، فلا بد... فلا بد لي من أن أصعد وأتم الرتق. يا للّه لقد أهملته كثيراً هذا الأسبوع الأخير. إني أقول...».

وصعدت السلم بنظرة تأنيب خلفية لم يلاحظها كلٌّ من سكارلت وريت. ووقف ريت جانباً ليدع سكارلت تسير أمامه إلى المكتبة.

- «أي عمل كنت وفرانك مشتركين فيه؟» استوضحت فجأة.

فاقترب منها وهمس:

- «لا شيء أبداً. أردت فقط أن أبعد الآنسة بيتي من طريقنا» وصمت وهو ينحني فوقها، «ليس هذا مجدياً يا سكارلت».

- «ماذا».

- «الكولونيا».

- «إني واثقة بأني لا أعرف ما الذي تعنيه».

- «إني واثق بأنك تعرفينه، فلقد شربت كثيراً جداً».

- «حسناً، وماذا لو شربت؟ هل هذا من شأنك؟».

- «تحلي بروح المجاملة، حتى وأنت في أغوار الحزن، ولا تشربي وحدك يا سكارلت فالناس يكتشفون الأمر دائماً، وعندئذ تنهار السمعة، علاوة على أن الشرب على انفراد عادة سيئة. ما القضية يا حلوتي؟».

وقادها إلى الكنبة المصنوعة من خشب الورد وجلست وهي صامتة.

- «هل يمكنني أن أغلق الباب؟».

كانت سكارلت تعرف أنه لو قُدِّر لمامي أن ترى الباب المغلق لفضحتها ولوعظت ودمدمت حول الموضوع عدة أيام. ولكن الذي كان

أسوأ من ذلك، هو أن لو يُقدَّر لمامي أن تسترق السمع إلى هذا الحديث عن الشرب، خصوصاً في ضوء قارورة البراندي المفقودة. ثم أطرقت موافقة، فضم ريت المصراعين الانزلاقيين معاً. وعندما عاد وجلس إلى جانبها وعيناه تتفرسان بتيقظ في وجهها، تقهقر كفن الموت أمام الحيوية المنبعثة منه، وبدت الغرفة ممتعة، أليفة ثانية، وكذلك بدت المصابيح وردية دافئة.

- «ما القضية يا حلوتي؟».

لم يكن في وسع أحد في الوجود أن يلفظ كلمة المعزة الحمقاء تلك بصورة تدليه كما كان ريت يلفظها حتى عندما كان يقولها مازحاً، ولكن لم يكن يبدو الآن أنه كان يمزح. ورفعت سكارلت عينين معذبتين إلى وجهه، ووجدت بعينه العزاء في الغموض المبهم الذي رأته هناك. ولم تدر لماذا شعرت بذلك إذ كان ريت شخصاً عديم التأثر، لا يمكن التكهن بحقيقة عواطفه. ربما كان ذلك لأنهما، كما كان قد قال مراراً، متشابهان كثيراً، وكانت هي تعتقد أحياناً أن جميع الناس ،الذين سبق أن عرفتهم، كانوا غرباء عنها باستثناء ريت.

- «ألا تستطيعين أن تخبريني؟» وأخذ يدها بلطف مستغرب «إن الأمر يتعدى فقدانك لفرانك العجوز. هل أنت في حاجة إلى نقود؟».

- «نقود؟ يا للّه، لا! آه يا ريت، إني خائفة جداً».

- «لا تكوني إوزة يا سكارلت، فأنت لم تخافي أبداً في حياتك».

- «آه يا ريت، إني خائفة!».

وتدفقت الكلمات من فمها أسرع مما استطاعت أن تلفظها. لقد كان في وسعها أن تخبره... لقد كان في وسعها أن تخبر ريت بأي شيء، إذ كان هو رديئاً جداً بحيث لن يقف منها موقف القاضي. ما أعجب أن تعرف امرءاً رديئاً حقيراً خائناً كذاباً في حين تعج الدنيا

بالناس الذين لا يكذبون من أجل إنقاذ أرواحهم، والذين يفضلون الموت جوعاً على أن يرتكبوا عملاً شائناً.

- «إني خائفة من أن أموت وأذهب إلى الجحيم».

لو أنه ضحك عليها، لماتت في الحال، إلا أنه لم يضحك.

- «إنك بصحة جيدة. . . وقد لا يكون هناك جحيم في الآخرة».

- «آه، ولكن هناك يا ريت! إنك تعرف أنه يوجد!».

- «إني أعرف أنه يوجد، ولكنه هنا في هذه الأرض بالذات، وليس بعد الموت، إذ لا يوجد شيء بعد الموت يا سكارلت. إنك تقاسين جحيمك الآن».

- «آه يا ريت، إن ذلك كلام كافر!».

- «ولكنه مؤاس بصورة فذة. أخبريني لماذا ستذهبين إلى الجحيم؟».

كان يستثيرها الآن. واستطاعت هي أن ترى الومضة في عينيه ولكنها لم تبالِ. كانت تحس بيديه دافئتين جداً، مواسيتين جداً إن تعلقت بهما.

- «ريت، كان ينبغي ألّا أتزوج فرانك. لقد كان عملي خطأ، إذ كان هو عشيق سولين، وكان يحبها هي لا أنا، ولكني كذبت عليه وأخبرته أنها ستتزوج توني فونتين. آه، كيف استطعت أن أفعل ذلك؟».

- «ها إذن، تلك كانت الكيفية التي تم بها الأمر. لقد كنت أتساءل دائماً عن ذلك».

- «وبعدئذ جعلته يائساً جداً، جعلته يفعل جميع أنواع الأعمال التي لم يكن يحب فعلها، كإرغام الناس على دفع ديونهم بينما لم يكن في وسعهم في الحقيقة دفعها. وقد تألم كثيراً عندما رحت لأدير المعملين وابتنيت الصالون واستأجرت الأشقياء، فلم يعد في وسعه أن

يرفع رأسه من العار إلا بصعوبة. كما أني أنا التي قتلته يا ريت. أجل أنا التي قتلته! لم أكن أعرف أنه كان منتمياً إلى الكلان، ولم أحلم أنه كان يتمتع بذلك الحذق الواسع. ولكن كان ينبغي أن أعرف، وهكذا قتلته».

«هل سيزيل محيط نبتون[1] العظيم هذا الدم من يدي؟».

- «لا بأس استمري».

- «أستمر! هذا كل شيء، ألا يكفي؟ لقد تزوجته، لقد جعلته تعساً وقتلته. آه يا إلهي، إني لا أرى كيف استطعت فعل ذلك! لقد كذبت عليه وتزوجته وكان كل شيء يبدو في غاية الصواب عندما أقدمت عليه، ولكنني أرى الآن كم كان كل شيء خاطئاً. ريت، إن الأمر ليبدو كأني أنا التي فعلت كل هذه الأشياء. لقد كنت خسيسة جداً معه. غير أني لست خسيسة في الحقيقة، فأنا لم أنشأ على تلك الصفة، ولقد كانت أمي...» وصمتت، وبلعت ريقها. كانت قد تجنبت التفكير في إيلين طوال اليوم، ولكن لم يعد في وسعها الآن أن تمحو طيفها.

- «إنى لأتساءل مراراً ماذا كانت تشبه. ويبدو لي أنك تشبهين والدك».

- «لقد كانت أمي... آه يا ريت، للمرة الأولى أشعر بالسعادة لأنها متوفاة، وذلك كي لا تستطيع رؤيتي، فهي لم تنشئني لأكون خسيسة. لقد كانت لطيفة جداً مع كل إنسان، طيبة جداً، لقد كانت تفضل أن أموت جوعاً على أن ارتكب هذا الشطط، وكنت أرغب رغبة جامحة في أن أكون مثلها، تماماً في جميع النواحي، ولكني لست مثلها في أي ناحية. أني لم أفكر في ذلك... لقد كان والدي... لقد

---

(1) إله البحر - (المترجمان).

كنت أحبه، ولكنه كان نزقاً جداً. ريت، لقد حاولت بجد أحياناً أن أكون لطيفة مع الناس، رقيقة مع فرانك، ولكن الكابوس كان يعاودني عندئذ ويفزعني بشدة، بحيث كنت أرغب في أن أنطلق وأنتزع المال من الناس، سواء أكان مالي أم لم يكن».

كانت الدموع تنهمر على وجهها دون أن تلتفت إليه، وكانت تقبض على يده بقوة هائلة بحيث إن أظافرها غرزت في جلده.

- «أي كابوس؟» كان صوته هادئاً مطمئناً.

- «آه، نسيت أنك لم تكن تعلم به. على كل حال، تماماً في الوقت ذاته الذي كنت أريد فيه أن أكون لطيفة مع الناس، وأقنع نفسي بأن المال لم يكن كل شيء في هذه الدنيا، كنت آوي إلى السرير فأحلم بأني عدت إلى تارا، بعد وفاة والدتي مباشرة وفور مرور الشماليين، وليس في وسعك أن تتصور يا ريت... إني أشعر بقشعريرة عندما أفكر في ذلك. إن في وسعي أن أرى كيف أن كل شيء كان محروقاً ساكناً جداً، ولا شيء للأكل أبداً، آه يا ريت وفي الحلم أشعر بالجوع ثانية».

- «استمري».

- «أشعر بالجوع، أنا وجميع الآخرين، والدي وشقيقتاي والزنوج يتضورون جوعاً، ويرددون باستمرار «إننا جائعون» بينما يداي فارغتان تماماً، الأمر الذي يؤلمني، وبينما أنا فزعة جداً. وهكذا يظل عقلي يردد «إذا ما خرجت من هذه الأزمة فلن، فلن أجوع ثانية». ثم يتنقل بي الحلم إلى ضباب رمادي فأجري فيه، أجري في الضباب، أجري باندفاع هائل، حتى يكاد قلبي يتفجر، وشيء ما يطاردني، وليس في وسعي أن أتنفس، ولكني أظل أفكر أني إذا ما بلغت هنالك فسأنجو بنفسي. ولكني لا أعرف إلى أين أحاول الوصول. ثم أستيقظ وأشعر بالبرد والرعب والخوف الشديد من أن أجوع ثانية. وعندما أستيقظ من

ذلك الحلم، كان يبدو لي كأنه لا يوجد مال كافٍ في الدنيا، ليحفظني من أن أجوع ثانية. ثم إن فرانك كان ملق الناس، خاملاً بليداً، بحيث كان يجنني إلى أن أفقد طبعي. لم يكن يفهمني كما أظن، ولم يكن في وسعي أن أجعله يفهمني. وظللت أفكر أني سأتودد إليه يوماً، عندما يصير لدينا المال، ولا أعود خائفة من أن أجوع، وها هو قد مات الآن، وفات الوقت. آه، لقد بدا الأمر في غاية الصواب عندما أقدمت عليه، ولكنه كان خطأ كبيراً، وإن أنا اضطررت إلى أن أفعله ثانية، فسأقوم به بصورة مغايرة تماماً».

- «صه»، قال فاكاً قبضتها العنيفة، ساحباً منديلاً نظيفاً من جيبه «امسحي وجهك. لا يوجد معنى لتمزيق نفسك إرباً إرباً على هذا المنوال».

فأخذت المنديل ومسحت وجنتيها المبللتين، وقد تسلل إليها قليل من الفرج، كأنها نقلت بعض أعبائها إلى كتفيه العريضتين. كان ريت يبدو قديراً، هادئاً جداً، حتى إن أخف افترارة من فمه كانت مواسية، وكأنها كانت تثبت أن عذابها واضطرابها كانا لا مبرر لهما.

- «أتشعرين بتحسن الآن؟ إذن دعينا نصل إلى خلاصة هذا الموضوع. إنك تقولين إنك إذا اضطررت إلى فعلها ثانية، فستفعلينها بصورة مغايرة، ولكن هل ستفعلينها حقاً؟ فكري الآن، هل ستفعلينها؟».

- «على كل حال -».

- «لا، ستفعلين الفعلة ذاتها مرة ثانية . هل سنح لك مجال اختيار آخر؟».

- «إذن علام أنت متأسفة؟».

- «لأني كنت خسيسة جداً، وقد غدا ميتاً الآن».

- «ولو أنه لم يكن ميتاً، فإنك ستظلين خسيسة. وحسب فهمي

للموضوع، فإنك لست في الحقيقة متأسفة لتزوجك بفرانك واستبدادك به وتسببك بموته عن غير قصد. إنك حزينة فقط لأنك خائفة من أن تذهبي إلى الجحيم، هل هذا صحيح؟».

- «الواقع - إن ذلك يبدو لي أمراً مضطرباً جداً».

- «إن فلسفتك الأخلاقية مضطربة كذلك، وإلى درجة كبيرة. إنك تماماً في وضع لص، لص قبض عليه متلبساً بالجريمة، وليس هو نادماً لأنه سرق، ولكنه نادم جداً لأنه ذاهب إلى السجن».

- «لص -».

- «ها، لا تكونى حرفية! بعبارة أخرى، لو أنك لا تحملين هذه الفكرة الحمقاء، فكرة أنك ستتردين في نار الجحيم الأبدية، لاعتقدت أنك تخلصت من فرانك».

- «ريت!».

- «أصغي إليّ! إنك تعترفين، كما أن من الممكن أن تعترفي بالحقيقة ككذبة براقة - هل - أي - أرّقك ضميرك كثيراً عندما عرضت أن - هل سنقول، تتنازلي عن تلك الجوهرة التي هي أعز من الحياة، وذلك مقابل ثلاثمئة دولار؟».

كان البراندي يفعل فعله في رأسها الآن، وأحست بالطيش واللامبالاة. ما جدوى الكذب عليه، فهو يبدو أنه يقرأ أفكارها دائماً.

- «في الحقيقة، لم أكن أفكر في اللّه كثيراً في ذلك الحين - أو في الجحيم. وعندما كنت أفكر - الواقع، كنت أعتمد على أن اللّه سيفهم الحقائق».

- «ولكنك لم تعزي الفهم إلى اللّه عندما تزوجت فرانك!».

- «ريت، كيف يسعك أن تتحدث هكذا عن اللّه، بينما أنت تعرف أنك لا تؤمن بوجوده؟».

- «ولكنك تؤمنين بوجود إله للغضب، وذلك هو المهم في الوقت

الحاضر، فلماذا لا ينبغي للإله أن يفهم؟ هل أنت حزينة لأنك ما زلت تملكين تارا ولأنه لا يوجد كاربت بكرز يعيشون فيها؟ هل أنت حزينة لأنك لست جائعة رثة الثياب؟».

- «لا».

- «حسناً، هل سنح لك مجال للاختيار سوى مجال الزواج بفرانك؟».

- «لا».

- «وهو لم يكن مرغماً على الزواج بك، أليس كذلك؟ إن الرجال عملاء أحرار. كما أنه لم يكن مرغماً على أن يدعك تستبدين به في إتيان أمور لم يكن يريدها، أليس كذلك؟».

- «الواقع -».

- «سكارلت، لماذا تقلقين بسبب هذا الموضوع إذن؟ ولو أنك اضطررت إلى فعله ثانية لانسقت إلى الكذب وانساق هو إلى الزواج بك. وستستمرين في تعريض نفسك للمخاطر، وسيضطر هو إلى الثأر لك. لو أنه تزوج شقيقتك سولين، لكان من الممكن أن لا تسبب موته، ولكن من المحتمل أن تجعله أتعس بمرتين مما جعلته أنت، ولا يمكن أن يقع الأمر خلاف ذلك».

- «ولكن لقد كان في وسعي أن أكون ألطف معه».

- «لقد كان في وسعك لو كنت إنساناً آخر، ولكنك خلقت لتستبدي بأي إنسان، أي إنسان يدعك تستبدين به، لقد خلق الأقوياء ليستبدوا والضعفاء ليذعنوا. إنها جميعها غلطة فرانك لأنه لم يجلدك بسوط حوذي... إني دهش منك يا سكارلت لأنك أبدعت ضميراً في هذا الوقت المتأخر من حياتك. إن الانتهازيين أمثالك لا ينبغي أن تكون لهم ضمائر».

- «ما الانتهازي - ماذا دعوته؟».

- «الشخص الذي يستفيد من الفرص».

- «هل ذلك عيب!».

- «لقد اعتُبر عاراً دائماً - خصوصاً من قبل أولئك الذين سنحت لهم الفرص نفسها فلم يستفيدوا منها».

- «آه يا ريت، إنك تمزح بينما كنت أعتقد أنك ستتصرف بلطف».

- «إني أتصرف بلطف - في رأيي. يا عزيزتي سكارلت، إنك سكرانة، تلك هي مشكلتك».

- «أتجرؤ -».

- «أجل، أجرؤ. إنك على وشك أن تكوني ما يدعونه «المخمور المنقبض بعد نشوة» ولذلك سأغير الموضوع وأنعشك بأخبار عن نبأ يطربك. وفي الحقيقة هذا هو سبب مجيئي إلى هنا هذا المساء لأتحفك بنبئي قبل سفري».

- «أين ستسافر؟».

- «إلى إنكلترا، وقد أغيب أشهراً. انسي ضميرك يا سكارلت، فلست عازماً على أن أبحث في هناء روحك أكثر مما فعلت. ألا تريدين سماع نبئي؟».

- «ولكن -» شرعت بوهن ثم صمتت. وكان طيف فرانك الشاحب يتقهقر الآن في الظلال، بين تأثير البراندي الذي كان يزيل أطواق التأنيب الصارمة، وبين تأثير كلمات ريت الساخرة ولكن المواسية، ربما كان ريت على صواب. ربما فهم اللّه الحقيقة. وهكذا انتعشت إلى درجة كبيرة وطردت الفكرة من أعلى رأسها وقررت: «سأفكر فيها غداً».

- «ما هو نبؤك؟» قالت بجهد، ومخطت في منديله، ثم دفعت شعرها إلى الخلف وكان قد بدأ يتشعث.

- «إن نبئي ما يلي» أجاب وابتسم لها، «إني ما أزال أرغب فيك أكثر من رغبتي في أي امرأة أخرى رأيتها، والآن وقد توفي فرانك، أعتقد أن هذه الحقيقة ستهمك».

- «إني - إنك أحط إنسان في الدنيا. تأتي هنا بقذارتك، في هذا الوقت من بين جميع الأوقات - كان ينبغي أن أعرف أنك لن تتغير. وفرانك لمّا يبرد جسده! لو كان لديك قليل من الحشمة - هل تغادر هذا -»

- «هدئي روعك وإلا فستكون الآنسة بيتي بات هنا بعد دقيقة» قال دون أن ينهض، ولكنه مد يديه وأمسك بكلا قبضتيها، «أخشى أن تكوني أخطأت مرادي».

- «أخطأت مرادك؟ إني لا أخطئ أي شيء» وقاومت قبضته، «اتركني واخرج من هنا. إني لم أسمع أبداً بذوق خسيس كهذا، إني -».

- «صه» قال «إني أطلب منك أن تتزوجيني. هل تقنعين إن أنا ركعت أمامك؟»

فقالت «آه» وهي محتبسة النفس، ثم جلست على الكنبة بصعوبة.

راحت تحدق فيه فاغرة الفم وهي تتساءل عما إذا كان البراندي يخدع عقلها وتتذكر لاشعورياً عبارته العتيدة «عزيزتي، لسست رجل زواج»، لا بد أنها سكرانة أو أنه مجنون. ولكنه لم يكن يبدو مجنوناً، بل كان يبدو هادئاً كأنه كان يتحدث عن الطقس. ووقعت لهجته الناعسة على مسامعها، من دون أي تأكيد خاص:

- «كنت دائماً مصمماً على نيلك يا سكارلت، منذ ذلك اليوم الأول الذي رأيتك فيه فى تولف أوكس، عندما قذفت بذلك الأصيص وشتمت وبرهنت أنك لم تكوني سيدة. كنت دائماً مصمماً على نيلك

بأية وسيلة، ولكن لما كنت أنت وفرانك قد جمعتما قليلاً من المال، فإني أعرف أنك لن تنساقي إليَّ ثانية بأية عروض مثيرة عن القروض والضمانات المقابلة. ولذلك أرى أن عليَّ أن أتزوجك».

- «ريت باتلر، هل هذه إحدى دعاباتك الرذيلة؟».

- «أنا أكشف لك نفسي وأنت مرتابة! إن هذا تصريح مخلص، وإني أعترف أن مجيئي في هذا الوقت ليس من الذوق السليم في شيء، إلا أن لدي عذراً وجيهاً على نقص تربيتي، فأنا مسافر غداً لمدة طويلة وأخشى إن انتظرت إلى أن أعود، أن تتزوجي برجل آخر يملك قليلاً من المال، ولذلك فكرت: لماذا لا تتزوجيني ونقودي؟ فالحقيقة يا سكارلت أني لا أستطيع أن أظل طوال حياتي، أنتظر التقاطك بين الأزواج».

لقد كان يعني ما يقول. لم يكن هناك شك في ذلك. وعندما استوعبت سكارلت هذه المعرفة، كان فمها جافاً، فبلعت ريقها ونظرت إلى عينيه وهي تحاول أن تجد دليلاً. كانت عيناه تفيضان بالضحك، ولكن كان هناك شيء آخر، شيء فيهما لم تكن قد رأته قبلاً، شعاع يتحدى التحليل. وكان ريت يجلس مطمئناً وبصورة لامبالية، ولكن سكارلت أحست أنه كان يراقبها بتيقظ كقطة تراقب ثقب فأر. كان هناك إحساس بقوة توتر مكبوحة كامنة تحت هدوئه جعلتها تنكمش بقليل من الرعب.

لقاد كان فعلاً يسألها أن تتزوجه، لقد كان يقترف ما يمكن تصديقه. وكانت قد اختطت مرة كيفية تعذيبه إذا هو اقترح الزواج بها، وكانت قد فكرت مرة أنه إذا ما نطق بهذه الكلمات، فستذله وتجعله يشعر بسلطانها، وتتمتع بسرور حاقد وهي تفعل ذلك، وها هو الآن قد نطق، ولكن خططها الماضية لم تخطر على بالها، لأن ريت لم يكن واقعاً تحت سلطانها أكثر مما كان فيما مضى. والحقيقة أنه كان يمسك

بزمام مبادرة الموضوع تماماً، بحيث إنها كانت مضطربة كفتاة في أول خطوبة لها، ولم يكن في وسعها الآن إلا أن تحمر خجلاً، وتتلعثم.

- «إني - إني - لن أتزوج ثانية».

- «ها، أجل، ستتزوجين، فلقد خلقت لتتزوجي، فلماذا لا تتزوجيني أنا؟».

- «ولكن يا ريت، إني - إني لا أحبك».

- «ينبغي ألّا يكون ذلك سبباً للتراجع، كما أني لا أذكر أن الحب كان شيئاً بارزاً في مغامرتيك الأخيرتين».

- «ها، كيف يسعك معرفة ذلك؟ إنك تعرف أني كنت مغرمة بفرانك».

فلم يقل شيئاً.

- «أجل، لقد كنت أحبه! لقد كنت -».

- «حسناً، لن نبحث هذا الأمر. هل لك أن تفكري في اقتراحي ملياً أثناء غيابي؟».

- «إني لا أستحسن إرجاء الأمور يا ريت، وأفضل أن أجيبك الآن... أريد أن أذهب إلى البيت وأظل هناك مدة طويلة. وإني - وإني لا أريد الزواج ثانية».

- « هراء، لماذا؟».

- «ها، على كل حال، ما عليك بالسبب. إنى فقط لا أميل إلى الحياة الزوجية».

- «ولكن يا طفلتي المسكينة، إنك في الحقيقة لم تنعمي بالحياة الزوجية أبداً، فكيف يسعك معرفتها؟ إني أقر بأنك لم تسعدي - مرة للنكاية ومرة للمال، هل فكرت يوماً في الزواج من أجل متعة الزواج فقط؟».

- «متعة؟ لا تتحدث كأحمق، فليس هناك متعة في الحياة الزوجية».

- «لا؟ ولِمَ لا؟».

كان قد عاودها شيء من الهدوء، الهدوء الذي صحبته كل الخشونة الطبيعية التي أظهرها البراندي إلى السطح:

- «إنها متعة للرجال - إن اللّه وحده يعرف السبب. أما أنا فلم أستطع أبداً فهمه. غير أن الذي تناله المرأة من الزواج هو شيء تقتات به، وعمل كثير واضطرار على تحمل سخافة الرجل - وولادة طفل كل سنة».

فقهقه ريت بصوت مرتفع جداً، بحيث إن الصوت تصادى في السكون وسمعت سكارلت باب المطبخ يفتح.

- «صه! إن لمامي أذنين كأذني الوشق، وليس من الحشمة أن تضحك في هذا الوقت المبكر بعد - كف عن الضحك، أنت تعرف أن ما أقوله حقيقي. متعة! هراء!».

- «لقد قلت إنك لم تسعدي، وإن ما قلته الآن يثبت ذلك. لقد تزوجت بفتى، ثم برجل عجوز، وعلاوة على ما ذكرت، إني أراهن أن والدتك أخبرتك أن على النساء أن يتحملن «هذه الأمور» مقابل متع الأمومة المكافئة. والواقع أن ذلك كله خطأ. لماذا لم تجربي الزواج برجل فتي رائع تميزه سمعة شائنة وطريقة خاصة مع النساء؟ سيكون الزواج حينئذ متعة».

- «إنك فظ مغرور، وأظن أن هذا الحديث قد اشتط إلى ما فيه الكفاية. إنه مبتذل تماماً».

- «وممتع تماماً أيضاً. أليس كذلك؟ إني أراهن أنك لم تبحثي في العلاقة الزوجية مع رجل قبل الآن، حتى ولا مع تشارلز أو فرانك».

فعبست في وجهه. لقد كان ريت يعرف كثيراً جداً. وتساءلت أين كان قد تعلم كل هذا الذي يعرفه عن النساء، الأمر الذي كان غير لائق.

- «لا تعبسي. حددي الوقت يا سكارلت، وأنا لن ألح على زواج فوري وذلك حفاظاً على سُمعتك. سننتظر الفترة المقررة. وبالمناسبة، كم تبلغ هذه الفترة المقررة؟».

- «أنا لم أقل إني سأتزوجك، وليس من اللائق حتى أن تتحدث بأمور كهذه في وقت كهذا».

- «لقد أخبرتك عن سبب تحدثي بها. إني مسافر غداً. وإني محب غيور جداً بحيث لم يعد في وسعي أن أكبح عاطفتي. ولكن قد أكون متسرعا جداً في طلب يدك».

وبحركة مفاجئة أجفلتها، انساب عن الكنبة، جاثياً على ركبتيه، وبعد أن وضع يده على قلبه بلطف، شرع يتلو:

- « سامحيني لأني أفزعتك بعنف عواطفي يا عزيزتي سكارلت، أعني يا عزيزتي السيدة كنيدي، لا يمكن أن يكون قد غاب عن بالك أنه منذ وقت مضى نضجت الصداقة التي أكنها لك في قلبي وتحولت إلى شعور أعمق، شعور أجمل وأطهر وأقدس، هل أجرؤ على تسميته؟ آه! إنه الحب، هو الذي يجعلني جريئاً هكذا!».

- «انهض» توسلت، «إنك تبدو غبياً جداً، ثم هب أن مامي دخلت الغرفة ورأتك؟».

- «سينتابها الذهول وعدم التصديق من جرّاء دلائل نبلي الأولى» قال ريت، «إنك لسست طفلة، لست تلميذة مدرسة، كي ترفضي طلبي متذرعة بحجج واهية تتعلق بالحشمة وهلم جرا. قولي إنك ستتزوجينني عندما أعود، وإلا، فليشهد اللّه إني لن أذهب، بل سأظل هنا أطوف حول البيت وأعزف القيثارة تحت نافذتك كل ليلة، وأغني بأعلى

صوتي، وأعرضك للشبهات، وهكذا ستضطرين للزواج بي كي تنقذي سُمعتك».

- «ريت، كن عاقلاً، إني لا أريد الزواج بأي إنسان».

- «لا؟ إنك لا تقولين لي السبب الحقيقي، فلا يمكن أن يكون ذلك هو خفر الصبايا، فما هو إذن؟».

وفجأة فكرت في آشلي ورأته بهي الطلعة كأنه يقف بجانبها. رأته بشعره البراق وعينيه الناعستين، ووقاره الكامل، مختلفاً كل الاختلاف عن ريت. لقد كان آشلي السبب الحقيقي لعدم رغبتها في الزواج ثانية، مع أنها لم يكن لديها مانع من الاقتران بريت، بل إنها كانت أحياناً مغرمة به بإخلاص. لقد كانت تخص آشلي، الآن وإلى الأبد، ولم تكن يوماً تخص فرانك أو تشارلز، ولم يكن في وسعها في الحقيقة أن تخص ريت. كل جزء منها، وتقريباً جميع الأمور التي كانت قد أقدمت عليها، وجاهدت في سبيلها، وظفرت بها، كانت قد فعلتها لأنها كانت تحبه. آشلي وتارا. كانت تخصهما. الابتسامات، الضحك، القبل التي لتشارلز وفرانك كانت تخص آشلي، مع أنه لم يكن ادعاها لنفسه، ولم يكن ليدعيها. وفي مكان عميق من كيانها كانت تكمن الرغبة في أن تحتفظ بنفسها له، مع أنها كانت تعرف أنه لن يتزوجها.

ولم تكن سكارلت تعرف أن وجهها كان قد تغير، وأن أحلام النهار كانت قد أضفت على وجهها نعومة لم يكن ريت قد رآها قبلاً. ونظر إلى العينين الخضراوين المائلتين، وكانتا متسعتين مبهمتين، كما نظر إلى ثنية شفتيها الغضة، ولهنيهة، احتبس نفسه ثم تدلى فمه بعنف عند أحد شدقيه، وشتمها بجرح حاد:

- «سكارلت أوهارا، إنك غبية!».

وقبل أن تستطيع استرجاع عقلها من مواطنه البعيدة، كانت ذراعاه قد أحاطتا بها بتوكيد وقوة، كما فعلتا وهما في الطريق المعتم إلى

تارا، منذ مدة طويلة، وثانية، أحست بدفق من العجز، باستسلام غامر، بموجة الدفء الزاخرة التي تركتها مسترخية. وتاه وجه آشلي ويلكس الهادئ ثم غاض في اللاشيء، وأضجع ريت رأسها خلفاً على ذراعه، وقبَّلها أولاً بنعومة، ثم بتدرج متسارع في العنف، جعلها تتعلق به كالشيء الصلب الوحيد في عالم دائخ مترنح، كان فمه الملحاح يفارق شفتيها المختلجتين باعثاً رعشات عنيفة في أعصابها، مثيراً فيها أحاسيس لم تكن تعرف أبداً أن في وسعها الإحساس بها. وقبل أن يلفَّها دوار غائم، عرفت أنها كانت تبادله القبلات.

- «كف، أرجوك، لقد أغمي عليّ!» هجست وهي تحاول إبعاد رأسها عنه بضعف، ولكنه ضغط رأسها على كتفه، ولمحت هي وجهه والدوار ما زال ينتابها. كانت عيناه متسعتين تتألقان بصورة غريبة، وأفزعها ارتجاف ذراعيه.

- «أريد أن أجعلك يغمى عليك. سأجعلك يغمى عليك. لقد كان من الواجب أن تنعمي بذلك منذ سنتين، ولكن لا أحد من الأغبياء الذين تعرفينهم قبَّلك على هذه الصورة - أليس كذلك؟ تشارلز الغالي وفرانك أو آشلي الأحمق».

- «أرجوك -».

- «قلت آشليك الأحمق، جميع السادة - ماذا يعرفون عن النساء، ماذا عرفوا عنك - أنا الذي يعرفك».

وأضحى فمه على فمها ثانية، واستسلمت هي من دون مقاومة، فقد كانت ضعيفة جداً بحيث لم يكن في وسعها أن تدير رأسها، بل لم تكن لها حتى الرغبة في أن تديره. كان قلبها يهزها بوجيبه، وكان الخوف من قوته وضعفها الواهن يجتاحانها... ماذا كان ينتظر أن يفعل؟ سيغمى عليها إن لم تتوقف. حبذا لو توقف - حبذا لو لم يتوقف أبداً.

- «قولي نعم!» كانت شفتاه مطبقتين على شفتيها، وكانت عيناه قريبتين جداً بحيث كانتا تبدوان تملآن الدنيا، «قولي نعم، ليلعنك اللّه أو -».

فهمست «نعم» حتى قبل أن تفكر. وبدا الأمر كأنه كان يرغب في الكلمة كأنها كانت قد نطقتها من دون إرادتها. ولكن تماماً حالما نطقتها، غمر روحها هدوء مفاجئ، وبدأ رأسها يكف عن الدوران، وحتى دوار البراندي خف كذلك. لقد وعدته بالزواج، بينما لم يكن لديها أي قصد في الذي وعدت به، وبالكاد عرفت كيف تم كل هذا الأمر. ولكنها لم تبكِ نادمة، وبدا قولها نعم طبيعياً جداً، تقريباً كأن يداً أقوى من يدها شملت أمورها بتدخل مقدس، وقررت لها حل مشاكلها.

وعندما تكلمت، تنفس ريت بسرعة وانحنى كأنه يريد تقبيلها ثانية، فأغمضت هي عينيها، وتداعى رأسها إلى الوراء، ولكنه سرعان ما تراجع إلى الخلف، فغاب أملها بحيث كاد يغمى عليها - لقد شعرت باستغراب عظيم لأنها قبلت على هذه الصورة، ومع ذلك فقد كان هناك شيء مثير يتعلق بهذا الأمر.

وجلس ريت ساكناً جداً لبرهة قصيرة، وهو يحمل رأسها على كتفه، ثم انقطع ارتجاف ذراعيه كأنه بذل جهداً في سبيل ذلك، ثم ابتعد عنها قليلاً، وراح ينظر إليها، وفتحت هي عينيها، ورأت أن الوهج المرعب قد غادر وجهه. ولكن ولسبب ما، لم تستطع أن تقابل نظراته، وغضت بصرها في دفق من الاضطراب المخدر.

وعندما تكلم كان صوته هادئاً جداً.

- «أعنيتها؟ ألا تريدين سحبها؟».

- «لا».

- «ليس فقط لأني - ما هي العبارة؟ - طوحت بك، بـ - أي - بعاطفتي الجائشة؟».

فلم تستطع الجواب لأنها لم تكن تعرف ما تقوله، وكذلك لم تستطع مقابلة عينيه. أما هو فقد مد يده تحت ذقنها ورفع وجهها:

- «لقد أخبرتك مرة أن في وسعي احتمال كل شيء منك إلا كذبة، وإني أريد الصدق الآن. لماذا قلت نعم؟».

وما زالت الكلمات لا تخرج، ولكن بعض الاتزان عاودها، فأبقت نظرها متجهاً إلى أسفل، متظاهرة بالحشمة، وزمت شدقيها في بسمة صغيرة.

- «انظري إليّ، هل هي نقودي؟».

- «كيف يا ريت! أي سؤال هذا!».

- «ارفعي بصرك، ولا تحاولي أن تتملقيني، فأنا لست تشارلز أو فرانك، أو أياً من شبان المقاطعة، لأخدع بجفنيك الرفافين. هل هي نقودي؟».

- «الواقع - أجل إلى حد ما».

- «إلى حد ما؟».

ولم يبدُ أنه تضايق، وإنما تنفس تنفساً سريعاً. وبجهد، غيب من عينيه الشوق الذي سببته كلماتها، الشوق الذي تستطيع رؤيته بسبب اضطرابها الشديد.

- «الواقع» تلعثمت حائرة، «أن المال يعين كما تعرف يا ريت، واللّه يعلم أن فرانك لم يخلّف كثيراً. ولكن اسمع - الواقع يا ريت أننا نجاري بعضنا كما تعرف، وإنك الرجل الوحيد الذي رأيته والذي يستطيع تحمل الحقيقة من امرأة. وسيكون من الجميل أن أنعم بزوج لا يعتقد رني حمقاء غبية، ويتوقع أن أخبره بالأكاذيب - و - الواقع، رني مغرمة بك».

- «مغرمة بي؟».

- «على كل حال» قالت برمة، «إذا أنا قلت إني مجنونة بحبك، فسأكون كذابة، والأنكى رنك ستعرف ذلك».

- «إني أفكر أحياناً أنك تبالغين في الصدق كثيراً جداً، يا مدللتي. ألا تعتقدين أنه حتى لو كانت كذبة، فإن من المناسب لك أن تقولي: «إني أحبك يا ريت» حتى لو لم تكوني تعنينها؟».

ماذا كان ينوي، تساءلت وقد زاد اضطرابها. وكان هو يبدو مريباً لهوفاً متألماً ساخراً. وسحب يديه من يديها ودسهما في أعماق جيبي سرواله، حيث رأته يجمع راحتيه.

«سأقول الحقيقة ولو كان ذلك سيكلفني زواجاً» فكرت باكتئاب ودمها فاتر، شأنها دائماً عندما يستفزها.

- «ريت، ستكون كذبة، ولماذا نحن نتطرق إلى كل تلك السخافات؟ إني مغرمة بك كما قلت. وإنك تعرف كيفية ذلك، كما أنك أخبرتني مرة أنك لا تحبني، ولكننا نشترك بصفات كثيرة، كلانا وغدان، هكذا كان الأسلوب الذي...».

- «يا إلهي!» همس بسرعة وأشاح برأسه بعيداً عنها، «أن أقع في الفخ الذي نصبته أنا!».

- «ماذا قلت؟».

- «لا شيء» ونظر إليها وضحك. ولكنها لم تكن ضحكة سارة، «حددي اليوم يا عزيزتي» وضحك ثانية، وانحنى وقبَّل يديها. وساورها الفرج وهي ترى انجلاء الحالة التي كان فيها وعودة روحه المرحة ظاهرياً، الأمر الذي جعلها تبتسم بدورها.

ولهنيهة راح يعبث بيدها ويبتسم لها.

- «هل اتفق لك مرة وأنت تقرئين القصص أن اطلعت على

القصص القديم المعروف الذي تقع فيه المرأة بحب زوجها بعد أن تكون زاهدة فيه؟».

- «إنك تعرف أني لا أقرأ قصصاً؟» قالت ثم أردفت كلامها وهي تحاول تقليد موقفه المازح، «هذا بالإضافة إلى أنك قلت فيما مضى إن أسوأ الأوضاع بالنسبة إلى الأزواج والزوجات هو أن يحب بعضهما بعضاً».

- «وفيما مضى قلت أيضاً لعنة اللّه على أشياء كثيرة» رد إهانتها فجأة ثم نهض واقفاً.

- «لا تشتم».

- «عليك أن تتعودي على الشتم وتتعلميه أيضاً. عليك أن تتعودي على كل صفة سيئة فيَّ، لأن ذلك سيكون جزءاً من ثمن كونك... مغرمة بي، ومن وضع مخالبك الظريفة على نقودي».

- «حسناً، لا تفقد السيطرة هكذا، لأني لم أكذب عليك ولم أخدعك. أنت لا تحبني، أليس كذلك؟ فلماذا عليَّ أن أحبّك؟».

- «لا يا عزيزتي، أنا لا أحبك أكثر مما تحبينني ولو كنت أحبك، لكنت الشخص الأخير الذي أخبره بذلك. ليكن اللّه في عون الرجل الذي يحبك حقيقة، لأنك ستحطمين قلبه يا قطتي الصغيرة، المدمرة القاسية، العزيزة عليّ، التي لا تبالي والتي تثق بنفسها كل الثقة بحيث لا تكلف نفسها عناء إخفاء مخالبها».

وجذبها لتقف على قدميها، ثم قبَّلها ثانية، إلا أن شفتيه هذه المرة كانتا تختلفان عن السابق، إذا بد أنه لم يكن يحفل إن هو آلمها... بل بدا أنه كان يرغب في إيلامها وإهانتها، وزلقت شفتاه إلى عنقها، وأخيراً ضغطهما على قماش التفتا فوق ثدييها، ضغطهما بشدة، ولبرهة طويلة، بحيث إن حرارة نَفَسه المشتعلة بلغت جسدها، وكافحت يداها لتبعداه في حشمة منتهكة.

- «ينبغي ألّا تفعل هذا! كيف تجرؤ!».

- «إن قلبك يخفق كقلب أرنب» قال ساخراً، «إني أعتقد أن خفقانه أسرع من أن يكون ناجماً عن غرام بي، هذا إذا كنت قد خدعت. هدئي روعك. إنك تتصنعين هذه المظاهر العذرية وحسب. أخبريني ماذا أجلب لك من إنكلترا، خاتماً؟ أي نوع تفضلين؟».

فترددت هنيهة بين الاهتمام بكلماته الأخيرة وبين رغبة أنثوية لتمديد المشهد بسخط وغضب.

- «ها، خاتم ماس... اشترِ واحداً كبيراً جداً يا ريت».

- «وهكذا تستطيعين أن تتباهي به أمام صديقاتك اللواتي أخنى عليهن الفقر، وتقولين: «انظرن ماذا نلت!». حسناً، ستنالين خاتماً كبيراً، خاتماً كبيراً جداً بحيث إن صديقاتك اللواتي هن أقل منك حظاً، سيعزين أنفسهن بأن يهمسن أن من المبتذل حقاً لبس خاتم ذي أحجار كبيرة كهذه».

وانطلق فجأة عبر الغرفة، وتبعته هي ذاهلة إلى الباب الموصد.

- «ما القضية؟ إلى أين أنت ذاهب؟».

- «إلى شقتي لأتمم حزم أمتعتي».

- «ها، ولكن...».

- «ولكن ماذا؟».

- «لا شيء، أرجو أن تنعم برحلة جميلة».

- «أشكرك».

وفتح الباب، ومشى في القاعة، وسكارلت تتبع خطواته في حيرة جزئية، وفي خيبة أمل خفيفة، كأنها عانت نكسة غير متوقعة. وارتدى هو سترته، وتناول قفازيه وقبعته.

- «سأكتب لك. دعيني أعرف إن غيرت رأيك».

- «ألن...».

- «ماذا؟» وبدا أنه كان ينتظر انصرافه بفراغ صبر.
- «ألن تقبّلني قبلة الوداع؟» همست وهي حريصة من آذان البيت.
- «ألا تعتقدين أنك نعمت بتقبيل كافٍ لأمسية واحدة؟» أجل وافترّ ثغره لها، «لئن يفكر المرء في امرأة فتية محتشمة، رفيعة التربية... على كل حال، لقد أخبرتك أن الأمر سيكون ممتعاً، أليس كذلك؟».
- «آه، إنك لا تطاق!» صاحت ساخطة غير مبالية إن سمعتها مامي، «وإني لا أحفل إن لم تعد أبداً».

واستدارت وهرعت نحو الدرج، متوقعة أن تحس بيده الدافئة على ذراعها بيد أنه لم يزد على أن فتح الباب الأمامي، فانساب تيار بادر إلى الداخل.

- «ولكني سأعود» قال وخرج، وقد تركها على الدرجة السفلية تنظر إلى الباب المغلق.

* * *

كان الخاتم الذي جلبه ريت من إنكلترا كبيراً جداً في الحقيقة، كبيراً جداً بحيث إنه كظ سكارلت فيما يتعلق بلبسه، لقد كان تحب الجواهر الثمينة الزاهية، ولكنها كانت تشعر شعوراً قلقاً بأن الجميع يقولون، وهم على حق، إن هذا الخاتم كان مبتذلاً. كان حجره المركزي ماسة تزن أربعة قراريط، وتحيط بها مجموعة من الزمرد، وكان يصل إلى عقدة أصبعها، ويضفي على يدها مظهر اليد المتدلية المثقلة، وساور الشك سكارلت في أن ريت قد عانى متاعب عظيمة من أجل صنعه، وأنه بدافع الخسة فقط، أمر بأن يصاغ موافقاً للمباهاة بقدر الإمكان. ولم تخبر سكارلت أحداً عن غاياتها، حتى ولا عائلتها، إلى أن عاد ريت إلى أتلانتا وأضحى الخاتم في إصبعها. وعندما أعلنت خطوبتها، انفجرت عاصفة من الأحاديث المرة، وكان ريت وسكارلت منذ حادث الكلان أكثر سكان المدينة مكروهية، باستثناء الشماليين

والكاربت بكرز. وكان الجميع قد نفروا من سكارلت منذ ذلك اليوم الذي هجرت فيه ثياب الحداد على تشارلي. وكان نفورهم قد ازداد من جرّاء سلوكها غير النسوي في موضوع المعلمين، ولقلة حيائها في إظهار نفسها وهي حامل، ثم لأمور كثيرة أخرى. ولكن عندما سببت موت فرانك وتومي وعرَّضت أرواح دزينة من الرجال الآخرين للخطر، ازدادت كراهيتهم لها وتحولت إلى إدانة عامة.

أما بالنسبة إلى ريت، فقد كان يبتهج بكراهية المدينة له، منذ مضارباته خلال الحرب، كما أنه لم يحبب إخوانه المواطنين به بسبب تحالفه مع الجمهوريين منذ ذلك الوقت. بيد أن مما هو غريب حقاً أن إنقاذه لأرواح بعض أبرز رجال أتلانتا، كان ما أثار ضده أشد كراهية سيدات أتلانتا.

ولم يكن سبب ذلك هو أنهن ندمن على أن رجالهن ما زالوا أحياء، بل إنهن استنكرن أن يكنّ مدينات بأرواح رجالهن إلى رجل كريت، وإلى خدعة مزعجة كتلك. لقد بقين طوال أشهر يتميزن غيظاً من جرّاء ضحك الشماليين وازدرائهم. وكان السيدات يشعر ويقلن إنه إذا كان ريت يضمر خيراً في قلبه للكلان حقاً، لدبر الأمر بطريقة أكثر لباقة، ويقلن كذلك إنه جر بيل وتلينغ للقضية عمداً ليضع صفوة المدينة في مركز مشين. ولذلك فهو لم يكن يستحق الشكر على إنقاذ الرجال، أو العفو عن جرائمه الماضية.

وإذ كانت هؤلاء النسوة سريعات جداً في تلبية أعمال الرحمة، حساسات جداً مع الحزانى، ولا يكللن من العمل في أوقات الشدة فقد كان من المنتظر أن يحقدن حقد النساء الغاضبات على أي مارق يشذ بعض الشذوذ على دستورهن غير المدون. هذا الدستور البسيط الذي فحواه: الاحترام للحلف، التكريم للأبطال، الإخلاص للتقاليد القديمة، الكبرياء في الفقر، الكرم مع الأصدقاء، الكراهية الخالدة

للشماليين. وكانت سكارلت وريت قد انتهكا جميع عقائد هذا الدستور.

وحاول الرجال الذين كان ريت قد أنقذ أرواحهم، حاولوا بدافع من اللياقة والشعور بالجميل أن يبقيهن صامتات، إلا أنهم لم ينجحوا إلا قليلاً. لقد كان الاثنان قبل إعلان خطوبتهما مكروهين للغاية ولكن كان ما زال في وسع الناس أن يكونوا مؤدبين معهما بطريقة رسمية، أما الآن، فحتى تلك المجاملة الفاترة لم تعد ممكنة. لقد وقع نبأ خطوبتهما كانفجار مدمر غير متوقع هز المدينة، وحتى آلاف النسوة تباعاً جاهرن بآرائهن بحدة في هذا الصدد. أتتزوج ولمّا تمضِ سنة على مقتل فرانك، وهي التي قتلته؟ وتتزوج ذلك الرجل باتلر الذي يملك ماخوراً، والذي كان مشتركاً مع الشماليين والكاربت بكرز في جميع أنواع الخطط اللصوصية! كان يمكن احتمال كل منهما على انفراد، ولكن الاتحاد الوقح بين سكارلت وريت كان أكثر مما يمكن احتماله، فكلاهما مبتذل وسفيه! ينبغي أن يُطردا من المدينة!

كان يمكن أن تكون أتلانتا أكثر تسامحاً مع الاثنين، لو أن نبأ خطوبتهما لم يأتِ في الوقت الذي أضحى فيه أخلّاء ريت من السكالاواغز والكاربت بكرز أكثر مكروهية في نظر سكان المدينة المحترمين من أي وقت مضى. كان الشعور العام ضد الشماليين وجميع حلفائهم على أشده في الوقت ذاته الذي علمت فيه المدينة بنبأ الخطوبة، ذلك لأن آخر حصن من حصون مقاومة جورجيا للحكم الشمالي كان قد سقط حديثاً، وكانت الحملة الطويلة التي ابتدأت بزحف شيرمان جنوباً من شمال دالتون قبل أربع سنوات، قد بلغت ذروتها أخيراً، وبذلك تم إذلال الولاية.

كانت قد انقضت ثلاث سنوات من التجديد، كانت ثلاث سنوات من الإرهاب. وكان الجميع قد اعتقد أن الأوضاع لا يمكن أن تصبح

أسوأ مما عانوا ولكن جورجيا كانت تكتشف أن التجديد في أسوأ مرحلة قد بدأ الآن.

كانت الحكومة الاتحادية تحاول خلال السنوات الثلاث، أن تفرض أفكاراً غريبة وحكماً غريباً على جورجيا. ولقد نجحت في ذلك إلى حد كبير بمؤازرة جيش استخدم لتنفيذ أوامرها، بيد أن قوة الجيش فقط هي التي كانت تحمي الحكومة الجديدة. لقد كانت الولاية تحت حكم الشماليين ولكن من دون موافقة سكان الولاية، وكان قادة جورجيا ماضين في الكفاح من أجل حق هؤلاء السكان في أن يحكموا أنفسهم بموجب مفاهيمهم الخاصة. كانوا قد استمروا في مقاومة كل الجهود التي بذلت لترغمهم على الرضوخ وقبول أوامر واشنطن كقانون ولايتهم الخاص.

ولم تكن حكومة جورجيا قد استلمت رسمياً، ولكن الأمر كان عبارة عن كفاح عقيم، كفاح خاسر دائماً، كفاح لا يمكن أن ينجح، ولكنه كان على الأقل، قد أرجأ ما لا مفر منه. وكانت ولايات جنوبية أخرى قد ابتليت بزنوج أميين تبوأوا مراكز رفيعة عامة، وبمشرعين كان يسيّرهم الزنوج والكاربت بكرز، إلا أن جورجيا بفضل مقاومتها العنيدة، كانت قد أفلتت من هذا الانحطاط الحاسم، وظلت عاصمتها خلال الجزء الأكبر من السنوات الثلاث، بيد الرجال البيض والديمقراطيين، وبوجود الجنود الشماليين في كل مكان، لم يكن في وسع موظفي الولاية أن يفعلوا سوى القليل، بالإضافة إلى الاحتجاج والمقاومة، كانت سلطتهم اسمية ولكنهم كانوا قادرين على الأقل أن يُبقوا حكومة الولاية في أيدي الوطنيين الجورجيين، ولكن حتى ذلك الحصن الأخير كان قد سقط الآن.

وتماماً كما كان جونستون ورجاله قد أُجبروا على التقهقر خطوة خطوة من دالتون إلى أتلانتا قبيل أربع سنوات، أُجبر الديمقراطيون

الجورجيون على التقهقر تدريجياً من عام 1865 فصاعداً، إذ كانت سلطة الحكومة الاتحادية على شؤون الولاية وأرواح مواطنيها تزداد باطراد ثابت. وكانت القوى تحشد فوق القوى، والمراسيم العسكرية المطردة العدد تصير السلطة المدنية أعجز فأعجز. وأخيراً، لمّا كانت جورجيا في وضع مقاطعة عسكرية، أمر بفتح جداول انتخابية للزنوج، سواء سمحت قوانين الولاية أم لم تسمح.

وقبل أن تعلن سكارلت وريت نبأ خطوبتهما بأسبوع، كان قد أجري اقتراع لانتخاب حاكم الولاية. وكان مرشح الديمقراطيين الجنوبيين هو الجنرال جون ب. غوردون، أحد أحب مواطني جورجيا إليهم وأكثرهم احتراماً. وكان ينافسه مرشح جمهوري يدعى بولوك. وقد استمر الاقتراع ثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد، وأسرعت القطارات في نقل الزنوج من مدينة إلى أخرى ليصوتوا في كل دائرة على طول الطريق. وطبعاً فاز بولوك.

ولئن كان سقوط جورجيا من يد شيرمان قد سبب مرارة، فإن سقوط عاصمة الولاية النهائي في أيدي الكاربت بكرز والشماليين والزنوج سبب شدة في المرارة، إلى درجة لم تعرفها الولاية من قبل، وراحت أتلانتا وجورجيا تغليان وتفوران غضباً.

وكان ريت صديق بولوك المقيت!

أما سكارلت التي كانت كعادتها قليلة الاهتمام بكل القضايا التي لا تتصل بها مباشرة، فإنها بالكاد عرفت أن اقتراعاً كان قد جرى. ولم يكن ريت قد اشترك بالاقتراع، ولم تكن علاقته بالشماليين تختلف عما كان عليه دوماً، ولكن حقيقة كونه سكالاواغ وصديق بولوك ظلت قائمة. وإذ ما تم الزواج فستتحول سكارلت إلى سكالاواغ أيضاً، ولن تكون أتلانتا بأية حال متسامحة محسنة إلى أي شخص في معسكر الأعداء. وعندما جاء نبأ الخطوبة في ذلك الوقت الذي جاء فيه،

تذكرت المدينة جميع الأمور السيئة المتعلقة بالخطيبين، ولم تتذكر أياً من الأمور الحسنة.

كانت سكارلت تعرف أن المدينة تغلي بالسخط، ولكنها لم تتبين مدى شعور الرأي العام إلى أن أخذت السيدة ميريويذر على عاتقها، مدفوعة بإلحاح حلقتها الكنسية، أن تتحدث إلى سكارلت من أجل مصلحتها.

- «لأن أمك العزيزة ميتة، ولأن السيدة بيتي بات ليست متزوجة، أي ليست أهلاً لـ - على كل حال، لتتحدث إليك بموضوع كهذا. إني أشعر أن عليَّ أن أحذرك يا سكارلت. ليس الكابتن باتلر من الفئة التي تناسب امرأة تنتمي إلى عائلة كريمة ليتزوج بها. إنه -».

- «لقد عمل على أن ينقذ عنق الجد ميريويذر وعنق ابن شقيقتك أيضاً».

فاشمأزت السيدة ميريويذر، ولم يكن قد مضى ساعة تقريباً، على حديث مكدر دار بينها وبين الجد. كان الرجل العجوز قد أبدى أن عليها أن لا تقدر حياته كثيراً جداً إن هي لم تشعر بالجميل نحو ريت باتلر، حتى لو كان الرجل سكالاواغ ووغداً.

- «إنما فعل ذلك كخدعة قذرة علينا جميعاً يا سكارلت، ليحرجنا أمام الشماليين»، ثم أردفت: «إنك تعرفين تماماً كما أعرف، أن الرجل خسيس. لقد كان كذلك دائماً كما أنه الآن أخس من أن يوصف. إنه بصراحة، ليس رجلاً من الفئة التي يرحب بها الناس المهذبون».

- «لا؟ إن ذلك غريب يا سيدة ميريويذر. لقد وجد في ردهتك مراراً كثيرة خلال الحرب، كما أنه قدم لمايبل فستان عرسها الساتان الأبيض. أليس كذلك؟ أو أن ذاكرتي مخطئة؟».

- «كانت الأمور مختلفة تماماً خلال الحرب، وقد اختلط كرام الناس مع رجال كثيرين لم يكونوا - وكان كل ذلك في سبيل القضية الوطنية كما كان أمراً مناسباً جداً كذلك. ومن الأكيد أنك لا تستطيعين

أن تفكري في الزواج برجل لم يكن في الجيش وكان يهزأ بالرجال الذين التحقوا به؟».

- «لقد كان في الجيش أيضاً، لقد خدم فيه ثمانية أشهر. كان في الحملة الأخيرة وحارب في معركة فرانكلين، وكان مع الجنرال جونستون عندما استسلم».

- «إني لم أسمع بذلك» قالت السيدة ميريويذر وبدت كأنها لم تصدق أيضاً، «ولكنه لم يجرح» أضافت بشعور الظفر.

- «كثير من الرجال لم يجرحوا».

- «كل جندي ذو قيمة جرح. أنا لا أعرف أحداً لم يجرح».

فاستثيرت سكارلت.

- «إذن أظن أن جميع الرجال الذين عرفتهم كانوا أغبياء جداً بحيث لم يكونوا يعرفون متى ينبغي أن يخرجوا من تحت زخة مطر - أو رصاص ميني. والآن دعيني أخبرك بما يلي يا سيدة ميريويذر، وفي وسعك أن تنقليه إلى أصدقائك المتطفلين: «إني سأتزوج الكابتن باتلر ولن أحفل إذا ما حارب إلى جانب الشماليين»».

وعندما خرجت تلك المرأة المعتبرة من البيت وقبعتها تهتز من الغضب، أدركت سكارلت أنها أصبحت لها عدوة صريحة الآن، بدلاً من صديقة مستنكرة، ولكنها مع ذلك لم تحفل، ولم يكن في وسع أي شيء تقوله أو تفعله السيدة ميريويذر أن يؤذيها. إنها لم تحفل بما قاله أي إنسان - أي إنسان باستثناء مامي.

كانت سكارلت قد احتملت إغماء بيتي عند سماعها النبأ، وكذلك كانت قد قسَّت نفسها وهي ترى آشلي وقد بدا شائخاً فجأة متحاشياً عينيها وهو يرجو لها السعادة، وكانت قد دهشت واغتاظت من رسالتي الخالة سولين والخالة يولالاي في شارلستون، الخالتين اللتين صدمهما النبأ فأخذتا تطالبان بمنع الزواج وتخبرانها أنها بذلك لن تهدم مركزها الاجتماعي وحسب، بل أيضاً ستعرّض مركزيهما للخطر، وكانت

سكارلت قد ضحكت عندما خاطبتها ميلاني بإخلاص، وفي وجهها تكشيرة قلقة: «طبعاً إن الكابتن باتلر أحسن بكثير مما يتبين معظم الناس، كما أنه كان لطيفاً ونبيهاً جداً في سعيه لإنقاذ آشلي، وفوق ذلك، فقد حارب من أجل الحلف. ولكن يا سكارلت، ألا تعتقدين أن من الأفضل أن لا تقرري الأمر بهذه السرعة؟».

لا، إنها لم تعبأ بما قاله أي إنسان باستثناء مامي. لقد كانت كلامات مامي هي الكلمات الوحيدة التي أغضبتها أشد الغضب وآلمتها أعظم إيلام.

- «لقد رأيتك تقترفين كثيراً من الأمور التي ينتظر أن تؤلم السيدة إيلين إذا هي علمت بها، ولقد أحزنني ذلك كثيراً. بيد أن هذه الفعلة هي أسوأ الجميع حتى الآن، تتزوجين حقيراً! أجل، لقد قلت حقيراً. لا تشرعي بالقول إنه سليل عائلة عريقة، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً. إن الحقيرين ينحدرون من الفئات الرفيعة والدنيئة على السواء، وهو حقير، أجل يا آنسة سكارلت، لقد رأيتك تغتصبين السيد تشارلز من الآنسة هوني بينما لم تكوني تبالين به البتة، ورأيتك تجرّدين شقيقتك من السيد فرانك، وأسكت فمي على أشياء كثيرة تفعلينها كبيع الخشب الرديء باسم الخشب الجيد، وكالكذب فيما يتعلق بأخشاب السادة الآخرين، وكالتجول بالعربة وحدك، معرضة نفسك للزنوج المحررين ومسببة بمقتل السيد فرانك، وكعدم إطعام الأشقياء المساكين ما يكفي لحفظ أرواحهم في أجسادهم. إني أسكت فمي حتى لو كانت الآنسة إيلين تقول وهي في الأرض الموعودة «مامي، مامي! إنك لا تعتنين بطفلتي جيداً!» أجل لقد تحملت كل ذلك، ولكني لن أتحمل هذا الشيء الجديد يا آنسة سكارلت. لن تستطيعي أن تتزوجي حقيراً. لا، ما دام هناك رمق في جسدي».

- «سأتزوج من يروق لي» قالت سكارلت ببرود، «أعتقد أنك تنسين مقامك يا مامي».

- «لقد آن الأوان كذلك! إذا أنا لم أقل لك هذه الكلمات، فمن يقولها؟».

- «لقد فكرت في الأمر ملياً يا مامي، ولقد قررت أن أفضل شيء تفعلينه هو أن تعودي إلى تارا. سأعطيك بعض المال -».

فنهضت مامي بكل مهابتها.

- «إني حرة يا آنسة سكارلت، وليس في وسعك أن ترسليني إلى مكان لا أريد الذهاب إليه، وعندما أعود إلى تارا سيكون ذلك حينما تعودين برفقتي. أنا لن أترك ابنة السيدة إيلين ولا توجد وسيلة في الدنيا تجعلني أذهب. كما أني لن أدع حفيد الآنسة إيلين ليربيه زوج تافه من أزواج أمه. إني هنا، وهنا سأقيم».

- «لن أدعك تقيمين في بيتي وأنت وقحة مع الكابتن باتلر. إني سأتزوجه وليس من كلام آخر ليقال في هذا الموضوع».

- «أجل، يوجد كلام كثير ليقال» ردّت مامي ببطء وقد شع في عينيها المسنتين المغبشتين بريق المعركة.

- «كلام لم أفكر في قوله لأي من عائلة إيلين. ولكن أصغي إليَّ يا آنسة سكارلت: أنت لست سوى بغلة في عدة حصان، وفي وسع المرء أن يلمع قدمي بغل ويمسح جلده ويضع النحاس على عدته ويربطه إلى عربة جميلة ولكن سيظل بغلاً لا يتغير، ولن يخدع أحداً. وهكذا أنت تماماً: لقد نعمت بأثواب حريرية، والمعملين والمخزن والمال، وأضفيت على نفسك مظاهر برّاقة كحصان جميل، ولكنك ما زلت بغلة، ولا تخدعين أي إنسان. وكذلك الرجل باتلر، هو أيضاً سليل عائلة طيبة، وهو أيضاً يتظاهر كحصان أصيل، ولكنه بغل في عدة حصان، مثلك تماماً».

وقذفت مامي سيدتها بنظرة نفاذة، إلا أن سكارلت لم تنبس بكلمة، بل كانت تنتفض من الإهانة.

- «إذا قلت إنك ستتزوجينه، فستتزوجينه لأنك عنيدة كوالدك. ولكن تذكّري هذا يا سكارلت، إني لن أتركك. وسأقيم هنا وأراقب هذا الأمر وهو يتم».

ودون أن تنتظر جواباً، استدارت مامي وغادرت سكارلت، ولو أنها كانت قد قالت: «سترينني في فلبي[1]!» لما كانت لهجتها أكثر شؤماً.

أنبأت سكارلت ريت بحديث مامي وهما يقضيان شهر العسل في نيو أورليانز، فما كان منه إلا أن ضحك على عبارة مامي المتعلقة بالبغال في عدد الخيل، الأمر الذي أدهش سكارلت وأسخطها.

- «إني لم أسمع حقيقة عميقة تقال بمثل هذا الإيجاز» قال، «إن مامي امرأة مسنة ذكية، وهي إحدى الناس القليلين الذين أعرفهم وأرغب في نيل احترامهم وإرادتهم الطيبة. ولكن لكوني بغلاً أظن أني لن أنال أياً من ذلك، ولقد رفضت حتى قطعة العشرة دولارات الذهبية التي رغبت في تقديمها لها بعد الزواج وأنا في نشوة العرس. إنني لم أرَ غير أناس قليلين جداً لم يذوبوا عند رؤية المال. لقد حملقت في عيني، وشكرتني قائلة إنها ليست زنجية حرة، وهي بذلك لا تحتاج إلى مال».

- «لماذا تستمر على هذا الموقف؟ لماذا يلغط الجميع عني كسرب من الدجاج السوداني؟ إن الرجل الذي أتزوجه، وعدد المرات التي أتزوج فيها، قضية تتعلق بي فقط. ولقد كنت دائماً أهتم بشؤوني الخاصة وحسب، فلماذا لا يهتم الآخرون بشؤونهم؟».

- «يا مدللتي، إن في وسع الدنيا أن تسامح فعلاً أي شيء، ما عدا الناس الذين يهتمون بشؤونهم الخاصة. ولكن لماذا ينبغي لك أن

---

(1) مدينة قديمة في مقدونيا شهيرة بالمعركة المسماة باسمها، والتي انتصر فيها أوكتافيان ومارك أنطوني على بروتس وكاشيوس سنة 42 ق.م. - (المترجمان).

تزعقي كقطة مسلوقة. لقد قلت مراراً عديدة إنك لا تبالين بما يقوله الناس عنك، فلماذا لا تبرهنين على قولك؟ أنت تعرفين أنك عرَّضت نفسك للنقد مراراً عديدة في قضايا صغيرة، فليس في وسعك أن تتوقعي الإفلات من الثرثرة عنك في هذه القضية الكبيرة. ولقد كنت تعرفين أن الحديث سيدور عنك إذا ما تزوجت وغداً مثلي، ولو كنت وغداً معوزاً زري المحتد، لما جن الناس هكذا، ولكن وغد غني ناجح - طبعاً، إن ذلك لا يمكن العفو عنه».

- «أرجو أن تكون جدياً أحياناً».

- «إني جدي. إن من المزعج دائماً للورعين، أن يروا الملحدين يزدهرون كشجرة الخليج الخضراء. تشجعي يا سكارلت، ألن تخبريني مرة أن السبب الرئيس لرغبتك في جمع المال الوفير هو كي يصبح في وسعك أن تقولي لكل إنسان «اذهب إلى الجحيم»؟ وها هي الفرصة قد سنحت الآن».

- «ولكن لقد كنت الشخص الرئيس الذي كنت أرغب في أن أقول له أن يذهب إلى الجحيم» قالت سكارلت ذلك وضحكت.

- «هل ما زالت ترغبين في أن تبلغيني ذلك؟».

- «ليس كثيراً كما كنت أرغب عادة».

- «افعليها متى شئت، إذا كان ذلك يسعدك».

- «إن ذلك لا يسعدني بصفة خاصة» قالت سكارلت وانحنت تقبِّله بلا مبالاة.

وتألقت عيناه وهو ينظر إلى وجهها، يفتش عن شيء في عينيها، شيء لم يجده، وضحك باقتضاب.

- «انسي أتلانتا، انسي القطط العجوزة. لقد أحضرتك إلى نيو أورليانز لتتمتعي وإني مصمم على أن أجعلك تتمتعين».

القسم الخامس

48

لقد نعمت بمتعة، متعة أكثر مما نالت منذ الربيع الذي سبق الحرب. كانت نيو أورليانز مكاناً غريباً فاتناً ابتهجت فيه بسرور أرعن، سرور سجين مؤبد أُعفي عنه. وكان الكاربت بكرز ينهبون المدينة، وكان كثير من الناس الشرفاء قد طردوا من بيوتهم، فلم يكونوا يعرفون أين يبحثون عن وجبتهم التالية، كما كان زنجي يجلس في كرسي الحاكم الذي كان أصلاً برتبة ملازم. بيد أن نيو أورليانز التي أراها إياها ريت، كانت أهنأ مكان رأته في حياتها، وبدا لها أن الناس الذين كانت تقابلهم، كانوا يملكون جميع المال الذي يريدونه ولا يحملون هموماً أبداً. وقدّمها ريت إلى دزينات من النساء، النساء الجميلات بأثوابهن الزاهية، النساء ذوات الأيدي الناعمة التي لا ترى أي أثر من آثار العمل المضني، النساء اللواتي كن يضحكن على كل شيء، ولا يتحدثن عن الأمور الجدية الحمقاء أو عن الأوقات الصعبة. أما الرجال الذين قابلتهم - فما كان أدعاهم للبهجة، وما كان أشد اختلافهم عن رجال أتلانتا - وما أكثر ما كانوا يجاهدون ليراقصوها وليطروها بإسراف عظيم وكأنها كانت حسناء شابة.

كان يميز هؤلاء الرجال، المظهر الصارم ذاته الذي كان يميز ريت: عيونهم متيقظة دائماً كرجال عاشوا زمناً طويلاً مع الأهوال بحيث لن يسعهم أن يكونوا عديمي المبالاة أبداً. كانوا يبدون كأنهم

بلا ماضٍ أو مستقبل، وعندما كانت سكارلت، رغبة منها في التحدث إليهم، تسألهم عما كانوا، وأين كانوا قبل مجيئهم إلى نيو أورليانز، كانوا لا يشجعونها على الاسترسال في ذلك، بأسلوب مهذب، الأمر الذي كان غريباً بحد ذاته. فقد كان كل قادم جديد محترم إلى أتلانتا يسرع في تقديم وثائقه، ويعلن بفخر عن موطنه وعائلته، ويتتبع متاهات القرابة الملتوية التي كانت تمتد في الجنوب كله.

ولكن هؤلاء الرجال كانوا قليلي الكلام، ينتقون كلماتهم بعناية. وأحياناً، عندما كان ريت يجتمع بهم وحده، وسكارلت في الغرفة المجاورة، كانت سكارلت تسمع ضحكاً، وتلتقط مسامعها نتفاً من حديث لم يكن يعني شيئاً لها: أجزاء من كلمات، أسماء محيرة - كوبا وناسو في أيام الحصار، انطلاقة الذهب والتسابق على حقوق التعدين، وتهريب السلاح والقرصنة، ونيكاراغوا ووليم ووكر وكيف مات باصطدام بحائط في تروكيلو. وحدث مرة أن أنهى دخولها المفاجئ حديثاً يتعلق بما كان قد وقع لأعضاء عصابة كوانتريل من رجال العصابات، ولقطت سكارلت الاسمين فرانك وجيسي جيمس.

إلا أنهم كانوا جميعاً رجالاً مهذبين، ثيابهم بديعة الخياطة، وكانوا يعجبون بها بصراحة، ولذلك فإن كونهم قد اختاروا أن يعيشوا في الحاضر كلية، لم يهمها إلا قليلاً، والذي همها حقيقة هو أنهم كانوا أصدقاء ريت وأنهم كانوا يملكون بيوتاً كبيرة، وعربات جميلة يحملونها وريت فيها، ويدعونهما لولائم العشاء ويقيمون الحفلات على شرفهما. ولذلك أحبتهم حباً جماً، الأمر الذي أطرب ريت عندما أخبرته به.

- «لقد كنت أعتقد أنك ستحبينهم» أجاب ضاحكاً.

- «ولم لا؟» استوضحت وقد ثار فيها الشك، بسبب ضحكه، شأنها دائماً.

- «إنهم جميعاً من الطبقة الثانية، خراف سود، أوغاد. إنهم جميعاً مغامرون، أو أرستقراطيون كاربت بكرز. وقد جمع كلُّهم نقودهم من المضاربة بالطعام كزوجك المحب، أو من عقود حكومية مريبة بأساليب مشبوهة لا تحتمل تحرياً».

- «إني لا أصدق ذلك. إنك تستفزني. فهم أكرم الناس...».

- «إن أكرم الناس في المدينة يتضورون جوعاً» قال ريت، «ويعيشون في الزرائب بأدب، وإني أشك في أن أستقبل في هذه الزرائب. فأنت ترين يا عزيزتي أني كنت منهمكاً في بعض خططي الفظيعة هنا خلال الحرب، وهؤلاء الناس ينعمون بذاكرات قوية شيطانية! إنك متعة دائماً لي يا سكارلت، لأنك تعملين من دون خطأ على انتقاء الناس الأشرار والأمور السيئة».

- «ولكنهم أصدقاؤك!».

- «ها، ولكني أحب الأوغاد. لقد قضيت فجر شبابي كمقامر في زورق نهري، وفي وسعي أن أفهم الناس أمثال أولئك. غير أني لست عمياً عن ماهيتهم، بينما أنت» وضحك ثانية، «ليس لديك غريزة لمعرفة الناس، فلا تميزين بين الحقير والعظيم، وإني أفكر أحياناً أن السيدات العظيمات اللواتي اختلطت بهن هنّ فقط أمك والآنسة ميلي، ولا يبدو أن إحداهما تركت أثراً فيك».

- «ميلي!.. كيف، وهي ساذجة كحذاء عتيق، كما أن ثيابها تبدو رثة دائماً، وهي لا تملك كلمتين تقولهما بنفسها!».

- «وفّري عليّ حسدك يا سيدة، فالجمال لا يخلق سيدة وكذلك الثياب لا تخلق سيدة عظيمة!».

- «ها ألا يخلقان! انتظر فقط يا ريت باتلر وسأريك - فالآن وأنا أنعم - ونحن ننعم بالمال، سأصير أعظم سيدة رأيتها في حياتك».

- «سأنتظر بلهفة» قال.

كانت الفساتين التي ابتاعها ريت لها أكثر إمتاعاً من الناس الذين قابلتهم، وكان يشرف على انتقاء ألوانها وقماشها وزيها بنفسه. وكانت الأطواق قد بطلت الآن وحلَّت محلها أزياء جديدة فاتنة ذات تنانير ترد من الأمام وتثنى فوق الردفين حيث كانت توضع ضفائر من زهر، وخطوط منحنية من الدنتلة. وفكرت سكارلت في أطواق سني الحرب الوضيعة وشعرت بقليل من الحيرة من هذه التنانير الجديدة التي كانت تبرز بطنها بصورة جلية. ثم كانت هناك القبعات العزيزة الصغيرة التي لم تكن قبعات البتة، بل خرق صغيرة مستوية، توضع على جانب من الرأس باتجاه إحدى العينين وتثقل بالفواكه والأزهار وبريش هزاز، وشرائط خفاقة، «حبذا لو لم يكن ريت أحمق ويحرق الحلقات الاصطناعية التي اشترتها لتكبر عقد شعرها الهندي السبل الذي كان يطل من مؤخرة هذه القبعات». ثم كانت هناك الملابس الداخلية الناعمة المصنوعة في الأديرة. ما كان أجملها، وكم مجموعة كانت تملك منها! جلابيب وقمصان نوم وصدريات من أنعم كتان، كتان مزركش بتطريز بديع، وبثنيات دقيقة جداً. ثم الخفان الساتانيان اللذان اشتراهما ريت لها، واللذان كان لهما كعبان علو كل منهما ثلاث بوصات، وأبازيم لدنة لماعة، وأخيراً الجوارب الحريرية، لقد نعمت بدزينة منها، دزينة لم يكن لأي منها قمة قطنية! أي رفاهية!

واشترت سكارلت، من دون اكتراث، هدايا للعائلة: جرواً ذا وبر من نوع سانت برنارد لويد الذي كان يتوق دائماً لمثيله، هريرة فارسية لإيلا الصغيرة، عقداً ثقيلاً ذا قطع معدنية بلورية متدلية للعمة بيتي، مجموعة كتب شكسبير الكاملة لميلاني وآشلي، حلة متقنة الصنع للعم بيتر من ضمنها قبعة حوذي حريرية عالية وعليها فرشاة، قماش فساتين لدلسي وكوكي، هدايا ثمينة لجميع من في تارا!

- «ولكن ماذا اشتريت لمامي؟» استوضح ريت وهو ينظر إلى

كومة الهدايا المنتشرة على السرير في غرفتهما في الفندق، وينقل الجرو والهريرة إلى غرفة الزينة.

- «لا شيء، لقد كانت مقيتة. ولماذا يتوجب عليَّ أن أشتري هدية لها، بينما هي دعتنا بغلين؟».

- «ولماذا يتوجب عليك أن تستائي من سماع الحقيقة يا مدللتي؟ ينبغي أن تشتري هدية لها، فسينكسر قلبها إن لم - والقلوب التي كقلبها ثمينة جداً بحيث لا ينبغي انكسارها».

- «لن آخذ شيئاً لها. فهي لا تستحقه».

- «إذن سأشتري أنا لها هدية. إني أذكر أن مربيتي كانت تقول دائماً إنها عندما تذهب إلى السماء، كانت تريد صدرة من التفتا المقوى بحيث يقف وحده، والهفهاف كثيراً حتى يعتقد اللّه أنه مصنوع من أجنحة الملائكة. ولذلك سأشتري لمامي تفتا حمراء وأصنع لها منها صدرة بديعة».

- «لن تأخذه منك، تفضل أن تموت على أن تلبسه».

- «إني لا أشك في ذلك، ولكني سأقوم بذلك العمل مهما كانت النتيجة».

كانت دكاكين نيو أورليانز غنية مثيرة جداً، وكان ابتياع الحوائج برفقة ريت مغامرة. كما كان الأكل برفقته مغامرة أيضاً، مغامرة أكثر إمتاعاً من الشراء، لأنه كان يعرف أي صنف يطلب، وكيف ينبغي أن يطهى. وكان خمر نيو أورليانز وشامبانياها ومشروباتها الحلوة، أشياء جديدة وممتعة لها، وهي التي لا تعرف سوى نبيذ ثمر العليق المحلي الصنع ونبيذ الكرمة وبراندي العمة بيتي للإغماء، ولكن، يا للطعام الذي كان يطلبه ريت! لقد كان الطعام أحسن ما في نيو أورليانز. وأحست سكارلت وهي تتذكر أيام الجوع المريرة في تارا وفاقتها الأخيرة، أحست أنه لم يكن في وسعها أن تشبع من هذه الأطباق

الفاخرة: لحوم خنزير وقريدس وحمام منقوع في خمر، ومحار في فطائر طرية مليئة بصلصة دسمة، فطائر وكعك وديوك رومية، سمك مشوي بمهارة في أوراق مزينة مكلسة. ولم تفتر شهيتها أبداً، لأنها كانت كلما تذكرت الفول السوداني الدائم والحمص الجاف والبطاطا الحلوة في تارا، كانت تشعر بشهية لتلتهم مجدداً ما تستطيع من أطباق الأطعمة الفرنسية والإسبانية.

- «إنك تأكلين كأن كل وجبة هي آخر وجبة لك» قال ريت، «لا تخدشي الطبق يا سكارلت. إني واثق بوجود المزيد منه في المطبخ، وما عليك إلا أن تطلبي من النادل إحضاره. وإذا أنت لم تكفّي عن هذا الشره، فستصبحين بدينة كنساء كوبا، وعندئذ سأطلقك».

غير أنها لم تزد على أن مدت لسانها استهزاء، وطلبت طبق حلويات آخر، طبقاً مثقلاً بالشوكولاتة ومحشواً ببياض البيض.

ما ألذ أن تكوني قادرة على صرف ما تشائين من نقود كثيرة، دون أن تعدّي البنسات وتشعري أن عليك أن توفريها من أجل دفع الضرائب وشراء البغال. ما ألذ أن تكوني مع الناس الأغنياء المرحين، لا الفقراء المهذبين كأهل أتلانتا. ما ألذ أن تلبسي الفساتين الحريرية المشجرة الحفحافة التي تكشف عن خصرك وكل عنقك وذراعيك وبعض صدرك، أن تعرفي أن الرجال معجبون بك. ما ألذ أن تأكلي كل ما تشتهين دون أن يكون هناك مراقبون يقولون إنك لست كالسيدة، ثم ما ألذ أن تشربي كل الشمبانيا التي تلذك. وكانت سكارلت قد أكثرت من الشرب في المرة الأولى بحيث إنها أفاقت منزعجة في الصباح التالي وهي تشعر بصداع يقلق الرأس، وبذكرى مروِّعة عن غناء نشيد «العلم الأزرق الصغير» طوال الطريق أثناء رجوعها إلى الفندق، عبر شوارع نيو أورليانز في عربة مكشوفة. ولم تكن سكارلت قد رأت سيدة ثملة وكانت المرأة المخمورة الوحيدة التي سبق أن رأتها هي تلك

المخلوقة وتلينغ، وذلك يوم سقوط أتلانتا. ولم تكن تعرف كيف تواجه ريت إلا بصعوبة إذ كان شعورها بالمهانة عظيماً جداً، غير أن الأمر بدا كأنه يطربه. والواقع أن كل شيء كانت سكارلت تفعله، كان يبدو كأنه يسرّه... كأنها كانت هريرة نطناطة.

كان من الممتع أن تخرج معه، لأنه كان جميلاً جداً، مع أنها لم تكن نوعاً ما قد اهتمت بمظاهره من قبل، إذ كان الجميع في أتلانتا تشغلهم أبداً نقائصه عن التحدث عن مظهره. ولكن هنا في نيو أورليانز، استطاعت سكارلت أن ترى كيف أن عيون النساء الأخريات كانت تتبعه وكيف يضطربن وهو ينحني على أيديهن. وفجأة جعلها تحققها من أن النساء الأخريات كن منجذبات نحو زوجها وأنهن ربما كن يحسدنها، جعلها ذلك فخورة في أن تراه إلى جانبها «كيف لا، وكلانا جميل» فكرت سكارلت بسرور.

أجل، يمكن أن يكون الزواج متعة عظيمة، كما كان ريت قد تنبأ. والواقع أنه لم يكن متعة وحسب، بل إنها كانت تتعلم منه أشياء كثيرة أيضاً. وكان هذا غريباً بحد ذاته، لأن سكارلت كانت قد ظنت أن الحياة لم تعد تعلّمها جديداً. غير أنها كانت تشعر الآن كأنها طفلة، إذ غدت كل يوم على باب اكتشاف جديد.

لقد تعلّمت أولاً أن الزواج بريت كان مسألة تختلف كثيراً عن الزواج بكلا تشارلز وفرانك، فقد كان الاثنان يحترمانها ويخشيان غضبها، وكانا يلتمسان الحظوة بها، فتمنحهما إياها إذا ما طاب لها ذلك، بينما لم يكن ريت يخشاها، ومراراً ما فكرت أنه لم يحترمها أيضاً، وأن الذي كان يريد أن يعمله، كان يعمله، وإذا هي لم تستحسن ذلك العمل، ضحك عليها. والواقع أن سكارلت لم تكن تحب ريت، ولكن مما لا ريب فيه أنه كان شخصاً مثيراً يحسن العيش معه. وكانت أعظم الأشياء إثارة فيه هو أنه كان يبدو دائماً مسيطراً على نفسه أثناء

جموحه العاطفي الذي كان لاذاً مع العنف أحياناً ومع تسلية مثيرة أحياناً أخرى.

«أظن أن ذلك عائد إلى أنه لا يحبني حقيقة» فكرت وهي راضية بواقع الحال، «غير أني أمقت أن يصبح مدلهاً بي وخاضعاً لإرادتي على أي حال» إلا أن فكرة احتمال ذلك ظلت تثير فضولها بطريقة مشوقة.

كذلك تعلمت وهي تعيش مع ريت، أموراً جديدة كثيرة عنه، وهي التي كانت قد اعتقدت أنها عرفته تمام المعرفة. لقد عرفت أن في وسع صوته أن يكون ناعماً كوبر الهرة لحظة، وأجش مدوياً بالإيمان في اللحظة التالية، ثم كان في وسعه أن يروي بإخلاص ظاهر، وباستحسان، قصصاً عن الشجاعة والشرف والفضيلة والحب، قصصاً وقعت في الأماكن الغريبة التي عاش فيها، ثم يُتبع ذلك بقصص بذيئة تقوم على نكران الفضيلة. وكانت سكارلت تعرف أنه لا يجوز لأي إنسان أن يروي لزوجته قصصاً كهذه، إلا أنها كانت قصصاً مسلية، كما أنها وافقت شيئاً دنيوياً فظاً في شخصها، وكذلك كان في وسع ريت أن يكون محباً مولهاً ناعماً تقريباً، لبرهة قصيرة، ثم ينقلب في الحال تقريباً إلى شيطان ساحر، شيطان يشق الغطاء عن طبعها الناري، ثم يشعله ويتمتع بانفجاره، وتعلمت سكارلت أيضاً أن إطراءاته كانت دائماً ذات حدين، وأن أرقَّ عباراته كانت عرضة للشك. والحقيقة أن سكارلت تعلمت في ذينك الأسبوعين في نيو أورليانز، كل شيء يتعلق بريت باستثناء ماهيته الحقيقية.

فقد كان في بعض الصباحات يطرد الخادمة ويحمل لها صينية الفطور بنفسه، ويأخذ في إطعامها كأنها كانت طفلة، ثم يتناول فرشاة الشعر من يدها ويفرشي شعرها البني الطويل إلى أن ينتتش ويفرقع. ومع ذلك فقد كان في صباحات أخرى يوقظها من نومها العميق بعنف

وهو ينتزع عنها كل أغطية السرير، ويشرع بدغدغة قدميها العاريتين. ثم كان أحياناً يصغي إلى تفاصيل أشغالها باهتمام رصين، ويطرق استحساناً لنباهتها، بينما كان في أوقات أخرى، يدعو أشغالها المريبة نوعاً ما بالكناسة وقطع الطريق والاغتصاب. كان يأخذها لحضور التمثيليات ويزعجها وهو يهمس في أذنها أن من المحتمل أن لا يكون اللّه راضياً عن ملهيات كهذه. وكذلك كان يصحبها إلى الكنائس ويروي لها همساً فواحش مضحكة ثم يؤنبها على الضحك. وكان يشجعها على التصريح برأيها، وعلى أن تكون جريئة طلقة اللسان. وقد أخذت عنه سكارلت هبته في أداء الكلمات القارصة والعبارات التهكمية، وتعلمت كيف تتذوق لذة استعمالها لما كانت تمنحها من سلطة على الناس الآخرين. بيد أن سكارلت لم تكن تملك طبعه المرح الذي كان يلطف من حقده، ولا ابتسامته التي كانت تسخر من شخصه حتى أثناء سخريته بالآخرين.

كان يجعلها تلهو بعد أن كادت تنسى كيفية اللهو، فلقد كانت حياتها جديدة مريرة جداً، بينما كان هو يعرف كيف يلهو، وهكذا دفعها في تياره. غير أنه لم يكن يلهو كصبي أبداً، كان رجلاً مهما أتى من أعمال، الأمر الذي لم يكن في وسعها أن تنساه أبداً. ولم يكن في وسعها أن تنظر إليه من علٍ، من خلال الترفع النسوي، وهي تبتسم كما تبتسم النسوة دائماً على مجون الرجال الذين هم صبية في قلوبهم.

ولم يكن هذا الأمر ليضايقها إلا قليلاً كلما فكرت فيه، فقد كان من اللاذ لها أن تشعر بالاستعلاء على ريت، وهي التي كان في وسعها أن تطرد أياً من الرجال الذين كانت قد عرفتهم، بالعبارة نصف المزدرية «إنك لطفل»: والدها والتوأمين تارلتون بميلهما لاستفزازها وبدعاباتهما العملية الرائعة، أبناء فونتين الصغيرين الكثيفي الشعر بثوراتهما الصبيانية، تشارلز، فرانك، وجميع الرجال الذين كانوا قد

غازلوها خلال الحرب، جميعهم في الحقيقة، ما عدا آشلي. فقط آشلي وريت تخطيا فهمها وأفلتا من سيطرتها لأن كليهما كانا راشدين، تعوزهما عناصر الصبا.

إنها لم تفهم ريت، وكذلك لم تكلف نفسها عناء فهمه، مع أنه كانت هناك أشياء حوله تحيرها من آونة إلى أخرى. كانت هناك طريقة نظرته إليها أحياناً حين كان يعتقد أنها غافلة عنه. ومراراً ما التفتت نحوه بسرعة، فألفته يتأملها وفي عينيه نظرة متيقظة مشتاقة متلهفة.

- «لماذا تنظِر إليَّ هكذا؟» سألته متضايقة مرة، «كقطة أمام ثقب فأر!».

ولكن سحنته تغيرت بسرعة، ولم يزد على أن ضحك. وسرعان ما كانت تنسى هي الأمر، ولا تعود إلى تحيير رأسها به أو بأي شيء يتعلق بريت. لقد كان غاضباً جداً، الأمر الذي جعلها لا تقلق نفسها بسببه، فالحياة كانت سارة بالنسبة إليها - باستثناء فترات تفكيرها في آشلي.

كان ريت يبقيها مشغولة جداً بحيث لم يكن يدع لها مجالاً في معظم الأحيان، لتفكر في آشلي. وندر أن كان آشلي يراود أفكارها خلال النهار، ولكن في الليل، حيث كانت ترقد تعبة من الرقص، ورأسها يدور بسبب الإكثار من الشمبانيا - عندئذ كانت تفكر في آشلي. وحين كانت تضطجع نعسة بين ذراعي ريت، وضوء القمر ينساب على السرير، كانت تفكر مراراً كم أن الحياة كان ينتظر أن تكون تامة السعادة لو أن ذراعي آشلي هما اللتان كانتا تطوقانها هكذا، لو أن آشلي هو الذي كان يمرر شعرها الأسود عبر وجهه ويلفه حول عنقه. ومرة، وفيما كانت تفكر في هذا الشيء، تنهدت وأدارت رأسها نحو النافذة. وبعد لحظة، أحست بالذراع القوية التي كانت تحت

عنقها كأنها غدت ذراعاً حديدية، ثم ارتفع صوت ريت في السكينة: «ليبعث اللّه روحك الصغيرة الخائنة إلى الجحيم، رغم أن الروح خالدة».

ثم نهض وارتدى ثيابه وغادر الغرفة رغم احتجاجاتها وأسئلتها المذهلة. ثم عاد في الصباح التالي بينما كانت تتناول فطورها في غرفتها، عاد مشعث الشعر، ثملاً في أسوأ حالاته التهكمية، ولم يقدم اعتذارات أو إيضاحات عن غيابه.

على أن سكارلت لم تسأله أي سؤال، بل كانت باردة تماماً نحوه كما يليق بالسيدة المهانة. وعندما فرغت من الفطور، ارتدت ثيابها تحت عينيه الملتهبتين، ثم ذهبت للتسوّق. وحين رجعت كان قد ذهب، ولم يظهر ثانية حتى موعد العشاء.

كانت وجبة طعام صامتة، وكانت سكارلت متوترة الطبع لأنها كانت آخر وجبة عشاء لها في نيو أورليانز، وكانت تود أن تصفي حسابها مع سمك الكمبري. ولكن لم يكن في وسعها أن تنعم بذلك تحت بصره، ومع ذلك فقد التهمت سمكة كبيرة، وشربت مقداراً وافراً من الشمبانيا. وربما كان هذا الجمع بين السمك والشراب هو الذي أعاد إليها حلمها الرهيب في ذلك المساء، إذ أفاقت تلك الليلة باردة بالعرق، تشهق كسيرة الخاطر. لقد ألفت نفسها في تارا ثانية، وكانت تارا موحشة، وكانت أمها ميتة، وقد ماتت معها كل القوة والحكمة في العالم، ولم يكن هناك إنسان في أي مكان في الدنيا تستطيع أن تلتجئ إليه، أو تعتمد عليه. وكان هناك شيء مفزع يتبعها، وكانت هي تجري، تجري إلى أن كاد قلبها ينفجر، تجري في ضبابة كثيفة سابحة، تجري مولولة، وتنشد وهي عمهة ذلك الملجأ المجهول الذي لم تكن تعرف اسمه والذي كان يقع في مكان ما في الضباب المحيط بها.

كان ريت منحنياً فوقها عندما أفاقت، ومن دون أن ينبس بكلمة،

حملها بين ذراعيه، وقرَّبها منه، فأحست بعضلاته القوية تواسيها، وبدمدمته المبهمة تهدئ روعها إلى أن كفت عن الشهيق.

- «آه يا ريت، لقد كنت أشعر ببرد وجوع وتعب شديد، ولم أستطع إيجاده. لقد جريت خلال الضباب وجريت ولكني لم أستطع إيجاده».

- «إيجاد ماذا يا حلوتي؟».

- «لا أدري، أتمنى لو كنت أدري».

- «إنه حلمك القديم».

- «آه، أجل -».

فوضعها على السرير بلطف. وراح يبحث في الظلام، ثم أضاء شمعة. وفي النور، بدت عيناه المتوهجتان وسحنته الصارمة مبهمة كحجر، وكان قميصه المفتوح حتى الخصر، يكشف عن صدر أسمر يكسوه شعر أسود كثيف. وفكرت سكارلت وهي ما انفكت تنتفض من الرعب، كم أن ذلك الصدر كان قوياً ثابتاً كالطود، وهمست: «احملني يا ريت».

- «حبيبتي» أجاب بسرعة ثم حملها وأجلسها على كرسي كبير، وراح يؤرجح جسدها باتجاهه.

- «آه ريت، إن من الفظيع أن يكون المرء جائعاً».

- «ينبغي أن يكون من الفظيع أن تحلمي بالجوع بعد عشاء ثقيل كذلك، فيه سبع وجبات بما فيها الكمبري الكثير» وابتسم لكن عينيه كانتا عطوفتين.

- «آه يا ريت، إني أجري وأجري وأبحث، ولا أستطيع أن أجد حقيقة الذي أنشده. إنه دائماً مخبأ في الضباب. إني أعرف أني إذا ما وجدته، فسأكون آمنة، ولن أبرد أو أجوع ثانية».

- «أشخص أم شيء تنشدينه؟».

- «لا أدري، لم أفكر فيه أبداً. هل تعتقد يا ريت أني يمكن أن أحلم يوماً بأني سأصل إلى السلامة هنالك».

- «لا» قال وهو يمسد شعرها الشعث، «لا أعتقد، فالأحلام ليست كذلك. إني أعتقد أنك إذا اعتدت على حياة الأمان والدفء والغذاء الجيد في حياتك اليومية، فستنقطعين عن رؤية ذلك الحلم، وإني سأعمل على أن تكوني آمنة يا سكارلت».

- «إنك لطيف يا ريت».

- «شكراً على الفتات من مائدتك يا سيدة دايفز[1]، سكارلت، أريد أن تقولي لنفسك عندما تستيقظين كل صباح: «لا يمكن أن أجوع ثانية، ولن يستطيع شيء أن يمسني ما دام ريت موجوداً معي وما دامت حكومة الولايات المتحدة صامدة»».

- «حكومة الولايات المتحدة؟» استوضحت وهي جالسة مجفلة، وما زالت الدموع على وجنتيها.

- «لقد غدت النقود الحلفية السابقة يوثق بها. ولقد وظفت معظمها في سندات حكومية».

- «يا للّه!» صاحت سكارلت وهي تجلس في حجره وقد نسيت فزعها الأخير، «هل تقصد أن تخبرني أنك أعرت نقودك للشماليين؟».

- «مقابل فائدة مئوية كبيرة».

- «أنا لا أعبأ حتى لو كانت مئة بالمئة! ينبغي أن تبيعها فوراً. يا لفكرة السماح للشماليين باستخدام نقودك!».

- «وماذا يجب عليَّ أن أفعل بها؟» استوضح مبتسماً وقد لاحظ أن عينيها لم تعودا متسعتين بسبب الرعب.

---

(1) هو اسم الغني الذي ذكر في إنجيل لوقا (16: 19-31) والذي كان لعاذر فقير يشتهي أن يأكل من فتات مائدته - (المترجمان).

- «الأفضل - الأفضل أن تشتري عقاراً في فايف بوينتس. إني أراهن أن في وسعك شراء كل فايف بوينتس بالمال الذي في حوزتك».

- «أشكرك، ولكني لن أشتري فايف بوينتس، فلأن حكومة كاربت بكرز قد سيطرت على جورجيا سيطرة حقيقية، لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يحدث. ولذلك فلن أضع أي شيء في قبضة سرب البزاة الذي يجتاح جورجيا الآن من الشمال والشرق ومن الجنوب والغرب، إني أسايرهم، كما تعلمين، كما ينبغي للسكالاواغ الماهر أن يفعل، ولكني لا أثق بهم. ولن أستثمر نقودي في شراء عقارات، بل أفضّل السندات لأن في وسع المرء أن يخبئها، بينما ليس في وسعه أن يخبئ العقارات بسهولة فائقة».

- «هل تعتقد -» بدأت ووجهها يشحب وهي تفكر في المعملين والمخزن.

- «لا أدري، ولكن لا تفزعي هكذا يا سكارلت. إن حاكمنا الجديد البديع صديق ودود لي، والقضية فقط هي أن الظروف مضطربة جداً الآن، وأنا لا أريد تجميد كثير من نقودي في عقار عيني».

ونقلها إلى إحدى ركبتيه، وأرجع ظهره إلى الوراء ومد يده وتناول سيكاراً وأشعله. وجلست هي وقدماها العاريتان متدليتان، جلست تراقب حركات عضلات صدره الأسمر، وقد نسيت مخاوفها.

- «وما دمنا في موضوع العقار العيني يا سكارلت» قال، «فإني سأبني بيتاً. قد تكونين أرغمت فرانك على العيش في بيت الآنسة بيتي ولكن لا تستطيعين إرغامي، فأنا لا أعتقد أن في وسعي احتمال رفساتها ثلاث مرات يومياً. وأكثر من ذلك، فإني أعتقد أن العم بيتر سيغتالني قبل أن يدعني أعيش تحت سقف آل هاملتون المقدس. إن في وسع الآنسة بيتي أن تُحضر الآنسة إنديا ويلكس لتقيم معها وتبقي ابن الأهوار

بعيداً. وعند عودتنا إلى أتلانتا سننزل في جناح العرائس في الفندق الأهلي، وذلك إلى أن يتم بناء بيتنا، إذ إني قبل مغادرتنا أتلانتا، كنت قد قايضت على تلك القطعة الكبيرة من الأرض الواقعة في شارع بيتشتري على مقربة من بيت آل ليدن. إنك تعرفين القطعة التي أعنيها؟».

- «ها ريت، ما أجملها! إني أتوق كثيراً إلى بيت خاص بي، بيت كبير عظيم».

- «إذن فنحن متفقان على شيء ما أخيراً. ما رأيك ببيت أبيض ذي حديد مطاوع كهذه البيوت الفرنسية الموجودة هنا؟».

- «لا يا ريت، أريد شيئاً من الطراز القديم كبيوت نيو أورليانز هذه، إني أعرف ما أريده تماماً، إنه أحدث الطرز، لأني رأيت صورة عنه في - دعني أتذكر - كانت في مجلة **هاربر** الأسبوعية تلك، التي كنت أتصفحها. إنه مبني على نسق فيلا سويسرية».

- «ماذا؟».

- «فيلا».

- «تهجئيها».

فامتثلت لطلبه.

- «ها» قال، ومسد شاربيه.

- «لقد كان بيتاً جميلاً، ذا سقف مرتفع من طراز مانسارد[1]، وحاجز من قضبان على السطح، وبرج مشيد من حصباء مزخرفة عند كل من أطرافه، وللأبراج نوافذ ذات زجاج أحمر وأزرق. لقد كان مظهره عصرياً جداً».

- «أظن أن درابزين شرفته مصنوع من عوارض خشبية رفيعة متقاطعة ومزخرفة».

---

(1) سقف منحنٍ منكسر - (المترجمان).

- «أجل».
- «وله رفاريف ذات عوارض خشبية مزخرفة ومتدلية من أعلى الشرفة»
- «أجل، لا بد أنك قد رأيت مثيلاً له».
- «بلى رأيت، ولكن ليس في سويسرا، إن السويسريين أذكياء جداً، إنهم يتذوقون الجمال البنائي بحذق. هل تريدين حقاً بيتاً كذاك؟».
- «أجل!».
- «كنت أرجو أن تحسن رفقتك لي ذوقك. لماذا لا تريدين بيتاً فرنسي الطراز أو على طراز بيوت المستعمرات، بيتاً ذا ستة أعمدة بيضاء».
- «قلت لك إني لا أريد أي شيء مهلهل من طراز قديم. دعنا نضع في داخله أوراقاً حمراء على الجدران، وستائر مخملية حمراء على جميع الأبواب الطويلة، وقطعاً كثيرة من الأثاث الثمين المصنوع من خشب الجوز، وسجاجيد سميكة فخمة و - ريت، سيغدو الجميع حسودين جداً عندما يرون بيتنا!».
- «هل من الضروري جداً أن يغدو الجميع حسودين؟ على كل حال، إذا أحببت ذلك فسيغدون حسودين. ولكن يا سكارلت، هل خطر في بالك أن ليس من الذوق السليم تماماً أن تؤثثي البيت على هذا المقياس المبذر بينما يتردى الجميع في فقر مدقع؟».
- «أريده على ذلك النسق» قالت بإصرار، «أريد أن أجعل كل إنسان تصرف بخسة معي يشعر بالحسرة، وسنقيم حفلات استقبال كبرى بحيث يتمنى جميع أهل المدينة لو لم يتفوهوا بعبارات بذيئة كتلك».
- «ولكن من ينتظر إلى أن يأتي إلى حفلاتنا؟».

- «ماذا! كل إنسان طبعاً».

- «إني أشك في ذلك، إن الحرس القديم يموت ولكن لا يستسلم».

- «ها ريت، كيف أنك تمضي في حديثك! إذا كان لديك مال فالناس يحبونك دائماً».

- «ليس الجنوبيون. إن دخول نقود المضاربين إلى الردهات الكريمة أصعب من دخول الجمل من ثقب الإبرة، وأما بالنسبة إلى سكالاواغ - أي بالنسبة إليك وإليّ يا مدللتي - سنكون سعيدي الحظ إن نحن لم يبصق علينا. ولكن إذا أردت أن تجربي، فسأؤيدك يا عزيزتي، وأنا واثق بأني سأتمتع بحملتك كثيراً. وما دمنا في موضوع المال، دعيني أوضح لك هذا الأمر: إن في وسعك أن تأخذي كل النقود التي تريدينها من أجل البيت، وكل الذي تريدينه من أجل أدوات الزينة العقيمة، وإذا أحببت مصاغاً ففي وسعك أن تشتريه، ولكني سأنتقيه بنفسي لأن ذوقك فظيع جداً يا مدللتي. وكذلك كل شيء تريدينه لويد وإيلا. وإذا لم يستطع ويل بنتين أن ينجح في القطن، فسأتدخل وأساعده في تدبير أمر ذلك العبء، عبء ولاية كلايتون الذي تحبينه حباً جماً... إن ذلك رائع جداً، أليس كذلك؟».

- «طبعاً إنك كريم جداً».

- «ولكن أصغي إليَّ بانتباه: لا سنت واحداً من أجل المخزن. ولا سنت من أجل مصنع أخشابك ذاك».

- «ها» قالت سكارلت وكبا وجهها. فقد كانت طوال شهر العسل تفكر كيف يسعها أن تتطرق إلى موضوع الألف دولار الذي كانت تحتاج إليها لشراء مساحة خمسين قدماً أخرى من الأرض لتوسيع رقعة مصنع الأخشاب.

- «أعتقد أنك كنت دائماً تتباهى بكونك واسع الإدراك، لا تعبأ

بما يقوله الناس عن أني أدير عملاً، بينما أنت الآن تبدو كأي رجل آخر تماماً - شديد الخشية من أن يقول الناس إني أرتدي السراويل في العائلة».

- «لن يكون هناك أدنى شك عند أي شخص فيما يتعلق بمن يرتدي السراويل في عائلة باتلر» تشدق ريت، «كما أني لا أعبأ بما يقوله الأغبياء. والحقيقة أني سيّئ التربية جداً بحيث لا يسعني أن أتباهى بأن لي زوجة بديعة. إني أريدك أن تستمري في إدارة المخزن والمعملين، فهي خاصة طفليك. وعندما يكبر ويد، لن يشعر بالكرامة إن كان يعال من قبل زوج أمه، وعندئذ يكون في وسعه الإشراف على المعمل. ولكن لا أريد أن يذهب سنت واحد من نقودي إلى أي من المصلحتين».

- «لماذا؟».

- «لأني لا أعبأ بأن أساهم في إعالة آشلي ويلكس».

- «هل سنبدأ تلك القصة ثانية؟».

- «لا، ولكنك سألتني عن السبب فقدمته لك. وشيء آخر، لا تفكري في أن في وسعك تزوير دفاتر الحسابات عليَّ، والكذب فيما يتعلق بثمن ملابسك ومصروف المنزل، وذلك كي تستطيعي استخدام المال في شراء بغال أخرى أو معمل آخر لآشلي. إني مصمم على الإشراف ومراجعة مصاريفك بعناية كما أني أعرف أسعار الحاجات. ها، لا تشعري بالإهانة، فأنت تقدمين على ذلك، ولن أكتمك الأمر، والحقيقة أني لن أكتمك أي أمر يتعلق بتارا أو بآشلي. إن تارا لا تهمني ولكن يجب أن أضع الحظر على آشلي. إني أقودك بزمام مرتخٍ يا مدللتي، ولكن لا تنسي أني أسوق بلجام ومهمازين أيضاً».

49

نصبت السيدة إلسينغ أذنيها باتجاه قاعة المطبخ، وبعد أن سمعت وقع خطوات ميلاني يتلاشى في المطبخ، حيث كانت الأطباق والصلصة والأواني الفضية المقرقعة تعد بقدوم المرطبات، التفتت وتكلمت بصوت خفيض إلى السيدات اللواتي كن يجلسن في حلقة في الردهة وسلال خياطتهن في حجورهن:

- «شخصياً، أنا لا أنوي زيارة سكارلت الآن أو فيما بعد» قالت وألقُ وجهها الفاتر أبرد من المعتاد.

وضعت العضوات الأخريات في «حلقة الخياطة لأرامل وأيتام الحرب» إبرهن بحماس وقرَّبن كراسيهن الهزازة إلى بعضها، إذ كن جميعاً متحرقات لبحث موضوع سكارلت وريت، ولكن وجود ميلاني منعهن من ذلك، وكان الزوجان المذكوران قد عادا في اليوم السابق من نيو أورليانز ونزلا في جناح العرائس في الفندق الأهلي.

- «يقول هيو إن عليَّ القيام بالزيارة، بداعي المجاملة، نظراً إلى الطريقة التي أنقذ الكابتن باتلر حياته بها» أردفت السيدة إلسينغ كلامها، «وتؤيده في رأيه فاني المسكينة، وتقول إنها ستزورهما كذلك، ولقد قلت لها: «فاني، لولا سكارلت لكان تومي حياً هذه الدقيقة، وإن من الإهانة لذكراه أن تزوريها» ولكن فاني لم تكن تملك من الفهم ما يجعلها تزيد على القول: «أماه، إني لا أزور سكارلت، إني أزور

الكابتن باتلر، فلقد حاول جهده لينقذ تومي وليست غلطته إن هو فشل».

- «ما أحمق الشباب!» قالت السيدة ميريويذر، «أقوم بالزيارة، حقاً!». وانتفخ صدرها البدين من السخط وهي تتذكر استقبال سكارلت الوقح لنصيحتها فيما يتعلق بزواجها بريت، «ابنتي مايبل حمقاء كابنتك فاني تماماً. إنها تقول إنها ورينيه سيقومان بالزيارة لأن الكابتن باتلر حفظ رينيه من الإعدام. فأجبتها لولا تعريض سكارلت لنفسها لما تورط رينيه بأي خطر. وكذلك يصر الأب ميريويذر على الزيارة، ويتحدث كما لو أنه في عهد خرفه قائلاً إنه ممتن لذلك الوغد، حتى وإن لم أكن أنا كذلك. إني أقسم إنه منذ دخل الأب ميريويذر إلى بيت تلك المخلوقة وتلينغ، وهو يتصرف بطريقة مشينة. أقوم بالزيارة، حقاً! إني لن أقوم بها حتماً. لقد أسقطت سكارلت نفسها بزواجها برجل كهذا، رجل كان زرياً جداً عندما كان مضارباً خلال الحرب، يجني النقود من جوعنا. ولكن لما كان الآن صديقاً صدوقاً للكاربت بكرز والسكالاواغ وصديقاً - في الواقع صديقاً لذلك القميء المقيت، الحاكم بولوك - أقوم بالزيارة حقاً!».

فتنهدت السيدة بونل، وكانت امرأة بدينة سمراء، قصيرة القامة ذات وجه مرح.

- «إنهم سيقومون بزيارة واحدة وحسب، من قبيل المجاملة يا دولي. إني لا أعرف كيف ألومهم. لقد سمعت أن جميع الرجال الذين خرجوا في تلك الليلة، عازمون على الزيارة، وأعتقد أن من واجبهم ذلك. بيد أني لسبب ما أشعر أن من الصعب عليَّ الاعتقاد بأن سكارلت هي ابنة أمها. لقد ذهبت إلى المدرسة مع إيلين روبيلارد في سافانا، ولم تكن هناك فتاة أبدع منها، وكانت عزيزة جداً عليّ. حبذا لو أن والدها لم يعارض في زواجها من ابن عمها فيليب روبيلارد! إذ

لم يكن هناك عيب في الشاب - ولا بد للشبان من أن ينغمسوا في لذائذ الحياة. على أنه كان لا بد لإيلين أن تغادر المدينة وتتزوج الرجل المسن أوهارا وتلد ابنة كسكارلت. بيد أني في الحقيقة أشعر أن من الواجب أن أقوم بزيارة واحدة، تكريماً لذكرى إيلين».

- «هراء عاطفي!» نخرت السيدة ميريويذر بحدة، «كيتي بونل هل ستزورين امرأة تزوجت ولم تمضِ سنة على وفاة زوجها؟ امرأة. . .».

- «وهي التي قتلت السيد كنيدي في الحقيقة» قاطعت إنديا بصوت فاتر ولكن حاد. وكان يصعب على إنديا كلما فكرت في سكارلت أن تكون مهذبة، إذ كانت تتذكر ستيوارت تارلتون دائماً. «ولقد كنت أحسب دائماً أنه كان يوجد بينها وبين باتلر ذاك، قبل مقتل السيد كنيدي، أكثر مما ارتاب به معظم الناس».

وقبل أن يسع السيدات الإفاقة من دهشتهن المذهلة الناجمة عن عبارتها أولاً، وعن كون عزباء ذكرت مسألة كهذه ثانياً، كانت ميلاني تقف في البوابة، لقد كن منهمكات جداً في حديثهن بحيث لم يسمعن دوسها الخفيف، فلما وُجهن بمضيفتهن الآن، بدين كتلميذات رأتهن المعلمة وهنّ يتهامسن. أما ميلاني فقد أضيف الذعر إلى الدهشة في وجهها وهو يتغير. كان لونه أحمر من الغضب الذي له ما يبرره، وكانت عيناها الناعستان تقدحان ناراً، ومنخراها ينتفضان. ولم يكن أحد قد رأى ميلاني غاضبة من قبل، ولم تكن أي من السيدات لتظن أنها قادرة على السخط، كن جميعاً يحببنها ويعتقدن أنها أعذب وألين الشابات عريكة، تكرم من هم أكبر منها، ولا تتمسك بآراء خاصة بها.

- «كيف تجرئين يا إنديا؟» استوضحت في صوت خفيض مرتعش، «أين ستقودك غيرتك؟ يا للعار!».

فشحب وجه إنديا ولكن رأسها ظل عالياً.

- «أنا لا أسحب شيئاً من كلامي» قالت باقتضاب ولكن عقلها كان يغلي.

«غيورة أنا؟» فكرت، أليس لديها سبب وجيه في أن تغار من سكارلت وذكرى ستيوارت تارلتون وهوني وتشارلز تمثل أمامها؟ أليس لديها سبب وجيه لكرهها، خصوصاً الآن، وهي تشك في أن سكارلت قد أوقعت آشلي في شبكتها بطريقة ما؟ وفكرت: «يوجد الكثير الذي أستطيع أن أخبرك به عن آشلي وسكارلت الغالية» وراحت تتميز غيظاً من رغبتها في أن تحفظ آشلي بصمتها وبين أن تنتشله من الفخ وتصرح بكل شكوكها لميلاني وللدنيا، الأمر الذي سيدفع سكارلت إلى رفع كل نفوذ لها عن آشلي. ولكن ليس هذا هو أوان ذلك، فهي لا تملك حقائق معينة بل شكوكاً فقط.

- «إني لا أسحب شيئاً» كررت.

- «إذن فإن من حسن الحظ أنك لم تعودي تقيمين تحت سقف بيتنا» قالت ميلاني ببرود.

فوثبت إنديا على قدميها والدم يطفح من وجهها النحيل:

- «ميلاني، إنك - زوجة أخي - إنك لن تتشاجري وإياي من أجل تلك الداعرة -».

- «وسكارلت زوجة أخي أيضاً» أجابت ميلاني وعيناها تواجهان عيني إنديا بذهول، وكأنهما كانتا غريبتين، «وأعز عليّ من أي شقيقة يمكن أن أنعم بها. وإذا كنت قد نسيت أياديها عليّ فإني لم أنسها. لقد أقامت معي طوال الحصار، بينما كان في وسعها أن تذهب إلى بيتها، وبينما كانت العمة بيتي قد هربت إلى ميكون، ثم إنها ولدتني ابني عندما أضحى الشماليون في أتلانتا تقريباً، وكذلك أثقلت نفسها بي وببو طول الرحلة الرهيبة إلى تارا، بينما كان في وسعها أن تتركني هنا في أحد المستشفيات ليأسرني الشماليون. وكذلك فقد مرضتني

وغذتني حتى عندما كانت متعبة، وحتى عندما كانت تبيت على الطوى وذلك لأني كنت مريضة عليلة، كما أني نعمت بأحسن فرشة في تارا. وعندما صار المشي في مقدوري، خصصت بزوج الأحذية الكامل الوحيد. إن في وسعك نسيان تلك الأمور التي صنعتها معي، ولكني لا أستطيع ذلك. وعندما عاد آشلي إلى بيته مريضاً واهن العزم، بلا مأوى وبلا سنت في جيوبه، آوته كشقيقة. وعندما فكرنا في أن علينا السفر إلى الشمال، الأمر الذي كان يحطم قلوبنا لأننا سنغادر جورجيا، تدخلت سكارلت وقدمت المعمل لآشلي ليديره. ثم إن الكابتن باتلر أنقذ حياة آشلي بدافع رحمة قلبه، ومن الأكيد أن آشلي ليس لديه أي شكوى ضده! وإني ممتنة، ممتنة لسكارلت والكابتن باتلر. ولكن أنت يا إنديا! كيف يسعك نسيان الصنائع الحسنة التي قدمتها سكارلت لي ولآشلي؟ كيف تستطيعين تقدير حياة شقيقك بهذا الثمن البخس، وأنت تقذفين بالعار الرجل الذي أنقذه! لئن ركعت على ركبتيك طلباً للغفران من الكابتن باتلر وسكارلت، فإن ذلك لن يكفي».

- «اسمعي يا ميلي» بدأت السيدة ميريويذر بسرعة، إذ كانت قد استعادت رباطة جأشها، «ليست تلك هي الطريقة التي يُتحدث بها مع إنديا».

- «لقد سمعت الذي قالته عن سكارلت أيضاً» صاحت ميلاني وهي تندفع نحو السيدة البدينة العجوز كالمبارز البارع الذي بعد أن جذب سنانه عن أحد أعدائه المنبطحين، استدار بحماس نحو عدو آخر: «وأنت أيضاً يا سيدة إلسينغ، إني لا أعبأ أبداً بما تعتقدانه فيها بعقليكما الصغيرين، لأن ذلك من شأنكما، أما ما تقولانه عنها هنا في بيتي أو على مسمع مني، فهو من شأني دائماً. ولكن كيف يسعكما أن تعتقدا بأمور فظيعة كهذه، وأكثر من ذلك، أن تصرحا بها؟ هل رجلاكما رخيصان جداً عليكما، بحيث إنكما تفضلان رؤيتهما ميتين

على رؤيتهما حيين؟ ألا تشعران بالجميل نحو الرجل الذي أنقذهما، وأنقذهما مخاطراً بحياته؟ كان من الممكن أن يفكر الشماليون بسهولة أنه عضو في الكلان لو أن الحقيقة ظهرت كلها! وكان من الممكن أن يعدموه، ولكنه خاطر بحياته من أجل رَجُليكما، من أجل زوجك يا سيدة ميريويذر، ومن أجل زوج ابنتك وابني شقيقتك أيضاً، ثم من أجل شقيقك يا سيدة بونل، وابنك وصهرك يا سيدة إلسينغ. . . جاحدات المعروف، تلك هي حقيقتكن! إني أسألكن أن تعتذرن جميعاً».

وكانت السيدة إلسينغ تقف على قدميها، تجمع أدوات الخياطة في علبتها وفمها مستعد للكلام:

- «لو أن أحداً أخبرني أن من الممكن أن تكوني سيئة التربية هكذا يا ميلي - لا، أنا لن أعتذر، وإن إنديا على حق، فسكارلت طائشة، ولا يمكنني أن أنسى كيف تتصرف منذ جمعت بعض النقود».

- «إن ما لا يمكنك نسيانه -» اعترضت ميلاني وهي تضغط قبضتيها الصغيرتين على جانبيها، «هو أنها أنزلت رتبة هيو لأنه لم يكن حاذقاً إلى الدرجة التي تمكنه من إدارة المعمل».

- «ميلي!» أنت مجموعة أصوات.

ودفعت السيدة إلسينغ رأسها إلى الأعلى، واتجهت إلى الباب، وبعد أن وضعت يدها على المقبض، وقفت واستدارت:

- «ميلي» قالت وصوتها ينخفض، «يا حلوتي، إن هذا يحطم قلبي، لقد كنت أعز صديقات والدتك، كما أني ساعدت الطبيب ميد في توليدك، وإني أحبك كما لو كنت ابنتي. ولو أن القضية ذات أثر، لما كان من المؤلم أن أسمعك تتكلمين بمثل هذا الكلام، ولكنها بسبب امرأة كسكارلت أوهارا قامت مؤخراً بدور قذر معك، كما فعلت معنا جميعاً -».

كانت عينا ميلاني قد أجهشتا بالدموع، بفعل كلمات السيدة إلسينغ الأولى، ولكن وجهها ما عتم أن تصلب عندما فرغت السيدة العجوز من كلامها.

- «إني أريد أن أفهم» قالت، «إن أياً منكن لا تزور سكارلت ليس بها حاجة إلى أن تزورني أبداً، أبداً».

وسُمع لغط مرتفع، ودبت الفوضى، وعندما نهضت السيدات، وأسقطت السيدة إلسينغ علبة الخياطة على الأرض وعادت أدراجها إلى داخل الغرفة وإطار ثوبها يهز بانحراف.

- «إني لا أقبل بذلك!» صاحت، «إني لا أقبل بذلك! إنك لست في حالة وعي الآن يا ميلي، وإني لا أحمّلك أية مسؤولية. وستظلين صديقتي، وأظل أنا صديقتك، كما أني أرفض أن أدع هذه المخلوقة سبباً في الوقيعة بيننا».

وبينما هي تبكي، إذا بميلاني تصيح بين ذراعيها بطريقة ما، وهي تبكي كذلك، ولكنها تصرح خلال الشهقات أنها كانت تعني كل كلمة قالتها. ثم انفجرت عدة سيدات في البكاء فيما عانقت السيدة ميريويذر كلا السيدتين إلسينغ وميلي، وهي تمخط في منديلها بصوت مرتفع، أما العمة بيتي التي كانت شاهدة مذهلة للمشهد كله، فقد زلقت إلى الأرض فجأة في إحدى إغماءاتها الحقيقية القليلة التي تنتابها في حياتها. ووسط الدموع والفوضى والتقبيل والبحث السريع عن أملاح الإغماء والبراندي، كان هناك وجه ساكن واحد فقط، زوج واحد من العيون الجافة فقط. وانلست إنديا ويلكس من الغرفة دون أن يلحظها أحد.

وما انقضت عدة ساعات على الحادث، حتى كان غراندبا ميريويذر يروي وقائع الصباح التي كان قد سمعها من السيدة ميريويذر، للعم هنري في صالون الفتاة العصرية. كان يرويها بمبالغة، لقد كان

مبتهجاً لأن إحدى النساء كانت تملك الشجاعة الكافية لتواجه زوجة ابنه الجبارة وتهزمها، فمن الأكيد أنه لم يكن هو نفسه يملك مثل هذه الشجاعة في أي يوم.

- «حسناً، وماذا قررت عصبة الحمقاوات السخيفات أن يفعلن؟» سأل العم هنري.

- «لا أعرف تماماً» قال غراندبا، «ولكن يبدو لي أن ميلي انتصرت عليهن في هذه الجولة. إني أراهن أنهن سيقمن بالزيارة جميعاً، على الأقل مرة واحدة، فالناس يقيمون وزناً كبيراً لابنة شقيقتك تلك يا هنري».

- «ميلي حمقاء والسيدات على حق - إن سكارلت مخلوقة غرارة، وأنا لا أرى لماذا تزوجها تشارلز» قال العم هنري باكتئاب، «ولكن من أحد الوجوه كانت ميلي على حق كذلك، إذ إن من اللائق أن تقوم عائلات الرجال الذين أنقذهم الكابتن باتلر، بزيارة العروسين. وإن شئت الصراحة فإني لا أحمل كبير حقد على باتلر، لقد بدا رجلاً طيباً في تلك الليلة، حين أنقذنا. وإن سكارلت هي التي تثير حنقي أبداً، إنها جميلة المنظر كثيراً، الأمر الذي يضر بمصلحتها. والواقع أني مضطر للقيام بالزيارة، سواء أكان سكالاواغ أم لم يكن، فسكارلت هي زوجة ابن شقيقي. وعلى كل حال، كنت أنوي القيام بالزيارة بعد ظهر هذا اليوم».

- «سأذهب معك يا هنري. عندما تسمع دولي بذهابي، سيكون من المناسب لها أن تقيد، انتظر إلى أن أشرب كأساً أخرى».

- «لا، سنشرب كأساً عند الكابتن باتلر، وسأطلب منه ذلك، فهو يقتني مشروباً لذيذاً دائماً».

* * *

كان ريت قد أخبر سكارلت بأن الحرس القديم لن يستسلم أبداً،

ولقد كان على صواب فيما قال. كان يعرف أي معنى ضئيل كانت تعني تلك الزيارات القليلة التي كرما بها، كما كان يعرف سبب القيام بتلك الزيارات. ففي بادئ الأمر، زارتهما عائلات الرجال الذين كانوا قد اشتركوا في غارة الكلان السيئة الطالع تلك، ولكن زياراتها ما لبثت أن ندرت بعد ذلك، كما أن تلك العائلات لم تدعُهما إلى بيوتها.

لقد قال ريت إنهم لم يكونوا ليأتوا، لولا الخوف من تأنيب ميلاني الشديد. ولم تكن سكارلت تعرف من أين أتى زوجها بهذه الفكرة، ولكنها ما عتمت أن طردتها بالازدراء الذي تستحقه، فأي سلطة ممكنة يمكن أن تكون لميلاني على الناس من أمثال السيدة إلسينغ والسيدة ميريويذر؟ وأما أنهم لم يقوموا بزيارات ثانية، فإن ذلك لم يزعجها إلا قليلاً، والحقيقة أنها كادت لا تشعر بغيابهم، لأن جناحها كان مزدحماً بضيوف من نمط آخر، ضيوف كان يدعوهم الأتلانتيون الأصليون «الناس الجدد» حين كانوا لا يدعونهم باسم أقل تهذيباً من هذا.

كان هناك «ناس جدد» كثيرون، يقيمون في الفندق الأهلي، ينتظرون اكتمال بناء بيوتهم، شأن ريت وسكارلت. كانوا أناساً مرحين أغنياء، يشبهون أصدقاء ريت في نيو أورليانز شبهاً كبيراً، أناساً ظريفي الثياب، أحراراً في التصرف بأموالهم، غامضي الماضي. وكان جميع الرجال منهم جمهوريين وجدوا «في أتلانتا بأعمال تتعلق بحكومة الولاية» أما ماذا كانت تلك الأعمال فلم تكن سكارلت تعرف، بل لم تكن تزعج نفسها لتعرف.

كان في وسع ريت أن يخبرها الصحيح عن حقيقة تلك الأعمال - الأعمال ذاتها التي تتعاطها الصقور مع الحيوانات المائتة. لقد اشتمّوا رائحة الموت من مناطق بعيدة، فانجذبوا إليه دون أن يقعوا في الخطأ. انجذبوا إليه ليلتهموا من ضحاياه حتى التخمة. كانت حكومة جورجيا

بمواطنيها الأصليين قد ماتت فغدت الولاية عديمة الحيلة مزدحمة بالمغامرين.

كانت زوجات أصدقاء ريت من السكالاواغز والكاربت بكرز، يزرن سكارلت جماعات جماعات، شأن «الناس الجدد» الذين كانت قد قابلتهم عندما كانت تبيعهم الخشب لبناء بيوتهم. وقد أخبرها ريت أن من واجبها أن تستقبلهم نظراً إلى أنها كانت قد تعاملت معهم. وبعد أن استقبلتهم وجدتهم رفقة سارة، فقد كانوا يرتدون ملابس جديدة، ولا يتحدثون عن الحرب أو الأوقات الصعبة أبداً، وإنما يقصرون حديثهم على الأزياء والفضائح ولعب الورق، ولم تكن سكارلت قد لعبت الورق من قبل، ولذلك أقبلت عليه مبتهجة وسرعان ما غدت لاعبة ماهرة.

والواقع أنها كلما وُجدت في الفندق، كان يجتمع في شقتها جمهور من لاعبي الورق. ولكنها لم تكن دائماً في شقتها هذه الأيام، لأنها كانت مشغولة جداً ببناء بيتها الجديد بحيث لم تكن تسمح بأن يعوقها الزوار عن ذلك، كما أنها لم تكن تحفل هذه الأيام أجاءها زوار أو لم يجيئوها، خصوصاً أنها كانت ترغب في تأخير نشاطاتها الاجتماعية إلى اليوم الذي يتم فيه بناء البيت، وتستطيع أن تبرز فيه كسيدة أكبر فيلا في أتلانتا، ومضيفة أعظم الحفلات الفخمة التي شهدتها المدينة.

وخلال الأيام الطويلة الدافئة، راحت تراقب بيتها الحجري الأحمر، بحصبائه الرمادية، يرتفع بفخامة ليعلو أي بيت آخر في شارع بيتشتري، وهكذا كانت تصرف وقتها هناك، ناسية المخزن والمعلمين، تصرفه في نقاش مع النجارين وشجار مع البنائين وفي إزعاج المقاول. وبينما كانت الجدران ترتفع بسرعة، كانت سكارلت تفكر بنفس قانعة، أن بيتها سيكون عند تمامه أكبر من أي بيت في المدينة وأجمل، بل

سيكون أكثر تأثيراً من منزل جيمس المجاور، المنزل الذي كان قد اشتُري مؤخراً، ليتخذ كمسكن رسمي للحاكم بولوك.

كان قصر الحاكم بارز الصنعة في أخشاب الدرابزين ورفاريف السطح. ولكن الصناعة الخشبية الفنية في بيت سكارلت، كسفت قصر الحاكم. ولقد كان هذا يضم قاعة رقص، ولكنها كانت تبدو كطاولة البلياردو إذا ما قورنت بالقاعة الفسيحة التي كانت تشغل كل الطابق الثالث في منزل سكارلت. والحقيقة أن بيتها كان يبز بيت الحاكم أو أي بيت آخر في المدينة وفي جميع النواحي، فقد كان أكثر عدداً في قبابه وأبراجه وشرفاته ومانعات صواعقه ونوافذه ذات الزجاج الملون، من أي بيت آخر.

وكانت هناك شرفة تحيط بالبيت من جميع الجهات، وأربعة أدراج توصل إليها من الجهات الأربع، وكانت ساحته واسعة خضراء، تنتشر فيها مقاعد حديدية ريفية، وفيها بيت حديدي صيفي كان يعرف باسم دارج هو «كازيبو»[1] وبني على الأسلوب الغوطي الخالص كما أكد لسكارلت، وتمثالان حديديان كبيران، أحدهما يمثل إيلا، والآخر كلباً ضخماً كفرس شتلندي[2]، وكان هذان الحيوانان بالنسبة إلى ويد وإيلا، اللذين بهرا قليلاً بحجم بيتهما الجديد، وبفخامته وعتمته العصرية، كان أبهج ما لاحظاه.

أما في الداخل، فقد أثث البيت، كما كانت سكارلت قد رغبت، بسجاد سميك أحمر كان يمتد من جدار إلى جدار، وبستائر مخملية حمراء وبأحدث أثاث من خشب الجوز الأسود الشديد الصقل والتام

---

(1) اسم شرقي في الأصل يعني الشرفة الجانبية - (المترجمان).

(2) نسبة إلى جزائر شتلند القريبة من اسكتلندا والمشهورة بنوع معين من الخيول - (المترجمان).

الحفر والمكسو بقماش من شعر الخيل البديع، بحيث كان على السيدات أن يثبتن جلساتهم عليه بعناية فائقة خشية الانزلاق عنه، كما عُلِّقت في كل مكان على الجدران، مرايا ذات أطر مذهبة ومرايا مستطيلة - كثيرة جداً تعادل بكثرتها، كما قال ريت عابثاً، المرايا الموجودة في مؤسسة بيل وتلينغ. وهنا وهناك، علقت نقوش على الصلب داخل أطر ثقيلة، بعضها يبلغ الثمانية أقدام طولاً، نقوش كانت سكارلت قد طلبتها خصيصاً من نيويورك. وكانت الجدران مغطاة بأوراق قاتمة ثمينة، وكانت السقوف عالية والمنزل معتماً بصورة دائمة لأن النوافذ كانت مغطاة بسجف من قماش البلش خوخية اللون تحجب معظم نور الشمس.

كان البناء بمجمله عبارة عن عمارة تأخذ بنفس الإنسان، وتذكرت سكارلت وهي تخطو فوق السجاجيد الطرية، وتغوص في حضن أسِرَّة الريش الوثيرة، تذكرت أراضي الغرف الباردة والفرش المحشوة قشاً في تارا، فطابت نفساً، وفكرت أن بيتها كان من أجمل البيوت التي رأتها تأثيثاً وأعظمها أناقة، ولكن ريت قال إنه كان كابوساً. ومهما كان الأمر، فإن هذا البيت جعلها تشعر بالسعادة فأهلاً وسهلاً بها فيه.

- «سيعرف الغريب أن هذا البيت بني بمال حرام دون أن يقال له شيء عنا» قال، «وإنك تعرفين يا سكارلت أن المال الحرام لا ينتج عنه الخير أبداً. وهذا البيت برهان على هذه البدهية. إنه البيت ذاته الذي يمكن للاستغلالي أن يبنيه».

ولكن سكارلت التي كانت في أوج ازدهائها وسعادتها، والتي كان رأسها زاخراً بترتيبات الولائم التي كان ينتظر أن تقيمها حين يتمركزون نهائياً في البيت، لم تزد على أن قرصت أذنه مداعبة وقالت:

- «هراء! كيف أنك تمضي في حديثك».

كانت تعرف الآن أن ريت كان يرغب في التضييق عليها، وأنه

كان سيفسد عليها هناءها كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إن هي لم تعر أذناً مصغية لسخريته. ثم إن هي اعتبرت كلامه جدياً فسترغم على الشجار معه وهي التي لم تكن تعبأ بمباريات السيوف، لأنها كانت تخرج منها دائماً في المرتبة الثانية، وهكذا كانت نادراً ما تصغي إلى أي شيء يقوله، وما كانت ترغم على سماعه كانت تجرب تحويله إلى فكاهة. وعلى الأقل، لقد جربت ذلك فترة قصيرة.

وخلال شهر العسل، وخلال معظم إقامتها في الفندق الأهلي، كانا يعيشان معاً بلطف. ولكن ما كادا ينتقلان إلى البيت الجديد، وتجمع سكارلت صديقاتها الجديدات حولها، حتى نشبت بينهما مشاجرات حادة مفاجئة. كانت مشاجرات قصيرة، قصيرة الأجل، لأنه كان من المستحيل الاستمرار في شجار مع ريت، الذي كان يظل عديم الاكتراث بكلماتها الحادة حتى تحين له فرصة يلدغها فيها في مكان لا تستطيع الدفاع عنه. وبكلمة أخرى، كانت هي تشاجر، أما ريت فلا، بل كان يعلن أو يقرر رأيه الذي لا لبس فيه عنها وعن أعمالها وعن بيتها وأصدقائها. على أن بعض آرائه كانت ذات طبيعة لم يعد في وسع سكارلت معها أن تتجاهلها وتعتبرها كدعابات.

مثال ذلك أنها عندما قررت تغيير اسم «مخزن كنيدي العمومي» إلى اسم آخر أكثر بلاغة، طلبت منه أن يفكر في عنوان يشمل كلمة «إمبوريوم»[1]، وعندئذ اقترح ريت «كافيت إمبتوريوم»[2] مؤكداً لها أنه سيكون عنواناً منسجماً تماماً مع نوع البضائع التي تباع في المخزن. واعتقدت هي أن سماع هذا الاسم مؤثر، وذهبت في موافقتها عليه

---

(1) Emporium وتعني المركز التجاري - (المترجمان).

(2) Caveat Emptorium ومعناها سوق الحذر وفي ذلك تلاعب بالألفاظ - (المترجمان).

بعيداً إلى حد أنها قررت كتابة اللافتة، إلى أن ترجم آشلي ويلكس، وهو مرتبك، المعنى الحقيقي للعنوان، فثار ريت وزمجر رداً على حنقها.

ثم كانت هناك طريقة معاملته لمامي، ولم تكن هذه قد تراجعت بوصة واحدة عن موقفها في أن ريت كان بغلاً في عدة حصان، أجل لقد كانت مهذبة معه، ولكن بفتور، وكانت تدعوه دائماً «كابتن باتلر» وليس «السيد ريت» أبداً. وكذلك لم تبدِ أي مجاملة عندما أهداها ريت الصدرة الحمراء، كما أنها لم تلبسه أيضاً. وكانت تبعد ويد وإيلا عن طريقه كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، رغم حقيقة كون ويد كان يعبد العم ريت، كما كان من الواضح أن ريت مولع بالصبي. ولكن بدلاً من طرد مامي أو معاملتها بجفاء وعبوس، كان ريت يعاملها بأعظم إكرام، بلطف أكثر بكثير مما يعامل به أي سيدة أخرى من معارف سكارلت الجدد، بل في الحقيقة، بلطف أكثر مما كان يعامل به سكارلت نفسها. فكان دائماً يستأذن مامي لتسمح له بأخذ ويد في العربة معه، ويستشيرها قبل أن يشتري ألعاب إيلا، وندر أن كانت مامي مهذبة معه.

وكانت سكارلت تشعر أن من واجب ريت أن يكون صارماً مع مامي كما يليق برب البيت، غير أن ريت لم يزد عن أن ضحك قائلاً إن مامي هي رب البيت الحقيقي.

وكان يثير حنق سكارلت عندما كان يقول ببرود إنه كان يتهيأ لتحمل الأسف الشديد من أجلها بعد بضع سنين، عندما يزول الحكم الجمهوري من جورجيا، ويعود الديمقراطيون إلى السلطة.

- «عندما يظفر الديمقراطيون بحاكم ومجلس تشريعي من بينهم سيجلى جميع أصدقائك الجمهوريين المبتذلين الجدد عن رقعة الشطرنج، ويعادون إلى خدمة البارات ونزح الأقنية، تينك المهنتين

اللتين ينتمون إليهما. وستتركين أنت في وضع حرج، ولا صديق ديمقراطياً أو جمهورياً لك أبداً. حسناً، لا تهتمي بالغد».

وضحكت سكارلت، وكانت على جانب من الحق، لأن بولوك كان في ذلك الوقت يتربع بأمان على كرسي الحاكم، وكان سبعة وعشرون زنجياً أعضاء في المجلس التشريعي، وآلاف من المنتخبين الديمقراطيين من جورجيا محرومين من حقوقهم المدنية.

- «لن يعود الديمقراطيون أبداً. كل ما يستطيعون فعله هو أن يزيدوا في جنون الشماليين ويؤخروا اليوم الذي يمكنهم العودة فيه. كل ما يفعلونه هو التبجح في الكلام والعمل في الليل ضمن منظمة الكلان».

- «سيعودون. إني أعرف الجنوبيين. إني أعرف الجورجيين. إنهم صلاب عنيدون جداً، وإذا ما اضطروا إلى خوض حرب ثانية من أجل العودة فإنهم سيخوضونها. وإذا هم اضطروا إلى شراء أصوات زنجية كما يفعل الشماليون، فسيشترونها. وإذا اضطروا أيضاً إلى الاقتراع بأصوات عشرة آلاف رجل ميت كما فعل الشماليون، فإن كل جيفة في كل مقبرة في جورجيا، ستسجل في قوائم الناخبين. إن الأمور ستسوء جداً تحت حكم صديقنا المخلص روفوس بولوك، حكمه الرحيم، حتى إن جورجيا ستلفظه».

- «ريت لا تتفوّه بكلمات مبتذلة كهذه!» صاحت سكارلت، «إنك تتحدث كما لو أني لن أكون سعيدة برؤية الديمقراطيين يعودون! وإنك تعرف أن الأمر ليس كذلك، لأني سأكون سعيدة جداً برؤيتهم يعودون. هل تعتقد أني أحب رؤية هؤلاء الجنود يتسكعون حولنا، ويذكرونني بـ. . . هل تعتقد أني أحب. . . عجباً، إني جورجية كذلك. إني أحب رؤية الديمقراطيين يعودون. ولكنهم لن يعودوا، لا، أبداً، وحتى لو

عادوا، سيؤثر ذلك على أصدقائي؟ إنهم سيظلون ينعمون بأموالهم، أليس كذلك؟».

- «إذا احتفظوا بها. إلا أني أشك في مقدرة أي منهم على الاحتفاظ بأمواله مدة تتجاوز الخمس سنوات مع هذا المستوى من الصرف الذي هم عليه. إن المال الذي يأتي بسهولة، يذهب بسهولة. إن أموالهم لن تجديهم شيئاً، لن تفيدهم أكثر مما أفادتك أموالي، فهي حتماً لم تجعل منك حصاناً حتى الآن، أليس كذلك يا بغلتي الجميلة؟».

دام النزاع الذي نشأ بسبب هذه العبارة الأخيرة أياماً. وبعد اليوم الرابع من عبوس سكارلت وطلباتها الصامتة الجلية كي يعتذر إليها، ذهب ريت إلى نيو أورليانز مصطحباً ويد معه، رغم احتجاجات مامي، وظل هناك إلى أن انقضت ثورة سكارلت، إلا أن لسعة عدم إخضاعه ظلت ترمضها.

وعندما عاد من نيو أورليانز بارداً أنيساً، بلعت سكارلت غضبها بأحسن صورة ممكنة، ودفعته إلى مؤخرة عقلها لتفكر فيه فيما بعد، إذ لم تكن تريد أن تكدر نفسها بأي شيء مؤسف الآن، بل كانت ترغب في أن تكون سعيدة، لأن عقلها كان منهمكاً في موضوع الوليمة الأولى التي ستقيمها في البيت الجديد، كان من المنتظر أن تكون حفلة ليلية كبيرة، تحلى بسعف نخل وتعزف فيها أوركسترا، وتكون جميع الشرفات خلالها مكسوة بالخيش، ويكون فيها من الطعام ما يسيل لعابها في انتظاره. وقد عزمت على أن تدعو إليها كل من كانت تعرفه في أتلانتا: جميع الأصدقاء، القدامى والجدد، والشخصيات الفاتنة التي كانت قابلتها منذ عادت من شهر العسل، وهكذا أزال سرورها بالحفلة الجزء الأكبر من ذكرى لذعات ريت، فغدت سعيدة وهي تضع ترتيبات حفلتها، أسعد مما كانت منذ سنين.

ها، ما ألذ أن تكوني غنية! أن تقيمي ولائم ولا تعدي الثمن أبداً! أن تشتري أغلى الأثاث والفساتين والطعام ولا تفكري في الثمن أبداً! ما أدهش أن تكوني قادرة عل إرسال صكوك يعتد بقيمتها إلى العمة بولين والعمة يولالاي في شارلستون، وإلى ويل في تارا! ها، يا للأغبياء الحسودين الذين قالوا إن المال ليس كل شيء! وإنه لجموح لريت أن يقول إن المال لم يُجدِها شيئاً!

* * *

أرسلت سكارلت بطاقة الدعوة إلى جميع أصدقائها ومعارفها القدامى والجدد، حتى إن هؤلاء الذين لم تكن تميل إليهم، ولم تستثنِ حتى السيدة ميريويذر التي كانت وقحة تقريباً عندما زارتها في الفندق الأهلي، أو السيدة إلسينغ التي كانت باردة حتى درجة التجمد، وكذلك السيدتين ميد وويتينغ اللتين كانت تعرف أنهما تبغضانها، واللتين كانت تعرف أنهما كانا من المنتظر أن ترتبكا لأنهما لم تكونا تملكان الثياب اللائقة لترتدياها لاجتماع رفيع كهذا، ذلك لأن حفلة تبريك بيت سكارلت أو حفلة «التدشين» كما كانت تدعى أمثال هذه الحفلات المسائية في الدارج حيث يتوزع الوقت بين استقبال ورقص، كانت إلى حد كبير أعظم حدث قد رأته أتلانتا.

تلك الليلة، كان البيت والشرفات مغطاة بالخيش، يعجان بالضيوف الذين شربوا الشمبانيا وأكلوا الباتيه والمحار بالقشدة ورقصوا على أنغام الأوركسترا التي كانت محجوبة بعناية، خلف جدار من سعف النخل ونبات المطاط. إلا أن أياً من أولئك الذين كان ريت قد دعاهم بـ«الحرس القديم» لم يحضر الحفلة، باستثناء ميلاني وآشلي والعمة بيتي والعم هنري والدكتور ميد وقرينته والجد ميريويذر.

كانت جماعة كبيرة من الحرس القديم قد قررت كارهة حضور حفل التدشين، وقد وافق البعض مراعاة لموقف ميلاني، بينما شعر

آخرون أن لريت ديناً كبيراً عليهم لأنه كان قد أنقذ أرواحهم وأرواح أقربائهم. ولكن حدث قبل يومين من موعد الحفلة أن سرت شائعة في أتلانتا بأن الحاكم بولوك كان من بين المدعوين، وعندئذ أبدى أفراد الحرس القديم استنكارهم بإرسال رزمة بطاقات، يعلنون فيها عن أسفهم لعدم استطاعتهم قبول دعوة سكارلت الرقيقة. كما أن مجموعة الأصدقاء القدامى القليلين الذين حضوروا الحفلة، غادروها حالما دخل الحاكم منزل سكارلت، غادروها وهم منفعلون ولكن بحزم.

واضطربت سكارلت كثيراً وثارت من جرّاء هذا الاستخفاف حتى إن الحفلة فشلت تماماً «حفلة تدشين بيتها الفخمة!» كانت قد أعدت لها العدة بصورة رائعة جداً، فلم يحضرها إلا هذا العدد القليل من الأصدقاء القدامى، كما لم يكن فيها أحد من الأعداء القديمين ليروا ما كان أروعها من حفلة! وبعد أن غادر آخر ضيف المنزل عند الفجر، كان من المتوقع أن تبكي سكارلت وتثور لو لم تكن خائفة من أن يدوي ريت بالضحك، خائفة من أن تقرأ «لقد أخبرتك بهذا» في عينيه السوداوين الراقصتين حتى لو لم يلفظ الكلمات. وهكذا بلعت سخطها بطيبة ذليلة، وتظاهرت بعدم الاكتراث.

ولم تسمح لنفسها براحة الإفصاح عن غضبها المكبوت إلا لميلاني في الصباح التالي:

- «لقد أهنتني يا ميلي ويكلس، كما أنك جعلت آشلي والآخرين يهينونني. إنك تعرفين أنهم لم يكونوا ليذهبوا إلى بيوتهم بهذه السرعة لو أنك لم تجرّيهم. آه، لقد رأيتك! تماماً عندما شرعت بإحضار الحاكم بولوك لأقدمه إليك. جريت كأرنب!».

- «إني لم أصدق... بل لم يكن في وسعي أن أصدق، أنه يمكن أن يكون موجوداً حقاً» أجابت ميلاني باكتئاب، «مع أن الجميع قالوا...».

- «الجميع! إذن لقد كان الجميع يثرثرون ويهذون عني، أليس كذلك؟» صاحت سكارلت بحدة، «هل تقصدين أن تخبريني أنك لو كنت تعرفين أن الحاكم سيأتي، لما كنت أتيت أيضاً؟».

- «لا» قالت ميلاني بصوت خفيض وعيناها مطرقتان إلى الأرض، «حبيبتي، لم يكن في وسعي القدوم وحسب».

- «يا للجحيم! إذن كنت ستهينينني كما فعل الآخرون».

- «آه يا للرحمة!» صاحت ميلي ببؤس خفيض، «إني لم أقصد إيذاءك، فأنت زوجة شقيقي يا حبيبتي، أرملة تشارلي. وإني. . .»

ووضعت يداً هيّابة على ذراع سكارلت، ولكن سكارلت طوحت بها بعيداً، متمنية بحماس لو تستطيع الصياح بصوت مرتفع، كما كان يفعل جيرالد أثناء ثورته. غير أن ميلاني واجهت حنقها، وبينما هي تنظر في عيني سكارلت الخضراوين الهائجتين، شمخت أعطافها النحيلة، وغمرها وشاح من المهابة، الأمر الذي كان يناقض بصورة غريبة وجهها وقوامها الشبيهين بوجوه الأطفال وقوامهم.

- «إني لآسفة لأنك أوذيت يا عزيزتي، ولكن ليس في وسعي مقابلة الحاكم بولوك أو أي جمهوري أو سكالاواغ. إني لن أقابلهم سواء في بيتك أو في أي بيت آخر. لا، حتى لو اضطررت. . . حتى لو اضطررت. . .».

وبحثت ميلاني عن أسوأ شي يمكن أن تفكر فيه «. . . حتى لو اضطررت إلى أن أكون وقحة».

- «هل تنتقدين أصدقائي؟».

- «لا يا عزيزتي، فهم أصدقاؤك وليسوا أصدقائي».

- «هل أنت تنتقدينني لأني دعوت الحاكم إلى بيتي؟».

ظلت ميلاني تواجه عيني سكارلت من دون ارتعاد، رغم موقفها الحرج.

- «حبيبتي، إن الذي تفعلينه، تفعلينه دائماً لسبب وجيه. وإني أحبك وأثق بك، وليس من شأني أن أنتقد، كما أني لن أسمح لأي إنسان بأن ينتقدك على مسمع مني، آه، يا سكارلت!» وفجأة بدأت تتدفق من فمها الكلمات، كلمات سريعة حادة، في صوت يحمل كراهية لا تلين: «هل في وسعك نسيان ما فعله هؤلاء الناس بنا؟ هل في وسعك نسيان الحبيب تشارلز الميت؟ وصحة آشلي المنهار... وتولف أوكس المحترق؟ ليس في وسعك نسيان رجال شيرمان في تارا وكيف أنهم سرقوا ملابسنا الداخلية وحاولوا إحراق المكان، كما أنهم انتزعوا سيف والدي فعلاً! آه يا سكارلت، إن هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين دعوتهم إلى حفلتك، الذين سرقونا وعذبونا وتركونا نتضور جوعاً! هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين رفعوا الزنوج ليحكمونا، والذين يسرقوننا ويمنعون رجالنا من التصويت! إني لا أستطيع أن أنسى، ولن أنسى، كما أني لن أدع بو ينسى، وسأعلم أحفادي إن أحياني اللّه إلى ذلك الوقت! سكارلت، كيف يسعك أن تنسي؟!».

وصمتت ميلاني لتأخذ نفساً، بينما كانت سكارلت تحدق إليها وقد شدهت عن غضبها بتأثير لهجة العنف المتهدجة في صوت ميلاني.

- «هل تعتقدين أني حمقاء؟» سألت بجزع، «طبعاً إني أتذكر! على أن ذلك كله قد انقضى يا ميلي، واحتمال الأوضاع الراهنة يتوقف علينا، وإني أحاول ذلك. وفي وسع الحاكم بولوك وبعض كرام الجمهوريين أن يساعدونا كثيراً إذا نحن عاملناهم كما يجب».

- «لا يوجد جمهوريون كرام» قالت ميلاني بصراحة، «كما أني لا أريد مساعدتهم، وكذلك لا أنوي أن أحمل نفسي على تحمّل هذه الأوضاع إن كانت من صنع الشماليين».

- «يا للّه الرحيم، لماذا نتورط في مآزق كهذه؟».

- «ها» صاحت ميلاني، وهي تبدو مقرعة الضمير، «كيف أمضي في حديثي! سكارلت، إني لم أقصد إهانتك أو انتقادك، فكل إنسان يفكر غير تفكير الآخر. إن كل إنسان يرى صواب رأيه. والآن يا عزيزتي، إني أحبك وأنت تعلمين بأني أحبك، ولن يغيرني أي شيء يمكن أن تفعليه. وأنت ما زلت تحبينني، أليس كذلك؟ فأنا لم أجعلك تكرهينني، أليس كذلك؟ سكارلت، إني لا أستطيع تحمل وقوع خلاف بيننا - بعد كل هذه المدة التي قضيناها معاً! قولي لا بأس».

- «هراء يا ميلي، أي عاصفة تثيرينها في فنجان» قالت سكارلت بحقد ولكنها لم تطوح باليد التي تسللت حول خصرها.

- «الآن لقد تفاهمنا ثانية» قالت ميلاني بسرور، ولكنها أضافت بصوت رقيق، «أريد أن نتزاور كما كنا نفعل يا عزيزتي. فقط دعيني أعرف أي أيام يأتي فيها الجمهوريون والسكالاواغز لزيارتك، حيث سأظل في بيتي».

- «إني لا أبالي مطلقاً سواء أتيت أم لم تأتي» قالت سكارلت ذلك وارتدت قبعتها وانطلقت إلى البيت حانقة، وقد جعلتها سحنة ميلاني المتألمة تحس ببعض الترضية لغرورها الجريح.

* * *

كان من العسير على سكارلت خلال الأسابيع التي تلت حفلتها أن تحافظ على مظهر عدم الاكتراث التام بالرأي العام. وعندما لم يزرها الأصدقاء القدامى ما عدا ميلاني وبيتي والعم هنري وآشلي، وعندما لم تتلقَّ بطاقات الدعوة لحضور حفلاتهم المتواضعة، حارت وتكدرت فعلاً. ألم تتخلَّ هي عن أسلوبها لتدفن نزاعات الماضي ولتُري هؤلاء الناس أنها لا تضمر لهم نية سيئة بسبب ثرثرتهم واستغابتهم لها؟ حتماً كان ينبغي أن يعرفوا أنها لم تكن تحب الحاكم بولوك أكثر مما كانوا

هم يحبونه. ولكن كان من المناسب أن تكون لطيفة معه، يا للبلهاء! لو كان كل إنسان لطيفاً مع الجمهوريين، لكان من المنتظر أن تخرج جورجيا بسرعة فائقة من الأزمة التي وقعت فيها.

ولم تتبين آنذاك أنها بضربة واحدة، كانت قد قطعت إلى الأبد، كل رابطة واهية كانت لا تزال تربطها بالأيام القديمة، وبالأصدقاء القدامى. ولم يكن في وسع حتى نفوذ ميلاني أن تعقد ذلك الخيط العنكبوتي الذي انقطع. كما أن ميلاني المضطربة الكسيرة القلب، التي ما زالت مخلصة، لم تجرب عقده، حتى لو أرادت سكارلت أن تعود إلى الأساليب القديمة، وإلى الأصدقاء القدامى، لما وجدت العودة ممكنة الآن، فلقد انقلب وجه المدينة ضدها وأصبح وجهاً متحجراً كالغرانيت. وكذلك شملتها الكراهية التي كانت تشمل حكومة بولوك، كراهية قليلة النار والغضب ولكنها وافرة بالحقد البارد، لقد ألقت سكارلت قرعتها مع العدو، ومهما كانت صلات نسبها وعائلتها، فقد غدت الآن ضمن فئة المرتدين ، محبي الزنوج، الخونة الجمهوريين - والسكالاواغز.

وبعد برهة يائسة، رضخ عدم اكتراث سكارلت المزعوم للأمر الواقع، ولم تعد ذلك الشخص الذي ينزعج طويلاً بسبب أهواء التصرف الإنساني، أو الذي يكتئب طويلاً إذا ما فشل في عمل من أعماله، وسرعان ما أصبحت لا تحفل بما يعتقد فيها آل ميريويذر وإلسينغ وويتينغ وبونل وميد والآخرون. فعلى الأقل، كانت ميلاني تزورها، وتصطحب معها آشلي، وكان آشلي هو الشخص الذي يهمها أكثر من الجميع. كما أنه كان يوجد أناس آخرون في أتلانتا كان ينتظر قدومهم إلى حفلاتها، أناس آخرون أكثر مجانسة لها بكثير من تلك الدجاجات العتيقات الضيقات العقول. فكان في وسعها أن تملأ بيتها بالضيوف إن شاءت، وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء الضيوف أكثر

إمتاعاً بكثير، وأجمل لباساً بكثير من أولئك الغبيات المسنات المتزمتات، الضاغطات ثيابهن، واللواتي لم يكنَّ راضيات عنها.

كان هؤلاء الناس قادمين حديثاً إلى أتلانتا. وكان بعضهم من معارف ريت، وبعضهم يشترك معه في تلك الشؤون الغامضة التي كان يشير إليها بـ«مجرد أعمال يا مدللتي»، والبعض الآخر كانوا أزواجاً وزوجات كانت سكارلت قد التقت بهم في الفندق الأهلي، كما أن البعض كان من موظفي الحاكم بولوك.

كانت الجماعة التي تختلط بها الآن، مجموعة مختلفة المشارب، فقد كان بينهم الجليرتيون، الذين كانوا قد عاشوا في أكثر من عشر ولايات مختلفة والذين كان من الواضح أنهم غادروا كل ولاية على إثر اكتشاف أساليبهم الاختلاسية. وكان بينهم الكونينغتيون الذين كانت صلاتهم بهيئة التحرير في ولاية بعيدة مربحة جداً على حساب الزنوج الجهلة، الذين كان من المفروض أن يحموهم. ثم الديليون، الذين كانوا قد باعوا أحذية «كرتونية» إلى الحكومة الحلفية، حتى أصبح من الضروري بالنسبة إليهم أن يقضوا السنة الأخيرة من الحرب في أوروبا. ثم كان هناك الهوندونيون الذين كانت لهم سجلات في دوائر الشرطة في مدن كثيرة، ولكنهم مع ذلك كانوا غالباً مزايدين ناجحين في التعهدات الحكومية. والكراهانيون الذين كانوا قد بدأوا نشاطهم في دار للقمار وكانوا الآن يقامرون على صفقات أكبر في بناء السكك الحديد غير الموجودة وذلك بأموال الحكومة. ثم الفلاهرتيون الذين كانوا قد اشتروا رطل الملح بسنت واحد في عام 1861. ثم البرتيون الذين كانوا يملكون أكبر المواخير في العواصم الشمالية خلال الحرب، وكانوا الآن ينتقلون في أحسن أوساط مجتمع الكاربت بكرز.

أناس كهؤلاء غدوا أحباء سكارلت الآن، أما أولئك الذين كانوا يحضرون ولائهما الكبيرة، فكانوا يشملون أناساً آخرين ذوي ثقافة

وتهذيب، وكان الكثيرون منهم من عائلات ممتازة. فبالإضافة إلى أعيان الكاربت بكرز، كان يجيء إلى أتلانتا من الشمال أناس من نسب رفيع، يجذبهم نشاط المدينة والعمل المستمر أبداً، في مرحلة إعادة بنائها وتوسعها. كما أن عائلات شمالية ثرية كانت تبعث بأبنائها الشبان إلى الجنوب كي يرودوا الحدود الجنوبية الجديدة، وكذلك كان الضباط الشماليون بعد طردهم من الخدمة، يتخذون المدينة التي كانوا قد خاضوا حرباً شعواء للاستيلاء عليها، مقراً دائماً لهم.

وهكذا نظراً إلى كون هؤلاء غرباء في مدينة غريبة، كانوا سعداء في بادئ الأمر بتلبية الدعوات إلى الحفلات المسرفة التي كانت تقيمها السيدة باتلر الثرية المكرامة، ولكنهم سرعان ما انسلوا من زمرتها. فلقد كانوا أناساً طيبين، لا يحتاجون إلا إلى معرفة قصيرة فقط بالكاربت بكرز وحكم الكاربت بكرز حتى يصبحوا حانقين عليهم كمواطني جورجيا الأصليين. وهكذا أضحى الكثيرون ديمقراطيين وأكثر جنوبية من الجنوبيين.

أما الأعضاء الآخرون في زمرة سكارلت الذين لم يكونوا على وئام معها، فقد ظلوا في الحلقة، فقط لأنهم لم يكونوا يُستقبَلون في أي مجتمع آخر. لقد كانوا يفضلون الردهات في بيوت أفراد الحرس القديم، ولكن الحرس القديم لم يكن ليستقبل أياً منهم. وكان من ضمن هؤلاء، المدرسات الشماليات اللواتي كن قد قدمن إلى الجنوب زاخرات بالرغبة في إنهاض الزنوج والسكالاواغز الذين كانوا قد ولدوا ديمقراطيين مخلصين، ولكنهم انقلبوا إلى جمهوريين بعد الاستسلام.

وقد كان من الصعب تعيين الفئة التي كانت مكروهة قلبياً من قبل المواطنين الأصليين: المدرسات الشماليات غير الواقعيات، أم السكالاواغز. على أن من المحتمل أن تكون الكفة قد رجحت بالآخرين، إذ كان من الممكن طرد المدرسات وتبرير ذلك بالقول:

«ماذا يسع المرء أن ينتظر من شماليات محبات للزنوج؟ طبعاً إنهن يعتقدن أن الزنوج مساوون لهن بالمرتبة». ولكن لم يكن هناك أي عذر في حالة أولئك الجورجيين الذين كانوا قد انقلبوا جمهوريين طمعاً بالمنفعة الشخصية.

«إننا نحتمل الجوع، ويجب أن تحتملوه أنتم أيضاً» كان ما يشعر به الحرس القديم. بيد أن كثيراً من الجنود الحلفيين السابقين، الذين كانوا يعرفون حقيقة الفزع المروِّع في قلوب الرجال الذين كانوا يرون عائلاتهم في عوز، كانوا أكثر تسامحاً مع الرفاق السابقين الذين كانوا قد غيروا آراءهم السياسية في سبيل أن تتمكن عائلاتهم من الظفر بالقوت. ولكن ليس نساء الحرس القديم. والنساء كنّ القوة التي لا تلين ولا ترحم خلف عرش المجتمع. وكانت قضية الحلف الخاسرة الآن، أقوى وأعز في قلوبهن مما كانت وهي في أوج مجدها. كانت مقدسة الآن، وكان كل شيء يتعلق بها قدسياً: قبور الرجال الذين قضوا في سبيلها، ساحات المعارك، الرايات الممزقة، السيوف المصلوبة على جدران القاعات، الرسائل الباهتة الواردة من الجبهة، الجنود الأبطال. هؤلاء النسوة لم يكن يمنحن عوناً أو مواساة أو رأفة للعدو الجديد وقد أضحت سكارلت في عداد العدو.

في هذا المجتمع المتعدد المشارب، المجتمع الملفوظ بجميع عناصره بسبب مقتضيات الوضع السياسي، كان يوجد شيء مشترك واحد فقط، وذلك الشيء هو المال، فلأن معظم الناس لم يكونوا يملكون مبلغ خمسة وعشرين دولاراً دفعة واحدة، في كل حياتهم قبل الحرب، لذلك كانوا الآن منغمسين في فورة من تبديد المال، بصورة لم ترها أتلانتا من قبل.

وبوجود الجمهوريين في سدة الحكم، دخلت المدينة في مرحلة من التبذير والمباهاة، حيث كانت براقع التهذيب المزخرفة لا تموه إلا

قليلاً عن الرذيلة والابتذال الكامنتين تحتها، ولم يحدث من قبل أن برز الفرق بين الأثرياء والمدقعين على هذه الصورة، فكان أولئك الذين في القمة لا يعبأون أبداً بالذين هم أقل منهم، باستثناء الزنوج طبعاً، إذ كان يجب أم يظفروا بأحسن الأشياء، أحسن المدارس والمساكن والثياب ووسائل الطرب، لأنهم كانوا القوة في السياسة، ولكن لكل صوت زنجي قيمته. أما بالنسبة إلى أهل أتلانتا الذين افتقروا مؤخراً، فقد كان في وسعهم أن يتضوروا جوعاً ويسقطوا في الشوارع دون أن يكترث لهم الجمهوريون المثرون حديثاً.

وعلى قمة هذه الموجة من الابتذال، ركبت سكارلت منتشية: عروس جديدة، رائعة الجمال في ثيابها البديعة، ونقود ريت تدعمها بقوة. لقد كانت هذه المرحلة توافقها: مرحلة فجة مبهرجة زاهية مليئة بالنساء الغنيات بالثياب، والبيوت الغنية بالأثاث والجواهر الكثيرة والخيول العديدة والطعام الوافر والويسكي الغزير. وعندما كانت سكارلت تتوقف نادراً، لتفكر في الأمر، كانت تعرف أنه لا يمكن لأي من عشيراتها الجديدات أن تدعى سيدة، حسب مقاييس إيلين الصارمة، غير أنها كانت قد نبذت مقاييس إيلين مرات عديدة، منذ ذلك اليوم البعيد عندما وقفت في الردهة في تارا وقررت أن تكون خليلة ريت، ولم تكن تشعر بتقريع الضمير كثيراً في هذه الأيام.

ربما لم يكن هؤلاء الأصدقاء الجدد سيدات وسادة بمعنى الكلمتين الدقيق، إلا أنهم كانوا، كأصدقاء ريت في نيو أورليانز، ممتعين أكثر بكثير من أصدقاء أيامها الأولى في أتلانتا، أولئك الأصدقاء المغلوبين رواد الكنائس وقراء شكسبير. وباستثناء فترة شهر العسل، لم تكن سكارلت قد شعرت باللذة منذ زمن طويل، وكذلك لم تكن قد أحست بالأمان أبداً. أما الآن وقد توفر لها الأمان، فكانت تريد أن ترقص، وأن تلهو، وأن تعربد، وأن تلتهم الطعام وترتشف

الخمر الجيد، وأن تبهرج نفسها بالحرائر والساتان، وأن تتقلب على الأسِرَّة الريشية والفرش الوثيرة. وقد حققت جميع هذه الرغبات، فبتشجيع ناجم عن تساهل ريت السعيد، وبتحررها من روادع عهد الصبا، وبتحررها حتى من خوفها الأخير من الفقر، كانت تطلق لنفسها العنان لتنغمس في الرفاهية التي كانت قد حلمت بها مراراً - فتعمل ما يطيب لها بالضبط، وتخبر الناس الذين لا تحبهم بأن يذهبوا إلى الجحيم.

وأحست بالنشوة السارة الخاصة بأولئك الناس الذين تكون حياتهم صفعة حازمة في وجه المجتمع المنظم - أمثال المقامر، والنصاب والمغامر المهذب، جميع أولئك الذين ينجحون بذكائهم. كانت تقول وتفعل تماماً ما كان يطيب لها. وفعلاً لم تعرف سفاهتها حداً في أي وقت.

فم تكن تتردد في إظهار التعجرف على أصدقائها الجدد، من الجمهوريين والسكالاواغز ولكنها لم تكن مع أي فئة أوقح منها مع ضباط الحامية الشماليين وعائلاتهم. فمن بين جميع الناس المتعددي المشارب، الذين تدفقوا إلى أتلانتا، كانت تخرج عن سنتها فتسيء إليهم. أجل، لم تكن ميلاني هي الوحيدة التي لم تستطع أن تنسى ماذا تعني البذلة لزرقاء. فقد كانت تلك البذلة وهاتيك الأزرار الصفراء، تعني دائماً لسكارلت أهوال الحصار ومخاوف الهرب والنهب والحرق والفقر الرهيب والعمل المضني في تارا. والآن وقد أصبحت غنية وآمنة في صداقة الحاكم وكثير من الجمهوريين البارزين، كان في وسعها أن تكون فظة مع كل جندي شمالي، ولقد كانت كذلك.

وكان ريت قد أوعز إليها مرة أن معظم ضيوفها الرجال، الذين يجتمعون تحت سقفها، كانوا قد ارتدوا البذلة الزرقاء ذاتها، قبل زمن ليس بالطويل، ولكنها أجابت بأن الشمالي لا يبدو شمالياً ما لم يكن

يلبس بذلة زرقاء، الأمر الذي رد عليه ريت قائلاً: «يا للمنطق! إنك جوهرة» وهز كتفيه باستهجان.

وكانت سكارلت بدافع كراهيتها للبزز الزرقاء، المتينة الزاهية، التي كانوا يرتدونها، تبتهج في صدهم أكثر وأكثر لأن ذلك كان يحيرهم كثيراً. وكان من حق عائلات الحامية أن تحار، لأن معظمهن كنّ هادئات رفيعات التهذيب، منعزلات في بلاد معادية، متلهفات إلى العودة إلى مواطنهن في الشمال، خجلات قليلاً بسبب الرعاع الذين كنّ مرغمات على دعم حكمهم - فئة أحسن إلى درجة لا تحد من عشيرات سكارلت. وهكذا كان من الطبيعي أن تحار زوجات الضباط لأن السيدة باتلر الجريئة كانت تقرّب إليها نساء كبردجيت فلاهرتي السوقية الحمراء الشعر، بينما كانت تتنكر لطبعها فتهينهن.

ولكن حتى السيدات اللواتي كانت سكارلت تقربهن إليها كان عليهن أن يتحملن الكثير منها، ومهما يكن من أمر، فقد تحمّلن ذلك بسرور، لأن سكارلت لم تكن تمثل بالنسبة إليهم، الثروة والظرف وحسب، بل النظام القديم أيضاً، بأسمائه القديمة وعائلاته القديمة وتقاليده القديمة التي كنّ يرغبن بحماس في التعرف إليها. ومع أن العائلات القديمة التي كنّ متحرقات للتعرف إليها، كان ينتظر أن تنبذ سكارلت من بين صفوفها، إلا أن سيدات الطبقة الأرستقراطية الجديدة لم يكن يعرفن ذلك، بل كل ما كان يعرفنه أن والد سكارلت كان مالك عبيد كبيراً، وأن أمها كانت من آل روبيلارد من سافانا، وأن زوجها كان ريت باتلر من شارلستون، الأمر الذي كان كافياً بالنسبة إليهن. لقد كانت سكارلت بمثابة جسرهن الموصل إلى المجتمع القديم الذي كنّ يرغبن في دخوله، المجتمع الذي كان يحتقرهن، والذي لم يكن يريد زياراتهن، والذي كان ينحني ببرود بالغ في الكنائس. والواقع أن سكارلت كانت أكثر من جسرهن إلى المجتمع، لقد كانت بالنسبة إليهن،

هنّ المزدهرات حديثاً من بدايات غامضة، هي المجتمع بعينه. ولمّا كنّ أنفسهن سيدات زائغات، لذلك لم يكن يرين خلال مظاهر سكارلت الزائغة أكثر مما كانت هي ترى. لقد قدرنها بالقدر الذي تقدر به نفسها، فقاسين كثيراً على يديها، كما قاسين من مظاهرها، من جمالها، ومن ثوراتها وعجرفتها ووقاحتها المطلقة، وصراحتها فيما يتعلق بنقائصهن.

كنّ قد ارتقين حديثاً من لا شيء، كنّ غير واثقات بأنفسهن كثيراً، ولذا كانت لهفتهن مضاعفة إلى الظهور مهذبات، وكنّ يخشين أن يفقدن طباعهن، أو أن يجبن أجوبة فظة لئلا يخسرن اعتبارهن كسيدات، المقام الذي كان ينبغي أن يتبوأنه مهما كان الثمن. وهكذا كنّ يتظاهرن بالرقّة العظيمة والتواضع والبراءة، وكان على الذي يسمعهن يتحدثن أن يعتقد أنهن كنّ بلا سيقان ولا ميول غريزية ولا معرفة بعالم الشرور. ولم يكن لأحد أن يعتقد أن بردجت فلاهرتي، ذات البشرة التي تتحدى الشمس بياضاً واللهجة الناعمة اللينة، كانت قد سرقت مال والدها المكنوز كي تأتي إلى أميركا وتصبح خادمة في أحد فنادق نيويورك. وكذلك لم يكن لأحد أن يرتاب وهو يلاحظ فورات سلفيا (سادي بيل سابقاً) كوننفتن ومامي بارت الهادئة بأن الأولى كانت قد ترعرعت فوق حانة والدها في حي بوري[1]، وبأنها كانت تخدم في الحانة في أوقات الزحمة، وبأن الثانية، كما قيل، كانت قد خرجت من أحد مواخير زوجها. لا، لقد كنّ مخلوقات رقيقات مصونات الآن.

أما الرجال، فمع أنهم كانوا قد جمعوا مالاً، إلا أنهم تعلموا الأساليب الجديدة بسهولة أقل، أو ربما كانوا أقل صبراً على متطلبات الأرستقراطية الجديدة، فكانوا يكثرون من الشراب في ولائم

---

(1) حي نيويوركي حقير - (المترجمان).

سكارلت، يكثرون جداً، حتى إنه كان من العادة أن يبقى منهم ضيف أو اثنين طوال الليل على غير توقع، ولم يكن هؤلاء يشربون كالرجال الذين عرفتهم سكارلت في صباها، وإنما كانوا يصبحون مخضلين، أغبياء، دميمين أو بذيئين، وأكثر من ذلك، كانت تبدو على السجاجيد في الصباح التالي بقع من عصير التبغ، رغم ما كانت سكارلت تضعه من مباصق.

كانت سكارلت تزدري هؤلاء الناس، ولكنها تسر بهم. ولأنها كانت تسرّ بهم، ملأت البيت بهم، ولأنها كانت تزدريهم، كانت تخبرهم بأن يذهبوا إلى الجحيم مراراً كلما ضايقوها. ومع هذا فقد كانوا يتحملون ذلك منها.

كانوا يتحملون ذلك من أجل ريت، الأمر الذي كان أكثر صعوبة، لأن ريت كان يعرف مكنوناتهم، وكانوا هم يعرفون ذلك، فلم يكن يتردد في تشهيرهم باللسان، حتى وهم تحت سقف بيته، ودائماً بطريقة لا تترك لهم جواباً. ولمّا لم يكن ريت يخجل من كيفية جمعه لنقوده، كان يدّعي أنهم هم أيضاً لم يكونوا يخجلون من بداياتهم، ونادراً ما أضاع فرصة ليعلق فيها على أمور كان الجميع يشعرون بالإجماع أن من الأفضل أن تُترك في إبهام مهذب.

ولم يكن أحد يعرف أبداً الوقت الذي كان يمكن أن يعلق فيه بلطف على كوب خمرة: «رالف، لو كان لدي شيء من الوعي لكنت جمعت ثروتي عن طريق بيع سندات مناجم الذهب للأرامل والأيتام مثلما فعلت أنت، بدلاً من التهريب، فذلك آمن بكثير». «حسناً يا بيل، لقد رأيتك تشتري مجموعة خيل جديدة، أكنت تبيع بضعة آلاف أخرى من سندات سكك حديد غير موجودة؟ إنه عمل رائع يا بني!». «تهاني يا آموس على رسو ذلك التعهد الحكومي عليك. من المؤلم أنك اضطررت إلى إرضاء أيدٍ كثيرة كي تحصل عليه».

كانت السيدات يشعرن أنه كان سوقياً لا يمكن احتماله، وكان الرجال يقولون في غيبته إنه كان خنزيراً ونذلاً. وهكذا، فإن أتلانتا الجديدة لم تحب ريت أكثر مما أحبته أتلانتا القديمة، كما أن ريت لم يحاول استرضاء الجديدة إلا قليلاً، تماماً كما كان قد فعل مع القديمة، لقد تابع طريقه مسروراً، مزدرياً، غير متأثر بآراء هؤلاء المحيطين به، مجاملاً جداً، حتى إن مجاملته كانت إهانة بحد ذاتها. أما بالنسبة إلى سكارلت فقد كان لا يزال لغزاً لم تعد تزعج نفسها بمعرفة كنهه. لقد كانت مقتنعة بأنه لم يكن هناك شيء قد طاب له، أو يمكن أن يطيب له، وبأنه إما أن يكون قد رغب في شيء ما رغبة شديدة ولم ينله أو أنه لم يكن يرغب في شيء أبداً، ولذلك لم يكن يحفل بأي شيء، بل كان يضحك على كل شيء تفعله، ويشجع غلوها ووقاحتها، ويسخر من مظاهرها - ويدفع الفواتير.

50

لم يحد ريت أبداً عن أخلاقه الملقة الرصينة، حتى في أكثر لحظاتهما وداً، غير أن سكارلت التي لم تفقد شعورها القديم بأنه كان يراقبها سراً، كانت تعرف أنها إذا ما أرادت رأسها فجأة فستلمح في عينيه تلك النظرة المتألمة المترقبة، النظرة الصبور التي لم تفهمها.

لقد كان يبدو أحياناً شخصاً مريحاً جداً في أن يعاش معه، رغم عادته السيئة بعدم السماح لأي إنسان بأن يكذب في حضوره، أو يصطنع مظهراً زائفاً أو يطنب في الكلام الرنان. كان يصغي إلى حديثها عن المخزن والمعملين والصالة، وعن الأشقياء وتكاليف إطعامهم، وكان يقدم لها نصائح أريبة حاسمة، وكذلك كان ينعم بحيوية لا تكل للرقص والحفلات التي كانت تحبها، وبمؤونة لا تنضب من القصص النابية التي كان يطربها بها في الأمسيات التي ندر أن ينفردا فيها، حيث تكون المائدة قد انتهت ووضع البراندي والقهوة أمامها. وأدركت سكارلت أن ريت كان ينتظر أن يمنحها كل شيء غريب فيه، ويجيبها عن أي سؤال تسأله، ما دامت مستقيمة السيرة، كما أدركت أن من المنتظر أن يرفض أي طلب تحاول الظفر به بطريق غير مباشرة أو بالتلميح أو بالصيد النسوي. وكذلك كان ريت يتصف بمزية مرحة تتعلق بمعرفة مكنوناتها والضحك بوقاحة.

وعندما كانت سكارلت تفكر في اللامبالاة الطريفة التي كان ريت

يعاملها بها، كانت تتساءل مراراً، ولكن من دون فضول حقيقي، عن سبب تزوجه بها، لقد كان الرجال يتزوجون من أجل الحب أو البيت والأطفال أو المال. ولكنها كانت تعرف أنه لم يتزوجها من أجل أي من هذه الأمور، فهو حتماً لم يكن يحبها، ثم هو كان يشير إلى بيتها الجميل بأنه مروِّع من الناحية المعمارية ويقول إنه يفضل العيش في فندق منظم على العيش في بيته، وكذلك فإنه لم يلمح مرة إلى الأطفال كما كان يفعل تشارلز وفرانك. ولقد سألته مرة، وهي تحاول مغازلته، عن سبب تزوجه بها ولكنها غضبت عندما أجابها وبريق السرور في عينيه «لقد تزوجتك لأحتفظ بك كمدللة يا عزيزتي».

لا، لم يكن قد تزوجها لأي من الأسباب العادية التي يتزوج الرجال النساء من أجلها، لقد تزوجها لأنه كان يشتهيها وحسب، ولم يكن في وسعه أن يظفر بها بطريقة أخرى، ولقد اعترف بذلك ليلة عرض عليها الزواج، لقد كان يشتهيها، تماماً كما كان يشتهي بيل وتلينغ... ولم تكن هذه الفكرة سارة لها، والحقيقة أنها كانت إهانة صريحة، غير أنها طردتها كما كانت قد تعلمت أن تطرد جميع الحقائق المكدرة. لقد قام بصفقة، وكانت هي مسرورة تماماً بنصيبها من الصفقة، كما كانت تأمل أن يكون هو مسروراً مثلها، إلا أنها لم تكن تحفل كثيراً جداً، سواء أكان مسروراً أم لم يكن.

ولكن بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كانت تستشير الدكتور ميد في موضوع ارتباك هضمي، علمت بحقيقة غير سارّة، حقيقة لم تستطع طردها. وعند الغسق، دخلت غرفة نومها ثائرة وأخبرت ريت والبغض الحقيقي يشع في عينيها أنها حبلى.

كان مسترخياً في روب حريري، تكتنفه سحابة من دخان، وعندما تكلمت اتجهت عيناه إلى وجهها بنظرة حادة، غير أنه لم يقل شيئاً، بل ظل يراقبها بصمت وقد بدا توتر في سحنته، وهو ينتظر كلماتها التالية

التي افتقدتها. لقد دفعها السخط واليأس إلى أن تُبعد جميع الأفكار الأخرى.

- «إنك تعرف أني لا أريد أي طفل آخر! وإني لم أرد أي طفل البتّة، كلما سارت الأمور سيراً صحيحاً معي أقسر على الحبل. لا تجلس هناك وتضحك! إنك لا تريده أيضاً، آه يا للّه!».

وإذا كان ريت ينتظر كلمات منها، فإن هذه لم تكن الكلمات التي أرادها، ولذلك تجهّم وجهه قليلاً وغدت عيناه مبهمتين.

- «على كل حال، لماذا لا تهبينه للآنسة ميلي! ألم تخبريني أنها ضللت فغدت تريد طفلاً آخر؟».

- «آه، إن في وسعي أن أقتلك! إني لن ألده، أقول لك إني لن ألده!».

- «لا؟ أرجوك تابعي حديثك».

- «آه، هناك وسائل يمكن عملها، فأنا لست الريفية الغبية التي كنتها، بل إني أعرف الآن أن ليس على المرأة أن تلد أطفالاً إن هي لا ترغب فيهم! هناك وسائل -».

فنهض على قدميه وأمسك بها من معصمها وفي وجهه خوف صارم دافع.

- «سكارلت أيتها الحمقاء، أخبريني الحقيقة. إنك لم تفعلي شيئاً؟».

- «لا، لم أفعل، ولكني سأفعل. هل تعتقد أني سأدع قوامي يشوَّه مرة ثانية، حينما أصبح خصري نحيلاً وصرت أنعم بوقت طيب و -».

- «من أين أتيت بهذه الفكرة؟ ومن الذي يخبرك عن الوسائل؟».

- «مامي بارت - إنها -».

- «سيدة ماخور يمكن أن تعرف وسائل كهذه، لن تضع تلك

المرأة قدماً في هذا البيت مرة ثانية، هل تفهمين؟ وبعد كل هذا إنه بيتي وأنا سيده، كما أني لا أريد أن تتحدثي إليها مرة ثانية!».

- «سأفعل ما يطيب لي. اتركني. لماذا يتوجب عليك أن تهتم بهذا الأمر؟».

- «إني لا أهتم سواء ولدت طفلاً واحداً أو عشرين طفلاً، ولكني أهتم إن أنت مت».

- «مت؟ أنا؟».

- «أجل، مت. إني لا أظن أن مامي بارت أخبرتك عن الحوادث التي يمكن أن تحدث للمرأة عندما تفعل شيئاً كذاك؟».

- «لا» قالت سكارلت كارهة، «لقد قالت فقط أنها ستنجز الأمور كما ينبغي».

- «سأقتلها واللّه» صاح ريت ووجهه اسودّ من الغضب، ثم نظر إلى وجه سكارلت المبقع بآثار الدموع، والذي كان قد خف بعض سخطه ولكنه ما زال متجهماً ساكناً، وفجأة رفعها بين ذراعيه وجلس على الكرسي وقرَّبها منه، محكماً قبضته عليها، كأنه كان يخشى أن تهرب منه.

- «أصغي يا طفلتي، إني لن أدعك تزهقين روحك بيديك، هل تسمعينني؟ باللّه! إني لا أرغب في الأطفال أكثر مما ترغبين فيهم أنت، إلا أن في وسعي إعالتهم. وإني لا أريد أن أسمع حماقات أخرى تصدر عنك، وإذا ما تجرأت وحاولت أن - سكارلت، لقد رأيت مرة صبية تموت بسبب ذلك. كانت فقط - على كل حال، ولكنها كانت صبية جميلة طيبة. إنها ليست طريقة سهلة للموت. إني -».

- «على كل حال يا ريت!» صاحت وقد أجفلت رغم بؤسها، وذلك بتأثير العاطفة التي لمستها في صوته، ولم تكن قد رأته على هذه الدرجة من الانفعال، «أين - من -».

- «في نيو أورليانز - منذ سنتين، كنت شاباً وسهل الانطباع»
وحنى رأسه فجأة، وراح يدمس شفتيه في شعرها: «ستلدين طفلك يا سكارلت ولو اضطررت إلى أن أقيدك إلى معصمي طوال الأشهر التسعة التالية».

جلست في حضنه تحدق في وجهه بفضول صريح، وفجأة بدا ما تحت نظرها ناعماً أنيساً كأنه قد وضح بسحر ساحر. وكان حاجباه مرتفعين وأحد شدقيه متدلياً.

- «هل أعني شيئاً كثيراً لك؟» سألت غاضة جفنيها.

فألقى عليها نظرة متفحصة كأنه كان يسبر عمق ما كان وراء سؤالها من دلال.

وبعد أن قرأ معنى بادرتها الحقيقي، أجاب جواباً عادياً:

- «الواقع، أجل، فلقد وظفت مبلغاً كبيراً من المال فيك كما تعلمين، وإني أمقت أن أخسره».

* * *

خرجت ميلاني من غرفة سكارلت منهوكة من الجهد، ولكنها فرحة حتى دموع الفرح بولادة سكارلت بنتاً. كان ريت يقف متوتر الأعصاب في القاعة، تحيط به أعقاب السيجار التي كانت قد أحرقت السجادة البديعة وفتحت ثقوباً فيها.

- «في وسعك الدخول الآن يا كابتن باتلر» قالت بحياء.

دخل ريت إلى الغرفة بسرعة، ولمحته ميلاني ينحني على الطفلة الصغيرة العريانة في حضن مامي، قبل أن يغلق الدكتور ميد الباب. أما ميلاني فقد استرخت على كرسي، ووجهها يتخضب من الانفعال لأنها كانت قد شاهدت دون قصد منها، منظراً حساساً كهذا.

«ها!» فكرت، «ما ألذه! ما كان أعظم قلق الكابتن باتلر

المسكين! كما أنه لم يشرب كأساً واحداً طوال الوقت! ما ألطفها منه! إن كثيراً من السادة يكونون مخمورين جداً وقت ولادة أطفالهم. أخشى أن يكون في حاجة ماسَّة إلى كأس. هل أجرؤ على أن أعرض ذلك عليه؟ لا، سيكون ذلك تمادياً كبيراً مني».

كانت مسترخية باطمئنان على كرسي، وكان ظهرها الذي كان يؤلمها دائماً هذه الأيام، يبدو كأنه سينقسم إلى شطرين عند الخصر. ها، ما كان أسعد سكارلت لأن الكابتن باتلر كان يقف خارج باب غرفتها أثناء ولادة الطفل! حبذا لو أن آشلي كان معها ذلك اليوم الرهيب الذي ولد فيه بو، لما كانت قد قاست نصف الذي قاسته. حبذا لو أن تلك البنت الصغيرة التي وراء الأبواب المغلقة كانت بنتها هي لا بنت سكارلت! آه، ما أردأني! فكرت بشعور الآثم. إني أحسدها على الطفلة وسكارلت كانت عظيمة الإخلاص إلي. «سامحني يا اللّه، إني لم أرغب في ابنة سكارلت حقاً، ولكني - ولكني أرغب كثيراً في ابنة مني أنا».

ودفعت وسادة صغيرة خلف ظهرها الموجع، وفكرت بشره في طفلة منها... غير أن الدكتور ميد لم يكن قد غيَّر رأيه أبداً في ذلك الموضوع. ومع أنها كانت عازمة كل العزم على أن تخاطر بحياتها من أجل طفل آخر، إلا أن آشلي لم يشأ أن يسمع رأيها، ابنة، كم سيحب آشلي ابنة!

ابنة! أيتها الرحمة! وجلست مذعورة. إني لم أخبر الكابتن باتلر بأن الوليد كان بنتاً! وطبعاً لقد كان يتوقع صبياً. آه ما أفظعها!

كانت ميلاني تعرف أن كلا الجنسين كانا مقبولين بالنسبة إلى المرأة، ولكن بالنسبة إلى الرجل، وخصوصاً إلى رجل متعنت كالكابتن باتلر، كان من المنتظر أن تكون البنت ضربة، صدمة لرجولته. آه ما كان أعظم شكرها لأن اللّه سمح بأن يكون طفلها الوحيد صبياً! لقد

كانت تعرف أنها لو كانت زوجة الكابتن باتلر المخيف، لفضلت أن تموت شاكرة أثناء الولادة، على أن تقدم له ابنة كأول مولد.

ولكن مامي التي خرجت تتهادى مبتسمة من الغرفة، أعادت تفكيرها إلى طمأنينته، وجعلتها في الوقت نفسه تتساءل أي نوع من الرجال كان الكابتن باتلر حقيقة.

- «عندما كنت أحمم تلك الطفلة الآن تماماً» قالت مامي، «اعتذرت بلطف من الكابتن باتلر لأنها لم تكن صبياً، ولكن يا للّه يا آنسة ميلي، هل تعرفين ماذا قال؟ «اخرسي يا مامي! من الذي يريد صبياً! الصبيان ليسوا متعة، إنه مجرد إزعاج، إزعاج كبير، والبنات هن المتعة. إني لا أبدل هذه البنت بدزينة صبيان»، ثم حاول انتزاع الطفلة مني وهي عارية كما كانت. وعندئذ صفقت مصممة وقلت: «أحسن التصرف يا سيد باتلر! سأنتظر حتى ينعم اللّه عليك بصبي فأضحك بصوت مرتفع عندما أسمعك تهلل فرحاً»، فابتسم وهز رأسه قائلاً: «مامي، إنك غبية. إن الصبيان لا ينفعون أحداً، ألست أنا برهاناً على ذلك؟». أجل يا آنسة ميلي، لقد تصرف كسيد في هذا الموضوع». أنهت مامي حديثها بلطف، ولم يفت ميلاني أن تلاحظ أن تصرّف ريت قد عمل كثيراً على رفع قدره في عيني مامي، «ربما كنت شديدة الخطأ بحق السيد ريت، ومن الأكيد أن هذا اليوم يوم سعيد بالنسبة إليّ. يا آنسة ميلي، لقد ولدت ثلاثة أجيال من بنات روبيلارد ومن الأكيد أن هذا يوم سعيد».

- «ها أجل، إنه يوم سعيد يا مامي! فأسعد الأيام هي تلك التي يولد فيها الأطفال».

إلا أن هذا اليوم لم يكن سعيداً بالنسبة إلى شخص واحد في البيت، كان ويد هاملتون يتسكع دائماً بائساً في غرفة الطعام، مؤنباً ومهملاً معظم الوقت. وفي صباح ذلك اليوم الباكر، كانت مامي قد

أيقظته فجأة وألبسته بسرعة ثم أرسلته مع إيلا إلى بيت العمة بيتي لتناول الفطور. وكان الإيضاح الوحيد الذي تلقاه هو أن أمه مريضة وأن ضجيج لعبه يمكن أن يزعجها. وكان بيت العمة بيتي في هرج لأن نبأ مرض سكارلت كان قد بعث بالسيدة العجوز إلى سريرها في نوبة إغماء برعاية كوكي، ولذا كان الفطور وجبة شحيحة دبرها بيتر لويد وشقيقته. وعندما تقدم الصباح بدأ الخوف يتملك روح ويد، هب أن أمي ماتت؟ فلقد ماتت أمهات صبيان آخرين، ولقد رأى ويد عربات النعوش تخرج من البيوت، وسمع أصدقاءه الصغار يندبون. هب أن أمي ستموت؟ كان ويد يحب أمه كثيراً بقدر ما كان يخافها. وآلمت صدره الصغير فكرة كونها محمولة في عربة سوداء خلف خيول سوداء على ألجمتها ريش، آلمته كثيراً بحيث راح يتنفس بصعوبة.

وعندما أتى الظهر، وكان بيتر منهمكاً في المطبخ، تسلل ويد خارج الباب الأمامي وهرول إلى البيت بأسرع ما استطاعت ساقاه القصيرتان أن تحملاه، وكان الخوف يحث خطاه، من الأكيد أن العم ريت أو العمة ميلي أو مامي ستخبره الحقيقة، غير أن العم ريت والعمة ميلي لم يكونا ليريا، بينما كانت مامي ودلسي تسرعان على الدرج الخلفي تحملان مناشف وأطسات ماء ساخن دون أن تلحظاه في القاعة الأمامية، حيث كان في وسعه أن يسمع من وقت إلى آخر عبارات الدكتور ميد المقتضبة كلما فتح الباب. ومرة سمع أنين أمه، فانفجر في فواق نائح وأدرك أنها ستموت، ومن أجل أن يواسي نفسه، راح يبادر بالحركة، القط العسلي اللون الذي كان يضطجع على عتبة النافذة المشمسة في القاعة الأمامية، ولكن توم[1] العجوز المتضايق من الإزعاجات لوى ذيله ونخر بصوت خفيض.

---

(1) اسم القط - المترجمان.

وأخيراً، بينما كانت مامي تنزل الدرج الأمامي وميدعها مجعد ملطخ، ورقعة رأسها موروبة، رأته وعبست. لقد كانت مامي دائماً سند ويد، وكان ويد يرتجف من عبوسها.

- «هل أمي - هل ستموت؟».

- «إنك أكثر الصبيان الذين رأيتهم إزعاجاً. تموت! يا للّه، لا! إن الصبيان عذاب. إني لا أرى لماذا يرسل اللّه الصبيان للناس، والآن هيا اذهب من هنا».

ولكن ويد لم يذهب، بل تراجع خلف الستائر في القاعة، مقتنعاً بكلماتها نصف اقتناع فقط، بينما كانت تلسعه عبارتها المتعلقة بإزعاج الصبيان، لأنه كان دائماً يحاول جهده كي يكون ولداً باراً.

وبعد نصف ساعة نزلت العمة ميلي الدرج مسرعة منهوكة شاحبة اللون، ولكنها كانت تبتسم لنفسها، وعندما رأت وجهه المذعور في ظلال الستائر صعقت. كانت العمة ميلي، عادة، تكرس له كل وقتها، ولم تكن تقول له أبداً «لا تضايقني الآن، إني على عجل» أو «هيا اجرِ يا ويد، فإني مشغولة» كما كانت أمه تخاطبه مراراً.

ولكنها هذا الصباح بادرته بقولها: «ويد، إنك عاقِ جداً، لماذا لم تبقَ في بيت العمة بيتي؟».

- «هل أمي ستموت؟».

- «يا للرحمة، لا يا ويد! لا تكون ولداً أحمق!» ثم أردفت بعطف «لقد أحضر لها الدكتور ميد الآن طفلة صغيرة جميلة، أختاً لك صغيرة بديعة لتلعب معها. وإذا كنت باراً حقاً، ففي وسعك أن تراها هذه الليلة. أما الآن فاشرع والعب ولا تُحدِث أية ضجة».

فانسلّ ويد إلى غرفة الطعام الساكنة، ودنياه الصغيرة المضطربة تتداعى من حوله. ألم يكن هناك مكان لصبي قلق صغير في السابعة من

عمره، في هذا اليوم المشرق، حيث الكبار يتصرفون تصرفاً غريباً؟ وجلس على عتبة النافذة في العريشة، وقضم قطعة من نبتة أذن الفيل المزروعة في صندوق موضوع في أشعة الشمس، كانت القطعة حادة الطعم كثيراً حتى إنها أدمعت عينيه فطفق يبكي. ربما كانت أمه تموت الآن، ولا أحد يعيره أدنى اهتمام، بل كان الجميع يهرولون من أجل طفل جديد... بنت. ولم يكن ويد يسر بالأطفال إلا قليلاً، وأقل من ذلك بالبنات. والبنت الوحيدة التي كان يعرفها معرفة أليفة هي إيلا، التي لم تكن إلى حد كبير تفعل أي شيء لتنتزع احترامه أو حبه.

وبعد برهة طويلة نزل الدكتور ميد والعم ريت الدرج، ووقفا يتحدثان في القاعة بأصوات خفيضة. وبعد أن أغلق الباب خلف الدكتور، دخل العم ريت غرفة الطعام مسرعاً وملأ لنفسه كأساً كبيرة من القارورة، قبل أن يرى ويد، الذي تراجع متوقعاً أن يبلغ ثانية أنه كان ولداً عاقاً، وأن عليه أن يعود إلى بيت العمة بيتي، ولكن العم ريت ابتسم له بدلاً من ذلك، ولم يكن ويد قد رآه يبتسم كتلك الابتسامة أو يبدو سعيداً على تلك الصورة، ولذلك تشجع ووثب عن عتبة النافذة وجرى نحوه:

- «لقد نعمت بشقيقة» قال ريت وهو يعانقه، «واللّه إنها أجمل طفلة رأيتها! والآن لماذا تبكي؟».

- «إن أمي...».

- «إن أمك تأكل الآن غذاء عظيماً كبيراً: دجاجة وأرز وصلصة لحم وقهوة وسنصنع لها بوظة بعد برهة قصيرة، وفي وسعك أن تتناول ملء صحنين منها، كما أني سأريك أختك أيضاً».

وحاول ويد، وقد أوهنه الفرح، أن يكون مهذباً فيما يتعلق بأخته الجديدة، ولكنه فشل، لقد كان الجميع مهتمين بهذه البنت، ولم يكن أحد يهتم به أبداً، حتى ولا العمة ميلي والعم ريت.

- «عمي ريت» بدأ، «هل يحب الناس البنات أكثر من حبهم للصبيان؟».

فوضع ريت الكأس من يده ونظر إلى وجع الصبي الصغير بحدة، ثم شعت عيناه ببريق الفهم الفوري:

- «لا، ليس في وسعي أن أقول إنهم كذلك» أجاب جاداً كأنه يعير القضية التفكير اللازم، «إن القضية فقط هي أن البنات أكثر إزعاجاً من الصبيان، والناس عرضة للقلق على الأفراد المزعجين أكثر من قلقهم على غير المزعجين».

- «لقد قالت مامي الآن إن الصبيان مزعجون».

- «الواقع أن مامي منفعلة، ولم تعنِ ما قالت».

- «عمي ريت، ألم تكن تفضل صبياً صغيراً على بنت صغيرة؟».

- «لا» أجاب ريت بسرعة، ولكنه عندما رأى وجه الصبي ينقبض أردف بقوله: «أصغِ إليّ، لماذا ينبغي لي أن أفضل صبياً بينما أنا أنعم بصبي؟».

- «أتنعم بصبي؟» صاح ويد وقد فغر فاه لهذا النبأ «أين هو؟».

- «ها هو هنا» أجاب ريت ورفع الصبي وقرَّبه من ركبته «أنت صبي لي كما ينبغي يا ابني».

ولهنيهة بدأت الطمأنينة والسعادة في كونه محبوباً، بدتا عظيمتين جداً بحيث كاد ويد يبكي ثانية، وتحرك بلعومه ودس رأسه في معطف ريت.

- «أنت ابني، أليس كذلك؟».

- «هل يمكن أن تكون - حسناً، ابن رجلين؟» سأل ويد والإخلاص لوالده الذي لم يعرفه أبداً، يتعارك مع الحب للرجل الذي كان يرعاه بوعي تام.

- «أجل» قال ريت بحزم، «تماماً مثلما يمكن أن تكون ابن أمك وابن العمة ميلي أيضاً».

فاستوعب ويد العبارة وشعر أنها معقولة، ثم ابتسم وهو يتحرك بحياء فوق ذراع ريت:

- «إنك تفهم الأولاد الصغار، أليس كذلك يا عم ريت؟».

فعاد وجه ريت إلى سحنته القديمة الصارمة وثنى شفتيه.

- «أجل» قال بمرارة، «إني أفهم الأولاد الصغار».

ولهنيهة عاود الخوف ويد، خوف وشعور فجائي بالحسد، فالعم ريت لم يكن يفكر فيه بل في ولد آخر.

- «ليس لديك ولد آخر، أليس كذلك؟».

فأجلسه ريت على قدميه.

- «سأتناول كأساً وأنت كذلك يا ويد، إنها كأسك الأولى تكريماً لشقيقتك الجديدة».

- «ليس لك أي بنت...» بدأ ويد، ولكنه رأى ريت يمد يده إلى قارورة الخمر، أطربه السرور لكونه مشتركاً في احتفال الكبار هذا. «ها، لا أستطيع يا عمي ريت! لقد وعدت العمة ميلي ألّا أشرب حتى أتخرج من الجامعة، وستعطيني ساعة إن أنا حافظت على عهدي».

- «وسأعطيك أنا سلسلة لها - هذه السلسة التي أرتديها الآن، إن شئتها» قال ريت وهو يبتسم ثانية، «إن العمة ميلي صائبة تماماً، ولكنها تكلمك عن المشروبات الروحية وليس عن الخمر، وعليك أن تتعلم شرب الخمر كسيد يا بني، وليس هناك وقت لتتعلم ذلك كالوقت الحاضر».

وبمهارة، خفف الخمر بالماء من الإبريق، إلى أن غدا السائل أحمر بالكاد، ثم ناول الكأس لويد، وفي تلك اللحظة دخلت مامي غرفة الطعام. كانت قد ارتدت أجمل ثوب الآحاد الأسود، وكان

ميدعها وعمامتها نظيفين جافين، وبينما كان تتهادى هزت جسدها وعندئذ علا همس وحفيف الحرير من تحت تنورتها. كانت النظرة القلقة قد غادرت وجهها، وكانت لثتاها العديمتا الأسنان تقريباً تبديان ابتسامة عريضة:

- «هدية المولد يا سيد ريت!» قالت.

فأمسك ويد عن الشرب والكأس على شفته. كان يعرف أن مامي لم تكن تحب زوج أمه أبداً، ولم يكن قد سمعها مطلقاً تدعوه بأي اسم سوى «الكابتن باتلر» وكان تصرفها معه رزيناً ولكنه فاتر، بينما هي الآن تبتسم وتتهادى وتدعوه «سيد باتلر!» يا له من يوم مقلوب رأساً على عقب!

- «أظن أنك تفضلين الجعة على الخمر» قال ريت ومد يده إلى الخزانة وأخرج قارورة مفلطحة. «إنها طفلة جميلة، أليست كذلك يا مامي؟».

- «حتماً إنها جميلة» أجابت مامي وهي تتلمظ حين تناولت الكأس.

- «هل رأيت طفلة أجمل منها في حياتك؟».

- «الواقع يا سيدي... إن الآنسة سكارلت كانت جميلة مثلها تقريباً عند ولادتها، ولكن ليس تماماً».

- «خذي كأساً أخرى يا مامي... مامي» واشتد صوته بيد أن عينيه تألقتا «ما ذلك الحفيف الذي أسمعه؟».

- «يا للّه يا سيد ريت، ليس هو إلا تنورتي الحريرية الحمراء!» وقهقهت وتدلهت إلى أن راح جسدها الضخم يهتز.

- «ليس هو إلا تنورتك الحمراء! إني لا أصدق ذلك، إنه يبدو ككومة من أوراق الشجر الجافة تحتكّ بعضها ببعض. دعيني أراها، ارفعي أطواقك».

- «سيد ريت، إنك رجل رديء! أجل واللّه!».

وصرخت صرخة قصيرة وتقهقرت إلى بُعد ياردة ثم رفعت ثوبها بحياء بضع بوصات، وكشفت عن كشاكش تنورة من التفتا الحمراء.

- «لقد تأخرت كثيراً جداً في ارتدائها» تذمَّر ريت ولكن عينيه السوداوين كانتا تضحكان وترقصان.

- «أجل، لقد تأخرت كثيراً يا سيدي».

ثم قال ريت شيئاً لم يفهمه ويد.

- «لم يعد هناك بغل في عدة حصان؟».

- «سيد ريت، لقد كان من العار على سكارلت أن تخبرك بذلك! أتحمل ذلك ضد هذه الزنجية العجوز؟».

- «لا، إني لا أحمله، وإنما أردت معرفة حقيقته. خذي كأساً آخر يا مامي، اشربي كل القارورة. وأنت يا ويد اشرب نخبنا».

- «نخب شقيقتي الصغرى» صاح ويد وكرع السائل. وإذ غص به، بدأ يسعل ويفوق، بينما راح الآخران يضحكان ويربتان على ظهره.

* * *

منذ الدقيقة التي ولدت فيها ابنته، أضحى سلوك ريت محيراً لجميع ملاحظيه، كما أنه قلب عدة آراء مقررة تتعلق به، آراء كانت سكارلت والمدينة قانطتين من زوالها. فمن كان يفكر أن ريت من بين جميع الناس كان سيعتز بأبوّته علانية وبلا خجل؟ خصوصاً بالنظر إلى الحادثة المكدرة من أن مولوده الأول كان بنتاً وليس صبياً.

ولم تبلَ جدة الأبوة منه، الأمر الذي أوجد غيرة مكتومة بين النساء اللواتي كان أزواجهن يعتبرون الذرية أمراً مفروغاً منه قبل أن يعمَّد أولادهم بمدة طويلة. كان ريت يمسك بتلابيب الناس في الشارع

ويروي لهم التفاصيل عن تقدم ابنته العجيب، حتى دون أن يسبق كلامه عنها بالعبارة المنافقة ولكن المهذبة «إني أعرف أن كل إنسان يعتقد أن ابنه نبيه ولكن -»، لقد كان يعتقد أن ابنته أعجوبة، وأنها لا تقارن بالأطفال الذين هم أقل نباهة منها، ولم يكن يحفل بمن كان يعرف تلك الحقيقة منه. وعندما سمحت الممرضة الجديدة بأن تمص الطفلة قطعة من لحم الخنزير المدهن، الأمر الذي سبب لها أول مغص، ساق تصرف ريت الآباء والأمهات المجربين إلى عواصف من الضحك. فقد استدعى ريت الطبيب ميد على عجل ثم استقدم آخرين، وبصعوبة، ردع عن ضرب الممرضة السيئة الحظ بمقبض سوط. ثم طردت الممرضة وتبعتها منذ ذلك الوقت قافلة من الممرضات اللواتي كن يبقين أسبوعاً كأقصى مدة، إذ لم تكن أي منهن حاذقة إلى الحد الذي يرضي الطلبات الدقيقة التي وضعها ريت.

وكذلك كانت مامي تنظر بعين السخط إلى الممرضات اللواتي كن يأتين ويذهبن، لأنها تغار من أي زنجية غريبة، ولم تكن ترى أي سبب لعدم استطاعتها هي الاعتناء بالطفلة ووبد وإيلا أيضاً. غير أن مامي كانت تبدو مسنة، وكان الروماتيزم يكشف عن خطواتها المتثاقلة، وكان ريت تعوزه الشجاعة ليعلن عن هذه الأسباب التي كانت تدفعه إلى استخدام ممرضة أخرى. وبدلاً من ذلك أخبرها أن الرجل الذي يكون في مثل مركزه الاجتماعي، لا يسعه أن يستخدم ممرضة واحدة وحسب، فذلك لا يبدو لائقاً، ولذا فسيستأجر ممرضتين أخريين ويدعها هي كرئيسة عليهما. وقد فهمت مامي رأيه جيداً، واعتبرت أن وجود خدم كثيرين رفع لمقامها كما هو بالنسبة إلى مقام ريت. غير أنها لا تريد، أخبرته بحزم، أي زنجية حقيرة محررة تعمل معها في غرفة الأطفال. ولذا أرسل ريت يستدعي برسي من تارا، برسي التي كان يعرف نقائصها والتي كانت مع ذلك زنجية عائلة. كما أن العم بيتر

أحضر ابنة أخ له تدعى لو كانت تخص أحد أبناء عم الآنسة بيتي من آل بود.

وحتى قبل أن تستطيع سكارلت العودة إلى النشاط ثانية، لاحظت انشغال ريت بالطفلة، واغتاظت وتكدرت بعض الكدر من تفاخره أمام الزوار، لقد كان من الجميل بالرجل أن يحب طفله، ولكنها أحست بوجود شيء ليس من شيم الرجال، في عرض حب كهذا... لا، ينبغي أن يكون عديم الاكتراث كسائر الرجال.

- «إنك تجعل من نفسك أحمق» قالت مغتاظة، «وإني لا أرى سبباً لذلك».

- «لا؟ على كل حال، إنك لن تري. إن السبب هو أنها أول إنسان يخصني كلية».

- «إنها تخصني أيضاً».

- «لا، إنك تنعمين بولدين آخرين. إنها لي».

- «يا للجحيم!» قالت سكارلت، «أنا التي ولدتها، أليس كذلك؟ وفضلاً عن ذلك يا حبيبي، إني أخصك».

- «هل تخصينني يا عزيزتي؟».

لقد كان دخول ميلاني فقط هو الذي منع حدوث واحد من تلك النزاعات الحادة السريعة التي كان يبدو أنها كانت تنشب بينهما بسهولة فائقة هذه الأيام، ولذا بلعت سكارلت غضبها وراقبت ميلاني وهي تأخذ الطفلة. كان الاسم الذي اتفق عليه للطفلة هو أوجيني فيكتوريا، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم، اقترحت ميلاني من دون انتباه منها، اسماً علق بالطفلة، تماماً كما كان اسم «بيتي بات» قد محا كل ذكرى لـ«سارة جين»[1].

---

(1) الاسم الأول لبيتي بات - (المترجمان).

وكان ريت قد قال وهو منحنٍ على الطفلة «ستكون عيناها خضراوين كلون نبات الفاصوليا».

- «لن تكونا كذلك في الحقيقة» صاحت ميلاني بسخط، وقد نسيت أن عيني سكارلت كانتا بذلك اللون تقريباً، «ستكونان زرقاوين كعيني السيد أوهارا، زرقاوين كـ - زرقاوين كالعلم الأزرق الصغير».

- «بوني[1] باتلر الزرقاء» ضحك ريت وأخذ الطفلة منها محدقاً في العينين الصغيرتين أقرب من قبل. وهكذا أصبح اسمها «بوني» إلى أن لم يعد حتى والداها يذكران أنها كانت قد سميت باسم ملكتين.

---

(1) Bonnie ومعناها: الصغير - (المترجمان).

51

عندما أصبحت سكارلت أخيراً قادرة على الخروج من البيت، أمرت لُو بأن تضغط مشدها إلى أقصى ما تستطيعه الشرائط من الشد، ثم أمرَّت شريط القياس حول خصرها: عشرون بوصة! أنَّت بصوت مرتفع. ذلك هو ما فعله الحَبَل بقوامك! لقد كان خصرها ثخيناً كخصر العمة بيتي، بل كخصر مامي.

- «اضغطيه أكثر يا لو. انظري إذا كان في وسعك أن تجعلينه ثماني عشرة بوصة ونصف وإلا فلن أستطيع ارتداء أيٍّ من حللي».

- «إن ذلك سيقطع الشرائط» قالت لو، «لقد أصبح خصرك ثخيناً، ولا يوجد شيء لأفعله».

- «يوجد شيء لنفعله» وفكرت سكارلت وهي تفتق درزات ثوبها بعنف لتفسح مجالاً للبوصات الضرورية، «لن أنجب أي طفل آخر».

طبعاً لقد كانت بوني جميلة ومفخرة لها، وكان ريت يعبدها، ولكنها مع ذلك لن تنجب أي طفل آخر. أما كيف ستدبر هذا الأمر، فلم تكن تعرف، لأنها لم تستطع السيطرة على ريت كما كانت تفعل مع فرانك. فريت لم يكن يخافها، ومن المحتمل أن يكون الأمر صعباً معه، هو الذي كان يتصرف مثل ذلك التصرف الأحمق فيما يتعلق ببوني، وربما كان يرغب في ابن في السنة القادمة، رغم أنه قال إنه

سيُغرق أي صبي تأتيه به، على كل حال، لن تأتيه بوليد، سواء كان صبياً أو بنتاً، فحسبُ أي امرأة أن تنجب ثلاثة أطفال.

عندما قطبت لو الدرزات المفتقة وملستها بالضغط وزررت الفستان حول جسد سكارلت، استدعت العربة وانطلقت سكارلت إلى معمل الخشب. وبينما هي في الطريق، ارتفعت معنوياتها ونسيت موضوع خصرها لأنها كانت ستقابل آشلي في المعمل كي تراجع وإياه دفاتر الحساب، وإذا أسعدها الحظ، فقد تقابله على انفراد. ولم تكن سكارلت قد رأته منذ مدة طويلة، قبل أن تلد بوني، إذ كانت لا ترغب في رؤيته مطلقاً وهي في حالة الحبل الواضحة جداً. وهكذا افتقدت لقاءه اليومي، اللقاء الذي كان يتم حتى مع وجود بعض الناس. كذلك كانت قد افتقدت أثناء فترة إنحابها أهمية ونشاط صناعتها الخشبية. طبعاً لم تكن مضطرة إلى العمل الآن، كما كانت تستطيع بسهولة أن تبيع المعملين وتوظف المال لمصلحة ويد وإيلا، ولكن ذلك كان يعني ألّا ترى آشلي إلا نادراً، وإلا بطريقة اجتماعية رسمية وجماهير من الناس حولها، بينما كان سرورها الأعظم يكمن في العمل بجانب آشلي.

وعندما بلغت ساحة المعمل، رأت باتبهاج كم كان ارتفاع كومة الخشب عظيماً، وكم كان عدد الزبائن الواقفين كبيراً، وهم يتحدثون إلى هيو إلسينغ، ثم كان هناك ستة أزواج من البغال، وعربات تحمل من قبل السواقين الزنوج، ستة أزواج، مكرت بكبرياء، ولقد صنعت كل ذلك بنفسي!

وجاء آشلي إلى باب المكتب الصغير وعيناه تشعان سروراً بفرحة رؤيتها ثانية، ثم ساعدها على النزول من العربة ودخول المكتب كأنها كانت ملكة.

غير أن بعض سرورها غاض عندما راجعت دفاتر حسابات معمله

وقارنتها بدفاتر جوني كاليغر. لقد كان آشلي يجمع مصاريف المعمل بالكاد، بينما كان جوني قد أحرز مبلغاً كبيراً صالحاً. وامتنعت سكارلت عن قول أي شيء وهي تنظر إلى الورقتين، إلا أن آشلي قرأ وجهها.

- «سكارلت، إني آسف. كل ما أستطيع قوله هو أني أرجو أن تدعيني أستأجر زنوجاً محررين بدلاً من استخدام الأشقياء. إني أعتقد أني سأنتج بهم أفضل مما أنتج الآن».

- «زنوج! يا للّه، إن أجورهم ستقصم ظهورنا بينما أجور الأشقياء رخيصة جداً. وإذا كان جوني يستطيع أن ينتج بهم هذا الإنتاج الوفير...».

اتجهت عينا آشلي عبر كتفيها وراحتا تنظران إلى شيء لم تستطع هي رؤيته، ثم تلاشى ألق البهجة منهما.

-«إني لا أستطيع تشغيل الأشقياء كما يفعل جوني كاليغر. إني لا أستطيع أن أسوق الرجال سوقاً».

- «يا للّه، إن جوني أعجوبة في ذلك. آشلي، إنك رقيق القلب جداً وحسب. عليك أن تستخلص منهم عملاً أكثر. ولقد أخبرني جوني أنه كلما أراد متمارض أن يتهرب من العمل، كان يخبرك أنه مريض، وكنت تمنحه يوم عطلة، يا للّه العظيم يا آشلي! تلك ليست الطريقة لجني المال. إن زوجاً من السياط حري بأن يشفى من معظم الأمراض التي تتجاوز ساقاً مكسورة...».

- «سكارلت، سكارلت، يكفي! ليس في وسعي أن أحتمل سماعك تتكلمين على هذه الصورة» صاح آشلي وقد عادت عيناه إليها بنظرات شرسة، جعلتها تصمت بسرعة، «ألا تدركين أنهم رجال - بعضهم مريض، سيّئ التغذية، يائس و - آه يا عزيزتي، إني لا أستطيع احتمال رؤية الطريقة التي خشّنك فيها، أنت التي كنت دائماً في غاية الرقة».

- «من الذي علمني كذا؟».

- «إني مضطر إلى أن أقولها مع أني لا أملك الحق في ذلك، ولكني مضطر إلى قولها، زوجك - ريت باتلر، فكل شيء يلمسه يسممه. ولقد تزوجك أنت التي كنت في منتهى الرقة والكرم واللطف رغم أساليبك الشجاعة، وقد سبب لك هذا - قسّاك - خشّنك بسلوكه».

- «آه» تنفست سكارلت والإثم يصارع الفرح في داخلها، لأن آشلي كان يشعر شعوراً عميقاً نحوها، ولأنه ما انفك يعتقد برقّتها. شكراً للّه، لقد كان يعتقد أن ريت هو الذي ينبغي أن يلام على أساليب ابتزازها للنقود. طبعاً لم تكن لريت أي علاقة بذلك، وكان الذنب ذنبها هي. ولكن، وبعد كل هذا، إن علامة سوداء أخرى في سجل ريت، لن تضيره أبداً.

- «لو أنه كان أي رجل آخر في الدنيا، لما حفلت كثيراً - ولكن ريت باتلر! لقد رأيت ما فعله بك، إنه يحرف أفكارك في ذات المجرى الخشن الذي تسير فيه أفكاره. طبعاً إني أعرف أن من الواجب أن لا أقول هذا - فقد أنقذ حياتي، وأنا ممتن له، ولكني كنت أرجو من اللّه لو أن المنقذ كان أي رجل آخر سواه! وإني لا أملك الحق لأتحدث إليك بمثل. . .».

- «آه آشلي، إنك تمتلك الحق - ولا يملكه إنسان آخر سواك».

- «دعيني أخبرك بأني لا أستطيع احتمال الأمر وأنا أرى رقّتك تخشن بسببه، وأعرف أن جمالك وسحرك هما في حوزة رجل - عندما أفكر فيه وهو يلمسك فإني. . .».

«سيقبّلني» فكرت سكارلت بسرور بالغ! «ولن تكون غلطتي!» وتهادت نحوه، ولكنه تراجع فجأة كأنه أدرك أنه كان قد قال قولاً كثيراً جداً - قال أشياء لم يكن ينوي قولها.

- «إني أعتذر بكل تواضع يا سكارلت. لقد كنت أشير إلى أن زوجك لم يكن سيداً. ولكن كلماتي برهنت على أني لست سيداً، فليس من حقي انتقاد زوج أمام زوجته. وليس لي عذر سوى - سوى. . . » وتلعثم والتوى وجهه، وانتظرت هي محتبسة النفس «ليس لي عذر أبداً».

ظل عقل سكارلت طول الطريق إلى البيت في العربة، في سباق مع الأفكار، لا عذر أبداً سوى. . . سوى أنه كان يحبها! وإن تفكيره بها مضطجعة بين ذراعي ريت كان يثير سخطاً لديه لم تعتقد بإمكان حدوثه، وعلى كل حال فقد استطاعت أن تفهم ذلك، ولولا معرفتها بأن علاقاته بميلاني كانت بحكم الضرورة علاقات أخ بأخته، لكانت حياتها عذاباً. وقد خشنتها ضمّات ريت وجعلتها قاسية القلب! حسناً، إذا كان آشلي يعتقد ذلك، فإن في وسعها الاستغناء عن هذه الضمّات. وفكرت كم ستكون علاقتهما عذبة ورومنطقية لكليهما لو أخلصا لبعضهما جسدياً حتى رغم كونهما متزوجين بشخصين آخرين. وملكت الفكرة خيالها وسرت بها، ثم كان هناك أيضاً جانب عملي للفكرة، إذ كانت تعني أنها ستضطر إلى عدم إنجاب طفل آخر.

وعندما بلغت البيت، وصرفت العربة، بدأ بعض الشعور بالرفعة الذي كان قد ملأها بفعل كلمات آشلي يفيض وهي تواجه موضوع إخبار ريت بأنها تريد غرفتي نوم منفصلتين، وكل ما يترتب على ذلك، ستكون المهمة الصعبة، وفوق ذلك، كيف يسعها أن تخبر آشلي أنها حرمت نفسها على ريت بسبب رغباته هو؟ أي قيمة للتضحية إذا لم يعلم أحد بها؟ أي عبء، كانت الحشمة ورقّة المعاملة! حبذا لو أنها تستطيع أن تتحدث إلى آشلي بصراحة، كما تتحدث مع ريت! على كل حال، فإنها ستوعز لآشلي بتلك الحقيقة، بطريقة ما، مهما كلفها الأمر.

وصعدت الدرج. وعندما فتحت غرفة الأطفال، وجدت ريت يجلس إلى جانب سرير بوني وإيلا وعلى حضنه ويد يعرض ما يحتويه جيبه أمامه. أي نعمة هذه: ريت يحب الأطفال ويقدرهم كثيراً! بينما كان بعض الرجال صارمين جداً مع الأطفال الذين كانوا نتاج زوجات سابقة.

- «أريد التحدث إليك» قالت وتابعت طريقها إلى غرفة نومهما. من الأفضل أن تنهي الموضوع الآن، بينما تصميمها على عدم إنجاب أي طفل آخر كان حاراً في نفسها، وبينما كان حب آشلي يمنحها قوة. «ريت» قالت فور أن أغلق باب غرفة النوم خلفه، «لقد قررت ألّا أنجب أي طفل آخر».

وإذا كان ريت قد بغت من عبارتها غير المتوقعة، فإنه لم يُظهر ذلك، بل مشى إلى كرسي وجلس عليه، مميلاً إياه إلى الوراء.

- «مدللتي. كما أخبرتك من قبل أن تولد بوني، سواء أنجبت طفلاً أم عشرين، فذلك الأمر قليل الأهمية بالنسبة إليّ».

ما كان أشد دهاءه في أن يتفادى النتيجة بهذه الدقة، كأنه لم يكن يحفل إذا كان لإنجاب الأطفال أي علاقة بمقدمهم الحقيقي.

- «إني أعتقد أن ثلاثة أولادِ عدد كافٍ، ولست أنوي إنجاب طفل في كل سنة».

- «أجل، إن ثلاثة يبدو عدداً مناسباً».

- «إنك تعرف تمام المعرفة...» شرعت والارتباك يخضب وجنتيه، «تعرف ما أعني؟».

- «أعرف. هل تدركين أن في وسعي أن أطلقك لرفضك منحي حقوقي الزوجية؟».

- «إنك منحط لتفكيرك في أمور كتلك» صاحت وهي منزعجة لأن شيئاً لم يتم حسب خطتها، «لو أنك تنعم بقليل من النبل - لكنت لطيفاً

مثل. . . على كل حال، انظر إلى آشلي ويلكس. إن ميلاني لا تستطيع أن تنجب أي طفل آخر وهو. . . ».

- «نعم إن السيد الصغير آشلي. . . » قال ريت وبدأت عيناه تشعان بصورة غريبة، «أرجوك أن تتابعي حديثك» غير أن سكارلت غصت، لأن حديثها كان قد انتهى، ولم يكن لديها ما تقوله. ولقد رأت الآن ما كان أحمق أملها في تقرير أمر كهذا بطريقة ودية، خصوصاً مع خنزير أناني مثل ريت.

- «كنتِ في مكتب معمل الأخشاب بعد ظهر اليوم، أليس كذلك؟».

- «وما علاقة ذلك بالأمر؟».

- «إنك تحبين الكلاب، أليس كذلك يا سكارلت، هل تفضلينها في بيوتها أم في مذاودها؟».

غير أن الإشارة المقصودة فاتتها لأن موجة الغضب والخيبة ارتفعت في نفسها.

ونهض هو بخفة، واتجه إليها ووضع يده تحت ذقنها ثم رفع رأسها إلى الأعلى ليقابل وجهه:

- «يا لك من طفلة! لقد عشت مع ثلاثة رجال، وما زلت لا تعرفين شيئاً عن طبائع الرجال. يبدو أنك تفكرين أنهم كالعجائز لا يؤثر فيهم تغير الحياة».

وقرص ذقنها مداعباً، ثم أنزل يده بينما ارتفع أحد حاجبيه الأسودين وهو يرمقها بنظرة باردة.

- «سكارلت، افهمي هذا: إذا كنت وفراشك ما زلتما تملكان أي فتنة لي، فليس في وسع أي قفل أو رجاء أن يمنعني عنكما، كما أنني لن أشعر بأي عار من جرّاء أي عمل أعمله، لأني عقدت اتفاقية معك

- الاتفاقية التي حافظت رنا عليها بينما تخلين أنت بشروطها الآن - حافظي على سريرك الطاهر يا عزيزتي».

- «هل تقصد أن تخبرني» صاحت سكارلت ساخطة، «بأنك لا تحفل. . .».

- «لقد مللت مني، أليس كذلك؟ الواقع أن الرجال يملون قبل النساء. حافظي على طهرك يا سكارلت، فالأمر لن يكون عسيراً علي، ولا يهمني شيء» وهز كتفيه وابتسم، «ومن حسن الحظ أن الدنيا مليئة بالأسرَّة. . . ومعظم الأسرَّة مليئة بالنساء».

- «إنك تعني أنك ستكون فعلاً. . .».

- «يا عزيزتي البريئة! ولكن طبعاً، إن من العجيب أني لم أشرد قبل الآن بوقت طويل، ولم أعتقد بأن الإخلاص فضيلة».

- «سأوصد بابي كل ليلة!».

- «لماذا تزعجين نفسك؟ إذا ما اشتهيتك فلن يمنعني أي قفل من الدخول».

واستدار، وكأن الموضوع قد ختم، ثم غادر الغرفة. وسمعته سكارلت عائداً إلى غرفة الأطفال الذين رحبوا به. أما هي فقد جلست فجأة. لقد نالت مأربها، لقد كان هذا هو ما أرادته هي وآشلي، ولكن لم يكن يشعرها بالسعادة. كانت كبرياؤها جريحة، وكانت هي كسيرة النفس من جرّاء فكرة أن ريت كان قد تلقى الأمر كله باستخفاف بالغ، وأنه لم يكن يشتهيها، وأنه وضعها في مستوى نساء أخريات في أسرَّة أخرى. وتمنت لو كان في وسعها أن تفكر بطريقة لبقة لتخبر آشلي أنها وريت لن يعودا بعد اليوم كزوجين حقيقيين، ولكنها أدركت الآن أن ليس في وسعها ذلك. وبدا الأمر جميعه ورطة مروِّعة الآن، وتمنت بشبه رغبة حقيقية لو لم تتفوه بكلمة عن الموضوع، ستفقد الأحاديث

الطويلة اللاذة في السرير مع ريت، عندما يكون جمر سيجارها يتوهج في الظلام، وستفقد طمأنينة ذراعيه عندما تستيقظ مذعورة من أحلامها التي ترى فيها أنها تركض في الضباب البارد.

وفجأة أحست ببؤس شديد، فأراحت رأسها على ذراع الكرسي، وطفقت تبكي.

52

بعد ظهر أحد الأيام الماطرة، حين كانت بوني لمّا تجاوزت عيد ميلادها الأول، كان ويد يطوف في غرفة الجلوس مكتئباً، ويذهب إلى النافذة من وقت إلى آخر، حيث يحك أنفه بمصراعها المنقط بالماء. كان صبياً نحيلاً خرعاً قصير القامة بالنسبة إلى عمره البالغ ثمانية أعوام هادئاً حيياً، لا يتكلم إلا إذا خوطب. لقد كان ضجراً وفي حيرة لعدم وجود من يسليه إذ كانت إيلا منهمكة بألعابها في الزاوية، وكانت سكارلت في مكتبها تدمدم لنفسها وهي تجمع عموداً طويلاً من الأرقام، بينما كان ريت مستلقياً على الأرض يؤرجح ساعة يده بسلسلتها، بعيداً عن متناول بوني.

وبعد أن تناول ويد عدة كتب ثم أسقطها من يده بصوت، وتنهد تنهداً عميقاً، التفتت سكارلت إليه مغتاظة.

- «يا للّه يا ويد، اخرج بسرعة والعب».

- «لا أستطيع، إنها تمطر».

- «تمطر؟ لم ألحظها. على كل حال، قم بعمل ما، إنك تثير أعصابي بتململك. اذهب وأخبر بورك أن يهيئ العربة ويأخذك لتلعب مع بو».

- «بو ليس في البيت» تنهد ويد، «إنه في حفلة ميلاد راؤول بيكارد».

كان راؤول ابن مايبل ورينيه بيكارد الصغير - طفل صغير بغيض، فكرت سكارلت، إنه أشبه بالقرد منه بالطفل.

- «حسناً في وسعك أن تذهب لزيارة من تريد. اجرِ وأخبر بورك».

- «لا يوجد أحد في بيته» أجاب ويد، فجميعهم في الحفلة.

وعلقت الكلمات غير الملفوظة في الهواء: «جميعهم سواي» ولكن سكارلت التي كان عقلها في دفاتر حساباتها لم تعره أي اهتمام.

غير أن ريت أنهض نفسه إلى وضع الجلوس وقال: «ولماذا لست في الحفلة كذلك يا بني؟».

فخطا ويد مقترباً منه، محركاً قدماً واحدة وقد بدا الكدر على وجهه.

- «أنا لم أدعَ يا سيدي».

فوضع ريت ساعته في قبضة بوني المخربة ونهض بخفة واقفاً على قدميه:

- «اتركي هذه الأرقام اللعينة جانباً يا سكارلت. لماذا لم يدعَ ويد إلى الحفلة؟»

- «من أجل اللّه يا ريت! لا تزعجني الآن. لقد أوصل آشلي هذه الحسابات إلى عقدة فظيعة - ها، تلك الحفلة؟ الواقع أني أعتقد أن عدم وجود ويد ليس أمراً غير عادي، كما أني لم أكن لأدعه يذهب لو أنه دعي. لا تنسَ أن راؤول هو حفيد السيدة ميريويذر التي تعتبر وجود أي منا في ردهتها المقدسة كوجود زنجي محرر».

وبينما كان ريت يراقب وجه ويد بعينين متأملتين رأى الصبي يجفل.

- «تعال إليّ يا بني، هل تحب أن تحضر تلك الحفلة؟».

- «لا يا سيدي» قال ويد.

- «هل ذهبت إلى حفلات جو ويتينغ الصغير أو فرانك بونل أو. . . أي من زملائك؟».

- «لا يا سيدي، أنا لم أدعَ إلى حفلات كثيرة».

- «ويد، إنك تكذب» صاحت سكارلت ملتفتة إليه، «لقد ذهبت إلى ثلاث حفلات في الأسبوع الماضي، حفلات أولاد بارت وأولاد جيلرت وأولاد هندون».

- «إنها مجموعة مختارة من بغال في عُدَد خيل، كأحسن ما تستطيعين جمعه معاً» قال ريت وصوته يتحول إلى لهجة بطيئة ناعمة، «هل نعمت بوقت طيب في هذه الحفلات؟ كن صريحاً».

- «لا يا سيدي».

- «ولم لا؟».

- «أنا. . . أنا لا أعرف يا سيدي، إن مامي. . . مامي تقول إنهم بيض حقيرون».

- «سأسلخ جلد مامي هذه الدقيقة!» صاحت سكارلت واثبة على قدميها، «وأما أنت يا ويد، الذي تتكلم هكذا عن أصدقاء أمك. . .».

- «إن الصبي يتكلم الحقيقة، وكذلك مامي». قال ريت، «ولكن طبعاً، ليس في وسعك معرفة الحقيقة إذا قابلتها في الطريق. . . لا تتكدر يا بني، أنت لست مضطراً إلى الذهاب إلى أي حفلة لا تريد الذهاب إليها بعد الآن، خذ». وسحب دولاراً من جيبه، «أخبر بورك أن يعد العربة ويأخذك إلى المدينة، وهناك اشترِ لنفسك بعض الحلويات. . . كمية كبيرة تكفي لتسبب لك مغصاً مدهشاً في معدتك».

أشرق وجه ويد ودسّ الدولار في جيبه ثم نظر بقلق إلى أمه لأخذ موافقتها، ولكنها كانت تراقب ريت وهي مقطبة الجبين، وكان ريت قد التقط بوني عن الأرض وراح يؤرجحها على صدره ووجهها الصغير

يلامس وجنته الأمر الذي منع سكارلت من قراءة وجهه. ولكنها رأت شيئاً في عينيه، شيئاً كالخوف تقريباً، الخوف والاتهام الذاتي.

وتشجع ويد بكرم عمه فاقترب منه حيياً.

- «عمي ريت، هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟».

- «طبعاً» وبدت نظرته جدية شاردة بينما كان يقرب رأس بوني منه، «ما هو يا ويد؟».

- «عمي ريت... أكنت... هل اشتركت في الحرب؟».

فعادت عينا ريت متيقظتين حادتين إلا أن صوته ظل عادياً.

- «لماذا تسأل يا بني؟».

- «الواقع، لقد قال جو ويتينغ إنك لم تشترك، وهكذا قال فرانك بونل».

- «ها» قال ريت، «وماذا أجبتهما؟».

فبدا الانزعاج على ويد.

- «لقد... لقد قلت... لقد أجبتهما إني لا أعرف» ثم أردف بسرعة: «ولكني لم أكترث لهما وضربتهما. هل كنت في الحرب يا عم ريت؟».

- «أجل» قال ريت وقد احتد فجأة: «لقد كنت في الحرب. كنت في الجيش مدة ثمانية أشهر. لقد حاربت طوال الطريق من لافجوي إلى فرانكلين وتنيسي وكنت مع جونستون عندما استسلم».

فتهادى ويد بالكبرياء، ولكن سكارلت ضحكت.

- «أعتقد أنك كنت خجلاً من سجلك الحربي» قالت، «ألم تخبرني أن أخلد إلى الصمت فيما يتعلق به».

- «صه» قال باقتضاب، «هل ذلك يرضيك يا ويد؟».

- «ها، أجل يا سيدي. لقد عرفت الآن أنك كنت في الحرب.

لقد عرفت أنك لم تكن جباناً كما كانوا يقولون. ولكن. . . لماذا لم تكن مع آباء الأولاد الصغار والآخرين؟».

- «لأن آباء الأولاد الصغار الآخرين كانوا أغبياء جداً بحيث اضطرت القيادة إلى أن تضعهم مع المشاة بينما أنا كنت خريج وست بوينت ولذلك التحقت بالمدفعية، بالمدفعية النظامية يا ويد، وليس بالحرس الوطني، إذ إن الالتحاق بالمدفعية يتطلب إدراكاً واسعاً يا ويد».

- «أراهن. . . » قال ويد ووجهه يشرق فرحاً، «هل جرحت يا عم ريت؟».

فتردد ريت في الجواب.

- «أخبره عن مرضك بالزحار» سخرت سكارلت.

غير أن ريت وضع الطفلة على الأرض بعناية، وسحب قميصه الخارجي ثم قميصه الداخلي من تحت حزام سرواله.

- «تعال إليَّ يا ويد وسأريك موضع جرحي».

فتقدم ويد منفعلاً وحدق حيث أشار إصبع ريت. كان هناك ندب بارز طويل يمتد عبر صدره الأسمر إلى بطنه ذي العضلات القوية. وكان هذا ذكرى قتال بالسكاكين في حقول الذهب في كاليفورنيا، ولكن ويد لم يكن يعرف الحقيقة، بل تنفس بعمق وسعادة:

- «أظن أنك شجاع كوالدي يا عم ريت».

- «تقريباً، وليس تماماً» قال ريت داساً قميصه في سرواله، «والآن اذهب واصرف دولارك، واضرب بعنف كل صبي يقول إني لم أكن في الجيش».

خرج ويد وهو يرقص فرحاً، ثم نادى بورك، بينما التقط ريت الطفلة عن الأرض ثانية.

- «والآن لماذا كل هذه الافتراءات يا فتاي الجندي الشهم؟».

- «على الصبي أن يكون فخوراً بأبيه - أو بعمه. وأنا لا أستطيع أن أدعه يخجل أمام الوحوش الصغيرة الأخرى، المخلوقات الفظة، الأولاد».

- «ها، هراء!».

- «أنا لم أفكر أبداً ماذا كان الأمر يعني بالنسبة إلى ويد» قال ريت ببطء، «أنا لم أفكر أبداً كيف كان يعاني، ولن يكون الأمر على ذلك النسق بالنسبة إلى بوني».

- «أي نسق؟».

- «هل تعتقدين أني سأدع بوني تخجل بأبيها؟ أدعها تستثنى من الحفلات عندما تبلغ التاسعة أو العاشرة؟ هل تعتقدين أني سأدعها تذل كويد بسبب أمور ليست هي مسؤولة عنها وإنما أنت وأنا؟».

- «ها، حفلات الأطفال!».

- «من حفلات الأطفال تنشأ حفلات الصبايا الأولى. هل تعتقدين أني سأدع ابنتي تتجاوز كل ما هو محتشم في أتلانتا وهي تنمو؟ لن أرسلها إلى الشمال للمدرسة أو للزيارة لأنها لن تكون مقبولة هنا أو في شارلستون أو سافانا أو نيو أورليانز، كما أني لن أراها تضطر إلى الزواج بشمالي أو أجنبي، لأن جميع العائلات الكريمة لن تقبل بها... لأن أمها كانت حمقاء وأباها كان وغداً».

كان ويد الذي عاد إلى الباب، مصغياً ملتذاً بالحديث، ولكنه كان محتاراً.

- «في وسع بوني أن تتزوج بو يا عمي ريت».

زاول الغضب وجه ريت عندما التفت إلى الصبي، وقد قدر كلماته باهتمام جلي، كما كان يفعل دائماً أثناء تعاطيه الحديث مع الأولاد.

- «ذلك حقيقي يا ويد، في وسع بوني أن تتزوج بو ويلكس، ولكن أنت من ستتزوج؟».

- «ها، أنا لن أتزوج أية فتاة» قل ويد بنفس واثقة، سعيداً بحديث الرجل للرجل مع الشخص الوحيد الذي لم يؤنبه بل كان يشجعه دائماً كالآنسة ميلي. «سوف أذهب إلى هارفارد وأتخرج محامياً كوالدي ثم سأستعد لأكون جندياً شجاعاً، مثله تماماً».

- «أرجو أن تحتفظ ميلي بلسانها صامتاً» صاحت سكارلت، «ويد لن تذهب إلى هارفارد، فتلك مدرسة شمالية، وأنا لن أدعك تذهب إلى مدرسة شمالية. سوف تذهب إلى جامعة جورجيا، وبعد أن تتخرج، ستدير المخزن نيابة عني، وأما بالنسبة إلى كون والدك جندياً شجاعاً...».

- «صه» قال ريت باقتضاب دون أن تفوته ملاحظة الضوء المشرق في عيني الصبي عندما تكلم عن والده الذي لم يكن قد عرفه أبداً. «كن شجاعاً كوالدك يا ويد. حاول أن تكون مثله تماماً لأنه كان بطلاً، ولا تدع أي شخص يقول لك خلاف ذلك. لقد تزوج أمك، أليس كذلك؟ حسناً، إن هذا برهان كافٍ على بطولته، كما أني سأحرص على ذهابك إلى هارفارد وتخرّجك محامياً. والآن أسرع وأخبر بورك بأن يأخذك إلى المدينة».

- «سأكون لك ممتنة إن تركتني وتربية أطفالي» صاحت سكارلت عندما انطلق ويد خبباً من الغرفة، مطيعاً أمر ريت.

- «إنك مربية فاشلة لعينة. لقد حطمت كل فرصة سنحت لكلا ويد وإيلا، ولن أدعك تفعلين ذلك مع بوني، لأن بوني ستغدو أميرة صغيرة، وسيرغب فيها كل إنسان في الدنيا، ولن يكون هناك أي مكان لا تستطيع الذهاب إليه. يا للّه الرحيم، هل تعتقدين أني سأدعها تنمو وتعاشر الغوغاء الذين يملأون هذا البيت؟».

- «إنهم جماعة موافقة جداً لك...».

- «ومنظرهم منظر ملعون موافق جداً لك يا مدللتي، ولكن ليس

لبوني. هل تعتقدين أني سأدعها تتزوج أياً من هذه الزمرة الضالة التي تقضين وقتك معها؟ إنهم إيرلنديون بالفطرة، شماليون بيض حقراء، كاربت بكرز حديثو النعمة. . . إن ابنتي بوني ذات الدم الباتلري والنسب الروبيلاردي. . .».

- «الأوهاريون. . .».

- «الأوهاريون يمكن أن يكونوا ملوك إيرلندا فيما مضى، ولكن والدك لم يكن سوى إيرلندي بالفطرة، كما أنك لست أفضل. . . ولكن مع ذلك، فإن فيَّ نقصاً أيضاً، إذ قد قضيت حياتي كخفاش خارج جحيم، لا أحفل مطلقاً بما أفعل، لأنه لم يكن يهمني شيء، إلا أن بوني تهمني الآن. يا للّه، أي أحمق كنته!. . لن يرحب ببوني في شارلستون مهما فعلت أمي أو خالتك يولالاي أو خالتك بولين. . . ومن الواضح أنها لن يرحب بها هنا ما لم نقم بعمل ما سريعاً».

- «ها يا ريت، إنك تأخذ القضية بصورة جدية بالغة، بحيث إنك تبدو شخصاً مضحكاً. إننا بنقودنا. . .».

- «ليلعن اللّه نقودنا! كل نقودنا لا تستطيع شراء ما أريده لها. إني أفضل لو دعيت بوني لتأكل خبزاً جافاً في بيت آل بيكارد البائس أو في سقيفة السيدة إلسينغ البالية على أن تكون حسناء حفلة رقص شمالية تدشينية. لقد كنت غبية يا سكارلت. كان يجب أن تؤمني مركزاً لولديك في النظام الاجتماعي منذ سنين. . . ولكنك لم تفعلي، بل إنك حتى لم تزعجي نفسك وتحافظي على المركز الذي كان لك. ومن الغرور أن أؤمل نفسي بأنك ستصححين أساليبك في هذا الوقت المتأخر. إنك متلهفة جداً إلى جني المال، مولعة جداً بمقارعة الناس».

- «إني أعتبر هذا الأمر كله زوبعة في فنجان» قالت سكارلت ببرود، وقرقعت بأوراقها لتشير إلى أن الحديث انتهى بالنسبة إلى موقفها منه.

- «ليس لدينا سوى السيدة ويلكس لتساعدنا، وأنت اعملي جهدك لتنفريها وتبعديها. آه، وفّري عليّ ملاحظاتك عن عوزها وثيابها الرثة. إنها روح كل شيء خالص في أتلانتا، محوره، شكراً للّه على وجودها، فستساعدنا في عمل شيء في هذا الصدد».

- «وماذا ستعمل؟».

- «أعمل؟ سأهذب كل أفعوان من الحرس القديم في هذه المدينة، خصوصاً السيدات ميريويذر وإلسينغ وويتينغ وميد. وإذا ما اضطررت إلى أن أزحف على بطني للوصول إلى كل قطة عجوز من اللواتي يكرهنني، سأفعل ذلك، سأكون وديعاً أمام برودتهن، وتائباً عن أساليبي القديمة، وسأعترف وأتباهى بخدماتي للحلف، وفي أسوأ الاحتمالات، سألتحق بجميعة الكلان اللعينة الخاصة بهم... مع أن إلهاً رحيماً يكاد لا يستطيع أن يضع كفارة ثقيلة كهذه على كتفي. كما أني لن أتردد في تذكير الأغبياء الذين أنقذت أرواحهم، إنهم مدينون لي بالجميل. وأنت يا سيدة ستمتنعين عن هدم عملي من خلف ظهري بتنفيذ الرهونات على أي من الأشخاص الذين أجاملهم، أو أبيعهم خشباً مهترئاً، أو أهينهم بطريقة أخرى. ثم إن الحاكم بولوك لن يضع قدمه في هذا البيت مرة ثانية، أتسمعين؟ وكذلك أي من هذه الزمرة من اللصوص الظرفاء الذين تعاشرينهم، وإذا ما دعوتهم رغم رجائي إياك، فستجدين نفسك في المركز المربك، الناجم عن عدم وجود مضيف في بيتك. إذا أتوا إلى هذا البيت فسأقضي وقتي في حانة بيل وتلينغ، وأخبر كل إنسان يهمه السماع بأني لن أقيم وإياهم تحت سقف واحد».

ضحكت سكارلت التي كانت تتألم بفعل كلماته، ضحكت ضحكة قصيرة.

- «وهكذا فإن مقامر الزورق النهري والمضارب سيصبح رجلاً

محترماً! حسناً، من الأفضل أن تكون أولى خطواتك نحو المركز المحترم في بيع بيت بيل وتلينغ».

لقد كانت تلك العبارة رصاصة في الظلام، لأن سكارلت لم تكن واثقة تماماً بأن ريت كان يملك البيت، أما هو فقد ضحك فجأة كأنه قرأ أفكارها.

- «شكراً على اقتراحك».

* * *

لو أن ريت حاول لما استطاع أن يختار وقتاً أكثر صعوبة من هذا الوقت ليشق طريقه فيه لاستعادة احترام الناس له ثانية، فلم يحدث قبل هذا الوقت أو بعده أن حمل اسما «جمهوري» أو «سكالاواغز» مثل هذا العار، لأن فساد نظام الكاربت بكرز كان الآن قد بلغ الذروة، بينما كان اسم ريت منذ الاستسلام مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالشماليين والجمهوريين والسكالاواغز.

كان سكان أتلانتا قد اعتقدوا عام 1866، بحمق عاجز أنه لا يمكن أن يكون أسوأ من الحكم العسكري الصارم الذي كانوا يرزحون تحته. ولكنهم الآن وهم تحت حكم بولوك كانوا يتعرفون على الأسوأ. فبسبب أصوات الزنوج أضحى الجمهوريون وحلفاؤهم متحصنين بثبات، وكانوا يركبون بمناعة فوق الأقلية العديمة القوة، التي ما انفكت تقاوم رغم ذلك.

وكان قد أشيع بين الزنوج أن هناك حزبين سياسيين فقط، حزبين مذكورين في الإنجيل، العشارين والخطاة، ولم يكون يوجد زنجي واحد يرغب في الالتحاق بحزب جميع أعضائه من الخطاة. ولذا أسرعوا إلى الانضمام إلى الجمهوريين، وراح أسيادهم الجدد يستغلون أصواتهم تكراراً، ويرشحون بيضاً فقراء إلى المراكز العالية، بل يرشحون حتى بعض الزنوج، وكان هؤلاء الزنوج يجلسون في المجلس

التشريعي، حيث يقضون معظم وقتهم في أكل الفول السوداني، ويريحون أقدامهم غير المعتادة على الأحذية، بإدخالها وإخراجها من الأحذية. وكان القليل منهم يستطيع القراءة أو الكتابة، إذ كانوا قادمين حديثاً من مزارع القطن وأحراج الخيزران، ولكن كان في مقدورهم أن يصوتوا على رفع الضرائب والسندات بالقدر الذي يقتضيه مصروفهم الكبير، ومصروف أصدقائهم الجمهوريين. وهكذا كانوا يصوتون إلى جانب ذلك، الأمر الذي جعل الولاية ترزح تحت عبء الضرائب التي كانت تدفع بالسخط لأن دافعيها كانوا يعرفون أن الكثير من المال الذي رصد من أجل المصالح العامة كان يجد طريقه إلى جيوب خاصة.

كان جيش من المروِّجين المضاربين وطلاب العقود الحكومية وآخرون من الذين كانوا يأملون الاستفادة من الإفراط في التبذير، كان يحيط بعاصمة الولاية إحاطة السوار بالمعصم، وهكذا كان الكثيرون يثرون من دون شعور بالعار، فلم يكونوا يجدون صعوبة قط في اغتصاب نقود الحكومة المخصصة لبناء السكك الحديد، التي لم تبنَ أبداً، ولشراء السيارات والآلات التي لم تشترَ أبداً، ولإقامة المباني العامة التي لم تقم إلا في عقول مروّجيها.

كانت السندات تصدر إلى أن تبلغ الملايين، ورغم أن معظمها كان مزوراً غير قانوني، فإنها كانت تصدر مع ذلك. وقد دفع هذا الأمر أمين خزينة الحكومة، وكان جمهورياً ولكنه وفيّ، إلى أن يحتج على الإصدارات غير القانونية ويرفض التوقيع عليها. غير أنه لم يستطع هو والآخرون الذين أرادوا أن يمنعوا انتهاك القانون، أن يفعل شيئاً في وجه الموجة الدافقة.

لقد كانت سكك حديد الحكومة فيما مضى، رصيداً مادياً لها، ولكنها أضحت الآن عبئاً عليها، وتكدست ديونها حتى بلغت المليون ولم تعد سكك حديد بل صارت معلفاً كبيراً لا قعر له، معلفاً كان

الخنازير يأكلون فيه ويرتعون فيه. وكان الكثيرون من موظفيها قد عُيِّنوا لأسباب سياسية، من دون اعتبار لمعرفتهم بإدارة السكك الحديد، كما أن عدد الموظفين قد بلغ ثلاثة أضعاف العدد الضروري. وكان الجمهوريون يركبون مجاناً بموجب تذكرة سفر مجانية، وكذلك كان الزنوج يركبون بلا مقابل في رحلاتهم السارة في الولاية، ليصوتوا وليكرروا التصويت في الانتخاب ذاته.

وما أغضب دافعي الضرائب بصفة خاصة هو سوء إدارة طرق الولاية. فمن مداخيل هذه الطرق كان يجب رصد المال للمدارس المجانية، ولكن لم تكن هناك مداخيل الآن، بل ديون فقط. وهكذا لم تعد توجد مدارس مجانية، وكان القليلون يملكون المال ليرسلوا أبناءهم إلى المدارس التي تتقاضى الرسوم، ولذا وجد جيل من الأولاد الذين كانوا يترعرعون في مهاوي الجهل، والذين كانوا سينشرون بذور الأمية على مر السنين.

على أن استياء الناس من الصور الزرية التي قدمهم بها الحاكم إلى المسؤولين في الشمال، كان أعظم وأشد من غضبهم من التبذير وسوء الإدارة والرشوة. فعندما زمجرت جورجيا ضد الفساد، أسرع الحاكم إلى الشمال، وظهر أمام الكونغرس راوياً عن اعتداءات البيض على الزنوج وعن استعداد جورجيا لثورة ثانية وعن الحاجة إلى حكم عسكري صارم في الولاية. ولم يكن هناك جورجي واحد يرغب في خوض المتاعب مع الزنوج، بل كان الجميع يحاولون تجنب ذلك. كما أن أحداً لم يرغب في حرب ثانية أو يريد حكم الحراب أو يحتاج إليه. وكل ما كانت تريده جورجيا هو أن يتركوها وحدها حتى تستطيع تعويض ما فاتها. ولكن مع تلك العملية التي أصبحت تُعرف فيما بعد بـ«مصنع افتراء» الحاكم، لم يرَ الشمال سوى ولاية ثائرة تحتاج إلى يد ثقيلة، وهكذا فرضت عليها يد ثقيلة.

لقد كانت تلك فرصة مجيدة للزمرة التي كانت تقبض على جورجيا من عنقها. واستشرى النهب وعم الناس استهزاء بارد فيما يتعلق باللصوصية المفضوحة في المناصب الرفيعة التي كان الإنسان يقشعر من التفكير فيها، ولم تجد الاحتجاجات والجهود شيئاً في مقاومة ذلك، لأن حكومة الولاية كانت مسنودة ومدعومة بقوة جيش الولايات المتحدة.

كان سكان أتلانتا يلعنون أسماء بولوك وسكالاواغيين وجمهوريين ويلعنون اسم كل من له علاقة بهم، وكانت لريت علاقة بهم، إذ كان ضمن زمرتهم كما كان الجميع يقولون في كل مؤتمراتهم. ولكنه الآن انقلب ضد التيار الذي كان منحرفاً فيه قبيل برهة وجيزة، وبدأ يسبح بحماس في وجه التيار.

سار في حملته ببطء وبدهاء، دون أن يثير شكوك أتلانتا. سار بمظهر نمر يحاول أن يغير إهابه خلال الليل. كان يتجنب أصدقاءه المريبين، ولم يعد يُرى في رفقة الضباط الشماليين والسكالاواغيين والجمهوريين. ثم راح يحضر اجتماعات الديمقراطيين ويقترع إلى جانبهم بتفاخر. وكذلك تخلى عن لعب القمار وتحلى بالوقار بدلاً من ذلك. وكان إذا اتفق وذهب إلى بيت بيل وتلينغ، فإنه كان يذهب ليلاً وخلسة كما كان يفعل أكثر رجال المدينة المحترمين، بدلاً من أن يدع فرسه أمام بيتها في الأمسيات كإعلان عن وجوده داخل البيت.

وكان جمهور الكنيسة الأسقفية يكاد يقع عن مقاعده وهو يتطلع إلى ريت وهو يدخل على أصابع قدميه متأخراً عن القداس وممسكاً بيد ويد. وكان ذهول الجمهور بظهور ويد يعادل ذهوله بظهور ريت، إذ كان يفترض في الصبي أن يكون كاثوليكياً، فعلى الأقل، لقد كانت سكارلت كاثوليكية أو أنها كان يفترض أن تكون كاثوليكية. غير أنها لم تكن قد وضعت قدمها في الكنيسة منذ سنين، لأن الديانة كانت قد

هجرتها، كما كان قد هجرها كثير من تعاليم إيلين الأخرى، وكان الجميع يعتقدون أنها كانت قد أهملت تربية ابنها الدينية، ويكبرون ريت لمحاولته إصلاح الأمر حتى ولو كان ذلك عن طريق اصطحاب الصبي إلى الكنيسة الأسقفية بدلاً من الكاثوليكية.

كان في وسع ريت أن يبدو رصين الخلق عندما كان يختار أن يكبح لسانه ويمنع عينيه السوداوين من الرقص الخبيث. وكان قد مضت سنوات منذ اختار أن يفعل هذا، ولكنه كان يفعله الآن، متحلياً بالرصانة والوسامة، تماماً كما كان يتحلى بالصدرة ذات الألوان الوقورة. ولم يكن من الصعب عليه أن يكسب موطئ قدم للصداقة بين الرجال المدينين له بأعناقهم، هؤلاء الرجال الذين كان يمكن أن يُظهروا تقديرهم له منذ زمن طويل، لو أنه لم يتصرف كما لو أن تقديرهم كان قضية لحظة عابرة. غير أن هيو إلسينغ ورينيه وأبناء سيمونز وإندي بونل والآخرين كانوا يجدونه الآن ممتعاً، حيياً فيما يتعلق بالتباهي بنفسه، مرتبكاً عندما يتكلمون عن الجميل المدينين له به.

- «لم يكن ذلك شيئاً يُذكر» كان يحتج، «فلو كنتم في مكاني، لفعلتم جميعكم الشيء ذاته».

وكان يتبرع بسخاء لميزانية ترميم الكنيسة الأسقفية. ولقد قدم مبلغاً كبيراً، ولكنه ليس كبيراً إلى حد الابتذال إلى جمعية «تجميل قبور موتانا الأمجاد». وقد نشد السيدة إلسينغ ليقدم هذه الهبة ورجاها وهو مرتبك أن تحفظ أمر هبته سراً، وهو يعرف تمام المعرفة أن هذا الرجاء سيحفزها إلى نشر النبأ. أما السيدة إلسينغ فقد كرهت أن تقبل نقوده - وهي نقود مضارب - ولكن الجمعية كانت في حاجة ماسَّة إلى المال.

- «إني لا أرى لماذا ينبغي لك من بين جميع الناس أن تتبرع لجمعيتنا؟». قالت بحدة.

وعندما أخبرها ريت بجهد رصين لائق أنه انساق للتبرع بدافع ذكريات زملاء السلاح السابقين، الذين كانوا أشجع منه، ولكن أقل حظاً، والذين كانوا الآن يرقدون في قبور مجهولة، تدلى شدق السيدة إلسينغ الأرستقراطي إذ كانت دولي ميريويذر قد أخبرتهم أن سكارلت كانت قد ذكرت أن الكابتن باتلر كان في الجيش، ولكن طبعاً لم تكن قد صدقت النبأ، بل لم يكن أحد قد صدقه.

- «أنت في الجيش؟ ماذا كانت فرقتك - فصيلك؟».

فذكر لها ريت ذلك.

- «ها، المدفعية. كل من أعرفه كان إما في المشاة أو الفرسان. إذن، ذلك يوضح -» وصمتت مرتبكة، متوقعة أن ترى عينيه تبرقان بالخبث. غير أنه لم يزد على أن غض بصره، وراح يعبث بسلسلة ساعته.

- «كنت أفضِّل المشاة» قال متجاوزاً عن إيعازها كلية، «ولكن عندما وجدوا أني كنت في وست بوينت - رغم أني لم أنل شهادة التخرج منها يا سيدة إلسينغ بسبب زلة هرج صبياني، ألحقوني بالمدفعية النظامية وليس الاحتياطية. لقد كانوا في حاجة إلى رجال من ذوي الاختصاص في تلك الحملة الأخيرة، وأنت تعرفين كم كانت الخسائر بالغة إذ قتل عدد كبير من رجال المدفعية وغدا سلاح المدفعية موحشاً آنذاك، فلم أرَ فيه إنساناً أعرفه. وإني لا أعتقد أني رأيت رجلاً واحداً فيه من أتلانتا خلال كل خدمتي».

- «حسناً» قالت السيدة إلسينغ وهي مرتبكة، إذا كان قد خدم في الجيش، فلقد كانت هي مخطئة إذن، إذ كانت قد علقت بعبارات قارصة كثيرة على جبنه، وجعلتها ذكرى تلك العبارات تشعر بالإثم، «حسناً! لماذا لم تخبر أي إنسان عن خدمتك؟ إنك تتصرف كما لو كنت خجلاً بعملك».

فنظر ريت إلى عينيها نظرة منصفة، وقد بدا وجهه مبهماً، «سيدة إلسينغ» قال بلهفة، «صدقيني حين أقول إني فخور بخدماتي للحلف أكثر من أي شيء فعلته أو ينتظر أن أفعله، إني أشعر - إني أشعر -».

- «جسناً، ولماذا تحتفظ بذلك طي الكتمان؟».

- «كنت خجلاً من أتحدث به في ضوء - في ضوء بعض أفعالي السابقة».

نقلت السيدة إلسينغ نبأ التبرع والحديث إلى السيدة ميريويذر بالتفصيل.

- «ويا دولي، إني أؤكد لك أنه عندما قال ذلك... عن كونه خجلاً، أجهشت عيناه بالدموع! أجل بالدموع! وكدت أبكي أنا نفسي».

- «حشو وهراء!» صاحت السيدة ميرويذر غير مصدقة، «إني لا أصدق أن عينيه أجهشتا بالدموع أكثر مما أصدق أنه كان في الجيش. كما أن في وسعي أن أكتشف بسرعة فائقة، إذا كان في فرقة المدفعية تلك. أجل، في وسعي أن أحصل على الحقيقة، لأن الكولونيل كارلتون الذي كان في إمرة الفرقة، تزوج ابنة إحدى عمات والدي، وسأكتب إليه».

وكتبت للكولونيل، ولكن ما أدهشها أنها تلقت منه جواباً يطري فيه خدمات ريت بعبارات صريحة، إذ يقول: هو مدفعي بالفطرة، جندي شجاع، وسيد عديم التذمر. إنه رجل نزيه شهم لم يكن ليأخذ أجراً على ما يكلف بعمله حتى لو قدم له هذا الأجر.

- «الواقع!» قالت السيدة ميريويذر وهي تُري الرسالة للسيدة إلسينغ، «إنني أكاد أصعق! قد نكون أسأنا الحكم على هذا الوغد فيما يتعلق بعدم كونه جندياً، وربما كان من واجبنا أن نصدق ما قالته

سكارلت وميلاني عنه من أنه انضم إلى الجيش يوم سقوط المدينة. ولكن مهما كان الأمر فإنه سكالاواغ ووغد، وإني لا أحبه!».

- «كيفما كان الأمر» قالت السيدة إلسينغ بتردد، «كيفما كان الأمر، فإني لا أعتقد أنه رديء جداً. فرجل حارب من أجل الحلف لا يمكن أن يكون رديئاً كلية. إن سكارلت هي الرديئة - هل تعلمين يا دولي أني أعتقد حقيقة أنه - على كل حال، إنه خجل بسكارلت، ولكنه لا يفصح عن ذلك لأنه سيد عظيم».

- «خجل! بوه! إنهما كليهما مجبولان من طينة واحدة. من أين أتيت بهذه الفكرة الحمقاء؟».

- «إنها ليست حمقاء!» قالت السيدة إلسينغ حانقة، «فأمس في المطر المدرار، كان ينزه أولئك الأطفال الثلاثة، وحتى الرضيع، انتبهي، في عربته ذهاباً وإياباً في شارع بيتشتري، وقد أوصلني إلى البيت، وعندما قلت له: «هل فقدت عقلك لتخرج بهؤلاء الأطفال في هذا الجو الرطب؟ لماذا لا تأخذهم إلى البيت؟» لم ينبس ببنت شفة وإنما بدا مرتبكاً. ولكن مامي صرحت مجيبة عن سؤالي: «إن البيت مليء بحقيري البيض، وإن من الأصح للأطفال أن يكونوا في المطر من أن يكونوا في البيت!»».

- «وماذا قال هو؟».

- «ماذا كان في وسعه أن يقول؟ كشَّر فقط في وجه مامي وتغاضى عن الأمر. أنت تعرفين أن سكارلت كانت تقيم حفلة قمار كبرى بعد ظهر أمس، حفلة ضمّت جميع أولئك النسوة العاميات العاديات، وأظن أنه لم يكن يريدهن أن يقبِّلن ابنته».

- «لا بأس» قالت السيدة ميريويذر مترددة، ولكنها ما زالت متشبثة برأيها. غير أنها في الأسبوع التالي، أذعنت هي أيضاً.

وكان ريت قد وضع لنفسه مكتباً في المصرف، أما ماذا كان يعمل أمام هذا المكتب، فلم يكن موظفو المصرف المندهشون يعرفون، ولكنه كان يملك عدداً كبيراً من أسهم المصرف بحيث لم يكن في وسعهم الاحتجاج على وجوده هناك، وما لبث الموظفون بعد برهة قصيرة، أن نسوا أنهم كانوا قد عارضوا وجوده في مصرفهم، لأنه كان هادئاً حسن السيرة، يعرف في الحقيقة بعض الشيء عن الأعمال المصرفية واستثمار الأموال. وعلى أية حال، فقد راح ريت يجلس أمام مكتبه طوال يومه، مضيفاً على نفسه كل مظاهر رجل الأعمال، لأنه كان يرغب في أن يتحلى بالصفات ذاتها التي يتحلى بها رجال المدينة المحترمون، الرجال الذين كانوا يثابرون على أعمالهم.

وكانت السيدة ميريويذر، رغبة منها في توسيع فرنها النامي، قد حاولت أن تقترض ألفي دولار من المصرف مقابل رهن بيتها، ولكن طلبها قد رُفض، نظراً إلى كون بيتها مرهوناً مرتين، وبينما كانت السيدة البدينة العجوز خارجة من المصرف وهي ثائرة، أوقفها ريت واطلع على مشكلتها، ثم قال مضطرباً: ولكن لا بد أن يكون هناك خطأ ما، خطأ فاحش، يا سيدة ميريويذر، فأنت من بين جميع الناس ينبغي ألّا تنزعجي من أجل الضمانات. كيف لا، وأنا أقرضك مالاً، اعتماداً على شرفك فقط! وإن السيدة التي تستطيع أن تقيم الصناعة التي أقمتها أنت، هي أفضل مغامرة في الدنيا. إن المصرف يرغب في أن يقرض أمثالك. والآن اجلسي هنا على كرسيي وسأرى أنا الأمر نيابة عنك.

وعندما رجع كان يبتسم بلطف وقال إنه كان هناك خطأ «تماماً كما كان قد توقع» وإن الألفي دولار كانت تنتظرها في أي وقت تريد سحبها. وفيما يتعلق ببيتها فلم يطالبها بشيء. وكل ما طلبه منها التوقيع فقط.

أما السيدة ميريويذر التي كانت تتميز غيظاً وإهانة، والتي كانت

ساخطة لأنها اضطرت إلى أن تقبل هذا الجميل من رجل كان تكرهه ولا تثق به، فإنها بالكاد بدت لطيفة في تشكراتها له.

غير أن ريت فشل في ملاحظة ذلك، وفيما كان يشيعها إلى الباب، خاطبها قائلاً: «سيدة ميريويذر، إني أكنّ تقديراً عظيماً لمعرفتك دائماً، وإني لأتساءل إذا كان في وسعك أن تخبريني شيئاً؟».

وبالكاد تحرك ريش قبعتها عندما أطرقت برأسها موافقة.

- «ماذا كنت تفعلين عندما كانت ابنتك مايبل صغيرة، تمص إبهامها؟».

- «ماذا؟».

- «إن ابنتي بوني تمص إبهامها، وليس في وسعي أن أوقفها عن تلك العادة».

- «ينبغي أن توقفها» قالت السيدة ميريويذر بحماس، «لأن ذلك سيشوّه شكل فمها».

- «أعرف! أعرف! وإنها تنعم بفم جميل، غير أني لا أعرف ماذا أفعل!».

- «على كل حال، لا بد لسكارلت من أن تعرف» قالت السيدة ميريويذر باقتضاب، «فلقد ربَّت ولدين آخرين».

فأطرق ريت ببصره ناظراً إلى حذائه وتنهد، ثم قال:

- «لقد حاولت أن أضع صابوناً تحت أظافر أصابعها» قال متغاضياً عن عبارتها المتعلقة بسكارلت.

- «صابون! باه! الصابون لا يصلح أبداً. لقد وضعت كينا على إبهام مايبل. ودعني أخبرك يا كابتن باتلر أنها كفت عن مص ذلك الإبهام بسرعة فائقة».

- «كينا، لم أكن لأفكر فيها أبداً! ليس في وسعي أن أشكرك كما ينبغي يا سيدة ميريويذر. لقد كان الأمر يقلقني».

وابتسم لها ابتسامة تنم عن سرور وامتنان عظيمين حتى إن السيدة ميريويذر وقفت هنيهة حائرة. ولكن عندما حيَّته تحية الوداع، كانت تبتسم هي أيضاً. ومقتت أن تعترف للسيدة إلسينغ أنها أساءت الحكم على الرجل، ولكنها كانت إنسانة أمينة، ولذلك قالت إن رجلاً يحب ابنته لا بد أن يتصف بصفة جيدة. وا حسرتاه... إن سكارلت لم تكن تعتني بمخلوقة جميلة كبوني! لقد كان هناك شيء يدعو إلى العطف فيما يتعلق برجل كان يحاول أن يربي فتاة صغيرة بنفسه! وكان ريت يعرف تمام المعرفة، الشجون التي كان يثيرها ذلك المشهد. وإذا كان هذا يسود سمعة سكارلت، فلم يكن هو يبالي بذلك.

ومنذ أن أصبحت ابنته قادرة على المشي، راح يصطحبها معه باستمرار، إما في العربة أو على السرج أمامه. وعندما كان يعود من المصرف إلى البيت بعد الظهر كان يأخذها مشياً في شارع بيتشتري، يمسك بيدها، يخفف من مدى خطواته الطويلة كي تعادل خطواتها القصيرة، ويجيب بصبر على أسئلتها العديدة. وكان الناس يجلسون دائماً في ساحات بيوتهم الأمامية أو في الشرفات عند الغروب، ولما كانت بوني طفلة ودودة جميلة، بجعدات شعرها الأسود المنكوث، وعينيها الزرقاوين اللألاءتين، فإن القليل منهم كان يستطيع مقاومة رغبته في التحدث إليها. ولم يكن ريت يتدخل أبداً في هذه المحادثات، بل كان يقف جانباً، مظهراً كبرياءه الأبوية، وسروره للَّفتة المزجاة لابنته.

كانت أتلانتا تحمل ذكرى طويلة الأمد، وكذلك كانت مرتابة، بطيئة في تغيير رأيها. وكانت الأوقات صعبة، والشعور مريراً ضد أي إنسان كانت له أي علاقة ببولوك وجماعته. غير أن بوني كانت قد ورثت السحر المشترك من سكارلت وريت، في أحسن صفاتهما، ولذا كانت الوتد الصغير الذي دقه ريت في جدار تجرد أتلانتا من العطف عليه.

* * *

كانت بوني تكبر بسرعة. وكان يتضح يوماً بعد يوم أن جيرالد أوهارا كان جدها، إذ كانت لها ساقان قصيرتان مثنيتان، وعينان واسعتان بزرقة إيرلندية، وشدق صغير مربع ينم عن تصميم لتنفيذ مشيئتها. وكذلك كان يميزها احتداد جيرالد الفجائي، الذي وجدت له منفذاً في ثوراتها الزاعقة التي كانت تنسى حالما تشبع رغباتها. وكانت تلك الرغبات تشبع دائماً بسرعة طالما والدها بقربها، والدها الذي كان يفسدها رغم كل جهود مامي وسكارلت، لأن بوني كانت تسره في جميع الصفات، ما عدا صفة واحدة هي خوفها من الظلام.

فإلى أن أصبح عمرها سنتين، كانت تأوي إلى فراشها وهي راضية في غرفة الأطفال التي كان يشاركها فيها ويد وإيلا، ثم ومن دون سبب واضح كانت تشرع في البكاء كلما خرجت مامي متهادية من الغرفة وهي تحمل المصباح. ثم انتقلت المرحلة إلى الاستيقاظ في ساعات الليل الأخيرة وهي تصرخ مذعورة، مفزعة الطفلين الآخرين، مثيرة البيت. ومرة اضطروا إلى استدعاء الدكتور ميد، وتصرف ريت بجفاف معه، عندما شخص الأمر بأنه مجرد أحلام مزعجة وحسب، وكان كل ما يستطيع الإنسان استخراجه من الطفلة المذعورة، كلمة واحدة هي «ظلام».

وأوشكت سكارلت على أن تغتاظ من الطفلة وحبذت معاقبتها بعقاب خفيف، ولم تستطع أن تسايرها بأن تترك مصباحاً مضيئاً في الغرفة، لأن ويد وإيلا لن يستطيعا النوم عندئذ. أما ريت الذي كان منزعجاً، ولكن لطيفاً رغم ذلك، والذي كان يحاول أن يستخرج معلومات أخرى من ابنته، فقد قال ببرود إنه إذا ما نفذ أي عقاب فإنه سيقوم به هو شخصياً، ولسكارلت.

ولكن نتيجة الوضع أن نُقلت بوني من غرفة الأطفال إلى الغرفة التي كان يشغلها ريت وحده الآن، ووضع سريرها الصغير بجانب

سريره الكبير، ووضع على الطاولة مصباح مظلل يضيء طوال الليل.
وضجت المدينة عندما علمت بهذه القصة، فقد كان من غير اللائق أن تنام طفلة في غرفة والدها حتى لو كانت البنت في الثانية من عمرها فقط، وقاست سكارلت من هذه الثرثرة بطريقتين: الأولى لأن ذلك أثبت بصورة لا مراء فيها أنها كانت وزوجها يشغلان غرفتين منفصلتين، الأمر الذي كان بحد ذاته وضعاً مذهلاً جداً، والثانية لأن الجميع فكروا في أنه إذا كانت الطفلة تخاف النوم وحدها، فإن مكانها اللائق هو مع أمها. ولم تشعر سكارلت بأنها أهل لتوضح أنها لا تستطيع النوم في غرفة مضاءة، وأن ريت لن يسمح للطفلة بالنوم معها.

- «إنك لن تستيقظي ما لم تصرخ، وعندئذ من المحتمل أن تصفعيها» قال باقتضاب.

كانت سكارلت منزعجة من الاهتمام الكبير الذي كان ريت يعيره لمخاوف بوني الليلية، ولكنها فكرت أنها تستطيع أخيراً أن تصحح الوضع وتعيد الطفلة إلى غرفتها، فجميع الأطفال كانوا يخافون الظلام، والعلاج الوحيد هو الحزم. لقد كان ريت عنيداً فيما يتعلق بالموضوع، مظهراً إياها أماً فاشلة، فقط لينتقم منها، لأنها أبعدته عن غرفتها.

ولم يكن ريت قد وضع قدماً في غرفتها، أو حتى طرق بابها منذ الليلة التي أخبرته فيها بأنها لا تريد أطفالاً آخرين. فمنذ ذلك الوقت وإلى أن شرع يظل في البيت بسبب مخاوف بوني، كان تغيُّبه عن مائدة العشاء أكثر من حضوره بكثير. وكان أحياناً يظل خارج البيت طوال الليل، وكانت سكارلت، وهي مستلقية يقظى خلف بابها الموصد، تتساءل وهي تسمع الساعة تدق ساعات الصباح الباكرة، أين كان وتتذكر عبارته: «توجد أسرَّة أخرى يا عزيزتي!» ومع أن الفكرة كانت تجعلها تتلوى غيظاً، إلا أنه لم يكن هناك ما تستطيع عمله، بل لم يكن

هناك ما تستطيع قوله مما لا يعجل في حدوث مشهد يعلق فيه ريت حتماً على موضوع بابها الموصد وعلاقة آشلي المحتملة بذلك. أجل، إن سخافته فيما يتعلق بنوم بوني في غرفة مضاءة - في غرفته المضاءة - كانت مجرد أسلوب حقير للانتقام منها.

ولم تتبين سكارلت الأهمية التي كان يعيرها ريت لسخف بوني، ولا تمام حبه للطفلة إلى حين ليلة رهيبة، ليلة لم تنسها العائلة أبداً.

كان ريت قد قابل في ذلك اليوم مهرباً سابقاً، وكان في جعبة الاثنين الكثير ليتحدثا به. ولم تعرف سكارلت أين قصدا للحديث والشرب، ولكنها ارتابت طبعاً ببيت بيل وتلينغ. ولم يعد ريت إلى البيت بعد الظهر، ليصطحب بوني في مسيرتها المعتادة، وكذلك لم يأتِ لتناول العشاء، وكانت بوني قد وضعت أخيراً في سريرها من قِبل لُو وسط العويل والاحتجاج، بعد أن كانت قد راقبت قدوم والدها من النافذة بفراغ صبر، طوال بعد ظهر اليوم، متلهفة لتعرض أمامه مجموعة من الخنافس والصراصير.

إما أن تكون لو قد نسيت أن تضيء المصباح أو أن زيته كان قد نفد. ولم يعرف أحد ما حدث بالضبط، ولكن عندما جاء ريت إلى البيت أخيراً، وكان ثملاً من الشراب، كان البيت في ضجيج. وبلغت مسامع الأب زعقات ابنته حتى وهو في الإسطبل. كانت قد استيقظت في الظلام ونادته، ولم يكن هو هناك، وعندئذ انتابتها جميع المخاوف التي كانت تزدحم في مخيلتها الصغيرة ولم تهدئ روعها جميع الأضواء المتلألئة التي جلبتها سكارلت والخدم، أما ريت الذي صعد الدرجات ثلاث ثلاث، فقد بدا كرجل شاهد الموت بأم عينه.

وعندما ضمَّها أخيراً بين ذراعيه، وميز بين لهثاتها الناشجة كلمة واحدة فقط هي كلمة «ظلام»، التفت إلى سكارلت والزنوج هائجاً:

- «من الذي أطفأ الضوء؟ من تركها وحيدة في الظلام؟ برسي، سأسلخ جلدك عقاباً على هذا العمل، إنك -».

- «يا للّه يا سيد ريت، لست أنا، إنها لو!».

- «من أجل اللّه يا سيد ريت، إني -».

- «إخسئي، إنك تعرفين أوامري. واللّه سوف - اخرجي، لا تعودي. سكارلت، أعطيها بعض النقود، وتأكدي من ذهابها قبل أن أنزل إلى الطابق السفلي. والآن ليخرج الجميع، الجميع!».

هرب الزنوج، وراحت لو التعسة تولول في ميدعها، ولكن سكارلت ظلت في الغرفة. كان من المؤلم أن ترى طفلتها العزيزة تهدأ بين ذراعي ريت. بينما كانت قد زعقت بصورة محزنة بين ذراعيها. كان من المؤلم أن ترى الذراعين الصغيرتين تلتفان حول عنقه، وتسمع الصوت المختنق يروي ما كان قد أفزعها بينما لم تحصل هي منها على أي سرد متصل لذلك.

- «إذن كان يجلس على صدرك» قال ريت برقّة، «أكان كبيراً؟».

- «ها أجل، كبيراً للغاية، وذا مخالب».

- «ها، مخالب أيضاً. حسناً، اسمعي: سأظل مستيقظاً طوال الليل حتماً، وأقتله إذا هو عاد». كان صوت ريت ينم عن اهتمام وتطمين، ولذا تلاشت شهقات بوني، كما أن صوتها أضحى أقل اختناقاً عندما استمرت في وصف مسهب لضيفها الوحش بلغة لم يكن يفهمها سواه. وتحرك الغيظ في سكارلت عندما راح ريت يبحث الموضوع كما لو أنه كان شيئاً حقيقياً.

- «من أجل اللّه يا ريت».

ولكنه أشار إليها أن تصمت. وعندما أغرقت بوني في النوم أخيراً، أضجعها في سريرها وغطاها بالشرشف.

- «سأسلخ جلد تلك الزنجية وهي حية» قال بهدوء، «إنها غلطتك أيضاً، لماذا لم تصعدي إلى هنا لتري ما إذا كان المصباح مضاء».

- «لا تكن أحمق يا ريت» همست، «إن هذا ينتابها لأنك تدللها، فكثير من الأطفال يخافون الظلام، ولكنهم يتغلبون على ذلك الخوف. لقد كان ويد يخاف الظلام ولكنني لم أدلله. ولو تركتها تصرخ ليلة أو ليلتين -».

- «اتركها تصرخ!» ولهنيهة فكرت سكارلت أنه كان سيضربها، «إما أنك غبية أو أنك أقسى امرأة رأتها عيناي».

- «إني لا أريدها أن تصبح نزقة جبانة».

- «جبانة! يا للجحيم! لا يوجد عظمة جبانة في جسدها! ولكنك لا تملكين أي تصور، وطبعاً لا تستطيعين تقدير آلام الناس الذين ينعمون بتلك المزية - خصوصاً الأطفال. إذا جاء شيء بقرون ومخالب وجلس على صدرك، فستخبرينه أن يبتعد عنك إلى الجحيم، أليس كذلك؟ ستفعلين ذلك كالشياطين! أرجوك أن تتذكري يا سيدة أني رأيتك تستيقظين وأنت تصيحين كقطة تحترق، فقط لأنك حلمت بأنك كنت تركضين وسط الضباب. ولم يكن ذلك منذ زمن طويل أيضاً».

فبغتت سكارلت لأنها لم تكن ترغب أبداً في أن تفكر في ذلك الحلم. وأكثر من ذلك، لقد ضايقها أن تتذكر أن ريت كان قد واساها بالأسلوب ذاته الذي واسى بوني به، ولذلك اندفعت بسرعة إلى هجوم مختلف «إنك تدللها وحسب».

- «وإني مصمم على أن أستمر في تدليلها لأني إذا فعلت ذلك، فستغدو أكبر من هذا الأمر، وستنساه».

- «إذن» قالت سكارلت بحدة، «إذا كنت مصمماً على أن تقوم بدور مربية يمكنك أن تأتي إلى البيت في الليالي وصاحياً أيضاً، خلافاً لما أنت عليه».

- «سآتي إلى البيت باكراً، ولكن ثملاً كعاهرة أصيلة في العهر، إذا ما راقني ذلك».

وفعلاً صار يأتي إلى البيت باكراً منذ ذلك الحين، يصل قبل موعد نوم بوني ببرهة طويلة، فيجلس إلى جانبها، ويمسك بيدها إلى أن يفك النوم قبضتها، وعندئذ فقط، يخطو على رؤوس أصابعه نازلاً إلى الطابق السفلي، تاركاً المصباح يشع لألاء والباب مورورباً كي يمكن سماعها إذا هي استيقظت وانتابها الذعر. لقد صمم على أن لا يعاودها الخوف من الظلام ثانية. وهكذا أصبح جميع أفراد البيت متنبهين إلى المصباح المضاء. وكان كل من سكارلت ومامي وبرسي وبورك، يتسلل مراراً إلى الطابق العلوي ليتأكد من أن المصباح ما زال مضيئاً.

وكان يأتي إلى البيت صاحياً كذلك، ولكن ذلك لم يكن بفضل سكارلت أبداً، إذ كان قد أدمن على الشراب طوال شهور، مع أنه في الحقيقة لم يكن يسكر مطلقاً. وذات مساء، كانت رائحة الويكسي قوية في نفسه بصورة غريبة، وتناول بوني مطوحاً بها إلى كتفه، وسألها: «هل لديك قبلة لحبيب قلبك؟».

ولكنها جعدت أنفها الصغير المشمخر، وتلوَّت لتنزل من بين ذراعيه.

- «لا» قالت بصراحة، «رديء».

- «أنا، ماذا؟».

- «رائحتك رديئة، آشلي رائحته ليست رديئة».

- «صحيح، ليلعنني الله» قال آسفاً، ووضعها على الأرض، «إني لم أتوقع أبداً أن أجد محامياً عفيفاً في بيتي من بين جميع الأماكن».

ولكن منذ ذلك الحين، قصر مشروبه على كأس خمر بعد العشاء. ولم تكن بوني، التي كان يسمح لها دائماً بأن ترتشف النقاط الأخيرة في الكأس، تعتقد أن رائحة الخمر رديئة أبداً. وكنتيجة لذلك، فإن

التورم الذي بدأ يخفي معالم وجنتيه، شرع يتلاشى ببطء الآن، كما أن الدوائر المحيطة بأسفل عينيه السوداوين لم تعد عميقة منفرة. ولأن بوني كانت تحب أن تركب على مقدمة سرجه، راح يظل خارج البيت وقتاً أطول من السابق، وهكذا أخذت لفحة الشمس تزحف عبر وجهه الأسمر جاعلة سمرته أشد من قبل. وكذلك كان يبدو أجود صحة ويضحك أكثر من السابق. وبدا ثانية كالمهرب المثير الشاب الذي كان قد أثار أتلانتا في بداية الحرب.

وصار الناس الذين لم يكونوا يحبونه أبداً، يبتسمون عندما يمر بجانبهم، والطفلة الصغيرة جاثمة أمامه على السرج. وبدأت النسوة اللواتي كنّ حتى الآن يعتقدن أن أية امرأة لا يمكن أن تكون آمنة معه، يقفن ويتحدثن إليه في الشوارع ليطرين بوني. حتى السيدات العجائز المتعنتات كنّ يشعرن بأن رجلاً كان في وسعه أن يبحث في علل ومشاكل الطفولة، كما كان هو يفعل، لا يمكن أن يكون رديئاً كلية.

53

كان ذلك في عيد ميلاد آشلي، وكانت ميلاني تعدّ له حفلة مفاجئة في تلك الليلة. وكان الجميع يعلمون بأمر الحفلة ما عدا آشلي. حتى ويد وبو الصغيران عرفا وأقسما على الكتمان، الأمر الذي جعلهما ينتفخان زهواً. وكان كل إنسان فاضل في أتلانتا قد دعي إلى الحفلة وينتظر قدومه. فالجنرال غوردون وعائلته قبلوا الدعوة بامتنان، وألكسندر ستفنسن كان ينتظر قدومه إذا ما سمحت له صحته المضطربة أبداً، وحتى بوب تومبس، طائر نوء الحلف، كان يتوقع حضوره.

وطوال ذلك الصباح، كانت سكارلت وميلاني وإنديا والعمة بيتي، يهرعن في أنحاء البيت الصغير، يوجهن الزنجيات وهنّ يعلقن الستائر المغسولة والمكوية حديثاً ويلمعن الأواني الفضية ويشمعن الأرض ويطبخن ويحركن ويذقن المرطبات. ولم تكن سكارلت قد رأت ميلاني منفعلة أو مسرورة على مثل هذه الصورة.

- «إنك ترين أن آشلي العزيز لم ينعم بحفلة ميلاد منذ - منذ - إنك تتذكرين الباربكيو في تولف أوكس؟ اليوم الذي سمعنا فيه عن دعوة السيد لينكولن المتطوعين للخدمة؟ الواقع أنه لم ينعم بحفلة ميلاد منذ ذلك الوقت. إنه يشتغل بجد كبير ويكون تعباً جداً عندما يعود إلى البيت ليلاً بحيث إنه لم يفكر في الحقيقة أن هذا اليوم هو يوم ميلاده. أو أنه لن يدهش بعد العشاء عندما يتدفق الجميع!»

- «كيف ستضعين تلك القناديل على المرجة دون أن يستطيع السيد ويلكس رؤيتها عندما يأتي لتناول العشاء؟» سأل آرشي بحدة.

كان قد جلس طوال الصباح يراقب الاستعدادت مسروراً، ولكن كارهاً أن يعترف بسرور، إذ لم يحدث أن كان يوماً وراء الستار في حفلة أهل مدينة كبيرة، ولذلك كانت هذه التجربة جديدة بالنسبة إليه. فراح يتفوّه بعبارات صريحة عن كيف أن النساء كن يجرين كما لو أن البيت كان يحترق، فقط لأنهن كن يعددن للحفلة، على أن الخيول البرية لم تكن لتجرّه بعيداً عن المشهد، فالقناديل الورقية الملوثة، التي صنعتها وطلتها السيدة إلسينغ وفاني من أجل هذه المناسبة، كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة إليه، إنه لم يكن قد رأى «بدعاً» كهذه من قبل، وكانت القناديل مخبأة في غرفته في القبو، وكان قد تفحّصها بدقة.

- «يا للرحمة! لم أفكر في ذلك» صاحت ميلاني، «آرشي ما أحسن ذكرك لهذا الأمر. يا للّه، ماذا سأفعل؟ ينبغي أن تعلق على الشجيرات والأشجار، وتوضع فيها شموع صغيرة وتضاء في الوقت المعين، عند قدوم الضيوف. سكارلت، هل تستطيعين إرسال بورك كي يقوم بذلك، نحن ونتناول العشاء؟».

- «سيدة ويلكس، إنك تملكين من الإدراك أكثر من أي امرأة أخرى، ولكنك ترتبكين بسهولة فائقة» قال آرشي، «أما بخصوص ذلك الزنجي الأبله بورك فإنه لا يحسن صنعاً بتلك البدع، بل إنه سيحرقها فوراً. إنها جميلة جداً» قال، «سأعلقها لك أثناء تناولك العشاء والسيد ويلكس».

- «ها يا آرشي، ما ألطف ذلك منك!» وصوبت ميلاني إليه نظرات امتنان واتكال كنظرات الأطفال:

- «إني لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك. هل تظن أن في

وسعك أن تذهب وتضع الشموع فيها الآن، كي تنهي ذلك العمل الكبير وتزيحه من طريقنا؟».

- «لا بأس، ربما أستطيع ذلك» قال آرشي بجفاء، ومشى تجاه درجات القبو.

- «يوجد طرق لقتل القط أكثر منها لخنقه بالزبدة» قهقهت ميلاني عندما كان الرجل العجوز ذو الشاربين قد نزل الدرج، «كنت قد عزمت منذ البدء على أن يضع آرشي هذه القناديل، ولكنك تعرفين طبعه، إنه لا يفعل شيئاً إذا لم تطلبي منه فعله، وها نحن الآن قد أبعدناه من تحت قدمنا لهنيهة. إن الزنوج يخافونه كثيراً، بحيث إنهم لن يعملوا أي عمل عندما يكون على مقربة منهم، يتنفس فوق رقابهم».

- «ميلي، لن آوي ذلك الوبش العجوز في بيتي» قالت سكارلت بفظاظة. كانت تكره آرشي بقدر ما كان يكرهها هو، ونادراً ما كانا يتبادلان الكلام. وكان بيت ميلاني المكان الوحيد الذي يظل آرشي فيه إذا ما وجدت سكارلت، وحتى في بيت ميلاني، كان يرمقها بارتياب وازدراء بارد، «سيسبب لك متاعب. تذكّري كلماتي».

- «ها، إنه لا يؤذي إن أنت أطريته وتصرفت كأنك تعتمدين عليه» قالت ميلاني، «كما أنه مخلص جداً لآشلي وبو، حتى إني أشعر دائماً بأمان لوجوده بقربي».

- «تعنين أنه مخلص جداً لك يا ميلي» قالت إنديا ووجهها مرتخ في ابتسامة تحمل بعض الدفء، بينما كانت نظرتها تستقر بمودة على زوجة شقيقها، «إني أعتقد أنك أول شخص أحبه ذلك الوغد العجوز، بعد زوجته... أجل بعد زوجته. كما أني أعتقد أنه يرغب في أن يهينك أحدهم كي يستطيع قتله ليظهر احترامه لك».

- «يا للرحمة! كيف أنك تتابعين حديثك يا إنديا!» قالت ميلاني

ووجهها يحمر خجلاً، «إنه يعتقد أني أوزة جبانة للغاية، وأنت تعرفين ذلك».

- «الواقع أني لا أرى أن ما يفكر فيه ذلك التيس الجبلي النتن هو ذو أهمية» قالت سكارلت فجأة، ذلك أن مجرد التفكير في كيف أن آرشي كان قد انتقدها في موضوع الأشقياء كان يثير حنقها، «عليَّ أن أذهب الآن. لا بد لي من أن أذهب إلى تناول الغداء، ثم أذهب إلى المخزن لأدفع أجور الكتبة، ثم إلى مستودع الخشب كي أدفع الأجور للسواقين ولهيو إلسينغ».

- «ها، هل ستذهبين إلى مستودع الخشب؟» سألت ميلاني، «سيأتي آشلي إلى المستودع في وقت متأخر من بعد ظهر هذا اليوم، ليقابل هيو، فهل في وسعك إبقاؤه هناك حتى الساعة الخامسة؟ لأنه إذا جاء إلى البيت قبل ذلك الوقت، فمن الأكيد أنه سيكشفنا ونحن ننجز صنع كعكة أو شيء آخر، وعندئذ لن يفاجأ أبداً».

ابتسمت سكارلت في سرّها، وقد استعادت مزاجها الطيب.

- «أجل سأبقيه» قالت.

وبينما كانت تتكلم، قابلت عينا إنديا الشاحبتان العديمتا الرموش عينيها بنظرات نفاذة. إنها دائماً تنظر إليّ نظرات غريبة جداً عندما أتكلم عن آشلي، فكرت سكارلت.

- «حسناً، أبقيه أطول مدة تستطيعينها بعد الساعة الخامسة» قالت ميلاني، «ثم ستركب إنديا إليكما وتأتي به. . . سكارلت تعالي باكراً هذه الليلة، فأنا لا أريد أن تفوتك دقيقة من هذه الحفلة».

وبينما كانت سكارلت تركب إلى البيت، فكرت فجأة «إنها لا تريد أن تفوتني دقيقة من الحفلة، إيه؟ إذن، لماذا لم تدعُني لأقوم بالاستقبال معها وإنديا والعمة بيتي؟».

لم تكن سكارلت عموماً لتهتم سواء أقامت بالاستقبال في حفلات

ميلي التافهة، أم لم تقم، ولكن هذه كانت أكبر حفلة أقامتها ميلاني، وحفلة ميلاد آشلي كذلك. وكانت سكارلت تتوق لتقف إلى جانب آشلي وتستقبل الضيوف معه. بيد أنها كانت تعرف سبب عدم دعوتها للقيام بواجب الاستقبال، وحتى لو لم تكن تعرفه، فإن تعليق ريت على الموضوع كان صريحاً بما فيه الكفاية.

- «أيقوم سكالاواغي بالاستقبال في الوقت الذي سيكون هناك جميع الديمقراطيين السابقين البارزين! إن آراءك مذهلة كما هي مشوشة، وإن دعوتك إنما تمت بفضل إخلاص السيدة ميلي فقط».

ارتدت سكارلت ثيابها بعد ظهر ذلك اليوم باهتمام أكثر من المعتاد من أجل رحلتها إلى المخزن ومستودع الخشب، ولذلك لبست ثوب التفتا الأخضر القاتم المتموج الذي كان يبدو بنفسجياً في بعض الأضواء. ثم وضعت على رأسها القبعة الخضراء الفاتحة الجديدة المحاطة بريش أخضر قاتم. لو أن ريت يدعها تقص خصلات شعرها وتجعدها متدلية على جبينها، عندئذ كم تكون هذه القبعة تبدو أجمل مما هي عليه الآن! ولكن ريت كان قد صرح بأنه سيحلق جميع شعر رأسها إن هي قصت خصلات شعرها الأمامية. وكان ريت هذه الأيام يتصرف تصرفاً شنيعاً جداً، بحيث كان من الممكن أن ينفّذ وعيده فعلاً.

كانت أمسية جميلة، مشمسة، ولكن ليست حارة جداً، مشرقة ولكن ليست متوهجة. وكان النسيم الدافئ الذي يخفق بأوراق الشجر في شارع بيتشتري يرقص ريش قبعة سكارلت. وكان قلبها يرقص كذلك، شأنه دائماً عندما تكون ذاهبة لرؤية آشلي، ربما إن هي دفعت أجور فريق السواقين وهيو باكراً، فسينصرفون إلى بيوتهم ويتركونها وآشلي وحيدين في المكتب المربع الصغير، وسط مستودع الأخشاب، خصوصاً أن فرصة رؤية آشلي وحيداً كانت نادرة جداً هذه الأيام.

ولتفكر أن ميلاني كانت قد طلبت منها أن تبقيه! لقد كان ذلك مضحكاً!

كان قلبها فرحاً عندما بلغت المخزن. ودفعت الأجرة لويلي والمحاسبين الآخرين حتى دون أن تسأل كيف كان عمل اليوم، مع أن اليوم كان يوم السبت، أهم أيام الأسبوع بالنسبة إلى المخزن، لأن جميع المزارعين كانوا يؤمون المدينة ليبتاعوا فيه، غير أنها لم تسأل أي سؤال.

وعلى طول الطريق إلى المستودع، وقفت عشر مرات لتتحدث إلى سيدات كاربت بكرز في حلل فاخرة - ليست فاخرة كحلّتها فكرت بسرور - كما أنها تحدثت مع رجال كانوا يأتون خلال غبار الشارع الأحمر، ليقفوا ويطروها وقبعاتهم في أيديهم. لقد كانت أمسية جميلة، وكانت هي سعيدة. لقد كانت تبدو رائعة، وكان سيرها ملكياً.

وبسبب هذه التأخيرات، وصلت إلى مستودع الخشب متأخرة عن الوقت الذي كانت قد عزمت على أن تصل فيه. . . وهناك وجدت هيو وفريق السواقين جالسين في انتظارها على كومة أخشاب منخفضة.

- «هل آشلي هنا؟».

- «أجل، إنه في المكتب» قال هيو وقد غادر وجهه التعبير القلق المعتاد، عندما رأى عينيها السعيدتين الراقصتين.

- «إنه يحاول أن، أعني أنه يراجع دفاتر الحساب».

- «ليس به حاجة إلى أن يزعج نفسه بذلك هذا اليوم» قالت ثم خفضت صوتها، «لقد أرسلتني ميلي هنا لأبقيه إلى أن يكونوا قد أعدّوا البيت تماماً لحفلة الليلة».

فابتسم هيو لأنه كان سيذهب إلى الحفلة. كان يحب الحفلات وظن أن سكارلت تحبها أيضاً، وذلك من الحالة التي كانت تبدو فيها ذلك المساء. دفعت سكارلت للسواقين ولهيو أجورهم وتركتهم فجأة،

ثم مشت تجاه المكتب بعد أن أظهرت بوضوح بواسطة تصرفاتها أنها لم تكن تحفل بأن يرافقها أحد. وقابلها آشلي عند الباب ووقف في ضوء شمس الأصيل، شعره متلألئ، وعلى شفتيه بسمة صغيرة كانت افترارة تقريباً.

- «عجباً يا سكارلت، ماذا تفعلين في المدينة في هذا الوقت من النهار؟ لماذا لست في بيتي، تساعدين ميلي في الإعداد للحفلة المفاجئة؟».

- «ماذا، آشلي ويلكس!» صاحت حانقة، «لم يكن من المفروض أن تعرف شيئاً عنها. سيخيب أمل ميلي كثيراً إن أنت لم تدهش بالمفاجأة».

- «ها إني لن أكشف عن معرفتي، سأكون أكثر الرجال دهشة في أتلانتا». قال آشلي وعيناه تضحكان.

- «والآن من الذي كان وغداً كبيراً فأخبرك؟».

- «في الواقع كل رجل دعته ميلي، والجنرال غوردون كان أولهم. فقد قال إنه كان من اختباراته أن النساء عندما كن يقمن حفلات مفاجئة، فإنهن كن يقمنها عادة في الليالي ذاتها التي كان الرجال يعزمون فيها على مسح كل البنادق الموجودة في البيت وتنظيفها وبعدئذ حذرني الجد ميريويذر فقد قال إن السيدة ميريويذر كانت قد أقامت له حفلة فيما مضى وإنها كانت أكثر الناس دهشة هناك لأن غراندبا كان يعالج روماتيزمه ماكراً بقارورة ويسكي فكان مخموراً جداً لا يسعه مغادرة سريره و - ها، لقد أخبرني كل رجل أقيمت له مرة حفلة مفاجئة».

- «ما أحقرهم!» قالت سكارلت، ولكن كان لا بد لها أن تبتسم.

لقد كان يبدو كآشلي القديم الذي كانت تعرفه في تولف أوكس عندما ابتسم هذه الابتسامة وهو الذي كان يبتسم نادراً هذه الأيام. كان

الهواء منعشاً جداً، والشمس لطيفة للغاية، ووجه آشلي في ذروة البهجة، وحديثه صريحاً تماماً، بحيث إن قلبها ظفر بالسعادة وراح ينتفخ في صدرها إلى أن صار فعلاً يؤلمها بسرور، يؤلمها كأنه يحمل عبئاً من الدموع المبهجة الحارة غير المنزوفة. وفجأة أحست أنها في السادسة عشرة ثانية وبأنها سعيدة.

وانفعلت واحتبس نَفَسها قليلاً، وراودتها رغبة مجنونة في أن تنتزع قبعتها وتقذفها في الهواء وتصيح «مرحى!» ثم فكرت كم أن آشلي سيجفل إن هي نفذت رغبتها، وضحكت فجأة، ضحكت إلى أن اغرورقت عيناها بالدموع، وضحك هو أيضاً ملقياً رأسه إلى الوراء، كما لو أنه كان يستمتع بالضحك، معتقداً أن فرحتها ناجمة عن الخيانة الحبية التي اقترفها الرجال الذين فضحوا سر ميلي.

- «ادخلي يا سكارلت، إني أراجع دفاتر الحساب».

فدخلت إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تتألق بشمس الأصيل، وجلست على كرسي أمام المكتب المنحدر السطح، بينما جلس آشلي، الذي تبعها، على زاوية الطاولة الخشبية، وتدلت ساقاه الطويلتان بسهولة.

- «ها، لا تدعنا نفسد وقتنا بأي دفاتر هذه الأمسية يا آشلي! فإني لا يمكن أن أدع نفسي تزعج عندما أكون مرتدية قبعة جديدة، إذ يبدو لي آنئذ أن جميع الأرقام التي أعرفها تغادر رأسي».

- «الأرقام تفتقد جيداً عندما تكون القبعة رائعة كتلك» قال، «سكارلت، إنك تزدادين جمالاً يوماً بعد يوم!».

ونزل عن الطاولة وأخذ يديها ثم أوسع ما بينهما ليتأمل ثوبها جيداً. «إنك جميلة جداً! إني لا أعتقد أنك ستشيخين»، وعلى أثر ملامسته لها، أدركت دون أن تكون واعية ذلك، أنها كانت قد تلهفت على حدوث هذا الشيء طوال هذه الأمسية السعيدة. كانت قد تاقت

إلى دفء يديه، وحنان عينيه، وكلمة ترى أنه كان يحفل بها. كانت هذه هي المرة الأولى التي ينفردان بها تماماً منذ ذلك اليوم البارد في بستان تارا، المرة الأولى التي تلتقي فيها أيديهما في حركات بعيدة عن الرسمية، وكانت سكارلت خلال الشهور الطويلة، قد تحرقت إلى لقاء أقرب، ولكنها الآن. . .

ما أغرب أن لا تثيرها لمسة يديه! في الماضي كان مجرد قربه منها يوقعها في الرجفة، بينما كانت تشعر الآن برضى ودود دافئ غريب وحسب، ولم تثب أية حمى من يديه إلى يديها، وكذلك استكان قلبها بين يديه في صمت سعيد، الأمر الذي حيرها وأربكها قليلاً. كان لا يزال آشليها، لا يزال حبيبها المشرق اللألاء، وكانت تحبه أكثر من الحياة، وإذن فلماذا. . .

ولكنها أبعدت الفكرة عن عقلها، كان يكفي أنها كانت معه وأنه كان يمسك بيديها ويبتسم بوداد تام ومن دون جهد أو حمى. وعندما فكرت في كل الأشياء غير المعقولة بينهما، بدا إمكان هذا الذي حدث أمراً عجيباً. كانت عيناه تنظران إلى عينيها، عينان صافيتان مشرقتان، تبتسمان بالصورة القديمة التي كانت تحبها، تبتسمان كما لو لم يكن هناك أي شيء بينهما سوى السعادة. لم يكن هناك حاجر بين عينيه وعينيها الآن ولا شرود محير، وضحكت:

- «آه آشلي، إني أكبر وأهرم».

- «ها، إن ذلك واضح جداً! لا يا سكارلت، عندما تكونين في الستين ستبدين الشيء ذاته في نظري، سأتذكرك دائماً كما كنت ذلك اليوم في آخر باربكيو في بيتنا، جالسة تحت سنديانة ودزينة من الشبان حولك. إن في وسعي أن أخبرك ماذا كنت تلبسين آنذاك: فستاناً أبيض مغطى بأزهار خضراء صغيرة، وشالاً أبيض مزركشاً على كتفيك، وخفَّين أخضرين صغيرين بشرائط سوداء، ثم قبعة قش واسعة ذات

أشرطة خضراء طويلة. إني أحفظ ذلك الثوب عن ظهر قلب، لأني عندما كنت في السجن، وساءت الأمور كثيراً معي، رحت أنبش ذكرياتي وأستعرضها كأنها صور، متذكراً جميع تفاصيلها الصغيرة...».

وصمت فجأة وخفت الضوء المتلهف من وجهه ثم أفلت يديها بلطف، وجلست هي تنتظر، تنتظر كلماته التالية:

- «لقد قطعنا مرحلة طويلة، كلانا، منذ ذلك اليوم، أليس كذلك يا سكارلت؟ لقد اجتزنا طرقاً لم نكن نتوقع اجتيازها. لقد تقدمت أنت بسرعة حازمة، وأنا ببطء وتردد».

وجلس على الطاولة ثانية، ونظر إليها، وثانية زحفت إلى وجهه ابتسامة صغيرة. ولكنها لم تكن الابتسامة التي كانت قد أشعرتها بالسعادة الغامرة منذ برهة وجيزة جداً، لقد كانت ابتسامة كئيبة.

- «أجل لقد تقدمت بسرعة وأنت تجرّينني على دواليب عربتك. إني لأتساءل أحياناً يا سكارلت، بصورة متجردة، عما كان يمكن أن يقع لي من دونك».

فأسرعت سكارلت لتدافع عنه ضد نفسه، أسرعت كثيراً لأنه ارتفع إلى عقلها بصورة خائنة كلمات ريت في هذا الموضوع:

- «ولكني لم أقم بأي شيء من أجلك يا آشلي، فمن دوني كنت ستصل إلى النتيجة ذاتها، وكنت ستصبح ذات يوم رجلاً غنياً، رجلاً عظيماً كما ينتظر أن تكون».

- «لا يا سكارلت، إن بذور العظمة لا تكمن فيَّ أبداً. إني أعتقد أنه لولاك لكنت انحدرت في هوة النسيان... كما حدث لكاثلين كالفرت المسكينة، ولأناس آخرين كثيرين كانت لهم يوماً شهرة قديمة».

- «آه آشلي، لا تتكلم بمثل ذلك. إنك تبدو حزيناً جداً».

- «لا، لست حزيناً، لا أبداً، فيما مضى... فيما مضى كنت حزيناً، أما الآن، فإني فقط...».

وصمت، وأدركت فجأة ماذا كان يفكر، لقد كانت المرة الأولى التي أدركت فيها بماذا كان آشلي يفكر، عندما كانت عيناه تتجاوزانها وهما شاردتان صافيتان كالبلور. فحينما كانت ثورة الحب تخفق في قلبها، كان عقله قريباً منها، والآن، وفي المودة الصامتة التي كانت تكمن بينهما، استطاعت سكارلت أن تتوغل قليلاً في عقله، وتفهم بعض الفهم أنه لم يعد حزيناً. لقد كان حزيناً بعد الاستسلام، حزيناً عندما رجته أن يأتي إلى أتلانتا أما الآن فقد كان مستسلماً وحسب.

- «إني أمقت أن أسمعك تتحدث بمثل ذلك يا آشلي» قالت بحدة، «إنك تبدو كريت تماماً. فهو دائماً يعزف على ألحان كذلك اللحن، ويردد شيئاً يدعوه «بقاء الأصلح» إلى أن أغدو متضايقة جداً بحيث أكاد أصرخ» فابتسم آشلي.

- «هل اتفق لك يا سكارلت أن توقفت لتفكري أنني وريت متشابهان في النواحي الأساسية؟».

- «ها، لا! إنك رجل فاضل شريف جداً، وهو...» وصمتت مرتبكة.

- «لا، إننا متشابهان. لقد انحدرنا من النوع ذاته من الناس، ونشأنا على النسق ذاته، وربينا لنفكر في الأشياء ذاتها. وفي مكان ما على الطريق، اتخذنا منعطفين مختلفين، إننا ما زلنا متماثلين في التفكير ولكننا نتفاعل مع أفكارنا بطريقتين مختلفتين. وكمثل على ذلك: لم يكن أي منا يؤمن بالحرب، ولكن تطوعت وحاربت، بينما ظل هو بعيداً حتى النهاية تقريباً. وكذلك كان كلانا يعرف أن الحرب كانت خطأً بكليتها، وأنها كانت قتالاً خاسراً، ولكني كنت راضياً في أن

أخوض قتالاً خاسراً، بينما لم يكن هو كذلك. إني أفكر أحياناً أنه كان على صواب، ولكن أعود بعدئذ...».

- «ها آشلي، متى ستكف عن رؤية كلا جانبي المشاكل؟» سألت ولكنها لم تتحدث بجزع كما كان ينتظر أن تفعل فيما مضى، «فلن يصل أي إنسان إلى أي نقطة وهو يرى كلا الجانبين».

- «تلك حقيقة، ولكن... يا سكارلت لقد تساءلت مراراً أين تريدين الوصول بالضبط؟ فأنا لم أرد يوماً الوصول إلى أي نقطة أبداً، وكل ما أردته هو أن أكون نفسي».

أين تريد الوصول؟ كان ذلك سؤالاً غبياً. إلى المال والأمان طبعاً. ومع ذلك... وارتبك عقلها. كانت تملك مالاً وأماناً إلى الحد الذي يستطيع أي إنسان أن يرجوه في دنيا عديمة الأمان. ولكنها الآن وقد فكرت في الأمر، لم تجد أن هذين الطلبين كافيان تماماً، والآن وقد فكرت في الأمر، لم يشعرها هذان الهدفان بالسعادة بصورة خاصة، مع أنهما كانا قد جعلاها أقل انزعاجاً، وأقل خوفاً من الغد. لو أني أملك مالاً وأملكك أنت... فتلك ستكون النقطة التي أردت بلوغها، فكرت وهي تنظر إليه بلهفة، ولكنها لم تنطق الكلمات، وقد خافت أن تكسر التعويذة التي كانت تكمن بينهما، خافت من أن ينغلق عقله دونها.

- «إنك تريد أن تكون نفسك فقط» ضحكت آسفة بعض الأسف، «إن عدم كوني نفسي كان دائماً أكثر مشاكلي صعوبة! أما بالنسبة إلى أين أريد أن أصل، فالواقع أني أظن أني وصلت هناك... لقد كنت أريد أن أكون غنية وآمنة و...».

- «ولكن، سكارلت، لم يخطر لك يوماً أني لا أحفل سواء أكنت غنياً أم لم أكن؟».

لا لم يخطر لها أبداً أن أي إنسان يمكن ألّا يرغب في أن يكون غنياً. . .

- «إذن ماذا تريد؟».

- «إني لا أعرف الآن. لقد كنت أعرف فيما مضى، غير أني نسيت نصف ما كنت أعرف. إن أكثر ما كنت أريده هو أن أكون وحيداً، أن لا أكون مزعجاً من قبل الناس الذين لا أحبهم، أو منقاداً لفعل أشياء لا أريد فعلها. ربما. . . أريد عودة الأيام القديمة التي لن تعود، الأيام التي تنتابني ذكراها، وذكرى العالم الذي ينهار أمام ناظري».

فقلبت سكارلت شفتيها بعناد، ولم يكن سبب ذلك أنها لم تفهم ما عناه، إذ إن مجرد أنغام صوته استدعت الأيام الأخرى بصورة لا يستطيعها أي شيء آخر، وجعلت قلبها يتألم فجأة، حين عاودتها الذكرى هي أيضاً. ولكنها منذ اليوم الذي كانت قد استلقت فيه مريضة، وحيدة في حديقة تولف أوكس، وقالت: «إني لن أنظر إلى الوراء» كانت قد وجهت وجهها عكس ناحية الماضي.

- «إني أحب هذه الأيام أكثر» قالت، ولكنها لم تقابل عينيه عندما تكلمت. «يوجد أشياء مثيرة الآن، حفلات وما شاكلها. وكل شيء له بريق جذاب. بينما كانت الأيام القديمة باهتة جداً. (أيام خاملة، وأغساق قروية دافئة ساكنة! والضحك الناعم المتعالي من الأطراف، والحياة الذهبية الدافئة التي كنت أحياها آنئذ، والمعرفة المطمئنة بكل ما سيجلبه الغد! كيف أستطيع أن أنكرك؟).

«إني أحب هذه الأيام أكثر» قالت، ولكن صوتها كان مرتعشاً.

وانزلق عن الطاولة وهو يضحك ضحكة ناعمة، يضحك وهو غير مصدق قولها، ثم وضع يده تحت ذقنها، ورفع وجهها ليقابل وجهه:

- «ها، سكارلت، يا لك من كذابة مسكينة! أجل إن للحياة بريقاً

الآن. . . بريقاً من نوع خاص، وذلك هو العي فيها، بينما لم يكن هناك بريق للأيام القديمة، إلا أنها كنت تزدهي بسحر وجمال، بصخب بطيء الخطى».

فاندفع عقلها في طريقين، وغضّت بصرها. كان وقْعُ صوته ولمسة يديه بابين غير موصدين، كانت قد أوصدتهما إلى الأبد. وخلف ذينك البابين، كان يكمن جمال الأيام القديمة التي كان جوع حزين لها يتفجر داخلها. ولكنها كانت تعرف أنه مهما كان الجمال الذي كان يكمن خلف البابين، فلا بد له من أن يظل هنالك، وليس في وسع أي إنسان أن يتقدم من البابين بحمل من الذكريات المؤلمة.

وهوت يده عن ذقنها، وتناول إحدى يديها بين يديه.

- «أتذكرين؟» قال. . . وقرع جرس محذر في عقلها يقول: لا تنظري إلى الوراء! لا تنظري إلى الوراء!

ولكنها سرعان ما أهملته، واندفعت إلى الأمام على موجة من السعادة. لقد فهمت أخيراً. لقد كانت هذه اللحظة ثمينة جداً، بحيث ينبغي ألّا تضيع، مهما تبعها من ألم.

- «أتذكرين؟» قال، وتحت تأثير تعويذة صوته، بهت لون جدران المكتب الصغير العارية وتتابعت السنين جانباً، ورأت شخصيهما يركبان معاً عبر دروب الجبل الريفية في نزهة ربيعية طويلة. وبينما كان يتكلم اشتدت القبضة الخفيفة على يدها، وخامر صوته السحر الحزين، سحر الأغاني نصف المنسية. واستطاعت سكارلت سماع صليل عدة السرج المطربة وهما يركبان تحت أشجار الدكوود إلى وليمة آل تارلتون، وسماع ضحكها المستهتر آنذاك، ورؤية الشمس تتلألأ على شعره الفضي المذهب، وملاحظة الرشاقة البهية البسيطة التي جلس فيها على حصانه. لقد كان يشوب صوته موسيقى القيثارات والبانجوات التي رقصوا على أنغامها في البيت الأبيض الذي لم يعد في الوجود.

وكان هناك عواء كلاب ناحب بعيد في الهور المعتم في أظهار الخريف الباردة ورائحة طاسات البيرة، تكتنفها أشجار الميلاد في عيد الميلاد، وابتسامات تعلو الوجوه السوداء والبيضاء، وأصدقاء قدامى عائدون زرافات زرافات، يضحكون كأنهم لم يكونوا في عداد الأموات طوال هذه السنين الطويلة: ستيوارت وبرنت بسيقانهما الطويلة وشعرهما الأحمر ودعاباتهما العملية، توم وبويد الجامحان كحصانين فتيين، جو فونتين بعينيه السوداوين، ثم كيد وريفورد كالفرت اللذان كانا يتحركان برشاقة فاترة، وكان هناك جون ويلكس أيضاً، وجيرالد، محمر الوجه من البراندي، وإيلين متمثلة بالهمس والعطر. وفوق المنظر كله، استقر إحساس بالأمان، معرفة أن الغد لن يستطيع أن يجلب السعادة ذاتها التي جلبها الحاضر.

وسكت صوته، وتبادلا النظرات هنيهة طويلة صامتة، وبينهما كان يكمن الشباب الوضاء الضائع الذي كانا قد تقاسماه من دون تفكير.

«إني أعرف الآن لماذا لا يسعك أن تكون سعيداً» فكرت محزونة. «في الماضي، كان مجرد قربه منها يوقعها في ذلك قبلاً. لم أكن أفهم قبلاً، لماذا لم أكن أنا أيضاً سعيدة. ولكن... عجباً، إننا نتحدث كما يتحدث المسنون!» فكرت بدهشة كئيبة. «المسنون الذين يتطلعون إلى الوراء خمسين سنة، ونحن لسنا مسنين! وإنما القضية أن أموراً كثيرة حدثت خلال سني عمرنا، وأن كل شيء قد تغير تغيراً كبيراً جداً بحيث يبدو كأنه قد مضى علينا خمسون عاماً. ولكننا لسنا مسنين!».

ولكنها عندما نظرت إلى آشلي رأت أنه لم يعد فتياً مشرق الوجه، كان رأسه منحنياً وهو ينظر شارداً إلى يدها التي ما انفك يمسك بها. ورأت أن الشعر اللألاء في الماضي غدا رمادياً إلى حد بعيد، رمادياً فضياً كضوء القمر في الماء الساكن. وكان الجمال الوضاء قد غاض

تقريباً من بعد ظهر أبريل، ومن قلبها كذلك، وغدت عذوبة الذكرى المحزونة مريرة كالعلقم.

«ينبغي ألّا أدعه يجعلني أنظر إلى الوراء» فكرت بيأس، «لقد كنت مصيبة عندما قلت إني لن أنظر إلى الوراء أبداً. إن النظر إلى الوراء يضر كثيراً. إنه يشد قلب المرء حتى لا يستطيع أن يفعل أي شيء سوى النظر إلى الوراء. وتلك هي مشكلة آشلي. إنه لم يعد يستطيع أن ينظر إلى الأمام، إنه لا يستطيع أن يرى الحاضر، إنه يخاف المستقبل، ولذلك ينظر إلى الوراء، هذا ما لم أكن أفهمه من قبل، بل إني لم أكن أفهم آشلي من قبل. آه، آشلي حبيبي ينبغي ألّا تنظر إلى الوراء! فأي نفع سيُجديك ذلك؟ ينبغي ألّا أدعك تغريني بالحديث عن الأيام القديمة. إن هذا هو ما يحدث عندما تنظر خلفاً إلى السعادة: هذا الألم، هذه الخيبة وعدم الرضى».

ونهضت على قدميها، ويدها ما انفكت في يده. ينبغي أن تذهب. ليس في وسعها أن تظل هنا وتفكر في الأيام القديمة وترى وجهه متعباً حزيناً كئيباً كما هو الآن.

- «لقد قطعنا طريقاً طويلة منذ تلك الأيام يا آشلي» قالت وهي تحاول أن تهدئ اضطراب صوتها، تحاول أن تقاوم الانقباض في حنجرتها، «كنا ننعم بأفكار جميلة آنئذ، أليس كذلك؟» ثم قالت باندفاع: «آه آشلي، لم يتم شيء كما كنا نتوقع!».

- «لن يتم أبداً» قال، «فالحياة ليس مدينة لنا بشيء، لتمنحنا ما نتوقع، ونحن نأخذ ما نحصل عليه شاكرين كونه ليس أسوأ مما هو عليه».

وفجأة اغتم قلبها بالألم والكلل، وذلك عندما فكرت في الطريق الطويلة التي قطعتها منذ تلك الأيام. وعندئذ ارتفعت في عقلها ذكرى

سكارلت أوهارا التي كانت تحب العشاق والفساتين الجميلة والتي كانت مصممة يوماً ما، عندما يسنح لها الزمن، أن تكون سيدة عظيمة كإيلين.

ومن دون سابق إنذار، سحت الدموع من عينيها، وترقرقت ببطء على وجنتيها، ووقفت تنظر إليه ذاهلة خرساء كطفلة مضطربة متألمة، ولكنه لم ينبس بكلمة، بل أخذها بين ذراعيه بحنان، وضغط رأسها على كتفه، ثم انحنى فوقها، واضعاً وجنته على وجنتها، فارتخت عليه وطوقت ذراعاها جسده، وساعدت طمأنينة ذراعيه على تجفيف دموعها الفجائية. ها، لقد كان من العذب أن تكون بين ذراعيه، من دون انفعال، ومن دون توتر، أن تكون كصديق محبوب. لقد كان آشلي فقط، آشلي الذي شاركها ذكرياتها وشبابها الذي يعرف ماضيها وحاضرها، هو الذي يستطيع أن يفهم.

وسمعت أصوات أقدام من الخارج، ولكن لم تعرها سوى القليل من الاهتمام، إذ ظنت أن السواقين كانوا منصرفين إلى بيوتهم فظلت هنيهة تصغي إلى وجيب قلب آشلي، ولكنه ما عتم أن تملص من بين ذراعيها فجأة. وقد أربكها عنف حركته، فتطلعت إلى وجهه مشدوهة، ولكنه لم يكن ينظر إليها، بل كان ينظر إلى الباب من فوق كتفها.

فالتفتت، وهناك كانت تقف إنديا ممتقعة الوجه، وعيناها الشاحبتان تتألقان، وخلفها كان يقف آرشي، حقوداً كببغاء بعين واحدة، وخلفهما وقفت السيدة إلسينغ.

* * *

لم تتذكر سكارلت مطلقاً كيف خرجت من المكتب، بيد أنها انطلقت فوراً، وبسرعة، تنفيذاً لأمر آشلي، الذي تركته وآرشي في حديث عبوس في الغرفة الصغيرة، بينما ظلت إنديا والسيدة إلسينغ في الخارج، وظهراهما إليها. وحث العار والخوف خطاها إلى البيت،

وفي عقلها كان آرشي بلحيته الجليلة ينتحل صفات الملاك المنتقم المنبعث رأساً من صفحات العهد القديم.

كان البيت شاغراً من الناس، صامتاً في غروب أبريل. وقد ذهب جميع الخدم للاشتراك في جنازة، بينما كان الأطفال يلعبون في ساحة بيت ميلاني الخلفية. ميلاني...

ميلاني! وابتردت سكارلت إثر التفكير فيها وهي تصعد الدرج إلى غرفتها. ستسمع ميلاني بالأمر. لقد قالت إنديا إنها ستخبرها. آه، ستتباهى إنديا بإخبارها دون أن تعبأ إن هي سودت اسم آشلي ودون أن تعبأ إن هي آلمت ميلاني ما دام عملها هذا سيسيء إلى سكارلت. كما أن السيدة إلسينغ ستتكلم أيضاً، حتى مع أنها لم ترَ شيئاً في الحقيقة لأنها كانت تقف خلف إنديا وآرشي في باب مكتب المستودع، ولكنها ستتكلم مع ذلك، وسيعم الخبر المدينة عند وقت العشاء، وسيعرف الجميع حتى الزنوج، عند الفطور غداً. وفي حفلة الليلة، ستتجمع النسوة في الزوايا ويهمسن بحذر وسرور حقود. لقد تدحرجت سكارلت باتلر من مكانتها الرفيعة المكينة! وستكبر القصة وتكبر. ولم تكن توجد طريقة لإيقاف انتشارها وتضخمها. ولن تقف عند الحقيقة المجردة بأن آشلي كان يضمها بين ذراعيه، بينما كانت هي تبكي. وقبل سقوط الليل، سيكون الناس يقولون إنها كانت مغتصبة في حادث زنى، مع أن الحادث كان في غاية البراءة، في غاية العذوبة. وفكرت سكارلت مهتاجة: حبذا لو أننا اكتشفنا في عيد الميلاد ذاك، أثناء إجازته، عندما قبَّلته قبلة الوداع، لو أننا اكتشفنا في البستان في تارا، عندما رجوته أن يهرب معي... آه، لو أننا اكتشفنا في أي من الأوقات الأخرى، عندما كنا آثمين حقاً، لما كان الأمر مؤلماً إلى هذه الدرجة! ولكن الآن! الآن! عندما انجذبت إلى ذراعيه كصديقة...

ولكن أحداً لن يصدق ذلك، ولن تحظى بصديق واحد يقف

بجانبها، ولن يرتفع صوت واحد ليقول: «إني لا أصدق أنها كانت ترتكب عملاً خاطئاً». كانت قد أساءت إلى الأصدقاء القدامى فترة طويلة جداً بحيث لن تجد بطلاً يدافع عنها بينهم الآن. كما أن أصدقاءها الجدد كانوا يعانون إهاناتها صامتين، سيرحبون بفرصة يشتمونها فيها، لا، سيصدق الجميع أي شيء عنها مع أنه يمكن أن يتأسفوا لأن رجلاً فاضلاً كآشلي ويلكس قد اشترك في قضية زرية كهذه. وكما هي العادة سينحون باللائمة على المرأة ويهزون أكتافهم استهجاناً لإثم الرجل. وفي هذه الحالة، سيكونون على حق، لأنها كانت قد اندفعت إلى ذراعية.

ها، إن في وسعها أن تتحمل التجريح والازدراء والابتسامات المكتومة وأي شيء يمكن أن تقوله المدينة إذا ما كان عليها أن تتحمل ذلك... ولكن ليس ميلاني! آه، ليس ميلاني، ولم تعرف لماذا كان ينبغي لها أن تهتم بمعرفة ميلاني للأمر، أكثر من اهتمامها بمعرفة أي إنسان آخر. كانت فزعة جداً، مثقلة بوعيها لإثم قديم بحيث لم تستطع محاولة فهم السبب. ولكنها انفجرت في البكاء عندما فكرت في ما ينتظر أن يكون في عيني ميلاني حين تخبرها إنديا أنها اكتشفت آشلي يحضن سكارلت. وما ينتظر أن تفعله ميلاني عندما تعرف؟ أتترك آشلي؟ أي شيء آخر تستطيع عمله بعزة نفس؟ وماذا سأفعل وآشلي عندئذ؟ فكرت بهوس والدموع تهمي على وجهها. آه سيموت آشلي من العار، وسيكرهني لأني جلبت هذا الشنار عليه. وفجأة انقطعت دموعها عندما اخترق قلبها خوف مميت. وما شأن ريت؟ ماذا سيفعل؟

ربما لن يعرف أبداً، ما هو ذلك المثل القديم «إن الزوج آخر من يعرف دائماً»، ربما لن يخبره أحد، سيتطلب الأمر رجلاً شجاعاً ليفشي نبأ كهذا لريت، لأن ريت كان مشهوراً بأنه يطلق النار أولاً ثم يلقي الأسئلة بعد ذلك، أرجوك يا اللّه لا تدع إنسان يتشجع إلى الحد الذي

يستطيع إخباره فيه! ولكنها تذكرت وجه آرشي في مكتب الخشب، وعينه الشاحبة الباردة. رجل متحجر القلب، مفعم بالكراهية لها ولكل النساء. ولم يكن آرشي يخاف اللّه أو الرجال، وكان يكره النساء المنحلات. لقد كان يكرهن كثيراً إلى حد أنه قتل إحداهن. ولقد قال إنه سيخبر ريت، وسيخبره رغم كل ما يستطيع آشلي عمله ليثنيه عن ذلك. وما لم يقتله آشلي فإن آرشي سيخبر ريت، يملأه الشعور بأن ذلك هو واجبه المسيحي.

ونزعت ثيابها واستلقت على السرير وعقلها في دوامة هائلة. لو أنها تستطيع فقط أن توصد بابها وتقيم هذا المكان الآمن إلى الأبد ولا ترى أي إنسان أبداً. ربما لن يكتشف ريت الأمر هذه الليلة. ستقول إن صداعاً ينتابها وإنها تشعر أن ليس في وسعها الذهاب إلى حفلة، وإلى أن يحين الصباح، تكون قد فكرت في عذر لتتذرع به، بدفاع معقول.

- «لن أفكر فيها الآن» قالت بيأس ودست رأسها في الوسادة، «سأفكر فيها فيما بعد عندما أستطيع احتمالها».

وسمعت الخدم يعودون عندما أرخى الليل سدوله، وبدا لها أنهم كانوا مطبقي الصمت وهم يتحركون في المكان لإعداد العشاء. أو كان ذلك ضميرها الآثم؟ وجاءت مامي إلى الباب وقرعته، ولكن سكارلت صرفتها قائلة إنها لا تريد أي عشاء. ومضى الوقت، وأخيراً سمعت ريت يصعد الدرجات، فثبتت جأشها عندما بلغ القاعة العليا، واستجمعت كل قواها تهيؤاً لمقابلته. ولكنه تجاوز الباب إلى غرفته، فتنفست الصعداء، لم يكن قد سمع بالنبأ بعد، شكراً للّه لأنه ما زال يحترم التماسها بأن لا يطأ غرفتها ثانية، فهو إن رآها الآن، فإن وجهها سيفضح سرها. ينبغي أن تجمع أباديد جأشها لتخبره بأنها تشعر بمرض شديد بحيث لا تستطيع الذهاب إلى الحفلة، لا بأس، إن لديها متسعاً من الوقت لتهدئ روعها، أكان يوجد وقت حقاً؟ منذ اللحظة المفزعة

في تلك الأمسية والحياة تبدو لها لازمنية، ثم سمعت ريت يحوم في غرفته برهة طويلة، ويتحدث إلى بورك من وقت إلى آخر، ولكنها ما زالت عاجزة عن أن تجد الوقت لتدعوه. وظلت مستلقية في الظلمة على السرير، ترتعش صامتة. وبعد مدة طويلة قرع باب غرفتها، فأجابت وهي تحاول السيطرة على صوتها:

- «هل أنا أدعى إلى دخول المعبد حقاً؟» استوضح وهو يفتح الباب، كانت الغرفة مظلمة ولم تستطع رؤية وجهه، كما لم تستطع أن تستنتج شيئاً من صوته. ودخل وأغلق الباب خلفه.

- «هل أنت على استعداد للحفلة؟».

- «إني آسفة جداً لأني أشعر بصداع» ما أغرب أن يصدر كلامها بصورة طبيعية! شكراً للّه على الظلمة! «إني لا أعتقد أني سأذهب. اذهب أنت يا ريت وقدم لميلاني أسفي».

- «يا لك من عاهرة صغيرة جبانة».

لقد عرف! وظلت مستلقية ترتجف، لا تستطيع كلاماً. وسمعته يبحث في الظلام، ويشعل عود ثقاب فتشع الغرفة بالضوء. ثم مشى إلى السرير ونظر إليها، ورأت أنه كان يرتدي ملابس المساء.

- «انهضي» قال دون أن تشوب صوته لهجة معينة، «إننا ذاهبان إلى الحفلة. عليك أن تسرعي».

- «ها ريت، لا أستطيع، فأنت ترى...».

- «أجل في وسعي أن أرى. انهضي».

- «ريت، هل تجرأ آرشي...».

- «نعم تجرأ آرشي. إن آرشي رجل شجاع جداً».

- «كان ينبغي أن تقتله لأنه تفوَّه بالافتراءات...».

- «إن لي طريقة غريبة في عدم قتل الناس الذين يقولون الصدق. لا يوجد وقت للجدل الآن. انهضي».

فجلست على السرير هي تلف دثارها حول جسدها بينما عيناها تتفحصان وجهه. كان قاتماً عديم التأثر.

- «لن أذهب يا ريت، فإني لا أستطيع ذلك إلى أن ينجلي. . . ينجلي سوء التفاهم هذا».

- «إن أنت لم تُظهري وجهك هذه الليلة، فلن يكون في وسعك إظهاره في هذه المدينة طوال حياتك. وبينما يمكنني أن أتحمل عاهرة كزوجة، فإني لا أستطيع احتمال جبانة. إنك ذاهبة الليلة حتى إذا انتقدك الجميع، ابتداء من ألكسي ستيفنسن إلى مَنْ دونه، وحتى إذا طلبت منا السيدة ويلكس مغادرة البيت».

- «ريت. دعني أوضح. . .».

- «لا أريد أن أسمع، لا يوجد وقت، ارتدي ملابسك».

- «لقد أساؤوا فهمي. . . إنديا والسيدة إلسينغ وآرشي، كما أنهم يكرهونني غاية الكره، فإنديا تكرهني إلى درجة كبيرة بحيث إنها يمكن أن تفتري الأكاذيب عن شقيقها لتجعلني أبدو في وضع مشين. لو تسمح لي بأن أوضح فقط. . .».

ها، يا للّه، فكرت باغتمام، هب أنه قال «أرجوك أوضحي!» فكيف أستطيع أن أوضح؟

- «لا بد أن يخبروا الجميع أكاذيب. لا أستطيع الذهاب الليلة».

- «ستذهبين» قال، «ولو اضطررت أن أجرّك من عنقك وأركل بحذائي مؤخرتك الفاتنة أبداً، كل خطوة من الطريق».

كان هناك ألق بارد في عينيه، عندما جذبها لتقف على قدميها، ثم تناول مشدها وقذف به إليها.

- «البسيه، سأشد خصرك. أجل فإني أعرف كل شيء عن شد الخصور. لا، لن أنادي مامي لتساعدك، وأدعك تغلقين الباب وتربضين هنا كالجبانة التي هي حقيقتك».

- «إني لست جبانة» صاحت ملسوعة رغم خوفها، «إني. . .».

- «ها، وفّري عليَّ قصة بطولتك عن قتل الشمالي ومواجهة جيش شيرمان. إنك جبانة في الأمور الأخرى. وإذا لم يكن من أجل مصلحتك، فأنت ذاهبة الليلة من أجل مصلحة بوني. كيف يسعك تدمير فرصها أكثر مما فعلت. البسي مشدّك، أسرعي».

فنزعت دثارها ببراعة، ووقفت عارية إلا من قميص النوم. حبذا لو أنه ينظر إليها ليرى كما كانت تبدو جميلة في قميصها، فلربما تغادر تلك السحنة المرعبة وجهه، إذ لم يكن قد رآها في القميص منذ فترة طويلة. إلا أنه لم ينظر إليها. كان في مقصورة ثيابها، يتفحص فساتينها بسرعة، ثم بحث وأخرج فستانها الحريري الأخضر الجديد المنشى. كان فستاناً منخفض الصدر، وكانت أطواقه مثنية إلى الخلف فوق عجازة كبيرة، وعلى العجازة ثبتت ضمة كبيرة من الورود المخملية الحمراء.

- «البسي هذا» قال وقذفه إلى السرير، واقترب نحوها ثم أردف: «لا ملابس نسوية محتشمة رمادية أو زهرية هذه الليلة. إن رؤيتك ينبغي أن تسمر الصاري، لأن من الواضح أنك ستنزلينها إن لم تكن كذلك. ضعي كثيراً من الحمرة، فأنا واثق بأن المرأة التي قبض عليها الفريسيون بالزنى لم تكن شاحبة نصف شحوبك. دوري».

وتناول شريطي المشد في يديه، وجذبهما جذبة عنيفة جعلتها تصرخ مرتعبة مولولة، مرتبكة بفعل هذا الإجراء المشؤوم.

- «يؤلم، أليس كذلك؟ من المؤسف أنه ليس حول عنقك».

كان بيت ميلاني يشع بالأنوار من كل غرفة، واستطاع الزوجان سماع الموسيقى في أعلى الشارع، وعندما أوقفا العربة أمام المنزل، حمل الهواء إليهما الأصوات الهانئة صادرة عن أناس كثيرين كانوا ينعمون بالأمسية. كان البيت مزدحماً بالضيوف الذين كانت الشرفات

تفيض بهم حتى إن الكثيرين جلسوا على المقاعد في الساحة المعتمة ذات المصابيح المعلقة.

«لا أستطيع الدخول... لا أستطيع» فكرت سكارلت، وهي لا تزال جالسة في العربة، تقبض على منديلها المكتل في يدها. «لا، لا أستطيع، ولن أدخل. سأقفز من العربة وأهرب إلى مكان ما، إلى تارا. لماذا أرغمني ريت على المجيء هنا؟ ماذا ستفعل ميلاني؟ كيف ستبدو؟ إني لا أستطيع مواجهتها. سأهرب».

وكان ريت يقرأ أفكارها، فقد أطبقت يده على ذراعها في قبضة كان ينتظر أن تترك رضة في ذراعها، قبضة عنيفة لرجل غريب مستهتر.

- «إني لم أعرف إيرلندياً يمكن أن يكون جباناً. أين هي شجاعتك المتبجح بها كثيراً؟».

- «ريت، أرجوك، دعني أعود إلى البيت وأوضح».

- «لديك العالم الآخر لتوضحي فيه، وليلة واحدة فقط لتكوني شهيدة في مدرج المتفرجين. انزلي يا حبيبتي ودعيني أرى الأسود يأكلونك. انزلي».

وعلى أية حال، اجتازت الممشى والذراع التي تتأبطها صلبة قاسية كالغرانيت، إلا أنها كانت تبعث فيها بعض الشجاعة. والله لقد كان في وسعها أن تواجههم، وستفعل ذلك. ومن هم سوى زمرة من القطط المواءة الخداشة التي تحسدها؟ إنها لم تكن تعبأ بما يفكرون، باستثناء ميلاني... باستثناء ميلاني.

لقد أضحيا في الشرفة، وكان ريت ينحني يمنة ويسرة وقبعته في يديه، وصوته بارد ناعم. وصمتت الموسيقى عندما دخلا، وبدا لعقلها المضطرب أن جمهور الناس سيتدفق نحوهما كهدير البحر ثم ينكفئ عائداً بصوت يزداد انخفاضاً! سيقرّعها كل من الحاضرين! على كل

حال، لا بأس، دعهم يفعلون! وارتفعت ذقنها وافتر ثغرها بابتسامة بينما ضاقت زوايا عينيها.

وقبل أن تستطيع الالتفات لتتحدث إلى أولئك الذين كانوا أقرب من الجميع إلى الباب، تقدم أحدهم خلال زحمة المكان، وران على المكان سكون غريب، سكون قبض على قلب سكارلت، ثم، وعبر الممر الضيق خرجت ميلاني على قدمين صغيرتين مسرعتين، مسرعتين لتقابل سكارلت على الباب، لتتحدث إليها قبل أن يستطيع ذلك أي إنسان آخر. كانت كتفاها الضيقتان مرتفعتين، وكان شدقها الصغير في وضع ساخط، ورغم قوة ملاحظتها، فقد بدا كأنه لم يكن لديها أي ضيف سوى سكارلت. وهكذا قصدت إلى جانبها ولفَّت ذراعها حول خصرها.

- «يا له من فستان جميل يا حبيبتي!» قالت بصوت جلي ناعم، «أستكونين ملاكاً؟ لم تستطع إنديا القدوم الليلة لمساعدتي، فهل لك أن تستقبلي الضيوف معي؟».

54

بعد أن أضحت سكارلت وحيدة آمنة في غرفتها مرة ثانية، تهالكت على السرير دون أن تكترث لفستانها اللامع المواج وبعجازته ووروده. ولم تستطع خلال بعض الوقت إلا أن تظل مستلقية هكذا، تفكر في وقفتها بين ميلاني وآشلي، وهي تحيّي الضيوف. ما أفظع ذلك! إنها تفضل أن تواجه جيش شيرمان ثانية على أن تكرر مثل ذلك العمل! وبعد برهة، نهضت من السرير وراحت تذرع أرض الغرفة بعصبية، وتنثر الأثواب أثناء مشيها.

وانتابها رد فعل للجهد وبدأت ترتجف، وانسابت دبابيس الشعر من بين أصابعها ورنت على الأرض. وعندما حاولت تمشيط شعرها المئة مشطة المعتادة، قرع مؤخر الفرشات قرعة مؤلمة على صدغها. وخلال ذلك خطت إلى الباب عشر مرات كي تصيخ السمع إلى أصوات صادرة من الطابق السفلي، إلا أن القاعة السفلية كانت ككهف مظلم صامت.

كان ريت قد أرسلها إلى البيت وحيدة في العربة عند انتهاء الحفلة وكانت هي قد شكرت اللّه على هذه المهلة، إذ لم يكن ريت قد عاد حتى هذا الوقت. شكراً للّه، لم يكن قد أتى بعد، فهي لا تستطيع مواجهته هذه الليلة وهي خجلة فزعة مرتعدة. ولكن أين كان ريت؟ ربما في بيت تلك المخلوقة. وللمرة الأولى، شعرت سكارلت

بالسعادة لوجود شخص كبيل وتلينغ تلك، شعرت بالسعادة لوجود مكان آخر غير هذا البيت، حيث يأوي ريت إلى أن تكون حالته الإجرامية المستعرة قد زالت.

تلك كانت فكرة خاطئة، أن تشعر بالسعادة لأن زوجها كان في بيت عاهرة، ولكنها لم تستطع إلا أن تشعر بالسعادة أيضاً لو أنه كان ميتاً، إذ كان ذلك يعني أنها لن تضطر إلى رؤيته هذه الليلة.

غداً... لا بأس، فغداً يوم آخر، غداً ستفكر في عذر ما، في اتهامات مقابلة، بطريقة توقع ريت في الخطأ. غداً لن تكون ذكرى الليلة الفظيعة تدفعها دفعاً عنيفاً بحيث ترتعد فرائصها شأنها الآن. غداً لن تكون مذعورة هكذا بفعل ذكرى وجه آشلي، ذكرى كبريائه المحطمة وعاره... العار الذي كانت قد جللته به، العار الذي لم يساهم هو فيه سوى مساهمة ضئيلة. هل سيكرهها الآن، آشليها الحبيب الشريف، لأنها كانت قد شانته بالعار؟ طبعاً سيكرهها الآن... الآن، بعد أن أنقذا، كلاهما، بواسطة الشموخ الساخط في كتفي ميلاني النحيلتين، والحب والثقة الصريحة اللذين ظهرا في صوتها وهي تعبر الأرض الزجاجية، لتتأبط ذراع سكارلت، ولتواجه الجمهور العدائي الحاقد الحسود. ما كان أتقن عمل ميلاني في دفع الفضيحة عندما أبقت سكارلت إلى جانبها خلال الأمسية الرهيبة! لقد كان الناس فاترين بعض الشيء، حائرين بعض الحيرة، غير أنهم كانوا مهذبين.

آه، يا للعار من الأمر كله، أن تصان خلف تنورة ميلاني من أولئك الذين يكرهونها، الذين كان يمكن أن يمزقوها إرباً إرباً بهمساتهم! أن تصان بثقة ميلاني العمياء، ميلاني من بين جميع الناس!

وارتعشت سكارلت من الفكرة كأن قشعريرة انتابتها. ينبغي أن تتجرع خمراً، عدة جرعات، قبل أن يصير في وسعها أن تضطجع وتأمل في النوم. وألقت بدثار على ثوبها وخرجت بسرعة إلى القاعة

المظلمة وخفَّاها العديما الظهر يشقان السكون بقرقعة عظيمة. كانت قد بلغت نصف الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي، قبل أن تنظر نحو باب غرفة الطعام المقفل وترى خيطا رفيعاً من النور ينساب من تحته. وعندئذ كف قلبها عن الخفقان لحظة. أكان ذلك النور عندما عادت إلى البيت، وكانت هي مضطربة إلى حد أنها لم تلحظه؟ أم أن ريت كان قد عاد إلى البيت أخيراً؟ لقد كان في وسعه أن يدخل بهدوء عبر باب المطبخ. وإذا كان ريت في البيت فإنها ستعود على رؤوس أصابعها إلى السرير من دون البراندي، رغم حاجتها الشديدة إليه، وعندئذ لن تضطر إلى مواجهته، إذ ستغدو آمنة في غرفتها لأنها ستوصد الباب خلفها.

كانت منحنية إلى أسفل تهم بالتقاط خفَّيها كي تستطيع الإسراع في سكون عندما انفتح باب عرفة الطعام فجأة، وبرز ريت في ضوء المصباح الباهت، المصباح الذي انحجب خلف جسده. كان يبدو ضخماً، أضخم مما رأته في أي وقت مضى، هيكل مفزع أسود عديم الوجه، يتهادى على قدميه قليلاً.

- «أرجوك تعالي إليَّ يا سيدة باتلر» قال وقد بدا صوته غليظاً نوعاً ما.

كان سكران، وكان يبدي عن سكره، ولم تكن هي قد رأته يبدي عن سكره قبلاً، مهما كانت كمية الخمر التي يشربها كبيرة. صمتت سكارلت مترددة دون أن تقول شيئاً بينما ارتفعت ذراعه بإشارة آمرة:

- «تعالي هنا، ليلعنك اللّه!» قال بخشونة.

لا بد أن يكون سكران كثيراً، فكرت بقلب مرتعد. وقد جرت العادة أنه كلما أدمن في الشرب أمعنت أخلاقه تجلياً. كان تهكمه يزداد، وكانت كلماته قابلة لأن تصبح أشد لذعاً، غير أن الأسلوب الذي كان يميزها، كان دائماً أسلوباً رصيناً رسمياً للغاية.

«ينبغي ألّا أدعه يعرف أني خائفة من مواجهته» فكرت، ثم ضمّت الدثار أقرب إلى عنقها ونزلت الدرج ورأسها شامخ وكعباها يقرقعان قرقعة شديدة.

أما هو فقد انتحى جانباً وانحنى إليها بسخرية وهي تعبر الباب، بسخرية جعلتها تنتفض فرقاً. ثم لاحظت أنه كان مستهتراً بهندامه، وأن ربطة عنقه كانت متدلية على كلا جانبي ياقته المفتوحة، وأن قميصه كان مفتوحاً إلى رقعة الشعر الأسود الكثيفة على صدره، وأن شعره كان مشعثاً وعينيه كانتا ملتهبتين ضيقتين. كانت هناك شمعة مضيئة واحدة على الطاولة، شعاع ضوء صغير يلقي ظلالاً كئيبة في أنحاء الغرفة المرتفعة السقف، ظلالاً تجعل الخزانة الضخمة والبوفيه يبدوان كوحشين رابضين صامتين. وعلى الصينية الفضية فوق المائدة، استقرت القارورة وقد انتزعت سدادتها الزجاجية، وأحيطت بالكؤوس.

- «اجلسي» قال باقتضاب وهو يتبعها إلى الغرفة.

وزحف إليها الآن نوع جديد من الخوف، خوف جعل فزعها من مواجهته يبدو ضئيلاً جداً، فقد كان ريت يبدو ويتحدث ويتصرف كغريب. لقد كان ريت هذا سيّئ الخلق لم تره من قبل أبداً، فلم يحدث في أي وقت آخر، حتى في أعنف اللحظات عاطفة، أن كان ريت سوى رجل بارد. حتى في ساعات الغضب، كان دمثاً تهكمياً، وكان الويسكي عادة يفيد في تعمق هاتين الصفتين. وكانت سكارلت قد تضايقت بادئ الأمر وحاولت أن تدمر ذلك البرود، ولكنها سرعان ما أصبحت تتقبله كشيء ملائم جداً. وهكذا ظلت طوال سنين تعتقد أنه لم يكن هناك شيء يهم زوجها كثيراً، وأنه يعتقد بأن كل شيء في الحياة، بما في ذلك شخصها، مجرد فكاهة تهكمية. ولكن، وبينما هي جالسة قبالته وبينهما المائدة، أدركت بشعور غائر فيها أنه أصبح هناك أخيراً شيء يهمه، يهمه كثيراً جداً.

- «لا يوجد سبب يمنعك من ارتشاف سكرة رقادك، حتى وإن كنت سيّئ الخلق كثيراً لوجودي في البيت» قال «أأسكبها لك؟»

- «إني لا أريد مشروباً» قالت بجفاء «لقد سمعت صوتاً فأتيت. .».

- «إنك لم تسمعي شيئاً، وما كنت لتنزلي لو كنت تظنين أني موجود في البيت، كنت أجلس هنا وأصغي إليك وأنت تذرعين الأرض جيئة وذهاباً في الطابق العلوي. لا بد أنك بحاجة ماسَّة إلى مشروب. اجرعيه».

فتناول القارورة وسكب ملء الكأس، سكب من دون اعتناء.

- «خذي» قال ونقل الكأس إلى يدها «إنك ترتعشين بكل جسدك. ها، لا تضفي على نفسك مظاهر كاذبة فأنا أعرفك تشربين في السر، وأعرف مقدار ما تشربين. وخلال بعض الوقت، كنت عازماً على أن أخبرك لتكفّي عن ادعاءاتك الكاذبة المقنَّعة وتشربي علانية إذا ما أردت الشراب. هل تعتقدين أني أستشيط غضباً إن كنت تحبّين البراندي؟»

أخذت سكارلت الكأس المبللة وهي تلعن ريت في سرّها. ولكنه كان يقرأ أفكارها كما يقرأ كتاباً، وهو الذي كان يقرأها دائماً، والوحيد في الدنيا الذي كانت سكارلت ترغب في إخفاء أفكارها الحقيقية عنه.

- «إني أقول اشربيها».

فرفعت الكأس واجترعت ما فيها بحركة فجائية واحدة بذراعها بينما ظل معصمها ثابتاً، تماماً كما كان جيرالد يجترع ويسكيه الخالص دائماً. اجترعتها قبل أن تفكر كم كان ذلك يبدو أمراً مبتذلاً غير لائق. ولم تفت ريت الحركة وتدلى شدقه:

- «اجلسي وسننعم بحديث عائلي سار عن الحفلة الأنيقة التي كنا فيها الآن».

- «إنك سكران» قالت ببرود «وسآوي إلى فراشي».

- «إني سكران جداً وإني مصمم على أن أزيد من سكري قبل أن ينقضي المساء. ولكنك لن تأوي إلى الفراش... ليس الآن، اجلسي».

كان صوته ما زال يحمل بقية من بطئه البارد المعتاد، ولكن تحت الكلمات، كان في وسعها أن تحس بالعنف يقتحم طريقه إلى السطح، العنف اللاذع كلسعة سوط. وارتجفت كارهة ولكنه أضحى بجانبها ويده على ذراعها في قبضة موجعة. ثم ضغط الذراع قليلاً فأسرعت بالجلوس زافرة صرخة قصيرة من الألم... الآن... أمست خائفة... خائفة أكثر مما كانت في أي وقت في حياتها. وبينما كان ينحني فوقها رأت أن وجهه كان أسمر محمراً وأن عينيه ما فتئتا تتوهجان بألقهما المخيف. كان هناك شيء في أعماقهما لم تميزه بل لم تستطع فهمه. شيء أعمق من الغضب وأقوى من الألم، شيء يسوقه إلى أن توهجت عيناه باحمرار كجمر الفحم. ونظر إليها هنيهة طويلة، طويلة جداً بحيث إن نظراتها المتحدية ارتعشت وأغضت. وعندئذ تهالك على كرسي مقابل كرسيها وسكب لنفسه كأساً أخرى. وفكرت هي بسرعة محاولة أن تضع خطاً من الدفاع ولكن وإلى أن تكلم، لم تعرف ما تقول، لأنها لم تكن تعرف بالضبط أي تهمة كان عازماً على تقديمها.

كان يشرب ببطء ويراقبها من فوق الكأس بينما شدت هي على أعصابها محاولة أن تكف عن الرجفان. ولبعض الوقت، لم يتغير تعبير وجهه. إلا أنه ضحك أخيراً محتفظاً بعينيه مصوبتين إليها. أما هي فلم تستطع تسكين رجفتها إثر سماع ضحكته.

- «لقد كانت هزلية مطربة هذه الأمسية، أليس كذلك؟»

فلم تقل شيئاً، بل راحت تثني أصابع قدميها في جهد داخل الخفَّين المحلولين لإيقاف رجفانها.

- «هزلية سارة من دون تغيب أي ممثل. لقد اجتمعت القرية لترجم المرأة الخاطئة، وكان الزوج المثلوم الشرف يسند زوجته كما ينبغي للسيد أن يفعل، وكانت الزوجة المخونة تدخل بروح مسيحية وتقذف أثواب سمعتها غير الملطخة فوق جميع المشهد، وكان العاشق...».

- «أرجوك».

- «لا أريد، ليس هذه الليلة، إنها مطربة جداً، وكان العاشق يبدو فيها كأحمق ملعون ويتمنى لو كان ميتاً. كيف كنت تشعرين يا عزيزتي والمرأة التي تبغضينها تقف إلى جانبك تستر أثامك من أجلك؟ اجلسي».

فجلست.

- «إنك لم تزدادي حباً لها، بسبب ذلك كما أتخيل. إنك لتتساءلين ما إذا كانت تعرف كل شيء عنك وعن آشلي - تتساءلين لماذا فعلت هذا إذا كانت تعرف - وإذا كانت فعلته لتحفظ ماء وجهها فقط - وإنك تفكرين أنها حمقاء لأنها فعلت ذلك، حتى ولو أن عملها أنقذ جلدك ولكن..».

- «لن أصغي إلى...».

- «بلى ستصغين وسأخبرك ما يلي لأخفف عنك: إن الآنسة ميلي حمقاء ولكن ليس من النوع الذي تفكرين فيه. لقد كان من الواضح أن أحدهم كان قد أخبرها ولكنها لم تصدق النبأ. وحتى لو رأت بعينيها فإنها لن تصدق، لأنها تنعم برصيد كبير من الشرف بحيث لا تستطيع أن تدرك العار في أي إنسان تحبه. لست أعرف أي كذبة أخبرها بها آشلي ويلكس... إلا أن كذبة ساذجة تكفي، لأنها تحبه كما أنها تحبك. إني واثق بأني لا أستطيع أن أفهم لماذا تحبك، غير أنها تحبك. ليكن ذلك إحدى بلاياك».

- «لو أنك لست سكران وسليطاً هكذا، لكنت أوضحت كل شيء» قالت سكارلت مستعيدة بعض كرامتها «ولكن الآن...».

- «لست مهتماً بإيضاحاتك فأنا أعرف الحقيقة أفضل مما تعرفينها أنت. واللّه إذا ما نهضت من ذلك الكرسي مرة أخرى...».

- «والذي أجده أكثر إطراباً من هزلية الليلة هو حقيقة أنه بينما كنت تنكرين عليَّ متع سريرك بإباء، بسبب آثامي الكثيرة، كنت تتقدين شهوة في قلبك على آشلي ويلكس، «تتقدين شهوة في قلبك» تلك عبارة جيدة، أليس كذلك؟ هناك عدد من العبارات الجديدة في ذلك الكتاب، أليس كذلك؟»

«أي كتاب - أي كتاب؟» بحث عقلها، بحث ببلاهة وبطريقة غير مجدية بينما كانت صاحبته تحدق بنظرات عصبية في الغرفة وتلاحظ ما كان أبهت لمعان الأواني الفضية الضخمة، وكم كانت زوايا الغرفة معتمة بصورة مرعبة.

- «ولقد كنت منبوذاً لأن شهواتي الجامحة كانت نكراء كثيراً بالنسبة إلى تهذيبك - لأنك لم تكوني تريدين أي طفل آخر. ما أشد ما آلمني ذلك! ما أبلغ ما جرحني! وهكذا خرجت ووجدت عزاء ساراً وتركتك لتهذيبك. أما أنت فقد قضيت ذلك الوقت تطاردين السيد ويلكس الذي قاسى طويلاً. ليلعنه اللّه، ما الذي يؤلمه؟ إنه لا يستطيع أن يكون أميناً لزوجته بعقله أو خائناً لها بجلده؟ لماذا لم يقرر رأيه؟ فإنك لن تعارضي في إنجاب أطفاله، أليس كذلك - والادعاء أنهم أطفالي».

فوثبت على قدميها صارخة، واندفع هو من مقعده ضاحكاً تلك الضحكة الناعمة، التي جعلت دمها يبرد، ثم دفعها خلفاً إلى كرسيها بيدين كبيرتين سمراوين وانحنى فوقها:

- «لاحظي يدي يا عزيزتي» قال ثانياً يديه أمام عينيها «إن في

وسعي أن أمزقك إرباً إرباً بهما ومن دون أي جهد. وسأفعل ذلك لو أن هذا سيخرج آشلي ويلكس من عقلك، ولكنه لن يخرجه. ولذلك فإني أعتقد أني سأخرجه من عقلك إلى الأبد بهذه الطريقة، سأضع يدي هكذا، كلاً منهما على أحد جانبي رأسك، وسأهشم جمجمتك بينهما كحبة بندق، الأمر الذي سيزيله من رأسك».

وأضحت يداه على رأسها، تحت شعرها المنساب، يدان ملاطفتان قاسيتان ترفعان وجهها إلى وجهه. وأحست هي أنها كانت تنظر إلى وجه غريب، غريب سكران بطيء الكلام. ولم تفقد سكارلت الشجاعة الحيوانية أبداً في الماضي، ولذا عادت هذه الشجاعة تتدفق في عروقها بحرارة وهي تواجه خطراً، تصلب عمودها الفقري ونزوى عينيها:

- «أيها الأحمق السكران» قالت، «ارفع يديك عني».

ولدهشتها، لبّى طلبها، ثم أجلس نفسه على طرف الطاولة وسكب ملء كأس أخرى.

- «لقد كنت دائماً أكبر روحك يا عزيزتي، ليس أكثر من الآن أبداً وأنت في مأزق حرج».

فضمّت دثارها أقرب إلى جسدها، آه، حبذا لو أنها تستطيع أن تبلغ غرفتها وتدير المفتاح في الباب المتين وتنفرد وحدها. وعلى أية حال، ينبغي أن تقاومه، أن تهدده حتى يخضع. لم تكن قد رأت ريت هذا من قبل، ونهضت دونما إسراع، مع أن ركبتيها كانتا ترتجفان وشدّت الدثار حول ردفيها، وطوحت بشعرها عن وجهها:

- «لست في مأزق حرج» قالت بحدة «ولن تحرجني أبداً يا ريت باتلر، أو تفزعني. إنك لست سوى وحش مخمور، وحش عاش مع امرأة فاسقة وقتاً طويلاً جداً بحيث إنك لا تستطيع أن تكنه أي شيء آخر سوى الفسق. إنك لا تستطيع أن تفهم آشلي أو تفهمني. لقد

عشت في الفساد مدة طويلة جداً بحيث لا يمكنك أن تعرف أي شيء آخر. إنك غيور من شيء لا تستطيع فهمه، عم مساء».

واستدارت بصورة عرضية، وتحركت باتجاه الباب، غير أن عاصفة من الضحك أوقفتها، فالتفتت إليه بينما ترنح هو عبر الغرفة نحوها. باسم الإله لو أنه يكف عن تلك الضحكة المريعة! وماذا كان هناك ليضحك عليه من بين كل هذه الأمور؟ وبينما كان يقترب منها تراجعت نحو الباب لتجد نفسها تلامس الجدار، وعندئذ أمسكها بعنف، وضغط كتفيها على الجدار.

- «كف عن الضحك».

- «إني أضحك لأني مشفق جداً عليك».

- «مشفق - عليّ؟ كن مشفقاً على نفسك».

- «أجل واللّه، إني مشفق عليك يا عزيزتي، يا حمقائي الجميلة الصغيرة، إن ذلك يؤلم، أليس كذلك؟ وليس في وسعك أن تتحملي الضحك أو الشفقة أليس كذلك؟»

وكف عن الضحك، وانحنى على كتفيها بشدة بالغة بحيث إنهما آلمتاها، وتغيرت سحنته وانحنى أقرب إليها، بحيث إن رائحة الويسكي القوية العابقة من نَفَسه جعلتها تدير وجهها.

- «غيور، أأنا كذلك؟» قال «ولم لا؟ ها، لا تحاولي أن تتكلمي وتوضحي. إني أعرف أنك كنت أمينة لي بجسدك. أكان ذلك ما كنت تحاولين قوله؟ ها، لقد عرفت ذلك كله طوال هذه السنين. كيف أعرف؟ ها، حسناً. إني أعرف آشلي ويلكس وتربيته. أعرف أنه شريف وسيد، وذلك يا عزيزتي أكثر مما يمكنني قوله لأجلي - أو لأجلك بخصوص تلك القضية. نحن لسنا سيدين، كما أننا لا نتحلى بأي شرف، أليس كذلك؟ وهذا هو السبب في أننا نزدهر كأشجار الخليج الخضراء».

- «دعني أذهب فإني لن أقف هنا وأهان».

- «إني لا أهينك. إني أطري فضيلتك الجسدية، الأمر الذي لم يخدعني مطلقاً. إنك تعتقدين أن الرجال أغبياء يا سكارلت، ولا يفيدك أبداً التقليل من شأن قوة خصمك وذكائه. كما أني لست غبياً، ألا تظنين أني أعرف أنك كنت تضطجعين بين ذراعي وتدَّعين أنني كنت آشلي ويلكس؟».

فتدلى شدقها، وكان الخوف والدهشة مسطورين في وجهها بجلاء. «إن ذلك سار، بل إنه في الحقيقة من عالم الأشباح، كوجود ثلاثة أشخاص في سرير واحد، حيث ينبغي أن يكون هناك اثنان فقط». وهز كتفيها هزاً خفيفاً، ثم سعل وشهق باستهزاء.

«ها أجل، لقد كنت أمينة لي، لأن آشلي لم يكن ليضاجعك. ولكن يا للجحيم، ما كنت لأحسده على جسدك، فإني أعرف ما أقل ما تعني الأجساد - خصوصاً أجساد النساء. على أني أحسده على قلبك، وعلى عقلك العنيد المتهور الصلب النادر المثال. إن ذلك الأحمق لا يريد عقلك، بينما أن لا أريد جسدك. إن في وسعي أن أشتري النساء بثمن بخس، غير أني أريد عقلك وقلبك، ولن أحظى بهما أكثر مما يمكن أن تحظي أنت بعقل آشلي، وذلك هو سبب إشفاقي عليك».

وحتى خلال خوفها واضطرابها، فإنها أحست بسخريته تلسعها:

- «مشفق - عليّ؟».

- «أجل مشفق لأنك طفلة يا سكارلت، طفلة تبكي ابتغاء القمر، وماذا ستفعل الطفلة بالقمر إن هي حصلت عليه؟ وماذا ستفعلين بآشلي؟ أجل إني مشفق عليك - مشفق لأني أراك تبددين السعادة بكلتا يديك ثم تمدينهما طلباً لشيء لن يسعدك مطلقاً. إني مشفق لأنك حمقاء لا

تعرفين أنه لا يمكن أن تكون هناك سعادة إلا عندما يتزاوج المتماثلون. ولو أني كنت ميتاً وكانت الآنسة ميلي ميتة كذلك، وحظيت أنت بحبيبك الشريف الغالي فهل تعتقدين أنك ستكونين سعيدة معه؟ يا للجحيم، لا! بل إنك لن تعرفيه أبداً. لن تعرفي بماذا يفكر، لن تفهميه أكثر مما تفهمين الموسيقى والشعر والكتب أو أي شيء مغاير للدولارات والسنتات. بينما نحن يا زوجتي العزيزة، كان يمكن أن نكون سعيدين للغاية، لو أنك منحتنا نصف فرصة فقط، لأننا متماثلان كثيراً، فكلانا وغد يا سكارلت، لا شيء يستعصي علينا عندما نريده. أجل كان يمكن أن نكون سعيدين، لأني كنت أحبك، كما أني أعرفك يا سكارلت، أعرفك حتى عظامك بطريقة لا يستطيع آشلي أن يعرفك بها أبداً، وسيحرقك إن هو عرفك... ولكن لا ينبغي أن تظلي هائمة طوال حياتك خلف رجل لا تستطيعين فهمه. أما أنا يا عزيزتي فسأظل خلف العاهرات، وإني أجرؤ على القول إننا سنحيا أفضل من حياة معظم الأزواج».

وتركها فجأة، بطريق متعرج نحو القارورة. ووقفت سكارلت مسمرة لهنيهة، والأفكار تندفع من عقلها وإليه بسرعة فائقة بحيث لم تستطع التمسك بإحداها مدة تكفي لاختبارها، لقد قال يا ريت إنه كان يحبها، فهل كان يعني قوله ذلك؟ أو كان هو مخموراً وحسب؟ أم كانت هذه إحدى فكاهاته المروِّعة؟ وآشلي - القمر - تبكين ابتغاء القمر. وركضت بسرعة في القاعة المظلمة، مندفعة كما لو أن الشياطين كانت تنقضّ عليها. آه حبذا لو أنها تستطيع بلوغ غرفتها فقط! وأدارت كعبيها ولكن الخف أفلت من قدمها نصف إفلاتة، وعندما وقفت لخلعه بعصبية، ركض ريت نحوها بخفة كأنه هندي، وأضحى بجانبها في الظلام. كان نَفَسُه ساخناً على وجهها، ويداه تطوقانها بخشونة، تطوقانها من تحت الدثار حول جسدها العاري.

- «لقد شردتني إلى المدينة بينما كنت تطاردينه. واللّه إن هذه ليلة سيكون فيها اثنان فقط في سريري».

وطوح بها عن الأرض إلى ذراعيه وراح يصعد الدرج. كان رأسها مضغوطاً على صدره، وكانت هي تسمع طرقات قلبه تحت أذنيها. وآلمها ريت، فصرخت مذعورة، مخنوقة الصوت، ولكنه تابع تسلق الدرج في الظلام الشامل، صعوداً صعوداً، بينما الخوف يثيرها، كان غريباً مجنوناً. وكانت هذه ظلمة قاتمة لم تعرفها، أظلم من الموت. وكان هو كالموت، يحملها بعيداً بين ذراعيه الموجعتين. وزعقت، وانكتم صوتها على صدره، ووقف فجأة على بسطة الدرج، ثم قلبها بسرعة في ذراعيه، وانحنى فوقها وقبّلها بوحشية وبإشباع أزال كل شيء من عقلها سوى الظلام الذي كانت تغرق فيه، والشفتين اللتين كانتا على شفتيها. كان يرتجف كأنه يقف في ريح قوية. وكانت شفتاه الزاحفتان من فمها إلى أسفل، إلى حيث سقط الدثار عن جسدها، تنقضّان على بشرتها الناعمة. كان يدمدم بكلمات لم تكن تسمعها، وكانت شفتاه تثيران فيها شعوراً لم تكن قد شعرت به من قبل، كانت هي ظلاماً، وكان هو ظلاماً، وكانت شفتاه على جسدها، وحاولت أن تتكلم، ولكن شفتيه أضحتا على شفتيها ثانية، وفجأة أحست بارتعاشة عاطفية عنيفة لم تكن قد عرفت مثلها من قبل: بهجة وخوف وجنون واضطراب واستسلام لذراعين كانتا قويتين جداً، ولشفتين هارستين بشدة ولمصير يتحرك بسرعة فائقة. وللمرة الأولى في حياتها التقت بأحد الناس، بشيء أقوى منها، بإنسان لم يكن في وسعها أن تهدده أو تحطمه. إنسان كان يتهددها ويحطمها، والتفّت ذراعاها حول عنقه، وانتفضت شفتاها تحت شفتيه، وكانا يسيران صعوداً في الظلمة ثانيةً، الظلمة التي كانت رقيقة دوامة تغلف كل شيء.

وعندما استيقظت في الصباح التالي، كان قد ذهب، ولولا وجود

الوسادة المجعدة إلى جانبها، لاعتقدت أن أحداث الليلة السابقة كانت مجرد حلم مثير لا يصدقه العقل. وتخضب وجهها إثر الذكرى، ثم جذبت غطاء السرير عالياً حول عنقها واضطجعت تستحم في ضوء الشمس وتحاول أن تغرز التأثيرات المختلطة في عقلها.

وبرز شيئان في المقدمة: أنها كانت قد عاشت مع ريت مدة سنوات، نامت معه وأكلت معه، وتشاجرت معه، وحملت طفلته - ومع ذلك فلم تعرفه. لقد كان الرجل الذي حملها صعوداً على الدرج المظلم إنساناً غريباً لم تكن قد حلمت بوجوده. والآن، ومع أنها حاولت أن تجعل نفسها تكرهه وأن تستثير سخطها عليه، إلا أنها لم تستطع ذلك. لقد أخضعها، وآلمها، واستباحها بوحشية خلال ليلة مجنونة مخيفة، ولكنها اعتزت بذلك.

آه، ينبغي أن تشعر بالعار! ينبغي أن تجفل من مجرد ذكرى الظلام الحار الدوام! فالسيدة، السيدة الحقيقية لا تستطيع أن ترفع رأسها أبداً بعد ليلة كهذه، ولكن أقوى من العار، كانت ذكرى النشوة، ذكرى غيبوبة الاستسلام. وللمرة الأولى في حياتها كانت قد شعرت بأنها حية، شعرت بالعاطفة جامحة أصيلة كالخوف الذي كانت قد عرفته ليلة هروبها من أتلانتا. شعرت بها عذبة مدوخة كالكراهية الباردة التي انتابتها عندما قتلت الشمالي.

لقد كان ريت يحبها! على الأقل لقد قال إنه كان يحبها، فكيف يسعها أن ترتاب بذلك الآن؟ ما أغرب وأدعى للحيرة أن يكون يحبها، بل ما أبعد إمكانية تصديق ذلك! ذلك الأجنبي المتوحش، الذي كانت قد عاشت معه في برود شديد. ولم تكن متأكدة تماماً من كيفية شعورها تجاه هذا التصريح، ولكنها ضحكت فجأة، وبصوت مرتفع عندما ساورتها فكرة. لقد كان يحبها، وقد أخضعته أخيراً. وكانت سكارلت قد نسيت تقريباً، رغبتها القديمة في إيقاعه بشباك حبها كيما تستطيع أن

تحمل السوط فوق رأسه الأسود الوقح. وها قد عاودتها تلك الرغبة الآن، ومنحتها رضى عظيماً. لقد أخضعها، ووضعها تحت رحمته ليلة واحدة، ولكنها عرفت الآن ضعف سلاحه. ومن الآن فصاعداً سيكون بقبضتها حيث أرادته أن يكون. لقد تألمت بفعل سخرياته مدة طويلة، إلا أنها قد امتلكته الآن، بحيث تستطيع أن تجعله يقفز خلال أي طوق يهمها أن تمسك به.

وعندما فكرت في مقابلته ثانية، وجهاً لوجه في ضوء النهار الوقور، غمرتها حيرة عصبية مخدرة تحمل معها فرحة مثيرة:

«إني متلهفة كعروس» فكرت «وعلى ريت!» وبتأثيرات هذه الفكرة أغرقت في قهقهة حمقاء.

عل أن ريت لم يظهر على مائدة الغداء، وكذلك لم يكن على كرسيه على مائدة العشاء. ومضت الليلة، ليلة طويلة، اضطجعت خلالها مستيقظة حتى الفجر، أذناها مرهفتان لسماع مفتاحه في القفل، ولكنه لم يكن يأتي. وعندما انقضى اليوم التالي من دون أي خبر عنه، أضحت نزقة من الخيبة والخوف. ومرت بجانب المصرف، ولكنه لم يكن هناك. وذهبت إلى المخزن وتصرفت بحدة مع الجميع، لأنه في كل مرة كان يفتح الباب ليدخل زبون منه كانت تنظر باضطراب آملة أن يكون القادم هو ريت. ثم ذهبت إلى مستودع الخشب واستفزت هيو إلى أن خبأ نفسه خلف كومة خشب، بيد أن ريت لم ينشدها هناك.

ولم تستطع أن تذل نفسها وتسأل الأصدقاء عما إذا كانوا قد رأوه، كما لم تستطع أن تُجري تحريات بين الخدم عن نبأ عنه، ولكنها شعرت أنهم كانوا يعرفون شيئاً لم تكن هي تعرفه. لقد كان الزنوج يعرفون دائماً كل شيء، وكانت مامي صامتة بصورة غير عادية ذينك اليومين. كانت تراقب سكارلت من زاوية عينها دون أن تقول شيئاً. وعندما انقضت الليلة الثانية، أجمعت سكارلت رأيها على الذهاب إلى

دائرة الشرطة. ربما كان قد أصابه مكروه، ربما كان حصانه قد طرحه أرضاً، وكان هو مطروحاً عاجزاً في أحد الخنادق. ربما، آه - فكرة رهيبة- ربما كان ميتاً.

وفي الصباح التالي، وبعد أن أنهت فطورها وكانت في غرفتها ترتدي القبعة، سمعت خطوات سريعة على الدرج. وبينما كانت تتهالك على السرير في شكر واهن دخل ريت الغرفة. كان مقصوص الشعر حديثاً، حليق الذقن، مدلكاً، وكذلك كان رصيناً، ولكن عينيه كانتا محمرتين ووجهه منتفخاً من الشراب. ولوَّح لها بيد خفيفة وقال: «ها، مرحباً».

«كيف يستطيع رجل أن يقول «ها مرحباً» بعد أن يكون قد غادر البيت يومين من دون إيضاح؟ كيف يستطيع أن يكون في مثل هذا البرود مع ذكرى ليلة كتلك التي قضاها؟ إنه لا يستطيع ذلك ما لم - ما لم - وقفزت الفكرة الرهيبة إلى عقلها، ما لم تكن ليالٍ كهذه شيئاً عادياً بالنسبة إليه». ولهنيهة، لم تستطع الكلام، ونسيت كل الحركات والابتسامات الجذابة التي كانت قد فكرت في استخدامها لإخضاعه، ولم يقترب هو منها ليقبِّلها القبلة العرضية، بل وقف ينظر إليها مفتر الثغر وبيده سيجار داخن.

- «أين- أين كنت؟»

- «لا تخبريني بأنك لا تعرفين! لقد كنت أعتقد واثقاً أن المدينة بأسرها كانت تعرف حتى هذا الوقت. ربما كان الجميع يعرفون سواك. إنك تعرفين المثل القديم «الزوجة هي آخر من يعلم دائماً»».

- «ماذا تعني؟»

- «كنت أعتقد أنه بعد أن قدم رجال الشرطة إلى بيت بيل الليلة التي سبقت الليلة الماضية...».

- «بيت بيل... تلك... تلك المرأة! كنت مع...».

- «طبعاً في أي مكان آخر سأكون. آمل ألّا تكوني قد قلقت عليّ؟».

- «ذهبت من عندي إلى - آه!».

- «رويدك. رويدك يا سكارلت. لا تتصنعي دور المرأة المخدوعة، ينبغي أن تكوني عارفة بأمر بيل منذ زمن».

- «ذهبت إليها من عندي بعد - بعد».

- «ها، تلك» وأومأ إيماءة استهتار «سأنسى أخلاقي. أقدم اعتذاري على سلوكي في آخر لقاء. كنت مخموراً جداً كما تعرفين بلا ريب، ومسلوب اللب تماماً بفعل مفاتنك - أأنا في حاجة إلى سردها؟».

وفجأة ودّت أن تبكي، أن تضطجع على السرير، وتنشج إلى لا نهاية، لم يكن قد تغير. لم يكن شيء قد تغير. وكانت هي غبية حمقاء مخدوعة سخيفة تافهة، عندما فكرت أنه يحبها. لقد كان عمله مجرد دعاية من دعاياته المخمورة الشنيعة. لقد أخضعها وتلذذ عندما كان مخموراً، تماماً كما كان يمكن أن يتلذذ بأي امرأة في ماخور بيل. وها قد عاد الآن إلى سابق عهده، مهيناً لاذعاً صعب المنال. وبلعت دموعها واستجمعت قواها. ينبغي ألّا يعرف بما كانت تفكر فيه أبداً أبداً، كيف كان ينتظر أن يضحك لو أنه عرف! حسناً، ولكنه لن يعرف أبداً. ونظرت إليه بسرعة، ولمحت في عينيه ذلك البريق المتيقظ المحير القديم، بريقاً حاداً متلهفاً كأنه كان يتحرّق إلى كلماتها التالية، آملاً أن تكون - ماذا كان يأمل؟ أن تجعل حمقاء من نفسها وتزعق وتقدم له شيئاً ليضحك عليه؟ ليست هي من يفعل ذلك، والتقى حاجباها المائلان معاً في تكشيرة باردة.

- «لقد كان من الطبيعي أن أرتاب بماهية علاقاتك بتلك المخلوقة».

- «ارتبت فقط؟ لماذا لم تسأليني وتُشبعي فضولك؟ إذن لكنت قد

أخبرتك. لقد كنت أعيش معها منذ اليوم الذي قررتِ فيه وآشلي ويلكس أنه ينبغي أن يكون لكل منا غرفة نوم منفردة».

- «ما أحقد أن تقف هناك وتتبجح أمامي، أنا زوجتك، بأن -».

«ها، وفّري عليَّ غضبك الخلقي! إنك لم تكوني تعيرين أدنى اهتمام لما كنت أفعله، طالما كنت أدفع فواتير الحساب، كما أنك تعرفين إني لم أكن ملاكاً في المدة الأخيرة. وأما بالنسبة لكونك زوجتي. . . فإنك لم تكوني زوجتي منذ ولدت بوني، أليس كذلك؟ لقد كنت استثماراً غير مُجدٍ يا سكارلت وكانت بيل استثماراً أفضل منك».

- «استثماراً؟ تعني أنك أعطيتها. . . ؟»

- ««أقمتها في العمل» هي العبارة الصحيحة كما أعتقد. إن بيل امرأة نبيلة. كنت أريد أن أراها تتقدم، وكان كل ما تحتاج إليه هو المال لتؤسس بيتاً خاصاً بها. ينبغي أن تعرفي أي معجزات تستطيع المرأة صنعها عندما يكون في حوزتها قليل من المال. تأملي نفسك».

- «إنك تقارنني -».

- «على كل حال، كلاكما امرأتان عنيدتان في العمل وكلاكما ناجحتان، ولكن بيل تمتاز عنك طبعاً، لأنها رقيقة القلب، طيبة الروح».

- «هلّا تخرج من هذه الغرفة؟»

فتهادى نحو الباب وقد ارتفع أحد حاجبيه بطريقة مضحكة. كيف يسعه أن يهينها هكذا، فكرت في غضب وألم. كان يخرج عن مألوفه ليؤلمها ويذلها. وتلوت أسى وهي تفكر كيف كانت قد تاقت لعودته إلى البيت بينما كان هو طوال الوقت مخموراً يتشاجر مع رجال الشرطة في بيت الفجور.

- «اخرج من هذه الغرفة ولا تعد إليها أبداً. لقد أخبرتك ذلك فيما مضى فلم تكن سيداً لتفهم. سأوصد بابي منذ الآن وصاعداً».

- «لا تنزعجي -»

- «سأوصده. بعد الطريقة التي تصرفت بها الليلة الماضية - مخموراً جداً، منفراً جداً -».

- «هيا الآن يا عزيزتي! لست منفراً، حتماً».

- «اخرج».

- «لا تنزعجي. إني ذاهب. وإني أعدك بألّا أضايقك ثانية. إن ذلك وعد نهائي ولقد فكرت أن أصارحك بأنه كان إذا سلوكي الشائن مقيتاً جداً بحيث لا تستطيعين تحمّله فإني أسمح لك بحق الطلاق. أعطيني بوني فقط ولن أعارض بالطلاق».

- «إني لا أفكر في إشانة العائلة بعملية طلاق».

- «ستشينينها بسرعة فائقة إذا ما توفيت الآنسة ميلي، أليس كذلك؟ إن التفكير بالسرعة العظيمة التي ستطلقينني بها عندئذ، تجعل رأسي يدور».

- «هل لك أن تذهب؟».

- «أجل، إني ذاهب. وهذا ما جئت إلى البيت لأخبرك به. إني ذاهب إلى شارلستون ونيو أورليانز و- ها، الواقع أنها رحلة طويلة جداً، إني مسافر اليوم».

- «ها!».

- «وسآخذ بوني معي. دعي برسي، تلك الغبية، تحزم أمتعتها الصغيرة، وسآخذ برسي أيضاً».

- «لن تأخذ طفلتي خارج البيت».

- «إنها طفلتي أيضاً يا سيدة باتلر. من الأكيد أنك لا تواخذينني إن أنا أخذتها إلى شارلستون لترى جدتها؟»

- «جدتها! هل تعتقد أني أدعك تأخذها خارج هذا المكان، بينما ستكون سكران كل ليلة، ومن المحتمل جداً أن تأخذها إلى بيوت كبيت بيل تلك -».

فقذف بالسيجار بعنف، وانبعثت رائحة حادة من اشتعال السجادة، وارتفعت رائحة الصوف اللاذعة إلى منخريها، وبعد لحظة، كان قد عبر الغرفة ووقف إلى جانبها ووجه أسود من الغضب:

- «لو كنت رجلاً، لكسرت عنقك عقاباً على تلك العبارة، أما والحالة هذه فإن كل ما أستطيع قوله لك هو أن تغلقي فمك الذي لعنه اللّه. هل تعتقدين أني لا أحب بوني، وأني سآخذها حيث - ابنتي، يا للّه الرحيم منك أيتها الحمقاء! وأما بالنسبة إليك، أنت التي تضفين على نفسك مظاهر التقوى فيما يتعلق بأمومتك فالواقع أن قطة أفضل أماً منك! ماذا فعلت يوماً من أجل أولادك؟ إن ويد وإيلا يخافان منك حتى الموت، ولولا ميلاني ويلكس لما كان لهما أن يعرفا ماهية الحب والعاطفة. ولكن بوني، ابنتي بوني! هل تعتقدين إني لا أستطيع أن أعتني بها أفضل من اعتنائك بها؟ هل تعتقدين أني سأسمح لك بالاستبداد بها وبتحطيم روحها كما حطمت روحَي ويد وإيلا؟ يا للجحيم، لا! احزمي أمتعتها وهيئيها خلال ساعة أو إني أحذرك بأن الذي حدث في الليلة الماضية سيكون معتدلاً إلى جانب ما يمكن أن يحدث. لقد كنت أفكر دائماً أن جَلداً ناجعاً بسوط عربة يمكن أن ينفعك كثيراً».

ودار على كعبه قبل أن تستطيع التكلم، وخرج من الغرفة على قدمين مسرعتين، ثم سمعته يعبر أرض القاعة إلى غرفة لعب الأطفال ويفتح بابها، وتلا ذلك أصوات سعيدة سريعة صادرة عن ثلاثة أولاد، ولكن سكارلت سمعت كلمات بوني تعلو الجميع:

- «بابا، أين كنت؟».

- «أبحث عن جلد أرنب لألفّ به ابنتي بوني الصغيرة. أعطي حبيب قلبك قبلة يا بوني - وأنت أيضاً يا إيلا».

55

- «حبيبتي، إني لا أريد أي إيضاح منك، كما أني لن أصغي إلى أي إيضاح» قالت ميلاني بحزم وهي تضع برفق، يداً صغيرة على شفتي سكارلت المعذبتين وتسكن كلماتها «إنك تهينين نفسك وآشلي وتهينينني حتى بمجرد تفكيرك أنه يمكن أن تكون هناك حاجة إلى إيضاحات بيننا. كيف لا، ونحن الثلاثة كنا - كنا كالجنود نحارب الدنيا معاً لسنين طويلة بحيث إني خجلة بك لتفكيرك أن في وسع حديث تافه أن يسيء إلى علاقتنا. هل تعتقدين أني أصدق أنك وآشلي - يا لها من فكرة! ألا تدركين أني أعرفك أفضل مما يعرفك أي إنسان آخر في الدنيا؟ هل تظنين أني نسيت جميع الأشياء المدهشة البعيدة عن الأنانية التي قدمتها لآشلي وبو ولي - كل شيء ابتداء من إنقاذ حياتي إلى حفظنا من الموت جوعاً! هل تظنين أن في وسعي أن أتذكرك تمشين في أخدود خلف حصان ذلك الشمالي، عارية القدمين تقريباً ويداك مقرحتان- فقط كيما أستطيع والطفل أن نجد شيئاً لنأكله - ثم أصدق أشياء فظيعة كهذه عنك؟ إني لا أريد سماع كلمة منك يا سكارلت أوهارا».

- «ولكن» تلعثمت سكارلت ثم صمتت.

كان ريت قد غادر المدينة في الساعة السابعة، مصطحباً معه بوني وبرسي. وكانت الوحشة قد أضيفت إلى عار سكارلت وغضبها. وكان العبء الإضافي الناجم عن إثمها مع آشلي، ثم دفاع ميلاني، أكثر مما

تستطيع احتماله. لو أن ميلاني صدقت إنديا وآرشي وأنبتها في الحفلة أو حتى حيّتها ببرود، لكان في وسعها عندئذ أن ترفع رأسها عالياً وتدافع عن نفسها بكل سلاح في عدتها. ولكن الآن ومع ذكرى ميلاني تقف بينها وبين تحطمها الاجتماعي كشفرة رقيقة برّاقة، وشعاع الثقة والعراك يشع في عينيها، لم يكن يبدو أن هناك عملاً أميناً يمكن عمله سوى الاعتراف. أجل، الإفشاء بكل شيء ابتداء من تلك البداية البعيدة البعيدة على الشرفة المشمسة في تارا.

كانت مسوقة من قِبل ضمير كان في وسعه أن يستيقظ رغم بقائه مكبوتاً مدة طويلة، ضمير كاثوليكي حي. «اعترفي بآثامك وقدمي مغفرة عنها في ندم وتوبة» كانت إيلين قد أخبرتها مئة مرة، وهكذا فإن تعاليم إيلين الدينية عاودتها في هذه الأزمة وقبضت عليها. ستعترف - أجل، بكل شيء، بكل نظرة وكلمة، بتلك الملاطفات القليلة - وعندئذ سيخفف اللّه من ألمها ويمنحها الطمأنينة، وأما بالنسبة إلى عقابها، فسيكون هناك منظر وجه ميلاني الرهيب وهو يتحول من حب وثقة ودودين إلى رعب وكراهية جاحدين. ها لقد كان ذلك عقاباً قاسياً، فكرت بألم، أن تضطر إلى أن تقضي حياتها وهي تتذكر وجه ميلاني، وتعلم أن ميلاني قد عرفت كل الصَّغار، والدناءة، والخيانة ذات الوجهين، والنفاق، الذي كان فيها.

فيما مضى، كانت فكرة قذف الحقيقة في وجه ميلاني بطريقة جارحة لاذعة، ورؤية انهيار نعيم غبائها، فكرة مدهشة بالنسبة إلى سكارلت، خطوة تستحق كل شيء كان يمكن أن تخسره من أجل تنفيذها. ولكن الآن، تغير كل شيء في ليلة، ولم يعد هناك شيء ترغب فيه أقل من رغبتها في هذه الفكرة. أما لماذا كان ذلك، فلم تكن تعرف، إذ كان عقلها مسرحاً لضوضاء عظيمة ناجمة عن تصارع الأفكار فيه، الأمر الذي جعلها تعجز عن فرز هذه الأفكار، لقد كانت

تعرف فقط أنها كانت تعتقد أن ابنتها عفيفة طاهرة القلب، ولذلك فقد كانت ترغب الآن متلهفة في أن تحتفظ برأي ميلاني الرفيع فيها. لقد كانت تعرف فقط أنها لم تكن تعبأ بما كانت الدنيا تعتقد فيها، أو بما كان آشلي أو ريت يعتقد فيها، ولكن ميلاني كان ينبغي ألّا تعتقد أنها كانت غير ما كانت تعتقد بها دائماً.

كانت فزعة من أن تخبر ميلاني الحقيقة، ولكن إحدى غرائزها الشريفة النادرة ارتفعت فيها، غريزة لم تكن لتدعها تتنكر في ألوان كاذبة أمام المرأة التي خاضت المعارك من أجلها، ولذلك أسرعت إلى ميلاني في ذلك الصباح حالما غادر ريت وبوني البيت.

ولكن وعلى أثر كلماتها الأولى المتعثرة: «ميلي ينبغي أن أوضح قضية ذلك اليوم -» أسكتتها ميلاني بلهجة آمرة. وأدركت سكارلت وهي تنظر بوجه خجول إلى العينين السوداوين اللتين كانتا ستتبعان الاعتراف، لا يمكن أن تكون من نصيبها. لقد قطعت ميلاني إلى الأبد طريق الاعتراف ذاك بكلماتها الأولى. وأدركت سكارلت بإحدى العواطف الرشيدة القليلة التي كانت تنعم بها، أن التخفيف عن قلبها المعذب سيكون محض أنانية، إذ ستكون قد تحررت من عبئها ووضعته على قلب إنسان بريء أمين. لقد كانت تدين لميلاني بدفاعها عنها وذلك الدين كان يمكن أن يسدد بالصمت فقط. أي وفاء مجحف سيكون في تدمير حياة ميلاني بإطلاعها على الحقيقة المستنكرة، حقيقة أن زوجها كان خائناً لها، وأن صديقتها المحبوبة كانت شريكته في الخيانة.

«ليس في وسعي أن أخبرها» فكرت ببؤس «أبداً. لا، حتى ولو قتلني ضميري». وتذكرت، وفي وقت غير مناسب، عبارة ريت السكرى «إنها لا تستطيع أن تدرك الخيانة في أي إنسان تحبه... دعي تلك تكون إحدى بلاياك».

أجل، ستكون بليّتها، إلى أن تموت: أن تُبقي هذا العذاب صامتاً في داخلها، أن تلبس قميص العار المنسوج من الشعر، وأن تحس به

يخزها عند كل نظرة أو إشارة ودودة يمكن أن تصدر عن ميلاني خلال السنين، وأن تخضع إلى الأبد رغبتها في أن تصيح: «لا تكوني لطيفة جداً! لا تحاربي من أجلي! فأنا لا أستحق ذلك!»

«لو أنك فقط لم تكوني غبية هكذا، عذبة هكذا، أمينة حمقاء، ساذجة التفكير، لما كان الأمر بهذه القسوة» فكرت بائسة «لقد حملت أعباء كثيرة، ولكن هذا سيكون أثقل الأعباء التي حملتها وأعظمها ترميضاً».

كانت ميلاني تجلس قبالتها على كرسي منخفض، وكانت قدماها مركزتين بثبات على متكأ شديد الارتفاع بحيث إن ركبتيها كانتا معلقتين كركبتَي طفلة، الوضع الذي لم تكن لتتخذه لو لم يكن الغضب قد تملّكها إلى حد أن نسيت أصول اللياقة. وكانت تحمل خيطاً للحياكة في يديها وتحرك الإبرة اللماعة بعنف، إلى الأمام وإلى الوراء، وكأنها كانت تحرك سيفاً رفيعاً في مبارزة.

لو أن غضباً كهذا كان يتملّك سكارلت، لضربت الأرض بكلتا قدميها ولزأرت كجيرالد في أجمل أيامه، ولدعت اللّه أن يشهد على النفاق الملعون وعلى مكر بني الإنسان، ولنطقت بتهديدات تقشعر منها الأبدان، تهديدات عن الانتقام. ولكن ميلاني أعلنت عن سعير غضبها الداخلي بالإبر اللماعة وبحاجبيها الناعمين المنخفضين باتجاه أنفها وحسب. كان صوتها بارداً وكانت كلماتها أكثر اقتضاباً من المعتاد، ولكن الكلمات المؤثرة التي نطقت بها كانت غريبة على ميلاني، التي نادراً ما جاهرت برأي والتي لم تتفوّه بكلمة قاسية أبداً. وتبينت سكارلت فجأة أن الويلكسيين والهاملتونيين قادرون على ثورات تعادل وتفوق ثورات الأوهاريين تلك.

- «لقد غدوت تعبه جداً من سماع الناس ينتقدونك يا حبيبتي» قالت ميلاني «وهذه هي القشة الأخيرة وإني لعازمة على أن أفعل شيئاً بصددها. لقد حدث كل هذا لأن الناس يحسدونك، لأنك نبيهة

وناجحة جداً. لقد نجحت حيث فشل كثير من الرجال. والآن لا تغتاظي مني يا عزيزتي بسبب قولي ذلك. إني لا أعني أنك تصرفت يوماً بطريقة لا تليق بالنساء أو أخرجت نفسك عن تقاليد جنسهن كما قال كثير من الرجال. لا، فأنت لم تفعلي ذلك، ولكن الناس لا يفهمونك، كما أنهم لا يستطيعون احتمال كون النساء نبيهات. غير أن نباهتك ونجاحك لا يمنحان الناس الحق في أن يقولوا إنك وآشلي - يا للسماء!».

كان يمكن أن تكون الثورة الناعمة في هذه الصرخة الأخيرة، فيما لو كانت على لسان رجل، امتهاناً ذا معنى لا لبس فيه، ولذلك حملقت سكارلت فيها وقد أجفلت من هذه الثورة التي لم يسبق لها مثيل منها.

- «أما أن يأتوا إليّ بالافتراءات القذرة التي كانوا قد لفّقوها - آرشي وإنديا والسيدة إلسينغ! كيف تجرأوا؟ طبعاً لم تأت السيدة إلسينغ هنا، لا في الحقيقة، فهي لم تملك الشجاعة الكافية لذلك، ولكنها كانت دائماً تبغضك يا عزيزتي، لأنك كنت محبوبة أكثر من فاني. وكذلك فإنها اغتاظت كثيراً لإقالتك هيو من إدارة المعمل. غير أنك كنت محقة تماماً في إقالته. إنه مجرد إنسان تافه قليل العمل، لا يصلح لشيء» وهكذا طردت ميلاني بسرعة زميل لعب طفولتها، وعشيقها وهي في العقد الثاني من العمر. «إني ألوم نفسي بسبب آرشي. كان ينبغي ألّا آوي الوغد العجوز. لقد قال الجميع ذلك. إلا أني لم أصغ إليهم. كان لا يحبك يا عزيزتي بسبب الأشقياء، ولكن من هو لينتقدك؟ إنه قاتل امرأة أيضاً! وبعد كل الذي فعلته من أجله، يأتي إليَّ ويخبرني - كان ينبغي ألّا أندم أبداً لو أن آشلي قتله. وفي وسعي أن أخبرك أنني طردته وبرغوث كبير في أذنه، وقد غادر المدينة. وأما بالنسبة إلى إنديا، تلك المخلوقة الرذيلة، عزيزتي، إني لم أستطع إلا أن ألاحظ منذ المرة الأولى التي رأيتكما فيها معاً أنها تغار منك وتبغضك لأنك أجمل منها بكثير، ولأن عشاقاً كثيرين كانوا يحومون حولك. وكانت تبغضك بسبب

ستيورات تارلتون بصفة خاصة، لأنها كانت تأمل كثيراً الزواج به بحيث إنها - الواقع أني أمقت أن أقول ذلك عن شقيقة آشلي، إلا أني أعتقد أن عقلها قد شل من جرّاء تفكيرها الكثير الدائم! لا يوجد تفسير آخر لفعلتها... لقد أخبرتها أن لا تطأ هذا البيت أبداً. وإني إذا ما سمعتها تدس دساً رخيصاً كهذا، فسأدعوها كاذبة أمام الناس».

وفجأة كفّت ميلاني عن الكلام وغادر الغضب وجهها ليغمره الندم. كانت ميلاني تؤمن بالوفاء العائلي المتين الخاص بالجورجيين ولذلك كان التفكير في شجار عائلي يمزق قلبها، وعلى ذلك ترددت لحظة. إلا أن سكارلت كانت أعز الناس عليها، لقد كانت تأتي في المرتبة الأولى في قلبها، ولذلك تابعت حديثها بإخلاص:

- «لقد كانت دائماً غيورة لأني كنت أحبك أكثر من الجميع يا عزيزتي. لن تدخل هذا البيت ثانية، كما أني لن أضع قدمي تحت سقف يستقبلها. إن آشلي يؤيدني في هذا الموقف. غير أن الأمر كاد يحطم قلبه لأن شقيقته نطقت بفرية».

وعند ذكر اسم آشلي، انهارت أعصاب سكارلت المنهوكة، وانفجرت هي بالدموع. ألن تكف عن طعنه في القلب؟ لقد كانت فكرتها الوحيدة هي أن تجعله سعيداً وآمناً، ولكن في كل دور، كان يبدو أنها كانت تؤذيه. لقد حطمت حياته وهدمت كبرياءه، واحترامه الذاتي، ودمرت تلك الطمأنينة الداخلية، تلك السكينة المرتكزة على الكمال. وها هي الآن قد فصلته عن شقيقته التي كان يحبها حباً جماً، في سبيل أن ينقذ سُمعته وسعادة زوجته، كان ينبغي أن تضحي إنديا، وتعتبر قسراً صبية غيورة كاذبة نصف مجنونة - إنديا التي كان هناك ما يبررها كل التبرير في كل شك أضمرته، وفي كل عبارة اتهام نطقت بها. كلما نظر آشلي إلى عيني إنديا كان يمكن أن يرى الحقيقة متألقة هناك، الحقيقة في اللون والازدراء البارد الذي كان الويلكسيون أسياده.

وأدركت سكارلت وهي التي كانت تعرف كم كان آشلي يقدر الشرف، إنه لا بد أن يكون متميزاً غيظاً إلى الآن، فلقد أرغم سكارلت على أن يلجأ خلف أطواق ميلاني. وبينما تبينت سكارلت ضرورة هذا الشيء، وعرفت أن اللوم على وضعه الخاطئ، كان في معظمه يقع عليها، إلا أنها مع ذلك - مع ذلك - كانت، شأن السيدات، ستحترم آشلي أكثر لو أنه قتل آرشي واعترف بكل شيء لميلاني وللدنيا. كانت تعرف أنها كانت حائرة، غير أنها كانت بائسة جداً بحيث لم يكن في وسعها الاهتمام بنقاط دقيقة كهذه. وعاودتها بعض كلمات ازدراء ريت المثيرة، وتساءلت عما إذا كان آشلي قد قام بدور الرجل في هذه الأزمة. وللمرة الأولى بدأ بعض الألق المشرق الذي كان قد غمره منذ اليوم الأول الذي وقعت فيه بحبه، بدأ يبهت بطريقة غير مدركة. كان طلاء العار والإثم الذي يكتنفها يمتد إليه أيضاً، وكانت هي تحاول بعناد أن تطرد هذه الفكرة، ولكن ذلك لم يزد على أن يجعلها تبكي بمرارة أشد.

- «لا تبكي! لا تبكي!» صاحت ميلاني، مفلتة أويتها وملقية بنفسها على الكنبة ومُتْكئة رأس سكارلت على كتفها «كان ينبغي ألّا أتحدث عن الموضوع كله وأكدرك هكذا. إني أعرف مدى رهبة ما لا بد أنك تشعرين به، ولذلك فلن أذكر القضية مرة ثانية. لا، ليس لأي منا نحن الاثنتين، أو لأي إنسان آخر. وسيغدو الأمر كأنه لم يحدث ولكن» أضافت بِغِلٍّ ساكن «سأُري إنديا والسيدة إلسينغ ماهية فعلتهما، ليستا في حاجة إلى أن تفكرا أن في وسعهما نشر الافتراءات عن زوجي وعن زوجة شقيقي. سأنتقم لنفسي بحيث لن تستطيع كلاهما رفع رأسيهما في أتلانتا. وكل شخص سيصدقهما أو يستقبلهما سيكون عدوي».

أدركت سكارلت وهي تنظر بحزن إلى فترة السنين الطويلة القادمة، أنها كانت سبب نزاع، نزاع سيقسم المدينة والعائلة مدى أجيال.

* * *

كانت ميلاني صادقة ككلمتها، فلم تعد تذكر الموضوع لسكارلت أو لآشلي مطلقاً، كما لم تكن لتبحثه مع أي إنسان. لقد احتفظت بمظهر عدم اهتمام بارد سرعان ما كان يمكن أن يتحول إلى وضع رسمي يتسم بعدم الاكتراث، إذا ما تجرأ أي إنسان، حتى على التلميح إلى الموضوع. وخلال الأسابيع التي تلت حفلتها المدهشة، وبينما كان ريت في غياب غامض والمدينة في حالة مجنونة من الحديث والاضطراب والتحزب، لم ترحم ميلاني أولئك الذين كانوا يعيبون سكارلت، سواء كانوا من أصدقائها القدامى أو أقربائها بالدم. لم تكن تتكلم بل كانت تفعل.

كانت تلازم جانب سكارلت كنبتة أرقطيون وأقنعت سكارلت بالذهاب إلى المخزن وإلى معمل الخشب كالمعتاد في كل صباح وكانت تذهب معها، كما أصرت على أن تذهب سكارلت في العربة بعد الظهر، مع أن هذه قلّما كانت ترغب في عرض نفسها على الأنظار الفضولية المتلهفة، أنظار زميلاتها في المدينة. وكانت ميلاني تجلس في العربة إلى جانبها، وكذلك كانت تصطحبها في زياراتها بعد أظهار الأيام الرسمية وتدفعها برفق داخل الردهات التي لم تكن سكارلت قد جلست فيها منذ أكثر من سنتين. وكانت ميلاني وتعبير «الذي يحبني يحب كلبي» يعلو وجهها، تتحدث مع مضيفاتها المشدوهات.

كانت تجعل سكارلت تصل باكراً بعد أظهار هذه الأيام، وتظل هناك إلى أن تكون آخر الزائرات قد غادرت المكان، وبهذا كانت تحرم السيدات فرصة حديث الجماعة الممتع والتخمينات الكلامية الشيقة، مما كان يسبب لهن بعض السخط. كانت هذه الزيارات عذاباً خاصاً لسكارلت، ولكنها لم تتجرأ على رفض الذهاب بصحبة ميلاني. كانت تمقت أن تجلس وسط جموع النساء اللواتي كنّ يتساءلن عما إذا كانت قد انغمست بالرذيلة فعلاً، وكذلك كانت تمقت حقيقة أن هؤلاء النسوة

لم يكنّ ليتحدثن إليها لولا أنهن كنّ يحببن ميلاني، ولا يرغبن في خسران صداقتها، غير أن سكارلت كانت تعرف أنهن، وقد استقبلنها مرة، لن يستطعن أن ينتقدنها بعد ذلك.

كان من ميزة الاعتبار الذي تبوأته سكارلت أن أناساً قليلين بنوا دفاعهم عنها أو انتقادهم لها في ضوء استقامتها الشخصية. «نحن لا ننظر إلى أبعد من شخصها» كانت وجهة النظر الاجتماعية. كانت سكارلت قد أوجدت لنفسها أعداء كثيرين جداً، بحيث لم تحظ الآن بمدافعين كثيرين عنها. كانت أقوالها وأفعالها تعتمل في قلوب عديدة جداً، ولكن الجميع حفلوا بحماس فيما يتعلق بإيلام ميلاني أو إنديا. وهكذا دارت العاصفة حولهما لا حول سكارلت، متمركزة على سؤال واحد «هل كذبت إنديا؟».

وأشار أولئك الذين اتخذوا جانب ميلاني إلى حقيقة أن ميلاني كانت برفقة سكارلت دائماً هذه الأيام، أكان يمكن لامرأة تحمل مثل ميلاني الرفيعة أن تناصر قضية امرأة مذنبة، خصوصاً امرأة مذنبة مع زوجها؟ لا، حقاً! لقد كانت إنديا مجرد عانس عجوز مختلة العقل تكره سكارلت فافترت عليها وأقنعت آرشي والسيدة إلسينغ بأن يصدقا افتراءاتها.

ولكن كان أنصار إنديا يسألون، إذا لم تكن سكارلت مذنبة فأين الكابتن باتلر؟ لماذا هو غير موجود هنا إلى جانب زوجته، يمدّها بقوة رضاه عنها؟ لقد كان ذلك سؤالاً بلا جواب. وعندما توالت الأسابيع، وانتشرت الإشاعة معلنة حبل سكارلت، أطرق أنصار إنديا رؤوسهم مقتنعين. لا يمكن أن يكون ذلك الجنين طفل الكابتن باتلر، كانوا يقولون، ولبرهة طويلة، ظلت حقيقة دهشتهم أمراً عاماً، ولبرهة طويلة، ظلت المدينة مسرحاً لفضيحة وجود غرفتي النوم المنفصلتين.

وهكذا استمر الحديث ممزقاً المدينة قسمين، ممزقاً كذلك عشيرة

آل هاملتون وويلكس وبور وويتمن وونفيلد، العشيرة المتينة الأواصر. إذ اضطر كل فرد من أفراد العشيرة إلى أن يأخذ الجانبين، فلم يكن هناك موقف حيادي. وكانت كل من ميلاني وإنديا تهتم بالأمر، الأولى بوقار رصين والثانية بمرارة حادة. ولكن مهما كان الجانب الذي كان الأقرباء يأخذونه، فقد كان الجميع مستائين من أن تكون سكارلت سبب انشقاق العائلة. ولم يكن أحد منهم يعتقد أنها تستحق أن تكون سبب ذلك الأمر. ومهما كان الجانب الذي كانوا يؤيدونه فإن الأقرباء أسفوا قلبياً لحقيقة أن إنديا قد أخذت على نفسها غسل شرشف العائلة القذر على تلك الصورة العلنية، وتوريط آشلي في فضيحة كتلك. ولكن الآن، وقد صرحت برأيها، فإن كثيرين هرعوا للدفاع عنها وأيدوا جانبها ضد سكارلت، تماماً كما أيّد آخرون من محبي ميلاني ميلاني وسكارلت.

وكان نصف سكان أتلانتا إما أقرباء أو يدعون قرابة ميلاني وإنديا، إذ كانوا تفرغات أبناء الأعمام، وأبناء أبناء الأعمام والأصهار، وأطراف العمومة.

كان جميعهم متشابكين ومتداخلين كثيراً في علاقاتهم النَّسَبية بحيث لم يكن في وسع أحد سوى جورجي أصيل تحليل هذه العلاقات، لقد كانوا دائماً قبيلة عشائرية، تقدم للدنيا في وقت الشدة عصبة متحدة من دروع متلاحمة، مهما يمكن أن تكون آراؤهم الخاصة بصدد سلوك الأقرباء الفرديين. وباستثناء حرب العصابات المستمرة التي كانت تقوم بها العمة بيتي ضد العم هنري، تلك الحرب التي كانت مادة دسمة للضحك المبهج بين أفراد العائلة طوال سنين، فإنه لم يحدث هناك أي نزاع علني في العلاقات السارة، لقد كانوا أناساً متحفظين لطافاً رقيقي الحديث، لا يستسلمون حتى للخصام الودي الفردي الذي يميز معظم عائلات أتلانتا.

ولكنهم أضحوا الآن منشقين إلى حزبين، وحظيت المدينة بميزة

مشاهدة أبناء الأعمام من الدرجة الخامسة أو السادسة يتحزبون في أعظم فضيحة مدمرة شهدتها أتلانتا. وقد سبب هذا الخصام مشقة عظيمة وأحرج نصف سكان المدينة الآخر الذي لم تكن القرابة تربطه بالمتخاصمين من حيث معرفة ما يليق عمله أو الامتناع عنه، ذلك لأن نزاع إنديا - ميلاني أحدث عملياً شقاقاً في كل منظمة اجتماعية. فالثاليون[1] و«حلقة الخياطة لأرامل وأيتام الحلف»، و«جمعية تجميل قبور موتانا الأمجاد»، و«حلقة موسيقى مساء السبت»، و«جمعية سيدات رقصات المساء»، وأعضاء «مكتبة الشباب»، كانوا جميعاً متورطين في النزاع، وكان ينبغي بذل اهتمام كبير لتجنب وضع أعضاء من الحزبين المتخاصمين في اللجان ذاتها.

كانت سيدات أتلانتا وهنّ في جلساتهن البيتية النظامية بعد أظهار الأيام يظللن في كرب واجل خشية أن تزورهن ميلاني وسكارلت في الوقت نفسه الذي تكون فيه إنديا وقريباتها المخلصات في ردهاتهن.

وكانت العمة بيتي المسكينة من بين جميع أفراد العائلة، تعاني من هذا الشجار أكثر من الجميع، ذلك أن بيتي التي لم تكن ترغب في شيء سوى أن تعيش بهدوء وسط محبة الأقرباء، كان يمكن أن تكون بالغة السرور في هذا الموضوع، كي تجري مع الأرانب البرية وتصيد مع الوحوش، ولكن لم تكن الأرانب أو الوحوش لتسمح بذلك.

كانت إنديا تعيش مع العمة بيتي، فلو أيدت بيتي ميلاني، كما كانت ترغب في أن تفعل، لغادرتها إنديا، وعندئذ، ماذا كان ينتظر أن تفعل بيتي المسكينة؟ إنها لا تستطيع العيش وحدها، وستضطر إلى أن تُحضر غريبة لتعيش معها، أو أن تقفل البيت وتذهب لتعيش مع سكارلت. وكانت العمة بيتي تشعر شعوراً غامضاً بأن الكابتن باتلر لم

---

(1) أعضاء منظمة فكرية - (المترجمان).

يكن ليحفل بهذا الأمر كله. أو إنها كانت ستضطر لتذهب وتعيش مع ميلاني في المقصورة الصغيرة التي كانت غرفة بو.

لم تكن بيتي مولعة بإنديا كثيراً، لأن إنديا كانت تجفلها بأساليبها العنيدة الجافة، وباعتقاداتها العاطفية، إلا أنها مكنت بيتي من أن تحتفظ بمسكنها المريح. وكانت بيتي دائماً تساس من قبل الاعتبارات المتعلقة براحتها الشخصية أكثر مما تساس من قبل المُثُل الخلقية، ولذا ظلت إنديا برفقتها.

على أن وجودها في البيت جعل العمة بيتي محوراً لعاصفة، لأن كلا سكارلت وميلاني اعتبرتا أن ذلك يعني تأييدها لإنديا. ورفضت سكارلت بفظاظة أن تستمر في تبرعها بالنقود لمسكن بيتي ما دامت إنديا تقيم تحت السقف ذاته. وكان آشلي يبعث بالنقود إلى إنديا كل أسبوع، وكل أسبوع كانت إنديا تعيد النقود بكبرياء وصمت رغم انزعاج السيدة العجوز وأسفها. وهكذا أضحى من المتوقع أن تصبح الأوضاع المالية في البيت الآجري في حالة محزنة لولا تدخُّل العم هنري، وكان مما يحز في كرامة بيتي أن تأخذ المال من شقيقها هنري.

كانت بيتي تحب ميلاني أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا باستثناء نفسها، وكانت ميلي تتصرف الآن تجاهها تصرف غريبة مهذبة لا تربطها بها عاطفة. فمع أنها كانت تعيش عملياً في ساحة بيت بيتي الخلفية، إلا أنها لم تأت مرة عبر السياج، بل كانت تسرع في الدخول والخروج عشر مرات في اليوم. وكانت بيتي تزورها وتبكي وتثبت حبها وإخلاصها، غير أن ميلاني كانت دائماً ترفض بحث الأمور معها، ولم تكن تردّ الزيارات أبداً.

وكانت بيتي تعرف تمام المعرفة بماذا كانت تدين لسكارلت - كانت تدين لها بوجودها ذاته تقريباً. فمن الأكيد أنه في تلك الأيام السوداء التي تلت الحرب، عندما جوبهت بيتي بضرورة الاختيار بين

البقاء عند أخيها هنري أو التضور جوعاً، فتحت لها سكارلت بيتها على مصراعيه وأطعمتها وكستها ومكنتها من أن ترفع رأسها في مجتمع أتلانتا. ومنذ أن تزوجت سكارلت وانتقلت إلى بيتها، كانت الكرم عينه، وكان الكابتن باتلر الفاتن المرعب ذاك - مراراً بعد أن كان يزورها مع سكارلت، كانت بيتي تجد أكياس نقود قشيبة محشوة بأوراق النقود، تجدها على منضدتها، أو تجد مناديل مزركشة معقودة على قطع ذهبية دُسَّت خفية في علبة خياطتها. وكان ريت يقسم دائماً إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، ويتهمها بطريقة غير مهذبة أبداً، بأن لها معجباً بها خفياً، هو في العادة غراندبا ميريويذر ذو الشاربين.

أجل، لقد كانت بيتي تدين بالحب لميلاني والإحسان لسكارلت، وبماذا كانت تدين لإنديا؟ بلا شيء سوى أن وجود إنديا إلى جانبها كان يحفظها من أن تدمر حياتها السارة وتتخذ القرارات بنفسها لنفسها. لقد كان الوضع مضايقاً جداً، مبتذلاً للغاية، ولذا تركت بيتي، التي لم تكن قد اتخذت قراراً لنفسها طوال حياتها، تركت الأمور ببساطة، تستمر على وتيرتها. وكنتيجة لذلك، كانت كثيراً ما تقضي وقتاً طويلاً في بكاء مؤلم.

وفي النهاية، اعتقد بعض الناس من كل قلوبهم ببراءة سكارلت، ليس بسبب فضيلتها الشخصية، ولكن لأن ميلاني كانت تعتقد بذلك. كما كان لدى البعض تحفظات عقلية في هذا الصدد، غير أنهم كانوا لطيفين مع سكارلت لأنهم كانوا يحبون ميلاني ويرغبون في الحفاظ على هذا الحب. أما أنصار إنديا فكانوا ينحنون لسكارلت ببرود، وكان البعض القليل منهم ينتقدها علناً. وكان هؤلاء الآخرون مضايقين مثيرين، إلا أن سكارلت أدركت أنه لولا دفاع ميلاني عنها لانقلب وجه المدينة بأسره ضد شخصها ولغدت إنسانة منبوذة.

56

مضت ثلاثة أشهر على سفر ريت. لم تتلقَّ سكارلت خلالها أي نبأ منه. ولم تكن تعرف مكان وجوده، ولا كم سيطول سفره، بل لم يكن لديها في الحقيقة أي فكرة عما إذا كان سيعود أم لا. وكانت خلال هذه المدة تشرف على عملها وهي رافعة الرأس مريضة القلب. ولم تكن تشعر بالصحة، ولكنها بدافع من ميلاني، كانت تذهب رغم ذلك إلى المخزن كل يوم، وتحاول أن تحتفظ باهتمام ظاهري بالمعلمين. غير أن المخزن ضؤلت قيمته في نظرها للمرة الأولى، ورغم أن العمل غدا ثلاثة أضعاف ما كان عليه في السنة السابقة، وكان المال يتدفق منه، لم يكن في وسعها أن تحفل به، وأضحت عبوسة حادة مع الكتاب. وكان معمل جوني كاليغر في ازدهار مستمر، ومستودع الخشب يبيع كل إنتاجه بسهولة، ولكن لم يسرّها شيء مما كان جوني يفعله أو يقوله. وأخيراً انفجر جوني، وهو إيرلندي مثلها، انفجر غاضباً من جرّاء نكدها وهدد بالاستقالة بعد حملة كلامية طويلة أنهاها بعبارة: «وظهرا يدي كلتيهما لك يا سيدة[1]، ولعنة كرومويل عليك»، وهكذا اضطرت سكارلت إلى تهدئته بأخس الاعتذارات.

ولم تكن سكارلت تذهب إلى معمل آشلي أبداً، وكذلك لم تكن

---

(1) عبارة تنم عن عدم الاكتراث - (المترجمان).

تذهب إلى مكتب مستودع الخشب عندما كانت تعتقد بوجوده هناك. كانت تعرف أنه كان يتجنبها، وتعرف أن وجودها الدائم في بيته تلبية لدعوات ميلاني، التي لا مفر منها، كان عذاباً له، ولم يكن الاثنان يتكلمان على حدة، وكانت هي مستميتة على الاستفسار منه، تريد أن تعرف إذا كان يبغضها الآن وماذا كان قد أخبر ميلاني بالضبط، إلا أنه كان يبقيها على بعد ذراع منه ويتوسل إليها ألّا تتكلم، وكان منظر وجهه، وجه المسن الزائغ من جرّاء تقريع الضمير، يزيد في عبئها. وكانت خسارة معمله في كل أسبوع، منغصاً إضافياً لم يكن في وسعها التصريح به.

كان عجزه أمام الوضع الحالي يثيرها، ولم تكن تعرف ما كان في وسعه أن يفعل ليحسّن الوضع، ولكنها كانت تشعر بأن عليه أن يفعل شيئاً، حتى ولو كان الشيء الخاطئ، وكانت هي تحترمه كارهة بفضل ذلك.

والآن وقد زال سخطها الأساسي على ريت وعلى إهاناته، شرعت تفتقده، وتفتقده أكثر كلما مرت الأيام من دون ورود نبأ منه. ومن بين خليط الفرح والغضب وخيبة القلب والكبرياء الجريح، الذي كان قد خلّفه لها، برز الغم ليجثم على كاهلها كغراب الجيف. لقد افتقدته، افتقدت لمسته الخفيفة الزرية في نوادره التي كانت تجعلها ترفع صوتها بالضحك، افتقدت ابتساماته التهكمية التي كانت تخفف المتاعب إلى نسبها الصحيحة، افتقدت حتى سخرياته التي كانت تلسعها لسعاً إلى حد دفعها إلى الرد الغاضب، بيد أن أكثر ما افتقدته كان وجوده كمستمع لأخبارها، فقد كان ريت مُرضياً جداً في تلك الناحية. كان في وسعها أن تروي أمامه بتفاخر وبلا حياء كيف أنها كانت تستغل الناس أسوأ استغلال وكان يصفق استحساناً، بينما لو ذكرت أموراً كهذه مجرد ذكر لأناس آخرين، لذهلوا.

لقد أحست بالوحشة من دونه ومن دون بوني. لقد افتقدت الطفلة أكثر مما توقعت، وعندما تذكرت الكلمات الأخيرة القاسية التي كان ريت قد قذفها بها والتي تتعلق بويد وإيلا، حاولت أن تملأ بها بعض ساعات فراغها، ولكن من دون جدوى، ذلك أن كلمات ريت وردود فعل الطفلين، فتحا عينيها على حقيقة مرة مفزعة. لقد كانت أثناء طفولة كل منهما مشغولة جداً، قلقة جداً بقضايا المال، حادة الطبع كثيراً، سريعة التهيج، بحيث لم يسعها أن تكسب أياً من ثقتهما أو عاطفتهما. والآن، إما أن الوقت أصبح متأخراً جداً لتصل إلى قلبيهما الصغيرين الخفيين، أو أنها لم تكن تملك الصبر أو الحكمة للوصول إلى ذلك.

إيلا! كان يزعج سكارلت أن تدرك أن إيلا كانت فتاة حمقاء، غير أنها كانت حمقاء ولا ريب. فلم يكن في وسعها أن تبقي عقلها في موضوع واحد أكثر مما يستطيع عصفور أن يظل على غصن. حتى عندما كانت سكارلت تحاول أن تروي لها قصصاً، كانت إيلا تقاطع تسلسل القصة بشرود الأطفال، تقاطع والدتها بأسئلة لا علاقة لها بالقصة وتنسى الذي سألته قبل أن يكون في وسع سكارلت النطق بالإيضاح بوقت طويل، وأما بالنسبة لويد، فربما كان ريت مصيباً، ربما كان الصبي يخشاها، الأمر الذي كان مستغرباً ومؤلماً. لماذا ينبغي لابنها الوحيد أن يخشاها؟ وعندما كانت تحاول دفعه إلى الكلام، كان ينظر إليها بعيني تشارلز العسليتين الناعستين ويلوي قدميه في ارتباك ويثنيهما، بينما كان يتدفق بالحديث مع ميلاني، ويخرج كل شيء من جيبه ليريه لها، كل شيء من ديدان صيد السمك إلى الخيطان القديمة.

كانت لميلاني طريقة خاصة في معاملة الأطفال، طريقة لا يمكن المراوغة حولها. وكان ابنها بو الصغير أحسن الأطفال سلوكاً وأعظمهم محبة في أتلانتا. ولقد نجحت سكارلت معه أكثر من نجاحها

مع ابنها، لأن بو الصغير لم يكن يخجل من الكبار، فكان يتسلق إلى ركبتها من دون دعوة منها كلما رآها، يا له من صبي أشقر جميل، تماماً كآشلي! والآن، حبذا لو أن ويد كان كبو - طبعاً، إن سبب مقدرة ميلاني على تنشئته نشأة رفيعة هو أنه كان لها ولد واحد فقط، ولم يكن عليها أن تقلق أو تشتغل مثلما كان الحال مع سكارلت. وعلى الأقل، حاولت سكارلت أن تبرر خطأها بتلك الطريقة، ولكن الأمانة أرغمتها على أن تعترف بأن ميلاني كانت تحب الأطفال، وكان ينتظر أن ترحب بدزينة منهم، كما أن عاطفتها الجياشة كانت تتدفق على ويد وأبناء الجيران.

ولن تنسى سكارلت صدمتها في ذلك اليوم الذي اقتربت فيه من بيت ميلاني لتأخذ ويد إذ سمعت وهي تبلغ نهاية الممشى الأمامي، صوت ابنها يرتفع في تقليد ناجح جداً لصيحة الثائر! - ويد الذي كان دائم السكون كفأر في البيت. وتلا صيحة ويد بلهجة رجل، صفير بو المجلجل. وعندما خطت سكارلت داخل غرفة الجلوس، وجدت الاثنين يتبارزان على الكنبة بسيفين خشبيين، غير أنهما صمتا خجلاً عند دخولها كما نهضت ميلاني ضاحكة وهي تقبض على دبابيس شعر وخصلات من شعرها طائرة، نهضت من حيث كانت تربض خلف الكنبة:

- «إنها غتيسبورغ» أوضحت «وأنا الشماليون، وحتماً لقد نلت الأمرَّين منها. هذا هو الجنرال لي» وأشارت إلى بو «وهذا هو الجنرال بيكت» ووضعت ذراعها حول كتف ويد.

أجل لقد كانت لميلاني طريقة خاصة في معاملة الأطفال، طريقة لم تستطع سكارلت إدراك كنهها أبداً.

«على الأقل» فكرت «إن بوني تحبني وترغب في اللعب معي»، ولكن الامانة أرغمتها على الاعتراف بأن بوني كانت تفضل ريت عليها

إلى درجة غير محدودة. وربما لن ترى بوني ثانية، لأن كل ما كانت تعرفه هو أن ريت يمكن أن يكون في إيران أو مصر، وأنه كان عازماً على الإقامة هناك إلى الأبد.

وعندما أخبرها الدكتور ميد أنها حبلى، ذهلت، لأنها كانت تتوقع منه تشخيصاً لمرض الصفراء أو الأعصاب المنهوكة، لكن عقلها ما لبث أن عاد بسرعة إلى تلك الليلة الآبدة، وتخضب وجهها خجلاً من الذكرى. إذن، فإن وليداً سيأتي من تلك اللحظات الطافحة هناء - حتى ولو أن ذكرى الهناء قتمت بما تلاها. وللمرة الأولى شعرت بالسعادة لأنها كانت ستلد طفلاً، حبذا لو يكون صبياً! صبياً جميلاً! لا مخلوقاً بليداً صغيراً كويد. ما أعظم ما ستعتني به الآن وهي تنعم بالفراغ لتكرسه لطفل وبالمال لتمهد به طريقه. ما أعظم ما ستكون عليه سعادتها! وأحست بدافع لأن تكتب لريت بواسطة والدته في شارلستون، وتزف إليه النبأ. يا للّه الطيب، ينبغي أن يعود إلى البيت الآن! هب أنه ظل بعيداً إلى ما بعد ولادة الطفل! لن يكون في وسعها إيضاح ذلك! ولكن إن هي كتبت إليه فسيظن أنها تريده أن يعود إلى البيت، الأمر الذي سيطربه. غير أنه يجب ألّا يظن أبداً أنها كانت تريده أو تحتاج إليه.

وغمرتها السعادة لأنها أخمدت هذا الدافع عندما بلغها أول نبأ عن ريت في رسالة من الخالة بولين في شارلستون، حيث ظهر أن ريت كان في زيارة أمه هناك. ما أعظم شعورها بالفرح لمعرفتها أنه كان لا يزال في الولايات المتحدة، حتى ولو أن رسالة الخالة بولين كانت مثيرة. لقد أحضر ريت بوني لتراها والعمة يولالاي، وكانت الرسالة زاخرة بالثناء عليها:

«فتاة جميلة للغاية! عندما ستكبر ستكون حسناء حتماً. ولكني اظن أنك تعرفين أن أي رجل سيغازلها سيتشاجر معه الكابتن باتلر،

لأني لم أرَ أباً غيوراً مثله. والآن يا عزيزتي، إني أرغب في أن أعترف لك بأمر ما. لقد كنت أشعر إلى أن قابلت الكابتن باتلر، بأن زواجك بك كان زواجاً رهيباً غير متكافئ، لأنه طبعاً لا أحد في شارلستون يسمع شيئاً حميداً عنه، كما أن الجميع آسفون جداً على عائلته. والحقيقة أني كنت ويولالاي مترددتين أنستقبله أم لا - ولكن مهما كان الأمر فإن الطفلة العزيزة هي حفيدة شقيقتنا. وعندما أتى، دهشنا بسرور، بسرور بالغ، وأدركنا كم أن مما يخالف التعاليم المسيحية أن يثق المرء بالحديث الباطل، إذ إنه أعظم الرجال سحراً. وإنه في غاية الجمال أيضاً كما حسبنا. وكذلك فهو رزين ولطيف المعشر كثيراً، ومخلص لك ولابنتك.

والآن يا عزيزتي، لا بد لي من أن أكتب إليك عن شيء بلغ مسامعنا - شيء أبيتُ ويولالاي تصديقه في بادئ الأمر. لقد سمعنا، طبعاً، أنك أحياناً تساعدين في العمل في المخزن الذي خلّفه لك السيد كنيدي. لقد سمعنا إشاعات، ولكننا أنكرناها طبعاً. لقد أدركنا أنه في تلك الأيام الرهيبة الأولى بعد الحرب حين كانت الأحوال على ما كانت، ربما كان ذلك من الضروري، ولكن لا توجد أية ضرورة الآن لتصرّف كهذا من جهتك، حيث إني أعرف أن الكابتن باتلر يعيش في ظروف مطمئنة تماماً، وأنه فوق ذلك، قادر تمام القدرة على إدارة أي عمل أو عقار لك. كان لا بد لنا من أن نعرف حقيقة هذه الشائعات، فاضطررنا إلى أن نسأل الكابتن باتلر أسئلة غير مباشرة، الأمر الذي أغمّنا جميعاً. وأخبرنا هو كارهاً أنك تقضين صباحات أيامك في المخزن الذي لن تسمحي لأي إنسان آخر بأن يجري حساباته، كما أنه أقر أيضاً بأن لك بعض الاهتمام في معمل أو معامل (لم نلحّ عليه في هذه النقطة، لأنه كان مضطرباً جداً بسبب هذه الإخبارية التي كانت نبأ جديداً لنا)، مما يتطلب ركوبك وحيدة، أو برفقة وغد يؤكد لنا الكابتن

باتلر أنه قاتل. وقد استطعنا أن نرى كيف أن هذا الأمر يعصر قلبه ألماً، وأن نفكر أنه لا بد أن يكون زوجاً سموحاً جداً - في الحقيقة، زوجاً سموحاً أكثر من الضرورة. سكارلت ينبغي وضع حد لهذا الأمر. إن أمك ليست موجودة لتأمرك، فيجب عليَّ أن أقوم بذلك نيابة عنها. فكري كيف سيشعر أولادك الصغار عندما يكبرون ويتبينون أنك كنت تعملين في التجارة! كم أنهم سيكونون أذلاء عندما يعرفون أنك كنت تعرّضين نفسك لإهانات الرجال الوقحين ولمخاطر الحديث اللامبالي في إشرافك على المعامل، إن استرجالاً كهذا -».

قذفت سكارلت بالرسالة على الأرض دون أن تتم قراءتها ثم أقسمت يميناً. لقد كان في وسعها أن ترى الخالة بولين والخالة يولالاي تقاضيانها في البيت المتداعي في حي باتري وليس يقيهما من الموت جوعاً سوى ما ترسله لهما شهرياً. استرجال؟ واللّه لو لم تكن مسترجلة، لكان من المحتمل أن لا يكون هناك سقف فوق رأسي الخالة بولين والخالة يولالاي في هذه اللحظات بالذات، وليلعن اللّه ريت لأنه أخبرهما عن المخزن والحسابات والمعملين! أذَكَرَ ذلك كارهاً؟ لقد كانت تعرف تمام المعرفة مدى السرور الذي كان يجده في التصنع بإظهار نفسه أمام السيدتين كرجل رزين لطيف ساحر، وزوج وأب يتمثل فيه الإخلاص. لا بد أنه كان يرغب في تكديرهما ببيانات ضافية عن نشاطاتها في المخزن والمعلمين والحانة. يا له من شيطان! لماذا كانت أمور معوجة كهذه تمنحه سروراً عظيماً؟

ولكنها سرعان ما خمد فيها حتى هذا الغضب. وكان مقدار كبير جداً من اللذة الحادة قد غادر حياتها حديثاً. حبذا لو أنها تستطيع أن تسترد روعة آشلي ووهجه - حبذا لو أن ريت يعود إلى البيت ويجعلها تضحك.

* * *

وعاد إلى البيت من دون سابق إنذار، وكان أول إشارة لقدومهما صوت المتاع يُلقى على أرض القاعة الأمامية، وصوت بوني يصيح «أمي!».

أسرعت سكارلت من غرفتها إلى أعلى الدرج ورأت ابنتها تمد ساقيها السمينتين القصيرتين في جهد لتصعد الدرجات وقد ضمّت إلى صدرها هريرة مخططة مستكينة.

- «لقد أعطتنيها جدتي» صاحت مسرورة وهي تمد يدها بالهريرة، ممسكة بها من قذالها.

فحملتها سكارلت بين ذراعيها وقبّلتها وقد غمرها الشكر لأن وجود الطفلة وفّر عليها لقاءها الأول بريت وهي منفردة. وبينما هي تنظر من فوق رأس بوني رأته في القاعة السفلى، يدفع الأجر لسائق العربة، ثم نظر إلى الأعلى ورآها وطوح بكفّه في حركة واسعة، وانحنى وهو يفعل ذلك. أما هي فقد وثب قلبها عندما قابلت عينيه السوداوين. فمهما كان قد فعل، فقد عاد إلى البيت الآن وكانت هي سعيدة بعودته.

- «أين مامي؟» سألت بوني وهي تتململ في قبضة سكارلت التي أوقفتها على قدميها كارهة.

وبعد أن حيت ريت تحية لا تتعدى الدرجة اللائقة من العرضية، بدا لها أن من المنتظر أن يكون الأمر أكثر صعوبة مما توقعت. أما إبلاغه بأمر الطفل الجديد فبدا أشد صعوبة. ونظرت إلى وجهه وهو يصعد الدرجات، ذلك الوجه الأسمر العديم الاكتراث، العديم الثائر، الشديد الغموض. لا، ستنتظر قبل أن تخبره، فليس في وسعها أن تخبره فوراً. ومع ذلك فإن بشائر كهذه تخص الزوج أولاً، لأن الزوج يسر بسماعها دائماً، غير أنها لم تعتقد أن ريت سيسر بها.

كانت تقف على بـ طة الدرج، وتتكئ على الدرابزين وتتساءل عما

إذا كان سيقبّلها. إلا أنه لم يفعل، بل قال فقط «إنك تبدين شاحبة يا سيدة باتلر. هل هناك نقص في طلاء الحمرة؟».

ولم ينبس بكلمة عن افتقاده لها، حتى ولو لم يكن يعنيها. وكان يمكن على الأقل أن يقبّلها أمام مامي التي، بعد أن تهادت تأدباً، كانت تقود بوني في القاعة إلى غرفة الأطفال. أما ريت فقد وقف على بسطة الدرج إلى جانبها وعيناه تتأملانها باستهتار:

- «هل يمكن أن يعني هذا الشحوب أنك كنت تفتقدينني؟» استوضح، وشفتاه تبتسمان، بينما لم تكن عيناه كذلك.

وإذن فتلك ستكون حالته، سيكون مقيتاً كالعادة. وفجأة أصبح الطفل الذي كانت تحمل به، عبئاً مضايقاً بدلاً من أن يكون حملاً ساراً. وبدا هذا الرجل الواقف أمامها باستهتار وقبعته الواسعة المصنوعة من قش باناما على وركه، عدوها الألد، وسبب كل متاعبها. وعندما أجابت كانت عيناها تنطقان بالحقد، حقد كان لا يمكن إخطاؤه أبداً. وغاضت الابتسامة من وجهه.

- «إذا كنت شاحبة، فأنت السبب، وليس ذلك لأني أفتقدك أيها المخلوق المغرور. إن ذلك...». ها، لم تكن قد عزمت على أن تقول له مثل هذا القول غير أن الكلمات اللاذعة اندفعت إلى شفتيها، فقذفت بها عليه غير عابئة بوجود الخدم الذين كان يمكن أن يسمعوها «إن ذلك لأني سأضع طفلاً!».

فشهق فجأة، واستعرضتها عيناه، ثم خطا خطوة سريعة نحوها كأنه يريد أن يضع يده على ذراعها، ولكنها تثنت مبتعدة عنه، وأمام الكراهية في عينيها تجهم وجهه:

- «حقاً!» قال ببرود «على كل حال، من هو الوالد السعيد؟ آشلي؟».

فقبضت على عمود الدرج بشدة، إلى أن وخزت أذنا الأسد

المنحوت راحتها بألم فجائي. حتى هي التي كانت تعرفه جيداً لم تكن تتوقع هذه الإهانة. طبعاً لقد كان يتفكه، ولكن هناك بعض الفكاهات الفظيعة جداً بحيث لا تُحتمل. ولذلك رغبت في أن تقتلع بأظافرها الحادة عينيه وتمحو ذلك الضوء الغريب فيهما.

- «ليلعنك اللّه!» بدأت وصوتها يرتجف بسخط عليه «إنك. . . إنك تعرف أنه ابنك، وإني لا أريده أكثر مما تريده أنت. لا. . . لا تريد أي امرأة أطفال وغد مثلك. إني أتمنى. . . آه يا إلهي، إني أتمنى لو كان طفل أي إنسان، باستثنائك أنت!».

ورأت وجهه الأدكن يتغير فجأة، ورأت كيف أن الغضب وشيئاً آخر لم تستطع تحليله، جعلاه ينتفض كأنه ملسوع.

«أجل!» فكرت بثورة حامية من السرور «أجل! لقد آلمته الآن».

ولكن القناع القديم العديم الثائر عاد فانسدل على وجهه ثانية، بينما مسد أحد جانبي شاربه:

- «طيبي نفساً» قال واستدار عنها صاعداً الدرج «فربما أجهضت».

ولهنيهة زائغة، فكرت ماذا كان يعني الحمل: الجَيَشان الذي كان يبرح بها، الانتظار الممل، تضخم هيكلها، ساعات الألم، أموراً لا يمكن لرجل أن يدركها. وها هو قد جرؤ على أن يتفكه. ستمزقه بمخالبها. لن يخفف شيء هذا الألم المعتمل في قلبها سوى منظر الدم على وجهه الأسمر. واندفعت نحوه بسرعة كهرّة، ولكنه بحركة خفيفة مجفلة، خطا جانباً وطوح بذراعه ليذبها عنه. كانت تقف على الدرجة العليا المشمعة حديثاً، وعندما ضرب ذراعها التي تدعمها بكل ثقل جسدها، ذراعه المطوحة، فقدت توازنها، فحاولت أن تقبض على عمود الدرج، غير أنها أخطأته. فتدحرجت القهقرى على الدرج،

وعندما بلغت بسطة السلم، أحست بوخز ممرض من الألم، ولكنها كانت دائخة جداً بحيث لم تستطع تثبيت نفسها، فاستمرت إلى أسفل الدرج.

* * *

كانت هي المرة الأولى التي تمرض فيها سكارلت، باستثناء فترات ولادة أطفالها التي لم يكن مرضها فيها ذا بال تقريباً. فلم تكن يائسة مذعورة آنئذ كما هي الآن، ضعيفة مضطربة يبرح بها الألم. كانت تعرف أنها كانت أشد مرضاً مما كانوا يجرؤون على إخبارها، وتبينت بوهن أنها يمكن أن تموت. كان الضلع المكسور يخزها عندما تتنفس، وكان وجهها ورأسها المرضوضان يؤلمانها، وكان جسدها كله بأيدي الشياطين الذين كانوا يقبضون عليها بكماشات حامية وينشرونها بسكاكين كليلة، ثم يتركونها فترات قصيرة وهي مستنزفة القوى إلى درجة كبيرة بحيث لم يكن في وسعها أن تسترد السيطرة على نفسها قبل أن يعودوا. لا، لم تكن الولادة كهذا، لقد كان في وسعها أن تأكل وجبتين شهيتين بعد كل من ويد وإيلا وبوني، بينما التفكير في أي شيء الآن سوى الماء البارد كان يسبب لها الغثيان الواهن.

ما كان أسهل أن تضع طفلاً، وما كان آلم أن لا تضع آخر! غريب، أي غصة كانت تحس بها حتى وهي في ألمها، في أن تعرف أنها لن تنال هذا الطفل، وأغرب من ذلك، أنه كان أول طفل رغبت فيه حقاً. وحاولت أن تفكر لماذا كانت ترغب فيه، ولكن عقلها كان متعباً جداً بحيث لم يكن يسعه التفكير في أي شيء سوى الخوف من الموت. لقد كان الخوف من الموت جاثماً في الغرفة معها، ولم تكن لديها القوة لمجابهته ودحره، ولذا كانت مذعورة. كانت تريد إنساناً قوياً يقف إلى جانبها ويمسك بيدها ويدحر الموت إلى أن تعاودها القوة الكافية لتحاربه هي.

كان الألم قد ابتلع سخطها، ولذلك كانت تريد ريت، ولكنه لم يكن موجوداً هناك، ولم تستطع إقناع نفسها لطلبه.

وكانت آخر ذكرى لديها عنه مظهره وهو يرفعها إلى القاعة المظلمة عند أسفل الدرج، ووجهه أبيض خالٍ من كل شيء سوى الخوف الرهيب وصوته ينادي «مامي» بنغمة جشاء. ثم كانت هناك ذكرى غامضة لديها، وذكراها محمولة إلى الطابق العلوي قبل أن يغشي الظلام عقلها. ثم ألم وألم مطرد، والغرفة تعج بأصوات مدندنة وبشهقات العمة بيتي وأوامر الدكتور ميد المقتضبة، وأقدام تسرع على الدرج وتخطو على الأصابع في القاعة العليا. وتلا ذلك، كوميض برقٍ مُعمٍ، معرفة الموت والخوف الذي جعلها تحاول فجأة أن تزعق بأحد الأسماء، ولكن الزعقة كانت همسة وحسب.

غير أن تلك الهمسة اليائسة عادت باستجابة فورية من مكان ما في الظلام، بجانب السرير، إذ بعث صوت الإنسان الناعم الذي نادته جواباً في أنغام مرنمة: «إني هنا يا عزيزتي، لقد كنت هنا طوال الوقت».

تقهقر الموت والخوف برفق عندما أخذت ميلاني يدها ووضعتها على وجنتها الباردة بهدوء. وحاولت سكارلت أن تلتفت لتشاهد وجه ميلاني إلا أنها لم تستطع ذلك. كانت ميلاني تلد طفلاً، وكان الشماليون قادمين والمدينة تلتهمها النيران، وكان عليها أن تسرع، ولكن ميلاني كانت تلد طفلاً ولم يكن في وسعها أن تسرع، بل كان يجب عليها أن تظل معها إلى أن يولد الطفل، كما يجب عليها أن تكون قوية لأن ميلي كانت في حاجة إلى قوتها. لقد كانت ميلي تتألم ألماً شديداً، كانت هناك كماشات حامية عليها وسكاكين كليلة وأمواج متتابعة من الألم. ينبغي أن تمسك بيد ميلي.

ولكن الدكتور ميد حضر أخيراً، لقد أتى مع أن الجنود في

المحطة كانوا في حاجة إليه فقد سمعته يقول: «هذيان، أين الكابتن باتلر؟».

كانت الليلة مظلمة أولاً ثم مضيئة، وكانت أحياناً تضع طفلاً، وأحياناً كانت ميلاني هي التي تصرخ، ولكن خلال ذلك كله، كانت ميلي موجودة هناك، وكانت يداها باردتين، ولم تكن تقوم بحركات عقيمة قلقة، أو تشهق كالعمة بيتي، وكلما فتحت سكارلت عينيها كانت تقول «ميلي؟» وكان الصوت يجيبها. فتهمّ بالهمس عادة «ريت - إني أريد ريت». ولكنها ما تلبث أن تتذكر كأنه من حلم، أن ريت لم يكن يريدها، وأن وجهه كان قاتماً كوجه هندي، وأسنانه بيضاء في سخرية. لقد كانت تريده ولكنه لم يكن يريدها.

ومرة قالت «ميلي؟» فأجابها صوت مامي «إني هنا يا بنيتي» ووضعت خرقة باردة على جبينها، بينما ظلت سكارلت تصرخ برقّة «ميلي، ميلاني» إلا أن ميلاني لم تأت خلال مدة طويلة إذ كانت تجلس على طرف سرير ريت، وكان ريت المخمور النائح منبطحاً على الأرض يبكي ورأسه في حجرها.

وكانت ميلاني كلما خرجت من غرفة سكارلت، تراه جالساً على سريره وبابه مفتوح على مصراعيه، يراقب منه باب غرفة سكارلت في جانب القاعة الأخرى. كانت الغرفة عديمة الترتيب مشوشة بنفايات السجائر وطباق الطعام غير الملموس، وكان السرير شعثاً من دون تنسيق، وكان هو يجلس عليه غير حليق شاحب الوجه بصورة مستغربة، يدخن باستمرار. عندما كان يراها، لم يكن يسألها أي سؤال، وكانت هي تقف في الباب هنيهة لتبلغه النبأ: «إني آسفة، إنها أسوأ من قبل» أو «لا، لم تطلبك حتى الآن. إنها تهذي» أو «ينبغي ألّا تفقد الأمل يا كابتن باتلر. دعني أعدّ لك بعض القهوة وشيئاً لتأكله. ستمرض نفسك».

وكان قلبها يتألم شفقة عليه، مع أنها كانت تعبة جداً، وتعسة جداً، بحيث لا تستطيع الشعور بأي شيء تقريباً. كيف يسع الناس أن يقولوا عنه أموراً حقيرة كتلك - أن يقولوا إنه كان عديم القلب، وغداً غير وفيٍّ لسكارلت بينما كان في وسعها أن تراه يذوب أمام عينيها وترى العذاب في وجهه؟ ورغم تعبها فإنها كانت تحاول دائماً أن تكون ألطف من المعتاد وهي تقدم له الأنباء الصحية من غرفة المرض. كان يبدو كمخلوق تعس ينتظر القضاء، كطفل وُضع فجأة في دنيا معادية. على أن كل إنسان كان كطفل في نظر ميلاني.

ولكن عندما ذهبت أخيراً مبتهجة إلى غرفته لتخبره أن سكارلت غدت أحسن حالاً، لم تكن مستعدّة لما وجدت.

كانت هناك قارورة ويسكي فارغة حتى نصفها على الطاولة بجانب السرير، وكانت الغرفة تعبق بالرائحة. ونظر ريت إليها بعينين براقتين مقززتين، وكانت عضلات شدقيه ترتجف رغم جهوده لتهدئة أسنانه.

- «هل ماتت؟»؟

- «لا، لا، إنها أحسن بكثير».

- «آه، يا إلهي» قال ووضع رأسه بين يديه، ورأت هي كتفيه العريضتين ترتجفان، وكان ذلك بفعل قشعريرة حادة. وبينما كانت تراقبه بإشفاق، تحولت شفقتها إلى رعب لأنها رأت أنه كان يبكي. ولم تكن ميلاني رأت رجلاً يبكي، خصوصاً ريت من بين جميع الرجال، ريت الذي كان لطيفاً جداً، شديد السخرية، عظيم الثقة بنفسه دائماً.

وكذلك أرعبها المنظر والصوت اليائس المخنوق الذي كان ينبعث منه. لقد كانت تخشى أنه كان سكران، وكانت هي تخاف من السكر. ولكن عندما رفع رأسه ولمحت عينيه، خطت بسرعة إلى داخل الغرفة وأغلقت الباب خلفها برفق واتجهت نحوه. لم تكن قد رأت رجلاً

يبكي، إلا أنها كانت قد كفكفت دموع كثير من الأطفال. وعندما وضعت يداً ناعمة على كتفه، التفَّت ذراعاه فجأة حول أطواقها، وقبل أن تعرف كيف تم ذلك، ألفت نفسها تجلس على السرير وريت على الأرض ورأسه في حجرها، ويداه وذراعاه تقبضان عليها في قبضة عصبية آلمتها. ربتت ميلاني على الرأس الأسود برفق ثم قالت:

- «كفى! كفى!» وهي تريد تسكين روعه «كفى! ستتحسن!» وعندما سمع كلماتها، اشتدت قبضته وبدأ يتكلم بسرعة وبصوت أجش، بدأ يفشي أسراره كأنه كان يتحدث إلى قبر لن يكشف عن أسراره أبداً. يفشي الحقيقة للمرة الأولى في حياته، فاضحاً نفسه بلا رحمة لميلاني التي كانت غير فاهمة مطلقاً في بادئ الأمر، وواقفة موقف الأم تماماً. كان يتكلم كسير النفس دافناً رأسه في حجرها، شاداً طيات تنورتها، وكانت كلماته مبهمة مضطربة أحياناً، وأحياناً كانت تخرج صريحة جداً لأذنيها، كلمات فظة مُرَّة، كلمات - اعتراف وتذلل، تتحدث عن أشياء لم تكن قد سمعت امرأة تتحدث بها، أشياء سرية جلبت دم الخجل الحار إلى وجنتيها وجعلتها ممتنة لرأسه المنكس.

وربتت على رأسه، كما كانت تفعل برأس بو الصغير:

- «صه! كابتن باتلر، ينبغي ألّا تخبرني بهذه الأمور! إنك لست على سجيتك. صه!» ولكن صوته استمر في سيل جارف من الكلام المتدفق بي ما ظلت يداه متمسكتين بثوبها كأنه أمل حياته.

لقد اتهم نفسه بأعمال لم تفهمها، وجمجم باسم بيل وتلينغ ثم هزها بأقصى قوته وهو يصيح: «لقد قتلت سكارلت. لقد قتلتها، إنك لا تفهمين. لم تكن تريد هذا الطفل و-».

- «ينبغي أن تصمت، إنك لست على سجيتك! لا تريد طفلاً؟ إن كل امرأة تريد -».

- «لا! لا! أنت تريدين أطفالاً، ولكنها لا تريد أطفالي -».

- «ينبغي أن تصمت!».

- «إنك لا تفهمينني. إنها لا تريد طفلاً، ولقد أرغمتها على ذلك. هذا - هذا الطفل، إنه نتيجة غلطتي الملعونة. لم نكن ننام معاً -».

- «صه! كابتن باتلر! ليس من اللائق -».

- «وكنت سكران ومجنوناً وأردت أن أؤلمها - لأنها كانت قد آلمتني. أردت أن - وفعلتها ولكنها لم تكن تريدني أنا. وحاولت أن - حاولت بجهد كبير و...».

- «آه أرجوك!»

- «ولم أعرف عن هذا الطفل حتى ذلك اليوم - عندما وقعت. لم تكن تعرف مكاني لتكتب إليَّ وتخبرني، إلا أنها لم تكن لتكتب إليَّ لو أنها عرفت مكاني. إني أقول لك، إني أقول لك إني كنت سآتي إلى البيت رأساً لو أني فقط كنت قد عرفت أكانت تريدني أن أعود إلى البيت أو لا...».

- «ها أجل، إني أعرف أنك كنت ستفعل ذلك!».

- «يا اللّه، لقد كنت مجنوناً خلال هذه الأسابيع، مجنوناً وسكران! وعندما أخبرتني، هناك على الدرج - ماذا فعلت؟ لقد ضحكت وقلت «طيبي نفساً، ربما أجهضت». وعندئذ قامت -».

فغاض الدم من وجه ميلاني فجأة واتسعت عيناها من الرعب وهي تنظر إلى الرأس المعذب يتلوى في حجرها. كانت شمس بعد الظهر تنساب إلى داخل الغرفة عبر النافذة. ورأت ميلاني فجأة، وكأنها للمرة الأولى، كم كانت يداه كبيرتين وسمراوين وقويتين، وكم كان الشعر الأسود ينمو كثيفاً على ظاهرهما، وعندئذ ارتدّت عنهما رغماً عنها.

كانتا تبدوان عظيمتي البطش، عديمتي الرحمة، ومع ذلك فقد كانتا مطبقتين في تنورتها، كسيرتين للغاية، عاجزتين تماماً.

أكان من المحتمل أن يكون قد سمع وصدق الكذبة المستحيلة عن سكارلت وآشلي فأصبح غيوراً؟ أجل فلقد غادر المدينة فوراً بعد انكشاف الفضيحة - لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. فالكابتن باتلر دائم السفر فجأة، ولم يكن في وسعه أن يصدق الإشاعة فهو رجل عاقل جداً. ولو كان ذلك سبب المشكلة، أما كان حاول قتل آشلي؟ أو طلب إيضاحاً على الأقل؟

لا، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لا بد أنه كان سكران وعليلاً من الإجهاد، وكان عقله ذاهلاً كرجل هاذٍ يصرح بنزوات غريبة. ليس في وسع الرجال أن يتحملوا الإجهاد كالنساء. لقد أثاره شيء ما، ربما كان قد اشتبك مع سكارلت في نزاع صغير ثم ضخَّمه. ربما كانت بعض الأشياء الرهيبة التي قالها حقيقة. ها، ولكن لا تلك الأخيرة حتماً! فليس في وسع رجل أن يقول شيئاً كهذا لامرأة يحبها كما يحب هذا الرجل سكارلت. لم تكن ميلاني قد رأت شراً أو قسوة، والآن وقد رأتهما للمرة الأولى وجدت فيهما أمرين لا يدركهما العقل أبداً بحيث لا يمكن تصديقهما. كان سكران عليلاً، ولا بد من ملاطفة العليلين.

- «كفى! كفى!» قالت بصوت خفيض «صه، إني أفهم الآن».

فرفع رأسه بعنف، ونظر إليها بعينين محمرتين قاذفاً يديها عنه بشراسة.

- «لا واللّه إنك لا تفهمين! بل إنك لا تستطيعين فهماً. إنك - إنك طيبة جداً بحيث لا تستطيعين فهماً. إنك لا تصدقينني، ولكن جميع ما قلته صدق وإني كلب. هل تعرفين لماذا فعلتها؟ لقد كنت

مجنوناً، مجنوناً من الغيرة، ولم تكن هي تعبأ بي أبداً، وظننت أن في وسعي أن أجعلها تعبأ. ولكنها لم تعبأ مطلقاً، لم تحبني أبداً. لا لم تكن تحبني، إنها تحب -».

وقابلت نظرته العاطفية السكرى نظرتها وانقطع عن الكلام وفمه مفتوح كأنه قد تبين للمرة الأولى شخصية الذي كان يتحدث إليه. كان وجهها شاحباً مجهداً، غير أن عينيها كانتا ثابتتين عذبتين مفعمتين بالشفقة وعدم التصديق. كانت هناك رصانة جلية فيهما. ولذعته البراءة في أعماقهما البنية الناعمة كصفعة على الوجه، مزيلة بعض الكحول من دماغه، رادعة كلماته المجنونة المتدفقة وهي في نصف انطلاقها. وهكذا انخفض صوته إلى دمدمة، وأطرق بعينيه بعيداً عن عينيها ورف حاجباه بسرعة وهو يناضل من أجل العودة إلى رشده «إني وغد»، دمدم مطرقاً برأسه المنهوك ثانية إلى حجرها «ولكن ليس وغداً كبيراً. وإن أنا أخبرتك فلن تصدقيني، أليس كذلك؟ إنك طيبة جداً بحيث لن يسعك تصديقي. إني لم أعرف من قبل أي إنسان طيب حقاً. لن تصدقيني، أليس كذلك؟»

- «لا، لن أصدقك» قالت ميلاني بلهجة ملطفة وقد بدأت تمسد شعره ثانية. «ستتحسن. كفى يا كابتن باتلر، لا تبكي! ستتحسن».

57

كانت امرأة شاحبة نحيلة تلك التي أركبها ريت قطار جونسبورو بعد انقضاء شهر. وكان ويد وإيلا اللذان كانا سيرافقانها في الرحلة، صامتين قلقين من منظر وجه أمهما الشاحب الواجم. وكانا يتمسكان بأهداب برسي، لأنه، حتى لعقليهما الصغيرين، كان هناك شيء مخيف في الجو البارد غير الشخصي المخيم على العلاقة بين والدتهما وزوجها.

كانت سكارلت ذاهبة إلى بيتها في تارا وهي على ما عليه من ضعف. لقد شعرت أن روحها كانت ستنفق إن هي ظلت في أتلانتا يوماً آخر وعقلها المتعب يرغم نفسه على الدوران حول الحلقة الشديدة الاهتراء من الأفكار العقيمة المتعلقة بالضائقة التي كانت تتردى فيها، كانت عليلة الجسد منهوكة العقل، وكانت تقف كطفل ضائع في ريف رهيب لا وجود لأي معالم معروفة تسترشد بها.

وكما كانت قد هربت من أتلانتا فيما مضى أمام جيش غاز، هكذا كانت تغادرها الآن، دافعة متاعبها إلى مؤخرة عقلها بدفاعها القديم ضد الدنيا: «لن أفكر فيها الآن، فلن أستطيع احتمالها إن فعلت ذلك. سأفكر فيها غداً في تارا، فغداً يوم آخر». وبدا كأنها إذا استطاعت العودة إلى السكينة وحقول القطن الخضراء في تارا، فإن كل متاعبها ستزول عنها، وستغدو نوعاً ما، قادرة على صياغة أفكارها المشتتة في قالب تستطيع العيش فيه.

راقب ريت القطار إلى أن غاب عن الأنظار، وقد كسا وجهه تأمل مرير لم يكن مما يرتاح إليه. ثم تنهد وصرف العربة وامتطى حصانه وسار في شارع آيفي باتجاه بيت ميلاني.

كان صباحاً دافئاً، وكانت ميلاني تجلس على الشرفة المظللة بأوراق الدوالي وسلة خياطتها تتكدس عالياً بالجوارب. وغمرها الفزع والارتباك عندما رأت ريت يترجل عن حصانه ويقذف باللجام إلى ذراع الصبي الزنجي الشديد المراس الواقف على جانب الممشى. ولم تكن ميلاني قد رأته على انفراد منذ ذلك اليوم الرهيب، عندما كانت سكارلت في ذروة المرض، وكان آنذاك شديد - شديد السكر، الكلمة التي كانت ميلاني تمقت مجرد التفكير فيها. كانت قد تحدثت إليه عرضاً أثناء نقاهة سكارلت، وفي تلك المناسبات، كانت تجد أن من الصعب مقابلة عينيه، بينما كان هو على أية حال، ذات شخصية المهذب المعتاد، ولم يظهر سواء بنظرة أو بكلمة، أن مشهداً كذاك كان قد حدث بينهما. كان آشلي قد أخبرها فيما مضى أن الرجال لا يتذكرون معظم الأشياء المقولة أو المفعولة وهم سكارى، ولذلك رحبت ميلاني من قلبها أن تكون ذاكرة ريت قد خانته فيما يتعلق بذلك المشهد. وشعرت بأنها تفضل أن تموت على أن تعرف أنه يتذكر تصريحاته. واجتاحها الجبن والارتباك وتخضبت وجنتاها بموجات من الألوان وهو يصعد الممشى. ولكن ربما كان مجيئه فقط ليسأل عما إذا كان في وسع بو أن يقضي النهار مع بوني، إذ من الأكيد أنه لا ينعم بذوق رديء ليأتي ويشكرها على ما عملته في ذلك اليوم!

ونهضت لتستقبله ولاحظت مندهشة، كما كان الحال دائماً، خفة مشيته بالنسبة إلى رجل ضخم الجثة.

- «ذهبت سكارلت؟».

- «أجل، ستفيدها تارا» قال مبتسماً «إني أفكر أحياناً أنها تشبه

العملاق أنتيوس الذي كان يزداد قوة كلما لمس أمه الأرض. كذلك لا يوافق سكارلت أن تظل بعيدة مدة طويلة عن رقعة الطين الحمراء التي تحبها. إن منظر القطن سيفيدها أكثر من مقويات الدكتور ميد».

- «ألن تجلس؟» قالت ميلاني ويداها ترتعشان. لقد كان هائل الضخامة، طاغي الرجولة، وكان الرجال الفحول يربكونها دائماً للغاية. كان يبدو أنهم يشعون قوة وحيوية، مما كان يجعلها تشعر أصغر وأضعف حتى مما هي عليه. كان ريت يبدو أدكن لا يُقهر، وكانت عضلات كتفيه القوية تبدو منتفخة داخل معطفه الكتاني الأبيض، منتفخة بصورة أفزعتها. وبدا لها أن من المستحيل أن تكون قد رأتِ هذه القوة والجرأة تخضع أمامها. أجل كانت قد حملت ذلك الرأس الأسود في حجرها!

«يا اللّه!» فكرت في يأس، واحمر وجهها ثانية.

- «آنسة ميلي» قال بلطف «هل يزعجك وجودي؟ هل تفضلين ذهابي؟ أرجوك أن تكوني صريحة».

«آه» فكرت «إنه يتذكر! وهو يعرف مبلغ اضطرابي!».

ونظرت إليه متوسلة وفجأة تلاشى ارتباكها واضطرابها. كانت عيناه فائقتي السكينة، عظيمتي الرحمة، بالغتي الفهم بحيث إنها تساءلت كيف وسعها أن تكون شديدة الحماقة فتقلق منه. كان وجهه يبدو تعباً وفكرت بدهشة أن ما يشوبه أكثر من حزن قليل، كيف وسعها أن تفكر أنه سيكون سيّئ التربية بحيث يتطرق إلى مواضيع كان كلاهما يفضلان نسيانها؟

«يا له من مخلوق مسكين. لقد كان قلقاً جداً على سكارلت». فكرت، ثم قالت بعد أن تصنعت ابتسامة:

- «اجلس يا كابتن باتلر».

فجلس بتثاقل وراقبها وهي تتناول أدوات الرفأ:

- «آنسة ميلي لقد جئت لأسألك جميلاً عظيماً و. . .» وابتسم ولوى شفته إلى أسفل «لأجند عونك في خدمة أعرف أنك ستنقبضين منها».

- «خـ - خدعة؟».

- «أجل في الحقيقة، لقد أتيت لأتحدث إليك بشأن عمل».

- «يا للّه، إذن فمن الأفضل أن ترى السيد ويلكس، لأني جبانة جداً في موضوع العمل. إني لست حاذقة كسكارلت».

- «إني أخشى أن تكون سكارلت بالغة الحذق بحيث تضر مصلحتها» قال «وذلك هو بالضبط ما أريد أن أتحدث به إليك. إنك تعرفين ما كان أشد مرضها. وعندما تعود من تارا فإنها ستباشر العمل ثانية في المخزن وذينك المعملين اللذين أرجو بإخلاص أن ينفجرا في إحدى الليالي. إني أخاف على صحتها يا آنسة ميلي».

- «أجل، إنها تتعب تعباً عظيماً. ينبغي أن تجعلها تكف عن العمل وتعتني بنفسها». فضحك.

- «إنك تعرفين ما أشد عنادها، إني لم أحاول حتى مناقشتها. إنها تماماً كطفلة عنيدة، ولن تدعني أساعدها، بل لن تدع أي إنسان يساعدها. لقد حاولت أن أقنعها بأن تبيع حصتها في المعملين ولكنها لم تقنع. والآن يا آنسة ميلي، لقد وصلت إلى موضوع العمل، إني أعرف أن سكارلت يمكن أن تبيع بقية ربحها في المعلمين للسيد ويلكس، ولكن ليس لأي شخص آخر، وإني أريد أن يبتاع السيد ويلكس ذلك منها».

- «يا سلام! سيكون ذلك رائعاً ولكن -» وصمتت ميلاني وعضت شفتها. لم يكن في وسعها أن تذكر قضايا المال لغريب. ورغم ما كان يجنيه زوجها من المعمل، لم يكن يبدو أبداً أنها كانت وآشلي يملكان نقوداً كافية. وكدّرها أنهما لم يكونا قد وفّرا سوى مبلغ زهيد جداً.

ولم تكن تعرف أين كان يذهب المال. كان آشلي يعطيها ما يكفي لإدارة البيت ولكن عندما كان يصل الأمر إلى النفقات الإضافية كانا يقتّران على نفسيهما. طبعاً لقد كانت فواتير أطبائها كثيرة جداً، ثم إن الكتب والأثاث التي كان آشلي يطلبها من نيويورك كانت من ضمن المصاريف. وكذلك كانا قد أطعما وكسَوَا جماعة من المتشردين الذين كانوا ينامون في قبوهما. ولم يكن آشلي يشعر بإمكان رفضه تقديم أي قرض لأي رجل كان في جيش الحلف، و-

- «آنسة ميلي، إني أريد أن أقرضك المال» قال ريت.

- «إن ذلك لطف بالغ منك، ولكن قد لا نوفيه أبداً».

- «إني لا أريد إيفاءه، لا تغضبي عليّ يا آنسة ميلي! أرجوك أن تسمعيني إلى أن أتم حديثي. إن معرفتي بأن سكارلت لن تنهك نفسها بالركوب أميالاً إلى المعلمين كل يوم، إن معرفتي هذه ستوفيني أكثر من حقي. وسيكون المخزن كافياً ليبقيها مشغولة وسعيدة. ألا تتبينين مرادي؟»

- «الواقع - أجل -» قالت ميلاني مترددة.

- «إنك تريدين أن ينعم بو بفرس صغير، أليس كذلك؟ وتريدين أن يذهب إلى الجامعة وإلى هارفارد وإلى أوروبا في رحلة عظيمة؟».

- «ها، طبعاً» قالت ميلاني ووجهها يشرق، شأنها دائماً عند ذكر بو، «إني أريد أن ينعم بكل شيء ولكن - على كل حال، كل إنسان فقير جداً هذه الأيام بحيث -».

- «إن في وسع السيد ويلكس أن يجمع مبلغاً من النقود من المعملين في يوم ما» قال ريت «كما أني أحب أن أرى بو ينعم بكل الامتيازات التي يستحقها».

- «آه كابتن باتلر، يا لك من داهية!» صاحت مبتسمة «تلتجئ إلى فخر أم! إن في وسعي أن أقرأك ككتاب».

- «آمل ألّا يكون الأمر كذلك» قال ريت، وللمرة الأولى شعت عيناه ببريق «هل تسمحين لي بأن أقرضك المال؟».

- «ولكن أين تأتي الخدعة؟».

- «ينبغي أن نكون متآمرين ونخدع كلا سكارلت والسيد ويلكس».

- «يا للّه! إني لا أستطيع!».

- «إذا عرفت سكارلت أني تآمرت من وراء ظهرها حتى ولو كان ذلك من أجل مصلحتها - على كل حال، إنك تعرفين طبعها، كما أني أخشى أن يرفض السيد ويلكس أي قرض أعرضه عليه. ولذلك ينبغي ألّا يعرف كلاهما من أين ستأتي النقود».

- «ها ولكني واثقة بأن السيد ويلكس لن يرفض إذا فهم القضية، إنه مولع جداً بسكارلت».

- «أجل إني واثق بذلك» قال ريت بنعومة «ولكنه سيرفض رغم ذلك. إنك لا تعرفين عظم كبرياء الويلكسيين».

- «يا للّه!» صاحت ميلاني بائسة «إني أتمنى - في الحقيقة يا كابتن باتلر إني لا أستطيع أن أخدع زوجي».

- «حتى ولو كان ذلك في سبيل مساعدة سكارلت؟» وبدا ريت متألماً جداً «المولعة جداً بك؟».

فارتعشت الدموع على جفون ميلاني.

- «إنك تعرف أني على استعداد لفعل كل شيء في الوجود من أجلها. إني لا أستطيع أبداً، أبداً، أن أوفيها نصف ما تستحق على ما صنعت من أجلي. إنك تعرف».

- «أجل» قال باقتضاب «إني أعرف ما صنعته من أجلك. ألا تستطيعين أن تخبري السيد ويلكس أن النقود قد ورثتها في وصية أحد أقاربك؟».

- «ها كابتن باتلر، ليس لي قريب يملك بنساً يجلب له البركة!».

- «إذن إن أنا أرسلت النقود إلى السيد ويلكس في البريد من دون

ذكر مرسلها فهل تحرصين على أن تُستعمل لشراء المعملين، وليس لتبدد على حلفيين سابقين معوزين».

بدت ميلاني في أول الأمر متألمة من كلماته الأخيرة كأنها كانت تتضمن نقداً لآشلي. غير أن ريت ما لبث أن ابتسم ابتسامة تنم عن فهم بحيث إن ميلاني ردت الابتسامة بمثلها.

- «طبعاً سأحرص».
- «إذن تقرر الأمر؟ سيكون الأمر سراً بيننا؟».
- «ولكني لم أكتم سراً عن زوجي أبداً!».
- «إني متأكد من ذلك يا آنسة ميلي».

وبينما هي تنظر إليه، فكرت كم كانت دائماً مصيبة في موقفها منه، وكم كان كثير من الناس مخطئين. لقد قال الناس إنه كان متوحشاً ساخراً سيّئ الخلق وحتى خائناً، مع أن الكثير من كرامهم يقرّون الآن بأنهم كانوا مخطئين. حسناً! لقد عرفت منذ البداية بالضبط، أنه كان رجلاً طيباً، ولم تكن قد رأت منه أي شيء سوى ألطف المعاملة، والتفكير الرصين والاحترام المطلق، والفهم العميق. ثم ما كان أعظم حبه لسكارلت، ما كان أجملها منه أن يداور لتخفيف عبء عن سكارلت، عبء من الأعباء التي كانت تحملها!

وبدفق دافع من الشعور قالت: «إن سكارلت محظوظة لنَيْلها زوجاً طيباً جداً معها!».

- «أتظنين ذلك؟ إني أخشى ألّا توافقك على رأيك إذا ما تمكنت من سماعك. هذا فضلاً عن أني أريد أن أكون طيباً معك أيضاً يا آنسة ميلي. إني معطيك أكثر مما أنا معطٍ سكارلت».

- «أنا؟» استوضحت مشدوهة «ها، تعني لبو».

فتناول قبعته ونهض ووقف هنيهة ينظر إلى الوجه الساذج الشبيه بشكل القلب، ذي الهامة الطويلة الشبيهة بهامة الأرملة، وذي العينين الوقورتين. وجه غير دنيوي ولا يملك مقومات دفاعية ضد الحياة.

- «لا، ليس لبو، إني أحاول أن أعطيك شيئاً أكثر قيمة من بو، إذا ما استطعت تصور ذلك».

- «لا، لا أستطيع» قالت مشدوهة ثانية «لا يوجد شيء في الدنيا أثمن من بو في نظري سوى - السيد ويلكس».

فلم يقل ريت شيئاً، بل نظر إليها ووجهه الأسمر ساكن.

- «إنك طيب للغاية حتى إنك تريد صنع جميل معي يا سيد باتلر. غير أني في الحقيقة سعيدة جداً، إذ أنعم بكل شيء في الدنيا يمكن أن تشتهيه امرأة».

- «ذلك رائع» قال ريت وقد تجهم وجهه فجأة «وإني عازم على أن أراك تحتفظين بأشيائك».

* * *

عندما عادت سكارلت من تارا، كان الشحوب الناجم عن المرض قد غادر وجهها، وكانت وجنتاها متكورتين موردتين قليلاً، كما كانت عيناها الخضراوان يقظتين براقتين ثانية. وللمرة الأولى منذ أسابيع ضحكت بصوت مرتفع وذلك عندما كان ريت وبوني يستقبلانها وويد وإيلا في المحطة - ضحكت بتبرم وفرح. كان ريت يضع على حافة قبعته ريشتين خفاقتين من ريش الديك الرومي، وكانت بوني المرتدية فستان الأحد الممزق المثير للشفقة، قد بدت وخطوط زرقاء نيلية على وجنتيها، ووضعت في شعرها ريشة ديك تعادل نصف طولها. كان من الواضح أن حيلة هندية كانت تجري عندما حان وقت اسقبال القطار، كما كان يبدو جلياً من تعبير الحيرة الفاحصة في وجه ريت ومن سخط مامي المكبوت أن بوني كانت قد رفضت إصلاح هندامها حتى من أجل استقبال والدتها. وقالت سكارلت بينما كانت تقبِّل الطفلة وتدير وجنتها لشفتي ريت «يا لك من صعلوكة رثة!». كان هناك جماهير من الناس في المحطة، وإلا لما كانت استدعت الملاطفة، إذ إنها لم تستطع إلا أن تلحظ، رغم ارتباكها من مظهر بوني، أن كل إنسان من الجمهور

كان يبتسم على زي الأب والابنة، يبتسم ليس في سخرية، بل في طرب وشفقة أصيلين. لقد كان الجميع يعرف أن صغرى أولاد سكارلت كانت تملك أبيها تحت إبهامها، وكانت أتلانتا مسرورة مستحسنة ذلك. لقد ذهب حب ريت العظيم لابنته بعيداً نحو إعادة اعتباره عند الرأي العام.

وفي طريقهم إلى البيت، بدت سكارلت زاخرة بأنباء المقاطعة، كان الطقس الحار الجاف ينمي القطن بسرعة فائقة بحيث كان في وسع المرء أن يلمس ذلك بوضوح. ولكن ويل قال إن أسعار القطن ستكون منخفضة هذا الخريف. سولين ستضع وليداً آخر. تهجأت سكارلت هذه العبارة كيما لا يفهمها الأطفال. إيلا أظهرت روحاً غير عادية في عض كبرى بنات سولين، مع أنه، لاحظت سكارلت، لم يكن ذلك أكثر مما تستحق سوسي الصغيرة، لأنها كانت شبيهة بأمها تماماً. غير أن سولين اغتاظت واشتبكتا في شجار منشط كان نظير شجارات الأوقات القديمة. ويد قتل أفعى مائية، ولقد قام بذلك وحده، رندا وكاميليا تارلتون أضحتا معلمتي مدرسة، أَوَلم يكن ذلك مدعاة للفكاهة؟ إذ لم يكن أحد من آل تارلتون بقادر على تهجئة لفظة قطة! بتسي تارلتون كانت قد تزوجت رجلاً بديناً ذا ذراع واحدة من لافجوي، وكانا وهيتي وجيم تارلتون ينتجون محصولاً جيداً من القطن في فيرهيل. السيدة تارلتون كانت تنعم بفرس ولّادة وبمهر، وكانت سعيدة كأنها تملك مليون دولار. كان هناك زنوج في بيت كالفرت القديم! جماهير منهم. لقد كانوا يملكونه في الحقيقة، بعد أن ابتاعوه في مزاد عمدة البلدة. كان المكان متقوضاً يجعلك تبكي إن نظرت إليه، ولم يكن أحد يعرف أين ذهبت كاثلين وزوجها الباطل. وكان أَلِكس سيتزوج سالي، أرملة أخيه! تصور ذلك! بعد أن كانا يعيشان في البيت نفسه سنين عديدة! كان الجميع يقولون إنه كان زواجاً ملائماً لأن الناس بدأوا يتحدثون عنهما لكونهما يعيشان هناك وحدهما منذ وفاة

كلا الآنسة العجوز والآنسة الشابة. ولقد كان ذلك الزواج يحطم قلب ديمتي مونرو، غير أنه خدمها حقاً. ولو كانت تملك أي حذق، لتصيدت رجلاً آخر منذ مدة طويلة، بدلاً من انتظار ألِكس كي يجمع نقوداً تكفي لزواجه بها.

ظلت سكارلت تثرثر مبتهجة، إلا أنه كانت هناك أمور كثيرة عن المقاطعة لم تصرح بها، أمور تؤلم إن هي فكرت فيها. كانت قد تجولت في المقاطعة برفقة ويل، محاولة أن تتذكر متى كانت هذه الألوف من الفدادين الخصبة تمتد خضراء بالقطن. أما الآن فإن المزرعة تلو المزرعة تنقلب إلى أحراج وإلى حقول موحشة من نبات الحلفا. وكان السنديان العقيم والصنوبر القصير قد نميا خلسة حول الأنقاض الصامتة وفوق حقول القطن القديمة، فدان واحد فقط كان يزرع الآن حيث كانت مئة فدان تفلح فيما مضى. لقد كانت الجولة بمثابة تنقُّل عبر أرض ميتة.

- «لن يعود هذا الإقليم إلى الازدهار قبل خمسين سنة - إذا ما قُدِّر له أن يعود». كان ويل قد قال، ثم أردف: «إن تارا أفضل مزرعة في المقاطعة، والفضل لك ولي يا سكارلت في بقائها مزرعة - مزرعة آل تارلتون. إنهم لا يجنون نقوداً كثيرة، غير أنهم يتقدمون ويكسبون مهارة. ولكن معظم الناس الباقين والمزارع الباقية -».

لا، لم تكن سكارلت تود أن تتذكر كيف كانت تبدو المقاطعة المهجورة. لقد كانت تبدو حتى أكثر حزناً من ذلك، إذا ما التفتنا إلى ماضيها، وإذا ما قيست بسعادة وصخب أتلانتا الماضيين.

- «هل حدث شيء هنا؟» سألت عندما بلغوا البيت أخيراً وجلسوا في الشرفة الأمامية. كانت قد تحدثت بسرعة وبتتابع طول الطريق إلى البيت، خشية أن يخيّم عليها صمت. ولم تكن قد تكلمت مع ريت كلمة واحدة على انفراد منذ اليوم الذي تدحرجت فيه على السلم،

ولذلك لم تكن متلهفة أبداً على أن تنفرد وإياه الآن. أما هو فقد كان اللطف عينه خلال فترة نقاهتها التعسة، إلا أنه كان لطفاً غريباً غير شخصي. كان يتنبأ بحاجاتها ويمنع الأولاد من مضايقتها ويشرف على المخزن والمعلمين. ولكنه لم يقل أبداً «إني آسف». على كل حال ربما لم يكن آسفاً، ربما كان لا يزال يعتقد أن ذلك الطفل الذي لم يولد، لم يكن طفله. كان يسعها أن تعرف ماذا يدور في ذلك العقل خلف الوجه الأسمر الأنيس؟ على أنه كان قد أظهر استعداداً ليكون لطيفاً للمرة الأولى في حياتهما الزوجية، ورغبة في أن يدع الحياة تستمر كأنه لم يكن هناك أي شيء مكدر بينهما - وكأنما، فكرت سكارلت مبتهجة، وكأنما لم يكن هناك أي شيء بينهما مطلقاً. حسناً، إذا كان ذلك ما يريده، ففي وسعها أن تقوم بدورها هي أيضاً.

- «هل كل شيء على ما يرام؟» كررت سؤالها «هل اشتريت العوارض للمخزن؟ هل بادلت البغال؟ من أجل اللّه يا ريت انزع هاتين الريشتين من قبعتك. إنك تبدو أحمق بهما، ومن المحتمل أن تبقيهما إلى داخل المدينة دون أن تتذكر أن تنزعهما».

- «لا» قالت بوني متناولة قبعة والدها بغاية دفاعية.

- «كل شيء كان يسير على ما يرام هنا» أجاب ريت «لقد نعمت وبوني بوقت طيب، وإني لا أعتقد أن شعرها مشط منذ غادرتنا. لا تمصي الريشتين يا حبيبتي فمن المحتمل أن تكونا قذرتين. أجل إن العوارض مثبتة، كما أني أجريت مقايضة رابحة على البغال. لا، لا يوجد أنباء جديدة في الحقيقة، فكل شيء على حالته السابقة تماماً».

ثم أضاف كفكرة طارئة «لقد كان آشلي الشريف هنا في الليلة الماضية. كان يريد أن يعرف إن كنت أعتقد أنك يمكن أن تبيعيه معملك ونصيبك من الربح في معمله».

فما كان من سكارلت التي تهتز مع الكرسي الهزاز وتهوي لنفسها

بمروحة مصنوعة من ذيل الديك الرومي، إلا أن توقفت عن ذلك فجأة:

- «أبيع؟ من أي مكان في الدنيا حصل آشلي على نقود؟ إنك تعرف أنهم لا يملكون سنتاً واحداً، فميلاني تصرفها حالما يجنيها».

فهز ريت كتفيه استنكاراً وقال: «لقد كنت أعتقد دائماً أنه إنسان صغير مقتصد، ولكني من ناحية أخرى، لست مطلعاً على التفاصيل العائلية للويلكسيين كما يبدو أنك مطلعة».

وبدا أن تلك الطعنة كانت تحمل شيئاً من أسلوب ريت القديم، ولذلك ازداد انزعاج سكارلت.

- «اذهبي من هنا يا عزيزتي» قالت لبوني «فأمك تريد أن تتحدث إلى أبيك».

- «لا» قالت بوني بتصميم، وصعدت إلى حضن ريت.

فكشرت سكارلت في وجهها ولكن بوني ردت بتكشيرة شبيهة تماماً بتهجم جيرالد أوهارا بحيث كادت سكارلت تضحك.

- «دعيها تبقى هنا» قال ريت مطمئناً «أما من أين حصل على النقود، فيبدو أنها أُرسلت إليه من قبل شخص كان قد مرضه أثناء نوبة جدرية في جزيرة رك، إن مما يجدد ثقتي بالطبيعة الإنسانية أن أعرف أن ذلك العرفان بالجميل ما زال موجوداً».

- «من ذلك الشخص؟ أتعرفه؟».

- «كانت الرسالة خالية من أي توقيع، وقد جاءت من واشنطن، وحار آشلي في معرفة من يمكن أن يكون مرسلها. ولكن على كل حال، إن إحدى طبائع آشلي الأثيرة تدور حول العالم، تقوم بأعمال صالحة كثيراً، بحيث لا يسعك أن تتوقعي منه أن يتذكرها جميعاً».

لو لم تدهش بنبأ حظ آشلي غير المتوقع، لتحدّت ريت مع أنها كانت قد قررت أثناء وجودها في تارا، أنها لن تدع نفسها تتورط في شجار مع ريت بسبب آشلي، فأرض هذه القضية التي كانت تقف عليها

كانت مريبة للغاية، ولم تكن لتبالي بأن تخرج منها إلى أن عرفت تماماً أين كانت تقف من كلا الرجلين.

- «هو يريد شراء حصتي؟».
- «أجل، ولكن طبعاً، لقد أخبرته بأنك لن تبيعي».
- «أرجو أن تدعني أهتم بعملي».
- «الواقع أنك تعلمين أنك لن تفترقي عن المعلمين. لقد أخبرته بأنه يعرف كما أعرف أنا، أنك لا تستطيعين احتمال عدم كون إصبعك في فطير كل إنسان، وإن أنت بعته، فلن يكون في وسعك أن تخبريه عندئذ كيف يجب أن يهتم بعمله».
- «هل جرؤت على قول ذلك عني له؟».
- «ولِمَ لا؟ إنه قول صحيح، أليس كذلك؟ وأعتقد أنه أيَّدني قلبياً، ولكن طبعاً، لقد كان فاضلاً جداً بحيث لم يكشف أو يصرح بذلك».
- «إنها كذبة! سأبيعها له!» صاحت سكارلت غاضبة.

وحتى تلك اللحظة، لم تكن لديها أي فكرة عن التخلي عن المعلمين، بل كانت لديها عدة أسباب لوجوب الاحتفاظ بهما. وكان أقل هذه الأسباب هو قيمتهما المالية، فقد كان في وسعها أن تبيعهما لقاء مبالغ طائلة في أي وقت خلال السنين القليلة الأخيرة، ولكنها كانت قد رفضت جميع العروض، لأن المعملين كانا الشهادة الحسية على ما كانت قد قامت به من دون مُعِين وفي وجه جميع الظروف السائدة الشاذة. ولقد كانت فخورة بهما وبنفسها. وأكثر من ذلك، لم تكن تريد أن تبيعهما لأنهما كانا الممر الوحيد المفتوح، والموصل إلى آشلي. فإذا ما ذهب المعملان من تحت إدارتها، فإن ذلك يعني أنها نادراً ما سترى آشلي وربما لن تراه على انفراد أبداً. بينما كان يجب أن تراه على انفراد، إذ لم يعد في وسعها أن تستمر على هذه الحالة مدة

أخرى، أن تستمر متسائلة عما كان شعوره نحوها الآن، متسائلة عما إذا كان حبه قد مات في العار منذ ليلة حفلة ميلاني الرهيبة. إن في وسعها في سياق العمل أن تجد فرصاً سانحة كثيرة للحديث معه، دون أن يظهر لأي إنسان أنها كانت تنشده. ومع سنوح الوقت، كانت تعرف أنه في وسعها استعادة أية مكانة كانت قد فقدتها في قلبه، بينما هي باعت المعملين.

لا ، إنها لا تريد أن تبيع ولكنها مدفوعة باعتقادها أن ريت كان قد كشف عن حقيقتها لآشلي في صدق وصراحة، أجمعت رأيها فوراً على أنه ينبغي أن يشتري آشلي المعملين، وبثمن زهيد جداً بحيث لا يسعه إلا أن يتبين كم كانت كريمة.

- «سأبيع!» صاحت حانقة «فما رأيك بذلك؟».

وبرقت عينا ريت بأبهر شعاع ظفر وهو ينحني لعقد شريط حذاء بوني.

- «أظن أنك ستندمين على فعلتك» قال.

ومنذ الآن، كانت تشعر بالندم على كلماتها السريعة. لو أنها صرحت بها لإنسان آخر غير ريت، لسحبتها من دون حياء. لماذا انفجرت على تلك الصورة؟ ونظرت إلى ريت بتكشيرة غاضبة ورأت أنه كان يراقبها بنظرته الحاذقة القديمة، الشبيهة بنظرة قطة تتربص عند جحر فأر. وعندما رأى تكشيرتها ضحك فجأة ولمعت أسنانه البيضاء. وشعرت سكارلت شعوراً غير أكيد أنه كان قد احتال عليها وقادها إلى هذه النقطة.

- « هل كانت لك أي علاقة بهذا الأمر؟» انفجرت سائلة.

- «أنا؟» وارتفع حاجباه في دهشة ساخرة «ينبغي أن تعرفيني معرفة أفضل. إني لا أذهب حول العالم للقيام بأعمال صالحة إذا استطعت تجنب ذلك».

تلك الليلة، باعت سكارلت المعملين وكل ربحها فيهما لآشلي، ولم تنحسر بسبب ذلك، لأن آشلي رفض أن يستفيد من عرضها الزهيد الأول ووافق على أعلى ثمن كانت دائماً تذكره أمامهم.

وبعد أن وقّعت الأوراق، وخرج المعملان نهائياً من يدها، وأخذت ميلاني تقدم كؤوس خمر صغيرة لآشلي وريت، احتفالاً بعملية البيع، عندئذ شعرت سكارلت بالثكل كأنها باعت أحد أولادها.

لقد كان المعملان حبيبيها، فخرها، ثمرة يديها الصغيرتين الحازمتين. لقد بدأت بمعمل صغير واحد في تلك الأيام السوداء، عندما كانت أتلانتا تكافح لتنهض من تحت الأنقاض والرماد، وعندما كان العوز يحملق في وجهها. لقد جاهدت وخططت ورعتهما خلال الأوقات المظلمة عندما ظهر قانون المصادرة الشمالي، عندما كانت النقود نادرة، والرجال الحاقدون يضربون رؤوسهم بالجدار. والآن وحينما كانت أتلانتا تغطي ندوبها، وكانت البنايات ترتفع في كل مكان يتدفق إليه القادمون الجدد يومياً، كان لديها معملان رائعان ومستودعا خشب ودزينة من بغال الجر وأشقياء ليقوموا بالعمل بأسعار بخسة. إن وداعهما كان كإغلاق باب إلى الأبد على دور من أدوار حياتها، دور مرير قاس ولكنه دور تتذكره برضى تواق.

لقد أقامت هذه الصناعة، وها قد باعتها الآن، وكانت متضايقة من تأكدها أنه من دون وجودها في الدفة، فإن آشلي كان ينتظر أن يخسر كل شيء - كل شيء كانت قد عملت على إقامته. لقد كان آشلي يثق بكل إنسان، وما زال يجهل تقريباً، التمييز بين لوح 2×4 ولوح 6×8. والآن لن يكون في وسعها أبداً إسداؤه نصحها - كل ذلك لأن ريت أخبره بأنها تحب أن ترئس كل شيء.

«آه، ليلعن اللّه ريت!» فكرت. وبينما كانت تراقبه، ازدادت قناعتها بأنه كان في أساس كل هذا الأمر. أما كيف ولماذا فلم تكن تعرف، كان يتحدث إلى آشلي، ونبّهتها كلماته بحدة:

- «أظن أنك ستعيد الأشقياء فوراً».

يعيد الأشقياء؟ لماذا ينبغي أن تكون هناك أية فكرة عن إعادتهم. لقد كان ريت يعرف تمام المعرفة أن الأرباح الطائلة من المعملين كانت تنتج من عمل الأشقياء الرخيص. ثم لماذا كان ريت يتكلم بمثل ذلك الوثوق عما ستكون إجراءات آشلي في المستقبل؟ ماذا كان يعرف عنه؟

- «أجل سيعودون حالاً» أجاب آشلي متجنباً نظرة سكارلت الساكنة الحائرة.

- «هل فقدت عقلك؟» صاحت «ستخسر جميع النقود في عقد الإيجار. وأي نوع من العمال يمكن الحصول عليهم، على أي حال؟».

- «سأستخدم زنوجاً محررين». قال آشلي.

- «زنوجاً محررين! هراء! إنك تعرف ماذا ستكلفك أجورهم. فضلاً عن أنك ستجد الشماليين فوق عنقك في كل دقيقة ليروا ما إذا كنت تقدم لهم دجاجاً ثلاث مرات يومياً وتدفعهم إلى النوم تحت لحف. وإن أنت ضربت زنجياً خمولاً ضربتين لتحثه على العمل، فإنك ستسمع صياح الشماليين من هنا إلى دالتون، وستنتهي إلى السجن. إن الأشقياء هم الوحيدون الذين...».

فأطرقت ميلاني بنظرها إلى حجرها، إلى يديها المتشابكتين، وبدا آشلي يائساً ولكنه مصمم، وظل صامتاً لهنيهة، ثم قابلت عيناه عيني ريت، وبدا كأنه وجد فهماً وتشجيعاً في نظرته... إنها نظرة لم تفت على سكارلت.

- «إني لن أشغّل أشقياء يا سكارلت» قال بهدوء.

- «حسناً يا سيدي» قالت وقد اختنق نفسها «ولم لا؟ هل أنت خائف من أن يتحدث الناس عنك كما يتحدثون عني؟».

فرفع آشلي رأسه.

- «لست خائفاً مما يقوله الناس ما دمتُ على صواب، غير أني لم أشعر أبداً أن تشغيل الأشقياء صواب».

- «ولكن لماذا؟».

- «ليس في وسعي أن أجني المال من عمل الآخرين الإلزامي وبؤسهم».

- «ولكنك كنت تملك عبيداً!».

- «لم يكونوا بائسين، وعلاوة على ذلك كنت سأحررهم جميعاً بعد وفاة والدي، لو أن الحرب لم تكن قد حررتهم قبل ذلك. ومع ذلك فإن الأمر مختلف يا سكارلت. إن نظام تشغيل الأشقياء قابل لانتهاكات كثيرة جداً، ربما لا تعرفينها ولكني أعرفها. إني أعرف جيداً أن جوني كاليغر قتل رجلاً على الأقل في معمله، وربما أكثر... ومن يهتم بشقي واحد، وبأكثر أو أقل؟ لقد قال إن الرجل قُتل وهو يحاول الهرب، ولكن ذلك ليس ما سمعته في مكان آخر. كما أني أعرف أنه يشغل الرجال الذين يكونون مرضى جداً بحيث لا يستطيعون عملاً. سمّيها خرافة، ولكني لا أعتقد أن السعادة تأتي من نقود ناتجة عن عذاب الآخرين».

- «يا للّه! إنك تعني... يا للّه يا آشلي أتصدق جميع خوارات الأب المحترم ولاس فيما يتعلق بالنقود المدنسة؟».

- «لم يكن عليَّ أن أرفضها، فقد كنت أعتقد بها قبل أن يعظ بها بوقت طويل».

- «إذن لا بد أنك تعتقد أن جميع نقودي مدنسة» صاحت سكارلت وقد شرعت في الغضب «لأنى شغلت أشقياء وأملك حانة و-». وسكتت فجأة وقد بدا كلا الويلكسيين متضايقين، بينما كان ريت يبتسم ابتسامة عريضة... ليلعنه اللّه، هجست سكارلت بحدة، إنه يفكر أني أضع

إصبعي في فطائر الناس الآخرين ثانية، وكذلك آشلي، إني أرغب في أن أصدم رأسيهما معاً! وبلعت سخطها وحاولت أن تتصنع مظهراً انعزالياً وقوراً ولكنها لم تنجح إلا قليلاً:

- «طبعاً، إن ذلك غير مهم بالنسبة إليّ» قالت.

- «سكارلت، لا تظنني أنى أنتقدك! لا، لست كذلك، وإنما القضية إننا ننظر إلى الأشياء من زاويتين مختلفتين، والذي هو حسن في نظرك يمكن ألّا يكون كذلك في نظري».

وفجأة تمنت لو كانا وحيدين، تمنت لو كان ريت وميلاني في طرف الدنيا، كيما تستطيع أن تصرخ: «ولكني أريد أن أنظر إلى الأشياء من الزاوية التي تنظر منها أنت! أخبرنى فقط ماذا تعني، كيما أستطيع أن أفهم وأكون مثلك!».

ولكن بوجود ميلاني المرتجفة بفعل كآبة المشهد، وبوجود ريت المسترخي في مقعده، المبتسم عليها، لم يكن في وسعها إلا أن تقول بما استطاعت حشده من بر وفضيلة مستاءة «إني واثقة بأن هذا هو عملك الخاص يا آشلي، ولقد غدا من البعيد عليّ أن أخبرك كيف تديره، ولكن لا بد لي من القول إني لا أفهم نواياك ولا ملاحظاتك».

آه، لو أنهما كانا وحيدين، حتى لا ترغم على قول هذه العبارات الباردة له، هذه الكلمات التي كانت تشعره بالتعاسة!

- «لقد أسأت إليك يا سكارلت ولم أكن اقصد ذلك. ينبغي أن تصدقيني وتسامحيني. لا يوجد شيء غامض فيما قلته، بل فقط إني أعتقد أن المال الذي يأتي بطريقة معينة نادراً ما يجلب السعادة».

- «ولكنك مخطئ» صاحت بعد أن لم يعد في وسعها كبح نفسها «انظر إليَّ، إنك تعرف كيف أتت نقودي، وتعرف كيف كانت الأحوال قبل أن أجمع نقودي! إنك تتذكر ذلك الشتاء في تارا، عندما كان الجو

شديد البرودة، وكنا نمزق السجاد لنصنع منه نعالاً، ولم يكن هناك ما يكفي للأكل، وقد اعتدنا على التساؤل كيف سنؤمن لبو وويد تعليمهما، إنك تتذكر. . .».

- «إني أتذكر» قال آشلي تعباً «ولكني أفضل أن أنسى».

- «على كل حال ليس في وسعك أن تقول إن أياً منا كان سعيداً آنئذ، أليس كذلك؟ ثم انظر إلينا الآن! إنك تملك بيتاً جميلاً ومستقبلاً طيباً. وهل يملك أحد بيتاً أجمل من بيتي أو ثياباً أظرف أو خيولاً أروع؟ وليس هناك من يقدم مائدة حافلة مثلي أو يقيم حفلات أفخم من حفلاتي، كما أن أولادي ينعمون بكل ما يريدون. والآن كيف حصلتُ على المال لأجعل كل ذلك ممكناً؟ من الأشجار؟ لا يا سيدي! عن طريق الأشقياء ومن إيجارات الحانة و. . .».

- «ولا تنسي قتل ذلك الشمالي» قال ريت بنعومة «فقد أعطاك في الحقيقة المبلغ الذي بدأت به».

فالتفتت سكارلت نحوه بسرعة والكلمات الساخطة على شفتيها.

- «ولقد جعلتك النقود سعيدة جداً، جداً، أليس كذلك يا محبوبتي؟» سأل بلهجة عذبة مسموعة.

صمتت سكارلت لأنها لم تحر جواباً وقد فتحت فمها واتجهت عيناها بسرعة إلى عيون الثلاثة الآخرين. كانت ميلاني توشك أن تبكي من الارتباك، وبدا آشلي فجأة كئيباً منقبض الصدر، بينما كان ريت يتأملها من فوق سيجاره بطرب غير شخصي، وهمَّت أن تصرخ «ولكن طبعاً، لقد جعلتني سعيدة!».

ولكن لسبب ما لم تستطع الكلام.

58

خلال الفترة التي تلت مرضها، لاحظت سكارلت تغيراً في ريت، غير أنها لم تكن واثقة تماماً بأنها ارتاحت لهذا التغير. لقد أصبح صاحياً هادئاً قلق البال، يداوم على تناول العشاء في البيت أكثر من السابق. وأصبح ألطف مع الخدم وأكثر حناناً على ويد وإيلا ولم يكن يشير إلى شيء في ماضيهما، ساراً كان أم غير سار. وصار يبدو أنه يتحداها بصمت إن تتطرق إلى مواضيع كهذه. وتعلقت سكارلت بالسلام لأنه كان أدعى إلى الطمأنينة أن تركن إلى العافية. وهكذا استمرت الحياة ناعمة لدرجة كافية، في الظاهر. وغدا لطفه غير الشخصي تجاهها، ذلك اللطف الذي بدأ خلال فترة نقاهتها، يستمر الآن، ولم يعد يقذفها بعبارات لاذعة بطيئة خبيثة أو يلسعها بتهكمه. وأدركت الآن أنه مع أن ريت كان قد أغاظها بملاحظاته الحقودة وأثارها إلى حد أن دفعها إلى الرد الجارح عليه، إلا أنه كان قد فعل ذلك لأنه كان يهتم بأي شيء كانت تفعله. لقد كان مهذباً عديم الاهتمام، ولذا افتقدت اهتمامه، مع أنه كان اهتماماً شريراً، كما افتقدت الأيام القديمة، أيام النزاع والمهاترات.

كان ساراً لها الآن كما لو أنها كانت غريبة تقريباً، ولكن، كما كانت عيناه تتبعانها فيما مضى، كانتا تتبعان بوني الآن، وبدا كأن فيض حياته السريع قد حُوِّل الآن إلى قناة ضيقة واحدة. وكانت سكارلت

تفكر أحياناً أنه لو أن ريت كان قد منحها نصف العناية والعطف اللذين كان يغمر بهما بوني، لاختلفت حياتها عما كانت. لقد كان من الصعب أحياناً أن تبتسم عندما كان الناس يقولون: «ما أعظم عبادة الكابتن باتلر لتلك الطفلة!» ولكن هي لم تبتسم، فإن الناس يستغربون ذلك. وكانت تمقت أن تعترف، حتى لنفسها، بأنها كانت غيورة من البنت الصغيرة، خصوصاً لأن تلك البنت الصغيرة كانت طفلتها المحبوبة. لقد كانت سكارلت تريد دائماً أن تكون الأولى في قلب المحيطين بها، وكان من الواضح الآن أن ريت وبوني سيكونان أولين أحدهما في قلب الآخر.

كان ريت يعود متأخراً إلى البيت في ليال كثيرة، غير أنه كان يعود صاحياً في هذه الليالي، وغالباً ما سمعته يصفر صفيراً ناعماً لنفسه وهو يعبر القاعة ماراً ببابها المغلق. وكان أحياناً يصطحب معه رجالاً إلى البيت في الساعات المتأخرة ليجلسوا ويتحدثوا في غرفة الطعام حول قارورة البراندي. ولم يكن هؤلاء الرجال أنفسهم الذين كان قد شاركهم الشراب في سنة زواجهما الأولى، إذ لم يكن يأتي البيت بدعوة منه الآن، أحد من الكاربت بكرز أو السكالاواغز أو الجمهوريين الأغنياء. وكانت سكارلت تتسلل على رؤوس أصابعها إلى داربزين القاعة العليا وتصغي ومما كان يدهشها أنها كثيراً ما كانت تسمع أصوات رينيه بيكارد وهيو إلسينغ وأبناء سيمونز وإندي بونل. كما كان هناك دائماً غراندبا ميريويذر والعم هنري. ومرة سمعت صوت الدكتور ميد، الأمر الذي أدهشها. هؤلاء الرجال الذين كانوا يعتقدون فيما مضى أن الإعدام عقاب رحيم جداً لريت.

كانت هذه الجماعة مرتبطة دائماً بموت فرانك في عقل سكارلت. وكذلك كانت الساعات المتأخرة التي كان ريت يظل خارج البيت خلالها، كانت تذكّرها أكثر بالأوقات التي سبقت غزو الكلان، حينما

فقد فرانك حياته. وتذكرت بذعر عبارة ريت من أنه سيلتحق حتى بالكلان في سبيل أن يصبح محترماً. مع أنه كان يرجو ألّا يضع اللّه كفارة ثقيلة على كتفه. «هب أن ريت، كفرانك. . .».

وفي إحدى الليالي، عندما تأخر خارج البيت أكثر من المعتاد، لم يعد في وسعها أن تتحمل توتر أعصابها. وحالما سمعت قرقعة مفتاحه في قفل الباب، ألقت على جسدها رداءً وذهبت إلى القاعة العليا المضاءة بالغاز وقابلته عند أعلى الدرج، وإذ رآها هناك تحولت سحنته الشاردة المفكرة إلى دهشة:

- «ريت! ينبغي أن أعرف! ينبغي أن أعرف ما إذا كنت. . . إذا كان الكلان. . . سبب تأخرك إلى هذه الساعة؟ هل تنتمي. . .».

في ضوء الغاز المتماوج، نظر إليها دونما استغراب ثم ابتسم:

- «إنك خلف الأحداث بمسافة طويلة» قال «لا يوجد كلان في أتلانتا الآن، ربما ولا في جورجيا. لقد كنت تصغين إلى قصص اعتداءات الكلان من أصدقائك السكالاواغز والكاربت بكرز».

- «لا يوجد كلان؟ هل أنت تكذب لتحاول تهدئتي؟».

- «عزيزتي، متى حاولت تهدئتك؟ لا، لا يوجد كلان الآن، لقد قرَّ رأينا على أن تلك الجمعية ضرَّت أكثر مما نفعت، لأنها كانت تبقي الشماليين في حالة هياج، كما كانت تؤمن مؤونة أكثر إلى مطحنة كذب فخامة الحاكم بولوك، لأنه يعرف أن في وسعه أن يظل في الحكم ما دام قادراً على إقناع الحكومة الاتحادية وصحف الشماليين بأن جورجيا تغلي بالثورة، وبأن هناك كلانيّ يختبئ خلف كل شجرة. وهكذا في سبيل أن يظل في الحكم، فإنه يختلق باستماتة، قصص اعتداء الكلان، حيث لا يوجد شيء منها، ويدّعي أن جمهوريين مخلصين عُلِّقوا من إبهاماتهم، وأن زنوج شرفاء اقتُصَّ منهم ظلماً بتهمة هتك الأعراض. غير أنه يطلق النار على هدف لا وجود له، الأمر الذي يعرفه. إني

أشكرك على خوفك عليَّ، ولكن لا يوجد كلان فعلي من بعد أن انقطعت عن حياة السكالاواغز وأصبحت ديمقراطياً متواضعاً بوقت قصير».

دخل معظم ما قاله عن الحاكم بولوك من إحدى أذنيها ليخرج من الأخرى، لأن عقلها تملّكه الفرح بصفة خاصة إذ عرفت أنه لا وجود لكلان الآن، وأنه لن يقتل ريت كما قتل فرانك، وأنها لن تخسر مخزنها أو نقودها. إلا أن كلمة واحدة من حديثه طفت إلى قمة عقلها، لقد قال «نحن» رابطاً نفسه بصورة طبيعية بأولئك الذين كان قد دعاهم فيما مضى بـ«الحرس القديم».

- «ريت» قالت فجأة «هل لك علاقة بانهيار الكلان؟».

فرمقها بنظرة طويلة ثم شرعت عيناه في الرقص:

- «محبوبتي، أجل. فآشلي ويلكس وأنا، هما المسؤولان الرسميان عن ذلك الحدث».

- «آشلي - وأنت؟».

- «أجل، حقيقة مبتذلة ولكنها صادقة، فالسياسة تخلق ضجعاء غريبين ولكن - لم يكن آشلي يؤمن بالكلان أبداً، لأنه ضد العنف من أي نوع، كما أنني لم أكن أؤمن بالكلان أبداً، لأنها حماقة ملعونة، وليست الطريقة لنيل ما نريد، بل إنها الطريقة الوحيدة لإبقاء الشماليين فوق رقابنا إلى أن تقوم الساعة. وبجهودي وجهود آشلي أقنعنا الرؤوس المتحمسة بأن الترقب والانتظار والعمل ستوصلنا إلى أبعد مما توصلنا إليه قمصان الليل والصلبان النارية».

- «إنك لا تعني أن الشبان أخذوا بنصيحتك حقاً عندما كنت -».

- «عندما كنت مضارباً؟ سكالاواغ؟ شريك الشماليين؟ إنك تنسين يا سيدة باتلر أنني الآن ديمقراطي في مركز حسن، مخلص حتى آخر نقطه من دمي لاستعادة ولايتنا المحبوبة من أيدي مغتصبيها. لقد كانت

نصيحتي جيدة فقبلوها كما أن نصائحي في قضايا سياسية أخرى جيدة كتلك. ونحن نملك أغلبية ديمقراطية في المجلس التشريعي الآن، أليس كذلك؟ وسريعاً يا حبيبتي سيكون هناك بعض أصدقائنا الجمهوريين الطيبين خلف قضبان السجن، إنهم جشعون جداً هذه الأيام، وكرام جداً».

- «أستساعد على زجّهم في السجن؟ لقد كانوا أصدقاء! سمحوا لك بأن تدخل في تعهد بناء سكة الحديد، ذلك التعهد الذي كسبت منه ألوفاً!».

فابتسم ريت فجأة ابتسامته القديمة الساخرة.

- «ها، إني لا أحمل أية نية سيئة، إلا أني في الجانب الآخر الآن، وإذا كان في وسعي أن أساعد بأي وسيلة على وضعهم حيث يستحقون فسأفعل ذلك، وما أعظم ما سيعيد إليَّ ذلك سمعتي الطيبة! إني أعرف الكثير عن بواطن هذه الصفقات التي ستكون معرفتها قيّمة جداً عندما يبدأ المجلس التشريعي في نبشها - ولن يكون ذلك في وقت بعيد. أقول ذلك استناداً إلى ظواهر الأمور الآن. سوف يستجوبون الحاكم أيضاً، وسيضعونه في السجن إذا ما استطاعوا. ومن الأفضل أن تخبري أصدقاءك الطيبين: آل جيلرت وآل هندون، بأن يستعدوا لمغادرة المدينة عند أدنى إنذار، لأنهم إذا استطاعوا القبض على الحاكم، فسيقبضون عليهم أيضاً.

كانت سكارلت قد رأت الجمهوريين طوال سنين عديدة يتولون السلطة في جورجيا، مدعومين بقوة الجيش الشمالي، بحيث لم يسعها أن تصدق كلمات ريت الخفيفة. لقد كان الحاكم مدعوماً بقوة، بحيث لن يسع أي مجلس تشريعي أن يقوم بأي شيء ضده، وبالأحرى، أن يضعه في السجن.

- «كيف أنك تسترسل في حديثك!» لاحظت.

- «إذا لم يوضع في السجن، فعلى الأقل لن يعاد انتخابه، سوف ننتخب حاكماً ديمقراطياً بدلاً منه في الدورة القادمة».

- «وأظن أنه ستكون لك علاقة بذلك؟» استوضحت بتهكم.

- «أجل سيكون يا مدللتي. إن لي علاقة بالموضوع الآن، وذلك هو سبب تأخري ليلاً. إني أشتغل بجد أكثر مما كنت أعمل يوم كنت أشتغل بمجرفة في انطلاقة الذهب، وذلك في محاولة جعل الانتخاب منظماً و- إني أعرف أن ذلك سيؤلمك يا سيدة بائلر، ومع ذلك فإني أكرس كثيراً من المال للمنظمة أيضاً. هل تذكرين أنك أخبرتني منذ سنين في مخزن فرانك أنه كان من العار عليَّ أن أحتفظ بذهب الحلف؟ ها لقد وصل بي المطاف أخيراً إلى أن أوافقك على رأيك، وها هو ذهب الحلف يُنفق لإعادة الحلفيين إلى السلطة».

- «إنك تصبّ النقود في ثقب جرذ!».

- «ماذا! تدعين الحزب الديمقراطي ثقب جرذ؟» وسخرت عيناه منها ثم انقلبتا هادئتين عديمتي التعبير «لا يهمني أبداً من سيكسب هذا الانتخاب، إن ما يهمني هو أن يعرف كل إنسان أني عملت من أجل ذلك، وأني أنفقت نقوداً في سبيل ذلك، الأمر الذي سيذكره الناس لمصلحة بوني في السنين القادمة».

- «لقد كنت أخاف حديثك التقي القائل إن قلبك سيتغير ولكني أرى الآن أنك لا تدين بأي إخلاص للديمقراطيين أكثر من إخلاصك لأي شيء آخر».

- «لم يتغير قلبي مطلقاً، بل تغير جلدي فقط. ربما يمكنك أن تمسحي البقع من جلد نمر أرقط، إلا أنه سيظل نمراً رغم ذلك».

استيقظت بوني من جرّاء الأصوات في القاعة، فنادت وهي ناعسة، ولكن بلهجة آمرة:

- «بابا» وأسرع ريت إليها متجاوزاً سكارلت.

- «ريت، انتظر دقيقة. هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به. ينبغي أن تكف عن اصطحاب بوني إلى الاجتماعات السياسية في الأماسي، لأن وجود بنت صغيرة في أماكن كهذه يبدو عديم اللياقة، كما أن اصطحابها يجعلك تبدو أحمق للغاية. لم أكن أحلم أبداً بأنك كنت تأخذها معك إلى أن ذكر ذلك أمامي العم هنري. وكأنه كان يعتقد أني أعرف و-».

فاستدار نحوها بسرعة ووجهه متجهم:

- «كيف يسعك أن تستخطئي جلوس فتاة صغيرة في حضن والدها وهو يتحدث إلى أصدقائه؟ يمكن أن تعتقدي أن ذلك يبدو حماقة ولكنها ليست حماقة. إن الناس سيتذكرون طوال سنين أن بوني كانت تجلس في حضني بينما كنت أساعد في طرد الجمهوريين من الولاية. سيتذكر الناس طوال سنين -» وزال التجهّم عن وجهه وراح ضوء حقود يرقص في عينيه «هل تعرفين أنه عندما يسألها الناس من تحب أكثر فإنها تجيب: بابا والديمقراطيين، ومن تكره أكثر، فتقول: «السكالاواغز» شكراً للّه، إن الناس يتذكرون أموراً كتلك».

فارتفع صوت سكارلت غاضباً: «أظن أنك تخبرها أني سكالاواغ».

- «بابا!» قال الصوت الصغير، ساخطاً الآن. وقطع ريت القاعة إلى ابنته وهو لا يزال يضحك.

* * *

في أكتوبر ذاك، استقال الحاكم بولوك من منصبه وهرب من جورجيا، ذلك أن سوء استعمال الأموال العامة والتبذير والفساد، كانت قد بلغت حداً كبيراً أثناء ولايته بحيث إن الصرح كاد يقع بحمله. وحتى حزبه انشق على نفسه. وبلغ سخط الشعب حداً عظيماً. كان الديمقراطيون يتمتعون بالأغلبية في المجلس التشريعي الآن، الأمر

الذي كان يعني شيئاً واحداً وحسب، ذلك أن بولوك، وقد عرف أنه سيُستجوب وخاف من المساءلة، لم ينتظر، بل أسرع في الهرب سراً، مرتباً الأمور بحيث لا تعلن استقالته إلا وقد أصبح آمناً في الشمال.

وعندما أذيع نبأ الاستقالة، بعد فراره بأسبوع، عم الهرج والسرور أتلانتا، واحتشد الناس في الشوارع، وراح الرجال يضحكون ويتصافحون مهنئين بعضهم بعضاً والسيدات يتبادلن القبلات ويبكين فرحاً. وأقام الجميع الولائم احتفاء. وظلت دائرة الإطفاء مشغولة في مكافحة النيران التي كانت تنتشر من جرّاء حرائق الصغار المبتهجين.

لقد خرجوا من المحنة تقريباً! لقد انتهى التجديد على وجه التقريب. فرغم أن من المؤكد أن الحاكم بالنيابة كان جمهورياً أيضاً، فإن الانتخاب كان قادماً في ديسمبر، ولم يكن هناك شك عند أي إنسان في ما ستكون عليه النتيجة. وعندما حان الانتخاب، ورغم جهود الجمهوريين المحمومة، نعمت جورجيا بحاكم ديمقراطي مرة أخرى.

عم الفرح عندئذ والهرج أيضاً، ولكن ذلك كان من نوع يختلف عن ذاك الذي تملّك المدينة عندما ولى بولوك الأدبار. لقد كان هذا فرحاً قلبياً رزيناً، شعوراً نفسياً عميقا بتقديم الشكر. وامتلأت الكنائس بالمصلين بينما كان القساوسة يشكرون اللّه خاشعين على خلاص الولاية. كان هناك اعتزاز أيضاً ممزوج بالعجب والابتهاج، فخر لأن جورجيا عادت إلى أيدي أبنائها ثانية، رغم جميع ما كانت تستطيع فعله السلطة في واشنطن، ورغم الجيش والكاربت بكرز والسكالاواغز والمواطنين الجمهوريين.

سبع مرات، كان الكونغرس قد صادق على قوانين ساحقة ضد الولاية لإبقائها محافظة محتلة، وثلاث مرات كان الجيش قد جمد القانون المدني، وكان الزنوج قد عبثوا بالمجلس التشريعي، والأجانب

المسيطرون قد أساؤوا إدارة الحكومة، والأفراد من القطاع الخاص قد أثروا من الأموال العامة. لقد كانت جورجيا عاجزة، معذبة، منتهكة مداسة، ولكنها الآن، رغم أنوف أعدائها جميعاً، عادت إلى نفسها ثانية، وبفضل جهود أبنائها.

على أن انقلاب الديمقراطيين المفاجئ لم يجلب السرور لكل إنسان، فقد كان هناك ذعر في صفوف السكالاواغز والكاربت بكرز والجمهوريين، كما أن الجيلرتيين والهندونيين الذين بُلِّغوا نبأ استقالة بولوك قبل إعلانه كانوا قد غادروا المدينة فجأة واختفوا في تلك الغفلة التي أتوا منها. أما الكاربت بكرز والسكالاواغز والآخرون الذين ظلوا في المدينة، فقد كانوا قلقين مذعورين وراحوا يعقدون الاجتماعات فيما بينهم ليواسوا أنفسهم، وليتساءلوا عما ستكشف تحريات المجلس التشريعي، مما يتعلق بشؤونهم الخاصة. لم يعودوا وقحين الآن، بل أصبحوا مذهولين حائرين خائفين. وكانت السيدات اللواتي كن يزرن سكارلت يرددن مرة بعد أخرى:

– «ولكن من كان يعتقد أن الأمر سينقلب على هذه الصورة؟ لقد كنا نعتقد أن الحاكم قوي جداً. كنا نعتقد أنه موجود هنا ليبقى، كنا نعتقد –».

كانت سكارلت حائرة مثلهن من جرّاء انقلاب الأحداث، رغم تحذيرات ريت المتعلقة بالاتجاه الذي كان ينتظر أن تتخذه هذه الأحداث. ولم يكن سبب حيرتها أنها كانت متأسفة لذهاب بولوك وعودة الديمقراطيين. فمع أن أحداً لم يكن ليصدق، فإنها أيضاً شعرت بسعادة كالحة لإطاحة حكم الشماليين. وتذكرت بجلاء تام كل نضالاتها خلال تلك الأيام الأولى من التجديد، ومخاوفها من أن يصادر الجنود والكاربت بكرز أموالها وممتلكاتها. وكذلك تذكرت عجزها وذعرها من ذلك العجز وكراهيتها للشماليين الذين كانوا قد

فرضوا هذا النظام المرير على الجنوب. ولم تكن قد كفت عن كراهيتهم. ولكن، في سبيل محاولتها تقبُّل الأوضاع والاستفادة منها، وفي سبيل محاولتها الحصول على أمان تام، ماشت المحتلين. ومهما كانت كراهيتها لهم، فقد أحاطت نفسها بهم، وبترت شخصها عن أصدقائها القدامى وعن أسلوبها القديم في الحياة. وها هي الآن سلطة المحتلين تبلغ نهايتها. لقد راهنت على استمرار نظام بولوك ولقد خسرت الرهان.

وعندما تطلعت حولها في عيد ميلاد عام 1871، أهنأ أعياد الميلاد التي عرفتها الولاية منذ أكثر من عشر سنين، أحست بالجزع. إذ لم تستطع إلا أن تلاحظ أن ريت، الذي كان فيما مضى أمقت رجل في أتلانتا، أصبح الآن أحد أحب الرجال، لأنه كان قد استنكر انحرافاته الجمهورية بتواضع، وكرّس وقته وماله وجهده وفكره لمساعدة جورجيا في شق طريقها إلى النصر. ولذا فعندما كان يركب في الشوارع مبتسماً ومميلاً قبعته، وابنته الصغيرة الزرقاء الملابس بوني، مثبتة على السرج أمامه، كان كل شخص يرد له الابتسامة ويتحدث إليه بحماس، وينظر بحنان إلى البنت الصغيرة. بينما كانت سكارلت -.

59

لا أحد كان يشك في أن بوني باتلر كانت تنطلق بطيش وأنها كانت في حاجة إلى يد حازمة، غير أنها كانت محبوبة جداً من الجميع بحيث لم يكن أحد يملك القلب ليحاول الحزم الضروري. كانت قد خرجت عن السلطة أول مرة خلال الأشهر التي سافرت فيها مع والدها. فعندما كانت برفقة ريت في نيو أورليانز وشارلستون، كان قد سمح لها بأن تظل سهرانة إلى الوقت الذي يطيب لها فأخذت تنام بين ذراعيه في المسارح والمطاعم وعلى طاولة لعب الورق. منذ ذلك الحين، لم يكن في وسع شيء غير القوة، أن يجعلها تأوي إلى فراشها في الوقت نفسه مع إيلا المطيعة. وحينما كانت مسافرة برفقته، كان ريت قد سمح لها بارتداء أي ثوب تختاره، ومنذ ذلك الوقت، وهي تثور عندما تحاول مامي إلباسها ميادع وحللاً من البفتة الهندية بدلاً من التفتا الزرقاء والياقات المزركشة.

وبدا أنه لم تكن هناك طريقة لاستعادة الأساس الذي كان قد فقد والطفلة بعيدة عن البيت، وكذلك أثناء مرض سكارلت فيما بعد، وانتقالها إلى تارا. وبينما كانت بوني تزداد سناً، كانت سكارلت تحاول أن تخضعها للنظام، تحاول أن تمنعها من أن تصبح عنيدة مفسودة جداً، ولكن بنجاح قليل، إذ كان ريت يقف إلى جانب الطفلة ويعاملها كإنسانة راشدة، ويصغي لآرائها بجدية واضحة ويتظاهر بأنه يسترشد

بتلك الآراء. وكنتيجة لذلك، صارت بوني تقاطع من هم أكبر منها سناً كلما طاب لها ذلك وتعارض والدها وتوقفه عند حده، وكان هو لا يزيد على أن يضحك دون أن يسمح لسكارلت حتى بصفع يد الفتاة الصغيرة على سبيل الزجر.

«لو أنها لم تكن مخلوقة محبوبة عذبة، لكانت لا تطاق». فكرت سكارلت ساخطة وقد أدركت أن لها بنتاً ذات إرادة كإرادتها «إنها تعبد ريت وفي وسعه أن يجعلها تسلك سلوكاً أفضل إذا هو أراد».

إلا أن ريت لم يكن يُظهر أي ميل لجعل بوني تحسن سلوكها، فمهما عملت كان صواباً، وإن هي أرادت القمر، ففي وسعها نيله، إن استطاع الوصول إليه في سبيلها. لقد كان اعتزازه بجمالها، بجعدات شعرها، بغمازتيها، بإشاراتها الرقيقة الصغيرة لا يحد. كان يحب سلطتها ومعنوياتها العالية، وطريقتها العذبة في إظهار حبها له. وكانت بوني، رغم جميع أساليبها العنيدة الفاسدة طفلة محبوبة، بحيث كان يعوزه القلب ليحاول ردعها. لقد كان هو إلهها ومحور عالمها الصغير، وكان ذلك الأمر قيماً جداً بالنسبة إليه، لا يقوى على المخاطرة بخسرانه إن هو عنَّفها.

كانت تتعلق به كظله، وتوقظه أبكر من الوقت الذي كان يهمه أن يستيقظ فيه، وتجلس إلى المائدة بجانبه، وتأكل من طبقه ثم من طبقها على التوالي، وتركب على حصانه، ولا تسمح لأي إنسان سواه بأن ينزع ثيابها عنها، وأن يضعها في سريرها الصغير لتنام بجانبه.

وكان مما يطرب سكارلت ويهزها رؤية اليد الحديدية التي كانت ابنتها الصغيرة تحكم بها والدها. من كان يفكر أن ريت من بين جميع الناس سيتحلى بالأبوة بهذه الجدية؟ غير أن سكارلت كانت تشعر أحياناً بوخزة حسد، لأن بوني التي كانت تبلغ الرابعة من عمرها،

كانت تفهم ريت أفضل مما فهمته هي، ولأنها كانت تستطيع أيضاً أن تديره أحسن مما كانت تديره هي.

وعندما بلغت بوني سنتها الرابعة، شرعت مامي تدمدم عن عدم اللياقة في ركوب بنت على «سرج أمام والدها وثوبها يتطاير». وأعار ريت أذناً صاغية لهذه الملاحظة، كما كان يفعل حيال جميع ملاحظات مامي المتعلقة بتنشئة الفتيات الصغيرات اللائقة، وهكذا ظهرت النتيجة في شرائه لمهر اسكتلندي صغير أبيض وبني ذي عرف وذيل ناعمين طويلين، وسرج جانبي ذي تخاريج فضية. وكان المهر في الظاهر للأولاد الثلاثة، ولذلك ابتاع ريت سرجاً لويد أيضاً، على أن هذا كان يفضل كلبه الذي كان من نوع سانت برنارد على المهر، بينما كانت إيلا تخاف جميع الحيوانات إلى درجة لا تحد. وهكذا أصبح المهر خاصاً ببوني وسمّي «السيد باتلر» وغدت الثغرة الوحيدة في سرور بوني هي أنها لم يعد في وسعها الركوب مفرشخة كأبيها، ولكن بعد أن أوضح لها ريت، كم كان الركوب الجانبي أصعب من ذاك، اقتنعت وتعلمت بسرعة وصار اعتزاز ريت بجلستها الصحيحة ويديها الماهرتين عظيماً جداً.

«انتظري إلى أن تصبح كبيرة تستطيع الصيد» كان يتفاخر «لن يوجد أحد مثلها في أي حقل. وسآخذها إلى فرجينيا عندئذ، هناك حيث يجري الصيد الحقيقي، وإلى كنتاكي حيث يقدرون الراكبين المهرة».

وعندما وصل الأمر لصنع ثوب ركوبها، نعمت كالعادة بحقها في اختيار الألوان، وكالعادة اختارت اللون الأزرق.

- «ولكن يا حبيبتي! ليس ذلك المخمل الأزرق! فالمخمل الأزرق يصلح لثوب حفلة لي» كانت سكارلت تخاطبها ضاحكة «إن ما تلبسه البنات الصغيرات هو الجوخ الأسود الناعم». بيد أنها كانت لا تلبث أن تقول وهي ترى الحاجبين الأسودين الصغيرين يلتقيان معاً: «من

أجل اللّه يا ريت، أخبرها كم هو منافٍ لأصول اللياقة، وما أشد ما يصبح قذراً».

- «ها دعيها تختار المخمل الأزرق، وإذا ما توسخ، فسنصنع لها ثوباً آخراً». قال ريت ببساطة.

وهكذا نعمت بوني بثوبها المخمل الأزرق مع تنورة كانت تتدلى على جانب المهر، وقبعة سوداء ذات ريشة حمراء، لأن قصص الخالة ميلي عن ريشة جب ستيورات كانت قد علقت بخيالها، وهكذا أضحى من الممكن رؤية الاثنين في الأيام المشرقة الصافية، راكبين في شارع بيتشتري وريت يكبح عنان فرسه السوداء الكبيرة ليجاري مشية المهر البدين. وكانا أحياناً ينطلقان بسرعة على الطرقات الهادئة في المدينة، مفرقين الدجاج والكلاب والأولاد بينما بوني تضرب «السيد باتلر» بسوطها وخصلات شعرها المجعد تتطاير، وبينما ريت قابض على فرسه بيد حازمة، بحيث كان يمكن للمرء أن يعتقد أن «السيد باتلر» هو الذي كسب السباق.

وبعد أن طمأن ريت نفسه عن جلستها، عن يديها، عن عدم خوفها المطلق، قرر أن الوقت قد حان لتتعلم القيام بالقفزات المنخفضة التي كانت في مقدور سيقان «السيد باتلر» القصيرة. ومن أجل هذه الغاية ابتنى ريت حاجزاً من العيدان المشبكة في الساحة الخلفية، وعيَّن ووش، أحد أبناء شقيقة العم بيتر الصغار، ليدرب «السيد باتلر» على القفز لقاء أجرة يومية مقدارها خمسة وعشرون سنتاً. وبدأ ووش عمله بحاجز مرتفع بوصتين عن الأرض واستمر تدريجياً إلى ارتفاع قدم.

إلا أن هذا التدبير قوبل باستنكار الفرقاء الثلاثة المعنيين بالأمر، أكثر من غيرهم وهم: ووش والسيد باتلر وبوني. فووش كان يخشى الخيل ولم يقنعه بتمرين المهر العنيد للقفز عبر الحاجز عشر مرات في

اليوم، سوى المبلغ الضخم المغري الذي كان يدفع له، وأما السيد باتلر الذي كان يتحمل برباطة جأش، شد ذيله من قبل سيدته الصغيرة، وفحص حواجزه باستمرار، فإنه كان يشعر بأن خالق الأمهار لم يكن قد قصد منه أن يضع جسده السمين فوق الحاجز، بقيت بوني التي لم يكن في وسعها احتمال رؤية أي إنسان آخر يركب مهرها، فإنها كانت ترقص جزعاً بينما كان السيد باتلر يتلقى دروسه.

وعندما قرر ريت أخيراً أن المهر صار يعرف عمله معرفة جيدة تكفي لتأمين بوني فوق صهوته، كان انفعال الطفلة عظيماً جداً، ثم قامت بقفزتها الأولى بسرور بالغ، ومن ثم أضحى الركوب مع والدها خارج البيت لا يحمل أي سحر لها. ولم يسع سكارلت سوى الضحك على كبرياء الأب وابنته وحماسهما. ومهما كان الأمر، فقد اعتقدت أنه إذا ما انقضت جِدّة هذا الشيء، فإن بوني ستلتفت إلى أشياء أخرى وسينعم الجيران ببعض الطمأنينة. غير أن هذه الرياضة لم تفقد بهجتها، وأضحى هناك ممر مداس يمتد من العريشة في نهاية الساحة الخلفية البعيدة إلى الحاجز، وطوال الصباح كانت الساحة تتصادى بصيحات ثائرة قال عنها غراندبا ميريويذر، الذي كان قد قام بالرحلة البرية عام 1849، إنها كانت كصيحات أحد أفراد قبيلة أباش[1] بعد عملية جد ناجحة.

وبعد الأسبوع الأول، التمست بوني إقامة حاجز أكثر ارتفاعاً، حاجز يرتفع قدماً ونصف قدم عن الأرض.

- «عندما تصبحين في السادسة من عمرك» قال ريت «عندئذ تصبحين كبيرة جداً بحيث تستطيعين قفز قفزة أعلى، وحينذاك سأشتري لك حصاناً أكبر لأن سيقان السيد باتلر ليست طويلة كما ينبغي».

---

(1) قبيلة من الهنود الحمر كانت تقطن شمال بلاد المكسيك - (المترجمان).

- «بلى إنها طويلة. لقد قفزت عن شجيرات وردة العمة بيتي، التي هي شديدة الارتفاع!»

- «لا، يجب أن تنتظري» قال ريت بحزم، ولمرة واحدة، غير أن الحزم تلاشى تدريجياً قبل إلحاحها وثورتها المتتابعين.

- «ها، حسناً» قال ضاحكاً صباح أحد الأيام. ورفع الحاجز الأبيض الضيق إلى الأعلى.

- «إذا ما وقعت، فلا تبكي وتلوميني».

- «أماه!» صاحت بوني رافعة رأسها نحو غرفة نوم سكارلت «أمي! راقبيني، إن بابا يقول إن في وسعي ذلك!».

فجاءت سكارلت التي كانت تمشط شعرها إلى النافذة وابتسمت إلى الشخص المنفعل الصغير الذي كان يبدو بالغ الحماقة بثوبه الأزرق الملوث بالتراب.

«ينبغي في الحقيقة أن أخيط لها ثوباً آخر» فكرت سكارلت «مع أن اللّه وحده يعرف كيف سأجعلها تتخلى عن ذلك الثوب القذر».

- «أمي، شاهديني».

- «إني أشاهدك يا عزيزتي» قالت سكارلت مبتسمة.

وبينما كان ريت يرفع الطفلة ويجلسها على المهر، نظر بدفق سريع من الكبرياء إلى الظهر المستقيم وإلى وضع الرأس الفخور:

- «إنك رائعة، قيمة جداً!».

- «وكذلك أنت» قالت بوني بسخاء، ثم ضربت صدر المهر بقدمها وانطلقت خبباً في الساحة نحو العريشة.

- «أمي، شاهديني أقفز هذه القفزة!» صاحت وهي تضرب المهر بالسوط.

شاهديني أقفز هذه القفزة!

وقرعت الذكرى جرساً بعيداً جداً في عقل سكارلت. كان هناك شيء مشؤوم يتعلق بهذه الكلمات. ماذا كان ذلك الشيء؟ لماذا لم تستطع التذكر؟ ونظرت إلى ابنتها الصغيرة الجالسة بوزنها الخفيف جداً على المهر المنطلق خبباً، وقطبت جبينها عندما اخترقت قشعريرة صدرها بسرعة ثم انقلبت بوني مندفعة وخصلات شعرها الأسود المجعد تتطاير وعيناها الزرقاوان تتألقان.

- «إنهما كعيني والدي» فكرت سكارلت «عينان إيرلنديتان زرقاوان، كما أنها تشبهه في كل ناحية تماماً».

وبينما هي تفكر في جيرالد، عادت إليها بسرعة، الذكرى التي كانت تبحث عنها، عادت بصفاء برق الصيف الآخذ بالقلوب، قاذفة لهنيهة، ريفاً كاملاً في بريق غير طبيعي. واستطاعت سكارلت أن تسمع صوت إيرلندي يغني، وأن تسمع الوقع الشديد السريع لحوافز تصعد تلة المرعى في تارا، وأن تسمع صوتاً طائشاً، شبيهاً جداً بصوت ابنتها «إيلين! راقبيني أقفز هذه القفزة!».

- «لا!» صاحت «لا! توقّفي يا بوني!».

وتماماً بينما هي تنحني من النافذة، سمعت صوتاً رهيباً صادراً عن تحطيم خشب، وصرخة جشاء من ريت ومزق مخمل أزرق وحوافر جارية على الأرض، ثم رأت السيد باتلر يزحف ليقف على قوائمه وينطلق خبباً بالسرج الشاغر.

* * *

في الليلة الثالثة بعد وفاة بوني، كانت مامي تتهاوى ببطء وهي تصعد درجات مطبخ بيت ميلاني. كانت ترتدي السواد، ابتداء من حذائيها الشبيهين بأحذية الرجال والمشقوقين ليمنحا الحرية لأصابع قدميها، إلى عمامة رأسها السوداء. وكانت عيناها النديتان بالدموع ملتهبتين محمرتي الحدقتين، وكانت التعاسة تصرخ في كل عضو من

جسدها الضخم، وكان وجهها متغضناً في حيرة محزنة، حيرة قرد عجوز، ولكن كان هناك تصميم في لحيَيْها.

وتحدثت بكلمات رقيقة إلى دلسي التي أطرقت رأسها بلطف، وكأن هدنة مكتومة فرضت على نزاعهما القديم. وأنزلت دلسي أطباق العشاء التي كانت تحملها وسارت بهدوء عبر غرفة المؤونة تجاه غرفة الطعام. وبعد دقيقة، حضرت ميلاني إلى المطبخ وفوطتها في يدها والقلق في وجهها.

- «ليست الآنسة سكارلت -».

- «إن الآنسة سكارلت تتذرع بالصبر، ككل واحد منا» قالت مامي بتثاقل «لم أكن أقصد أن أفسد عليك عشاءك يا آنسة ميلي، وفي وسعي أن أنتظر إلى أن تفرغي من الطعام كي أخبرك ماذا يدور في خلدي».

- «في وسع العشاء أن ينتظر» قالت ميلاني «دلسي، قدّمي بقية العشاء، وتعالي معي يا مامي».

فتهادت مامي خلفها في القاعة، وتجاوزتا غرفة الطعام حيث كان يجلس آشلي على رأس المائدة، وإلى جانبه ابنه بو الصغير، وفي مقابلهما ولدا سكارلت، والجميع يُصدرون قرقعة عظيمة بملاعق الحساء. وكان صوتا ويد وإيلا السعيدين يملآن الغرفة. فقد كان قضاء زيارة طويلة كهذه مع العمة ميلي بمثابة نزهة لهما، إذ كانت العمة ميلي لطيفة جداً معهما، وخصوصاً الآن، ولم يؤثر موت شقيقتهما الصغرى فيهما إلا قليلاً جداً، كانت بوني قد وقعت عن مهرها وقد ظلت أمها تبكي وقتاً طويلاً، وكانت العمة ميلي قد اصطحبتهما إلى بيتها ليلعبا مع بو في الساحة الخلفية وليتناولا كعك الشاي إن شاءا.

قادت ميلاني مامي إلى غرفة الجلوس المليئة برفوف الكتب وأغلقت الباب وأشارت إليها أن تجلس على الكنبة.

- «لقد كنت ذاهبة إلى هناك بعد العشاء فوراً» قالت «الآن وقد أتت والدة الكابتن باتلر، فإني أظن أن الجنازة ستكون صباح الغد».

- «الجنازة، تلك هي المشكلة بعينها» قالت «آنسة ميلي، إننا جميعاً في ورطة عظيمة، ولقد جئت طلباً لمساعدتك. ليس هناك سوى العبء المنهك يا حلوتي، لا شيء سوى العبء المنهك».

- «هل انهارت الآنسة سكارلت؟» استوضحت ميلاني بقلق «لم أراها إلا نادراً منذ بوني - كانت في غرفتها، وكان الكابتن باتلر خارج البيت و-».

وفجأة طفق الدمع يجري على وجه مامي الأسود، فجلست ميلاني بجانبها وربتت على ذراعها، وبعد لحظة رفعت مامي طرف تنورتها السوداء وجففت عينيها.

- «عليك أن تأتي لمساعدتنا يا آنسة ميلي. لقد بذلت جهدي ولكن ذلك لم يُجدِ».

- «الآنسة سكارلت -».

واستقامت مامي بجلستها.

- «آنسة ميلي، إنك تعرفين الآنسة سكارلت جيداً كما أعرفها. ليعطِ اللّه الطيب القوة لهذه الطفلة لتتحمل ما ينبغي أن تتحمله. إن هذه القضية الحاضرة حطمت قلبها، ومع ذلك فهي تستطيع تحمّلها، ولقد أتيت من أجل السيد باتلر».

- «كنت شديدة الرغبة في رؤيته، ولكن كلما كنت هناك كان إما في المدينة أو موصداً باب غرفته مع - وكانت سكارلت تبدو كشبح ولم تكن لتتحدث - أخبريني بسرعة يا مامي، فأنت تعرفين أني سأساعد إذا ما استطعت».

مسحت مامي أنفها بظاهر يدها.

- «إني أقول أن في وسع الآنسة سكارلت أن تحتمل ما أرسله

اللّه، فلقد كان عليها أن تحتمل الكثير. ولكن السيد باتلر - يا آنسة ميلي، لم يكن عليه أن يتحمل شيئاً لم يرد أن يتحمله، ولا أي شيء. وهو الذي أتيت لأراك من أجله».

- «ولكن -».

- «آنسة ميلي، عليك أن تأتي إلى البيت معي هذا المساء» كان هناك إلحاح في صوت مامي «فمن المحتمل أن يصغي لك السيد باتلر. إنه دائماً يقدر رأيك كثيراً».

- «ها مامي، ماذا هناك؟ ماذا تعنين؟».

فشمخت مامي برأسها.

- «آنسة ميلي، إن السيد ريت - إنه فقد عقله. إنه لن يدعنا ندفن الآنسة الصغيرة».

- «فقد عقله؟ ها، لا يا مامي».

- «إني لا أكذب. إنها الحقيقة واللّه. إنه لن يدعنا ندفن تلك الطفلة، لقد أخبرني ذلك بنفسه، ليس قبيل أكثر من ساعة».

- «ولكن لا يستطيع - إنه ليس -».

- «وذلك هو السبب في قولي إنه فقد عقله».

- «ولكن لماذا -».

- «آنسة ميلي، سأخبرك كل شيء. كان ينبغي ألّا أخبر أحداً، ولكنك قريبتنا كما أنك الشخص الوحيد الذي أستطيع إخباره. سأخبرك كل شيء. إنك تعرفين ما كان أعظم اهتمامه بتلك الطفلة. إني لم أرَ رجلاً، أسود أم أبيض، يهتم مثل هذا الاهتمام بأي طفل. وعندما قال الدكتور ميد إن عنقها قد دقت بدا كالمجنون تماماً فقد قبض على بندقيته وجرى من فوره إلى الخارج، وقتل ذلك المهر المسكين. ويا للّه، لقد ظننت أنه سيقتل نفسه. لقد ذهلت تماماً، حين كانت الآنسة سكارلت مغمياً عليها وكل الجيران يدخلون المنزل ويخرجون منه،

والسيد ريت ما انفك يحمل تلك الطفلة ولا يسمح لي حتى بغسل وجهها الصغير، حيث كان الحصى قد جرحه. وعندما أفاقت الآنسة سكارلت ظننت، يا للّه المبارك، ظننت أنهما سِيواسيان بعضهما بعضاً».

وثانية بدأت الدموع تنهمر على وجنتيها، ولكن مامي لم تمسحها هذه المرة.

- «ولكن عندما أفاقت دخلت إلى الغرفة التي كان يجلس فيها، حاملاً الآنسة بوني وقالت «أعطني ابنتي التي قتلتها».

- «ها، لا، لا تستطيع!».

- «بلى، كان ذلك ما قالته. لقد قالت: «إنك قتلتها» وشعرت بالحزن الشديد على السيد ريت بحيث إني انفجرت في البكاء، لأنه كان يبدو ككلب مضروب، ثم قلت: «أعطِ تلك البنت لمربيتها، فإني لن أسمح بمناقشات كهذه على جثة آنستي الصغيرة» وأخذت الطفلة منه، وذهبت بها إلى غرفتها وغسلت وجهها ثم سمعتهما يتحدثان، وكاد الذي سمعته يقتلني. كانت الآنسة سكارلت تدعوه قاتلاً لأنه سمح لها بالقفز عبر ذلك الحاجز المرتفع، وكان هو يقول إن الآنسة سكارلت لم تكن تهتم أبداً بالآنسة بوني ولا بأي من أولادها...».

- «اسكتي يا مامي! لا تخبريني أكثر من هذا، وليس من الصواب أن تخبريني به!» صاحت ميلاني وعقلها ينكمش بعيداً عن الصورة التي استدعتها كلمات مامي.

- «إني أعرف أنه ليس من شأني إخبارك، إلا أن قلبي طافح جداً بحيث لا أعرف ما لا ينبغي قوله. ثم أخذها بنفسه إلى حانوتي الدفن وأعادها ووضعها في سريرها في غرفته. وعندما قالت الآنسة سكارلت إنها يجب أن توضع في الردهة داخل الكفن، ظننت أن السيد ريت سيضربها، إذ قال وقد بدا في غاية البرودة: «يجب أن توضع في

غرفتي» والتفت إلي وقال: «مامي، احرصي على أن تظل هنا تماماً إلى حين عودتي» ثم غادر البيت على حصانه بخفة، ولم يعد إلى حين الغروب تقريباً. وعندما عاد إلى البيت مسرعاً، رأيت أنه كان شارباً، وشارباً كثيراً، ولكنه كان واعياً تماماً كعادته. فانطلق داخل البيت، ولم يتكلم حتى مع الآنسة سكارلت أو الآنسة بيتي، بل صعد الدرج بسرعة وفتح باب غرفته دفعاً، ثم صاح يستدعيني. وعندما أتيت جرياً بأسرع ما أستطيع، رأيته يقف بجانب السرير، والغرفة مظلمة جداً بحيث إني لم أكد أراه لأن مصاريع الشبابيك كانت مغلقة، ثم قال لي وقد بدا شرساً تماماً: «افتحي المصاريع، إن الغرفة مظلمة» ففتحتها، ونظر إليَّ. ويا للّه يا آنسة ميلي، لقد كانت ركبتاي تنهاران، لأنه كان يبدو بصورة غريبة جداً، ثم قال: «أحضري شموعاً كثيرة، وأبقيها مضيئة ولا تسدلي الستائر ولا تغلقي المصاريع. ألا تعرفين أن الآنسة بوني تخشى الظلام؟»».

قابلت عينا ميلاني المذعورة عيني مامي، التي أطرقت إطراقة الشؤم.

- «ذلك ما قاله، «الآنسة بوني تخشى الظلام»».

وارتجفت مامي.

- «وعندما أحضرت له دزينة الشموع قال «اخرجي!» ثم أقفل الباب وجلس هناك مع الآنسة الصغيرة، ولم يفتح الباب للآنسة سكارلت حتى عندما قرعته وصاحت به. وتلك هي الحال معه منذ يومين. إنه لم يذكر شيئاً عن الجنازة، كما أنه يوصد الباب في الصباح، ويركب حصانه ويذهب إلى المدينة، ثم يعود عند الغروب مخموراً ويغلق الغرفة على نفسه ثانية، دون أن يأكل شيئاً أو ينام. والآن أتت أمه السيدة العجوز باتلر. أتت من شارلستون لتحضر مراسم الدفن، كما أن السيدة سولين والسيد ويل حضرا من تارا، ولكن السيد

ريت لم يتكلم مع أي منهم. آه يا آنسة ميلي، إن الأمر رهيب! وستقع فضيحة، وسيتحدث الناس أحاديث مشينة».

- «وثم، هذا المساء» وصمتت مامي ومسحت أنفها بظاهر يدها مرة ثانية «هذا المساء، أوقفته الآنسة سكارلت في قاعة الطابق العلوي، عندما دخل، ودخلت الغرفة معه وقالت: «ستقام الجنازة صباح الغد» فأجابها: «افعلي ذلك وسأقتلك غداً»».

- «آه، لا بد من أنه فقد عقله!».

- «أجل يا سيدتي. ثم راحا يتحدثان بصوت خفيض ناعم بحيث لم أسمع ما قالاه سوى أنه قال ثانية: «إن الآنسة بوني كانت تخشى الظلام، وإن القبر مطبق الظلام» وبعد هنيهة، قالت الآنسة سكارلت: «إنه لجميل منك أن تقول هذا بعد أن قتلتها لتشبع كبرياءك» فأجابها: «أليس لديك رحمة؟» وقالت هي: «لا، ولن أحبل بأي طفل كذلك. كما أني أضنيت من الطريقة التي تتصرف بها منذ ولادة بوني. إنك تفضحنا بنزولك إلى المدينة، كما أنك سكران طوال الوقت. وإذا كنت تعتقد أني لا أعرف أين تقضي أيامك، فإنك أحمق. إني أعرف أنك تذهب إلى بيت تلك المخلوقة، بيل وتلينغ»».

- «آه، يا مامي!».

- «أجل يا سيدتي ذلك ما قالته، وإنها الحقيقة يا آنسة ميلي. إن الزنوج يعرفون كثيراً من الأشياء أسرع من الناس البيض. فقد كنت أعرف أين كان، ولكني لم أقل شيئاً كما أنه لم ينكر ذلك، إذ قال «أجل، ذلك هو المكان الذي كنت فيه، وليس عليك أن تقلقي، لأنك لا تبالين مثقال ذرة، إن بيت الفسق هو مأوى يلجأ إليه بعد بيت الجحيم هذا، كما أن بيل تملك أحد أرحم قلوب الدنيا، وهي لم تقذفني بتهمة قتل ابنتي»».

- «آه،» صاحت ميلاني، وقد أصيبت في الصميم.

كانت حياتها الخاصة هانئة جداً، مصونة جداً، مكتنفة تماماً بالناس الذين كانوا يحبونها، مفعمة جداً باللطف، بحيث إن الذي أخبرتها به مامي، كان تقريباً يتجاوز إدراكها أو تصديقها. ومع ذلك فقد زحفت إلى عقلها ذكرى، صورة أسرعت بإبعادها عنها، كما كان يمكن أن تبعد عنها فكرة شخص آخر عريان. كان ريت قد تحدث عن بيل وتلينغ في اليوم الذي بكى فيه ورأسه على ركبتها، غير أنه كان يحب سكارلت، ولا يمكن أن تكون خدعت ذلك اليوم، وطبعاً لقد كانت سكارلت تحبه، فما الذي حدث بينهما؟ كيف يسع زوجين أن يمزقا بعضهما إرباً إرباً بسكاكين حادة كهذه؟

واستأنفت مامي قصتها ببطء:

- «وبعد هنيهة، خرجت الآنسة سكارلت من الغرفة، وهي شديدة الشحوب، ولكن لحيها مصمم. وعندما رأتني أقف هناك، قالت: «الجنازة ستكون غداً يا مامي»، ثم مرت بجانبي وقد بدت كشبح. ثم أحسست بقلبي يتلوى ألماً، لأن سكارلت كانت تعني الذي قالته، وكذلك كان ريت. وكان قد قال إنه سيقتلها إذا هي فعلت ذلك. ووقعت في حيرة تامة يا آنسة ميلي، فقد كان هناك شيء في ضميري طوال الوقت. شيء كان يهدمني. آنسة ميلي، لقد كنت أنا التي خوفت الآنسة الصغيرة من الظلام».

- «ها، ولكن يا مامي، إن ذلك لا يهم... ليس الآن».

- «بل إنه يهم، تلك هي المشكلة بأسرها. ولقد خطر لي أن من الأفضل أن أخبر السيد ريت حتى ولو قتلني، لأن الأمر يثقل ضميري. ولذا انسبت عبر الباب بسرعة حقيقية قبل أن يستطيع إغلاقه وقلت: «لقد جئت لأعترف يا سيد ريت» فاستدار نحوي بسرعة، كرجل مجنون، وقال: «اخرجي!» ويا للّه آنسة ميلي، لم أشعر بحياتي بمثل ذلك الفزع، ولكني قلت: «أرجوك يا سيدي، دعني أخبرك، إنها تكاد

تقتلني، لقد كنت أنا الذي قد خوفت الآنسة الصغيرة من الظلام»، وبعدئذ يا آنسة ميلي أطرقت رأسي وانتظرت كي يضربني، ولكنه لم يقل شيئاً، فأردفت إذّاك: «لم أكن أقصد إيذاءها، ولكن يا سيد ريت لم تكن تلك الطفلة تعرف الحذر ولم تكن تخاف شيئاً، كما أنها كانت دائماً تظل خارج فراشها بعد أن ينام الجميع، فتركض حول البيت عارية القدمين، الأمر الذي كان يزعجني لأني خشيت أن تؤذي نفسها، ولذلك أخبرتها بأنه يوجد أشباح وشحاذون في الظلام». وعندئذ. . . يا آنسة ميلي، أتعرفين ماذا فعل؟ بدا وجهه لطيفاً للغاية واقترب مني ووضع يده على ذراعي، وتلك هي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، ثم قال: «لقد كانت شجاعة جداً، أليس كذلك؟ باستثناء خوفها من الظلام لم تكن تخشى شيئاً» وعندما انفجرت في البكاء، قال: «والآن يا مامي» وربت على كتفي، «الآن يا مامي، كفي عن البكاء. إني مسرور لأنك أخبرتني. إني أعرف أنك تحبين الآنسة بوني، ولأنك تحبينها فإن ذلك لا يهم. إن الذي يهم هو الذي في القلب». والواقع أن ذلك اللطف أنعشني، ولذلك خاطرت بالقول: «سيد ريت، سيدي، ماذا عن الجنازة؟» وعندئذ استدار نحوي كرجل متوحش وعيناه تتوهجان وقال: «يا للّه الطيب، كنت أعتقد أنك تفهمين الحقيقة حتى لو لم يفهمها أي إنسان آخر. هل تظنين أني سأضع ابنتي في الظلام بينما هي تخاف الظلام خوفاً عظيماً؟ إن في وسعي الآن أن أسمع تماماً الكيفية التي اعتادت أن تزعق فيها عندما تستيقظ في الظلام، وإني لن أدعها تخاف». وعندئذ يا آنسة ميلي أدركت أنه فقد عقله. إنه كان مخموراً وكان يحتاج إلى النوم وإلى شيء يأكله غير أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر. إنه مجنون تماماً. لقد دفعني خارج الباب وقال: «اخرجي من هنا إلى الجحيم!». ونزلت إلى الطابق السفلي وكان عليَّ أن أفكر أنه قال إنه لن تقام جنازة، وأن الآنسة سكارلت قالت إنها

ستقام صباح الغد، وأنه قال إن عملية قتل ستنجم عن ذلك. كان جميع الأقرباء في البيت وجميع الجيران يثرثرون حول القضية كسرب من دجاج سوداني. وفكرت فيك يا آنسة ميلي. ولذا فعليك أن تأتي لتساعدينا».

- «آه يا مامي، إني لا أستطيع التدخل».

- «إن أنت لا تستطيعين، فمن يستطيع إذن؟».

- «ولكن ماذا أستطيع أن أفعل يا مامي؟».

- «إني لا أعرف يا آنسة ميلي، ولكنك تستطيعين فعل شيء. تستطيعين أن تتحدثي إلى السيد ريت وقد يصغي إليك، فهو يقدرك كثيراً يا آنسة ميلي. ربما لا تعرفين ذلك ولكنه يقدرك، فلقد سمعته يقول مرة بعد مرة إنك السيدة العظيمة الوحيدة التي يعرفها».

- «ولكن. . .».

ونهضت ميلاني مضطربة، وقلبها خائر من فكرة مجابهة ريت. لقد جعلتها فكرة مناقشة رجل مجنون من الحزن، كذلك الرجل الذي صوَّرته مامي، تشعر بالبرد. وكذلك كانت تعصر قلبها فكرة دخول تلك الغرفة المضاءة المتألقة حيث كانت ترقد الفتاة الصغيرة التي أحبتها حباً جماً، ماذا تستطيع أن تفعل؟ ما الذي تستطيع قوله لريت بحيث يخفف من حزنه ويعيده إلى المنطق؟ ولهنيهة، وقفت مترددة ومن خلال الباب المغلق طرق سمعها صوت ضحك ابنها المقرون بضحك الولدين الآخرين. وكسكين بارد طعن قلبها، جاءت فكرة كونه ميتاً. هب أن ابنها بو كان يرقد في الطابق العلوي وجسده الصغير بارد ساكن وضحكته الهانئة خرساء صامتة.

- «آه» صرخت مذعورة بصوت مرتفع، وقد قبضت على ابنها قريباً من قلبها في ذهنها. لقد عرفت كيف كان يشعر ريت. لو أن بو مات فكيف تستطيع أن تدفنه وحيداً مع الريح والمطر والظلام؟

- «آه، يا للكابتن باتلر المسكين!» صاحت «سأذهب إليه الآن، الآن فوراً!».

وأسرعت عائدة إلى غرفة الطعام، ونطقت بكلمات قليلة ناعمة لآشلي، وأدهشت ابنها الصغير عندما ضمّته أقرب إليها وقبَّلت خصلات شعره الشقراء بحنان.

ثم غادرت البيت من دون قبعة، وفوطة العشاء ما زالت في يدها، والخطوات التي شرعت تخطوها كانت شاقة على ساقي مامي العجوزتين. وفي قاعة منزل سكارلت الأمامية، انحنت انحناءة قصيرة للجمهور المحتشد في المكتبة، للآنسة بيتي بات المذعورة، للسيدة باتلر الوقورة، لويل وسولين، ثم صعدت الدرج بسرعة ومامي تلهث خلفها. ووقفت هنيهة صامتة أمام باب سكارلت المقفل، ولكن مامي همست «لا يا سيدة، لا تفعلي ذلك».

سارت ميلي بخطوات أبطأ الآن، إلى أن وقفت أمام غرفة ريت. وقفت مترددة لحظة، وكأنها تتوق لأن تولي الأدبار. ثم شدت من عزيمتها كجندي صغير يدخل المعركة، وقرعت الباب ونادت على عجل: «أرجوك، اسمح لي بالدخول يا كابتن باتلر. إني السيدة ويلكس، وأريد أن أرى بوني».

فتح الباب بسرعة، وإذ تراجعت مامي في ظلام القاعة، رأت ريت ضخماً قاتماً أمام منظر الشموع المضيئة. كان يترنح على قدميه، واستطاعت مامي أن تشم رائحة الويسكي في نَفَسه. أما هو فنظر إلى ميلي لحظة ثم أخذها من ذراعها وسحبها إلى داخل الغرفة وأغلق الباب.

وتسللت مامي على رؤوس أصابعها إلى كرسي بجانب الباب، واسترخت عليه منهوكة ففاض عنه جسدها العديم القوام. جلست ساكنة تبكي بصمت، وتصلي. وبين الفينة والأخرى ترفع طرف ثوبها

وتمسح عينيها، ثم ترهف السمع ما أمكنها ذلك. غير أنها لم تستطع سماع أي كلمة من الغرفة، سوى صوت خفيض مدمدم متقطع.

وبعد فترة لا نهاية لها، انشق الباب وظهر وجه ميلي متوتراً شاحباً:

- «أحضري لي إبريق قهوة بسرعة، وبعض السندويتشات».

واستطاعت مامي بعد أن طرد الشيطان، أن تغدو سريعة كزنجية رشيقة في السادسة عشرة من العمر. وقد جعلها فضولها لدخول غرفة ريت تعمل أسرع من المعتاد. ولكن أملها انقلب خيبة عندما فتحت ميلي الباب مجرد فتحة ضيقة وتناولت الصينية منها. وظلت مامي مدة طويلة ترهف أذنيها الحادتي السمع ولكنها لم تستطع تمييز شيء سوى قرقعة الملعقة الفضية على الطبق الخزفي ونبرات صوت ميلاني المضطربة الناعمة. ثم سمعت زعيق السرير بينما كان جسم ثقيل يسقط فوقه، وسرعان ما تلا ذلك صوت حذاء يسقط على الأرض. وبعد فترة قصيرة، ظهرت ميلاني في الباب. ومع أن مامي بذلت جهدها إلا أنها لم تستطع أن تمد بصرها إلى داخل الغرفة عبر ميلاني التي كانت تبدو تعبة والدموع تتلألأ على أهداب عينيها، غير أن وجهها كان قد عاد إلى هدوئه.

- «اذهبي وأخبري الآنسة سكارلت أن الكابتن باتلر راض تماماً على أن تقام الجنازة صباح الغد». همست.

- «يا للّه المبارك» نبست مامي «كيف استطعت...».

- «لا تتكلمي بصوت مرتفع، إنه ينام. ويا مامي أخبري الآنسة سكارلت أيضاً بأني سأظل هنا طول الليل. وأحضري لي أنت بعض القهوة، أحضريها إلى هنا».

- «إلى هذه الغرفة؟».

- «أجل. لقد وعدت الكابتن باتلر أنه إذا ما نام، فسأجلس

مستيقظة بجانبها طول الليل. الآن اذهبي وأخبري الآنسة سكارلت كي لا تظل متضايقة بعد. . .».

فانطلقت مامي في القاعة وثقلها يهز الأرض وقلبها المغمور بالفرح يغني «هللويا، هللويا!». ووقفت صامتة هنيهة وهي تفكر خارج باب سكارلت وعقلها في ثوران من الشكر والفضول.

- «كيف أنجزت الآنسة ميلي المهمة من دون مساعدتي. هل تحارب الملائكة بجانبها؟ إني أعتقد ذلك، سأخبر الآنسة سكارلت بأن الجنازة ستقام غداً، ولكني أعتقد أن من الأفضل أن أكتم عنها نبأ بقاء الآنسة ميلي مستيقظة بجانب الآنسة الصغيرة طول الليل، لأن الآنسة سكارلت لن تستحسن ذلك أبداً».

60

كان هناك خطبٌ غير طبيعي في الدنيا، خطب كئيب مخيف لف كل شيء كضبابة قاتمة لا يمكن اختراقها أطبقت على سكارلت خلسة. كان هذا الخطب أعمق حتى من موت بوني. لأن عذابها الأول غير المحتمل كان يضعف الآن متحولاً إلى قبول مستكين بخسارتها. ومع ذلك فما انفك ينتابها هذا الإحساس الرهيب بالكارثة، وكأن شيئاً أسود ذا قلنسوة خافية كان يقف على كتفها بالذات، وكأن الأرض التي تحت قدميها، كان يمكن أن تنقلب إلى وعس[1] وهي تدوس فوقه.

لم تكن سكارلت قد عرفت من قبل هذا النوع من الخوف، فطوال حياتها كانت قدماها مثبتتين، في الإدراك العام بجزم. وكانت الأشياء التي استطاعت رؤيتها: الإيذاء، الجوع، الفقر، ضياع حب آشلي. ودون أن تكون خبيرة بتحليل الأمور، كانت تحاول أن تحلل الآن، ولكن من دون نجاح. لقد فقدت أعز أولادها ولكن في وسعها تحمُّل ذلك نوعاً ما كما كانت قد تحملت الخسائر المدمرة الأخرى، كانت تنعم بصحتها، كانت تنعم بما يمكن أن تتمناه من مال، وكانت لا تزال تحظى بآشلي مع أن تقديرها له كان يقل شيئاً فشيئاً هذه الأيام. حتى الحصر الذي وقع بينهما منذ حفلة ميلاني المشؤومة المذهلة لم يكن

(1) السَّهل الليّن من الرمل تغيب فيه الأرجل - (المترجمان).

يضايقها لأنها كانت تعرف أنه سيزول. لا، لم يكن خوفها من الألم أو الجوع أو ضياع الحب، فهذه المخاوف لم تضايقها يوماً كما كان هذا الإحساس بالخطب يفعل فيها... ذلك الخوف المدمر الذي كان يشبه بصورة مستغربة ذاك الخوف الذي عرفته في حلمها الرهيب: ضبابة كثيفة سابحة كانت تجري خلالها بقلب خافق، طفلة ضائعة تنشد ملجأ كان مخبأ عنها.

وتذكرت كيف كان ريت قادراً دائماً على جعلها تستهين بمخاوفها، وتذكرت مواساة صدره الأسمر العريض وذراعيه القويتين. وهكذا التفتت نحوه بعينين كانتا في الحقيقة تريانه للمرة الأولى منذ أسابيع، ولكن التغير الذي رأته صدمها، فهذا الرجل لم يكن ليضحك، ولم يكن ليواسيها.

وعقب وفاة بوني ببعض الوقت، كانت سكارلت شديدة السخط عليه. غير أن الحزن كان يمتلكها بحيث لم يسعها أن تأتي بأكثر من الحديث المهذب معه أمام الخدم. لقد كانت مشغولة جداً بتذكر قرقعة قدمي بوني الجاريتين السريعتين وضحكتها المتدفقة بحيث لم يسعها أن تفكر في أن من المنتظر أن يكون هو أيضاً يعيش في هذه الذكريات، وبألم حتى أعظم من ألمها. كانا قد تقابلا خلال هذه الأسابيع وتحادثا بلطف كغريبين يتقابلان داخل جدران فندق لا يخصهما يتشاركان في السقف ذاته والمائدة ذاتها ولكنهما لا يتشاركان أبداً في أفكارهما.

ولما كانت الآن مذعورة وتفتقر إلى من يؤنسها، فإنها كانت تود أن تخترق هذا الحاجز الذي بينها وبينه إذا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنها وجدت أنه كان يبقيها على بعد ذراع منه كأنه كان يرغب في أن لا يتحدث إليها بكلمات تتسم بالعمق. ولمّا كان غضبها يتلاشى الآن فإنها كانت تريد أن تخبره بأنها تعتبره بريئاً من موت بوني. كانت

تريد أن تبكي بين ذراعيه وتقول إنها هي أيضاً كانت فخورة غاية الفخر بفروسية ابنتها، سموحة منتهى السماح مع مداوراتها. كان من المنتظر الآن أن تخضع نفسها بطيبة خاطر وتعترف بأنها كانت قد قذفته بتلك التهمة بدافع من بؤسها فقط آملة أن تخفف من ألمها عن طريق إيلامه، ولكن لم يكن يبدو مطلقاً أن هناك لحظة سانحة. كان ينظر إليها بعينين سوداوين غامضتين، عينين لم تتيحا لها أي فرصة لتتكلم فيها، كما أن التبريرات والاعتذارات إذا ما أُجّلت مرة تصبح عملية خلقها أصعب وأصعب، بل تغدو مستحيلة في النهاية.

وتساءلت لماذا كان ينبغي لمثل هذه الحالة أن تحدث، فلقد كان ريت زوجها، وكانت تربط بينهما الوثيقة التي لا يمكن أن تفصم، الوثيقة القائمة بين شخصين تشاركا السرير ذاته وأنجبا وحملا طفلاً محبوباً، وشاهدا ذلك الطفل يدفن في الظلام في وقت مبكر جداً، أجل، بين ذراعي والد ذلك الطفل فقط كان يمكن لسكارلت أن تجد العزاء، في تبادل الذكريات والحزن الذي يمكن أن يؤلم أول الأمر ولكنه يساعد في دمل الجراح فيما بعد. ولكن الآن، ونظراً لما كانت عليه الحالة بينهما، كان يمكن أن تندفع بسرعة إلى ذراعي رجل غريب عنها، غريب كل الغرابة.

كان وجوده نادراً في البيت، وكان من عادته أن يكون سكران عندما كانا يجلسان معاً إلى مائدة العشاء، غير أنه لم يكن يشرب كما كان في السابق، حيث كان يغدو أكثر تهذيباً وأشد لذعاً كلما تمكن المشروب منه، فيتفوَّه بأمور مسلية خبيثة تجعلها تضحك رغماً عنها. لقد كان الآن سكران بصمت واكتئاب، ومع توالي الأمسيات غدا سكران مخضل العينين. وكانت سكارلت تسمعه أحياناً في ساعات الفجر الباكرة وهو يدخل الساحة الخلفية راكباً، ويقرع باب منزل الخدم كيما يساعده بورك في صعود الدرج الخلفي ويضعه في سريره.

يضعه في سريره! ريت الذي كان دائماً يبز الآخرين في الشرب دون أن يبين عليه الكلل ثم يضعهم في أسرَّتهم.

كان عديم الأناقة الآن، بينما كان فيما مضى جميل الهندام. وكان الأمر يتطلب كل جدال بورك المفضوح حتى يقنعه بتبديل ثوبه الكتاني قبل الغداء. وكان الويسكي يبدو في وجهه، وكان التعبير الصارم في لحييه الطويلين مطموساً تحت تورم غير صحي، وكانت انتفاخات تظهر تحت عينيه الملتهبتين، وأضحى جسده الكبير ذو العضلات القوية المنتفخة يبدو رقيقاً نحيلاً، بينما بدا خصره يغلظ.

كان لا يعود إلى البيت أبداً في أغلب الأحيان، ولم يكن ليرسل إعلاماً بأنه سيظل في الخارج طول الليل، طبعاً كان من المحتمل أن يكون يشخر مخموراً في إحدى الغرف فوق إحدى الحانات، ولكن سكارلت كانت تعتقد دائماً أنه كان في بيت بيل وتلينغ في هذه الأوقات. وكانت قد رأت مرة بيل وتلينغ في أحد المخازن، امرأة بدينة جاوزت الآن مرحلة النضارة، وقد ذهبت عنها معظم مظاهرها الحسنة. ولكن رغم كل طلائها وملابسها الزاهية، كانت بشوشة تبدو كأم تقريباً. وبدلاً من أن تغض طرفها أو تحملق تحدياً كما كانت تفعل معظم العاهرات عندما يواجهن السيدات، بادلتها بيل نظرة بنظرة، متفحصة وجهها بنظرة متعمدة مشفقة تقريباً، نظرة خضبت وجه سكارلت بحمرة الخجل.

ولكن لم يكن في وسعها أن تتهمه الآن، لم يكن في وسعها أن تحنق عليه، أو تطلب الإخلاص أو تحاول تخجيله أكثر مما كان في وسعها أن تحمل نفسها على تبرير اتهامها له بقتل بوني. كانت واقعة في قبضة حالة حائرة من فقدان الشعور، تعاسة لم تستطع فهمها، تعاسة كانت أعمق من أي شيء عرفته. كانت تحس بالوحشة، ولم تذكر أنها أحست بوحشة كهذه من قبل. ربما لم تكن قد سنحت

الفرصة لتحس بوحشة عظيمة حتى الآن. لقد كانت مستوحشة وخائفة، ولم يكن هناك أحد تستطيع أن تلتجئ إليه، لا أحد سوى ميلاني، لأنه في هذا الوقت، حتى سندها مامي كانت قد عادت إلى تارا، عادت إلى الأبد.

لم تقدّم مامي أي إيضاح عن سبب مغادرتها المكان إلى تارا. كانت عيناها المسنتان التعبتان تنظران بحزن إلى سكارلت وهي تطلب أجرة القطار إلى البيت. ولم تردّ على دموع سكارلت وتوسلاتها كي تبقى سوى بعبارة «إن الأمر يبدو لي كأن الآنسة إيلين تخاطبني قائلة: «مامي، عودي إلى البيت. لقد انتهى عملك» ولذلك فإني عائدة إلى البيت».

أما ريت، الذي كان يصغي إلى الحديث، فقد أعطى مامي النقود وربت على ذراعها قائلاً:

- «إنك على صواب يا مامي، وإن الآنسة إيلين على صواب، لقد انتهى عملك هنا. اذهبي إلى البيت وإن أصبحت يوماً في حاجة إلى أي شيء فدعيني أعرف ذلك». وعندما انفجرت سكارلت فيها مجدداً في أوامر ساخطة، صاح بها «اصمتي أيتها الحمقاء! دعيها تذهب! لماذا ينبغي لأي إنسان أن يرغب في البقاء في هذا البيت... الآن؟».

وشعَّت عيناه وهو يتكلم بألق برّاق مخيف، جعل سكارلت تتراجع مذعورة بعيداً عنه.

- «دكتور ميد، هل تعتقد أنه يمكن... يمكن أن يكون قد فقد عقله؟» استوضحت فيما بعد، وقد ساقها إلى الطبيب إحساسها بالحيرة.

- «لا» قال الطبيب «ولكنه يشرب كسمكة، وسيقتل نفسه إذا ما استمر على ذلك. لقد كان يحب ابنته يا سكارلت، وإني أظن أنه يشرب لينساها. ونصيحتي لك يا آنسة، هي أن تُنجبي له طفلاً آخر بأسرع ما يمكنك».

«ها!» فكرت سكارلت بمرارة وهي تغادر عيادته، لقد كان ذلك أسهل قولاً منه عملاً، وكان يمكن أن تنجب بسرور، طفلاً آخر، بل عدة أطفال، إن كان ذلك سيزيل تلك النظرة من عيني ريت، ويملأ الفراغ المؤلم في قلبها. حبذا صبي يتحلى بجمال ريت الأسمر، وبنت صغيرة أخرى، حبذا بنت أخرى جميلة مرحة عنيدة، تفيض ضحكاً، ليست كإيلا الطائشة. لماذا، آه، لماذا لم يمكن للّه أن يأخذ إيلا إن كان لا بد له من أن يأخذ أحد أولادها؟ لم تكن إيلا عزاء لها الآن وقد ذهبت بوني. ولكن لم يكن يبدو أن ريت كان يريد أي طفل آخر، على الأقل لم يكن يأتي إلى غرفة نومها أبداً، مع أن الباب لم يكن موصداً الآن، بل كان يشق عادة بصورة غرارة، لا لم يكن يبدو أنه يحفل بذلك، لم يكن يبدو أنه يحفل بأي شيء الآن سوى الويسكي وتلك المرأة البدينة ذات الشعر الأحمر.

لقد غدا مُرّاً الآن حيث كان فيما مضى ساخراً ساراً، قاسياً حيث كانت لذعاته تتصف بالفكاهة. وبعد وفاة بوني أضحت كثيرات من سيدات الجيرة الطيبات اللواتي كان ريت قد ظفر بعطفهن بتأثير سلوكه الساحر مع ابنته، أضحين متحرقات ليظهرن عطفهن قائلات إنهن يفهمن وضعه. ولكن الآن وقد ذهبت بوني، باعث سلوكه الحسن، فإن هذا السلوك قد ذهب أيضاً، وصار ريت يقاطع السيدات ومواساتهن الحسنة القصد بجفاء ووقاحة.

ولكن ما يدعو للغرابة أن السيدات لم يكنّ يستأن منه، بل كنّ يفهمن وضعه أو يعتقدن أنهن كنّ يفهمن. وعندما كان يعود راكباً إلى البيت في ضوء الغسق وهو في حالة شديدة من السكر في غالب الأحيان بحيث لا يطيق فوق السرج بقاء، ويعبس في وجوه من يتحدثن إليه، كانت السيدات يقلن: «يا للمخلوق المسكين!» ويضاعفن جهودهن ليكنّ لطيفات رقيقات معه. كنّ يشعرن بحزن شديد عليه،

وهو الكسير القلب، العائد إلى بيته كي لا يجد عزاء أفضل من سكارلت.

كان الجميع يعرفون كم كانت تفتقر إلى الشعور والرحمة، وكانوا مشدوهين من السهولة الظاهرة التي كانت قد انتعشت بها إثر وفاة بوني، دون أن يدركوا، أو يهتموا بأن يتبينوا الجهد الذي كان يوجد إزاء ذلك الانتعاش الظاهر. كان ريت يتمتع بعطف المدينة الدافق، ولم يكن هو يعرف ذلك أو يحفل به، بينما كانت سكارلت تتردى في كراهية المدينة، وغدا من المنتظر، للمرة الأولى، أن ترحب بعطف الأصدقاء القدامى.

غير أنه لم يكن أحد من أصدقائها القدامى يزور بيتها الآن سوى العمة بيتي وميلاني وآشلي، وكان الأصدقاء الجدد فقط، يأتون لزيارتها في عرباتهم الزاهية متلهفين على أن يخبروها بعطفهم عليها، تائقين إلى أن يسلوها بحديثهم عن أصدقاء جدد آخرين لم تكن تحفل بهم أبداً، وكان جميع هؤلاء «الناس الجدد» غرباء، ولم يكونوا يعرفونها، ولم يكن من المنتظر أن يعرفوها، لأنهم لم يكونوا ليدركوا ما كانت عليه حياتها قبل أن تبلغ مركزها المرموق الآمن الحالي، في قصرها في شارع بيتشتري، كما لم يكونوا يهتمون بالحديث عما كانت عليه حياتهم قبل أن يظفروا بالنسيج الحريري المقوى والمركبات ذات أزواج الخيول الجميلة. لم يكونوا يعرفون نضالاتها ومشقاتها، وجميع الأشياء التي كونت هذا البيت العظيم والثياب البديعة والأواني الفضية والحفلات التي تستحق الحضور. لا، لم يكونوا يعرفون ذلك، بل لم يكونوا يهتمون بأن يعرفوه. هؤلاء الناس الذين يعلم الله من أين أتوا، والذين كان يبدو أنهم يعيشون دائماً على ظاهر الأمور، والذين لم تكن لديهم ذكريات مشتركة عن الحرب والجوع والقتال، والذين لم تكن لهم جذور مشتركة تنزل في الأرض الحمراء ذاتها.

وكان من المنتظر الآن، وهي في وحشتها، أن تستحسن تبديد الأمسيات مع مايبل أو فاني أو السيدة إلسينغ أو السيدة ويتينغ أو حتى مع تلك المكافحة العجوز السيدة ميريويذر، أو السيدة بونل أو. . . أو أي من صديقاتها القديمات، أو جاراتها، ذلك لأنهن كن يعرفن ماضيها. لقد عرفن الحرب والرعب والحريق ورأين الأعزاء يموتون قبل أوانهم. لقد جعن ورثت ثيابهن وعشن والذئاب على أبوابهن، ومع ذلك، فقد أعدن جميع ثروتهن من الدمار.

أجل، لقد كان عزاء لها أن تجلس مع مايبل، وهي التي كانت قد دفنت طفلاً مات أثناء الهروب المجنون أمام زحف شيرمان، وكان هناك سلوان لها بوجود فاني، وهي تعرف أنها وفاني كانتا قد فقدتا زوجيهما في أيام الحكم العسكري السوداء، وكانت تشعر بمرح كئيب حين تضحك مع السيدة إلسينغ، مستعيدة صورة وجه السيدة العجوز وهي تسوط حصانها عبر فايف بوينتس يوم سقوط أتلانتا وأسلابها من مخازن التموين تتساقط متبعثرة من عربتها. وكان من دواعي سرورها أن تتبارى برواية القصص مع السيدة ميريويذر، التي كانت الآن آمن، تعتمد على إيرادات مخبزها، كما كان من دواعي سرورها أن تقول: «هل تذكرين ما كان أسوأ الأحوال بعد الاستسلام مباشرة؟ هل تذكرين عندما كنا لا نعرف من أين سنحصل على زوج أحذيتنا التالي؟ وانظري إلينا الآن!».

أجل، لقد كان كل ذلك من دواعي سرور سكارلت التي فهمت الآن السبب في أنه عندما كان حلفيان سابقان يلتقيان، كانا يتحدثان عن الحرب بلذة عظيمة جداً، بمباهاة وبحنين. لقد كانت تلك أياماً أضنت قلوبهم، ولكنهم كانوا قد تغلبوا عليها. لقد كانوا مجربين، وكانت هي مجربة أيضاً، ولكن لم يكن لديها أخلّاء تستطيع أن تعيد خوض المعارك معهم. آه، ليتها تكون مع جماعتها من الناس ثانية،

أولئك الناس الذين مروا بالتجارب ذاتها، وعرفوا كيف كانت تؤلم. . . ومع ذلك، فأي جزء عظيم منك كانت تلك التجارب!

ولكن، مهما كان الأمر، فإن أولئك الناس كانوا قد انسلوا بعيداً عنها، وتبينت هي أن تلك كانت غلطتها. ولم تكن قد اكترثت لذلك قبل الآن. . . الآن وقد ماتت بوني، وأضحت هي وحيدة وخائفة، ورأت عبر مائدة غدائها البراقة، رجلاً غريباً أسمر، مخضل العينين، ينسحق تحت عينيها.

61

كانت سكارلت في ماريتا، عندما وصلتها برقية ريت المستعجلة. وكان هناك قطار مسافر إلى أتلانتا خلال عشر دقائق، فأدركته دون أن تحمل معها أي متاع سوى كيسها الشبكي، تاركة ويد وإيلا في الفندق مع برسي.

كانت أتلانتا تبعد عشرين ميلاً فقط، غير أن القطار كان يسير ببطء شديد خلال بعد ظهر ذلك اليوم من الخريف المبكر، متوقفاً عند مفرق كل طريق جانبي من أجل الركاب. وكانت سكارلت، وقد أصابها الذعر من مضمون برقية ريت، وتولاها الجنون للإسراع، كادت تزعق عند كل موقف. وتابع القطار طريقه متثاقلاً عبر غابات ذهبية باهتة شاحبة، وإزاء تلال ما زالت تحمل آثار متاريس لولبية، وبمحاذاة خنادق قديمة للمدافع، وحُفَر تكسوها الأعشاب. تابع سيره على الطريق التي كان رجال جونستون قد تراجعوا عليها بمرارة بالغة وهم يحاربون كل خطوة منها، وكانت كل محطة وكل مفرق طريق يسميه رئيس القطار، عبارة عن اسم معركة أو موقع مناوشة، وكان يمكن لتلك الأسماء أن تثير في سكارلت ذكريات من الرعب، ولكنها لم تكن تفكر في ها الآن.

كانت برقية ريت كما يلي:

«السيدة ويلكس مريضة. عودي حالاً».

كان ضوء الغسق قد غمر المكان عندما دخل القطار أتلانتا، وكان مطر خفيف مصحوب بالضباب يحجب المدينة، وكانت مصابيح الشارع الغازية خافتة الأنوار، كنقط صفراء في الضباب. وكان ريت ينتظرها في المحطة والعربة معه. وقد أفزعها مجرد منظر وجهه أكثر مما أفزعتها رسالة البرقية، إذ لم تكن قد رأته بمثل ذلك الوجه العديم التعبير من قبل.

- «إنها ليست...». صاحت

- «لا، إنها ما زالت حية» قال ريت وهو يساعدها في الصعود إلى العربة. «إلى بيت السيدة ويلكس، بأقصى سرعة تستطيعها» أمر الحوذي.

- «ما خطبها؟ لم أكن أعرف أنها مريضة. كانت تبدو على ما يرام في الأسبوع الماضي. هل أصابها حادث عارض؟ آه يا ريت، أرجو ألّا يكون الأمر خطيراً حقاً كما...».

- «إنها تعاني سكرات الموت» قال ريت، ولم يكن في صوته تعبير أكثر مما كان في وجهه «وهي تريد رؤيتك».

- «ليست ميلي! آه ليست ميلي! ماذا حدث لها؟».

- «لقد أصابها إجهاض».

- «إ.. إ.. إجهاض... ولكن يا ريت، إنها» وتلعثمت سكارلت إذ إن هذا النبأ الذي جاء على رأس أخباره المرعبة سلب نَفَسها.

- «ألم تكوني تعرفين أنها كانت حاملاً؟».

فلم تستطع حتى أن تهز رأسها بالإيجاب.

- «آه، لا بأس، أظن أنك لم تكوني تعرفين. وإني لا أعتقد أنها أخبرت أحداً. كانت تريد أن يأتي الأمر مفاجئاً، ولكني كنت أعرف».

- «كنت تعرف، ولكن، حتماً لم تخبرك هي!».

- «لم يكن عليها أن تخبرني، إلا أنني عرفت. لقد كانت سعيدة جداً خلال هذين الشهرين الأخيرين، فعرفت أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك».

- «ولكن يا ريت، لقد قال الطبيب إن إنجابها طفلاً آخر سيودي بحياتها!».

- «ولقد أودى بحياتها». قال ريت ثم خاطب الحوذي «من أجل اللّه ألا تستطيع أن تزيد من سرعتك؟».

- «ولكن يا ريت، ليس من الممكن أن تكون الآن تحتضر! إني... إني لم... وإني...».

- «إنها لا تملك قوّتك، ولم تكن لديها يوماً أي قوة، بل لم يكن لديها يوماً أي شيء سوى القلب».

ظلت العربة تهتز إلى أن وقفت أمام البيت المنخفض الصغير حيث أنزل ريت سكارلت من العربة فقبضت على ذراعه وهي ترتجف مذعورة، وقد انتابها شعور مفاجئ بالوحشة.

- «إنك داخل معي يا ريت؟».

- «لا» قال وعاد إلى داخل العربة.

وصعدت سكارلت الدرجات الأمامية ركضاً، وعبرت الشرفة ثم فتحت الباب دفعاً، وهناك، في ضوء المصباح الأصفر، كان يجلس آشلي والعمة بيتي وإنديا. وفكرت سكارلت «ماذا تفعل إنديا هنا؟ لقد أخبرتها ميلاني أن لا تطأ هذا البيت ثانية» ونهض الثلاثة عندما رأوها وكانت العمة بيتي تعض شفتيها المرتعشتين لتسكنهما، وإنديا تحدق فيها من دون كراهية، وقد تولاها الحزن، وبدا آشلي خاملاً كسائرٍ في نومه، وعندما بلغها ووضع يده على ذراعها، تكلم كسائرٍ في نومه أيضاً.

- «لقد طلبتك، لقد طلبتك» قال.

- «أأستطيع رؤيتها الآن؟» والتفتت نحو باب غرفة ميلاني المغلق.

- «لا، إن الدكتور ميد داخل الغرفة الآن. إني سعيد بقدومك يا سكارلت».

- «لقد قدمت بأقصى سرعة ممكنة» وطرحت عنها قبعتها ومعطفها «إن القطار... أليست حقاً... أخبرني، إنها أحسن، أليس كذلك يا آشلي؟ تحدث إليَّ، لا تبدو كذلك! أليست حقاً...».

- «لقد ظلت تطلبك» قال آشلي ونظر إلى عينيها، ورأت في عينيه جواب سؤالها. ولهنيهة، انقطع قلبها عن الخفقان، ثم شرع يخفق في صدرها خوف غريب، خوف أقوى من الجزع، خوف أقوى من الحزن. لا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، فكرت بحدة وهي تحاول رفع الخوف عنها، إن الأطباء يخطئون ولن أفكر أنه صحيح، فسأزعق إن أنا فعلت ذلك، ينبغي أن أفكر في شيء آخر.

- « إني لا أصدق!» صاحت مهتاجة وهي تنظر إلى الوجوه الثلاثة المتوترة كأنها تتحداها لتعارضها «ولماذا لم تخبرني ميلاني؟ فلم أكن لأذهب إلى ماريتا لو كنت أعرف».

واستيقظت عينا آشلي وبدتا معذبتين:

- «إنها لم تخبر أحداً يا سكارلت، وخاصة أنت. كانت تخشى أن تؤنبيها إن عرفت. وكانت تريد أن تنتظر ثلاثة أشهر، إذ كانت تعتقد أن الأمر سيغدو آمناً وأكيداً، وبعدها تفاجئكم جميعاً وتضحك قائلة: «ما أعظم خطأ الأطباء!» ولقد كانت سعيدة للغاية. إنك تعرفين ما كان أشد لهفتها على الأطفال، ما كان أعظم رغبتها في إنجاب بنت صغيرة. وسار كل شيء على ما يرام إلى أن... وعندئذ ومن دون أي سبب البتّة...».

وفتح باب غرفة ميلاني بهدوء، وخرج الدكتور ميد إلى القاعة،

مغلقاً الباب خلفه، ووقف لهنيهة ولحيته الطويلة متدلية على صدره، ونظر إلى الأربعة الذين جمدوا فجأة. ثم وقع بصره على سكارلت، وعندما أتى نحوها، رأت أنه كان هناك حزن في عينيه، وكراهية وازدراء غمرا قلبها المرعوب بالإثم.

- «وهكذا فقد وصلت أخيراً» قال.

وقبل أن تستطيع الإجابة، اتجه آشلي إلى الباب المغلق.

- «ليس أنت الآن» قال الطبيب، إنها تريد أن تتحدث إلى سكارلت.

- «أيها الطبيب» قالت إنديا ووضعت يدها على ردنه. ومع أن صوتها كان عديم النغم، إلا أنه كان ينطق بتوسل أشد وقعاً من توسل الكلمات «دعني أراها دقيقة واحدة، فإني هنا أنتظر منذ الصباح، ولكنها. . . دعني أراها دقيقة واحدة، أريد أن أخبرها. . . ينبغي أن أخبرها بأني كنت مخطئة فيما يتعلق. . . بشيء ما».

ولم تنظر إلى آشلي أو إلى سكارلت وهي تتحدث، ولكن الطبيب ميد سمح لنظراته الباردة بأن تقع على سكارلت.

- «سأنظر في الأمر يا آنسة» قال باقتضاب، «ولكن إذا وعدتني فقط أنك لن تستنفدي قوتها بإخبارها أنك كنت مخطئة. إنها تعرف أنك كنت مخطئة، ولذلك فإن سماعها اعتذارك سيضايقها وحسب».

وبدأت بيتي بتهيب «أرجوك أيها الدكتور ميد. . .».

- «آنسة بيتي، إنك لا تعرفين أنك ستزعقين ويغمى عليك» فعدلت بيتي جسدها الصغير البدين وبادلت الطبيب نظرة بنظرة. كانت عيناها جافتين، وكانت هناك كرامة في كل غضنة.

- «حسناً كما تريدين يا حلوتي، ولكن، بعيد وقت قصير» قال الطبيب بلطف أكثر. «تعالي يا سكارلت».

وسارا في القاعة على رؤوس أصابعهما إلى الباب المغلق، ووضع الطبيب يده على كتف سكارلت في قبضة قوية وقال:

- «اسمعي يا آنسة» همس بجفاء «لا نوبات عصبية ولا اعترافات منك على فراش الموت، وإلا فإني ليشهد اللّه، سألوي عنقك! لا تتطلعي إليَّ بأي من نظراتك البريئة، إنك تعرفين ما أعني. إن الآنسة ميلي ستموت براحة، ولن تخففي عن ضميرك بإبلاغها أي شيء عن آشلي. إني لم أسئ لأية امرأة حتى الآن، ولكن إن تفوّهت بأي شيء الآن - فستكونين مسؤولة عن ذلك أمامي».

وفتح الباب قبل أن تتمكن من الجواب ودفعها داخل الغرفة ثم أغلق الباب خلفها. كانت الغرفة الصغيرة الرخيصة الأثاث المصنوع من خشب الجوز الأسود، نصف مظلمة، لأن المصباح كان مظللاً بصحيفة. كانت غرفة صغيرة أنيقة كغرفة تلميذة مدرسة، أنيقة بسريرها الصغير الضيق المنخفض الوسط، وبستائرها الشبكية البسيطة المرفوعة بأنشوطة، وبسجاجيدها الخشنة النظيفة الباهتة اللون والممدودة على الأرض. كان كل ذلك مختلفاً جداً عن الإسراف الذي كان يبدو في غرفة نوم سكارلت بأثاثها المحفور السامق، وسجفها الحريرية المشجرة الحمراء، وبسجادتها ذات الورود الحمراء.

كانت ميلاني ترقد على السرير وقد بدا جسدها تحت اللحاف متقلصاً مستوياً كجسد فتاة صغيرة. وتدلَّت على جانبي وجهها ضفيرتان من الشعر الأسود بينما كانت عيناها المغمضتان غائرتين في دائرتين أرجوانيتين متماثلتين. وعند هذا المنظر وقفت سكارلت كأن شيئاً ما طعنها. وقفت مستندة إلى الباب، ورغم عتمة الغرفة، استطاعت أن ترى أن وجه ميلاني كان ذا لون شمعي أصفر، جافاً من دم الحياة يحمل آثار بقع زرقاء حول الأنف. وحتى تلك الدقيقة كانت سكارلت قد أملت أن يكون الطبيب ميد مخطئاً ولكنها أدركت الحقيقة الآن.

ففي المستشفيات أثناء الحرب كانت قد رأت وجوهاً عديدة، تحمل المظهر ذاته بحيث لم يسعها إلا أن تفكر بماذا كان ينذر ذلك، الأمر الذي لا يمكن تلافيه.

كانت ميلاني تعاني سكرات الموت ولكن، لهنيهة رفض عقل سكارلت أن يتقبل الحقيقة. لقد كان من غير الممكن لها أن تموت، بل لم يكن من المنتظر أن يدعها اللّه تموت بينما سكارلت في حاجة ماسَّة إليها. ولم يكن قد خطر لها من قبل أنها كانت قد اعتمدت على ميلاني. ولكن الحقيقة تجلت الآن، ودخلت إلى أعمق ثنايا روحها. كانت قد اعتمدت على ميلاني، تماماً كما كانت تعتمد على نفسها، ولم تكن قد عرفت ذلك مطلقاً. والآن، وبينما كانت ميلاني تموت، عرفت سكارلت أنها لن تستطيع متابعة الحياة من دونها، والآن وهي تخطو عبر الغرفة نحو الجسد الساكن والرعب يقبض على قلبها، عرفت أن ميلاني كانت سيفها ودرعها، كانت عزاءها وقوتها.

«ينبغي أن أتمسك بها! ليس في وسعي أن أدعها تقضي!» فكرت وتهالكت بجانب السرير بحفيف من أطواقها. ثم قبضت بسرعة على اليد النحيلة الراقدة فوق الغطاء وثانية انتابها الرعب من جرّاء برودة اليد الهامدة.

- «أنا يا ميلي» قالت.

فتحت ميلاني عينيها فتحة ضيقة ثم أغمضتهما ثانية كأنها أقنعت نفسها أن القادم كان سكارلت فعلاً، وبعد فترة صمت، سحبت نفساً وهمست:

- «أتعدينني؟».

- «آه، أعدك بأي شيء!».

- «بو . . . تعتني به».

فلم يسع سكارلت إلا أن تطرق بإيجاب وقد أحست بإحساس

خانق في بلعومها. ثم ضغطت على اليد التي كانت تمسكها برفق، ضغطت عليها بصورة تنم عن الموافقة.

- «إني أهبه لك» ورافق ذلك أخف من ابتسامة «لقد وهبته لك مرة من قبل.. أتذكرين؟ من قبل أن يولد».

هل تذكرت؟ أكان في وسعها أن تنسى ذلك الوقت؟ لا، فقد استطاعت أن تشعر بحرارة تلك الظهيرة الخانقة من أيام سبتمبر. استطاعت ذلك بجلاء كأن ذلك اليوم الرهيب قد عاد الآن. وكذلك استطاعت أن تتذكر رعبها من الشماليين، وتسمع وقع خطوات الجنود المتقهقرين، وتستعيد صوت ميلاني وهو يتوسل إليها أن تأخذ الطفل إن هي ماتت... وتتذكر أيضاً كيف كانت قد كرهت ميلاني في ذلك اليوم وتمنّت أن تموت.

«لقد قتلتها» فكرت في عذاب أسطوري بالغ «لقد تمنيت مراراً عديدة أن تموت ولقد استجاب اللّه لندائي وها هو يعاقبني».

- «آه يا ميلي، لا تتحدثي بمثل ذلك الكلام! إنك تعرفين أنك ستتغلبين على هذه...».

- «عديني».

فبلعت سكارلت ريقها.

- «إنك تعرفين أني أعد، سأعامله كأنه ابني».

- «سترسلينه إلى الكلية؟» استوضح صوت ميلاني الجلي الخافت.

- «آه أجل، إلى الجامعة وإلى هارفارد وأوروبا وكل شيء يريده... و... ومهر صغير... ودروس موسيقية... آه أرجوك يا ميلي، حاولي! ابذلي جهداً».

وران الصمت ثانية وبدت في وجه ميلاني أمارات مقاومة لحشد قوّتها تمكنها من النطق ثانية.

- «آشلي» قالت «آشلي وأنت. . .» وتجلجل صوتها إلى أن صمت.

وعند ذكر اسم آشلي توقف قلب سكارلت عن الخفقان وأصبح بارداً كالغرانيت في جوفها. لقد كانت ميلاني تعلم بعلاقتهما طوال الوقت. وألقت سكارلت برأسها على الغطاء، وأحست بأن شهقة لم يكن لها أن ترتفع قبضت على حنجرتها بصرامة. لقد كانت ميلاني تعلم بالأمر. وأضحت سكارلت وراء العار الآن، ووراء كل شعور سوى تقريع حاد للضمير لأنها كانت قد آذت هذا المخلوق اللطيف خلال السنين الطويلة. لقد كانت ميلاني تعلم. . . ومع ذلك فقد ظلت صديقتها المخلصة. آه لو أنها تستطيع فقط أن تعيش تلك السنين ثانية! فإنها لن تدع عينيها تقابلان عيني آشلي.

«يا للّه» توسلت بسرعة «أرجوك دعها تعيش! سأعوض لها عما فات ولن أتحدث إلى آشلي ثانية ما دمتُ حية إن أنت سمحت لها بالشفاء فقط!».

- «آشلي» قالت ميلاني بوهن، ومدت أصابعها لتلمس رأس سكارلت المنحني. وهز إبهامها وسبابتها شعر سكارلت بقوة لا تعدو قوة طفل. وأدركت سكارلت معنى تلك الحركة. أدركت أن ميلاني تريدها أن ترفع رأسها ولكنها لم تستطع. لم تستطع أن تقابل عيني ميلاني وتقرأ تلك المعرفة فيهما.

- «آشلي» همست ميلاني ثانية. وتمالكت سكارلت نفسها. عندما ستقابل وجه ربها يوم الدينونة وتقرأ الحكم عليها في عينيه، فإن ذلك لن يكون عسيراً كما هو الحال الآن. وتمسكت روحها ولكنها رفعت رأسها.

ولكنها لم ترَ إلا العينين المحبتين السوداوين ذاتهما غائرتين ناعستين بدنو الأجل، والفم الحساس نفسه يكافح الألم خائراً كي

يتنفس. ولم يكن هناك تأنيب ولا اتهام ولا خوف... فقط قلق لأنها قد لا تجد القوة التي تمكنها من الكلام.

ولهنيهة ظلت سكارلت مذهولة جداً بحيث لم تشعر بالتسرية ولكن عندما حملت يد ميلاني أقرب إليها، اجتاحها فيض من الشكران الحار للّه، وللمرة الأولى منذ طفولتها تلت صلاة متواضعة خالية من الأنانية.

- «أشكرك يا اللّه. إني أعرف أني لا أستحق ذلك ولكني أشكرك لأنك لم تدعها تعرف».

- «ماذا عن آشلي يا ميلي؟».

- «إنك ستعتنين به؟».

- «ها أجل».

- «إنه يصاب بالزكام... بسهولة فائقة».

وخيمت فترة صمت.

- «اعتني... بعمله... أتفهمين؟».

- «أجل إني أفهم، سأعتني به».

وقالت بجهد عظيم:

- «آشلي ليس.. عملياً».

الموت فقط كان في وسعه أن ينتزع تلك العبارة غير المخلصة من ميلاني.

- «اعتني به يا سكارلت... ولكن... لا تدعيه يعرف ذلك مطلقاً».

- «سأعتني به وبعمله أيضاً، ولن أدعه يعرف مطلقاً. سأقدم له بعض الاقتراحات وحسب».

واستطاعت ميلاني أن تبتسم ابتسامة صغيرة ولكنها بدت ابتسامة ظافرة عندما قابلت عيناها عيني سكارلت ثانية. وختمت نظرتها المتبادلة الاتفاقية المتعلقة بانتقال حماية آشلي ويلكس تجاه دنيا شديدة

القسوة من امرأة إلى أخرى، والناصّة بأن كبرياء آشلي ينبغي ألّا تهان بمعرفته بهذا الأمر.

وغادرت المقاومة الوجه المتعب الآن كأن السكينة جاءته بمجيء وعد سكارلت.

- «إنك فطينة جداً... شجاعة جداً... لقد كنت دائماً مخلصة لي...».

وبفعل هذه الكلمات بلغت الشهقة حنجرة سكارلت بحرّية، فصفقت يدها على فمها وأحست أنها كانت ستزعق الآن كطفلة وستصرخ «لقد كنت شيطانة! لقد أخطأت بحقك كثيراً! إني لم أفعل شيئاً من أجلك! لقد كان ذلك جميعه من أجل آشلي!».

ونهضت فجأة، وعضت إبهامها لتستعيد السيطرة على نفسها وعاودتها كلمات ريت: «إنها تحبك وليكن ذلك بليتك» أجل لقد غدت البلية أثقل الآن. لقد كانت محاولتها انتزاع آشلي من ميلاني أمراً سيئاً جداً، ولكن بدا أسوأ منه الآن أن ميلاني التي كانت قد وثقت بها ثقة عمياء خلال حياتها، كانت توليها الحب ذاته والثقة ذاتها وهي ميتة. لا ليس في وسعها أن تتكلم، ليس في وسعها حتى أن تقول ثانية: «ابذلي جهداً كي تعيشي». ينبغي أن تدعها تموت براحة، من دون مقاومة، من دون دموع، ومن دون أسف.

وانفتح الباب قليلاً، ووقف الطبيب ميد على العتبة وأشار إليها إشارة آمرة، فانحنت سكارلت على السرير وخنقت دموعها في عينيها، وأخذت يد ميلاني ووضعتها على خدها.

- «ليلة سعيدة» قالت بصوت أكثر اتزاناً مما اعتقدت أنه يمكن أن يكون.

- «عديني -» ارتفعت الهمسة ناعمة جداً الآن.

- «أعدك بأي شيء يا حبيبتي».

- «الكابتن باتلر، كوني لطيفة معه، إنه - يحبك كثيراً».

«ريت؟» فكرت سكارلت مضطربة، ولم تعنِ الكلمات شيئاً لها.

- «أجل، حقاً» قالت بصورة آلية وطبعت قبلة خفيفة على يد ميلاني وأعادتها إلى السرير.

- «أخبري السيدات أن يدخلن فوراً» همس الطبيب وهي تخرج من الباب

وخلال عينين دامعتين رأت إنديا وبيتي تتبعان الدكتور إلى داخل الغرفة وهما تضمان تنورتيهما إلى جانبيهما لتمنعاهما من الحفحفة. وأغلق الباب خلفهما وخيم السكون على المنزل، ولكنها لم ترَ آشلي في أي مكان، فأسندت رأسها إلى الحائط كطفلة شقية تقف في إحدى الزوايا وفركت حنجرتها المؤلمة.

خلف ذلك الباب، كانت ميلاني تغادر الدنيا ومعها القوة التي كانت سكارلت قد اعتمدت عليها دون أن تعرف لسنين عديدة. عجباً، آه، عجباً ألم تكن قد أدركت قبل الآن كم كانت تحب ميلاني وتحتاج إليها؟ ولكن من كان يفكر أن ميلاني كانت بمثابة برج من القوة؟ ميلاني التي كانت حيية حتى البكاء أمام الغرباء، هيابة فيما يتعلق برفع صوتها في رأي لها، خائفة من استنكار السيدات، ميلاني التي كانت تعوزها الشجاعة لتقول «بوه» لإوزة؟ ومع ذلك -

وعاد عقل سكارلت القهقرى عبر السنين إلى تلك الظهيرة الحارة الساكنة في تارا، التي كان فيها الدخان الرمادي يحلّق فوق جسد أزرق الثياب، وقد وقفت ميلاني في أعلى الدرج وسيف تشارلز بيدها. وتذكرت سكارلت أنها كانت قد فكرت في ذلك الحين: «ما أحمقها! ليس في وسع ميلي حتى أن ترفع ذلك السيف!» ولكنها كانت تعرف الآن، أنه لو أن الضرورة اقتضت لكانت ميلاني قد نزلت تلك الدرجات وقتلت الشمالي - أو قتلت هي نفسها.

أجل، لقد كانت ميلاني هناك ذلك اليوم وسيف في يدها الصغيرة مستعدة لخوض معركة في سبيلها. والآن، وبينما سكارلت تنظر محزونة إلى الماضي، أدركت أن ميلاني كانت دائماً هناك، هناك بجانبها والسيف في يدها حيية كظلها، محبة لها، تحارب في سبيلها بإخلاص عاطفي أعمى، تحارب الشماليين والنيران والجوع والفقر والرأي العام وحتى أقرباءها المحبوبين.

وأحست سكارلت أن شجاعتها وثقتها بنفسها تنضحان منها وهي تدرك أن السيف الذي كان قد لمع في يدها قد أُغمد إلى الأبد.

«إن ميلي هي الصديقة الوحيدة التي نعمت بها» فكرت بيأس، «المرأة الوحيدة التي أحبتني باستثناء أمي. إنها كأمي أيضاً، فلقد تعلق بها كل مَن عرفها».

وفجأة بدا كأن إيلين كانت ترقد خلف الباب المقفل، تغادر الدنيا للمرة الثانية. وفجأة شعرت سكارلت كأنها كانت تقف في تارا ثانية، والدنيا تضج حولها، وهي تشعر بالوحشة لأنها لا تستطيع مواجهة الحياة من دون تلك القوة الفائقة، قوة تلك المرأة الضعيفة الرقيقة القلب.

* * *

كانت تقف في القاعة مترددة مذعورة، وكان الضوء المنير في غرفة الجلوس يلقي ظلالاً طويلة على الجدران حولها. كان البيت مطبق السكون، وبلَّلها السكون كمطر بارد خفيف. وتساءلت «آشلي! أين كان آشلي؟».

واتجهت إلى غرفة الجلوس تنشده كحيوان مبترد ينشد النار، غير أنها لم تجده هناك. ينبغي أن تجده، لقد اكتشفت قوة ميلاني واعتمادها هي على تلك القوة، فقط لتفقدها في اللحظة ذاتها التي اكتشفتها فيها، ولكن، ما زال هناك آشلي الذي كان قوياً عاقلاً

مواسياً. وفي آشلي وحبه، تكمن قوة، قوة ستسند ضعفها إليها، كما تكمن شجاعة تعضد بها خوفها، وطمأنينة تدعم بها حزنها.

لا بد من أن يكون في غرفته، فكرت، وعبرت القاعة على رؤوس أصابعها وقرعت الباب بلطف ولكنها لم تسمع جواباً، ولذلك دفعت الباب وفتحته. كان آشلي يقف أمام الخزانة، ينظر إلى قفازي ميلاني المرفوءين. تناول أحدهما ونظر إليه كأنه لم يكن قد رآه من قبل، ثم وضعه برفق كأنه كان مصنوعاً من زجاج، ثم تناول القفاز الآخر.

- «آشلي» قالت بصوت متهدج.

فاستدار ببطء، ونظر إليها. كان الشرود الناعس قد ذهب من عينيه الرماديتين، وكانت عيناه واسعتين عديمتي القناع. ورأت سكارلت فيهما خوفاً يتوافق وخوفها وعجزاً أشد من عجزها وحيرة أعمق مما عرفت في حياتها. وهكذا عندما رأت وجهه، تعمق في نفسها شعور الرعب الذي كان قد تملّكها في القاعة، واتجهت إليه:

- «إني مذعورة» قالت «آه آشلي، أمسكني، إني مذعورة للغاية!».

فلم يحرك ساكناً، وإنما استمر في التحديق، قابضاً على القفاز بشدة بكلتا يديه. ووضعت هي يداً على ذراعه وهمست: «ما القضية؟».

فتفحصتها عيناه متعمدتين باحثتين، باحثتين بيأس عن شيء لم يجده، وأخيراً تكلم، ولكن بصوت غير صوته:

- «كنت أريدك» قال «كنت سأجري وأجدك، أجري كطفل ينشد العزاء - ولكني أجد الآن طفلاً أكثر خوفاً مني، طفلاً يجري إليّ».

- «ليس أنت، فأنت لا يمكن أن تكون خائفاً، ولم يحدث أن أخافك شيء، ولكن أنا - لقد كنت دائماً قوياً للغاية -».

- «إن كنت دائماً قوياً للغاية، فذلك لأنها كانت تدعمني» قال

بصوت متقطع، ونظر إلى القفاز وملس أصابعه «و - و- وكل القوة التي كنت أملكها قد ذهبت معها».

كان يشوب صوته الخفيض نغمة يأس مرير جعلها تُنزل يدها عن ذراعه وتخطو إلى الوراء. وخلال السكون العميق الذي خيم عليها، شعرت سكارلت أنها فهمت حقيقته للمرة الأولى في حياتها.

- «كيف -» قالت ببطء «كيف يا آشلي، إنك تحبها أليس كذلك؟».

وأجاب كأنه ينطق بجهد:

- «إنها الحلم الوحيد الذي نعمت به، الحلم الذي كان يحيا ويتنفس ولم يمت في وجه الحقيقة».

- «أحلام!» همست، وتحرك فيها انفعال قديم «كنت ولا تزال أحمق جداً يا آشلي. لماذا لم تستطع أن ترى أنها تعادل مليوناً من مثيلاتي».

- «سكارلت، أرجوك! لو أنك عرفت فقط ما حل بي منذ قال الطبيب -».

- «ماذا حل بك؟! ألا تعتقد أني - آخ يا آشلي، كان ينبغي أن تعرف منذ سنين أنك تحبها هي لا أنا. لماذا لم تعرف؟ لو عرفت لغدا كل شيء مختلفاً! و-. آه، كان ينبغي أن تتبين ذلك ولا تبقيني متعلقة بكل حديثك عن الشرف والتضحية! لو أنك أخبرتني، منذ سنين، لكنت - كان يمكن أن يقتلني ذلك، ولكن كان في وسعي احتماله نوعاً ما. ولكنك انتظرت حتى الآن، حتى نزاع ميلاني، لتكتشف الحقيقة، ولقد فات الوقت لعمل أي شيء الآن. آه يا آشلي، من المفروض أن يعرف الرجال أموراً كهذه - وليس النساء! كان ينبغي أن تدرك بوضوح تام أنك تحبها طوال الوقت، وأنك كنت تشتهيني فقط كما - كما يشتهي ريت تلك المرأة وتلينغ!».

وأجفل من كلماتها ولكن عينيه ظلتا تواجهانها، تلتمسان الصمت والعذاب. غير أن كل تعبير من تعابير وجهه كان يقر بصدق كلماتها، حتى انحناء كتفيه ذاته كان يرى أن تقريع ضميره كان أقسى من أي شيء تستطيع هي تقديمه. كان يقف صامتاً أمامها، يقبض على القفاز كأنه يد مدركة. وهكذا خلال الصمت الذي تلا كلماتها، زال سخطها لتحل محله شفقة ممزوجة بازدراء. ثم راح ضميرها يقرعها، لقد كانت تركل رجلاً مغلوباً على أمره، عديم الحيلة - ولقد وعدت ميلاني بأنها ستعتني به.

«وحالما وعدتها تماماً، تفوّهت بأمور خسيسة مؤذية له، ولم يكن بي أو بأي إنسان حاجة للتفوّه بها إذ إنه يعرف الحقيقة، الحقيقة التي تعمل على قتله الآن» فكرت باكتئاب «إنه ليس ناضجاً. إنه طفل، مثلي. كما أنه شديد الخوف لفقده إياها. لقد كانت ميلي تعرف كيف ستكون النتيجة - كانت ميلي تعرفه أفضل مما أعرفه بكثير، وذلك هو سبب قولها أن أعتني به وببو في الوقت نفسه، كيف يسع آشلي احتمال هذه المصيبة؟ أما أنا في وسعي احتمالها. إن في وسعي احتمال أي شيء. إن عليَّ أن أحتمل الكثير بينما هو لا يستطيع - لا يستطيع احتمال أي شيء من دونها».

- «سامحني يا عزيزي» قالت برفق مادة ذراعيها «إني أعرف ما لا بد أنك قاسيه، ولكن تذكّر أنها لا تعرف أي شيء - ولم يحدث أن ارتابت بشيء - لقد كان اللّه رحيماً جداً بنا».

فاتجه إليها بسرعة، وأحاطت ذراعاه بها بلا تبصُّر، واشرأبت هي على رؤوس أصابعها لتضع خدها الدافئ على خده مواساة له، بينما راحت يدها تمسد مؤخرة شعره.

- «لا تبك يا عزيزي، لقد أرادتك أن تكون شجاعاً. ينبغي ألّا ترى أنك كنت تبكي لأن ذلك سيزعجها».

كان يمسك بها بقبضة جعلتها تتنفس بصعوبة، وكان صوته الغاص في أذنها:

- «ماذا سأفعل؟ إني لا أستطيع العيش من دونها!».

«وكذلك أنا». فكرت وهي ترتعد من صورة السنين الطويلة القادمة، السنين التي ستعيشها من دون ميلان، غير أنها أمسكت نفسها بقبضة قوية، فلقد كان آشلي يعتمد عليها، وكانت ميلاني تعتمد عليها، وفكرت كما سبق وفكرت مرة في ضوء القمر في تارا وهي مخمورة، منهوكة القوى: «الأعباء للأكتاف القوية التي تستطيع حملها». أجل، لقد كانت كتفاها قويتين بينما لم تكن كتفا آشلي كذلك. وعدلت كتفيها استعداداً للعبء، وبهدوء بعيد عن الشعور، قبّلت خده المبلل، من دون حمى، ومن دون لهفة أو عاطفة، فقط بلطف خال من الشعور.

- «سنتدبر الأمر - بطريقة ما» قالت.

وفتح باب إلى القاعة بحركة عنيفة مفاجئة ونادى الطبيب ميد بإلحاح حاث:

- «آشلي! أسرع».

«يا إلهي، لقد قضت! فكرت سكارلت، ولم يستطع آشلي أن يودعها! ولكن ربما -».

- «أسرع!» صاحت بصوت مرتفع ودفعته، لأنه كان يقف محدقاً كرجل مصروع.

وفتحت باب غرفته دفعاً، وأخرجته منه، وجرى هو في القاعة متأثراً بكلماتها، وما زالت يده تقبض على القفاز بحنان. وسمعت خطواته السريعة هنيهة، ثم سمعت صوت إغلاق باب.

وقالت «يا إلهي!» مرة ثانية، ومشت إلى السرير ببطء، وجلست عليه، وأسقطت رأسها بين يديها وقد أحست فجأة بأنها تعبة، أكثر مما كانت في أي يوم من أيام حياتها. وبسماعها إغلاقه الباب، تملص

منها فجأة، الأنفعال الذي كانت تعمل بتأثيره، الأنفعال الذي كان قد منحها القوة. وشعرت بأنها منهوكة القوى جافة العواطف، ولم تكن تشعر الآن بحزن أو بتقريع ضمير، ولا بخوف أو ذهول. لقد كانت تعبة، وكان عقلها يدق كئيباً، بصورة آلية، كساعة فوق رف الموقد.

ومن الكآبة، برزت فكرة واحدة، لم يكن آشلي يحبها، بل لم يحدث أن أحبها حقاً، ولم تؤلمه معرفة ذلك. كان ينبغي أن تكون كئيبة، كسيرة القلب، على استعداد لتزعق حزناً على نصيبها هذا. لقد اعتمدت على حبه زمناً طويلاً، ولقد سندها حبه خلال مواطن مظلمة عديدة، ومع ذلك، فتلك هي الحقيقة. لم يكن يحبها، ولم تكترث هي لذلك. لم تكترث لذلك لأنها لم تكن تحبه. أجل، لم تكن تحبه، ولذلك لم يكن في وسع أي شيء يقوله أو يفعله أن يؤلمها.

واضطجعت على السرير، ووضعت رأسها على الوسادة وهي تعبة. لقد كان من العبث أن تحاول مقاومة الفكرة. كان من العبث أن تقول لنفسها «ولكني أحبه، ولقد خلقته لنفسي، شيئاً ميتاً تماماً كميلي، لقد نسجت بذلة ثياب جميلة ووقعت في حبها. وعندما جاء آشلي راكباً وكان يبدو رائعاً جداً مختلفاً كثيراً عما هو الآن، ألبسته تلك البذلة وجعلته يرتديها سواء أكانت مناسبة أم لم تكن. ولم أكن لأرى ماذا كانت حقيقته، بل حافظت على حب البذلة الجميلة - لا على حبه أبداً».

لقد كان في وسعها الآن أن تنظر إلى الوراء، إلى السنين الطويلة الماضية، وترى نفسها في الثوب القطني الأخضر المزهر، واقفة في ضوء الشمس في تارا، مأخوذة بسحر الفارس الفتي ذي الشعر الأشقر اللماع كخوذة فضية. لقد كان في وسعها أن ترى بجلاء تام الآن أن حبها كان مجرد وهم صبياني وحسب، ليس في الحقيقة أكثر أهمية من رغبتها المنشودة في الشنفين الشفافين اللذين كانت قد انتزعتهما من

جيرالد بالمراودة، لأنها بعد أن امتلكتهما، فقدا قيمتهما بنظرها، شأن كل شيء كانت تحصل عليه، باستثناء النقود. وهكذا هو أيضاً، كان ينتظر أن يغدو رخيصاً لو أنها في تلك الأيام البعيدة الأولى، كانت تملك القناعة الكافية لترفض الزواج به، لو أنها حازته مرة تحت رحمتها، أو رأته يصبح عاطفياً تجاهها، ملحفاً غيوراً متجهم الوجه، متوسلاً كالشبان الآخرين، لكان يمكن للولع المستعر الذي كان يتملّكها أن يزول، أن يتلاشى بسرعة كالضباب أمام نور الشمس والريح الخفيفة، وذلك عندما تقابل رجلاً جديداً.

«ما كان أغباني!» فكرت بمرارة، «وها إني أجبرت الآن على أن أدفع ثمن غباوتي. إن الذي كنت أرجوه مراراً قد حدث. كنت أرجو أن تموت ميلي كي أستطيع نيله، وها هي ميتة الآن، وغدا هو في حوزتي، ولكني لا أريده. وسيجعله شرفه اللعين يسألني عما إذا كنت أرغب في أن أطلق ريت وأتزوجه؟ لن أقبله على طبق فضي! ولكن مهما كان الأمر فلقد أصبح معلقاً بعنقي بقية عمري. وما دمتُ حية سيتوجب عليَّ أن أعتني به وأهتم في أن لا يجوع وفي أن لا يؤذي الناس شعوره. سيكون طفلاً آخر يتعلق بأهدابي. لقد فقدت حبيبي، وها إني أنال طفلاً آخر. ولو أني لم أعد ميلي، لما - لما همّني أن أراه مرة ثانية».

62

سمعت سكارلت أصواتاً هامسة في الخارج، وعندما ذهبت إلى الباب، رأت الزنوج المذعورين يقفون في القاعة الخلفية : دلسي وذراعاها يهتزان تحت ثقل بو النائم، العم بيتر يبكي، كوكي تمسح وجهها العريض المبلل بمنديلها. ونظر الثلاثة إليها يسألون بصمت، عما كان عليهم أن يفعلوا الآن. ونظرت هي في القاعة تجاه غرفة الجلوس، ورأت إنديا والعمة بيتي تقفان صامتتين، تمسك الواحدة منهما بيدي الأخرى، وقد بدت إنديا هذه المرة متخلّية عن نظرتها العنيدة. كانتا كالزنوج تنظران بتوسل إليها، وكالزنوج تتوقعان أن تصدر أوامرها إليهما. ومشت إلى غرفة الجلوس وأحاطت المرأتان بها.

- «سكارلت، ماذا -» بدأت العمة بيتي وفمها البدين الشبيه بفم الطفل يرتجف.

- «لا تتكلمي معي وإلا سأزعق» قالت سكارلت وقد جلبت الأعصاب المنهوكة حدة إلى صوتها، بينما كانت يداها تضغطان على جانبيها، لقد جعلت فكرة التحدث عن ميلاني الآن، فكرة عمل الترتيبات التي تتبع حادث الوفاة، والتي لا بد منها، لقد جعلت هذه الفكرة حنجرتها تنقبض مرة ثانية.

- «لا أريد سماع كلمة من أي منكما».

وبتأثير اللهجة الآمرة في صوتها، تراجعت الاثنتان وعلى

وجهيهما أمارات الحيرة والألم. «ينبغي ألّا أبكي أمامهما» فكرت «ينبغي ألّا أهن الآن وإلا فستشرعان في البكاء هما أيضاً، وعندئذ يشرع الزنوج في الزعيق ونجنّ جميعاً. ينبغي أن أتمالك نفسي، فهناك الكثير الذي ينبغي عليَّ عمله. عليَّ أن أرى مجهز الدفن وأنظم أمر الجنازة وأشرف على نظافة البيت، وأبقى هناك لأتحدث إلى الناس الذين سيبكون فوق عنقي. ليس في وسع آشلي أن يقوم بهذه الأمور، وأيضاً ليس ذلك في وسع بيتي أو إنديا، وعليّ أنا القيام بذلك. آه، أي عبء مضن! لقد كان هناك دائماً عبء مضن عليّ، ودائماً، عبء إنسان آخر!».

ونظرت إلى الوجهين المبهورين المتألمين، وجهي إنديا وبيتي واجتاحها شعور بالندم، إذ لم تكن ميلاني ترغب في أن تتصرف سكارلت بهذه الحدة مع هاتين اللتين كانتا تحبانها.

- «إني آسفة لأني كنت حانقة» قالت وكانت تتكلم بصعوبة «إن المسألة هي أني - أني متأسفة لأني كنت حانقة يا عمتي. سأخرج إلى الشرفة هنيهة، إذ لا بد أن أنفرد بنفسي، ثم أعود و- -».

وربتت على العمة بيتي، ومرت إزاءها بسرعة إلى الباب الأمامي. وقد عرفت أنها إذا ظلت في هذه الغرفة دقيقة واحدة، فستهن إرادتها. كان لا بد لها أن تنفرد بنفسها، وكان لا بد لها أن تبكي وإلا سينفجر قلبها.

وخطت إلى الشرفة المظلمة، وأغلقت الباب خلفها، وأحست بهواء الليل الرطب منعشاً على وجهها. كان هطول المطر قد انقطع، ولم يكن يسمع أي صوت سوى وقع نقاط الماء المتساقطة من الرفاريف من آن إلى آخر، كانت ضبابة كثيفة تلف الدنيا، ضبابة باردة قليلاً كانت تحمل في نفسها رائحة السنة المدبرة. وكانت جميع البيوت الواقعة في جانب الشارع الآخر معتمة باستثناء واحد كان ينبعث من

مصباح خلف نافذته ضوء ينير الشارع فيكافح الضباب بوهن، فتبدو ذرات ذهبية تسبح في أشعته. كان الأمر يبدو كأن الدنيا بأسرها كانت مغلفة، مغلفة بغطاء ثابت من الدخان الرمادي. وكذلك كانت الدنيا بأسرها صامتة وأسندت رأسها إلى أحد أعمدة الشرفة، وأجهشت في البكاء، ولكن الدموع لم تسعفها، فلقد كانت هذه المصيبة فادحة جداً، بحيث لم يسع الدموع أن تنحبس. كان جسدها يرتجف، وكان صوت تحطم قلعتي حياتها الحصينتين ما زال يتردد في عقلها، يدوي دوياً ساحقاً حول أذنيها. ووقفت هنيهة تحاول أن تستدعي تعويذتها القديمة «سأفكر في هذا كله غداً، عندما أستطيع احتماله أفضل من الآن». غير أن التعويذة كانت قد فقدت سحرها. وكان لا بد لها من أن تفكر في أمرين الآن - ميلاني وكم كانت تحبها وتحتاج إليها، ثم آشلي والعمى العنيد الذي جعلها ترفض أن تراه كما كان على حقيقته. وكانت سكارلت تعرف أن التفكير في هذين الأمرين سيؤلمها، غداً وفي كل غد من حياتها.

«لا أستطيع الرجوع هناك ثانية، والتحدث إليهما الآن»، فكرت، «كما أني لا أستطيع مواجهة آشلي ومواساته الليلة! ليس الليلة! سآتي صباح الغدِ باكراً، وأقوم بالأمور التي ينبغي القيام بها وأقول العبارات المواسية التي يجب قولها، ولكن ليس الليلة، إني لا أستطيع، إني ذاهبة إلى البيت».

وكان البيت على بُعد خمسة مربعات من الأبنية فقط، ولم يكن من المتوقع أن تنتظر بيتر الناحب إلى أن يعدّ العربة، أو تنتظر الدكتور ميد ليأخذها بعربته إلى البيت. لا، لم يكن في وسعها احتمال دموع بيتي أو لوم إنديا الصامت. وهكذا نزلت الدرجات الأمامية المعتمة بسرعة، دون أن تأخذ معطفها أو قبعتها، وانطلقت في الليل الكثيف الضباب ثم انثنت عند المنعطف وبدأت تصعد التلة الطويلة في تجاه شارع

بيتشتري، سائرة في دنيا رطبة صامتة، وحتى خطواتها كانت صامتة كحلم.

وبينما هي تصعد التلة، كان صدرها يزخر بدموع لم تكن لتنبجس، وشرع ينتابها شعور كاذب بأنها كانت في هذا المكان البارد المعتم ذاته من قبل، تكتنفها مجموعة من الظروف المماثلة - ليس مرة واحدة، بل عدة مرات من قبل. ما أحمقها، فكرت باضطراب، حاثة خطاها. لقد كانت أعصابها تخدعها. ولكن الشعور ذاته لا يزال ينتابها، يتملّك عقلها خفية. وحدقت فيما حولها بارتياب، وقوي الشعور بشكل مرعب ولكنه أليف، ثم رفعت رأسها بقوة كحيوان يشم خطراً. إن القضية هي أني منهوكة القوى وحسب. وحاولت تهدئة روعها. كما أن الليلة غريبة جداً. كثيفة الضباب كثيراً. إني لم أر ضباباً كثيفاً كهذا من قبل، ما عدا- ما عدا !

ثم عرفت وضغط الخوف على قلبها. لقد عرفت الآن. في مئة حلم رهيب، كانت قد هربت خلال ضباب كهذا، خلال بلاد تسكنها الأرواح، لا معالم لها، كثيفة بضباب بارد مغلف، آهلة بأشباح ذات مخالب، وبظلال. أكانت هي في الحلم ثانية، أم كان هذا حلمها يتحقق؟

ولهنيهة انفصل الواقع عنها، وترددت في ضياع. وأخذ شعور الحلم الرهيب القديم يجتاحها أقوى من أي وقت مضى، ثم شرع قلبها يخفق. وأحست أنها كانت تقف ثانية وسط الموت والسكون. تماماً كما وقفت مرة في تارا. كل ما كان يلذها في الحياة كان قد غادرها، وغدت الدنيا أنقاضاً وأخذ الرعب يعوي في قلبها كريح باردة. وكان الهول الكامن في الضباب والذي هو الضباب ذاته، يضع أيديه عليها. وبدأت تجري، وكما كانت قد جرت مئة مرة في الأحلام، كذلك كانت تجري الآن، تجري من دون تبصُّر، دون أن تعرف إلى أين

يسوقها رعب مجهول، تنشد في الضباب الرمادي الأمان الموجود في مكان ما.

وجرت صعداً في الشارع المظلم، رأسها منكس، وقلبها خافق، وهواء الليل الرطب على شفتيها، والأشجار فوق رأسها تهددها. في مكان ما، في مكان ما في هذه الأرض البرية، أرض السكون البليل، يوجد ملجأ! وأسرعت تصعد التلة لاهثة، وأطواقها المبللة تلتف باردة حول كاحليها ورئتاها تكادان تتفجران، ومشدّها المشدود الشرائط يضغط أضلاعها في قلبها.

ثم لاح ضوء أمام عينيها، صف أضواء باهتة مرتعشة، ولكنها حقيقية تماماً، بينما لم يكن هنالك في حلمها أي ضوء، بل ضباب رمادي وحسب. وقبض عقلها على هذه الأضواء، فهي تعني الأمان والناس والواقع. وفجأة توقفت عن الجري، ويداها منقبضتان وهي تكافح لتنتشل نفسها من وهدة الرعب، تحدق بتصميم نحو صف الأضواء الغازية التي أشارت لعقلها بأن هذا كان شارع بيتشتري، أتلانتا، وليس العالم الرمادي، عالم النوم والأشباح.

وتهالكت فوق مقعد على الطريق وهي تلهث، تشد على أعصابها كأنها كانت حبالاً تنساب بسرعة من بين يديها:

«لقد كنت أركض - أركض كشخص مجنون» فكرت وجسدها يهتز من جرّاء خوف يتضاءل وقلبها الخافق يُشعرها بالمرض «ولكن إلى أين كنت أركض؟».

وصارت تتنفس بسهوله الآن، وجلست ويدها تضغط على جانبها وهي تنظر إلى أعلى شارع بيتشتري، هناك على قمة التلة، كان يقع بيتها، كان يبدو كأن كل نافذة فيه تشع بأضواء، أضواء تتحدى الضباب أن يعتم تلألؤها. البيت! لقد كان ذلك حقيقياً! وتطلعت إلى هيكل البيت البعيد الباهت شاكرة، متلهفة، وغمر روحها شيء كالسكينة.

البيت! ذلك كان المكان الذي أرادت الذهاب إليه، ذلك كان المكان الذي جرت إليه، إلى البيت، إلى ريت.

وعند تبيُّنها هذا الشيء، بدا الأمر كأن أغلالاً سقطت عنها، وسقط معها الخوف الذي كان قد لازم أحلامها منذ الليلة التي راحت تتعثر فيها في طريقها إلى تارا، لتجد أن الدنيا كانت قد انتهت. فعند نهاية الطريق إلى تارا، كانت قد وجدت أن الآمان قد ذهب، وذهبت معه كل القوة وكل الحكمة وكل الحنان الودود وكل الفهم - جميع هذه الصفات، التي كانت تتجسد في إيلين، والتي كانت حصن فتوّتها. ومع أن سكارلت كانت قد حظيت بالأمان المادي منذ تلك الليلة، إلا أنها كانت لا تزال طفلة مذعورة في أحلامها، تنشد السلامة المفقودة في ذلك العالم الضائع.

وعرفت الآن الملجأ الذي كانت تنشده في أحلامها، عرفت موطن السلامة الدافئ الذي كان الضباب يحجبه عنها دائماً في أحلامها. لم يكن ذلك الملجأ هو آشلي - ها، لم يكن آشلي مطلقاً، لأنه لم يكن يوجد فيه من الدفء أكثر مما يوجد في ضوء مستنقع، ولا من الأمان أكثر مما يوجد في وعس. لقد كان ذلك الملجأ هو ريت - ريت الذي كان ينعم بذراعين قويتين لتسنداها، وبصدر عريض ليوسد رأسها التعب، وبضحك ساخر ليدفع مشاكلها إلى المنظار الصحيح، والذي كان ينعم أيضاً بفهم تام لأنه كان مثلها، يرى الحقيقة كحقيقة، يراها غير مشوهة بأفكار غير عملية، أفكار الشرف والتضحية أو الإيمان الرفيع بالطبيعة الإنسانية. لقد كان يحبها! لماذا لم تتبين أنه كان يحبها رغم كل ملاحظاته المعيرة التي تظهر عكس ذلك؟ لقد تبينت ميلاني تلك الحقيقة إذ قالت في آخر رمق من حياتها «كوني لطيفة معه».

«آه» فكرت «ليس آشلي هو الشخص الوحيد الأعمى بحماقة. لقد كان ينبغي أن أتبين ذلك».

لقد ظلت طوال السنين تسند ظهرها إلى جدار حب ريت الحجري، ذلك الحب الذي كانت تعتبره أمراً مسلَّماً به، كحب ميلاني. كانت تفعل ذلك وهي تمالئ نفسها بأنها كانت تستمد قوّتها من ذاتها هي فقط. وتماماً، كما كانت قد أدركت في أول الأمسية أن ميلاني كانت بجانبها في حملاتها المريرة ضد الحياة، أدركت الآن أن ريت كان وقد وقف خلفها صامتاً، وقف محباً لها، فاهماً حقيقتها، مستعداً لمساعدتها، ريت الذي وقف في السوق الخيرية يقرأ جزعها في عينيها، ويقودها إلى حلبة الريل، ريت الذي ساعد في إخراجها من أسر الحداد، ريت الذي حرسها خلال النار والانفجار ليلة سقوط أتلانتا، ريت الذي أقرضها المال الذي مكنها من البدء بمشاريعها، ريت الذي كان يواسيها عندما كانت تستيقظ ليلاً وهي تبكي مذعورة من أحلامها - كيف لا، وليس هناك رجل يفعل هذه الأمور دون أن يكون محباً لامرأة، محباً لها إلى درجة الهيام!

كانت الأشجار تنقط ماء عليها، ولكنها لم تكن تحس بالماء، وكان الضباب يلفّها، ولكنها لم تكن تعيره أدنى اهتمام لأنها عندما فكرت في ريت ذي الوجه الأدكن والأسنان اللماعة والعينين السوداوين اليقظتين، غمرتها ارتعاشة:

«إني أحبه» فكرت. وكما هو الحال دائماً، تقبلت الحقيقة بقليل من الدهشة، كما يتقبل طفل هدية. «إني لا أعرف منذ متى أحبه، ولكن الأمر حقيقي، ولولا آشلي، لتبينت ذلك منذ مدة طويلة. أجل، لم يكن في وسعي أن أرى الدنيا أبداً لأن آشلي كان يقف في الطريق».

لقد كانت تحبه، تحبه محتالاً، سفيهاً بلا ريبة وبلا شرف - على الأقل، الشرف كما كان يراه آشلي «ليلعن اللّه شرف آشلي!» هجست «لقد كان شرف آشلي يذلني دائماً. أجل منذ بدء علاقتنا تماماً، عندما كان يثابر على القدوم لزيارتي، حتى مع أنه كان يعرف أن عائلته كانت

تنتظر منه أن يتزوج ميلاني. أما ريت فلم يذلني أبداً، حتى في الليلة الرهيبة تلك، ليلة حفلة ميلاني، عندما كان يتوجب عليه أن يلوي عنقي. حتى عندما غادرني في الطريق ليلة سقوط أتلانتا، كان يعرف أني سأكون آمنة. كان يعرف أني سأتخطى الصعاب بطريقة ما، حتى عندما تصرف كأنه كان سيجعلني أدفع ثمن حصولي على المال منه، في سجن الشماليين. أجل، لم يكن من المتوقع أن يغتصبني، بل كان يمتحنني، بل كان يمتحنني فقط. لقد أحبني حباً ثابتاً بينما كنت أنا خسيسة معه. ولقد آلمته مراراً وكانت كبرياؤه العظيمة تمنعه من أن يكشف عن ذلك. وعندما ماتت بوني - آه كيف وسعني ذلك؟».

ونهضت مستقيمة القامة، ونظرت إلى البيت فوق التلة. لقد ظنت منذ نصف ساعة أنها كانت قد فقدت كل شيء في الدنيا باستثناء المال، كل شيء كان يجعل الحياة مرغوباً فيها. إيلين وجيرالد وبوني ومامي وميلاني وآشلي. لقد كان لا بد لها من أن تفقدهم جميعاً كي تتبين أنها كانت تحب ريت - تحبه لأنه كان قوياً غير هياب، عاطفياً دنيوياً مثلها.

«سأخبره بكل شيء» هجست «وسيفهم هو. إنه يفهم دائماً. سأخبره ما كان أغباني، وما أعظم حبي له، وسأعوّض له عن كل شيء».

وفجأة شعرت بالقوة والسعادة، ولم تعد خائفة من الظلام أو الضباب، وعرفت وقلبها يغني أنها لن تخافهما بعد اليوم. ومهما لفَّها الضباب في المستقبل، فقد عرفت ملجأها، وانطلقت بحماس تصعد الشارع باتجاه البيت، وبدت أبعاد مربعات الأبنية طويلة جداً، ورفعت أطواقها حتى ركبتيها، وشرعت تركض بخفة، ولكنها لم تكن تركض من الخوف هذه المرة. بل كانت تركض لأن ذراعي ريت كانتا في نهاية الشارع.

63

كان الباب الأمامي مفتوحاً قليلاً، وخبت سكارلت في القاعة منقطعة النفس وانتظرت هنيهة تحت بلورات الثريا المنشورية الشكل الملونة بألوان قوس قزح. ورغم كل إشراقه، كان البيت عميق السكون، ليس سكون النوم الخالص، بل سكوناً متيقظاً تعباً كان ينذر بقليل من الشؤم. وبنظرة واحدة، رأت أن ريت لم يكن في الردهة أو في المكتبة، وهبط قلبها. هب أنه كان في الخارج - في الخارج مع بيل، أو حيث كان يقضي الأمسيات العديدة عندما لم يكن يظهر على طاولة العشاء؟ آه، لم تكن قد حسبت حساب هذا الأمر.

كانت قد صعدت الدرجات بحثاً عنه عندما رأت أن باب غرفة الطعام كان مغلقاً. وعند رؤية ذلك الباب المغلق، انقبض قلبها بالعار، لأنها تذكرت الليالي العديدة في هذا الصيف الأخير، عندما كان ريت يجلس هناك وحيداً، يحتسي الخمرة إلى أن تتخضل عيناه فيأتي بورك ليحثه إلى سريره. لقد كانت تلك غلطتها. ولكنها ستغير هذا الوضع كلّه. أجل، ستغير كل شيء من الآن فصاعداً - ولكن أرجوك يا إلهي، لا تدعه يكون سكران جداً هذه الليلة، لأنه إذا كان سكران جداً فلن يصدقني بل سيضحك عليّ، الأمر الذي سيحطم قلبي.

وشقّت باب غرفة الطعام بهدوء، ورنت إلى الداخل. كان يجلس أمام طاولة، مسترخياً على كرسيه، وأمامه قارورة خمر ملأى، السدادة

لم تنزع بعد والكأس لم تستعمل. شكراً للّه، لقد كان صاحياً. وفتحت الباب، وأمسكت نفسها عن أن تجري إليه، ولكن عندما تطلع نحوها، أوقفها شيء في نظرته كميتة على العتبة، وجمد الكلمات التي على شفتيها.

راح ينظر إليها بثبات، من عينين سوداوين، عينين كانتا مثقلتين بالإعياء وليس فيهما أي بريق وثاب، ومع أن شعرها كان يتناثر حول كتفها وصدرها يخفق وهو منقطع النفس وأطواقها ملطخة بالوحل حتى الركبتين، إلا أن وجهه لم ينطق بأي تعبير دهشة أو استفهام، كما أن شفتيه لم تزما بالسخرية. كان غارقاً في كرسيه، حلّته متجعدة حول خصره بصورة عديمة الأناقة، وكل تغضنة فيه تعلن عن دمار جسد بديع وعن اخشيشان وجه قوي. لقد فعل الشرب والفسق فعلهما في وجه قطعة النقود المصقولة، فلم يعد الآن رأس أمير وثني شاب على ذهب مضروب حديثاً، بل رأس قيصر متعب خسيس على قطعة نحاس براها طول الاستعمال. كان ينظر إليها وهي تقف هناك ويدها على قلبها، ينظر بهدوء، بطريقة مشفقة تقريباً، الأمر الذي أفزعها.

- «تعالي واجلسي» قال «هل أسلمت روحها؟».

فأومأت برأسها أن نعم، وتقدمت نحوه مترددة والريبة تتكون في عقلها من هذا التعبير الجديد في وجهه. ومن دون أن ينهض، دفع بقدمه كرسياً إلى الوراء، وجلست هي عليه، متمنية لو يتحدث عن ميلاني بهذه السرعة، إذ لم تكن ترغب في الحديث عنها الآن، لم تكن ترغب في أن تحيي عذاب الساعة الأخيرة. كان هناك وقت مديد، طوال بقية حياتها، لتتحدث خلاله عن ميلاني. ولكن كان يبدو لها الآن وهي مسوقة من قبل رغبة عنيفة في أن تصرخ «إني احبك» أنه يوجد فقط هذه الليلة، هذه الساعة، لتخبر ريت فيها بما كان يدور في

عقلها. ولكن كان هناك شيء في وجهه منعها من ذلك، وفجأة أحست بالخجل من التحدث عن الحب بينما ميلاني لم تكد تبرد.

- «على كل حال، لقد أراحها اللّه» قال بتثاقل «لقد كانت الشخص الوحيد الكامل اللطف الذي عرفته».

- « آه يا ريت!» صاحت ببؤس لأن كلماته ذكّرتها بوضوح بكل الأعمال اللطيفة التي كانت ميلاني قد عملتها معها «لماذا لم تدخل معي؟ لقد كان الوضع رهيباً، وكنت في حاجة ماسَّة إليك».

- «لم يكن في وسعي تحمُّل ذلك» قال ببساطة. وصمت هنيهة ثم تكلم بجهد وقال بلطف: «سيدة عظيمة جداً».

وتجاوزتها نظرته الكئيبة، ونطقت عيناه بالتعبير ذاته الذي كانت قد رأته في ضوء اللهيب ليلة سقوط أتلانتا عندما أخبرها أنه منطلق مع الجيش المتقهقر - تعبير عن دهشة رجل يعرف نفسه تمام المعرفة، ومع ذلك يكتشف في نفسه شمائل إخلاص وعواطف غير متوقعة، فيحس باستهزاء ذاتي خفيف لهذا الاكتشاف.

كانت عيناه المكتئبتان تنظران من فوق كتفيها، كأنهما تريان ميلاني تعبر الغرفة إلى الباب في سكون. ولم يكن في نظرة الوداع في وجهه أي حزن أو ألم، وإنما كانت فيها دهشة تأملية من نفسه، وثوره حادة لعواطف ميتة منذ الفتوة، ظهرت عندما قال ثانية «سيدة عظيمة جداً».

وارتعشت سكارلت، وغادر الوهج قلبها، الدفء الرائع البهاء الذي بعثها إلى البيت على قدمين مجنحتين. واستطاعت أن تدرك نصف إدراك، ما كان يدور في عقل ريت وهو يقول وداعاً للشخص الوحيد الذي كان يجلّه في الدنيا، وشعرت بالوحشة ثانية، وبإحساس رهيب من الضياع الذي لم يعد ضياعاً شخصياً. لم يكن في وسعها أن تفهم أو تحلل ما كان يشعر به تماماً، ولكن الأمر كان يبدو كأنها هي

أيضاً كانت قد مست بتنورة هامسة، مست برفق في معانقة أخيرة. ولم تكن ترى خلال عيني ريت امرأة ميتة راحلة، بل كانت ترى فيهما أسطورة - أسطورة النساء اللطيفات المنكرات لذواتهن، ولكن الفولاذيات الإرادة، اللواتي كان الجنوب قد ابتنى بيته عليهن في الحرب، واللواتي عادت إلى كبريائهن وأذرعهن المحبة إثر الهزيمة.

ورجعت عيناه إليها وتغيَّر صوته، وبدا المكان منيراً بارداً الآن:

- «وهكذا فقد فارقت الدنيا. إن ذلك يجعل الفرصة سانحة لك، أليس كذلك؟».

- «ها كيف تستطيع قول أشياء كهذه» صاحت ملسوعة وقد جرت الدموع السريعة إلى عينيها «إنك تعرف كم كنت أحبها!».

- «لا، إني لا أستطيع أن أقول إني كنت أعرف. إن من أبعد الأشياء المتوقعة، ومما هو في مصلحتك، كونك قد استطعت تقديرها أخيراً، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عاطفتك نحو الحقيرين البيض».

- «كيف تستطيع أن تقول مثل هذا الكلام؟ طبعاً لقد كنت أقدرها! أما أنت فلا - لم تكن تعرفها كما كنت أعرفها! وليس من شيمتك أن تفهمها - ما كان أطيبها -».

- «حقاً؟ - ربما!».

- « كانت تفكر في كل إنسان ما عدا نفسها - كيف لا وقد كانت كلماتها الأخيرة عنك» وشعّت عيناه بوميض من شعور أصيل وهو يلتفت إليها :

- «وماذا قالت؟».

- «آه، ليس الآن يا ريت».

- «أخبريني».

كان صوته فاتراً، ولكن يده التي وضعها على معصمها آلمتها. لم

تكن تريد إخباره، فلم تكن هذه هي الطريقة التي كانت قد عزمت على أن تقوده فيها إلى موضوع حبها، غير أن يده كانت ملحّة:

- « لقد قالت - قالت «كوني لطيفة مع الكابتن باتلر. إنه يحبك حباً جماً»».

فحملق فيها، وأفلت معصمها، ثم خفض جفنيه تاركاً وجهه صفحة معتمة مبهمة. وفجأة نهض وذهب إلى النافذة، وأزاح الستار لينظر إلى الخارج بتعمد، وكأنه كان هناك شيء للرؤية في الخارج، شيء غير الضباب الحاجب.

- «هل قالت أي شيء آخر؟» استوضح دون أن يدير رأسه.

- « طلبت مني أن أعتني ببو الصغير، فأجبتها بأني سأعتني به كأنه ولدي».

- «وماذا أيضاً؟».

- «قالت - آشلي - طلبت مني أن أعتني بآشلي أيضاً».

وظل صامتاً ثم ضحك برقّة.

- «من المناسب الحصول على إذن الزوجة الأولى، أليس كذلك؟».

- «ماذا تعني؟».

فالتفت نحوها، وحتى وهي في ارتباكها استغربت ألّا تكون هناك سخرية في وجهه، كما لم يكن فيه اهتمام أكثر مما يكون في وجه رجل يشاهد الفصل الأخير من هزلية غير مسلية.

- «أعتقد أن معناي واضح تماماً. إن الآنسة ميلي ميتة. ومن الأكيد أنك تملكين جميع البيّنات التي تحتاجين إليها لتطلقني ولم يبق لديك من حسن السمعة ما يكفي ليجعل عملية طلاق أمراً مسيئاً إليك. وكذلك لم يبق لديك أي اعتقاد بالدين، وهكذا فلن تؤثر الكنيسة.

وإذن. . . فإن آشلي ستظفرين به وأحلامك ستتحقق مع تبريكات الآنسة ميلي».

- «طلاق؟» صاحت «لا! لا!».

وشعرت بالتفكك هنيهة ووثبت على قدميها ثم جرت إليه وأمسكت بذراعه: «إنك مخطئ تماماً. مخطئ للغاية. إني لا أريد طلاقاً. إني. . . » وتوقفت لأنها لم تستطع إيجاد كلمات أخرى.

ووضع يده تحت ذقنها وبلطف رفع وجهها إلى النور وراح ينظر إلى عينيها بتصميم هنيهة قصيرة. ونظرت هي إليه وقلبها في عينيها وشفتاها ترتعدان وهي تحاول التكلم، ولكنها لم تستطع تنسيق أي عبارة، لأنها كانت تحاول أن تجد في وجهه بعض العواطف المجاوبة، بعض نور الأمل الوثاب، نور الفرح. حتماً ينبغي أن يعرف الآن! ولكن كل ما استطاعت عيناها الباحثتان المهووستان أن تجده الذهول الهادئ القاتم الذي كان قد حيرها مراراً. ثم أفلت ذقنها واستدار عائداً إلى كرسيه واسترخى فيه ثانية بحركة تدل على الإعياء بحيث لامست ذقنه صدره، وراحت عيناه تنظران إليها من تحت حاجبين أسودين بطريقة تأملية غير شخصية.

وتبعته هي إلى كرسيه ويداها مثنيتان، ووقفت قبالته:

- «إنك مخطئ» شرعت ثانية وقد وجدت الكلمات «ريت، عندما عرفت هذه الليلة، ركضت كل خطوة من الطريق إلى البيت لأخبرك. آه يا حبيبي، إني. . . ».

- «إنك تعبة» قال وما زال يراقبها «من الأفضل أن تذهبي إلى سريرك».

- «ولكن ينبغي أن أخبرك!».

- «سكارلت» قال بتثاقل «إني لا أريد أن أسمع. . . ولا شيء».

- «ولكنك لا تعرف ما سأقوله!».

- «يا مدللتي إنه مسطور على وجهك بوضوح. شيء ما، إنسان ما، جعلك تتحققين من أن السيد ويلكس السيّئ الحظ لقمة كبيرة جداً من فاكهة البحر الميت بحيث لا يسعك أن تمضغيها. وذلك الشيء ذاته وضع مفاتني أمامك فجأة في ضوء جديد جذاب» وتنهد تنهداً خفيفاً «ولا جدوى من التحدث غير ذلك».

فتنفست نفساً حاداً مدهوشاً. طبعاً، لقد كان دائماً يقرأ وجهها بسهولة. وفيما مضى كانت تمتعض من قدرته تلك، ولكن الآن وبعد الصدمة الأولى الناجمة عن شفافيتها، ارتفع قلبها سروراً وتسرية. لقد عرف، لقد فهم، ولقد أضحت مهمتها سهلة بطريقة عجيبة. لا جدوى من التحدث عن ذلك! طبعاً لقد كان قاسياً عليها بسبب إهمالها الطويل له، طبعاً لقد كان مرتاباً بتحولها المفاجئ، وكان عليها أن تتودد له بلطف، وتعنّفه بدفق غزير من الحب، وما ألذ أن تفعل ذلك!

- «حبيبي، سأخبرك بكل شيء» قالت واضعة يديها على ذراع كرسيه ومنحنية نحوه: «لقد كنت مخطئة جداً، مجرد غبية حمقاء...».

- «سكارلت، لا تتابعي هذا الحديث. لا تظهري ذليلة أمامي، فإني لا استطيع احتمال ذلك. ابقي لنا بعض الكرامة، بعض الأسرار لنتذكرها عن زواجنا، استبقي لنا هذا الحديث الأخير».

فاستقامت بجلستها فجأة. استبقي لنا هذا الحديث الأخير؟ ماذا عنى بـ«هذا الحديث الأخير»؟ الأخير؟... لقد كان هذا حديثهما الأول، بداية حياتهما الجديدة.

- «ولكني سأخبرك» شرعت بسرعة كأنها كانت تخشى أن يضع يده على فمها ليسكتها «آه يا ريت، إني أحبك كثيراً يا حبيبي! ولا بد من أني كنت أحبك منذ سنين غير أني كنت حمقاء ممعنة في الحمق بحيث لم أكن أعرف ذلك. ريت، ينبغي أن تصدقني!».

فنظر إليها هنيهة وهي واقفة أمامه، نظر إليها نظرة طويلة اخترقت رأسها إلى مؤخرة عقلها، ورأت أن هناك تصديقاً في عينيه ولكن قليلاً من الاهتمام. آه هل سيتصرف بخسة في هذا الموضوع من بين جميع الأوقات؟ هل يعذبها، ليرد لها الثمن بعملتها؟

- «ها، إني أصدقك» قال أخيراً «ولكن ماذا عن آشلي ويلكس؟».

- «آشلي!» قالت وأومأت بإشارة ملول «إني... إني لا أعتقد إني أهتم به أدنى اهتمام منذ زمن طويل. لقد كان الأمر... كان عادة تعلقت بها منذ كنت فتاة صغيرة يا ريت. ولو أني عرفته على حقيقته لما فكرت أن أحفل به أبداً. إنه مخلوق ضعيف الروح عديم الحيلة رغم كل هذيانه عن الصدق والشرف و...».

- «لا» قال ريت «إذا كان لا بد لك من أن تريه على حقيقته، فريه باستقامة، إنه ليس سوى سيد أسير في عالم لا ينتمي إليه، يحاول أن يعمل جهده الذي يدعو للإشفاق في ضوء قوانين العالم الذي انقضى».

- «ريت، لا تدعنا نتحدث عنه! ماذا يؤثر الآن؟ ألست سعيداً بمعرفة أن... أعني الآن وقد عرفت أنني...».

وحالما قابلت عيناه التعبتان عينيها، توقفت عن التحدث مرتبكة كفتاة مع عشيقها الأول. حبذا لو أنه يسهل المهمة عليها! لو أنه يمد ذراعيه كي تستطيع أن تدب جسدها في حضنه شاكرة، وتضع رأسها على صدره. ففي وسع شفتيها وهما على شفتيه أن تنبئاه أفضل مما تنبئه جميع كلماتها المتعثرة. ولكن، وبينما كانت تنظر إليه، أدركت أنه لم يكن يبقيها بعيداً عنه ليكون خسيساً معها وحسب، بل كان يبدو مستنزف الحس كأن كل شيء قالته لم يكن بذي بال لديه.

- «سعيد؟» قال «كان يمكن فيما مضى أن أشكر اللّه، أن أصوم من أجل أن أسمعك تقولين كل هذا. ولكن الآن، إنه لا يؤثر».

- «لا يؤثر؟ ماذا تقول؟ طبعاً إنه يؤثر! ريت إنك تحفل بي، أليس كذلك؟ ينبغي أن تحفل بي. لقد قالت ميلي إنك تحفل بي».

- «الواقع أنها كانت مصيبة بقدر ما كانت تعرف. ولكن يا سكارلت، هل خطر لك يوماً أنه حتى أخلد أنواع الحب يمكن أن يفنى؟».

فنظرت إليه دون أن تتكلم وفمها مفتوح فتحة دائرية.

- «لقد فني حبي» تابع كلامه «بسبب آشلي ويلكس وعنادك المجنون الذي يجعلك ككلب سوقي في طلب أي شيء تعتقدين أنك تريدينه... لقد فني حبي».

- «ولكن الحب لا يمكن أن يفنى!».

- «إن حبك لآشلي فني!».

- «ولكن في الحقيقة لم أكن أحب آشلي».

- «إذن فمن الأكيد أنك أحسنت تقليد ذلك... حتى هذه الليلة. إني لا أعيّرك يا سكارلت ولا أتهمك ولا ألومك. لقد مضى ذلك الوقت ولذلك وفّري عليّ دفاعك وإيضاحاتك. وإذا استطعت أن تصغي إليَّ دقائق قليلة دون أن تقاطعيني، ففي وسعي أن أوضح لك ما أعني، مع أن اللّه يعرف أني لا أرى موجباً للإيضاح، فالحقيقة واضحة جداً».

وجلست سكارلت، وكان ضوء الغاز الفظ يقع على وجهها الأبيض الحائر. جلست تنظر إلى العينين اللتين كانت تعرفهما جيداً - وتعرفهما قليلاً جداً - ثم راحت تصغي إلى صوته الهادئ ينطق بكلمات لم تكن تعني شيئاً في بادئ الأمر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إليها بهذا الأسلوب حديث إنسان لإنسان آخر، يتحدث كما كان يتحدث الناس الآخرون، من دون ثرثرة ومن دون سخرية أو أحاجٍ.

- «هل خطر لك يوماً أني كنت أحبك كثيراً، كثيراً بقدر ما يستطيع رجل أن يحب امرأة؟ أحبك منذ سنين قبل أن أظفر بك أخيراً؟ خلال الحرب، كان يمكن أن أسافر بعيداً وأحاول نسيانك ولكني لم أستطع وكان لا بد لي دائماً من أن أعود. وبعد الحرب، عرَّضت نفسي للأسر، فقط لأعود وأجدك. كنت أحفل بك كثيراً جداً بحيث إني أعتقد أنه كان يمكن أن أقتل فرانك كنيدي لو أنه لم يمت فعلاً. كنت أحبك ولكن لم يكن في وسعي أن أدعك تعرفين ذلك، فأنت قاسية جداً مع هؤلاء الذين يحبونك يا سكارلت. إنك تأخذين حبهم وتحملينه كسوط فوق رؤوسهم».

من بين ما نطق به، لم تفهم سكارلت شيئاً سوى حقيقة أنه كان يحبها. وبفعل صدى العاطفة الخافت في صوته، عاودها السرور والانفعال. وهكذا ظلت جالسة، تتنفس وتصغي وتنظر بصعوبة.

- «وكنت أعرف أنك لم تكوني تحبينني عندما تزوجتك. وكنت أعرف علاقتك بآشلي غير أني ظننت لغباوتي أن في وسعي أن أجعلك تحفلين بي. اضحكي إن شئت، ولكني كنت أريد أن أعتني بك، أن أدللك، أن أمنحك كل شيء ترغبين فيه. كنت أريد أن أتزوجك وأحميك وأطلق لك العنان في كل شيء يمكن أن يجعلك سعيدة - تماماً كما كنت أفعل مع بوني. ولكنك أبديت مقاومة يا سكارلت ولم يكن أحد يعرف أفضل من معرفتي ما كان يمكن أن تنزلقي إليه. وكنت أريدك أن تنقطعي عن الكفاح وتدعيني أكافح من أجلك. كنت أريدك أن تلعبي كطفلة - لأنك كنت طفلة، طفلة شجاعة مذعورة عنيدة. وأظن أنك ما زلت طفلة، فلا أحد سوى الطفلة يمكن أن يكون بمثل هذا العناد وعدم الإحساس».

كان صوته هادئا تعباً، ولكن كان هناك شيء في نوعه، شيء أثار شبحاً من ذكرى في سكارلت. كانت قد سمعت صوتاً كهذا مرة من

قبل، وفي إحدى أزمات حياتها. أين كان ذلك؟ صوت رجل يواجه نفسه ودنياه من دون إحساس، من دون إجفال، من دون أمل.

أجل... أجل... لقد كان ذلك هو صوت آشلي في البستان البارد العاصف في تارا، يتحدث عن الحياة والظل بهدوء تعب ويعكس من الحسم في نغمته أكثر مما يمكن أن تعكس أي مرارة يائسة. وتماماً، كما كان صوت آشلي آنئذ قد جعلها تبترِد بالرعب من أمور لم تستطع فهمها، كذلك جعل صوت ريت قلبها يهبط الآن. لقد أزعجها صوته وأسلوبه وجعلاها تتبين أن انفعالها السار منذ لحظات كان في غير أوانه. لقد أثرا فيها أكثر مما أثر الإقناع في كلماته. شيء ما كان خطأ، خطأ للغاية، أما ماذا كان ذلك الشيء فلم تكن تعرف. غير أنها كانت تصغي بيأس، وعيناها مصوبتان إلى وجهه الأسمر، آملة أن تسمع كلمات تبدد مخاوفها.

- «وكان من الواضح جداً أننا خلقنا بعضنا لبعض، كما كان من الواضح جداً أنني كنت الرجل الوحيد من بين معارفك الذي كان في وسعه أن يحبك بعد أن عرفك على حقيقتك - قاسية جشعة مستهترة، مثلي. لقد أحببتك فتزوجتك، معتقداً أن آشلي سيتلاشى من عقلك. ولكن» وهز كتفيه «لقد حاولت كل شيء كنت أعرفه فلم يُجدِ شيء نفعاً. ومع ذلك فقد أحببتك يا سكارلت. ولو أنك أتحت لي المجال فقط لكان يمكن أن أحبك برقّة وحنان يفوق حب أي رجل لامرأة. ولكن لم يمكن في وسعي أن أدعك تعرفين ذلك، لأني كنت أعرف أنك ستظنين أني ضعيف وتحاولين أن تستغلي حبي ضدي. ودائماً، دائماً كان هناك آشلي، الأمر الذي قادني إلى الجنون، فلم يكن في وسعي أن أضمّك بين ذراعي في الليل وأنا أعرف أنك... على كل حال، إن ذلك لا يؤثر الآن، وإني لأتساءل الآن، لماذا كان يؤلمني ذلك الذي قادني إلى بيل. إن هناك راحة بهيمية معينة في كون الرجل

مع امرأة تحبه تماماً وتحترمه لأنه سيد جميل حتى ولو كانت عاهرة أمية. لقد كان ذلك يلطف من غروري، ولم تكوني أنت يوماً ملطفة جداً له يا عزيزتي».

- «ها، ريت...» بدأت وهي تشعر بالبؤس من مجرد ذكر اسم بيل، إلا أنه أشار إليها أن تصمت وتابع حديثه:

- «وبعدئذ، وفي تلك الليلة عندما حملتك إلى الطابق العلوي - ظننت - أملت - أملت كثيراً جداً بحيث إني كنت خائفاً من أن أواجهك في الصباح التالي خشية أن أكتشف أنني كنت على خطأ في ما أملت وأنك لم تكوني تحبينني. كنت خائفاً جداً من أن تضحكي عليّ، ولذلك غادرت المنزل ورحت أشرب حتى سكرت. وعندما عدت، كنت أرتجف فرقاً. ولو أنك قطعت نصف الطريق لتلاقيني لو أنك أومأت إليّ بإشارة ما، لكنت قبَّلت قدميك على ما أظن، غير أنك لم تفعلي شيئاً من ذلك».

- «ها، ولكن يا ريت، كنت أريدك آنئذ إلا أنك كنت مقيتاً جداً! كنت أريدك وأعتقد... أجل لا بد أن يكون ذلك عندما عرفت للمرة الأولى أني كنت أحفل بك. أما آشلي... لم أعد سعيدة بعلاقتي بآشلي منذ ذلك الوقت، إلا أنك كنت مقيتاً جداً بحيث إني...».

- «ها، على كل حال» قال «إن الأمر يبدو كأننا كنا على هدفين متناقضين. أليس كذلك؟ بيد أن ذلك لا يؤثر الآن. وإني أخبرك بذلك كي لا تتساءلي عن الموضوع أبداً بعد الآن. عندما كنت مريضة وكان كل ذلك بسبب غلطتي، كنت أقف خارج بابك، آملاً أن تستدعيني ولكنك لم تفعلي، وعندئذ عرفت ما كان أغباني، وعرفت أن كل شيء قد انتهى».

وتوقف عن الكلام ونظر عبرها وإلى ما وراءها تماماً، كما كان

آشلي قد فعل مراراً، يرى شيئاً لم يكن في وسعها رؤيته، وهكذا لم تستطع الآن سوى التحديق بصمت في وجهه الساهم.

- «ولكن بعد ذلك ولدت بوني، ورأيت أن كل شيء لم ينته مع ذلك. كنت أرغب في أن أفكر أن بوني كانت أنت، فتاة صغيرة أيضاً، قبل أن تفعل الفاقة والحرب فعلهما فيك. لقد كانت عظيمة الشبه بك، شجاعة مرحة كثيراً، مفعمة بالمعنويات العالية، ووسعني أن أدللها فأفسدها - تماماً كما كنت أريد أن أدللك، ولكنها لم تكن مثلك، كانت تحبني وكان من نعمة اللّه عليّ أنني استطعت أن آخذ الحب الذي رفضته وأمنحه لها. . . وعندما قضت، أخذت معها كل شيء».

وفجأة شعرت بأنها حزينة من أجله، حزينة حزناً شديداً أزال غمّها وخوفها مما كان يمكن أن تعنيه كلماته. وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتها التي تشعر فيها بالحزن من أجل إنسان، دون أن يصحب الازدراء شعورها بالحزن. وذلك لأنها كانت المرة الأولى التي قاربت فيها فهم إنسان آخر. وكذلك استطاعت فهم انغلاقه الأريب، المماثل كثيراً لانغلاقها وكبريائه العنيدة التي منعته من الإقرار بحبه خشية الصد.

- «آه يا حبيبي» قالت وهي تقترب منه آملة أن يمد ذراعيه ويجذبها إلى ركبتيه «حبيبي إني آسفة جداً، ولكني سأعوّض لك عن كل ذلك! إن في وسعنا أن نكون سعيدين جداً الآن وقد عرفنا الحقيقة و. . . يا ريت. . . انظر إليَّ يا ريت! اسمع. . . في وسعنا أن ننجب أطفالاً آخرين. . . ليس كبوني ولكن. . . ».

- «أشكرك، لا» قال ريت كأنه كان يرفض قطعة خبز «لن أخاطر بقلبي مرة ثالثة».

- «ريت، لا تتفوّه بعبارات كهذه! آه، ماذا يمكنني أن أقول كي أجعلك تفهم؟ لقد أخبرتك كم أني آسفة. . . ».

- «إنما أنت طفلة يا حبيبتي، إنك تعتقدين أنك إذا قلت «إني آسفة» فإن جميع أخطاء السنين الماضية وإساءاتها يمكن أن تسوى، وتمحى من العقل، وأن جميع السم يمكن أن يُزال من الجراح القديمة. . . خذي منديلي يا سكارلت، لم أعرفك تحملين منديلاً في أية أزمة في حياتك».

فأخذت المنديل، ومخطت به، وجلست. وكان من الواضح أنه لم يكن ليأخذها بين ذراعيه، كما كان قد شرع يتضح أن كل حديثه عن حبه لها لم يكن يعني شيئاً وإنما كان قصة عن زمن مضى، وأنه كان ينظر إليه كأنه لم يكن قد حدث له، الأمر الذي كان فظيعاً. ثم نظر إليها بطريقة عطوفة تقريباً، والتأمل في عينيه.

- «كم عمرك يا عزيزتي؟ إنك لم تكوني لتخبريني أبداً».

- «ثمان وعشرون سنة» أجابت بكآبة وقد ستر المنديل وجهها.

- «ليس ذلك بالعمر المديد. إنه عمر فتي بحيث لا يسعك الظفر بالعالم كله وخسارة روحك، أليس كذلك؟ لا تبدي خائفة، فأنا لا أشير بذلك إلى نار الجحيم تصليك لعلاقتك بآشلي، بل إني أتحدث حديثاً مجازياً وحسب. منذ أن عرفتك وأنت تطلبين شيئين: آشلي، وأن تصبحي غنية إلى درجة تمكنك من أن تقولي للدنيا أن تذهب إلى الجحيم. حسناً، إنك الآن غنية لدرجة كافية كما أنك خاطبت الدنيا بكلمات حادة، وها قد حصلت على آشلي إذا كنت تريدينه. على أن ذلك كله لا يبدو كافياً لك الآن».

فأصابها الذعر، ولكن ليس من فكرة نار الجحيم. لقد غدت تفكر «ولكن ريت هو روحي وها إني أفقده، وإن أنا فقدته فلن يلذ لي أي شيء آخر! لا الأصدقاء ولا المال ولا. . . ولا أي شيء آخر. وإن أنا ظفرت به فقط، فلن أهتم حتى ولو غدوت فقيرة مرة ثانية. لا، لن

أهتم إن أنا ابتردت ثانية أو حتى جعت. بيد أنه لا يمكن أن يعني. . . ها، لا يمكن!».

ومسحت عينيها وقالت بيأس:

- «إذا كنت قد أحببتني هذا الحب العظيم في الماضي، فلا بد أن يكون قد بقي شيء لي!».

- «لقد بقي من كل ذلك شيئان، وهما اللذان تمقتينهما أشد المقت. . . الشفقة وشعور غريب من العطف».

«شفقة! عطف! آه يا الهي» فكرت بيأس. أي شيء إلا الشفقة والعطف، فقد كانت كلما شعرت بهاتين العاطفتين تجاه أي إنسان تجد أنهما تسيران متلازمتين مع الازدراء. أكان يزدريها أيضاً؟ إن أي شيء يمكن أن يكون أفضل من ذلك، حتى البرود الساخر الذي اتصف به أيام الحرب، وحتى الجنون المخمور الذي ساقه ليلة حملها على الدرج وأصابعه القاسية تكدم جسدها. أم أن الكلمات المتشدقة المزخرفة التي تبيَّنتها الآن كانت قد سترت حباً مريراً. أي شيء إلا هذا العطف غير الشخصي الذي كان مسطوراً على وجهه بوضوح تام.

- «إذن. . . إذن إنك تعني أني دمرت كل شيء. . . وأنك لم تعد تحبني؟».

- «إن ذلك صحيح».

- «ولكن» قالت بعناد كطفلة ما زالت تشعر بأن تقرير رغبة ما هو نيل لتلك الرغبة «ولكني أحبك!».

- «إن ذلك من سوء حظك».

فرفعت رأسها بسرعة لترى أن كانت هناك سخرية وراء هذه الكلمات، ولكن لم تكن هناك أي سخرية، إنما كان يقرر حقيقة وحسب، ولكنها كانت حقيقة ما زالت لا تصدقها. . . لا تستطيع تصديقها. ونظرت إليه بعينين مائلتين، عينين كانتا تتوقدان بعناد يائس

وقد بدا فكاها الصارمان فجأة خلال وجنتها الناعمة شبيهين بفكي جيرالد.

- «لا تكن أحمق يا ريت! إن في وسعي أن أعمل...».

فطوَّح يده في رعب ساخر، وارتفع حاجباه الأسودان في الشكل الهلالي التهكمي القديم:

- «لا تبدي بهذا التصميم الشديد يا سكارلت! إنك ترعبينني. إني أرى أنك تأملين انتقال عواطفك الجامحة من آشلي إليّ، وإني أخاف على حريتي وطمأنينة عقلي. لا يا سكارلت إني لن أُطارد كما طورد آشلي السيئ الحظ، هذا فضلاً عن أني ذاهب...».

فارتجف فكها قبل أن تضغط على أسنانها لتسكته، يذهب؟ لا، أي شيء إلا ذاك! كيف يمكن للحياة أن تستمر من دونه؟ لقد ذهب كل شخص ذي قيمة منها سوى ريت. لا يجب أن يذهب. ولكن كيف يسعها أن تمنعه؟ لقد كانت عاجزة أمام عقله الرصين وكلماته الخالية من أي اكتراث لها.

- «إني ذاهب، وقد كنت عزمت على أن أخبرك حين عودتك من ماريتا».

- «آنت هاجرني؟».

- «لا تكوني الزوجة الروائية المهملة يا سكارلت، فذلك الدور ليس بالدور اللائق. هل أعتقد إذن أنك لا تريدين الطلاق، حتى ولا الانفصال؟ حسناً، إذن سأتردد عليك بقدر يكفي لمنع لغط الناس».

- «ليلعن اللّه اللغط» قالت بحدة «إنه أنت الذي أريد خذني معك!».

- «لا» قال وفي صوته ما ينبئ بقرار حاسم. ولهنيهة كانت على وشك أن تنفجر دموعها انفجاراً عنيفاً كدموع الأطفال. كان يمكن أن تلقي بنفسها على الأرض وتلعن وتصرخ وتخبط بقدميها غير أن بقية من

كبرياء، من إدراك، ثبتتها ففكرت «إن أنا فعلت ذلك فإنه لن يزيد على أن يضحك أو ينظر إليّ فقط، لذلك ينبغي ألّا أصرخ، ينبغي ألّا أتوسل، ينبغي ألّا أفعل أي شيء كي لا أتعرض لازدرائه، ينبغي أن يحترمني حتى.. حتى إن لم يحبني».

ورفعت ذقنها واستطاعت أن تسأل بهدوء:

- «إلى أين أنت ذاهب؟».

وبدأ في عينيه بريق إعجاب خافت وهو يجيب:

- «ربما إلى إنكلترا... أو إلى باريس، ربما إلى شارلستون لأحاول أن أعقد صلحاً مع أهلي».

- «ولكنك تمقتهم! لقد سمعتك تضحك عليهم مراراً و...».

فهز كتفيه.

- «ما زلت أضحك... ولكني بلغت نهاية المطاف يا سكارلت. إني في الخامسة والأربعين من العمر، السن التي يبدأ الرجل فيها في تقدير بعض الأشياء التي كان قد ضرب بها عرض الحائط مستخفاً في شبابه: العصبية العائلية، الشرف والأمانة والجذور العميقة... لا، إني لا أتراجع، ولست نادماً على شيء فعلته، ولكني نعمت بوقت طيب طويل جداً... وقت مديد طويل بحيث إن بهجته بدأت تذوي، ولذلك فإني أريد الآن شيئاً آخر مختلفاً. لا، إني لا أقصد أبداً أن أتغير أكثر من تغير أهابي، غير أني أريد المظهر الخارجي للأمور التي اعتدت معرفتها: السأم التام من المكانة الاجتماعية والاحترام، احترام الآخرين يا مدللتي، وليس احترامي... والكرامة الهادئة التي في وسع الحياة أن تنالها عندما يحياها أناس لطيفون، السناء البهيج للأيام التي انقضت، الأيام التي عندما كنت أعيشها لم أكن أتبين سحرها البطيء...».

وثانية عادت سكارلت إلى بستان تارا العاصف، ورأت في عيني

ريت التعبير ذاته الذي كانت قد رأته في عيني آشلي ذلك اليوم. كانت كلمات آشلي جليّة في أذنيها، وكأنه هو الذي كان ينطق بها لا ريب، وعادت إليها أجزاء كلمات فنطقت كالببغاء:

- «لها سحر... كمال، تناسق كفنّ إغريقي...».

وقال ريت بحدة: «لماذا كنت تنطقين بذلك؟ إن ذلك هو ما كنت أعنيه».

- «لقد كان ذلك شيئاً... قاله آشلي فيما مضى، عن الأيام القديمة».

فهز كتفيه وغادر البريق عينيه:

- «دائماً آشلي» قال وصمت هنيهة. «سكارلت عندما تبلغين الخامسة والأربعين فربما ستعرفين عما أتحدث الآن، وعندئذ ربما تكونين أنت أيضاً تعبة من النبلاء المزيفين، والأساليب الرثة، والعواطف الرخيصة. غير أني أشك في ذلك، وأظن أنك ستكونين دائماً أكثر انجذاباً للبريق منك للذهب. وعلى كل حال، ليس في وسعي أن أنتظر كل هذه المدة لأرى النتيجة، كما ليست لدي الرغبة في الانتظار. إن القضية لا تهمني. إني ذاهب لأبحث في المدن والبلاد القديمة، حيث لا بد من أن يكون هناك شيء من الأوقات القديمة، شيء ما زال باقياً. إني ذلك الرجل العاطفي، وإن أتلانتا فجة كثيراً بالنسبة إليّ، جديدة كل الجدة».

- «اصمت» قالت فجأة، ولم تكن قد سمعت تقريباً شيئاً مما قاله، فمن الأكيد أن عقلها لم يستوعب كلمة، ولكنها عرفت أنه لم يعد في وسعها أن تحتمل بأي جلد، صوت حديثه، وقد انعدم منه أي حب.

وصمت هو، ونظر إليها باستهزاء.

- «على كل حال، لقد أدركت مقصدي، أليس كذلك؟» استوضح ونهض.

فقذفت بيديها إليه وراحتهما إلى الأعلى في إيماءة استعطافها القديمة جداً وبدا قلبها ثانية في وجهها.

- «لا» صاحت، «كل ما أعرفه هو أنك لا تحبني، وأنك ذاهب! آه يا حبيبي، إذا ذهبت فماذا أفعل؟».

وتردد هنيهة كأنه كان يناقش في نفسه ما إذا كانت الكذبة اللطيفة ألطف في النهاية من الصدق. ثم هز كتفيه:

- «سكارلت، لم أكن يوماً ذلك الإنسان الذي يلتقط بصبر الشظايا المكسرة ويلصقها معاً ليقول لنفسه إن الشيء الكامل المرمم نافع كالجديد. إن الذي كُسِر كُسِر... وإني أفضل أن أتذكره كما كان في أحسن حالاته من أن أرممه وأرى مواطن الكسر فيه ما دمتُ حياً. ربما لو كنت أصغر سناً...» وتنهد، «ولكني بلغت من العمر شأواً كبيراً بحيث لا يمكن أن أعتقد أن مظاهر الحنان هذه هي كألواح الاردواز الجلية وأبدأ من جديد. إني أكبر سناً من أن أستطيع حمل عبء كذبات دائمة ترافق الحياة في حالات التيقظ الأريب. وليس في وسعي أن أعيش معك وأكذب عليك، كما أني لا أستطيع حتماً أن أكذب على نفسي، بل إني لا أستطيع أن أكذب عليك الآن. إني أتمنى لو أستطيع أن أحفل بما تعملين، أو بالمكان الذي ستذهبين إليه، غير أني لا أستطيع».

وتنفس نفساً قصيراً وقال باستخفاف ولكن برفق:

- «عزيزتي، إني لا أعدك بكذبة».

* * *

وراقبته صامتة وهو يصعد الدرجات، شاعرة أنها كانت ستختنق من الألم في حنجرتها. ومع صوت وقع خطواته التي كانت تتلاشى في القاعة العليا، كان يتلاشى الشيء الأخير في الدنيا الذي كان يهمها وعرفت الآن أنه لم يكن يوجد أي التماس عاطفي أو منطقي في وسعه

أن يثني ذلك الدماغ الرصين عن قراره. كما عرفت الآن أنه كان يعني كل كلمة قالها، مع أن بعض تلك الكلمات كان قد قيل باستخفاف. لقد عرفت ذلك لأنها أحست فيه شيئاً قوياً لا يستسلم ولا يتسامح - كل الصفات التي كانت نشدتها في آشلي ولم تجدها أبداً.

لم تكن قد فهمت أي من الرجلين اللذين أحبتهما، ولذلك فقدتهما كليهما. وعرفت الآن معرفة مريبة أنها لو كانت قد فهمت آشلي لما أحبته، بينما لو كانت قد فهمت ريت لما فقدته. وتساءلت باستخذاء عما إذا كانت قد فهمت أي إنسان في الدنيا.

كان هناك تبلد رحيم في عقلها، تبلد كانت تعرف من الخبرة الطويلة أنه سرعان ما سيفتح الطريق لألم حاد، تماماً كما تنتاب أنسجة الأعضاء المبتورة بسكين من الطبيب الجراح لحظة قصيرة من انعدام الحس قبل أن تبدأ بإيلامها.

«لن أفكر في هذا الآن» هجست ببطء مبتهجة الوجه، مستدعية تعويذتها «سأجن إن أنا فكرت في فقده الآن، سأفكر في ذلك غداً».

«ولكن» صاح قلبها ملقياً بالتعويذة جانباً، وشارعاً في الإيلام، «ليس في وسعي أن أدعه يذهب! لا بد من أن تكون هناك وسيلة للاحتفاظ به!».

«لن أفكر في هذا الآن» قالت ثانية وبصوت مرتفع وهي تحاول أن تدفع بؤسها إلى مؤخرة عقلها، وتحاول أن تجد متراساً في وجه موجة الألم الصاعدة... «أجل سأذهب إلى تارا غداً». وارتفعت معنوياتها قليلاً.

كانت قد عادت إلى تارا فيما مضى، عادت إليها خائفة مهزومة، ولكنها برزت من بين جدرانها الواقية قوية مسلحة للظفر. والذي كانت قد فعلته فيما مضى بطريقة ما... أرجو يا اللّه، أن تستطيع فعله ثانية! أما كيف فعلت ذلك، فلم تكن تعرف، كما لم تكن ترغب في أن تفكر

في ذلك الآن. . . كل ما كانت تريده هو فسحة للتنفس، تستطيع خلالها أن تؤذي، مكاناً هادئا تتغلّب فيه على جراحها، ملجأ تنظم فيه حملتها. وفكرت في تارا، وبدا الأمر كأن يداً رقيقة باردة كانت تستولي على قلبها. واستطاعت أن ترى البيت الأبيض يشرق ترحيباً بها وسط أوراق الخريف المحمرة، كما استطاعت أن تشعر بسكون الغسق الريفي الهادئ، ينزل عليها كالبركات، وتحس بقطرات الندى تسقط على فدادين الشجيرات البيضاء ذات النجوم القطنية البيضاء، وترى لون الأرض الحمراء غير المحروثة، والجمال القاتم الموحش، جمال الصنوبرات على التلال المنحدرة.

وشعرت بقليل من العزاء والقوة بتأثير الصورة، وطرد بعض الألم والندم المهووس من قمة عقلها. ووقفت هنيهة تتذكر أشياء صغيرة: طريق أشجار الأرز الموصل إلى تارا، أحواض شجيرات الياسمين وهي خضراء زاهية مقابل الجدران البيضاء، والستائر البيضاء الموّاجة. أضف إلى ذلك أن مامي ستكون هناك. وفجأة أرادت مامي بيأس، كما كانت قد أرادتها عندما كانت فتاة صغيرة، أرادت الصدر الواسع لتضع عليه رأسها. أرادت اليد المتغضنة السوداء تعبث بشعرها. مامي، الرابطة الأخيرة مع الأيام القديمة.

وبروح أهلها الذين لم يكونوا ليعرفوا الهزيمة، حتى عندما كانت تقابلهم وجهاً لوجه، رفعت ذقنها. إن في وسعها أن تعيد ريت. لقد كانت تعرف أن في وسعها ذلك فلم يوجد يوماً رجل لم تستطع الظفر به إذا ما صممت على الظفر به.

«سأفكر في ذلك كله غداً في تارا، ففي وسعي احتماله عندئذ. غداً سأفكر في إحدى الوسائل لإعادته. وعلى كل حال، فإن غداً يوم آخر».

مارغريت ميتشل

ذهب مع الريح

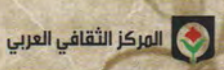
ذهب مع الريح هي الرواية الوحيدة لمارغريت ميتشل، ولكن يا لها من رواية!

منذ صدورها عام 1936، وحصولها على جائزة بوليتزر، تتصدر هذه القصة الرائعة لائحة الروايات الأكثر قراءة في العالم، وتُعتبر من روائع الأدب العالمي.

ترسم هذه الرواية لوحة تاريخية خالدة لمجتمع الجنوب الأميركي، وتأخذنا إلى قلب الحرب الأهلية الأميركية وما جلبته من مآسٍ وتحوّلات. ولكنها أيضاً قصة حب جمعت بين سكارلت أوهارا الثائرة وريت باتلر المغامر، وأدخلتهما إلى مصاف أشهَر العشاق في تاريخ الأدب العالمي.

إنها رواية ملهمة بامتياز، تعرِّفنا إلى مجموعة من الشخصيات القويّة والرافضة للاستسلام للقدر رغم الضربات والمفاجآت التي تخبئها الحياة للإنسان أحياناً. وتجسّد شخصية سكارلت أوهارا وحدها درساً في المقاومة والبقاء وحب الحياة، فهذه الفتاة الجذابة الثرية، غير المهيأة لتصدي مصاعب الحياة، استطاعت أن تجد في طبيعتها وفي حبها لأرضها القوة اللازمة لمواجهة الحرب والمجاعة، رافضة للانهزام، ومتشبثة رغم كل شيء بأمل في المستقبل، وفي الغد، لأن «غداً يوم آخر».

ISBN 978-9953-68-825-1



المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

تنمية